السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

أحداث ودلالات

قالت الظَّعينةُ: لا تَلاوَموا، فإِنِي رأَيتُ وجْهَ رجُلٍ لم يكُنْ لِيُخفِرَكم [يَخدَعُكم]، ما رأيتُ أَحدًا أَشبهَ بالقمرِ ليلةَ البدرِ مِن وجهِهِ

محمد السيد حسن

الجزء الثاني

السِّيرةُ النَّبويـــَّة

أحداث ودلالات

الشيخ

محمد السيد حسن محمد

الجزء الثاني

بطاقة الكتاب

اســـم الكتـــاب: السيرة النبوية (أحداث ودلالات – الجزء الثاني)

تــــــأليف: الشيخ محمد السيد حسن محمد

غـــــــلاف: عبد الله أحمد

تــدقيق لغــوي: الشيخ محمد السيد حسن محمد

تنســــــيق: منى الغريب

الطبعــــــة: الثانية

المقـــــاس: 24*17

رقـــم الإيـــداع: 27962 /2024

الترقيم الــدولي: 978-977-6937-96-2

للتواصل مع الكاتب haledsayed398@gmail.com

السيرة النبويـــة

أحــداث ودلالات

الجـــزء الثاني

الشيخ محمد السيد

الباب الأول

الفصل الثامن: أحداث السنة الثانية من الهجرة

وفيه مباحث:

المبحث الأول: مخيريق خير يهود

قال ابن إسحاق: وكان من حديث مخيريق، وكان حبرا عالما، وكان رجلا غنيا كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته، وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه، فلم يزل على ذلك، حتى إذا كان يوم أحد، وكان يوم أحد يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون إن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأحد، وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت هذا اليوم، فأموالي لمحمد صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما أراه الله، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني - يقول: مخيريق خير يهود. وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله، فعامة صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها[1] .

أخذ مخيريق يجاهد مع نبينا صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد شجاعا مستبسلا؛ نصرا لدين رآه حقا، وحين كان قومه يناصبونه عداء، ولا يرعوي، وكل

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٣٦٢

مسلم غيور هكذا.

إن قتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد يرى فيها ما أراه الله. هذا قول مخيريق. ولأنه يعلم أنه لا يرث كافر مسلما، كما أنه لا يرث مسلم كافرا.

وهذا استشراف الشهادة في أبلغ معانيها؛ ولأن هذا الدين له تبعة، وهذه رسالة إلى الباحثين عن الراحة، وليعلموا أن دينهم ذو تبعة، وعلى حد ما قال مخيريق قوله هذا!!

قاتل مخيريق مع نبينا صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد حتى استشهد. وهذه غاية كل مسلم؛ ولأن الشهادة وسام رفيع، لا تعدله أوسمة الناس كلهم، ولما كانت قلائد دنيا.

وهذا شرف قد ناله واستحقه مخيريق؛ ولأنه كان يوما قد استشرفه، فأتاه الله تعالى ما اشرأبت نفسه إليه.

مخيريق خير يهود: هذا قول نبينا صلى الله عليه وسلم، وإنه وحي، ولأنه يفيد أنه خيرهم، وإلى يوم الساعة، وهذا شرف تقلده واحد من البشر، ولأنه أخلص دينه لله.

إنه حين يطَّاول عنق أحد أفراد يهود! بل غير يهود! نقول له: رويدا!! فلقد سبقك بها مخيريق! وحين باع نفسه لله، وما ضعف وما استكان!

ولأن هذا الدين متين، غاية المتانة، فإنه ليس يصلح له، وفيه إلا ذووا العزائم الكبار، وإلا أصحاب النفوس العالية، وحين أخلصت قلوبهم لله.

المبحث الثاني: ظهور النفاق في المدينة

دبت بادرة نفاق إلى بعض الأنصار، ولعل فعل يهود فيهم قد أنتج ثمره المر، وحين تفلت زوى بن الحارث، وجلاس بن سويد بن الصامت الأنصاريان الأوسيان.

أولا: خبر جلاس بن سويد بن الصامت الأنصاريّ

أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك قال لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجلاس والله لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمير فسمعه عمير بن سعد فقال والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي وأحسنهم عندي أشرا وأعزهم على أن يدخل عليه شئ يكرهه ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن سكت عنها لتهلكني ولأحدهما أشد على من الأخرى فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال فأتى الجلاس فجعل يحلف بالله ما قال ولقد كذب على عمير فأنزل الله يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر الآية.[1].

كان من فعل جلاس بن سويد بن الصامت الأنصاري الأوسي، تخلفه عن غزوة تبوك، منضافا ما عبر عن ذات نفس دب إليها دبيب النفاق، وحين قال: لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمر!

أنكر سويد قوله: لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمر! ففضحه الله بقوله ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ

(1) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج ٣ / ٢٥٨

﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: 74].

مشكلة البشر، وحين يغيب عنهم التحدي القرآني، وأنه يفضح كل مناوئ، وعلى رؤوس الأشهاد، ومن داخل ذات قلبه بين جنبيه! وليعلموا أن الله قدير!

يبلغ انهزام المنافق مداه، وحين يفضح القرآن فعله، وليسطر تاريخا له، لا ينمحي بمرور الزمن، وحين أنزل فيه قرآن، كان محفوظا بحفظ منزله تعالى أبدا.

وهذا موجب خوف ورعدة، وسؤاله تعالى الثبات على الحق والخير والهدى.

إن من إعجاز قرآننا أنه دخل النفس إلى أعماق أعماقها، فشرحها تشريحا، لا تنبو منها خافية! ولأنه تعالى هو الخالق لها، فعلم سرها وعلانيتها، وجهرها وخفاءها.

أدرك جلاس أنه لا محالة، وحين فضح القرآن سره. فقيل إنه تاب وأناب! وهذا من أثر فعل القرآن؛ ولأنه يزلزل نفسا خبأت ما ظنها أنه خافية، وليست بخافية!

إن قوله تعالى ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قاعدة عامة في كل من اشرأبت نفسه إلى نفاق من بعد إيمان، وليتق الله ربه!

بلغ من أدب القرآن، أنه جاء بقواعد عامة، وإن كان أسبابها أشخاصا معروفين، ولأنه ينزه عن شخصنة؛ ليكون كتابا منسحبا على ما سائر ما مضى، وليكون أمرا مقضيا على كل ما هو آت.

ثانيا: ردة الحارث بن سويد

فعل الحارث بن سويد ردةً، لينزل فيه قوله تعالى ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: 88].

أمر نبينا صلى الله عليه وسلم عمر الفاروق بقتل الحارث بن سويد إن هو ظفر به؛ ولردته.

وفيه جواز قتل المرتد، ولأنه صلى الله عليه وسلم قال: من بدل دينه فاقتلوه.

فعن عبد الله بن عباس، أن عليا رضي الله عنه حرق قوما، فبلغ ابن عباس، فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تعذبوا بعذاب الله، ولقتلتهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: من بدل دينه فاقتلوه [1].

ولأنه من التزم قبل بالإسلام، فإنه يلتزم به بعد.

(1) صحيح البخاري: 3017

وإلا أنه تاب وأناب، ومن بعد سماعه قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 89].

حين بُشِّر الحارث بن سويد بتوبته تعالى على من أناب، وحينها أناب قال: إنك والله ما علمتُ لصدوق، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك وإن الله عز وجل لأصدق الصادقين [1]. فأسلم فحسن إسلامه، وهذا أثر البشرى عظيم. باعثة على الأوبة وحاثة على التوبة.

وذكروا أن الحارث بن سويد هذا هو الذي سأل عن إمكان توبته تعالى عليه إن هو رجع وتاب وأناب.

فعن عبد الله بن عباس كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم تندم فأرسل إلى قومه سلوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة فجاء قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إن فلانا قد ندم وإنه أمرنا أن نسألك هل له من توبة فنزلت كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم إلى قوله غفور رحيم فأرسل إليه فأسلم[2].

وذكر الإمام العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، أن هذا الرجل الوارد في الحديث هو سويد بن الصامت هذا.

فعن مجاهد قال: جاء الحارث بن سويد فأسلم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه فأنزل الله فيه " كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم - إلى قوله - غفور رحيم ". قال: فحملها إليه رجل من قومه

---

(1) أسد الغابة، ابن الأثير: 210/1

(2) صحيح النسائي، الألباني: 4079

فقرأ عليه فقال الحارث: إنك - والله ما علمت - لصدوق وإن رسول الله لأصدق منك وإن الله لأصدق الثلاثة قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه.[1] إلا أنهم اختلفوا في المقصود بسويد ابن الصامت هذا، وهل هو سويد ابن الصامت التيمي، أم هو الحارث بن سويد بن الصامت، أخو الجلاس. فقد ذكر بعض العلماء أن الحارث بن سويد التيمي تابعي، من أصحاب ابن مسعود، لا تصح له صحبة ولا رؤية؛ قاله البخاري ومسلم، وقال: إن الذي ارتد ثم أسلم: الحارث بن سود بن الصامت[2].

ثالثا: كفر نبتل بن الحارث

قال الله تعالى ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 61].

قال الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى: إن رجلا من المنافقين يقال له: نبتل بن الحارث، كان ينم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن، من حدثه شيئا صدقه، نقول ما شئنا، ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا، فنزلت هذه الآية[3].

وحينها قال نبينا صلى الله عليه وسلم في نبتل بن الحارث: من أحب أن ينظر إلى شيطان فلينظر إلى هذا! وهذا تصوير شنيع بشع، تنفر منه نفوس خيرة، قبل نفرة قلوب مؤمنة.

---

(1) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ١ / ٣٨٨
(2) أسد الغابة، ابن الأثير: 210/1
(3) زاد المسير، ابن الجوزي، ج ٣ / ٣١٢

وكان نبتل رجلا جسيما ثائر شعر الرأس واللحية، آدم أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: **(من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث)** [1].

وفيه جواز إطلاق اسم الشيطان على من تلبس بصفاته عدوانا وظلما! وليبقى أثرا تنفر النفوس من كل متصف به.

وإنما كان هذا قول نبينا صلى الله عليه وسلم في حق نبتل بن الحارث، ولأنه قال: إنما محمد أذن، من حدثه بشيء صدقه.

كان على نبتل بن الحارث أن ينظر بلاغة نبينا صلى الله عليه وسلم، وبلاغة وإعجاز ما جاء به، وهو هذا القرآن العظيم الكريم، ولعله أن يهتدي، بدل أن يهذي، ومن ثم يلطمه هذا القرآن هكذا لطما موجعا، وكما قد لطم غيره من قبل، ومن بعد أيضا!

تبلغ الخصومة في قوم حتى يفقدوا توازنهم بها، فلاهم يعرفون معها معروفا، ولاهم ينكرون معها منكرا، وهذا سلوك خارج عن بساط البحث والمدارسة!

كان وصف نبينا صلى الله عليه وسلم لنبتل بن الحارث أنه شيطان؛ ولأنه آذى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، ولا يليق أن يتصدر أحدهم إيذاء خلقه تعالى؛ ولأن ذلك خارج عن أمارات المروءة.

---

(1) تفسير القرطبي: ج ٨ / ١٩٢

حين آذى نبتل بن الحارث نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، لم يلبث القرآن إلا أن صفعه بقوله تعالى ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾. وهذه أربع صفات حسنة لنبي آلوا إلا إيذاءه! وما بالنا ولو لم يكن متصفا بهذا أو بعضه، وماذا كان افتئاتهم يومئذ؟!

رابعا: حديث ضعيف ورد في خبر عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري

قال الله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: 75].

عن أبي أمامة الباهلي قال «جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا. قال: ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا. قال: ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا. قال: ويحك يا ثعلبة أما تحب أن تكون مثلي؟! فلو شئت أن يسير ربي هذه الجبال معي ذهبا لسارت. قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالا، فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه. قال: ويحك يا ثعلبة، قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيق شكره. فقال: يا رسول الله ادع الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزقه مالا، فاتخذ أو اشترى غنما، فبورك له فيها ونمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة، فتنحى بها، فكان يشهد الصلاة

بالنهار مع رسول الله ﷺ ولا يشهدها بالليل، ثم نمت كما ينمو الدود، فتنحى بها، فكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ﷺ، ثم نمت كما ينمو الدود فضاق به مكانه فتنحى به فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله ﷺ فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار، وفقده رسول الله ﷺ فسأل عنه فأخبروه أنه اشترى غنما وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره، فقال رسول الله ﷺ: ويح ثعلبة بن حاطب. ثم إن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يأخذ الصدقات، وأنزل الله عز وجل: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ [التوبة: ١٠٣] فبعث رسول الله ﷺ رجلين؛ رجلا من جهينة ورجلا من بني سلمة» يأخذان الصدقة وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها على وجوهها وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب وبرجل من بني سليم فخرجا فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة، فقال: أرياني كتابكما فنظر فيه فقال: ما هذا إلا جزية انطلقا حتى تفرغا ثم مرا بي، قال: فانطلقا وسمع بهما السلمي فاستقبلهما بخيار إبله فقالا: إنما عليك دون هذا، فقال: ما كنت أتقرب إلى الله إلا بخير مالي فقبلا فلما فرغا مرا بثعلبة فقال: أرياني كتابكما، فنظر فيه فقال: ما هذا إلا جزية، انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى قدما المدينة فلما رآهما رسول الله ﷺ قال قبل أن يكلمهما: ويح ثعلبة بن حاطب، ودعا للسلمي بالبركة وأنزل الله ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ الثلاث آيات، قال: فسمع بعض من أقارب ثعلبة فأتى ثعلبة فقال: ويحك يا ثعلبة، أنزل الله فيك كذا وكذا، قال: فقدم ثعلبة على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي، فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد منعني أن أقبل منك، قال: فجعل يبكي ويحثي التراب على رأسه فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك بنفسك أمرتك فلم تطعني، فلم يقبل منه رسول

الله ﷺ حتى مضى، ثم أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر اقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الأنصار، فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله ﷺ وأقبلها! فلم يقبلها أبو بكر، ثم ولي عمر بن الخطاب فأتاه فقال: يا أبا حفص يا أمير المؤمنين اقبل مني صدقتي، وتثقل إليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبي ﷺ، فقال عمر: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر أقبلها أنا! فأبى أن يقبلها، ثم ولي عثمان فهلك في خلافة عثمان وفيه نزلت: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ [التوبة: ٧٩] قال: وذلك في الصدقة [1].

المبحث الثالث: بلوغ الآفاق في هتك أستار النفاق

النفاق كيد، ولؤم، وخسار، وبوار.

ولهذا جاء هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد هاتكا أستاره، وكاشفا عواره، وهادما أسواره، ومبينا عن شخوصه وسماتهم، وليس ذكرا لأسمائهم؛ وكيما لا يوقف على السبب لهذا النزول أو ذاك؛ ولأن هكذا داء ليس يخلو منه صف يوما، ولأنه كان من تبعة هذا الدين أنه عمل دؤوب، وفعل رشيد، وهمم عالية، وقمم سامية.

ولكن هذا القرآن العظيم، وحين يكشف سر أولئك المنافقين ونجواهم، وصفا، وإنما كان ذلك من سببين:

(1) إسناده ضعيف في تخريج الاحياء 3/ 334

وأما أولاهما: وكيما يترك لهم الفرصة السانحة للأوبة والتوبة، ويكأن هذا مما يحسب لهذا الدين، وإذ لم يغلق أبواب توبته يوما، وعن شرير، ومهما كان شره، وأيما بلغ بطره.

وأما ثانيهما: وكيما يحذر العقلاء ضرره، ويجانب الحذاق شره.

* * *

وبين أيدينا وقفتان، كان زعيما فيهما هذا الدعي معتب بن قشير. ولا شك أنه ليس كان وحده يومه ذاك، ولكنه شارة على الزعامة الباطلة، والريادة العاطلة، والسيرة الزاكمة!

ولعل الملفت في الأمر أن بين الوقعتين سنتين عددا! وحين جاءت الأولى يوم أحد، وحين كان زعيم النفاق فيها هذا الدعي عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه وأذنابه، وقد كانت في السنة الثالثة لهجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كانت الثانية يوم الأحزاب، يوم الخندق، في السنة الخامسة، ومن هذه الهجرة النبوية المباركة، يوم تجشم بفكرته، وبادرته، وإبداعه، وابتكاره، واختراعه، هذا سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه، وحين قد هداه مولاه، وربط على قلبه؛ وليكون وأمثاله حجة على أمثال معتب وأمثاله أيضا.

وهذا الفارق الزمني بين الوقعتين، ولعله كان كافيا؛ كيما يراجع، ويتراجع هذا معتب بن قشير، ومن شاكله، فعلا ذميما، ونفاقا دميما، ولا سيما هذا الصبر القرآني الفريد، على أصحاب المعاصي؛ وريثما يتدبرون من أمرهم، ولعلهم يتوبون، ويرجعون، ويؤوبون!

ولكنك وماذا أنت قائل، وأمام هذه قلوب اعتصرها النفاق عصرا، وآلمها داؤه، ووباله، وخساره، ورينه ألما، وإذ ليسوا يفقهون، ولا يهتدون سبيلا؟!

وأتناوله في مسألتين اثنتين:

المسألة الأولى: في بيان قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154].

عن الزبير بن العوام: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا فحفظتها منه وفي ذلك أنزل الله: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا لقول معتب[1].

ويكأنك تلحظ وكم كان الإيمان، ومن هذه السلاسة، واليسر، والسهولة! وأوقفك على ذلك ما مساحة تناوله كانت أقصر، ومن هذه الآية التي بين أيدينا، ومن مقدمات سورة البقرة، وحين عالج القرآن الحكيم شأن المنافقين في عديد

(1) عمدة التفسير، أحمد شاكر: 428/1. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

من آياتها ابتدائها، وحين عالج الإيمان وصلابته ويسره ومن أربع آيات محكمات متتاليات، هن الأربعة الأولى، من هذه السورة البركة، وحين كان تركها حسرة!

وحين كان ختم ذكرهم عطرا، وطيبا، ومسكا، وحين قال تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الْبَقَرَةِ: 5].

ولكن هذا الكفر؛ ولظهوره أيضا، كان قد اشتملته السورة في آيتين اثنتين هما: الآيتان السادسة والسابعة.

ولكن هذا النفاق قد استغرق منها ثلاث عشرة آية كاملة! ومن الآية الثامنة وإلى الآية العشرين من هذه السورة البركة، وحين أخذها، وإنها لحسرة، وحين تركها؛ ولما أنف من زكمه، ولما سبق من شينه، وكيره، وشرره، وخطره!

وهنا آيتنا محل البيان، ولما كانت آية واحدة! وحين أطرت ذكر المؤمنين الصابرين، ذكرا حسنا، وفي مجرد لفتة قرآنية حانية، ولكنها حملت من معاني إيمانهم وصدقهم مبلغا حسنا أيضا. ومن قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: 154].

ولكن هذا الآية، وقد استغرقت من جلها، شأن هذا الصنف النكد، فناسب أن يعيد فيه القرآن الذكر الحكيم، ويكرر، ويفصل، ويبين؛ نكاية، وتحذيرا، واستجاشة للتوبة أيضا!

وهذا من طلاقات هذا الدين، وقرآنه، وبيانه، وحين فتح أبواب التوبة على مصراعيها؛ ولأنه يريد أن يشمل الناس جميعا بخيره، وهداه، وسناه.

ولكنه، وماذا يفعل هذا الدين، وحين التأبي، وحين الاستكبار، وحين النفاق، والقصد له، والإصرار عليه؟!

كان من فعل معتب بن قشير، وحين كفر من بعد إيمانه، أنه قال يوم أحد ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: 154]. وهذا تصفية للصف من مرجفيه!

نزل قوله ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ على قول معتب بن قشير، برهانا أنه سيشهد عليه لسانه يوم القيامة بمثل قوله تماما!

إن نزول القرآن بمثل قول معتب بن قشير تماما، برهان على تعويد اللسان على قول الحق؛ لأنه سيقول نفس قوله يوم القيامة، يوم يقوم الأشهاد! ولأنه الله تعالى قال ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24]. ولأنه تعالى قال أيضا ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: 29].

قال الزبير فو الله إني لأسمع قول معتب بن قشير، ما أسمعه إلا كالحلم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ فحفظتها منه! وهذا شاهد آخر!

جاء قول معتب بن قشير ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ مرة، وجاء ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ مرة أخرى، برهانا على زلزلة قلوب أماط البلاء عنها ركامها ونفاقها!

ليس تكرارا قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ قبل قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾؛ لأن الأولى نبأت أنه ليس ولو

بعضا من أبعاضه لنفس أبدا! ولأن الثانية نبأت أنه ليس ولو أمرا واحدا لنفس أبدا! وهذه من تفردات قرآننا!

جاء قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ بيانا أن هذا هو ظن الجاهلية، وليس بعضا منه، وكناية عن تأصل الكفر من قلوبهم، وإنباء على أن هكذا ظن، وإنما هو ظن الجاهلية؛ ولأنه الله تعالى له مطلق الإرادة، وله سبحانه مطلق الاختيار أيضا، وإن الإيمان بذلك هو مطلق التسليم والانقياد لله تعالى أيضا.

جاء قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: 68]. وكرد صاعق على من نافق فقال ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ وذلك لأنه ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ تسليما ومحبة وانقيادا.

إن قول معتب بن قشير ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، منبئٌ جهلا، وكاشفٌ عوارا! ذلك لأنه عميت بصيرته عن فضل الشهادة، ولوكان أهلا لها.

إن من خيرته تعالى أن يقول معتب ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾: لأنه قال ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾: وحرم قول: استشهدنا، ولما حرم لفظها فحرمها!

ولأنه كل شهادة قتل، وليس كل قتل شهادة!

وهذه من لفتات الكتاب العزيز، وهذه من تفننات الذكر الحكيم، وهذه من بلاغة القرآن، وهذا من إعجاز الفرقان.

وسواء قالوا ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، أو قالوا ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾؛ فقد حسمه ربنا تعالى بقوله ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، وبه قضي الأمر!

قد أنبأك أن قوما لايحسنون بالله ظنا حسنا، بل أساؤوا ظنا بالله تعالى ربهم الحق! وحين قالوا ولوا أنه كان لهم من الأمر شيء، ولأنه تعالى لم يجعل لنبيه صلى الله عليه وسلم من الأمر من شيء، فما بال غيره؟!

وقال الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: 128].

جاء قوله تعالى ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: 40]. حاسما في نفي أن يكون لأحد من الأمر شيء، فضلا عن أن يكون نبيا رسولا! فكيف راحوا أو كيف راح بهم ظنهم بربهم هكذا؟!

جاء قوله تعالى ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 272]. نفيا أن الهدى يملكه أحد، فضلا عن أن يكون نبيا رسولا، فما بال غيره؟!

كان قولهم ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، وقد أنساهم أن ذلك هو ظن الجاهلية، الذي جاء الإسلام أول ما جاء ليطهر قلوب المؤمنين منه.

وبكأن ظن الجاهلية هذا هو غير الحق! وهذا أمر طبعي فطري جبلي! ولكن النص عليه جاء وصفا نكدا لأصحابه، وجاء نعتا زاكما لأربابه!

ويكأن العلاقة بين هكذا ظن الجاهلية، وهكذا قولهم ليس لنا من الأمر شيء، هي علاقة بين بدل ومبدل منه!

وهذا سر بلاغي! يغمض العبد طرفه عليه، ويفتحه؛ ليكون بين هالات، لا هالة واحدة، من هذا التراكم، الهائل، الجسيم، ومن هذا التراكب، الجلل، العظيم، من هذا الظن السيء بالله تعالى، ومن طائفة بلغ من شينها ما قد رأيت!

إن الله تعالى ربنا الرحمن، وإذ قد كان للوجود خالقا، وكفى به! وإذ كان منه موجب الظن الحسن به تعالى، وها هو قد أبدع صنعا، وها هو قد أحسن خلقا!

ولكنك، وماذا أنت قائل، وأمام هذه القرائح النكدة؟! وحين لم تر إلا من ثقبها الأسود الضغين!

وحين حكى القرآن طرفا من هذه النعوت الخائبة، ولما تنكرت لذي الفضل؛ من جحود، وحين أيست أمام الحقيقة الدامغة؛ ومن نكران!

وحين قال الله تعالى مولانا الحق المبين سبحانه ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: 83].

إنهم حين قالوا في أنفسهم قولهم هذا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، ظنا سوءًا منهم، أنه لم يصل خبره، ولم يعلم نبأه، نبينا صلى الله عليه وسلم؛ جهلا وعماية، لكنه تعالى أطلعه عليه، ولما تحلم به الزبير أيضا!

المسألة الثانية: قال الله تعالى ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

أخرج الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، قال: ثني أبي، عن أبيه، قال: خط رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق عام ذكرت الأحزاب، من أحمر الشيخين، طرف بني حارثة، حتى بلغ المذاد، ثم جعل أربعين ذراعا بين كل عشرة، فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، وكان رجلا قويا، فقال الأنصار: سلمان منا، وقال المهاجرون: سلمان منا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: سلمان منا أهل البيت. قال عمرو بن عوف: فكنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان والنعمان بن مقرن المزني، وستة من الأنصار، في أربعين ذراعا، فحفرنا تحت دوبار حتى بلغنا الصرى، أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مروة، فكسرت حديدنا، وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان، ارق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره خبر هذه الصخرة، فإما أن نعدل عنها، فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيها بأمره، فإنا لا نحب أن نجاوز خطه. فرقي سلمان حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ضارب عليه قبة تركية، فقال:

يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا، خرجت صخرة بيضاء من بطن الخندق، مروة، فكسرت حديدنا، وشقت علينا، حتى ما يجئ منها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمرك، فإنا لا نحب أن نجاوز خطك. فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمان في الخندق، ورقينا نحن التسعة على شفة الخندق، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها، يعني: لابتي المدينة، حتى لكأن مصباحا في جوف

بيت مظلم، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح، وكبر المسلمون. ثم ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثانية، فصدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها، حتى لكأن مصباحا في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح، وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثالثة، فكسرها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها، حتى لكأن مصباحا في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح، ثم أخذ بيد سلمان فرقي، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد رأيت شيئا ما رأيته قط، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوم، فقال: هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا: نعم يا رسول الله، بأبينا أنت وأمنا وقد رأيناك تضرب، فيخرج برق كالموج، فرأيناك تكبر فنكبر، ولا نرى شيئا غير ذلك، قال: صدقتم. ضربت ضربتي الأولى، فبرق الذي رأيتم، أضاء لي منه قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبرائيل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية، فبرق الذي رأيتم، أضاء لي منه قصور الحمر من أرض الروم، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرائيل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثالثة، وبرق منها الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور صنعاء، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرائيل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا، يبلغهم النصر، وأبشروا، يبلغهم النصر، وأبشروا يبلغهم النصر. فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعود صدق، بأن وعدنا النصر بعد الحصر، فطبقت الأحزاب، فقال المسلمون هذا ما وعدنا الله ورسوله... الآية، وقال المنافقون: ألا تعجبون.؟ يحدثكم ويمنيكم ويعدكم الباطل، يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم تحفرون الخندق من الفرق، ولا

تستطيعون أن تبرزوا؟ وأنزل القرآن: وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا [1].

قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

هذا قول معتب بن قشير، وقد نزل على مثل قوله قرآنا يتلى إلى يوم القيامة؛ ليعلم كم نفرا كان بينهم وبين نور الهدى بون شاسع هكذا!!

ولأنه قال: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا ها هنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا. وهذا قول أناس لا يوقنون، وهو قول من لا يؤمنون بربهم الحق. وإذ عن هذا ليمثل علامة فارقة وعلى ان الإيمان لم يخاط بشاشة قلوبهم بعد؛ ولأن قوما كانوا يسلمون، ومن ظاهرهم؛ ولاعتبارات شتى، وإذ يأتي اليوم الذي فيه يكشفون عما تكنه صدورهم، ومن قولهم هم؛ وليبقى أثرا محفورا في ذاكرة التاريخ أبدا!!

وهذا من قوله تعالى أيضا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118].

وإذ كانت هذه مقدمات كفر بالله تعالى، أفضت بأصحابها إلى منكر من القول وزورا، وحين أساء أولاء قوم أدبهم مع ربهم الحق. وهو ما يجعل أحدنا عاضا على نواجذ الأدب الجم مع ربه تعالى؛ لأن سوء ذلكم الأدب مفض ولا ريب إلى ما أفضى بأولاء قوم نافقوا!!

---

(1) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢١ / ١٦١

ولأنك شاهدت كيف قال أولاء قولا؟ وكيف أساؤوا ظنا بالله تعالى؟!

وحين كان من شأنهم أنهم كذبوا خبر نبيهم صلى الله عليه وسلم في فتح فارس والروم، وكيف كان حصارهم الذي لم يقووا عليه؟! وهو ابتلاء حاصل في كل ما من شأنه أن يسمى معارك ومجابهات، وإن ذلك ليس كان خافيا على قوم عاشوا حياتهم حروبا طاحنة بينهم البين، ولكنه إذا جاءهم من صوب الإيمان جحدوا، وإذا دخل عليهم من جهة تحقيق اليقين رموا بألفاظ تكشف أول ما تكشف عن نفوس هزيلة، لا تصلح للصف، وقد كان من شأنهم أن يظهروا، وليلفظهم الصف أول مرة، فإن شأن الجهاد والقتال ليس يصلح له إلا من كان صافيا في عقيدته، وإلا من كان موقنا في إيمانه، وإلا من كان باذلا مهجه رخيصة في سبيل الله تعالى مولاه الحق المبين.

وأنت إذ تتلمس أمرا عجبا! وذلك حين كان الناس منافقين، وحين كان الناس في قلوبهم مرض، وذلك لأن نفاقا ليس يكون إلا إذا كان مفرزا عن مرض! وليكون دلالة على تمكنه من قلوب أصحابه، فيفقدهم توازنهم أمام قوافل الإيمان والتقوى، والتي بدورها تمثل قوة كاسحة لألغام النفاق وأوكاره حيثما وجدت.

وعلاقة قائمة بين نفاق تأصل، وبين مرض تحصل! ذلك لأنه من مسلمة أن ينجز نفاق مرضا؛ ليكون دلالة على وجوده، وليكون عنوانا على تخلله، مما أنتج مرا صبرا علقما، هو ذاك المرض الذي يفعل بأصحابه الأفاعيل، فيفقدهم صوابهم، ويجعلهم ميدانا واسعا لظن غير حسن برسول الله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فضلا عن الله تعالى مولاهم الحق المبين سبحانه.

وإذ ماذا تبقى لهم من رصيد يشي بأن القوم بقيت لهم بقية تحسم موقفهم، وعما إذا كانوا إلى أهل الحق والإيمان والإحسان، وإلى صفوفهم، وهم عنه أبعد! أم كانوا إلى سواهم وهم إليه أقرب، وإنما كان ذلك بصنيعهم، ودلالات قولهم، الذي أنتج فعلا دلك عليه!

ولئن قيل: وكيف كانوا منافقين، وهاهم أولاء تراهم في صف المؤمنين؟ ويسعفك أن دلالات أقوالهم إنما أبانت عن كم دفين من النفاق كان يملأ أفئدتهم، وكفى بذلك دلالة على ما تحمله قلوبهم، من كيل نفاق أثقل كواهلهم، حتى كان من ثقله إفرازه لذلكم قول، وحين قالوا ما سلف قولا إنه: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا هاهنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا. وهو ما نزل القرآن الكريم كاشفا عن مكنون ما تكنه صدورهم من نفاق أفرز مرضا، كان دليله قولا قالوه، وليس ادعاء منا نرميهم به!

صحيح إنه كان من نفاقهم مرض قد استوطن قلوبهم، وكان من دلالاته أقوالهم، ولكنه يبقى أن القرآن قد غاص في قلوبهم أعماقها، حتى كشف عن مكنونها كله، وهو من إعجازه المعهود عنه، في طلة من طلاته العجيبة! وحين يوقفنا حينا من بعد حين آخر، على ما اكتنف هذه القلوب التي ما فتئ أهلها إلا أن يفرزوا قولا، فينة من بعد فينة أخرى، تنبئنا عن أسرارها، وأن ما تخفي صدورهم كان أكبر، وهو موقف آخر من مواقف القرآن العظيم؛ ليبين لنا كم كانت هذه القلوب حاملة لأوزارا! وكم كانت هذه الأفئدة ذات أوكار، لفساد، مستحكم، كان النفاق زعيمه، وكان مرضه دليله؟!

وحين يصل بلسان امرئ فضلا عن قلبه أن يرمي الله تعالى ربه بهكذا ألفاظ يند وصفا خروجا بها عن دائرة المعقول أو المفهوم أو عمل القرائح السوية، فإنك حينئذ لينفك عنك عجبك، وإذ قد رأيت ما رأيت، وإذ قد سمعت ما سمعت! وذلك لأنهم جعلوا قيمة الربوبية محلا لقيل لئيم، وذلك لأنهم حطوا رحال سوءاتهم أمام مقام النبوة الكريم، فكان منهم ما كان، وحين قالوا قولهم هذا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾!

بيد أن إعجازا بليغا، وحين لم يذكروا بأسمائهم، وحينها فلعل قائلا سيقول: هؤلاء الذين كانوا! وليس مقصودا بها سواهم! وهذه من طلاقات الكتاب العظيم أن يأتي أوصافا؛ لتكون محلا لتنزيل الآي الكريم عليها، ولما توافرت شروطها، ولما كان في الوجود أمثالها قيلا وفعلا أبدا!

ولأن هذا الكتاب هو كتاب الكون المفتوح، ومذ أن نزل، وإلى أن يمحوه منزله تعالى من الصدور، قدرا مقدورا!

وأنبأك عن لئيم قول، وأخبرك عن سوء صنيع أنهم قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، هكذا في إعلان عام، وتشوبه رائحة نفاقهم الزاكمة، أن نبينا محمدا عبدَ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ليس يكون إلا رسولا لربه تعالى، وبالتالي فهم خارج التكليف، ولأن صياغتهم محشوة حشوا بإعلان التفلت من الأحكام، ولأن طويتهم وحين قالوا ذلك، فإنما هم يعلنون تفلتهم هذا من الاتباع.

وهذا فضح آخر؛ لأنهم وحين يخلون فماذا هم فاعلون أمام هذه التبعات الملقاة على كل مؤمن، كان الأصل فيه أنه يراقب ربه تعالى، في جميع حركاته، وفي كل سكناته، وأما هم فلقد جاء قولهم منبئا عما تكنه صدورهم، نحو الاعتراف، ونحو التكليف أيضا!

وهكذا في أسلوب فج يقولون: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو إسفاف قول، ينبئ عن خلو قلب عن بقية من إيمان، يمكنها أن تصلح هكذا اعوجاجا، لم يرد لمثله ذكر إلا عن أمثال أولاء قوم لا يؤمنون! أو عن شئت فقل: ولو من باب ذر للرماد في العيون!

والمنافقون هم الذين في قلوبهم مرض! وهم لحمة واحدة! لكن مجيء حرف الواو العاطفة ههنا؛ كناية عن تركيب أنبأك عنه الكتاب المجيد، ويكأنهم ولما قد طفح كيل قلوبهم من غل، حتى كان منه، وكأنما قد انقسموا قسمين:

قسم أول: وهؤلاء هم المنافقون.

وقسم ثان آخر: وهؤلاء هم الذين في قلوبهم مرض.

هكذا في تشريح رباني معجز، مبينا لحقيقة أولاء قوم، ويكأنهم يحملون في قلوبهم عنتا، ما الله تعالى كان به عليما!

وإن قوما لا يذكرون لآخرين إلا مواقف السلب، وإن هم وحالهم هذا، إلا بعدت عنهم النجعة، ولما قد أبعدوا هم النجعة! وحين لا يتلصصون إلا الصغائر، وها هي الصفحات ملأى بما يفيض عنهم، وعن غيرهم غطاء ومنا، وإن عيونا ضيقة هي تلك التي تنظر من غربال ضيقة ثقوبه!

لكن نفوسا أمهرها نبيل الإنصاف، وأزكاها جليل الاعتراف، وإن هي ما ترى إلا جميلا، وإن هي إلا غاضة طرفا عما لا يمكنها تأويله؛ تسليما لله تعالى ربها الحق، وحين كان شأنه تعالى أنه يعلم، وحين كان شأنها هذه النفوس، وأنها وإذ لا تعلم إلا من أسافل أقدامها، أو أقل من ذلك!

وإذ كان من دلائل إنصاف حُرِمَتْهُ تيكم نفوس أنها وكان يمكنها أن تقف مشدوهة وحسب، وحين لم تدرك علة، وحين لم يسعفها تأويل حسن عما جرى

في كونه تعالى، وحسبها حينئذ أنها تقول ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7].

ولقد كانت بذلكم مسعى يمكنها أن تدور في فلك البر والهدى والصلاح، بدل أن تفتري على الله تعالى كذبا، وبدل أن تقول على الله تعالى بلا علم، وغير ألا تقول عنه سبحانه إلا خيرا، كان معهودا عنه تعالى أبدا.

إن المنافقين يقولون ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ هكذا بأسلوب الحصر والقصر، وهو أسلوب عربي بليغ متين، لولا أن الله فضح سريرتهم، فأخرج مكنوناتها، وأظهر ضمائرها، وكشف ما يجول بخاطرها، ولو كانوا عند ذلك لحذروا، كما قد حذروا من قبل، وحين قال الله تعالى فيهم ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 64].

ولكنه تعالى ليس يمهلهم كثيرا! وحين هتك أستارهم أيضا، وبقوله سبحانه ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 64]!

ولكنه، ورغمه، وقد كان، وظل، ويظل، وسيظل، وما زال، ولا يزال هذا القرآن الكريم كتابا مفتوحا، مادا يديه لكل عاص! وفاتحا ذراعيه لكل مارد! ولعله أن تداركه رحمة ربه الرحمن، فيؤوب، وعساه أن تشمله رأفة ربنا الديان، فيتوب!

وقال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 103].

المبحث الرابع: خبر مجمع بن جارية بن عامر بن العطاف

كان مجمع بن جارية بن عامر بن العطاف، ممن اتخذ مسجد الضرار، وكان غلاما حدثا، قد جمع أكثر القرآن، وكان يصلي بهم فيه. جاهلا بأمرهم على حد قوله.

سأل أهل قباء عمر في خلافته أن يصلي بهم مجمع بن جارية فقال: لا والله، أو ليس إمام المنافقين في مسجد الضرار؟ فحلف مجمع بالله ما علمت بشيء من أمرهم فزعموا: أن عمر تركه فصلى بهم [1]. وهذا تصديق لمن حلف بالله تعالى، وإعظاما لأمر الحلف به تعالى أيضا. ولأنه ولعله كان صادقا، ولأنه قال ابن عمر: من خدعنا بالله انخدعنا له [2].

وكما قال ابن عمر رضي الله تعالى عنه: المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم. أي يغره كل أحد، ويغره كل شيء، ولا يعرف الشر، وليس بذي مكر ولا فطنة للشر، فهو ينخدع؛ لسلامة صدره، وحسن ظنه، وينخدع لانقياده ولينه [3]. وهذا برهان أنه يؤخر عن الإمامة من عرف ضلاله، وعلم نفاقه.

ومنه يكرم أهل القرآن، ولو كانوا أحدث سنا، برهانا على إعظام القرآن أبدا أيضا.

ومنه جواز إمامة الصبي؛ ولأن مجمع بن جارية كان غلاما حدثا.

---

(1) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٨ / ٢٥٥

(2) الحلية، أبو نعيم: ١٢٩. بسند حسن.

(3) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي: ج ٦ / ٣٣٠

وفيه عدم جواز إمامة من اشتهر بفسق أو نفاق. ولأنه قال العلماء: إن من كان إماما لظالم لا يصلي وراءه إلا أن يظهر عذره أو يتوب [1]. وفيه جواز التشهير بمن عرف عنه فسق أو نفاق أيضا.

المبحث الخامس: خبر وديعة بن ثابت الأنصاري

قال ابن إسحاق: وقد كان رهط، منهم وديعة بن ثابت، ومخشن بن حمير يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال إرجافا وترهيبا للمؤمنين. فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل منا مائة جلدة، وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما بلغني، لعمار بن ياسر: أدرك القوم، فإنهم قد اخترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا. فما نطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم. فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون. فقال وديعة بن ثابت: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فنزلت: ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، قل أبالله وآياته) ورسوله كنتم تستهزئون. فقال مخشن بن حمير: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي. فكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخشن يعني إن نعف عن طائفة منك. فتسمى عبد

(1) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٨ / ٢٥٥

الرحمن، فسأل الله أن يقتله شهيدا لا يعلم بمكانه. فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر [1].

كان من فعل وديعة بن ثابت اشتراكه مع من ﴿اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: 107]. ولأنه يوجد من مثله في كل زمان قوم لا يروق لهم إلا بهكذا وصف شين.

وقال الله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: 65].

وإذ كان وديعة بن ثابت من هؤلاء، وحين قالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها! هيهات هيهات.

وهو استبعاد المنافق وحَسْبُ؛ ولأنه حرم استحضار هالة قدرة رب قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وحين كان من قصوره نظره في حدود طاقة بشرية لأمثاله، ولا ثمة علاقة بينها وبين قدرة رب لا يحدها حد ولا يرد عليها قيد.

وهو استبعاد المنافق، وحين حَسِبَ أنه تعالى سوف لا يعلم نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بهكذا خور عقيدة، وبهكذا وهن دين أيضا،كان الله تعالى غنيا عن أمثال هؤلاء؛ ولأن وجودهم في الصف عامل تثبيط وتوهين، وبل كان خروجهم من الصف كان أنقى وأتقى.

---

(1) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج ٢ / ٦٤٢

وهو استبعاد المنافق وحسب، وحين جهل أن الله تعالى سوف يفضح صنيعهم؛ ولأنه تعالى علام الغيوب.

وهو استبعاد المنافق وحسب، حين قد بغته الله تعالى بعلمه قوله؛ لتختلف أنحاؤه بعضها متداخل في بعض، وليجد نفسه محاصرا يهذي، وحين داخل القرآن العظيم خلجات صدورهم، وخرج منهم مكنون قلوبهم، وحين أكد أنهم ولسوف يقولون، وحين يسألون، وكما قال الله تعالى صورة خالدة للأجيال، موحية، مؤثرة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾.

إنه تعالى حين أطلع نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم على ذلكم خور، كان سببه نفاقهم، واستهزاؤهم، وأن أمثال أولاء لم يكن لهم عهد بمثل ذلكم إطلاع، وهتك لمكنوناتهم، وحين أفقدهم توازنهم، وحين كان منه غوصه في أعماق أعماقهم؛ وليدلي بما قالوا لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

المبحث السادس: نفاق مربع بن قيظي

كان مربع بن قيظي منافقا أعمى، وقد بلغ به أن كانت نسبته عنوانا على ما فيه من قيظ على المسلمين، وبه كان حسن الأسماء عملا في أخلاق أصحابها.

وإذ كان مربع بن قيظي أعمى، وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه، وهو ذاهب إلى أحد: لا أحل لك إن كنت نبيا أن تمر في حائطي! وأخذ في يده حفنة من تراب ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لرميتك بها!

فابتدره القوم ليقتلوه فقال رسول الله ﷺ: **«دعوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر»** [1] .

بلغ حنق مربع بن قيظي أنه قال لنبينا صلى الله عليه وسلم: لا أحل لك إن كنت نبيا أن تمر في حائطي! وهذا قوله لو كان نبيا! فماذا عساه أن قال لو لم يك نبيا؟!

وإنه تبلغ الخصومة في قوم أن تتملك عليهم عروقهم، لتسري فيها، كما دماؤهم تماما بتمام، وحينها يبلغ بهم أن يصيروا كما لو كان الشيطان يؤزهم أزا.

إن قولا قاله مربع بن قيظي كان كاشفا عما حواه قلبه من حنق على المسلمين، لو وزع على أهل الأرض لوسعهم، وكيف يعيش أمثال أولاء آمنين؟!

إن امرأً عاقلا يجاهد نفسه، ألا تخالط بشاشة قلبه، ولو ذرة من نفاق، ولأن قليله يفسد عليه، كما يفسد الملح الطعام، فما بالك بكثيره مثلما كان مربع بن قيظي هذا.

إنه ليس يفصلنا عن قول مربع بن قيظي حنقا، ولأنه كان مروره صلى الله عليه وسلم في حائطه؛ أجل غزوة أحد، ومنافق كمثله لا يسره نصر للمسلمين أبدا.

زاد من بغض مربع بن قيظي لنبينا صلى الله عليه وسلم أنه أخذ في يده حفنة من تراب، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لرميتك بها!

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ / ٥٨٥

إن لسانا دافقا، ماقتا، حانقا كمثل قول مربع هذا، ما قاله في حق نبينا صلى الله عليه وسلم، وإذ كان رسولا صادق الوعد مع قلبه، وحين أنبأك عن حنق بالغ فيه!

حين قال مربع: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك لرميتك بها، وهم القوم ليقتلوه، فقال نبينا صلى الله عليه وسلم: دعوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر!

وهذا قول نبينا صلى الله عليه وسلم في مربع، وهو قول مركب تركيبا قاطعا في التحدي والإعجاز، ما بلغ به بيانه صلى الله عليه وسلم بلاغةً.

وهذا تفصيل بعد إجمال وتوضيح بعد إبهام! ولئلا يقتصر عماه على ما تعارف عليه الناس مما رأوه كأعمى بصر!

إن نهي نبينا صلى الله عليه وسلم أصحابه عن قتل مربع بن قيظي، رغم نفاقه، إنما كان وحتى لايقال: إن محمدا يقتل أصحابه، وهذا فقه المصالح المرسلة في ديننا.

إن عدم قتل نبينا صلى الله عليه وسلم لمربع، ورغم سبه وشتمه له صلى الله عليه وسلم؛ برهان أن هذا النبي رؤوف رحيم، وأنه بعيد النظر أيما كان بعد النظر، وكيما لايقال إنه قتل أصحابه.

إن سب نبينا صلى الله عليه وسلم وشتمه جناية، توافر قصدها الجنائي، جهرة، وأمام حشد من الصحابة الكرام، مما أجاز قتل مربع، لكنه الإسلام، حين ينظر بعينه الأخرى! حكمة وبلاغا إلى حين.

كانت موانع عقاب مربع بن قيظي متوافرة كلها، إلا مانعا واحدا، وحين كان منافقا، غره نفاقه، أن قال ما قال، وأنه يحجب عنه القتل كفرا، لا قصاصا.

حين تجاسر مربع بن قيظي على نبينا صلى الله عليه وسلم، فضربه سعد بن زيد الأشهلي بالقوس فشجه. وأمامه صلى الله عليه وسلم، فدل على جوازه، ولطالما كان دون القتل تعزيرا.

وكما أنه فقه، وعمل صحابي، وأمام النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذ صفة السنية؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم لم ينهر سعدا بن زيد الأشهلي أو يعنفه.

إن الدفاع عن نبينا صلى الله عليه وسلم دين، وليس رفاهية، أو ترفا ثقافيا، وإنما هو حق من حقوق بيعتنا له صلى الله عليه وسلم، وليس دونه غال أو رخيص، بل كله فداؤه صلى الله عليه وسلم.

إن ظهور دعي بين فينة وأخرى؛ ليضرط قولا، هو غاية ما يقدر عليه في حق نبينا صلى الله عليه وسلم، وإن هو إلا سوق رباني، ولقيامة قامت، ومن كل صوب وحدب؛ ليرده على عقبه، خاسئا، مقهورا، ولو كان قد علمها ما فعلها!

إن المسلمين عوامهم قبل خواصهم يزأرون لا كالأسود، بل أشد زئيرا! وحين يشمون رائحة زاكمة آتية على أسماعهم، أن دعيا ينال من نبي الله ونبيهم محمد صلى الله عليه وسلم.

المبحث السابع: نفاق أوس بن قيظي

كان من أمر أوس بن قيظي، أخي مربع بن قيظي، أنه سار على عهده نفاقا، حتى إنه لم يكتف بالنكوص وحده، وإنما نادى في أهل يثرب جميعهم إدبارا!

إنه كان من شأن أوس بن قيظي اعتذاره عن الأحزاب؛ زعما أن بيته عورة، أي لا حارس له، ليرد الله زعمه ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾، تكذيبا من السماء، وما أشده! وفضحا للسرائر، وما أعظمه!

إن خطورة الإرجاف ليست قاصرة على مرجفه، وإنما تتعداه؛ ولأنه ليس يكتفي بإدباره وحده، وإنما يفتتن، أو يحاول أن يفتن معه قوما آخرين، وكما كان من نداء أوس بن قيظي فيهم. وحين قال الله تعالى عنه ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: 13].

حين تصور حالة إرجاف يعلنها المنافقون، ويتزعمها ولو واحدا منهم، وما أحدثه من تهوين في الصف، وتماسكه، ليدرك كم كان خطر أولئك صنف أخبرنا القرآن عنهم.

﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ هذا ما خزل به أوس بن قيظي، ومن معه، وحين تظاهروا على نبيهم صلى الله عليه وسلم، وفي وقت كانت حاجته صلى الله عليه وسلم إلى مرابطتهم، ولكن هذا هو كشف السماء عن قيلهم، وافتضاحهم، ويكأن ما تخفي صدورهم أكبر! ولكن القرآن الحكيم يكشف ما تبدى من عوراتهم؛ وليغوص داخل هذه النفوس البشرية، وهذا بحد ذاته هو

التحدي المهور بالإعجاز! ولو كان في الناس مسكة من عقل لنهروا ولندهشوا ولعادوا! ومن بعد هذا الإخبار القرآني عما تكنه صدورهم، ولا سيما أن هذا وضع خارج الإمكان البشري!

إنه ليهولك! وحين تستحضر نداءهم أهل يثرب قاطبة: ليرجعوا، وليكشفوا نبيهم صلى الله عليه وسلم لأعداء ربه؛ وبرهانا عما في قلوبهم، حنقا أن ينتصر الحق يوما!

إن زعم المنافقين، ولما تذرعوا أن بيوتهم عورة، سبقه أنهم تنادوا بالرجوع؛ دلالة على سبق إصرارهم، ولا علاقة له كون بيوتهم عورة أو عدمه.

﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ هذا هو فضح خبيئتهم، وهذا هو كشف سريرتهم، وبنص القرآن المجيد؛ برهانا أنه تعالى يعلم ما في صدروهم؛ وليحذره عاقل!

إن التحدي بعلمه تعالى إرادتهم أمر خارق معجز مبهر مدهش! يجعل العبد خائفا مرجفا، وحين يعلم أن الله تعالى يعلم مجرد هذه الإرادة! ولا مجرد سلوك قد ظهر، أو عمل قد طرأ.

وهو الذي يوحي بهذه الإرادة، لا؛ فإنه الله تعالى يعلم إرادة الفعل، والهم به! وقبل وقوعه! أو إن شئت فقل: وقع أو لم يقع!

وهذا برهان مجلجل! تطرب من أمامه الأفئدة، والمشاعر، والحواس، والأحاسيس، وكل ما دق أو جل من مكونات هذا الإنسان، ولطالما أدى به جهله، أو غروره، أو كبره، أو حتى سهوه، وأن من إمكانه أن يخفي على خالقه خافية!!

هذا الخالق الكبير! ولما كانت الخليقة، كل الخليقة! ليست بعصية، ولا أبية، بل يسير على رب قدير، وهذه قدرته، بل وسهل بسيط على هذا الرب العظيم القهار الجبار المتكبر سبحانه!

ولأن هذا الكون كله من بديع صنعه، ولأن هذا الإنسان كله، وأجمعه، وبعضه، وجزأه، شيء من هذا البديع! ونقلة واحدة، وصبغة واحدة، وهيئة واحدة، من هذا الصنيع!

وسبحان من قال من عليائه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

إن أحدنا ليضع يده على قلبه، وحين علم أن ربا هذه طلاقة قدرته، وانه منها يعلم ما تكن صدور قوم وما يعلنون! وأنه تعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وقال الله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: 68-73].

وقال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 5-6].

حين كشف تعالى أن بيوتهم ليست بعورة وفي تحدٍّ قرآني ممهور بالإعجاز والانبهار والاندهاش أيضا، ومن قوله سبحانه ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾، فماذا هم قائلون أمام هكذا كشف لكذبهم؟! وماذا يكون حالهم مع أغيارهم فضلا عن أنفسهم التي بين جنوبهم؟!

إن هذه هزيمة نفسية، عظيمة، منكرة، خارجة عن الوصف، والتقدير، والتخيل! ولأن قائد المعركة فيها هو هذا القرآن المجيد! ولأنه قد أنزله ذلكم الرب القاهر القادر العظيم الجبار القهار المتكبر! الذي يعلم السر كله في السماوات السبع كلها! ويعلم السر كله في الأرضين السبع كلها!

وقال الله تعالى ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: 6].

المبحث الثامن: نفاق بشير بن أبيرق (أبو طعمة) سارق الدرعين

قال الله تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: 107]. وأمر ميسور تصور أن يخون الإنسان غيره، لكنه غير متصور أن يخون الإنسان نفسه، لولا أن القرآن قال!

سرق أحدهم درعا، وظن خائبا أنه سيفلته ظنه من كشفه قرآنا يتلى إلى يوم الدين، إلا أن القرآن فضحه؛ ليهجر دارا عصى الله فيها، وذلك بعد أن قال: قد افتضحت الآن في المسلمين!

حين سرق أحدهم درعا وخشي افتضاح أمره فرمى به في دار يهودي وراح يعتذر إلى نبينا صلى الله عليه وسلم فقبل عذره على ظاهره إلا أنه تعالى عاتب نبيه صلى الله عليه وسلم.

كان من فعل بني أبيرق، أنهم يأخذون أموال الناس، ولايردونها عند مطالبتهم، فوصمهم الله بأنهم يخونون أنفسهم؛ لخيانتهم غيرهم!

وقد أورد الإمام الطبري رحمه الله تعالى خبرا مطولا شأن سبب نزول هذه الآية عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق: بشر وبَشِير، ومُبَشِّر، وكان بشير رجلا منافقًا، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله إلى بعض العرب، ثم يقول: "قال فلان كذا"، و"قال فلان كذا"، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث! فقال:

أَوَ كُلَّمَا قَالَ الرِّجَالُ قَصِيدَةً   أَضِمُوا وَقَالُوا: ابْنُ الأُبَيْرِقِ قَالَهَا!

قال: وكانوا أهل بيت فاقةٍ وحاجة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشَّعير، وكان الرجل إذا كان له يَسَار فقدمت ضَافِطة من الشأم بالدَّرْمك، ابتاع الرجل منها فخصَّ به نفسه. فأما العِيال، فإنما طعامهم التمر والشَّعير. فقدمت ضافطة من الشأم، فابتاع عمي رِفاعة بن زيد حملا من

الـدَّرمك، فجعلـه في مَشْـرُبَة لـه، وفي المشـربة سـلاح لـه: دِرْعَـان وسـيفاهما ومـا يصلحهما. فعُدِي عليه من تحت الليل، فنُقِبَت المشربة، وأُخِذَ الطعام والسّلاح. فلما أصبح، أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي، تعلَّم أنه قد عُدي علينا في ليلتنا هـذه، فنقبـت مشـرُبتنا، فـذُهِب بسـلاحنا وطعامنـا! قـال: فتحسّسـنا في الـدار، وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نراه إلا على بعض طعامكم.

قال: وقد كان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل! رجلا منا له صلاح وإسلام. فلما سمع بذلك لبيد، اخترط سيفه ثم أتى بني أبيرق فقال: والله ليخالطنكم هذا السيف، أو لتُبَيّننَّ هذه السرقة. قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فوالله ما أنت بصاحبها! فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال عمي: يا ابن أخي، لو أتيت رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له!

قال قتادة: فأتيت رَسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقلت: يا رسول الله، إن أهل بيت منا أهلَ جفاءٍ، عَمَدُوا إلى عمي رفاعة فنقبوا مشرُبة له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردّوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال رسول الله ﷺ: أنظر في ذلك. فلما سمع بذلك بنو أبيرق، أتوا رجلا منهم يقال له: "أسير بن عروة"، فكلموه في ذلك. واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عَمَدوا إلى أهل بيت منا أهلَ إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بَيّنةٍ ولا ثَبَت.

قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فقال: عَمدت إلى أهل بيت ذُكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثَبَت!! قال: فرجعت ولوِددْتُ

أنِّي خرجت من بعض مالي ولم أكلِّم رَسول الله ﷺ في ذلك. فأتيت عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان!

فلم نلبث أن نزل القرآن: "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا"، يعني: بني أبيرق "واستغفر الله"، أي: مما قلت لقتادة" إن الله كان غفورًا رحيمًا ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم"، أي: بني أبيرق "إن الله لا يحب من كان خوّانًا أثيمًا يستخفون من الناس إلى قوله: "ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا"، أي: إنهم إن يستغفروا الله يغفر لهم"ومن يكسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليمًا حكيمًا ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ثم يَرْم به بريئًا فقد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا"، قولهم للبيد: ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك"، يعني: أسيرًا وأصحابه="وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرُّونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة" إلى قوله: "فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا".

فلما نزل القرآن، أتي رسول الله ﷺ بالسلاح فردَّه إلى رفاعة. قال قتادة: فلما أتيتُ عمي بالسلاح، وكان شيخًا قد عَسَا في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مَدْخولا فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي، هو في سبيل الله. قال: فعرفت أن إسلامه كان صحيحًا. فلما نزل القرآن، لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة ابنة سعد بن شُهَيد، فأنزل الله فيه: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ) إلى قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا﴾. فلما نزل على سلافة، رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر،

فأخذت رحله فوضعته على رأسها، ثم خرجت فرمتْ به في الأبطح، ثم قالت: أهديتَ إليّ شعر حسان! ما كنت تأتيني بخير! [1] .

وهذا تعبير قرآني مجيد، وحين تراه آخذا بالألباب أخذا، ولما تلفاه عاقدا لعزم الكشف عزما، وحين كشف الله تعالى به، ومن أسارير النفس البشرية، ما الله تعالى به عليم، وحين يخاللها، وبكأنه تعالى هو الخالق لهذه النفوس، ويعلم ما تسر وما تعلن، وما تخفي وما تظهر!

وجاء- سبحانه- بلفظ يَخْتانُونَ، بمعنى يخونون، لقصد وصفهم بالمبالغة في الخيانة لأن مادة الافتعال تدل على التكلف والمحاولة. وجعلت خيانة هؤلاء لغيرهم خيانة لأنفسهم، لأن سوء عاقبة هذه الخيانة سيعود عليهم[2] .

وجعلت خيانة هؤلاء لغيرهم خيانة لأنفسهم، لأن سوء عاقبة هذه الخيانة سيعود عليهم.

إنما تكون خيانة النفس، بعمل ما يخفيه الإنسان عن الناس، كالسرقة وما سواها، وهو ضرب نفسي عظيم: ليعيش صاحبه بين هم خيانته غيره، وهم خيانته نفسه. وهذان همان قد اجتمعا عليه ليحرم النوم: ومن موجبهما، وحتى اليقظة: ومن سببهما!

إنه ليس يكون ظلم أشد من ظلم الإنسان نفسه، وحين ظلم غيره، وهذا هو مطلق الخيانة للنفس: لأنه حرم نفسه الثواب، وأوبقها سبيلا إلى العقاب!

---

(1) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٥ / ٣٦٢

(2) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي: 299/3

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ هكذا بصيغتي المبالغة ﴿خَوَّانًا أَثِيمًا﴾، وكان الإثم واحدا!! ولأن ميلا إلى الإثم، يأخذ حكمه طبعا، وكأنما يزاوله مقترفه أبدا!!

وإنما جاء النظم هكذا وبصيغتي المبالغة؛ لإفادة أن الخيانة والإثم صارا وصفا ملازما لهؤلاء الخائنين الآثمين. أى أن صيغة المبالغة هنا ليست للتخصيص حتى لا يتوهم متوهم أن الله- تعالى- يحب من عنده أصل الخيانة والإثم[1].

أمر الفاروق بقطع يد سارق فالتمست أمه عفوه بألا يقطع؛ ولأنها مرته الأولى! فقال لها: إن الله لا يؤاخذ عبده في أول الأمر! وهذا فقه عمري عظيم!

وقال: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. وعن عمر رضى اللَّه عنه أنه أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمه تبكي وتقول: هذه أوّل سرقة سرقها فاعف عنه. فقال: كذبت، إن اللَّه لا يؤاخذ عبده في أول مرة[2]. وعن ابن شهاب قال: أتى أبو بكر الصديق بسارق فقال: اقطعوا يده فقال: أقلنها يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما سرقت قبلها فقال له أبو بكر: كذبت والذي نفسي بيده ما غافص الله مؤمنا بأول ذنب يعمله[3].

وقال أبو محمد: غافصه: فاجأه، وأخذه على غرة[4].

---

(1) المرجع السابق: 299/3

(2) تفسير الكشاف، الزمخشري:

(3) المحلى، ابن حزم: ج ١١ / ١٥٨

(4) المرجع السابق: ج ١١ / ١٥٨].

وليعلم أن ظلم الغير هو ظلم للنفس جنبا إلى جنب أيضا! وحين يجمع قوله تعالى ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 111]. جنبا إلى جنب مع قوله تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

إن قوما يخادعون نبيهم صلى الله عليه وسلم ولما كان ربه لا محالة فاضح سرهم كما نجواهم وليعلم الناس أنه تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحج: 76].

المبحث التاسع: نفاق الجد بن قيس

قال تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 49].

أي: الجد بن قيس، وكان قد تذرع زعما، أنه يخشى الفتنة من نساء بني الأصفر، ليرد القرآن أنه ليس ذلك به!

على فرض صحة زعم الجد بن قيس، أنه كان يخشى الفتنة بنساء بني الأصفر، إلا أن نهوضه مع نبينا صلى الله عليه وسلم كان أدعى؛ ولعل الله تعالى أن يشرح صدره، فيطهر قلبه.

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ ولأن مهربا زعما من فتنة النساء، كان مصلحة أدنى، مواجهة بمصلحة أعلى، هي طاعة أمر نبي الله صلى الله عليه وسلم؛ لحاقا بكتائب الفتح المبين.

ولأن فتنة النساء مفسدة أدنى، مواجهة بمفسدة أعلى، هي التأخر عن فضل الجهاد في سبيل الله تعالى، مع كتائب الفتح المبين. وهذا على فرض صحة زعم الجد بن قيس.

ولأن زعم فتنة الجد بالنساء، وعلى فرض صحتها، إلا أنها مفسدة غير متعدية، مواجهة بفتنة التأخر عن ركب الجهاد، وهو ضرر متعدٍ، فلزم موازنة الأولويات. ولأن الضرر المتعدي شأنه أقوم في الإزالة عن ذاك آخر كان شخصيا ذاتيا غير متعدٍ.

إن موازنة بين فقه أولويات عملنا الإسلامي، هي من أوجب واجباته، وفي سائر مراحله؛ ولأن تقديرا خطأ فيه، وإذ يعد ثمنه باهظا غايته، ومكلف أقصاه، ونهايته.

وإنما يدفع ضريبة ذلك العمل الإسلامي كله، وحين لم يؤخذ على أيدي الناس، فيزاوجون بين الصالح الأدنى فيتركوه، ولتحصل الأعلى منه فيعملوه! وحين لم يمكن الجمع بين المصلحتين، وهذا هو عمل الأولى.

وإنما يدفع ضريبة ذلك العمل الإسلامي كله، وحين لم يراع الناس الموازنة بين المفاسد فترتكب الأدنى منهما؛ ولدفع وقوع أعلاهما.

وحين لم يمكن الجمع بين تركهما معا، وهو عمل الأولى أيضا.

إن مما أوقع فيه العاملون في حقلنا الإسلامي من تجاوزات، كان ثمرة مرة علقمة؛ ولعدم انتهاض فقه الأولويات، بل كان منعدما أحايين كثيرة.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، هذا هو وصم القرآن المجيد للجد بن قيس، وحين زعم بهتانا فتنته بالنساء، لكن ما أخفاه نفاقا وكفرا كان أعظم.

بئس شرا ما وصمه به قومه! وحين كان الجد بن قيس سيدهم، وإلا أنه بخيل! ولأن هذا البخل داء معضل، دلنا عليه قول نبينا صلى الله عليه وسلم: وأي داء أدوى من البخل؟!

ولأن هذا البخل يحمل صاحبه منع حق لمستحقه، ويمنح ما ليس مستحقا لمن هو ليس من أهله أيضا.

فارتكب من سببه ضغينتان، وحين منح من لم يستحق، وكذا وحين منع مستحقا!

فعن جابر بن عبد الله: من سيدكم يا بني سلمة؟ قلنا: جد بن قيس على أنا نبخله، قال: وأي داء أدوى من البخل؟ بل سيدكم عمرو بن الجموح[1].

إنه بئس جبنا وبخلا، اشتهر بهما الجد بن قيس، وكان زعيم قومه! وما بقي له من نصيب في زعامته إن كان بخيلا جبانا؟!

إنه ولما وقف نبينا صلى الله عليه وسلم على حقيقة الجد بن قيس بخيلا جبانا، فكان استبداله بعمرو بن الجموح، وإذ كانت نقلته النوعية خيرا، وحين التحق بركب الناس، تاركهم وراءه ماض كان بهيما، ولما كان يعبد صنما، وعلى ما أنف.

وهكذا تزاح زعامات، كان ضررها على جماعتها وأمتها أكبر من نفعها!

---

(1) صحيح الأدب المفرد، الألباني: 227

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، أي: مطيفة بمن كفر بالله وجحد آياته، وكذَّب رسله، محدقة بهم، جامعة لهم جميعًا يوم القيامة يقدمهم أمثال الجد بن قيس [1].

وهذا عام فيمن كفر به تعالى، وكذَّب رسله، وإن نزل في شأن الجد بن قيس؛ ولأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص سببه.

ولسنا بحاجة إلى تأكيد حقيقة ذلكم مشهد، بالغ، بليغ، مؤثر هكذا!! وحين كانت الإحاطة شاملة، جامعة، وليسبقها حرف التوكيد (إن)؛ نكايةً!

ولأن هذه ال(إنَّ)، وقد بلغ من شأوها، دلالة اشتمام خبر عن شك الناس يومهم هذا! ومن صورة الجد وأمثاله، وحين وصموا بالنفاق والكفر.

وهذا ملحظ جد بليغ، ولما كان من إيحاءات لغتنا، هكذا إيحاء، وتلميح، لا تصريح! وليلمحه القارئ من بعيد! لا من قريب! فيؤتي به أكله، وينع به ثمره!

وهذا من بيان لغتنا العربية الجميلة!

المبحث العاشر: الصارم المسلول على عبد الله بن أبي بن سلول

لا يكاد الكتاب المجيد، القرآن العظيم، الفرقان الحكيم، الذكر المبين، وإلا تراه آخذا بأيدي الأمة المسلمة، وحين يكشف لها سبيلها، ويعبد لها طريقها، ويضيء لها أنوارها؛ وكيما تسلك نهجها، وعلى نور من ربها. ولو كان فيه بذل مهجها.

(1) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ١٠ / ١٩٢

وكم وقف بنا هذا القرآن العظيم وقفات! وعند كل شائبة، يمكن أن تكون بادرتها ثلما، ووعكا، واستشراء لداء، ولطالما كان من ذويه مستحكما، وأن لو تركت، ودون علاج شاف كاف.

وكان من ذلك شأن النفاق والمنافقين، وصفا ونعتا، وإذ إن هذا الصنف، وليس يكاد يخلو منه صف؛ ولعظم التبعة، ولكبر البلية، ولأهمية المئنة الملقاة على الصادقين، وحين كان منه بذل مهجهم وأموالهم، وفي ابتلاء رباني حكيم، أن ههنا دين، جاء ليميز الله تعالى به الخبيث من الطيب. ولو أعجب فريق كثرة الخبيث! ولأنهما ليسا يستويان، أو يلتقيان، أو يتقاطعان!

وقال الله تعالى ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 100].

وإن فريقا من المؤمنين ليعطي، ودون منٍّ، وإنه لينفق دون أذى، ويكانه ليمنح ودونما انتظار معاوضة؛ ولأن العوض منه تعالى، بل إن فريقا أسلم، ولما لم ينظر يمنة مرة، أو يسرة أخرى، وإلى شيء من رعاع الدنيا يوما، ولا لعاعتها!

فعن شداد بن الهاد الليثي: أن رجلا من الأعراب جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبي صلى الله عليه وسلم سبيا، فقسم وقسم له، فأعطى ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي صلى الله عليه وسلم، فأخذه فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما هذا؟ قال: قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى ههنا، وأشار إلى حلقه بسهم، فأموت

فأدخل الجنة فقال: إن تصدق الله يصدقك، فلبثوا قليلا ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبي يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي: أهو هو؟ قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه، ثم كفنه النبي في جبة النبي، ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك فقتل شهيدا أنا شهيد على ذلك.[1]

ولكن فريقا آخر، هم المنافقون، وقد لعبوا كثير في مائهم العكر؛ ليصادوا منه لحما طريا، وإذ كان ظنهم خائبا، ولما قد كشف الكتاب المجيد عن سوآتهم، وفي قرآن كريم إلى يوم الدين.

وإذ كان هذا علاجا، لصورة هذا الدعي عبد الله بن أبي بن سلول، ومن سلك سلوكه. او نحا نحوه ومن أزل وإلى أبد أيضا.

ولأن هذا الفريق، وكما أنف موجود، حيثما وجد الجد، والنصب، والتبعة، والبذل، والتضحية، والإخلاص، والوفاء.

وأعالجه في إحدى وثلاثين مسألة:

المسألة الأولى:

في بيان قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8].

هذا قوله تعالى، ويكأنه ذكر لقول رأس المنافقين هذا، عبد الله بن أبي بن سلول، وحين كان هو المتحدث الرسمي باسمهم؛ لذا جاء بلفظ الجماعة!

(1) صحيح النسائي الألباني: 1952

ولكن استدراك القرآن الحكيم عليه، جاء متسارعا هكذا، محبطا، ومسكتا، وفحما، ومباغتا؛ وكيما لا يجد من مفر؛ لبث ضلاله، وكيما لا يترك وشأنه، فينفث سمومه.

وهذا بيان قرآني هام وعام معا.

وهذه حبكة قرآنية من حبكات هذا الكتاب المتميزة وبحق، وحين دحض شبهات المناوئين أولا أولا.

وبهذه الطريقة السديدة، والموفقة، والعجيبة، والمذهلة! وحين ليست تتركه، سوى أنه جثة هامدة. وهكذا كان! ويكأنه ملقى على البسيطة، وإذ لا حراك! ومن بعد أن تجرأ على مقام الربوبية العالي، بهكذا إسفاف، وكذا على وسام النبوة السامي، وبهكذا فرية؛ لترد عليه في نحره، فأصابته، فأوقعته ردى من هلاك، وسقطا من خسار، وزبدا من بوار؛ ومن شر ذنبه الذي اقترف.

رسالة إلى أغيار، يسيرون سيره، وينهجون نهجه!

ولكنه ليس دحضا وحسب، بل فيه معنى التبكيت، والإعجاز، والتحدي أيضا، وبحيث يفقد المناوئ -وهو هنا المنافق- أعصابه، وقواه؛ وكيما لا يجد من قوة واحدة، تعينه على أن ينهض مرة أخرى؛ وليعاود جرأته! بل رأيته، وقد خار! وأحسبك تراه، وقد انهار! ومن بعد عثرات، تتلوها عثرات أخر، أرهقته، وأتعبته، بل وأخزته، بل وأخذلته! وكانت مقدمات، أو كأنها؛ لهذ الانهيار المفاجيء، العجيب، المذهل أيضا!

وهذه عقدة قرآنية مجيدة مبدعة مبتكرة، وبمثابة عقدة أقصوصة مبرمة محكمة متقنة، وبعناية القرآن الفائقة المعهودة!

وبحيث ليس يحتاج من بعدها جهاز إعلامي ماهر، لمجابهة من هذا وصفه ونعته، وحين دكت حصونه، وأحبطت، ودمرت، وهويت بيوته، ومن أعلاها، وإلى أسافلها، ويكأنها بيوت العنكبوت! ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41].

وهذا عمل الجهاز الإعلامي الإسلامي، الساهر، الماهر، الباهر!

* * *

إنه لولا ذكر المصادر بحدث بين مهاجري وأنصاري ما قلته؛ ولأنه في الإسلام تذوب الفوارق، ولأنه في هذا الدين تنصهر الأصول، وإنما يكون الضابط هو التقوى.

وحين كسع مهاجري أنصاريا!

وليجعلها ابن سلول مادة لنفثه سمه ناقعا!

ويكأنه الله تعالى، هو الذي يتولى إخماد فتنة هكذا، وليبقى ابن سلول من غمه فيه سادرا!

وقال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

* * *

﴿لَئِن رَّجَعْنَا﴾ أبى الله تعالى إلا يأتوا بحرف الشك (إنْ)؛ برهانا على خذلانهم من قبل، ودليلا على خوائهم، وألا مواجهة من أساس!

﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ وهكذا تبدو علامات خواء قلوب من تقوى، وحين كان استنصارها بعصبتها، والتي تخور رغاء أمام جند التقوى والصلاح!

إن بقية من جاهلية كان قد أجج سعيرها عبد الله ابن أبي بن سلول، وإنما جاء الإسلام فمقتها، ووضعها؛ لتشرئب أعناق قوم ساخت من قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية الأولى.

وهكذا يحملون خذلانهم على ظهورهم، وحين كان التماس قوتهم إلى التراب، لا إلى رب الأرباب، ومسبب الأسباب، وخالق الناس من تراب!

﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ إنه لا معنى لقسمهم! ولسبب حرف الشك (إنْ)، ولئن أقسموا غير مرة؛ لأن الهزيمة أبت إلا ظهورا بين حروفهم، ومن بين أقوالهم!

﴿لَئِن ... لَيُخْرِجَنَّ﴾ أتى القوم بقسمين؛ يملآن أفواههم جميعا، لولا أنهم محوا أثرهما بقولهم (إنْ)! وهكذا يأبى الله إلا أن يذل من عصاه! ومن قول ذات لسانه!

﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ هذا قصور، وتهجم على مقام الألوهية العظيم؛ ولأنه ليس يعلم على الحقيقة عزيزا من ذليل سواه! وهذا نبأ ألسنتهم عما أكنته قلوبهم. زورا وكذبا وبهتانا!

﴿الْأَعَزُّ ... الْأَذَلَّ﴾ إن إمعانا في التهجم على مقام الالوهية العظيم أدى بهم إلى استعمال أفعل التفضيل، وهذا جهل بالرب، العزيز، القاهر، الغالب، قاصم ظهورهم!

﴿الْأَعَزُّ... الْأَذَلَّ﴾ لو بقيت بقية من فقه، لأتى المنافقون بغير أفعل التفضيل؛ كيما يحفظوا ماء وجوههم، إذ ويكأني بهم يقولون: وها نحن أبقينا عزة - ولو واحدة - لله تعالى العلي الأعلى!

إنه وحين أقسم عبد الله بن أُبَي بن سلول على إخراج نبينا صلى الله عليه وسلم وصحبه، وحين لم يلبث إلا أياما يسيرة، حتى مات من بعد عوده! ومن ذا الذي يجرؤ وقوفا ساحة قتال معه تعالى، ولو حينا من الزمن؟!

بل وحين يقسم ولده! على أن أباه لن يدخل يثرب! وإلا حين يلقي على نفسه ما زعمه ماسا بالمقام الرباني وبالمقام النبوي؛ وليرد إليه كيده، ومن قوله، وأنه هو الأذل! وأن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم هو الأعز!

إن حادثة موت عبد الله بن أبي بن سلول، وبعد إقسامه: ليخرجن نبينا صلى الله عليه وسلم، يجب ألا نخرجها عن كيده تعالى، ولمن كاد، ويجب ألا نعريها من هكذا مكره تعالى، وبمن مكر!

إن ربا أغرق قوما بأكملهم! وإن ربا خسف بآخرين أجمعهم! كان قادرا على إهلاك فرد واحد، وكمثل عبد الله بن أبي بن سلول هذا؛ ولما جاهر عداء! ولما أقسم فُجْرا!

إن جهلا برب كانت الأرض جميعا قبضته - ولا تزال - والسماوات مطويات بيمينه- ولا تزال- هو ذلك الرب الذي أخذ ابن سلول، وغير ابن سلول، وعلى مدار التاريخ كله، وحين ينبثون عن شفة؛ عداءً.

إن آفة الآفات، وحين تأخذ امرؤ عنترية، كاذبة، خاطئة، وإن ظن أن له رصيدا هشا منها! ولأنه كان على شفا جرف هار، فانهار به، ومعه، آنا واحدا!

إن جهلا برب عزيز مقتدر، هو الذي أجرأ ابن سلول، وغيره؛ ولأنهم غرهم في دينهم ما كانوا يعملون، ولأنه تعالى يمهل ظالما، حتى إذا أخذه لم يفلته!

إنه لا ينسينا رحمة نبي، كان رؤوفا رحيما، وحين استغفر لعبد الله بن أُبَي بن سلول، وحين مات، وحتى نزل قوله تعالى ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 80]. قولا فصلا، يحكي تاريخا زاكما مريرا.

إن نبيا دعا لعبد الله بن أُبَي بن سلول، وحين كان عزمه نيلا منه صلى الله عليه وسلم، وإنه موح بنا أن نفقد صوابنا! ولنقول قول غيرنا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]!!!

إن نبينا صلى الله عليه وسلم قد سما فوق العفو سموا! وإن نبينا قد علا قمة الصبر علوا! وإن نبينا قد رقى سلم الحلم رقيا! وحين لم يأخذ بالجريرة! بل أتبع السيئة الحسنة تمحها!

إننا وحين ننثر وصفا لنبينا صلى الله عليه وسلم، ويحدونا في هذا أنه تاريخ، ليس خاصا بنا، وقد به نتهم، وإنما قد شهد أعداؤه له به قبل أوليائه، تاريخا منشودا، وعملا مشهودا!

إن ذلا قد تملك ابن سلول! وقد خاب به! وحين أسلم ولده عبد الله! وهو إذ ظل منافقا! لا إكراه له على كفره ونفاقه، سوى حظ شيطان رجيم منه، وحين عشعش في رأسه، حتى ملك عليه قراره!

إننا في دهشة! وحين يمثل ابن سلول؛ ليحكم بينه وبين نبي، كان عزمه على إخراجه، وها هي صحيفته مكتوب فيها: اللهم اغفر له، وارحمه، وعافه، واعف عنه!

إن نبيا كان شأنه الدعاء لأعدائه، وكمثل أوليائه، كان واجبا أن يكون لنا حظ عظيم من خلق، كان كمثل خلقه صلى الله عليه وسلم، أو قريبا منه؛ لنسمو به فوق الجراح.

إنك لتكاد تصعق! وإنك لتوشك استغرابا! وتعجيبا! واندهاشا! وانبهارا! وحين تنظر يسرة، أو يمنة؛ لترى عتوا، لا سبب له، إلا أن الشيطان قد تملك امرأً غلوا ونفورا!

المسألة الثانية: يا رسول الله، ألبس أبي قميصك الذي يلي جلدك!

وهذه عواطف ولد، وهذه أحاسيس ابن، وهذه مشاعر فلذة كبد، وهذه رحمة نطفة، كان معينها من بين الصلب والترائب، وهذا فعلها الجبلي، وهذا شأنها الفطري!

وإذ ها هو نبينا صلى الله عليه وسلم، قد اعتبرها، وأعارها السمع والبصر والفؤاد؛ ولأنه رحمة، ولأنه رأفة، قد إلى الناس بعثت، وإليهم أرسلت!

عن جابر بن عبد الله: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي بعد ما أدخل حفرته فأمر به، فأخرج، فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه، وألبسه قميصه، فالله أعلم وكان كسا عباسا قميصا قال سفيان: وقال أبو هارون: وكان على رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصان، فقال له ابن عبد

الله: يا رسول الله، ألبس أبي قميصك الذي يلي جلدك، قال سفيان: فيرون أن النبي صلى الله عليه وسلم ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع [1].

قال عبد الله بن عبد الله ابن أبي لأبيه: والذي لا إله إلا هو لا تدخل المدينة حتى تقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأعز وأنا الأذل! فقاله!

إن ربك يدفع، وإن ربك يدافع عن الذين آمنوا!

إن الله تعالى يقيض من عبيده من يكون سببا في رجوع الحق إلى نصابه! وكما كان من فعل عبد الله ابن عبد الله بن أبي ابن سلول مع والده! وعلى رؤوس الأشهاد!

وهذا مشهد به رعدة، ومنه خشية، وخوف ووجل!

ولكن هذا مشهدا منه يقين عبد، أن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا، وبطريقة السماء!

المسألة الثالثة: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: 65].

وهذا هو رد القرآن العظيم، على نفس سول لها شيطانها، أنها تملك منها عزة، ولما لم يأذن بها الله! بل ولما كانت العزة كلها لله!

﴿وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195].

إن إحسانا كان ذا جناحين:

---

(1) صحيح البخاري: 1350

أحدهما: من هذا الولد تجاه والده، ورغم كفره، وإنها لرحمة فطرية، وإنها لشفقة جبلية، وكما قد أنف.

وأما جناحها الثاني: فهو ذلكم إحسان هذا النبي صلى الله عليه وسلم، إلى هذا الولد، وحين يقره على رحمته بوالده، وبل وحين يجيبه إلى مطلبه، ويخلع لباسه الذي يلي جلده؛ وليلبسه أباه، وحين ووري تربه!

لكنه إحسان نبي إلى رجل كان منافقا،كان فيه غارقا أيضا!!!

وهذا مشهد حقيقة بالغ بليغ معا، ومؤثر وممعن في التأثير أيضا!

لكنها هذه هي عاطفة الإحسان والرحمة من ديننا!

المسألة الرابعة: إن اللّه رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.

إن الرفق وإحسان الصحبة هما قاعدتان يقوم عليهما عمل الإحسان في ديننا؛ ولأن عكسيهما سبَّبَا نفرة، لطالما قطع الإسلام طريقها أبدا!

إن الإحسان كان إشعارا، أن متحليا به، قد بلغ آفاق المجد والرفعة في الملأ الأعلى؛ ولأنه تعالى يحب المحسنين. ولذا كان خلقا لنبينا صلى الله عليه وسلم.

إن مادة الإحسان كانت جامعة لكل فعل حسن حميد، وكانت مانعة لكل فعل سيء ذميم، ومنه كانت تتلألأ في سماء الأخلاق الحسان تربعا.

وقال الله تعالى ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7]. إن محسنا يحسن، وإنما يحسن لنفسه، وحين أحسن لغيره؛ ليجمع بين فضلين تامين كاملين، والله ذو الفضل العظيم.

إن محسنا، وحين يحسن صنعا، فإنما قد منح أخاه حسنة! وحين كان سببا لإحسانه! وإن له لأجرا! وهذا معنى فائق!

جاء أمره تعالى بالإحسان، وعلاوة على محبته للمحسنين، إلا أنه معين حسنات لأطرافه جميعا! ولأنك أحسنت إلى نفسك، وغيرك، ومنحته فضل حسنة!

إن مادة الإحسان نابعة من كونه موجب إتقان، وتجويد للشيء، ومنه فحسن كون الإحسان طبعا، وتطبعا، وتجملا، وكسبا؛ وكيما ينال محسن أجرا.

إن الله كتب الإحسان على كل شيء: هذا قول نبي لا ينطق عن الهوى وقطعا لدابر شيطان مريد وحين يُلَبّس ألا إحسانَ إلا بمثلٍ أو جُعْلٍ!

عن شداد بن أوس ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته.[1].

إنك ترى المحسنين أنضر! وإنك تحسبهم أجمل! وإنك لتغبطهم أجرا! وفضلا! وإنك لتعدهم قناديل هدى! يمشون به في الناس! ينيرون لهم طريقا حالكا مظلما!

إن محسنا تراه يدير ظهره لتلبيس إبليس! ولما يوسوس إليه أن قوما يستأهلون الإحسان! وأن آخرين يمنعونه! ولأن الإحسان ينبت بذره أينما زرع! ولأنه بيئته أبدا صالحة للغراس أبدا فيها!

---

(1) صحيح مسلم: 1955

إن محسنا ذو صنعة أتقنها، فأجادها، فأحسن تصرُّفَه، فَهْمًا، وفقها، وعلما، ودربة لما يدير معاملته به! ولأنه حسبُه الله وحده في إحسانه، وحين أحسن!

جاء شحذ همم الإحسان في مواطن، قد تحمل امرأً على نقيضه، وليحمل نفسه عليه؛ طاعة، واحتسابا، وأجرا، وإنما؛ ولأن وجهته الله تعالى وحده، وحين فعل، أوترك.

إن نفوسا عالية، هي التي تحسن، وإن قلوبا مطمئنة، هذه التي علمت أن ربها كان ذا فضل عليها، وحين جعلها مناطا للإحسان، والبر، والتقوى.

إذا تأمل الناس في امرئ خيرا، فلا يريهم إلا خيرا ظنوه فيه! ولأنه كان أهلا لفيوضات الرحمن، إحسانا، وبذلا، بلا مَنٍّ، ولا أذى، بل تضميد جراح مدمية.

إنما كان الإحسان إحسانا؛ ولأنه مدى واسع؛ لنشر فعل خير، ولأنه ميدان بر فسيح، لا انتهاء لحده، ولكل عمل جميل، أو قول جليل. أو انبساط وجه، أو بسمة، أو تملح، أو سعة من خلق حميد، أو سمت رشيد!

إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، فليسعهم منكم بسط الوجه، وحسن الخلق.[1].

أرأيت كيف كان الإحسان قائدا؟ وأرأيت كيف كان الإحسان رائدا؟

إن الله تعالى كان، ولايزال محسنا؛ سبيلا لنهج الإحسان، بابا موسعا، لا يعتريه ضيق، وفسحة سرمدية، لا يلحقها بوار، أو يمسها عوار.

---

(1) السلسلة الضعيفة، الألباني: 634

﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77].

ولأنه تعالى سابق الإحسان، فطالب العقلاء قارون أن يبادل إحسانا، لاقدرا، فلا يطيقه! بل وصفا وحواليه! وإن أطاقه!

كان المحسن مصلحا في الأرض، وكان المسيء مفسدا فيها، وحين حرم الإحسان، وهذا معنى سام.

كان البغي في الأرض فسادا مناطا ليحرم الإنسان وصف الإحسان! وعلاوة على بغيه، فجمع بين النقيضين! فكان مفسدا باغيا، حسرة وألما!

في تأملات القرآن المجيد، جاز قول: إنه تعالى لا يحب من عُدِمَ إحسانا، كما أنه تعالى لا يحب المفسدين؛ ولأن الإفساد نقيض الإحسان!

المسألة الخامسة: نهي السماء عن الصلاة على المنافقين!

جاء نهي عام لنبينا صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 84]. جزاء وفاقا؛ ولأن هؤلاء المنافقين كان فعلهم لتنكس منه الرؤوس خجلا!

كان نهيه تعالى عن الصلاة على المنافقين، والقيام على قبورهم مسببا؛ ولأنه تعالى لا يترك حكما إلا وعلله؛ وحين كانت لذلك من حاجة للبشر وإذ ليس يدعها هكذا رب البشر! وكيما يكون عالقا بالأذهان أبدا؛ ولأنهم كفروا بالله وبرسوله.

المسألة السادسة: ما لكم ولدعوة الجاهلية!

ما لكم ولدعوة الجاهلية! هذا استبعاد منه صلى الله عليه وسلم أن يطرأ طارئ الجاهلية على قوم أخلصوا دينهم لله!

إنه حين تسمق نفوس؛ بإيمانها، ولتجدها بيضاء، نقية من رجس، ولتحسبها خاشعة من وجل، لا يدنوها دنس، ولا تقربها حمية جاهلية، أوجعت، وآلمت!

عن جابر بن عبد الله: غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب، فكسع أنصاريا، فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما بال دعوى أهل الجاهلية؟! ثم قال: ما شأنهم؟ فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دعوها؛ فإنها خبيثة. وقال عبد الله بن أبي ابن سلول: أقد تداعوا علينا؟ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ لعبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه[1].

دعوها فإنها منتنة: هذا أمر تركيبي! بنفض غبار الجاهلية؛ ولأنها عنوان هبوط أخلاقي، إلى القاع، عميقة أسافلها! وبه فليس يرى صاحبه إلا من ثقب خفي!

---

(1) [صحيح البخاري: 3518].

لا يتحدث الناس أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه: هذه هي المصالح المرسلة، وحين اعتبرت مصدرا تستمد منه أحكام الملة الخالدة.

المسألة السابعة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومن ههنا فلا عزة لأغيار! وعندئذ فلا محل لقسمين أقسمهما المنافقون! أو زاد عن ذلك أقساما عديدة! ولأنها عدم، لا مجرد أنها من حكمه!

ولأن رحمته تعالى وسعت كل شيء، فقد كانت عزته كذلك، لولا أن نفرا يضله غروره، فيسلكه مهاوي الردى، وليحسب أن بإمكانه الخروج عن السبيل تحللا.

إنِ امرأً ساق نفسه إلى مولاه ساكنا، ولما كان تعالى له العزة كلها، فكان قمنا أن يمنح بها عزة ورفعة قامة وقيمة معا.

وهذا هو الذي أفهمه، متبادرا من صبغة النبي والمؤمنين بالعزة، قرآنا مجيدا، وحكما سديدا، وإمهارا منيرا، سواء للسالكين، وحين كان مصدره هو هذا الرب القوي المتين!

قطع القرآن العظيم طريقا، وحين جزم أن العزة كلها لله تعالى، مقابلة بزعم ابن سلول أنه الأعز! وحتى لم يتبق له شيء من العزة! وليتوارى به! ولو قليلا!

المسألة الثامنة: اعتبار النبي لمشاعر ولي!

حين تسامع عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، رأي عمر الفاروق، بقتل والده، فأخبر نبينا صلى الله عليه وسلم، ألو كان لابد فاعلا، فليأذن له به؛ حتى لا يقتل قاتل أبيه؛ فيدخل من سببه النار!

وهذا فقه أبناء مائدة التربية المحمدية!

إن اعتبار نبينا صلى الله عليه وسلم لمشاعر عبد الله بن عبد الله ابن أبي بن سلول، هو حلم تحلمه، وإحسانه تحسنه، ولطف تلطفه؛ ولأنه يقف على مشاعر القلوب، فلا يتعداها! أسوة وقدوة حسنة.

إن اتخاذ قرار عدم قتل المنافقين، كان بعد نظر نبوي؛ حفاظا على السلم الاجتماعي داخل الأمة الواحدة! وهو ميدان رحب للتأسي والاقتداء.

حين نزل نبينا صلى الله عليه وسلم على رأي عبد الله بن عبد الله بن سلول ألا يقتل والده، إن هو إن كان لابد فاعلا، فكان قومه من بعدها يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنفونه، ويتوعدونه.

الصارم المسلول على عبد الله بن أبي بن سلول

(2)

المسألة التاسعة: بعد نظر النبي القائد

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله، لأرعدت له آنف، أمرتها اليوم بقتله لقتلته[1]. وذلك حين آخذ آل ابن سلول عليه.

على أن هكذا كانت قيادة نبينا صلى الله عليه وسلم لأمته، وحين يتلقاه أمرا من آحادهم إليه! وبكأن هذا الذي قد راح هكذا بعيدا، سحيقا، مديدا، عميقا، وحين يأمر آحاد الرعية راعيهم! وحين قد تلقاه هكذا!! ومن نفس راضية، مرضية، وتلفاه حنونا، لطيفا، رقيقا، مع هكذا عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه، وهو يقول له قوله هذا: أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله!

ولسنا نبرر ألا يكون القائد موقرا، بل ونعارضه، ونسوئه، ونمقته؛ ولأن القائد هو عنوان أمته، ويوم أن يبجلوه، ويحترموه، ويكبروه؛ وليكون هكذا، في نواظر الأغيار، مكرما، مهابا، ومن داخل، ومن خارج أيضا.

ولكن هذا الموقف، وإذ قد حدث، وإنما نطوعه لديننا، لا أن نطوع ديننا له، ولنأخذه على هكذا قرائح، كانت سنية، هنية، وحين كان عمر الفاروق هذا، ومن أعظم من يقدر رسوله، ويحترمه، ويوقره، ويكبره، ويهابه!

---

(1) تاريخ الطبري: ج ٢ / ٢٦٣

وها هو ويوم أن دخل على النبي صلى الله عليه وسلم، والنساء عنده، يستفتينه، ويسألنه، ويتعلمن منه الهدى، والدين، والصراط المستقيم، أمة تستفتي من كان أهلا للعلم، ويخاف فيه مولاه، ويرجوه فيه رضاه، وهداه وسناه، سداد رأي، وقوة بصيرة، ولا تسل! وإن هو إلا وحي كريم!

وليخفن أولاء النسوة عمر أكثر! وليرهبنه أوفر، وحين دخل، وهن هكذا عاليات أصواتهن! ويكأن هنالك فارقا بين هذا وهذا، وحين لا يتعارضان، ولا يتنافران، بل ينسجمان، ويأتلفان، وحين وضع كلٍّ موضعَه!

فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: استأذن عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه، عالية أصواتهن، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله، قال: عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب! قال عمر: فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يهبن، ثم قال: أي عدوات أنفسهن؛ أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك[1].

ولكن هكذا هو النبي! وبوصف بالغ بليغ، عن إلفه، ورحمته، وحلمه، وكن قد نطقن بذلك نطقهن عنه عفويا، وليعرف الناس أن تاريخا هكذا قد سجل

---

(1) صحيح البخاري: 3294

لهذا النبي، أنه ليس فظا، ولا غليظ القلب! قائدا هذا وصفه، ورائدا هذا نعته، وحتى طمع فيه، وفيما عنده الأقارب والأباعد سواءً!

وعلى نسق كهذا، يحمل أمر عمر الفاروق للنبي صلى الله عليه وسلم.

وهكذا اعتبار هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم للمصلحة العامة للأمة، ومحافظة على سلمها الاجتماعي، وبحكمته وحنكته المعروفتين.

إن السلطان الأعلى للأمة، ليتأبى أن يسير عكس تيارها الاجتماعي! وإذ يمكن أن يكون يوما جارفا! ويكأنه؛ ومن هذه الحكمة، والتأني، وافتراض عمل الجماهير، ليأخذ في اعتباره، ولو من باب الاحتمال، أن يكون عمل ما، وكقتل عبد الله بن أبي بن سلول، هو بمثابة إطلاق الشرارة الأول لضجيج، وأخذ ورد، وفوران، وثوران بركاني هادر، كان الصف الاجتماعي في غنى عنهما، وكيما لا تهدر طاقات الأمة، بينها البين، وإنما لتدخر هكذا من طاقات خلابة؛ ولبذلها، وفي إنكاء عدو الله تعالى وعدوها.

وهذا ملمح إداري عبقري، ولطالما كان قد تميز به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهكذا يبين بعد نظر قائد خبير، ورائد نحرير، وحين عجلة رعيته. وإذ يغض عنها طرفا، ولما يحين وقت تأويل رؤياه! وحين كانت على قدر فلق الصباح! تأويلا ممهورا بصحة هكذا بعد نظر، وتحمل، وصبر، وتقدير الأمور قدرها.

وليضمد جراح أمة ليست بأحوج إلى شيء من ذلك، بل بأغنى عنه، وعن أمثاله أيضا! وحين كانت، وهكذا أمة، منشأة على الصبر، والتحمل، وغض الطرف، والتغاضي؛ لا من ضعف، بل من بعد نظر، ولما يحين عمل القضاء

الرباني المحكم، ولما يتأتى قدر السماء الإلهي المبرم أيضا، وحين ليس يترك ربنا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وإلى أن تتدخل السماء، فتقضي قضاءها، العادل، المنجز، البات، وعلى ما عودتنا السماء كل مرة!

وها هو تدخل السماء، ولينهي تمردا، خفية مرة، وجهرة كرة، كان قد حكاه هذا الدعي عبد الله بن سلول، تاريخا مرا، صبرا، علقما، وأن هكذا كان صنيع قوم، وهم ينخرون السلم الاجتماعي نخرا، وإذ هم يثلمون وحدة الأمة ثلما! وهذا مع النبي! وما بالك، وماذا كانوا هم فاعلين ومع غير النبي؟!

ويكأن تدخل السماء هذا واقع لا محالة، وإن طالت الأزمان، ولئن تباعد الزمان والمكان أيضا! وليأخذ الله تعالى هذا الدعي ابن سلول أخذه العزيز المقتدر، ولما كان به طهارة البلاد، وراحة العباد، وحين كان ذلك ردا على موقف عمر الفاروق، وليتصبر الرعية، واثقين من تدخل السماء؛ عونا لقائدها، ورعاية لرائدها، ولما كان يعمل عن بصيرة، وحكمة، وتوفيق، وإلهام رباني محكم أيضا!

وهذا ملمح جد مهم، وحين كان هذا القائد المعزز من السماء، وإذ ليس يعمل، وإلا على نور وهدي السماء معا!

ومنه كانت هذه من نعوت قائد، لأمة عريقة، قادت العالم إلى أمانه، وصلاحه، وتوحيده خالقها تعالى، وعلى وجهه الذي شرع، وحين تأبت، وألا تأخذ إلا عن ربها ونبيها، وحين أبطلت ما يخالفهما، ولو شيئا!

وقال عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه: قد والله علمت لأمرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري [1]. هذا نزول كريم، على هدي نبوة، كان أكرم، ويبين عن وحدة صف خلف نبيها صلى الله عليه وسلم القائد، الماهر، العبقري، الخبير.

المسألة العاشرة: القائد يستمد بركته من تحسس رعيته!

إنه ينظر في بركة قرار القائد، وثمرته، وحين تتحسس بشاشته قلوبا مؤمنة.

إنه حين تتلمس قرارات القائد مشاعر أمته، فتكون ههنا مباركة، مثمرة خيرا، وطاعة، وبركة.

إنه حين تكون قرارات القائد غير متلمسة مشاعر الجماهير فتنعدم بركتها، ويندر طاعتها، وإلا من سوق، وقيد، وخبط عشواء!

إن قائدا لا يحسب حساب جماهيره لقراره! يكون قراره عدما! تذروه الرياح! ولأنه ليس يملك مخابرة كل واحد على حده! ليؤدبه! وليحمله! وليبكته! ويهينه!

إنه حين يكون قرار القائد معبرا عن نبض الجماهير، فإنها تكون حاملة لواء تنفيذه، والدعوة إليه، والحث عليه، وهو متكئ على أريكته!

---

(1) تاريخ الطبري: ج ٢ / ٢٦٣

إنه وحين تكون قرارات القائد في جهة، ومشاعر أمته في جهة أخرى، ليحدث فصام نكد حيالها! ولو جيشت من أجله الجيوش الجرارة!

إن القرار، وحين يتخذه القائد على هدي من السماء، فإنما تحل بركته، وتحمل الأمة نفسها على التسليم به؛ أجرا، وطاعة، ورحبا، وسعة!

إن قرارا يصدره القائد، وهو في معزل عن هدي السماء، فإنما ضمن فواته! وإنما حكم عليه بالبطلان المطلق! وفور إمهاره بتوقيعه! قولا فصلا واحدا.

إن قرارا اتخذ، وفي معزل عن هدي السماء، إن هو إلا عدم، وبطلان مطلق، وليس يلحقه تصحيح، وإلا رجوعا إلى معين الكتاب الكريم، والسنة، الهاديين الناس سواء السبيل! فلا يأمر إلا بهما، ولا ينهى إلا منهما! ولأنه عالم قول ربه، وحين كان عاملا بأمره وحده، لا مفاصلة، ولا مخاصمة، ولا مصادمة، ولا نفرة، ولا خروج قيد شيء! ولأنه خليف مستخلف، مستأمن!

وقال الله تعالى ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26].

إن نداء أبويا حانيا، ألا يصدر قائد قرارا، إلا على نور من ربه، ولتأخذ الأمة على عاتقها حراسته، والقيام على إنفاذه طواعية، ومحبة، وتسليما. بل والذود دونه، مجابهة كل معتد أثيم!

إن السلطان والقرآن لا يتنافران، بل يأتلفان، وحين كان إلف على أساس التسليم، والانقياد؛ تلمس البركة والنماء، لا القحط ولا الجدباء! وتحسس الطاعة والانقياد، لا النفرة والابتعاد.

إن قائدا، وحين يعزم قراره، وهو إذ يكون خليفته تعالى في أرضه، فإنما تلفه رعدة، ألا يقرر إلا هدى، وألا يصدر إلا نورا، يمشي به في الناس!

إن الجماهير أمانة في أعناق آمريها، وحين كانت متأهبة للتلقي عن الله تعالى، آمنة، مطمئنة، راضية، مرضية، وإنما حال بينها وبين أمره تعالى حائل!

قال عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه: قد والله علمت لأمرُ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري. وهذا قول الفاروق عمر! فما بال قول غير الفاروق عمر، رضي الله تعالى عنه؟!

إن بركة قول نبينا صلى الله عليه وسلم، لأعظم بركة، من قول كل أحد؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم ينطق وحيا، ويقول عدلا، ويتكلم قسطا، وينبو عن هوى، ويميل إليه الحق كله! ميلا ميلا! ويميل نبينا صلى الله عليه وسلم إلى الحق كله، ميلا ميلا أيضا!

إنك لتأخذك شفقة، ولتغمرك جيمعك دهشة! وحين تعرض قول آحادهم على القرآن المجيد، أو قول خاتم النبيين، وليزداد عجبك! إذ كيف نطقوا كذلكم؟! أو قالوا قولهم هذا؟!

إننا لنشتم زكاء قول عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه، وإننا لتدركنا بركة قوله أيضا؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم أمرنا بسنته، وسنة الخلفاء الراشدين، المهديين، من بعده؛ ولأن معينهم واحد.

يحدو الجماهير أمل يوم، ترفرف فيه أنوار وحي السماء، وحين قد أمروا به، لا بغيره! وحينها لن تمنع قطر السماء! بل تجود به علينا مدرارا مدرارا!

المسألة الحادية عشرة: فقه عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول!

ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عبد الله بن سلول قول أبيه ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ قال: صدق! فأنت الأعز، وهو الأذل! وهذا تأويل للقرآن مدهش! وفي حضرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ينطق فقها عظيما، ويجود علما حكيما!

وفيه قلب للقول على قائله! ورد الباطل على مبطله! واستنفاذ الحق منه! فقها، وقولا حسنا، وتأويلا أعجب! ولا تسل كيف؟! ولأنهم أبناء تربية المائدة المحمدية!

إن موقفا لعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول تجاه والده، مؤذن أن هذه أمة صدقت، فأوفت! وحين كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما! بالغا ما بلغ! ولو كان أبا أو أما! أو قريبا أو بعيدا! وحين علموا أن الحق لله!

إن تأويل عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول للقرآن، أن والده هو الأذل، وأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم هو الأعز، هو ما يتفق تماما وقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]. بيد أنه فقه عال!

إن قدرة الصحابة الكرام على الاستنباط، من قرآنهم، كان ملكة مباركة، أعلمتنا أبعاد هكذا كتاب، أدهشتنا بلاغته! وأشدهنا إعجازه! لأنه قول مليك مقتدر!

المسألة الثانية عشرة: احترام الملكية الشخصية في هذا الدين!

قال عبد الله بن أبي بن سلول ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، فمنعه ابنه دخول مسكنه إلا بوحي! فقال نبينا صلى الله عليه وسلم: اذهبوا إليه، فقولوا له خله ومسكنه. وهذا دين يقر ملك صاحبه.

ولكن فعل هكذا ابن! ومع أبيه! ومن مقتضيات هذا البراء في الله تعالى! دينا قيما ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 123].

وهذا تأويل لجامع الجمع بينه وقوله تعالى ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

ولأن عبد الله بن أبي بن سلول كان محاربا، عتيدا، عنيدا، فظا، غليظا، صنديدا!

وبكأنه قوله كان عمدة محاربته، ولما أضحى موجب عداوته! وحين قال قوله هذا ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾!

المسألة الثالثة عشرة: سمعنا وأطعنا!

قال نبينا صلى الله عليه وسلم: اذهبوا إليه، فقولوا له خله ومسكنه. وقال عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول: أما إذا جاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم فنعم.[1] وهؤلاء قوم كانوا وقافين عند النص.

إن قول عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول: أما إذا جاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم فنعم. برهان أن منقبة أمتنا هي: سمعنا وأطعنا. ولا تعمل عقولها كثيرا؛ فتحرم بركة الانقياد.

المسألة الرابعة عشرة: الرزق المدرار من بركة طاعة الجبار القهار

إن أمتنا، وحين ترسمت قرآن ربها، ووحي نبيها، وحين أظلتها سحابة، ليناديها هارون الرشيد يوما أن: أمطري حيث شئت فسوف يأتيني خراجك!

إن إسلاس القياد لله تعالى، مؤذن بهطول الأمطار، سحا، غدقا، مجللا؛ ولكي تفيض خزائن المال، فلا نجد مسكينا تؤدى له الزكاة!

وقال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ المائدة: 65-66].

---

(1)

وقال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96]!

وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه: يا معشر المهاجرين! خصال خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط؛ حتى يعلنوا بها ؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم [1].

المسألة الخامسة عشرة: النصر والعزة والتمكين من بركات طاعة رب العالمين

إن أمة ترسمت هدي قرآنها، كانت تقول يوما: من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. أما بعد فالجواب ما تراه لا ما تسمعه [2].

إن أمة كان فيها من أمثال عمر الفاروق ولما عزم أمره على الهجرة من مكة إلى المدينة وليواجه مجتمع الكفر كله وهو فرد أعزل! ولكن هذا الدين ولكن هذا فعله في القلوب وحين يقف مواجها قومه سائرهم قائلا: شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس أي الأنوف من أراد أن تثكله أمه أي تفقده أو يوتم ولده أو

---

(1) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢٨ / ١٤٦

(2) صحيح الجامع، الألباني: 7978

ترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي قال عليٌّ رضي الله تعالى عنه فما تبعه أحد ثم مضى لوجهه[1].

إن الكلام حول هذه الرواية لا يخرجنا عن فحواها، وليس يحيد بنا عن معناها، وحين كان صحيحا هذا المعنى؛ ولتأييده من سجل تاريخي، ولموافقته من فعل محمد النبي، ويوم غزوة المريسيع، وحين غالب يهود امرأة مسلمة على كشف وجهها؛ دناءة، وتعديا، وخيبة، وإذ وما لهم ووجهها؟! وإذ وما لهم وامرأة؟! وإنما يكيد الرجال للرجال، وإن كانوا ولابد فاعلين! ولكنه الكيد، والجهل، والجهالة، وحينها قد ارتدى نبينا لأمته، وقد تقلد سيفه، وأشهر رمحه، ورمى نبله، ولتكون كلمة الله تعالى هي العليا.

إن أمة قادها الخير، والهدى، والفرقان، والقرآن، الحكيم، المبين، الذكر الحسن الجميل، هو الذي أمكنها به، وأن تجابه كفرا بواحا، وعنادا كان قد أنفث فاه! وانتفخ وريداه! وامتطى قفاه! وحين كان قد أذله فرد واحدا! من أفراد هذه الأمة! نعم هذه الأمة! ليدخل بفرسه على بساط حكمه! ويدوس كرامته! وقبل أن قد داس بساطه وسجادته!

وهذا ربعي بن عامر، مثلا يحتذى، وتاريخا يقتدى، وحين جابه -وحده- كسرى وبقوله هذا: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى

(1) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي: ج1/ 232

خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله[1].

المسألة السادسة عشرة: هذه نظرة قومية محلية مقتها الإسلام

لا زال عبد الله بن سلول يقول: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير بلادكم[2]. هذه نظرة قومية محلية مقتها الإسلام؛ وليكشف سوأة قصور قول، حثا الإسلام عليه التراب.

إن النظرة المحلية القومية، وحين تدب في مفاصل قوم، فقد أذنوا بعيبة جاهلية، نحاها الإسلام جانبا؛ وكيما يبقى الحب في الله، وإن شرق امرئ أو غرب.

ولا زال عبد الله بن سلول يهذي قائلا: سمّن كلبك يأكلك. إشارة إلى مهاجرين، شرفاء، كرماء، أتقياء، أنقياء، أمضوا كمضاء السيف نبلا! وحين خرجوا من كل شيء؛ حسبة، ودينا، عز على ابن سلول عليه صنعه! أو شيء منه!

إن ترك الزمام، أمام نفس تهوى، مؤذ بها أن تطلق عنان هذيانها، تغوى حينا من بعد حين آخر، وكما كان من ابن سلول، فأخرج سما ناقعا، لا قولا نافعا.

إن الإسلام يهذب، وإن الإيمان يؤدب، وحين أوقف كلا عند حده، وبقوله: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت. فإن خطم نفس دواؤها.

---

(1) السيرة الحلبية، الحلبي/ ج ٢ / ١٨٤

(2) البداية والنهاية، ابن كثير: ج4 /39

فعن أبي هريرة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا، أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه[1].

المسألة السابعة عشرة: المسلمون على قلب رجل واحد

قال عبد الله بن عبد الله بن سلول: صدق والله يا رسول الله، أنت والله الأعز وهو الأذل، وقال أسيد بن حضير: هو والله الذليل وأنت العزيز[2]. وهذه أمة قلبها قلب رجل واحد.

إنه كم من مناسبة، ظهر منها قول الحق، ومن قوم كانوا به يقولون، ويعدلون، وحين قد تواتر قول غير مرة هكذا: لقد حكمت فيهم بحكم الله!

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: **نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد، فأتاه على حمار، فلما دنا قريبا من المسجد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار: قوموا إلى سيدكم، أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: تقتل مقاتلتهم وتسبي ذريتهم، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قضيت بحكم الله، وربما قال: قضيت بحكم الملك. ولم يذكر ابن المثنى وربما قال: قضيت بحكم**

---

(1) تاريخ الطبري، ج ٢ / ٢٦١

(2) صحيح مسلم: 1768

الملك. وفي رواية: لقد حكمت فيهم بحكم الله، وقال مرة: لقد حكمت بحكم الملك[1].

وهذا الإمام الحبر الترجمان، وهذا أخوه الفاروق عمر رضي الله تعالى عنهما، وحين قد توافق قولاهما حول سورة العصر!

فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رئيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئا، فقال لي: يا ابن عباس، أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له: إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة، فذاك علامة أجلك: فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا. قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[2].

ولعل أكثر من هذا، وحين كان من إمكان اجتماع الخلائق كلها، ومن إنسها، ومن جنها، أن يجتمعوا جميعا، وعلى أتقى، أو أفجر رجل واحد!

وهذا ليس فرضا، بل صدقا، لا من خيال، بل من حقيقة ويقين معا! ولأنه من قول ربنا الجبار الغفار، القهار، الجبار سبحانه.

---

(1) صحيح البخاري: 4294

(2) صحيح مسلم: 2577

فعن أبي ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وفي رواية: إني حرمت على نفسي الظلم وعلى عبادي، فلا تظالموا. (1)

وشاهده قوله تعالى: يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئا.

---

(1) صحيح مسلم: 2577

وتلك أمة، كان من سعادة كونه تعالى، وأن تتبوأ مقعد صدق فيه! لتترك لنا إرثا هكذا، ينز منه الصدق نزا، وينهمر منه الفيض والسكون والتقوى انهمارا، وما بلغ من محله هذا؛ وإلا لأنهم كانوا على صلة صدق بالله تعالى مولاهم الحق المبين!

الصارم المسلول على عبد الله بن أبي بن سلول

(3)

المسألة الثامنة عشرة: لوازم الولاء وثوابت البراء!

1- كان أبو سفيان بمكة، يحب الفخر، وكان عبد الله بن أبي بن سلول بالمدينة، يحب الرياسة، وهكذا في كل موطن يجد المسلمون بلاء، يواجهونه بحكمتهم، ويعالجونه بفطنتهم.

2- إن مفارقة بين أبي سفيان، وحين أسلم ظاهرا وباطنا. فعم خيره، وبين عبد الله بن أبي بن سلول، وحين أسلم ظاهرا، ونافق باطنا، ففشا شره، وطم غمطه، وذاع كبره! ذلك لأن ﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 73].

3- وهذا أب ينصح، ويلح نصحا، هو نوح عليه السلام، وهذا ولده يضل، ويعتو، ويتجبر، ويجابه قوة لا محدودة، ولو شيئا! هي قوة قهار، جبار، متعال، هو الله!

وهذا درس رباني مجيد، وحين يقف بنا، وعن تسارع، لا كالجاذبية التي خلقها، بل من تسارع ليس محدودا أيضا، وحين يغرقه؛ ومن تو قوله، ومن موجب سفهه! ولما لم يجد وأنَّى له أن يجد ما يسعفه، أو أن ينقذه، أو أن يفلته؟!

ولنعش هذا الحدث، برمته، وكليته، مختصرا، موجزا، حاكيا نتيجة مجابهة سفيه مع رب كان قد خلقه!!!

وقال الله تعالى ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ

يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 36-49].

4- وهذا ولد يدعو، ويصر دعوة، هو إبراهيم عليه السلام، وهذا والده كفرا وعنادا، وحين يتعجب أن قد أفلت ولده إبراهيم من سفهه وغيه، وحين ترك، وجانب، وزايل، عبادة أصنام! ليست تدفع عن غيرها! وفضلا عن نفسها! وإذ لا حراك!

وهكذا يكون الكفر! غيا، وسفها، وضلالا، وجهلا، وحين تعمى معه الأبصار، وتلك القلوب التي في الصدور، وحين ليس ينكر منكرا، وليس يعرف معروفا، بل وحين يسمي المعروف منكرا، والمنكر معروفا، وفي صرف مدهش عن السواء، وفي وحل موغل في الضلال؛ ومن غيه، ومن سفهه الذي أنف، بل قلت منه بعضا، لا كلا؛ وإنما ليقف العبد منبهرا من شين كفر، تشبث به الكافرون!

وهذا مشهد قرآني كريم، يصور لنا الحدث، وكأننا ولما نتلوه كل مرة، وكأنه الآن توا يتنزل! وحين يحكي صورة التمرد، ولما يقصص أقصوصة التجرد، ولو من ولد على والده! وفي إعلان عام، وكيف كان الابن حليما، مجابها سفه والد صنديد، ومواجها أبا كافرا عربيدا. وفي بيان هام آخر أن المسلم هو هذا العبد الذي ليست تلين له قناة، وأن نعم، وكأنه رداء الحلم يزينه ويرتديه، وكأنه لباس العرف يجمله وبه يلتف فيه، وهذا الخلق الحميد يكتسيه، وفي أنشودة تترنمها الأجيال، جيلا ومن بعد جيل آخر، أن الإسلام يروي رواية دماثة الخلق الحميد، ويحكى قصة الأدب الرشيد، وعلى كل حال من أمر العبيد.

وقال الله تعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: 41-50].

5- وهذا والد ينافق هو عبد الله بن أبي بن سلول، وهذا ولد يؤمن، هو عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، ومجابها والده، ولما ينعته الأذل، ولما يصفه الأرذل الأضل، وحين رغا رغاء، ولما زبد رابيا.

6- وهذان نبيان، وهاتان امرأتاهما كانتا خارج خدمة التقوى، فخانتا كلتاهما زوجيهما، هما امرأة نوح، وامرأة لوط!

وهذا تاريخ، يودعه القرآن الحكيم مضابطه، بين يدي الأجيال؛ تبكيتا لهكذا صنف خائن! وحين خان أول ما خان الله تعالى ورسله، وفي بيت زوجي! كان الأنس موجبه! وكان المعروف سببه، والسكن والدعة عشه! والمودة والرحمة كنفه! وككل سبب آخر، لهذه المفردة، الواسعة، الفضفاضة! اتساع فضاء الكون كله؛ ولأنها تسع العالمين، وكما أن العالمين، ولو أرادوا، لوسعتهم أيضا! وحين كان

هذا نبي يتنزل عليه الوحي من السماء، وهذه حال تشرئب لها الأعناق، لا أن توكأ! وعلى مثل شيء من صنيع هاتين المرأتين شيئا!

وقال الله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

وقال الله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: 10].

ولكن القرآن الحكيم، وحين جاء بذكر امرأة فرعون، وإذ ها هي، وليس ينطلي عليها أبهة فرعون وتاجه، وإلا أن عبوديتها لله تعالى هي الأكرم، ولما ضربت مثلها الآخر، الممتاز، العالي، السميق، الرفيع، وفي حكاية أخرى من حكايات هذا الولاء لله تعالى، ومن أعلاه! وفي رواية أخرى من روايات هذا البراء في الله تعالى، ومن أقصاه، ولما تخلع هكذا تاجا! كان يمكن أن يكون حلتها! وأبهتها! ورونقها، وسطوتها، وحظوتها! وكأنها لفظته، وأبته، وخلعته، ورمته، وألقته، وداسته، وركلته، ولما كانت عبوديتها لله تعالى هي الأكرم، والأعز، والأوفر حظا، والأقوم نبلا، والأرفع قامة! وفي حكاية أخرى، ومن أمام حكاية امرأة نوح عليه السلام، ورواية امرأة لوط عليه الصلاة والسلام أبدا! ولنعش الحدث معا! وحين قال الله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: 11].

وهذه بعض من المفارقات، وإذ كانت من حكيم صنعه تعالى، في كونه؛ وكيما يعرف الناس، وكيما يقفوا على الخبيث من الطيب، وحين كانا لا يستويان،

وكما لم يستو الأعمى والبصير، ولا الظل ولا الحرور، ولا الظلمات ولا النور، ولا الأحياء ولا الأموات. وحين قال الله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: 19-22].

المسألة التاسعة عشرة: علم نبوة ضاف

ولكن هذا النبي صلى الله عليه وسلم، كانت أعلام نبوته، ومن الوضوح وكمثل فلق الصباح! وحين اجتباه ربه؛ ليكون هدى الناس، أولاء الحيارى، على يديه صلى الله عليه وسلم، وحين كانوا ينتظرون قدومه!

ولكن هذا الحسد؛ ولأنه ومن حيث كانوا ينتظرون قدومه صلى الله عليه وسلم، بل ويستفتحون ببعثته صلى الله عليه وسلم! وإلا أنه، وها هو قد جاء، ولينكفئ من انكفأ، وليدبر من أدبر؛ كبرا، وجحودا، وعنادا، وحين كان من لسانهم، حالهم، وفعلهم؛ حسدا من عند أنفسهم، ومن بعد ما تبين لهم الحق. وعلى حد ذكر القرآن الحكيم لهذه النازلة، قرآنا يحكي صورة الجحود، والاستكبار، والعناد، والحسد معا، وحين قال الله تعالى﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ

اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 89-91].

ويكأن هذا النبي الأمي العربي القرشي الحاشر العاقب الماحي محمد صلى الله عليه وسلم، وها هو إذ يقول علما آخر ضافيا، وإذ يبرز لنا فلقا آخر صافيا، وهو إذ يتألق خبرا آخر زاكيا، من أفلاق أنوار صباحه ومسائه، وحين: هبت على الناس ريح شديدة فقال صلى الله عليه وسلم: لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بنى قينقاع وكان من عظماء يهود وكهفا للمنافقين قد مات[1]. وهذا علم نبوة ضاف.

على أن أعلام الإعجاز لا تنتهي! وحين كان الناس يرون، ومن أم أعين رؤوسهم، وحينا ومن بعد حين آخر، وما يعد كفلق الصباح أيضا، ولتبقى حجة الله تعالى على العالمين أبدا، ولتكون دامغة للناصبين، والناكصين، والمكذبين، والمعتدين أيضا!

المسألة العشرون: سبب اهتمام القرآن العظيم بشأن المنافقين

إنه؛ ولشناعة فعل المنافقين، وخطرهم على مسيرة الإسلام المنطلقة، الدائبة، المتسارعة، الخالدة، فقد أنزل تعالى مساحة كبرى، في قرآنه العظيم، تعالج خبرهم، وتفضح مسلكهم، وتحذر فعلهم، وشين دائهم، وعوجهم، ومرضهم.

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ /٢٦٢

وأقول أيضا: إن تلك الإعجازات المتتالية، وحين كانت تدمغ أفاكا أشرا، وهي أيضا تلكم التي لا تتأثر كثيرا، أو قليلا، وبمنحنيات القوم أولئك، وتعرجاتهم، ومطباتهم، ومنزلقاتهم؛ وزقاقهم الضيقة، الحرجة، المهلكة، المنهكة، الفاتكة بهم أول مرة، وآخر المرة أيضا! ولأن هذا الإسلام يحمل من أسباب قوته، وحركته الذاتية، الموجبة، الدائبة، وطاقاته الإبداعية الباهرة، ما يجعله سائرا، منطلقا نورا، هدى، صلاحا، فلاحا، نجاحا، سرورا، حبورا، ندى، هنيا، طريا، سائغا شرابه، حلوا مذاقه، في طريق، وفي سبيل الخير، والهدى، والتقى، للناس أجمعين، وكافلهم، ورازقهم، وهاديهم، وحاديهم معا، ومنه فإن هكذا مصدات رياح هبت؛ لإنقاذ الناس من الظلمات، وإلى النور، وإذ كانت كعدم، وبكأنها العدم نفسه!

بين سورتي (التوبة) و(المنافقون): إنما سميت سورة التوبة بالفاضحة؛ ولأنها عرَّت كل منافق! بصفته!

وإنما كانت ولا تزال سورة (المنافقون) هي الكاشفة! ولأنها كشفت كل منافق بنعته، وبينهما باب توبة، على مصراعيه.

إن كثرة كاثرة من سورة التوبة، تعرضت لهتك أستار المنافقين، إلا أن في اسمها (التوبة)، تشوفا إلى توبته تعالى، على من تاب، وأيما فعل؛ فضلا منه، ونعمة.

كان يمكن، ولو من وجه، أن تسمى سورة التوبة باسم سورة (المنافقون)! ولولا أنه عمل توقيفي! وإلا أنه تعالى فتح باب توبتهم، ومن بعد فعلهم بالمؤمنين، ورأفة ألا يعذبهم، إذا تابوا.

جاء اسم سورة (المنافقون)؛ تشنيعا على من كان ذا وصفه، وتنبيها على من كان ذا خطره، يشق صفا، ويفرق جمعا، ويرجف قلبا، ويكذب قولا، ويخلف وعدا.

المسألة الواحدة والعشرون: النفاق الأصغر والنفاق الأكبر!

أوجز صلى الله عليه وسلم كتاب المنافقين الأصغر، في قول جامع مانع، وحين قال: آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان[1].

ولكن الكتاب العزيز أوجز شأن المنافقين، كتابهم الأكبر! ومن قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء145].

ولكن جامع الاسم بينهما، موح بجامع المسمى أيضا! وكأن ذلكم؛ وكيما يكون المسلم، وعلى وجل، ومن أن يكون منافقا، وفضلا على أن به لمة منه، صغرت أم كبرت؛ ولأن النار من مستصغر الشرر. وإنه وما هلك قوم، وإلا يوم جعلوا ربهم الرحمن سبحانه أهون الناظرين إليهم!

وإن نَكْتَ المعصية لموحش، وإن طبعها لمؤلم، وموجع! وكأن نضارة امرئ، وحين يكون من فواق، ومن هم المعاصي، وشررها، وإثمها، وجزائها وعذابها، ومرارتها، ووحشتها، وآثارها!

---

(1) صحيح البخاري: 33

المسألة الثانية والعشرون: جواز حمل الخصم على رد جرمه على نفسه!

أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين [1]. هذا هو قول عبد الله بن أبي بن سلول، وحين أطر والده على الحق أطرا! وفيه أن الحق غالب ظاهر، وأن الباطل منهزم زاهق.

وهذا درس في عقيدة الولاء والبراء، وما أعظمه!

ويكأن هذا العبد، وحين يقف من والده موقفه هذا؛ وإنما كان ذلك لصالح الحق، ومقتضياته، ولوازمه، ومعانيه، وشروطه، وقيوده، وتبعاته، أولا، وإنما كان؛ وكيما يكون الناس على بينة من طبيعة هذا الدين، ولاء وبراء معا، ومن جانب ثالث، فإن هذا أحق ما يتبع؛ ولصالح المشرك بداهة؛ ولأن مثل هذه الصدمات، ومن مثل تيكم هذه الصعقات، لتحرك فيه هواجس الرجعة، والتوبة، والأوبة!

ويكأن هذا عبد، وقد كان له سلف من هذا، وحين كان من سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه مع أمه! وأنه لو كانت لها مائة نفس! فخرجت نفسا نفسا! وعلى أن يترك هذا الدين ما تركه!

فعن سعد بن أبي وقاص قال: أن سعد بن أبي وقاص قال: أنزلت فيَّ هذه الآية * **(وإن جاهداك)** * الآية كنت رجلا برا بأمي فلما أسلمت قالت: يا سعد وما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيربي فيقال يا قاتل أمه قلت: لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء فمكثت يوما وليلة لا تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يوما وليلة لا تأكل

---

(1) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري: ج ٤ / ١١٠

فأصبحت قد اشتد جهدها فلما رأيت ذلك قلت: يا أمه تعلمين والله ولو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي فلما رأت ذلك أكلت فنزلت هذه الآية.[1]

ويكأننا أمام هذا زيد بن عمرو! ويكأننا نتلقى دروسا في هذا الولاء منه، وهذا البراء أيضا، وحين أسند ظهره إلى الكعبة، ومواجها قريشا أجمعها! وأنه ليس يجد أحدا على دين إبراهيم غيره!

وإن هذا لهو الأنس وغايته، وحينما ينتشي هذا الجسد؛ ومن سريان التوحيد فيه جزءًا جزءًا، ووريدا وريدا، وليدور دورته، وعلى أنحاء الجسد كله، ليحكي منظومة التوحيد، والولاء، والبراء، والحب في الله، والبغض فيه تعالى أيضا.

فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا مسندا ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أنى أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته.[2]

ولهذا السبب، فحق لرعيل، كان هكذا وصفه، ونعته، وأن يعدل فيه فرد واحد أمة وحده!

---

(1) تفسير الآلوسي، الآلوسي: ج ٢١ / ٨٨

(2) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٤٨

قال الإمام ابن إسحاق رحمه الله تعالى: وحدثت أن ابنه، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعمر بن الخطاب - وهو ابن عمه - قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أنستغفر لزيد بن عمرو؟ قال: نعم، فإنه يبعث أمة وحده[1].

ويكأننا أمام هذا عمرو بن الجموح، وحين واجهه قومه، وباستغراقه في عبادة صنم، كان له، وإذ ها هم المسلمون ليس غيرهم، يلقنون عمرا هذا درسا، وإذ ليس ينساه التاريخ؛ وليظل في ذاكرته أبدا، عملا صالحا! وحين كانوا قد ألقوه في القاذورات، وليفيق فواقا، كان منه إسلامه، ورجوعه، وتوبته، وأوبته، ومن صدق، ومن إخلاص. وحين قد تركه، وسفهه، وبل وسفه نفسه، ويوم أن كان له عابدا، ومن أمامه عاكفا! وبل وزكاه التاريخ! ويوم أن كان له هادما، وكاسرا، ومحطما، وتاركا، وملقيا، ومفارقا، ومعتزلا، ومفاصلا!

قال ابن إسحاق وغيره: لما قدم النفر الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أظهروا الاسلام بالمدينة، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك، منهم عمرو بن الجموح (بن زيد بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة السلمي من بني جشم بن الخزرج)، وكان ابنه معاذ بن عمرو شهد العقبة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها. وكان عمرو (بن الجموح) سيدا من سادات بني سلمة (وشريفا من أشرافهم)، وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يعظمه يقال له: مناة (كما كانت الأشراف يصنعون تتخذ إلها تعظمه وتطهره).

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٤٨

فلما أسلم فتيان بني سلمة: معاذ بن جبل ومعاذ بن عمرو في فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، وكانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه ويطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر الناس، منكسا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويحكم! من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟

قال: ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه. فإذا أمسى ونام عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، (فيغدوا فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك) فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوما فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك. فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه فأخ ذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس. وغدا عمرو بن الجموح يلتمسه فلم يجده في مكانه، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت. فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه، فأسلم رحمه الله وحسن إسلامه [1].

إن التعمية على الجماهير المسكينة، ومن قول الحق، غش لها، وإنما حسن بيان الحق، ناصعا، بياضا. وإذ ليس تشوبه، ومن شائبة واحدة!

(1) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٣ / ٢٢٢

المسألة الثالثة والعشرون: مجازاة المحسن وعقاب المسيء

"جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً "هذا هو جزاء نبينا صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عبد الله بن سلول، وحين ألزم والده، نزولا على الحق، رجوعا عن الباطل.

وهكذا يعلمنا نبينا صلى الله عليه وسلم، شكر ذوي المعروف، ونبل الأخلاق، وحميد الصفات، وشمائل البر، والتقوى، والصلاح، والعطاء، والإيثار، ونبذ سوء منها، ولو كان شيئا! شحذا لهمم، واستدعاء لقيم، واستنهاضا لقمم، وهكذا يكون مجتمع مسلم.

المسألة الرابعة والعشرون: الجزاء من جنس العمل!

هذا مقابلة بقولهم الإثم، وحكايتهم الزور، وحين يرمون الآخر برمايات البهتان، والاستصغار، والترك، والهجران، والوعيد، وهكذا في تعابير فظة، منبئة عن جحد معروف، وتنكب خير، وخذلان همم.

إن عملا إيجابيا، ما كلف إلا قولا! وحين نقول لصانع معروف: جزاك الله خيرا؛ ولأن من قال ذلك فقد أجزل العطاء والمكافأة، وديننا قول حسن، ولسان شكر.

المسألة الخامسة والعشرون: لا تغمطوا الناس أعمالهم!

إن الذين يحثون التراب على أعمال ذوي الفضل، إنما هم يرهقون أنفسهم، قبل غيرهم، وحين نبأت عنهم نفوس، هكذا أنكرت، وحين أخبرت قلوب، وهكذا فضلا مسحت، وحين تنكرت! وأدارت منه الظهر، وأدبرت!

إن ديننا وضع حدا للرشاء، ومنحٍ حراما، وحين أبدلها بقول حميد، يعدل آثامها أجرا، بل مضاعفا، وحين قلنا: جزاك الله خيرا. في تنشئة لجيل عفٍّ راق!

يحسن بمن قدم معروفا ألا ينتظر إلا قول: جزاك الله خيرا؛ لأنه به قد ارتفع فوق نفوس، تدك أنفه في التراب دكا، فلا يرفع رأسا، ولا يقلب بصرا.

المسألة السادسة والعشرون: حكمة وابتلاء

إن دوران كونه تعالى بين النقيضين، الكفر والإيمان، ابتلاء منه ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 42].

إن دوران الكون بين نقيضي الكفر والإيمان، برهان رباني، على أن وشيجة التقوى هي خير، وأن ولاء فيه تعالى، كان دينا قيما ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 123].

إن إعمال هذا الدين جانبي الولاء والبراء، برهان على أن نفسا علت بإيمانها، فأخضعها لميزان رباني، يربو على كل ميزان آخر، ويرفع من قيمته أبدا.

إننا نغبط صحابة أخيارا، كان لهم شرف الصحبة، وطيب المقام، بين يدي نبينا صلى الله عليه وسلم، ولما يستغفر لهم ربَّهم، آناء الليل، وأطراف النهار، لكن سلوانا أن الرب الغفور حي لا يموت سبحانه. ويكأن سلوانا أيضا، أننا واقفون على عتبة العبودية لهذا الرب البر، ونعتقد، ونجزم، ونوقن، أن ربنا هو هذا الرب الكريم الرؤوف الرحيم سبحانه.

المسألة السابعة والعشرون: البدار الدار؛ لاغتنام منح الفضل؛ فقد لا تعود!

إنه حين دعي عبد الله بن أبي بن سلول؛ للمثول أمام نبينا صلى الله عليه وسلم؛ وليستغفر له، وكان قد أبى! وقد باغته موته، وهذا برهان أن عاقلا ينتهز فرصة عفو عنه، والحال أنه لاضمان لبقائه، ولو لحظة واحدة! فيكون قد خسر الدنيا والآخرة.

قال عبد الله بن أبي بن سلول: أمرتموني أن أومن فآمنت، وأمرتموني أن أزكي مالي فزكيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد! [1] وهذا ينم عما تخفي صدورهم، نفاقا وكبرا.

(1) تخريج الأحاديث والآثار، الزيلعي: ج ٤ / ٣٤

المسألة الثامنة والعشرون: هذه رحمة الله، وهذا صرفه!

إن مجرد مخالطة أهل الخير، وسماع القرآن المجيد، ليَشِيَانِ بتحول دفة صاحبهما إلى الخير، وميل قلبه إليه، إلا نفرا نافقوا، وإلا قوما استكبروا.

كان يمكن لعبد الله بن أبي بن سلول، وما سواه، أن يخالط الإيمان بشاشة قلبه، لو أنه تلقاه نية التسليم، ونيل بركة هذا الانقياد، إلا أنه حرمه، ولما كانت نيته سُوءًا. كان قد جره على نفسه الأمارة أيضا!

المسألة التاسعة والعشرون: كيف يتلقى القرآن المجيد؟!

إن تلقي القرآن المجيد، والذكر الحكيم، وكلام سيد المرسلين، من باب أنهما هدى، وبيان، وصلاح، وتقوى، مؤذن أن يؤتي أكله هدى، وصلاحا، وتقوى أيضا.

إن استقبال القرآن العظيم، وهدي سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، على أنه ترف ثقافي، وحسب، مؤذن أن يحرم فاعله بركته، ونوره، وهداه، وسناه. و ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: 35].

وقال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: 5]. هذا شأن منافق، عتل، زنيم، وإلا من ذا الذي يعلم استغفار نبيه تعالى له، ثم يتأخر، ولو شيئا؟!

المسألة الثلاثون: إنما أنا رحمة مهداة

إن نفوسا متصلة بمولاها الحق الرحمن الرحيم الكريم المنان سبحانه، هي تلك التي تهفو نسمة استغفار، أو عليل تجاوز، أو مفتاح عفو، أو بصيص غفران؛ ولأنها علمت أنه تعالى هو البر الرحيم، عظيم المن، كريم الصفح.

إن نفوسا نكدة، هي تيكم التي تدعى لاستغفار نبي الله لها، ثم هي ترجع القهقري، مدبرة، ويكأنها حمر مستنفرة، فرت من قسورة!

كم كانت تتوق نفوسنا، ونحن نقرأ الذكر الحكيم، وسيرة سيد المرسلين، أن نلقاه فيستغفر ربنا لنا! لكنها مشيئته، ولكنه حسن ظننا به تعالى أبدا.

تعرض عليَّ أعمالكم؛ فإن رأيت خيرا حمدت الله، وإن رأيت شرا استغفرت لكم[1].

إن ضعف هذا الحديث، عند بعض قائلين به. لايخرجنا عن أصل قرآني عام، أن نبينا صلى الله عليه وسلم: رؤوف رحيم. وكما أنه ليس يصرفنا عنه صارف؛ ولأن جلة من أهل صنعة الحديث صححوه[2].

وقال الله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

(1) السلسلة الضعيفة: (404/2) ح (975)

(2) كتاب فتاوى واستشارات الإسلام اليوم، مجموعة من المؤلفين: 301/4

المسألة الواحدة والثلاثون: جمع بين حديثين

إن حديث: تعرض عليَّ أعمالكم؛ فإن رأيت خيرا حمدت الله، وإن رأيت شرا استغفرت لكم. لا يعارضه حديث: أنا فرطكم على الحوض، فمن ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبدا، ليرد عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم. قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا، فقال: هكذا سمعت سهلا؟ فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري، لسمعته يزيد فيه قال: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي [(1)].

ولأن الأول: فإنه محمول على المسلمين، ومن مات منهم على الإسلام.

ولأن الثاني: فإنه محمول على من ارتد من بعد إسلامه. وكفر من إيمانه.

المبحث الحادي عشر: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾

هذا هو شأن الاستكبار، وهذا هو عمل المستكبرين! ولما كان من فعلهم صم آذانهم، وعمي أبصارهم، وصرف أفئدتهم، وطبع قلوبهم، وطمس عقولهم، عن شرعة ربنا وربهم! وعن الهدى، والرشد، والبيان، والبلاغ.

وهذا الصنف، وإذ لا يكاد يجره استكباره هذا إلا عن سواء السبيل، ولما كان قد اعتلاه صلفه، وامتطاه كبره، واستحكم فيه غيه، واحتواه جهله! فليس

---

(1) صحيح البخاري: 7050

يكاد يفرق بين خير وصلاح، فيهتدي إليه، وليس يكاد تراه إلا مطمورا من غيه، وفي قيعان أسافلها، هو ذلك الخزي، ولما كان موسوما على وجوههم، وإذ تراه بأم عيني رأسك، خزيا وخذلانا، فلا يعرفهم التوفيق! وكلاحة، فلا تلحقهم نضارة! وجمودا، فلا يعتريهم سهل من قول أو فعل أو عمل! وتكلفا، فلا يدَّاركهم بسطة، ولا انبساط، ولا منقبة من خير، ولا شارة إلف واحدة! وعسرا، فلا يكاد يعرفهم لهم طريقا يسرا!

ولأن الله تعالى أبى! وإلا أن يذل من عصاه، ولا سيما إذا كان ذاك الصنف رائدا، وإذ لم تسعفه ريادته، إلا إلى الردى! ولما كان هذا القطيع قائدا، وإذ لم تتلقفه قيادته، وإلا من هوِيٍّ، وإلا من سفل، وإلا من ضنك إلى ضنك آخر، تراه مركبا، مضاعفا!

ويكأنك تراه فيه محشورا، محسورا، مغمورا، مطمورا، ومن أم رأسه، بل من فوقها! وإلى كل قدميه، لا على أخمصها وحسب، وصدق الله تعالى ربنا، وحين كان من فرعون صلفه، وكبره، واستكباره، وعتوه، إذ كان من ذلك هلاكه، وحتفه، وفي صورة بالغة خزيا، وبالغة وجلا في آن! وها هو الآن يغرق! ويغرق! ويغرق! وأمام حشود العالمين! كل العالمين! لا عند أتباعه الذين خلو من قبل وحسب! ولما قال الله تعالى من سيرته، ومن شأنه ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: 90-92].

وها أنت رأيت، ثم رأيت قول ربك الرحمن الرحيم، وإذ تنزل قرآن: ليشفي صدور قوم مؤمنين، وإذ أوقفك على هكذا مصير حالك محتوم، لهكذا صنف مذموم، وهو إذ يقول تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ * أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ * وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[طه: 124 :130].

* * *

ويكأنه لا فرق بين كافر بيّن كفره، وبين منافق معلوم نفاقه: ولاستواء طرفي كفرهما، وإن كان النفاق مستورا كفره، وكان من هذا منه عواره، ولما كان الكافر بيِّنا كفره، ولما كان منه بواره!

ومنه فاستويا أيضا، ومن مصير محتوم، لمن كان منافقا، أو كان كافرا! ومن حيث نار: كانت لظى، نزاعة للشوى، تدعو من أدبر وتولى، وجمع فأوعى!

وقال الله تعالى ﴿كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج: 18].

وإلا أن المنافين في الدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيرا! أو شفيعا! ولعله من موجب باطن ستروه، وحين الجزاء من جنس العمل! فباطن

كفرهم كان منه باطن نارهم، سعيرا مؤججا، ومن قاعها، ومن أسفلها؛ وكيما تبدو صورة الإغراق! وحتى تتبدى حقيقة الإحراق! وإن وجدت ولو من أخمص القدمين؛ وكما قد غلى دماغ وأدمغة! من هكذا مصير، يبدو قليلا قليلا، ومن أعين محدودة من نظرها! بل كثيرا كثيرا، ومن بصائر تراه أفقا واسعا واسعا! والله المستعان!

وقال الله تعالى﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145].

وعن النعمان بن بشير: إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة، لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة، يغلي منها دماغه. [1] وغني عن البيان، ما قد جاء من تأويل؛ لنعت هذا الدرك الأسفل من النار، ولما كانوا مطبقين على أنه مصير مخيف، مخوف، مرعب، مجلجل، مزلزل، يأخذ باللب، ويسيطر على الأفهام، ويصعق الأنام؛ ومن رعبه، ومن شدته، ومن ظلمته، ومن حسرته، ومن إحاطته، ولما كان من قولهم إن: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم [2].

* * *

وهذا أوان ذكر المقصود:

وهذا حال المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾:

(1) صحيح البخاري: 6561

(2) تفسير ابن كثير: ج ١ / الصفحة ٥٨٣

1- ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾! أي: حركوا رؤوسهم: استهزاءً!

وإنما لم يذكر القرآن أنهم مستهزئون! وإنما لأن هذه صفة خلعوها هم على أنفسهم! وحين يلوون رؤوسهم! وإنما كان هذا من استهزاء، فدل على استهزائهم، ومن موجب أنهم لووا رؤوسهم!

ولكن القرآن المجيد قد شن على هكذا صنف، ومن نعوت الشين، ما الله تعالى به عليم. وحين كانوا منافقين، ولما كانوا مستهزئين أيضا!

وإنما قرأ الناس بتضعيف حرف الواو، ومن قوله تعالى وصفا لهم ﴿لَوَّوْا﴾! برهانا آخر على أنه استهزاء مركب أيضا؛ ولقولهم إن زيادة المبنى دلالة على زيادة المعنى، وهذه من لفتات قرآننا، ووقفاته المؤثرة أيضا!

وإنما كان من ألوى، هو ذاك الدعي عبد الله بن سلول! ويكأنه فرد، شخص، مفرد، نكرة، وأن نعم كل ما سلف! ولكنه متحدث رسمي، باسم فريق، كان من شأنه هذا؛ ولأنه ولو كان واحدا، وإنما بنفاقه هذا، يفسد أمة بأكملها! وكما يفسد قليل سم كثير ماء، طاهر، طهور، طاهر من نفسه، مطهر لغيره، نقيٍّ، صفيٍّ، جليٍّ!

2- ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾! يعرضون عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإذ ليس يعرضون عنه لشخصه! وإنما لما يحمله بين جنبات ذات نفسه من عقيدة صلبة كالجبال الرواسي! بل أشد ثباتا منها؛ ولأن هذا القرآن الذي قد تنزل عليه صلى الله عليه وسلم، وإنما كان أشد على الجبال! وحين قال الله تعالى مولانا الحق المبين سبحانه ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا

مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

وبل حين قال الله تعالى أيضا ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: 31].

وبل، وهذا جبل، قد صار يوما دكا، رملا، ترابا، غبارا! ومن تجل رباني! صدقناه، ولم نزل مشدوهين! ومن هكذا مشهد، شاهد على مقام عزة ربنا، وجبروته، وكبريائه، وتجليه، وقدسيته، وتنزيها له تعالى، عن مثال، وإحالته عن نظير، أو شبيه، أو عدل، سبحانه وتعالى، رب، خالق، كريم، عظيم، مهيمن، متكبر، مدبر، قيوم السماوات والأرض، ومن فيهن، سبحانه أيضا أيضا.

وحين قال الله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143].

ومنه: فدل على عظم هذا الذي جاء به هذا النبي العربي الامي الهاشمي القرشي الحاشر العاقب الماحي، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قويا، عزيزا، وإذ كان من شأن ما جاءت به أنبياؤه تعالى، وعلى هذا النمط، والنظام، والشكل، والطريقة، وحين قال الله تعالى أيضا ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [آل عمران: 12].

ولأن هذا الدين ذو تبعة وكلفه، ولأنهم قالوا:

ومن يخطب الحسناء لم يُغْلِها المهر! وحين كانت حسناؤنا هي الجنة مفازا، ولما كانت هذه هي النار، وحين كانت للطاغين ومن أمثال أولئك المنافقين، دارا، ومثوى، ومآبا!

ولكن هذا وصف آخر للمنافقين، وإذ كان من صدهم، أنه وصف لصيق بهم! وحين قال الله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١].

ولكن مجيء المفعول المطلق هكذا مصدريا! له بلاغته، وحين خلا من وصف، أو عدد؛ ليشمل كل وصف زاكم، أو عدد أيضا!

ولكن علاقة أريبة أديبة بين الفعل صدَّ مضعفا، وكما قد رأيت، وبين مصدره صدَّ، وكما هو معلوم!

ولكنه جاء ههنا مفكوكا تضعيفه! وليحمل صدودا آخر كثيرا مضاعفا، دلك عليه تكرار حرف الدال، متماثلا،كبيرا، مفتوحا، ممدودا، وليس يكاد يقف! وإلا لزوم الوقف الطبيعي على الآي!

ولكن مجيء الفعل ﴿يَصُدُّونَ﴾، في الآيتين مضعفا؛ ولاستلزام هذه بساطة، ويسر، وسهولة، وانسيابية، تميزت بها-كلها- لغتنا العربية المجيدة، ولما كان يتعذر مجيئه مفكوكا تضعيفه هذا!

ولكن مجيء الفعل ﴿يَصُدُّونَ﴾، في آيتنا محل البيان، ومخلى عن مصدره! وإذ كان آية ضافية أخرى! ولما كان الحال، حالَ ذكرٍ لزعيمهم، وإذ كان يحمل من

النفاق ما يثقل كواهل جبال! لا جبلا واحدا! فبقي إضمار صده! ومن خلوه عن ذكر مصدره! وكيما يروح الخيال ما يروح في استكناه هذا الصدِّ، وبواعثه، ومخاطره، وأسبابه، وموجباته، وكنهه، وصفاته، ونعوته أيضا!!!

وهذه بلاغة قرآننا!

3- ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾! أي: متكبرون.

وأنت ترى وزن الاشتقاق على الاستفعال! وهو من بذل الجهد في المكابرة؛ ومن المعاندة، والتعدي في الخصومة، والفجر فيها أيضا!

وهذه لمحة فنية، فريدة، توجب وقفة، وحين كان الناس ليسوا مكتفين، بما عنت لهم جهالتهم، من كبر، بل انضاف إلى كبرهم كبر آخر! وها أنت قد رأيت، ثم رأيت، كم من جهد لهذا بذلوه! وحين كان الاستفعال من أجناس هذا البذل، ودلالاته!

وهذه من فرائد لغتنا العربية الجميلة!

ولكن هذا الذي نقف عليه، وحين كان الناس؛ ومن كبرهم المركب المضاعف هذا، وإذ زادهم ذلكم حنقا، وبغضا، لهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولما جاء به!

وها هم كانوا ينتظرونه، وحيا لهم، وما كان هذا الوحي، وإلا بما جاء به هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولما كانت هذه وقفتهم؛ ومن ضيق لب، وحشرجة صدر، وإلا كان التعبير القرآني المجيد غاصا، داخلا، كاشفا دهاليز أعماق النفوس البشرية العجيبة؛ ومن

مسلكها هذا، وحين عبر هذا القرآن، المجيد، الحكيم، الفرقان، الذكر المبين، عما تكنه صدورهم، من هكذا كبرهم المركب هذا، وحين يحول حياتهم إلى ضنك، ووحشة، وضيق، وحشرجة، وحمق، وحنق، دلك عليه مجي المشتقة هكذا على وزن مستفعلون! وكما قد رأيت قبل أيضا!

وإن قيل: كيف يستصنعون كبرهم هذا؟! ولأي داع استجلبوه؟! وما الذي يحملهم عليه؟! وفي هذا من التعب، والنصب، والمشقة، ما هو معلوم؟!

وأقول: وأن نعم!

وأرأيت كيف يقدم بعوض على نار تأجج، وقد من تصرفه هذا هلاكه؟!

وإنهم، وحين كفروا، وكفر غيرهم، وإنما هذا الكفر مشقة أيضا! ولأنه فيه هذه الآلهة المدعاة الكثيرة، وحين تتجاذب هذا العبد، وإذ كان كل يحسب أنه له رب!

وأنت خبير، ما جهد قد أصابه وما عنت قد ألم به وأحاطه؟!

وألم تر كيف كان قول ربك تعالى، وحين قال ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29]!

وإذا كان هذا هو حال أولئك المنافقين، وحين كانوا قد نودوا، ولما دعوا إلى أن يستغفر لهم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وحين قد تألفت أمامنا صورة كآبتهم؛ ومن كفرهم، ومن كونهم لووا رؤوسهم، وهم يصدون، وهم مستكبرون! وكما أنف من قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ

اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾. وفي أضعاف مضاعفة مما ذكر، وعلى ما أنف وبيناه حالا!

وأقول: وما حالهم إذا كان النداء إليهم، ولغير استغفاره صلى الله عليه وسلم لهم؟! وإذ كيف يلملم ذو علم وخبرة بالعربية إحاطة ذلك! وبيانه للناس! وليكشف هكذا عوار للناس! وحين نافقوا! وحين لووا رؤوسهم! وحين رأيتهم يصدون! وهم مستكبرون أيضا! وهكذا في توالٍ، غريب، عجيب، مدهش، وحين يدعى قوم إلى وليمة سلطانهم، وهل من أحد أمكنه التغيب؟! وما بالك باستغفار نبي ليمحى به سيرتهم تلك الزاكمة، وليطهر بهم هكذا تاريخا لهم، ضغينا، حنقا، حمقا، أهوج، أخبل، أهبل أرعن هكذا؟!!

وإنما لم يقع هذا فرضا؛ ولأنه الكتاب المجيد، لم يتعرض له، وحسبنا ذلك أيضا.

وأقول: إن هكذا حالا، مفترضا، وإذ أمكن للكتاب المجيد مجابهته، ومن مثل مجابهته لما كان منه أدعى، وأقوى، وأعتى، وأشد، وأخطر؛ ولأن الله تعالى لا تخفى عليه خافية! ومن موجب أنه تعالى ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7]. ولأنه تعالى قال أيضا ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18].

ومرة أخرى: وإنما لم يقع هذا فرضا؛ ولأنه الكتاب المجيد، لم يتعرض له، وحسبنا ذلك أيضا.

وقال: إنهم كرّروا هز رءوسهم، وتحريكها، وأكثروا، استهزاء بمن يدعوهم لاستغفاره صلى الله عليه وسلم لهم! [1]

هكذا بتضعيف الواو! كناية عن حنق، ونيابة عن جهل، ودلالة على خيبة، وبرهان غضب.

أجمعت القَرَأَةُ على تضعيف الواو في ﴿لَوَّوْا﴾: دلالة على إكثاره، إلا نافعا فقرأها (لَوَوْا): برهانا على إفراده، وكل دال على عتو عن سداد، ونفور عن هدى، واستكبار عن رشد.

وقال: وقرأ نافع " لووا " بالتخفيف. وشدد الباقون، واختاره أبو عبيد وقال: هو فعل لجماعة. النحاس: وغلط في هذا، لأنه نزل في عبد الله بن أبي لما قيل له: تعال يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم حرك رأسه استهزاء. [2]

وهذه منظومة جهل، وجهالة: ومن إعراض أخرى! وهذا كيل بعير: جهلا مركبا؛ لأنهم:

1- نافقوا.

2- وأبوا أن يستغفر لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم!

ولكن ملمحا بلاغيا بليغا، وحين جاء النظم الكريم هكذا، بصيغة الجمع، ومع أن المقصود به هذا المفرد، النكرة، الدعي، المنافق، المحادُّ، عبد الله بن أبي بن سلول! وكما أنف.

---

(1) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢٨ / ١٣٨

(2) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٨ / ١٢٧

فإن قيل: كيف أخبر عنه بفعل الجماعة؟ قيل له: العرب تفعل هذا؛ إذا كَنَّتْ عن الإنسان! [1].

إنه حين دعي عبد الله بن أبي بن سلول؛ وليستغفر له نبينا صلى الله عليه وسلم، وكان قد أبى، وقد باغته موته، وهذا برهان أن عاقلا ينتهز فرصة عفو حل به، ولا ضامن لبقائه من بعده لحظة واحدة.

إن مزاوجة الدعي عبد الله بن أبي بن سلول، بين عز وذل، وحين كفاء القرآن المجيد، وبذكره العزة، وحسب؛ ذلك لأنه تعالى عزيز لا ذل معه، وغنىٰ لا فقر معه، وهذا إعجاز ضاف.

وعن بعض الصالحات- وكانت في هيئة رثة-: ألست على الإسلام؛ وهو العز الذي لا ذل معه؛ والغنى الذي لا فقر معه!:: [روح المعاني، الآلوسي: ج ٢٨ / ١١٥]. وهذا كناية عن أن الإسلام هو العز كله، ولا ذل معه، وإن بدت في هيئة رثة!

إنه يكفي أحدنا شرفا وعزا، أن ينتسب لهذا الدين؛ ولأنه عز كله، ولأنه كرامة كله، ولأنه شرف كله، وحين أثنى هذا القرآن المجيد على هكذا فريق من المؤمنين ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: 72].

عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه: أنّ رجلاً قال له: إنّ الناس يزعمون أنّ فيك تيهاً؛ قال: ليس بتيه، ولكنه عزة، وتلا هذه الآية (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) [1].

---

1) المرجع السابق: ج ١٨ / ١٢٧

جاء قوله تعالى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: 6]. لأنهم لا يلتفتون إليه: إعراضا، واستكبارا، ولا يعتدون به؛ لكفرهم، وعنادهم.

إن هذا الإصرار القرآني العجيب! ولما لم يكن من عهده، وإنما لكبر إثمهم، وإنما لعظيم جرمهم، وحين كانوا بوجهين!

وذو الوجهين هذا! هو أرزى ما في جعب التاريخ من خطر! ولأنه يتسلل: من نفاقه هذا إلى عصب الدولة، فيزلزل أركانها، ويهد بنيانها، ويلوي على ثمارها، ومكتسباتها، ويجعلها محلا للنخر، كالسوس في خشبه، أو كالسعير من هشيمه!

ولولا أن الله تعالى يكشف سره ونجواه، ويجعله هكذا، معرى بلا لباس يستره، لا من تخف لحق به، بل من انهزام، وكشف سوأة، وعوار، وبوار، وخسار، وانحسار؛ ونظير فعله هذا!

قرأ أبو جعفر: آستغفرت. إشباعاً لهمزة الاستفهام؛ إظهارا وبيانا! وكناية عن كثرة شفقته صلى الله عليه وسلم بهم، وعن كثرة استغفاره لهم؛ رأفة، ورحمة، وإن عاندوا! وكناية أيضا، وأنه ومهما استغفرتَ لفريق هذا نعته ووصفه، وأنى يغفر الله تعالى لهم؟!

وإن ذلك إظهارا وبيانا، وأن قوما لا يرعوون، مقابلة بعباد آخرين ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60].

---

(1) روح المعاني، الآلوسي: ج ٢٨ / ١١٥

إن أخص من خص بالعزة هو الله تعالى، لكنه أضفاها على رسوله، وعلى المؤمنين؛ وحين باعوا أنفسهم له وحده، وأرخصوا مهجهم أجله، وشروها ابتغاءه مرضاته وفضله.

وقال تعالى ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 7].

كان من رحمة ربنا الرحمن، أن له ملك السماوات والأرض، ومن فيهن!

وكان منه خزائنه نراها! لاخبرا! سحا، غدقا، مجللا! يمنح هذا، ويعطي هذا، ويرزق هذا، ويكلأ هذا، ودون اعتبار من كفره، ودون نظر إلى إيمانه!

وهذا حنو كريم، وهذه رأفة لطيفة، لا تقاس بمقاييس الناس أجمعين، ومن أزل، وإلى يوم الدين!

ولأنه قد علم بالتجربة، كم سحت الناس بينهم بينا! وكم شح الناس بعضهم بعضا! وكم بخل الناس للناس! والله هو الغني الحميد!

إن المنافقين يعلمون أنه رسول الله إذًا! وينافقون رغمه! وهذه بلية، يعجز قلم عن بيانها، أو لسان عن تأويلها!

وهذا دأب حصارهم، كان معهودا؛ نكاية في الحق وأهله؛ ولأنهم ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 130].

تضمنت سورة (المنافقون)؛ وعلى قصرها، كما هائلا، وركاما شاملا، ووصفا عاتيا، ونعتا باليا، لما عليه صنف هذا وصفه؛ ولأنه يحمل شرا مستطيرا بين جنبيه أقضهما.

كشف القرآن المجيد عن سوءات المنافقين، وعلى طريقته، بيانا، وبلاغا، وبحيث عراهم، فلا يكتسون بلباس، ولا يتوشحون بوشاح، يواري سوءاتهم، ولا أخلاقهم النكدة.

كان عبد الله بن سلول رأس المنافقين! وصفا له! باعثا على النفرة! والشفقة! جانبين اثنين: نفرة؛ لأن عليه إثمه، وإثمهم معه، وشفقة؛ إذ خالف ظاهره باطنه.

كان عبد الله بن سلول زعيم الأوس والخزرج، ولم تنفعه زعامته، ولأنه خاب، وخسر، وحين أنزل فيه قرآن، كشف عن سوأته؛ ولما أضمر نفاقا.

ليس يوجد باعث واحد، يبرر نفاق ابن سلول! ليكون خبره هكذا مؤلما! وحين نرتل ليل نهار قرآنا! فضح سريرته، غير زعامة أمكنه نيلها كأبي سفيان!

إن محبة الزعامة مهلكة، وتأتي أول ما تأتي على قلب امرئ؛ لتشعل فيه نارا، مؤججة! لا يمكنه إخمادها، وحين أوقد شرارتها الأولى، فكان مسؤولا عن إطلاق شرارتها الأولى، كابن سلول! ومن نحا نحوه أيضا!

إن خير ما يتدرعه عبد، هو أن تكون لله تعالى وحده عبوديته، وإن أسمى ما يرتديه لب، هو ألا تكون إلا لله تعالى ذلته، وحينها يكسوه ربه تعالى، ومن العز كله لا بعضه حلته وعزته أيضا!

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: 12].

هكذا يغوص القرآن الحكيم، والذكر المجيد، الكتاب المبين، والفرقان العظيم، ويجول، ويصول، ويروح، ويغدو، داخل دهاليز هذه النفوس البشرية، وعلى اختلاف جيناتها، وأحماضها النووية، وأسرارها، وسلاسلها الأمينية، المختلفة، والمتباينة، والملتفة حول بعضها بعضا، في صورة تحكي الإلف، والتلاؤم، والانسجام، والتضام، بين أبعاض هذا البدن! والإعجاز أيضا!

وفي بادرة تقصص رواية التلاحم بين أجزاء هذا الجسد، وما زال علمه غائرا، واسعا، عميقا عمق ما خلقه مولاه، وإذ لم نعرف من هذا الجسد وأسراره إلا قليلا، ورغم ضخامة ما قد عرفناه! ولأنه الله تعالى قال ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

وهذا الذي هو عقد كل عاقل، آناء الليل، وأطراف النهار؛ ولأن هذا العلم كل آن يتكشف لنا منه ها هنا بصيصا، وهناك ثقبا بريقا، وهنالك جديدا باهرا مبهرا، وعندئذ مدهشا، معجزا، موجبا، مخبتا! ومما لم يكن معلوما قبلُ، ومنضافا إلى هكذا رصيد معجز عن هذا الجسد، الذي يحملنا! أو نحمله!

وفي أسرار توحي بأن خالقا عظيما من وراء خلق هذا الجسد وإبداعه! وفي قول يهز أركان هذا الكون كله، وفي إعلان يزلزل هذا الوجود أجمعه أيضا! وحين قد أضفى علينا ملكوتا عجيبا، مدهشا! وحين قد أشار أول ما أشار إلى أن أصل خلق هذا الجسد من نطفة من ماء مهين، وسلالة من طين، وصلصال كالفخار، ومن تراب!

وإن كل هذا إلا موجود بين أيدينا! وهل من قائل إن من مكنته شيئا من ذلك؟!

وقال الله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: 4].

ويكأن هذه هي صبغته وفطرته، ومن إحالة من قوله تعالى ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: 138].

ولكن هذا بديع خلقه، وإبهار ما أبدع، وخلق، وإعجاز ما برأ، وما ذرأ أيضا.

وقال الله تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117].

وهذا الجسد، إن هو إلا قيمة من القيم التي بين أيدينا، وإذ إن من ورائه أجساما أخرا! عصية على الحصر! أبية على العدّ! ومتأبية على الإحصاء أيضا! وإنما خلقها هذا الخالق، البارئ، المصور، العظيم، الكريم، المنان؛ تسخيرا لهذا الجسد؛ وكيما يشكر، ويحمد، ويخبت، ويخضع، ويخشع، ويسكن، ويطمئن، ويلوذ! من ضعف، ومن حاجة، ومن اضطرار، ومن عبودية، ومن سكون إلى غاية حميدة واحدة، هي غاية المجد، والصيرورة إلى آفاق العز، والإباء، والكرامة، وحين قد كان عبدا لإله واحد، وحسب: هو الله! ومن بعد فيض عطاء ربه الرحمن الرحيم عليه هكذا!

وقلت: ولعل نفوسا، ومن بعد ما أنف ألا تتخذ من دونه إلها آخر!

بل إن ما يكشف عوارا، وحياء، هو هذا التنكب لهذا الخالق، العظيم، العزير، الجبار، المتكبر سبحانه، ولما راح قوم يعبدون غيره، وإذ هم هم أولئك الذين راحوا، ومن بين معاملهم هم! يمدوننا كل يوم عن أنفسنا وعن أنفسهم علما!

وقال الله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: 1-6].

وبل إن قوما، ومن بعد إظهار دينه أعلامه، وعلى الدين كله، ومن بعد بثه هذا الدين أنواره، وأضواءه، وأركانه، وأصوله، وقواعده، وسلمه، وحربه.

وإذ تتبدى طائفة لم تسطع النظر إلى انبهار نوره! وليتها خضعت، وخشعت، بل إنها لا آمنت فنجت! ولا كفرت فبدت، وليمكن علاجها، بل نافقت، وأظهرت، ودون ما تخفيه!

ويكأنه الله كاشفا عما تكنه صدورهم، وما يعلنون. وليتبدى لنا منهم وصفا، ونعتا؛ وليمكن التعامل مع صنف كان هذا ما نعاه القرآن الحكيم عنهم،

وحين كان ذلك أيضا، وإنما يعد من طلاقات هذه القدرة الربانية، المدهشة، المعجزة، المبهرة، والمعبرة أيضا!

ولأنه تعالى هو خالق هذه النفوس، ويعلم كل ما خلق، وذرأ، وبرأ.

وعلى أن هذا النفاق زاكم جدا!

ولأنه؛ ولو لم يكن من معناه إلا هذا التذبذب لكفاه!

وقال الله تعالى ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 143].

ولما كان هذا الداء، العضال، المستحكم الردي، الذميم، ولو لم يكن من معناه أيضا، إلا هذا إحداث شرخ، وخلل في جسد الأمة، وكان منه هذا الذي نراه من هذا التذبذب، ولأن المرء ليعاقب على نقيض مقصوده! ومنه.

وبه كانت هذه الحيرة، والتي لا مكنة لمنافق أن يهنأ بنوم عميق! أو غير عميق يوما! جزاء وفاقا!

وهذا أوان المقصود:

* * *

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾: هذا زلزال بقلوب يهود، حين يجابههم القرآن، أنه مخرجون! فلا يملكون حياله إذن من تخطيط، ولا يجدون أمامه مفرا، وهذا إعجاز ضاف.

إنه لو لم يكن من قرآننا، إلا أنه كشف عما في صدور الناس، لكفاه إعجازا، وتحديا، تخر أمام عظمة منزله الجباه سجدا.

ولأنه الله تعالى! ذلكم الرب، العزيز، الجبار، الغالب، المتكبر، وحين قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: 48].

إن القرآن كشف، وغير مرة، عما في صدور الناس أجمعين، وهو ما لم يرد عن كتاب بشري آخر، كمثله، وليس منه في شيء! ولا من شيء! ولو في بعض منها؛ تحديا، وإشعارا، بإعجاز موجب للتقوى.

جمع القرآن المجيد بين إعجازين متآلفين معا! وحين أخبر بأحداث، ستقع، ووقعت، وحين أخرج مكنونات الضمائر إلى الوجود! وبكأنها صفحات مسطورة، وبكأنها صحائف مقروؤة، وعلى الملأ!

إن قوما يكتبون، وكتابتهم بليغة، لكنها لا تصمد أمام وجه بلاغي واحد، توج القرآن به التنزيل، وفي كل مرة يكون للبلاغة فيه موردا! وكله موارد!

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾: هذا ضرب، يقلب حياتهم غما، ويملأ قلوبهم حزنا؛ لأنه قطع بإخراجهم، لا على وجه يقين؛ دلالة (إنْ)؛ ليقفوا هكذا حيارى، أمام مصيرهم هذا!

وإنما يكون اليقين مريحا! وأيا ما تكون نتائجه!

وأما حالة البين بين هذه فمربكة! وأيما إرباك!

وهذه طلاقة كتاب ربنا الرحمن سبحانه!

وألم تر أنهم بين شأنين كليهما موجع، يوم القيامة: ليقض عليهم هذا الرب العظيم الجبار المتكبر! أو أن يخفف عنهم عذابا يوما من النار؟!

وقال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: 36].

إنه لو كان القرآن المجيد قد حكم بإخراج بني النضير، قولا واحدا، فلربما استراحوا؛ ولكي يعدوا أمرهم، لكنه الإعجاز، وحين راوحوا مكانهم، أمام حرف الجزم الشك (إنْ)!

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾: هذا بيان للناس: أن بني النضير سيُخْرَجُون! وعلى غير رغبة منهم! بل أمام قوة كاسحة! هي قوة الإسلام الحنيف الخالد! وحين تجرفهم، سيلا غامرا!

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ هذا حكم القرآن الكريم الخالد، وأن يهود قد أخرجت، بلا عودة، وأمام ناموس رباني حاكم، ولا تغير أمانيهم من وضع قائم مستقر شيئا!

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾: هكذا بصيغة الجمع! وكأنه لم تتبق منهم بقية! وأيا ما كان عدادها! ولو فردا واحدا! برهان إذلال؛ ولأنهم أبدوا بشرهم، وسبقوا بظلمهم، وحين جاهروا الله تعالى بعدائهم.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾: فرق بين خرج تلقاء نفسه، حافظا ماء وجهه! وبين من (أُخْرِجِ) بقوة جبارة؛ ليعاود انكساره أمام نفسه، يوما من بعد يوم آخر؛ حسرة وخذلانا.

﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾: ولأنهم منافقون، فلا يخرجهم جند الله؛ ولأنهم ظاهرهم أنهم معهم، والقرآن يحفظ لهؤلاء كرامتهم، وإن فضح سريرتهم!

﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾: هذا بيان ضاف، وغوص عميق إلى أبعد أعماق نفس بشرية، يمكن تخيله! ولأنه تعالى يعمقهم أكثر مما نتخيل نحن! ولأننا نتخيل حسبما تمليه علينا هكذا طاقاتنا المحدودة! وأما طلاقات القدرة الربانية اللامحدودة، فإنها تنكشف أمامها ما قد سبق لها خلقها من قبل!!

ويكأن كل هذا، وحين حكم القرآن المجيد أنهم- المنافقون- لايخرجون مع يهود؛ كشفا، وهتكا لسرائرهم. وظنا، وزعما أنهم خافون! بهكذا جبلة! وهكذا خبيئة! ماكرة، سادرة، خاسرة!

﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾: هذا نفي من خلال التضاد بين الإخراج والخروج! وهو من سياق القرآن البلاغي، والذي ما كان يصلح له إلا حرف النفي: لا!

﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾: جاء اختيار حرف النفي(لا)؛ دلالة على شموله كل زمان، وعلاوة على أدائه النفي أبدا! وهذا أبلغ! وبدلا عن حرف النفي(لن) الدال على الاستقبال! ودلالة على تأكيد النفي، لا أبديته، وهذا أقل بلاغة!

ويكأنهم قالوا: إن أصل (لن) عائد إلى (لا أن)! وبه فاشتراكها مع (لا) ومن باب النفي أيضا، ولكن ولهذا الاشتراك كانت (لا) أغنى وأقنى! عن هذا الاشتراك، فكانت أبلغ أيضا! ولتفردها بعاملي النفي والأصالة معا!

وقال: وذهب الخليل، والكسائي، إلى أنها مركبة، وأصلها لا أن، حذفت همزة أن تخفيفاً، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين.[1]

(1) كتاب الجنى الداني في حروف المعاني: 271

﴿لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾: جاء الحرف(مع)؛ كناية عن مصاحبة باطنية، بين المنافقين ويهود، في مكنون عداء مستطر للفئة المؤمنة، وبرهان بلاغة أيضا!

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾: هذا أسلوب تضاد، ويحمل معنى المقابلة أيضا! ومن نفس مادة الفعل(خرج)، اختلاف بنية، لا أكثر، لكنه خلع بيانا ضافيا على صورته!

إن التضاد لم يكن كافيا! حين كان من أصل مادة الفعل(خرج)! وإنما أضفاه كفاية مجيء الأول مثبتا! والثاني منفيا!

وهذا حبك قرآننا المجيد!

هذا بيان أن يهود سيخرجون جميعا، وأن المنافقين لايخرجون جميعا أيضا، وهذا يرد أن أحدا تحدى بخلافه.

إن إخراج الكل من اليهود، وإن عدم خروج الكل من المنافقين، برهان على تحدي القرآن، وإلا فلو كانت مسحة عقل لستثني إخراج أو خروج!

جمع تعالى على يهود نكالا مركبا، أقض مضاجعهم، فلا ينامون، وعكر صفوهم، فلايهدأون، وبدَّل أمنهم خوفا فلا يهنأون، وكذا المنافقون، ومن سلك دربهم.

وبه فقد أورث الله تعالى يهود ذلا، خمسا:

1- ولأنهم سيُخْرَجُون.

2- وأن المنافقين لا يَخْرُجُون معهم.

3- وأن يهود سيقاتلهم المسلمون.

4- وأن المنافقين لا ينصرونهم.

5- وأنهم ليولن أدبارهم.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا... وَلَئِن قُوتِلُوا﴾: جاء الفعلان مبنيين للمجهول؛ برهانا أن جنده تعالى مختلفة أجناسهم، وأن ملائكته تقدمت الصفوف غير مرة! تخويفا ورعبا!

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا... وَلَئِن قُوتِلُوا﴾: جاء الفعلان مبنيين للمجهول؛ ولكي تمتلئ قلوبهم حيرة! ولماذا المبني للمجهول! وهاهم أولاء المسلمون المقصودون أمامنا، ومعنا، ومن خلفنا، وعن أيماننا؟!

إن ارتكانا إلى المنافقين خيبة، وإذا لم يكن القائد واعيا حصيفا لأفعالهم؛ ولأنهم لا يخرجون، ولا يناصرون، ويولون الأدبار، فأمرهم توهين وإضعاف.

إنه ليس شيء يخرج عن مشيئته تعالى، ولا قدرته، وإنما هذا فرش لتأويلاتنا المحدودة!

وهكذا كانت محدودة، وكمحدود أبصارنا! وحين ترى ما منه يمكنها أن تميز بين رجل وامرأة! مسافة قصرا! وحسبها!

ومنه فأورده القرآن الحكيم على فرضياتنا نحن المحدودة! وكيما يمكن تخيله، ومعايشته، والتفاعل معه، والتعامل فيه!

وهذا فعل المنافقين، والمرجفين، يبغونكم الفتنة، ولا خير من وجودهم في الصف ابتداء.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾: ولأنهم قلوبهم خاوية، ولأنهم أفئدتهم هاوية، فلا يستحضرون شهادة، تدفعهم؛ ليجابهوا بصدورهم، مكشوفةً، ساحة الوغى.

﴿لَيُوَلُّنَّ﴾: منهزمين؛ ولأنهم دخلوا المعركة حين اضطروا؛ كيما لا يكشف أمرهم، وأفئدتهم خواء، من إيمان، وفراغ، من محبة نيل شهادة، ليسوا من أهلها؛ ولا هم لها كانوا أهلا أيضا!

﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ وداخل المعركة حاملا بين جنبيه هكذا خذلان! فما كان نصيبه منها إلا الهزيمة المنكرة، والخذلان المر، ويكأن رجوعه القهقري كان أدعى!

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾: هذا حكمه تعالى فيهم، فلا ينصرون طواعية، وإن نصروهم إكراها، فالنتيجة واحدة، وحيث ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾!

﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ ابتداء. لأن هذا ما يوافق نفاقهم! وقول بعضهم: لا يدومون على نصرهم، محل نظر، اللهم إلا كان دخولهم المعركة؛ كيما لا ينكشف أمرهم!

وهذا تأويل سائغ؛ جمعا بين ظاهر النظم المبين، وكلام أهل التأويل من المفسرين.

لا المنافقون، ولا اليهود، تجمعهم ألفة؛ لأن قلوبهم جميعا شتى. لكنها المصالح، وحين كان اجتماعهم؛ على خذلان المؤمنين، لكنه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39].

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾: أي: ولئن شئنا أن ينصروهم! زينا ذلك لهم. ليولن الأدبار.[1] ولأنه ليس يكون في كونه تعالى إلا ما شاء. ولا أحد من مكنته أن يتعدى هذا المشيئة الربانية الكريمة، لا من قليل، ولا من كثير! بل ولا شيء!

وهذا إعجاز مركب! ولأنه تعالى يبتر ساقا أينعت، ويقطع رؤوسا طأطأت، وحين أمكنها إبليس! تصور، ولو مجرد التصور، أن إمكانا لها الانفلات من عقد الجاذبية للقدرة الربانية!

أو أنه قد سول لها، هذا إبليسها! فمشت في ركب جهلها وجهله، أن أحدا أمكنه، ولو من وجه، أن ينسلخ، ولو شيئا أيضا، من هذه المشيئة الإلهية المحكمة الكريمة!

وسائلوا تاريخا، لا يكذب، وأني يوما قد سجل هذا من سجلاته الخالدة، أو أنه قد طوى عنها صفحا لتقادم عهدها؟!!!

ولأنه أيضا ليس يحدث في هذا الكون، وليس يقع، إلا من حكمه تعالى، وعلى إرادته، ومشيئته، وتقديره، وإحكامه، شبرا شبرا، بل شيئا شيئا!

دل إخراج يهود، وعدم خروج المنافقين معهم، على إثبات صحة هذا القرآن المجيد، وعلى صدق هذه النبوة الفريدة، وعلى طلاقة هذه القدرة الإلهية، العزيزة، الكريمة، القادرة؛ ولأن كل ذلك قد حدث تماما!

فقد أخرج يهود! ولم يخرج المنافقون!

(1) تفسير القرطبي: ج ١٨ /٣٤

إنه لو كان يهود، والمنافقون، وغيرهم منصفين، لآمنوا؛ وحين حكم القرآن الحكيم، بإخراج يهود! وأخرجوا! وقطع بعدم خروج المنافقين! ولم يخرجوا!

إنه ليس يخرجنا سياق قطع القرآن، بإخراج يهود، وبيانه عدم خروج المنافقين، عن أنه يزيدنا يقينا، فوق اليقين! وسواء آمن أغيار أم كفروا!

إنه لا يخرجنا إعجاز القرآن! وتحديه! من يومه! إلى يوم الناس هذا! باقيا! خالدا! كاشفا! كل يوم! عما يبهر! ومنشئا، لما يدهش! أفئدة كانت، بالإيمان عامرة، ويكأنه وهذا حالها، أنها لربها قانتة، خاضعة، خاشعة! شاكرة!

أو حتى قلوبا غلفا! أو أعينا عميا! أو آذانا صما! أو أفواها بكما!

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: 11]. قيل: إنها نزلت في رافعة بن تابوت، وأوس بن قيظي، كانا من الأنصار ونافقا، وقالا هذا ليهود قريظة والنضير [1].

وقيل: إنه من قول بني النضير لقريظة [2]. ولأن الكفار بعضهم أولياء بعض، لاسيما إذا كانت المواجهة مع الإسلام، فليتنبه!

استهل القرآن الحكيم سورة المنافقين، بشهادته تعالى، أن المنافقين كاذبون، وكان إجمالا، فصله القرآن على مدار السورة كلها؛ برهانا، وتأكيدا، وتفصيلا، وتفنيدا.

---

(1) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٨ / ٣٤

(2) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٨ / ٣٤

حين استقر الإسلام في يثرب، وكان هذا خير معين لإسلام القوم، لكن قلوبا قد أبت إلا كفرا، ونفاقا؛ لأنه أحزنهم قيام دين ربهم، منيرا للناس طريقهم.

كان لثبات أمر الإسلام في المدينة دوي! فأسلم قوم نفاقا! حتى طال يهود في ذلك ما طال بعض الأنصار، وبرئ منه المهاجرون؛ آية إخلاص، ودليل تجرد!

والله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13]

المبحث الثاني عشر: ثبات المهاجرين

حين استقر الإسلام في يثرب؛ وكان هذا خير موجب لإسلام القوم، لكن قلوبا قد أبت إلا كفرا ونفاقا؛ لأنه أحزنهم قيام دين ربهم، منيرا للناس طريقهم. إلا هؤلاء قوم قد تركوا الديار والأهلين والأموال لله تعالى ربهم الحق سبحانه. وأولاء هم المهاجرون، وما أعظم تتويجا منه تعالى لهم! وحين قال قرآنا يتلى على مسامع الناس، وإلى يوم الدين، فقال تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: 8].

إننا يجب أن نوجه شكرا للمهاجرين؛ لصنيعهم، حين لم يذكر التاريخ نفاق واحد منهم! برهان أنهم تركوا ديارهم وأموالهم لله، فناسب ألا ينافقوا.

إن نصاعة صفحة المهاجرين، وخلوها من نفاق، إعجاز آخر ضاف، على أن هذا الدين، وحين تخالط بشاشته قلوب قوم مؤمنين، وإنما يفاعله بِدَوِيّ الإيمان، فلا يتخلله نفاق.

يكفي التاريخ نبلا، أنه لم تلوث صفحة من صفحاته، أن واحدا قد ذكر أنه نافق، من هذه قافلة المهاجرين المؤمنة! ولأنها هاجرت لله ورسوله ابتداءً.

إن شكرا وثناء واجبين للمهاجرين؛ وحين ثبتوا وسط تساقط المنافقين في المدينة واحدا تلو آخرا! ولأن هذا الدين ذو تبعة وتكاليف، لا كما يقدمه طيبو كل عصر!

إنه لو لم يكن ديننا ذا تكاليف فرضتها البيعة، لم يكن هنالك داع لتساقط منافقين هكذا، وإلا قد تواروا خلف إرجاءٍ، خلع على ديننا ثوب التحلل!

إن تفننا بكثرة صلاة على نبينا صلى الله عليه وسلم، ورغم أجره العظيم، وأنها مفتاح الجنة، أمام تحلل من ربقة تكاليف ديننا، هو سلوك خارجه هذا الدين، وحين اكتفي به أو حواليه ودون تصحيح لمفاهيم الناس نحو توحيد ربهم الحق سبحانه، وحسن بل وجب تصحيح هكذا مسلك أراه معيبا.

إن سبيلا مستقيما، هو دعوة الناس، كما أراد رب هذا الدين الحنيف الخالد الإسلام، دينا والتزاما وتبعة وتكاليف، توحيدا لا شرك فيه، يقينا لا ريب فيه، ومنه كثرة الاستغفار، ومنه كثرة الصلاة على نبينا المختار صلى الله عليه وسلم.

إن تقديم الإسلام دون تكاليف كان أدعى ألا ينافق أحد في المدينة! والحال أن الناس كانوا غرقى في أوحال أفعال، تند وصفا، وتخلع قلبا، وهذا ليس سننا ممن كان فعله هذا.

إن أحدا كان أولى بتقديم الإسلام للناس على هكذا وجه متحلل من ربقة التكاليف هو نبينا صلى الله عليه وسلم. ولما تساقط المنافقون أمامه حفاظا عليهم! ويكأنه صلى الله عليه وسلم. لم يفعل ذلك ولأن هذا الدين وكما أنف ذو تبعة وتكاليف وإنما كان جائزته الجنة ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر!

وقال الله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

أثبتت وقائع التاريخ أن قوما كان دافعهم جمع العدد الغفير، وإن تحللوا من ربقة التكاليف والاتباع النورانيين، كانوا هم أُولَى ضحايا فعلهم، ولما خذلهم جمعهم، الذي بنوا ريبة! وفي كل موضع! والحق أحق أن يتبع.

المبحث الثالث عشر: إسلام بعض أحبار يهود نفاقا

هلَّ بدر الإسلام؛ ليبسط نوره على يثرب وسواها، إلا أن بعض يهود أبوا، إلا إسلاما نفاقا، وليسوا بحاجة إلى هكذا مسلك، غير أن كبرهم أغواهم.

إن الناس قد ألفوا الإسلام نورا ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 16].

أسلم بعض أحبار يهود تقية! فكانوا كفارا باطنا، وهو أمر ليس يخرجنا عن آية ذلك! لأن آخرين سيسلمون ظاهرا وباطنا؛ تقليدا، وليثبتهم ربهم من بعد.

إنه ليس يخرجنا إسلام بعض أحبار يهود نفاقا عن قوة الإسلام الناشئة، والتي فعلت فعلها فيهم، حتى أجبرت بعضهم على الإسلام، ولو نفاقا.

من نفاق ظهر، ومن دحض له بدرا!

1- ابن اللصيت: ضلت ناقة نبينا ﷺ فقال زيد بن اللصيت: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته! [1] هذه بادرة نفاق يهود أطل برأسه في يثرب!

يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ هذا قول قيل آيةً؛ ولأنه سيأتيه رد، كفلق الصبح، كعلم نبوة آخر؛ إعجازا، وتحديا!

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ٢ / ٣٧٠

وقال نبينا محمد ﷺ: والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها - الناقة - هي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها. فوجدوها كذلك [1] . وهذا علم نبوة ضاف.

والله لا أعلم إلا ما علمني الله. هذا وقوف عند النص ولأنه أنبأ أن نبينا ﷺ رد أمره كله لمولاه، فما بالهم يتعاظمون رد أمرهم كله لله؟!

حين أخبر نبينا ﷺ: أن ناقته في هذا الشعب، قد حبستها شجرة بزمامها، فذهب رجال من المسلمين، فوجدوها كذلك. وهذا ليس دعوى غيب، بل علمه ربه الرحمن سبحانه.

إن قول ابن اللصيت: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته! لا علاقة له بين الأمرين! بل هذا وقوف على مقتضى بشريته ﷺ، وأدبه مع ربه تعالى.

وقد دلني الله عليها فهي في هذا الشعب! انظر كيف لطفه تعالى مع نبيه ﷺ! بل هو لطفه سبحانه مع سائر خلقه! ولأنه تعالى هو اللطيف الخبير. وحين لم يمر وقت، يجد فيه ابن اللصيت هذا، أو غيره سلواه! لكنه فور قوله، وادعائه، وزعمه، وإلا يتنزل الحق، كوضح شمس في يوم ضحاها!

وقد دلني الله عليها فهي في هذا الشعب. هذا ينبيء عن عبودية عز نظيرها! بين نبي عبد، وبين الله تعالى، ذلكم الرب الرحيم، بلغ شأوها، ما تراه الأعين، ويتذوقه الأدب الرفيع.

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ٢ / ٣٧٠

وقوله: وقد دلني الله. إن ياء المتكلم في المفردة (دلني) أضفت حنوا عميقا، وحلما شفيقا، من رب حليم، إلى نبي أواب أواه رحيم.

وقوله: وقد دلني الله. كان مقتضى السياق أن يأتي بلفظ الربوبية الحاني، فيقول: دلني ربي عليها؛ لأنه لطف، لكن مجابهة النفاق استدعت لفظ الألوهية! وهذا من الإعجاز البلاغي في كلام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، اختيارا للألفاظ محالِّها!

إن حبس الشجرة سببي لا إنشائي. ولأنه أمر رباني.

2- رافع بن بن حُريملة ووهب بن زيد: قال رافع بن حُريملة ووهب بن زيد لنبينا صلى الله عليه وسلم: يا محمّد! ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجّر لنا أنهاراً، نتبعك ونصدّقك! أرأيت عنتا كهذا؟ وإنه ليس تعجيزا؛ ولأن الذي فلق الحبة، وأبرأ النسمة على غيرهما لقادر! وليبهت قائله! ولكنه العنت، وضيق النفس، ولما أرخى ديننا سدوله على الكون كله!

أراد رافع بن حُريملة ووهب بن زيد، إحراج نبينا صلى الله عليه وسلم، بطلبه كتابا من السماء يقرؤه، ويفجّر لهم أنهاراً؛ ولكي يتبعوه! شرط وقوع طلبهم وتحققه! ولزعزعة ثقة المجتمع به حالة عدم إجابته! لكنه الله سبحانه ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: 20].

المبحث الرابع عشر: إعجاز القرآن المبين في الرد على المنافقين والكافرين!

وهذا رد القرآن العظيم على كلام كهذا! وكما قال الله تعالى ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا * قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 90-96].

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾! وهذا رد السماء، على من عنت طلبا، أو كاد سؤالا، آمن فلنفسه، أو أبى فإنما يضل عليها! و ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]!

إن الذين يطلبون من الدعاة إلى ربهم الحق، ما ليس داخلا في اختصاصهم، أو قدراتهم، وإنما كان شبههم بمن قالوا قولهم هذا الذي أنف، وحين أنزله القرآن المجيد، وعن لسانهم حالا ومقالا!

إن الذين أصابهم حَوَلٌ في أعينهم، وصمم في آذانهم، وحين يطلبون ما كان خارجا عن طاقة بشر، ولأنه ليس من اختصاصه، ولا من قدراته، ولا كان الله تعالى ويوم أن خلقه، قد فطر فيه هذه المكنة! وهؤلاء بفعلهم وقولهم هذا، وإنما يولعون عنتا، ويقحمون إحراجا، سرعان ما تكبته السماء كبتا!

إن الله تعالى خلق نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم! ومثلما خلق قوما يدعوهم؛ وكيما يفهموا عنه، لا أن يعنتوا طلبا، مما هو خارج أعمال الرسل، فضلا عن كونهم بشرا، ولو أنهم أجابوهم، لأمعنوا عنتا إضافيا آخرا!

كان للقرآن تجربة مُرَّة، مع قوم، عهد منهم عنتهم، لا أكثر، وحين انشق القمر؛ إجابة طلبهم، ولما نكصوا! ومنه فليس لدى العقلاء وقت، ينتظرون أسئلة قوم، ينتظرون إجاباتهم عنها، راقت لهم، فيأخذونها، أو خالفت هواهم، فيمعنون غبرا، وريحا صرصرا، وتوليا، وإدبارا، ويكأن لهم ضراطا! ومن سرعة أفقدتهم توازنهم!، جدلا وحنقا!

إنه حسنٌ للدعاة أن يقدموا دين ربهم، كما قدمه نبيهم، ولا عليهم، آمن من آمن، وأبى من أبى؛ ولأنهم يقدمون لهم عسلا مصفى، فيه ترياقهم!

صحيح إن واجب داعية حق، أن يقدم دين ربه، وفق هدي ربه، ولا يتنازل عن ذلك قيد أنملة؛ بل ولو شيئا؛ ولأنه لا يملكه، فضلا عن أن يكون ذا خلق كريم، وسمت حسن جميل، فلا تعلوه نفرة، ولا ترتسم جبهته عقدة، ولا تكسوه عُجْبَةٌ! بل انشراح صدر، وزكاء قلب، وانبساط نفس.، مرة أخرى آمن من آمن، وكفر من كفر!

إن شفقة تعلو جباها، وحين يقدم دين الله، وكأنما بقي الانحناء باسم التواضع، وليس منه في شيء، فرفع الجباه بلا كبر دين، وعزة، وإباء نفس، وبلا غمط، وإنما يعد ذلك ومن ديننا قربة!

وألم تر سيدنا، ومولانا، مصعب بن عمير، رضي الله تعالى عنه، ومما مر آنفا، وحين كان من أسيد بن حضير مجيئه، ويستشرفه الناس، آخذ حربته،

وحين أقبل حانقا، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه، قد جاءك، فاصدق الله فيه، ثم قال مصعب: إن يجلس هذا كلمته!

إن عجبا يملأ أحدنا! وحين يسمع، أو يرى كيف يقدم دينه تعالى، سهلا ميسورا، خاليا من تبعات، أو مخلى عن تكاليف! وماذا هو قائل يوم إلقاء التبعة عليه، وحين قالوا ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؟!

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾: هذا كشفهم عما في صدورهم، فقد استبقوا عدم تصديقهم، حتى ولو رقى! إذًا فما داع أن يمعنوا عنتا في طلبهم ما طلبوا؟!

إن رسائل قلب برهان ما تنطق به أفواه قوم حسبوا انطلاء مسلكهم على القرآن العظيم! وحين غاص عميقا عميقا فيها؛ ليكشف عوارها للناظرين!

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾! إن تقدمتهم عدم إيمانهم ابتداء قاطع لكذب دعواهم أنهم سيؤمنون إذا أنزل عليهم كتابا يقرؤونه!

وإن القوم يعلمون علو ربهم في السماء، وكان قمنا أن يتشوفوا لإيمانهم، بدلا عن جدالهم لظلامهم وقلوبهم معا!

وبكأن طلبهم كان عنتا شديدا أليما، وحين طلبوا أن يتنزل إلى كل رجل منهم كتاب يقرؤه! ولم إلى كل واحد منهم؟! اللهم عنتا! فقد أنزل تعالى إنجيلا واحدا! وتوراة واحدة! ولم يتكلم أحدا! أَوَ لما يتنزل القرآن المجيد يقولون قولهم هذا؟!

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾! أي: لكل واحد منا! كما في قوله تعالى أيضا ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: 52]! ولا سابقة تاريخية فعلها قوم كفعلهم هذا!

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾! هذا تعجيب عنهم! وحين يظنون تعجيزا لمن آمنوا، أنه استوى على عرشه ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: 44].

إنه لو كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قد أطاعهم، في سماعه دعواهم، وإجابته مطلبهم، كتابا لكل واحد منهم! لقالوا: هذا مجنون! وكيف أطاعنا، ومن قبلنا أنزل إليهم إنجيل واحد، ولم ينبس أحد ببنتٍ شفةٍ؟!

﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟! وهذه إمكانات جنس بشر مثلي، فلا يتعداها، وهذا جواب مقنع، وإلا لقالوا: ساحر، أو كاهن، أو مجنون، وحين يأتي بشيء من خوارق مألوفاتهم!

وهكذا دعاة الحق، وهم في حيرة من أقوامهم، وكيف يعاملونهم، وهذا حالهم من مثلهم، أو هكذا قريبا منهم، ولكنهم وها هم يعرفون طريقهم تماما!

إن مطالب المناوئين، وحين يُشْتَمُّ منها رائحة تعجيز، لا غير، موجبة نظرا، فهل يكون قائد أمة مطالبا أن يلبي مطالب كل فرد من شعب تعداده ملايين من البشر؟!

إن الأمم، وحين اتخذت نوابا لها، ينطقون بحاجاتهم، إجمالا، لا كل فرد بعينه، هو ذلك الرد على من طالبوا كتابا من السماء، لكل آحادهم: تعجيزا!

إن إجابة المعاندين كل على طلبه، وإن هزل! مفض ضرورة أن يكون التفويض للناس على جهلهم المطبق، لا إلى رب الناس، وعلى علمه المطلق!

ماذا كانت ضرورة التشريع الرباني، والوحي الإلهي، والهدي النبوي، وها نحن نواجه قوما، يريدون أن يؤتوا كل سائل سؤله فردا فردا لا جمعا جمعا؟!

إن فتح باب لجج وحجج، أمام كل سائل سؤالا، مفض إلى أن يقولوا، وكما ﴿قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟! أو ملكا ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: 9].

وهذا علم نبوة آخر ضاف!

المبحث الخامس عشر: تشنيع القرآن المجيد على المنافق رفاعة بن زيد

وحين تَعَجَّزَ لا أعْجَزَ! رافع بن حُرَيْمِلَة نبينا صلى الله عليه وسلم، بطلب كان بدعا من الأمر وزورا، وحين مات قال صلى الله عليه وسلم: قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين.

وكان أنه حين رجع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من تبوك هبّت عاصفة شديدة، فقال: إنّها هبّت لموت عظيم من عُظماء الكُفّار، فوجدوا رفاعة بن زيد هلك في يومه ذلك!

فعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم من سفر، فلما كان قرب المدينة هاجت ريح شديدة تكاد أن تدفن الراكب، فزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: بعثت هذه الريح لموت

منافق، فلما قدم المدينة، فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات. [1] كان من شناعة المنافقين، أن القرآن العظيم قد أوسع في نعتهم؛ وخشية أن يتلبس أمرهم، أو تنتقل طويتهم إلى أطهار، هم المؤمنون، وليأخذوا حذرهم.

إن إخبار نبينا صلى الله عليه وسلم بموت رفاعة بن زيد، وعلى بعد من المدينة، كان علما آخر ضافيا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، ولما عرف ذلك، وعلى رؤوس الأشهاد!

وقال الله تعالى ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: نزلت هذه الآية الكريمة في رفاعة بن زيد؛ حيث كان لا يدخل من باب بيته، وإنما ينقب من ظهره إذا رجع من حجه! وهو ما يدل على حرمة البيوت، ومن حرمتها أن يدخل من أبوابها لا من ظهورها. وإنما كانت عادات جاهلية وأدها الإسلام حين شرف به الناس.

قال رفاعة بن زيد: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفَقر في ذِهابها، فإنكم لا تدرون ما يكون فنزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: 37]. [2]

---

(1) صحيح مسلم: 2782

(2) لباب النقول، جلال الدين السيوطي: ٥٧

كان رفاعة بن زيد يقول: أرعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام وعابه، فنزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: 44]. (1) .

كان رفاعة بن زيد وصاحبه منافقين وكان بعض المسلمين يوادّونهما، فنزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 57]. (2) . اجتمع منافقون يهود في المسجد، فرآهم نبينا صلى الله عليه وسلم يتحدثون، خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم بعضا، فأمر بهم صلى الله عليه وسلم، فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا (3) .

قام أبو أيوب إلى عمرو بن قيس، وكان يهوديا أسلم نفاقا، فأخذ برجله، فسحبه حتى أخرجه، وهو يقول: أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة؟

أتخرجني يا أبا أيوب من مربد بني ثعلبة؟ (4) . هذا قول عمرو بن قيس، منبئا عن سوء طوية، فقد كان مربدا، والآن هو مسجد! لكنها أخلاق المنافقين.

---

(1) فتح القدير، الشوكاني: ج ١ / ٤٧٦
(2) المرجع السابق: ج ٢ / ٥٦
(3) إمتاع الأسماع، المقريزي: ج ١٤ /٣٦٣
(4) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٢٩٤

المبحث السادس عشر: أول المغازي: غزوة الأبواء أو غزوة ودان

قال علي بن الحسين: كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن. وقال الزهري في علم المغازي: علم الآخرة والدنيا.

إن تعلم مغازي نبينا صلى الله عليه وسلم درس موجب لصقل شخصيات الأمة، نسائها؛ ليصبرن على لأواء نصب وفراق، ورجالها؛ على دربة ومنعة وبذل واحتساب. بل وإن موجب البيعة هو ذلكم البذل والتضحية والفداء.

هاجر نبينا صلى الله عليه وسلم إلى يثرب في ربيع الأول، وخرج غازيا في صفر، على رأس سنة مقدمه، يعني بعد عشرة شهور تقريبا! وهذا برهان أن أمتنا مجدها في جهادها، وأن عزتها في فتحها.

إن قائدا هو نبينا صلى الله عليه وسلم، يجهز جيشا غازيا، وفي عام واحد: برهان على أنه مدرسة عسكرية، تقتديها جيوش، ولربما لم تغز، أو تحدث نفسها به يوما!

إن تجشم ساحات الوغى كمدرسة عسكرية نبوية، يفهم أول ما يفهم منها، أننا أمة مجدها تحت ظل رمحها، ولطالما أطاع من أطاع، وله سلمه وأمنه وعيشه ورغده وأجره، ولطالما أبى من أبى فحده السيف المضاء!

هل انتشر الإسلام بحد السيف؟!

إنه ليس يقال: إن ديننا قد انتشر بالسيف؛ ولأنها أكذوبة، لا تنطلي؛ وحين عرفنا رمحنا! لايسدد إلا في صدر من أبى، أو من حال بيننا وبين ديننا.

إن برهانا على أن سفك الدماء ليس غاية في ديننا، بل وسيلة، أنه صلى الله عليه وسلم عقد عقدا وحلفا مع بني ضمرة، وبدون قتال. وفي الأبواء. كأول غزوة كانت.

كانت غزوة الأبواء برهانا على أن ديننا يصبو أول ما يصبو إلى حقن دماء الناس؛ ولحرمتها، دلالة إتمامها هذه الرسالة الخالدة، دون إسالة قطرة دم حرام واحدة.

إنه ليس دين سماوي لم تصبه لوثة التبديل أو التغيير أو التحريف أو التعديل أو الانحراف، وكمثل هذا الدين الحنيف الخالد الإسلام، جاء حافظا لحرمة دماء الناس، كل الناس؛ لأنه كريم، حفظ الكرامة.

إن اللاهثين وراء كل صيحة زعم أن الإسلام انتشر بحد سيفه، مدعوون هم أنفسهم، إلى النظر في فعلهم هم، وبما سطره التاريخ عليهم نسخا نسخا!

إن دين الإسلام حد حدودا؛ لاحترام ذوات الأنفس، وأولها الإنسان، بما لم يرق مذهب بشري إلى حد واحد من حدوده، فضلا عن ضربه عرض حائطه بحدوده!

كان هدف غزوة الأبواء استكشاف المدينة، ومسالكها إلى مكة، وإشعار المشركين ويهود، بقوة الإسلام الناشئة، وإنذار قريش، ولعلها تجنح إلى السلم.

وهذا بحد ذاته برهان ضاف، على أن هذا الدين الإسلام الحنيف الخالد يضع احترامه للنفوس، ويحسب تحريمه لإسالة قطرة دم ولو واحدة حراما.

عقد نبينا صلى الله عليه وسلم صلح الأبواء، فأمنهم على أموالهم وأنفسهم، ولهم النصرة على من ساءهم، شرط أن يحاربوا في دين الله، وينصروا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم إذا دعوا.

إن صلح الأبواء وحين ضمن أول ما ضمن حفظا لأنفس بني ضمرة وأموالهم؛ برهان عفة ديننا، على أن يقطر قطرة دم واحدة، ولطالما وجد سبيل ذلك ممكنا.

يقف مسلم شامخا أمام بنود أول صلح عقده نبينا صلى الله عليه وسلم في الأبواء، وضمن فيه أمن الناس أرواحهم وأموالهم؛ برهان غناه وعلوه ورفعته، شرط ألا يعادوه أو يخذلوه.

إنه لو كانت نهمة للإسلام على أموال الناس وأنفسهم، لكان قد أقض مضاجعهم، ولأول مرة في الأبواء، لكنه هكذا دين سلام وأمن وموادعة.

وإنما أطلقت غزوة، ولأن قائدها هو نبينا صلى الله عليه وسلم، وإنما كانت سرية ولأن قائدها غيره صلى الله عليه وسلم، وبقرار منه.

إن غزوة يحضرها النبي صلى الله عليه وسلم، وبنفسه، ثم يقرر قراره، أن قيادتها لغيره، سمو من خلق حميد، وعلو ورفعة من سمت سديد.

إن قرارا قضاه هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وأن تكون قيادة غيره لغزوة الأبواء، ورغم حضوره عمل إداري ممتاز، وحين أمكن منه تدريب الرعية، على إسناد أهم الأعمال إليها، وعلى عين من قائدها الأعلى للقوات المسلحة.

المبحث السابع عشر: سرية عبيدة بن الحارث

كانت سرية عبيدة بن الحارث ثاني سرية أرسلها نبينا صلى الله عليه وسلم، شوالَ لثمانية أشهر من هجرته صلى الله عليه وسلم، عقد لها لواء أبيض، حمله مسطح بن أثاثة.

ما يلفت النظر في سرية عبيدة بن الحارث أن عددها كان ستين رجلا! كلهم من المهاجرين! ولم يتضمنها أنصاري واحد. وهذا برهان صدق الذين هاجروا ديارهم وأموالهم وأهليهم، وأن ذلكم كله، وإنما كان لله تعالى وحده، وبرهانه خروجهم وهكذا عارية صدورهم؛ لملاقاة عدو الله تعالى وعدوهم.

إن ما يسري على سرية حمزة يسري على سرية عبيد بن الحارث تماما؛ ولخلوهما من أنصاري، كيما لايقال دفع محمد صلى الله عليه وسلم بهم دون المهاجرين؛ خوفا عليهم دونهم!

ما يسري على سرية حمزة يسري على سرية عبيدة بن الحارث تماما؛ ولأن قائد كل منهما مهاجري، ومن بيت النبوة؛ وحين كان قائد سرية حمزة هو حمزة المطلبي القرشي، ولما كان حامل لواء سرية عبيدة بن الحارث هو مسطح بن أثاثة المطلبي القرشي أيضا، برهان إقدام وصدق ما عاهدوا الله تعالى عليه.

إن تجشم المهاجرين في سريتي الإسلام الأوليين، دليل صدق هجرتهم، وأنها كانت لله ولرسوله، لتكون هجرتهم إلى الله ورسوله أيضا.

إن نفرة في سبيل الله عهدناها من سريتي الإسلام الأوليين، وحين تقدمهما المهاجرون قيادة، وحمل لواء، ومن بيت النبوة، وأفرادا شروا أنفسهم لله تعالى.

كانت سرية عبيد بن الحارث ستين رجلا مواجهة بمئتين بقيادة أبي سفيان بن حرب! أي بمعدل1-2! وهذا دلالة على صدق اللقاء، وعلى عون رب السماء.

تشابهت سريتا حمزة وعبيدة أنهما خلتا من قتال، سوى مناوشة؛ ولإظهار قوة الإسلام الناشئة، لا تخشى في الله لومة لائم، إن أرادها أحد بسوء.

اختلفت سرية عبيدة عن سرية حمزة في تضمنهما رميا بينهم، ولم يسل سيف، ولم يصطف لقتال، وإنما كانت مناوشة؛ لزعزعة قريش، وإضعاف شوكتها.

كان لسعد بن أبي وقاص قصب سبقه، وحين قد رمي بسهمه يوم سرية عبيدة بن الحارث، فكان أول سهم رمي به في الإسلام.

كان من نتائج سرية عبيدة بن الحارث، فرار المقداد بن عمرو إلى المسلمين، وكان له سبق فضل في غزوة بدر، وما عداها، وكذا فرار عتبة بن غزوان

المبحث الثامن عشر: غزوة بواط

كانت غزوة بواط بقيادة نبينا صلى الله عليه وسلم في مائتي راكب، ولواؤه مع سعد بن أبي وقاص؛ قصد اعتراض عير قريش، بقيادة أمية بن خلف، ومائة راجل، وألف وخمسمائة بعيرا! وهذا برهان طبيعة الجند المجاهدين النوعية، لا كمياتهم العددية!

دلتنا غزوة أبواط أن مائتي رجل بقيادة نبينا صلى الله عليه وسلم، مجابهة لقريش في مائة راجل وألف وخمسمائة فارس! برهانا آخر أن عددا لا يحسم معركة، بقدر ما كان تضحية وفداء، وعون السماء.

انتهت غزوة بواط دون قتال؛ لعدم كيد قريش لنبينا صلى الله عليه وسلم، وبرهان أن ديننا سلم، إلا أن له زئيرا عند عدوان، أو كيد من أولياء الشيطان لأولياء الرحمن.

إنه قد مر علينا حديث حول سرايا وغزوات، ولم يمر علينا أثناءها أن امرأة واحدة شاركت بوجه أو بآخر في هذا الشأن. وما شيء نذير ليكون أصلا.

المبحث التاسع عشر: الرايات والأَلْوِياتُ والدلالات

اتخذت الرايات والألوية في معارك الإسلام؛ جمعا للشمل، وتوحيدا للكلمة، ورمز ملاذ، ودليل التفاف، فبرفعها ترفع الرؤوس، وتندفع للمعركة النفوس.

كان جند الإسلام يُدافعون عن لوائهم ضراوة، ويبذلون دونها أرواحهم فداء، ولو تهاوت جثتهم تحت أرماحها؛ لتظل خفاقة، ولتبقى مرفوعة!

إن اتخاذ راية أو لواء للمعركة كان تاريخا، معمولا به، واعتد به الإسلام؛ ولأنه دين يبقي صالحا، ويبطل طالحا. أو يعدل ما أمكن تعديله؛ وليتوافق مع هذا الدين الجديد.

كانت أنظار المقاتلين متطلعة إلى حامل رايتهم؛ ولأن سقوطها يعني سقوطها وسقوطهم جميعا، وحين ذلك فقد أصابهم ذعر بسببه، وتملكهم فزع بموجبه، وغشيتهم رهبة، وأعلاهم خوف.

تراوحت أسماء الراية بين مترادفات: الراية، واللواء، والعلم، والعقاب، والعصبة، والخال. وهذا برهان أهميتها؛ لكثرة أسمائها، وتعدد مفرداتها. ولأن شرف المسمى من شرف الاسم أيضا.

واللواء: العلم، والجمع ألوية وألويات، الأخيرة جمع الجمع؛ وفي الحديث: لواء الحمد بيدي يوم القيامة؛ اللواء: الراية [1].

والألوية: المطارد، وهي دون الأعلام والبنود. وفي الحديث: لكل غادر لواء يوم القيامة، أي علامة يشهر بها في الناس [2].

كانت الراية أو اللواء، رمز قوة والتفاف، وكان يحملها أمير المعركة أو مساعده، كونه معروفا بشجاعته، مشهودا بتضحيته. مشهورا بنبل سجيته.

كانت توجه الضربات إلى حامل راية المعركة قبل غيره، تثبيط عزيمة، واختلاف صفوف؛ وزعزعة للنفوس، وإحباطًا للمعنويات.

كان لعظم شأن الراية في التاريخ العسكري الإسلامي وغيره بلا شك، أن النعمان بن مقرن وحين كان قائد معركة نهاوند قال: إني هاز لوائي ثلاث هزات: فأما أول هزة فليتوضأ الرجل بعدها وليقض حاجته، وأما الهزة الثانية فلينظر

---

(1) لسان العرب، ابن منظور: ج532/6

(2) المرجع السابق: ١٥ /٢٦٦

الرجل بعدها إلى سيفه أو قال شسعه، وليتهيأ، وليصلح من شأنه، وأما الثالثة فإذا كانت إن شاء الله فاحملوا ولا يلوين أحد على أحد[1].

اتخذ نبينا صلى الله عليه وسلم اللون الأبيض لرايتي سريتي حمزة وعبيدة بن الحارث؛ لأن أمتنا لا تصبو قتالا، لكنها تبذل غاليا؛ حماية حقها، وذودا عنه.

قال الطبري: وكانوا وقت الحرب إذا استأمنت شذاة من شذوات العدو، كان أهلها ينكسون علمًا أبيض يكون معهم[2].

كان رفع الرايات البيضاء دليل أمان، فحين طلب أهل مصر الأمان من جوهر الصقلي "فعاد إليه بأمانهم، وحضر رسوله، ومعه بند أبيض، وطاف على الناس يؤمنهم، ويمنع من النهب[3].

كان يمكن رفع أو تنكيس الراية البيضاء أو حملها؛ برهانا على أمان، وهذا فعل الإسلام أبدا.

كان يمكن رفع المصاحف على أسنة الرماح بدلا عن الراية البيضاء؛ برهان طلب صلح، أو منح أمان، وكما حدث يوم صفين بين الإمامين على ومعاوية رضي الله تعالى عنهما.

حين دخل نبينا صلى الله عليه وسلم يثرب مهاجرا، فحمل أنصاري عمامته على رمحه بدلا عن الراية! وهذا فعل من عادات موروثة، لم يبطلها الإسلام بل أجازها.

---

(1) فتوح البلدان، البلاذري: ج ٢ / ٣٧٢
(2) تاريخ ابن خلدون: 139/5
(3) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان: ج ١ / ٣٧٨

كان مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه حامل لواء غزوة بدر أبيض. ولعل هذا دليلا آخر أن اللون الأبيض للراية كان عاما في حرب أو في سلم.

تقلد علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه - حمل رايات أحد بعد مصعب - رضي الله تعالى عنه - وفي فتح خيبر، وبني قريظة أيضا.

يلاحظ أن نبينا صلى الله عليه وسلم قلد مصعبا وعليا رايات القتال؛ لأنهما كانا من السابقين بإحسان؛ وهذا برهان ألا يكلف إلا من كان صاحب تاريخ مجيد.

إن المهمات العظام لا يكلفها إلا العظام؛ ولأنهم يطيقون تبعاتها، وهذا الذي حدث يوم أن قلد نبينا صلى الله عليه وسلم مصعبا وعليا رايات الشرف والفداء.

إن المهمات الفرائد إنما لا يكلفها إلا من كان لها أهلا؛ ليرجع بكفين، مملوءتين نصرا وعزا لا غيره، وهذا عمل قائد موفق ملهم.

حمل راية مؤتة زيد بن حارثة، وقاتل حتى استُشهد، فتسلَّمها جعفر بن أبي طالب حتى استُشهد، فتسلَّمها عبد الله بن رواحة رضي الله عنهم أجمعين.

دلنا على اعتبار حمل الراية أن أبا بكر حملها في تبوك، وكان متقدما عمره؛ برهان أن ديننا لا تعرفه كهولة! فكل طور من أطوار المسلم لها ما يصلحها.

كان اللواء يركز في مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم أو أمام دار القائد دلالة على حالة التأهُّب والاستعداد للحرب. ولطالما كان هكذا عمل القادة.

إن عمل الألوية ورفع الرايات برهان أن عمل أمتنا هو الفتح المبين وإرجاع حقه تعالى ممن أخذوه عنوة بعنوة أيضا وحين لا يفلح سلم.

إنه ليس يخرجنا كلام عن اللواء وتاريخه عن مجده وسلطانه حين كان شارة على بذل وافتداء دائمين لايفارقان عقد مؤمن بالله وإقرارا بسلطانه.

إن عمل اللواء ورفع الراية أمام الأعين استدعاء لقيمة الفتح المبين وشحذ لهمم المؤمنين وأنهم في رباط إلى يوم الدين لاعمل المبطلين.

إن نظرا إلى سواعد من حملوا رايات الفتح المبين يجعلنا نكبر عملهم وهذا هو حمل الراية بحق لا كما يقدم حامل لها وليس بحامل!

إن حمل الراية كان يقصد به من حملها وهو إذ يمهر نفسه لرمحه لا كمن قدم دونها ويعده حملا لها وإن كان كل على ثغر ومأجور.

كان نبينا صلى الله عليه وسلم قد عقد لواء لأسامة بن زيد وحين توفي ركز أسامة اللواء أمام مسجده ص فأعاده الصديق إليه حين توليه الخلافة إنفاذا لأمره صلى الله عليه وسلم.

المبحث العشرون: غزوة العشيرة

استعمل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وذلك يوم غزوة العشيرة، وكان لواؤه مع حمزة بن عبد المطلب. ووادع فيها بني مدلج، وحلفاءهم من بني ضمرة؛ برهان أن ديننا ذو هدف واحد هو إسلام الناس لربهم الحق، سلما لا حربا.

إن استعمال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه على المدينة عمل إدارى حسن؛ وكيما لاتبقى الدولة مكشوفة من أحد أركانها.

يلاحظ أن حمزة عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان صاحب لوائه في كثير من سراياه؛ برهان كفاءته، وأمانته، وشجاعته، وفنائه في حق آمن به، وأن الأكفاء أولى تقدمة.

نؤكد على مشاركة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في كل غزوة غزاها، خطوة خطوة وبنفسه؛ جمعا للأمة على قائد، وشحذا لهمم الجند، واستنفارا لشجاعتهم، ورفعا لمعنوياتهم.

يلاحظ تتبع دقيق لسير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في سلمه، وفي حربه؛ وهذا برهان حرصهم رضي الله عنهم على الاقتداء، ولأنه صلى الله عليه وسلم، إنما يقول، أو يعمل، على هدي من ربه.

إن تتبعا دقيقا لهديه صلى الله عليه وسلم، سلمه وحربه، فعله وتركه؛ برهان فلاح أمة تتبعت هدي نبيها؛ ولصالح ذات أمرها، وأن استحسانا عقليا لم يكن من نهجهم، ولأن في طاعته تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم رشد وسداد، ولأن من عصيانهما غي وعناد.

إن ما أغرقنا وأوحلنا هو إعمال عقولنا في نطاق ما تدرك، وهذا لا غبار فيه، وفي غير مجالها أيضا، وهذا الذي منه الدوائر العظام!، وبرهان أن فاعل ذلك مستدرك على ربه تعالى، ومن حيث أعمل عقله كل مرة.

كان سبب غزوة العشيرة هو تعرضه صلى الله عليه وسلم لعيرات قريش طريقها إلى الشام؛ نكاية بعدو، واستنزافا لمكره، وتشتيتا لأمره، وإشعارا بقوة جانبه وجنده.

إن تعرض نبينا صلى الله عليه وسلم لعير قريش كل مرة، إنما كان توطئة لنزال حتمي مقدر، وإنما لزمه كيدهم كل مرة؛ إضعافا لشوكتهم، وتوهينا لأمرهم، وهذا فن عسكري باهر.

ستظل مدرسة الإسلام العسكرية مصدر وحي وإلهام، ننهل منها حربنا، كما قد سلكنا فيها دربنا؛ إثخانا لعدو، ونكاية بمتربص لمجدنا، وإسلامنا وعزنا.

يتملك أحدنا شعور بالعزة؛ وحين يقف على حكمة نبوية، وفطنة محمدية، ولما كان قائد مدرستها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ننهل منه درسا من بعد درس آخر؛ هديا، وترسما، ونبلا.

كان من أمره صلى الله عليه وسلم في غزوة العشيرة، أنه لما نزلها أقام بها شهرا؛ برهان صبر وجلد، ودليل إقدام ونصب، ولأن كل ذلك يسير ومن حيث هدف واحد هو مرضاة ربه تعالى.

قال عليٌّ لعمار: هل لك يا أبا اليقظان أن نأتي هؤلاء النفر يعملون في عين لهم ننظر كيف يعملون؟[1]. وهذا برهان إفادة من غيرنا بلا مخالفة هدينا.

إن ديننا ذو فسحة، وحين أجاز إفادة من غيرنا، بلا نفرة مع سنننا، ولما كان هديا سار عليه الحنفاء، بلا قطيعة مع هدي السماء، أو استدبار لسنن الأنبياء.

لم يقف ديننا يوما أمام هدي غيرنا، وإذ كان صالحا لمعاشنا ومعادنا، شرط ألا يخالف أصوله، وعلى وجوب ألا يخل قواعده وفروعه، وهذا يسر تحلى به.

خرج عليٌّ مغاضبا فاطمة، فجاء المسجد فنام فيه فسألها صلى الله عليه وسلم عنه فقالت: خرج مغاضبا فجاء فأيقظه وجعل يمسح التراب عنه ويقول: قم أبا تراب قم أبا تراب[2]. ولأجل هذا كان يدعى على بأبي تراب ولتراب كان قد على وجهه أثر النوم عليه!

حين غاضب علي فاطمة ذهب إلى المسجد. برهان خلق حميد وترفع حسن مجيد عن نزغات الشيطان، ووسواس إبليس، فخيركم خيركم لأهله.

إن ذهاب علي إلى المسجد، وحين غاضب زوجه فاطمة؛ برهان على تعلق هذه الأمة بالمسجد، وأنه محضن إلفها، وروضة حلمها، ومصحة أمراضها.

إن ذهاب علي إلى المسجد، وحين غاضب فاطمَ؛ برهان على مفارقة مكان لعب فيه إبليس لعبته! ولما تهدأ نفوس؛ لتعود بطانا من عفو ورحمة ورأفة.

---

(1) سير أعلام النبلاء، ط الحديث نوىسنده: الذهبي: 1 / 334

(2) سير أعلام النبلاء، ط الحديث نوىسنده: الذهبي: 1 / 334

إن درسا نتلقاه من عليٍّ، وحين لم يقف في وجه زوجه فاطم؛ حلما، وعفوا، يزداد بهما عزا؛ ولأن الشديد ليس بالصرعة، ولكن من يملك نفسه عند الغضب.

إن الإنسان ليكون أقوى ما تكون القوة، وحين يمهل نفسه لحظات غضب جامح؛ ليعود بعدها سمحا، سلما سلاما، وأمنا أمانا، ليسقف عرش بيته هناءة وسرورا.

يكون الإنسان أضعف حالاته، وحين يجابه بجبروته امرأة ضعيفة، مسكينة، أسيرة، عوانا، استحل متاعها بأمانة مولاه، ليرعاها حق رعايتها؛ صونا وإكراما.

قم أبا تراب قم أبا تراب: هذا تملح نبوي، مع علي، نفيده أمرنا كله، وحين يكون التلطف سبيلا، ولما كانت الدعابة علاجا إكسيرا، تذهب غما، وتزيل وحشة.

قم أبا تراب قم أبا تراب: هذه رسالة نبوية إلى والد الزوجة على الأقل إن لم يكن مع زوجها فعلى الأقل ألا يكون عليه؛ تطييبا لخاطره، وجبرا لمشاعره.

قم أبا تراب قم أبا تراب: هذا هو لطف نبينا صلى الله عليه وسلم ولما غاضب علي فاطمَ! ربت على صدره وأذهب حرارته وأراح قلبه، ولم يك عنوان قهر له على قهره!

قم أبا تراب قم أبا تراب: إن ما يزيد الوحشة ألا يجد زوج وحين غاضبته زوجه لسانا حميدا يخفف من روعه ويزيل أثر همه وهذا درس لآباء الزيجات.

إننا ننظر بعين إكبار لفعل عليٍّ، رضي الله تعالى عنه، وحين ذهب مغاضبا زوجته، إلى المسجد، سموا بنفس، ورفعة بعفو، واستظلالا بمكان السكينة والرحمة، وهو المسجد!

إننا نحيل الأذهان إلى اختيار المسجد وحين مغاضبة لكائن من كان لا أن يذهب أحدهم إلى القهوة مكانا يزيد النار اشتعالا ويؤجج في القلب استعارا.

قم أبا تراب قم أبا تراب: هذا ليس تملحا وحسب، بل هو تكراره، زيادة إلف، وإمهار مودة، وتوقيع رحمة، ناسبت موقفا حميدا، لوالد زوجة غاضبها زوجها.

قم أبا تراب قم أبا تراب: هذه مدرسة علم النفس النبوي المحمدي تعمل عملها صفحا وتؤتي أكلها هدوءً واستكانة وعفوا وحين تلمس مشاعر غاضب!

قم أبا تراب قم أبا تراب: إنك حين تربت على صدر زوج ابنتك فإنما تسوقه سوقا إلى إمعان إحسانه إليها؛ ولأن هذا هو جزاء إحسان بإحسان مثله.

قم أبا تراب قم أبا تراب: حين يربت والد زوجة على صدر زوجها، كان عنوانا على أنه حكيم، وضع الأمر نصابه، وأنه أعان على إكرام ابنته مضاعفا.

حين ذهب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى عليٍّ رضي الله تعالى عنه بالمسجد، ولما كان مغاضبا زوجه فاطمَ، ولم يسأله عما حدث، برهان حكمة آخر، وحتى لا يؤجج سعارا، خمد لهبه! لينظر ما بعده!

كُنِّيَ عليٌّ رضي الله تعالى عنه أبا الحسن، ولأن ولده الحسن، وكني أبو تراب، ولأن ترابا رآه صلى الله عليه وسلم على وجهه يوم غزوة العشيرة، تملحا، وتطييبا، وإلفا

قم أبا تراب قم أبا تراب: هذا نداء، أفاد تنبيها، وأظل ظلا ظليلا وارفا، وقربا مكانا، ومكانة معا! أنبأك عنه تكراره، كما أفادك به حذف أداة النداء (يا)، ولدلالة السياق عليها.

قم أبا تراب قم أبا تراب: هذا كلام بلاغي ملفت، أيما كان لفتا! ولأنك شاهدته مركبا، من حذف أداة النداء (يا)، ورأيته تكرارا ل (قم أبا تراب قم أبا تراب)، وحين أفاد توكيدا لفظيا، اهتماما بأمريهم لملمة عش زوجية، كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم طرفا فيها!

المبحث الواحد والعشرون: غزوة بدر الأولى

كان بين غزوة العشيرة وغزوة بدر الأولى دون عشر ليال؛ برهان أن أمتنا عملها دؤوب؛ نصبا لربها، ونشرا لخيرها، تعم به البلاد، إسعادا للعباد.

كان سبب غزوة بدر الأولى، إغارة كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه، حتى بلغ واديا، يقال له: سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز فلم يدركه.

إن خروج نبينا ﷺ بنفسه في غزوة بدر الأولى؛ برهان أن القائد يكون مقدمة جنده؛ رفعا لمعنوياتهم، وحسما لمادة شقاقهم، وإثخانا في عدوهم.

كان لواء غزوة بدر الأولى مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه. وهذا تنويع في إسناد الأعمال للأكفاء، واحدا تلو الآخر؛ تجديدا للدماء، وتحديثا للولاء.

استخلف نبينا ﷺ على المدينة زيد بن حارثة، في غزوة بدر الأولى، وهو ذاك الأسد شهيد مؤتة! برهان تربية، وعنوان اصطفاء، ودليل اجتباء رسول رب الأرض والسماء!

إن استخلاف زيد بن حارثة على المدينة كان صقلا، وتدريبا، وتربية، وتمهيدا لإعداده، قائد وقته؛ ولذا تمعمع كثيرا، بين جنبات الغزوات، حتى كان استشهاده سبقا له في مؤتة.

إن تقلبا بين أعمال مختلفة، هو ما يمنح الجهاز الإداري للأمة حركته الدائبة، وهذا ما لمسناه من تدرج في إسناد أعماله ﷺ لصحبه، وكل على حسبه.

كان من شأن زيد أنه تربى في بيت النبوة يصقل علما ويدرب عملا ويسكب هدى حتى خاض غمار الغزوات بعد استخلافه على يثرب غزوة بدر الأولى.

كان زيد بن حارثة رقيقا، اشتراه حكيم بن حزام، لعمته خديجة بنت خويلد، فلما تزوجها النبي ﷺ، وهبته له [1] ؛ كرم زوجة حانية، وبذلا لربها، فنشأ زيد رقيقا، أعزه إسلامه.

فأنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما [1]. هذا قوله ﷺ لزيد بن حارثة، حين افتداه أبوه، بعد إذ خبر مكانه، وكان قد رق صغيرا، مستلبا من أمه.

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٦٤

قال زيد لنبينا ﷺ: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا. أنت مني بمكان الأب والأم [2]. وهذا برهان عناية فائقة، عملت عملها فيه، رضي الله تعالى عنه، ونفيد منها إغراقا في إحسان.

قال حارث والد زيد بن حارثة وأخوه لزيد: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟! قال: نعم. إني قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحدا أبدا [3]. وهذا بلاغ أديب من زيد؛ ولأنه قال: رأيت شيئا فقد جمع الخير أجمعه، ولم يقل: ما رأيت شيئا! ليروح الذهن إلى أنه ما رأى منكرا، وهذا أدب جم، إذ وصف نبينا صلى الله عليه وسلم بالإيجاب، لا السلب، وهو أبلغ!

ولعل ما يزيد الأمر بلاغة، هو ذكره المفردة: شيئا على وجه النكرة! ولتفيد أنحاء، وجهات عدة، ومن أشياء، لا شيئا واحدا، كان قد رآه من هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم!

إن العبودية هي: أن تكون عبدا لله وحده، وحينها يتساوى إمام مرفوع أمام رق موضوع، سرعان ما تذوب معه الفوارق، لينصهر كل في كنف الإسلام الخالد! سواسية، وإذ لا فرق بين أحد وأخيه، وإلا بالتقوى والعمل الصالح، ولأنه تعالى قال أيضا ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

---

(1) المرجع السابق: ج ١ / ١٦٤

(2) المرجع السابق: ج ١ / ١٦٤

(3) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ١ / ١٦٤

إن الرق الحقيقي هو شعور المرء أنه حبيس رأيه، أو أنه ضحية فكره، أنار له الوجود، وحين كان هدى ونورا مبينا، القرآن مصدره، والنبي ﷺ منهجه!

كيف كان رقا وزيد تقلب في كنف دين، ما كان لمثله أن يحلم به، بعضه فضلا عن كله، إلا في ظل الإسلام الحنيف، والخير المنيف، والهدى الشريف؟!

قال نبينا ﷺ: يا معشر قريش اشهدوا أنه ابني يرثني وأرثه. [1] وهذا قبل نزول قوله تعالى ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40].

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: هذا إعلان الإسلام العام الهام، وحين أبطل نظام رق، أقض مجتمع الجاهلية كله يوم ذاك، وإن رقا ومن نوع آخر يجتاح عالمنا المعاصر! علمه من علمه، وجهله من جهله!

آخى نبينا محمد ﷺ بين زيد بن حارثة وحمزة بن عبد المطلب. برهان أن هذا الدين ينظر إلى الإنسان مكرما، وإن كان مولى، فإن هذا عمل، ولا يناقضه شرف أصلٍ، وكونه إنسانا، ولا ينافيه فرع عزٍ، وكونه آدميا.

عقد نبينا محمد ﷺ اللواء لزيد في سبع سرايا. برهان تقلبه في معالي الأمور، حتى أصبح قائد لواء مؤتة الفاصلة، وحتى تكلل تاريخه المجيد، بشهادته وساما.

---

(1) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ١٤ / ١١٨

إن تاريخ زيد بن حارثة كان قمن به أن يدرس، ضربا على فطرة نقية للعباد، أفسدها تاريخ كعنترة بن شداد! وحين لم يجد فريق من التربويين مثلا غيره!

إن تدريس تاريخ كعنترة بن شداد ضربا على وتر حب مهيم! لا بيانا لفروسية مجردة، كانت وجها حسنا للنضال والأسوة، ممزوجة بنور إسلامي خالد كان أولى.

إن إبراز تاريخ كعنترة بن شداد، يوهم أن التاريخ ضن إلا بمثله، ضربا عن أمجاد، غيروا وجهه، تقدمهم في ذلك الرقيق، زيد بن حارثة وبلال وصهيب!

إن إبراز تاريخ مجيد، تقلده الرقيق زيد وبلال وصهيب، ينتج جيلا نحن أشد حاجة إلى إعادة كشف نقابه، ودرسه، صفحة للتاريخ، مزدانة به، ولو رقيقا، غيروه وجها حسنا!

إن أمتنا بحاجة إلى إعادة رسم تاريخها، وبحيث يخلى عن شخوص، كان امتلاء وعاء بطونها مَثَلُهَا، وهذا جانب يكفيه المرء فيه ما يقيم صلبا، وحسبه!

إن التعدي في ملئ البطون، لا ما يقيم صلبا، أنتج جيلا أصبح يسارع مسابقات في ملئ البطون! وباسم الإسلام الخالد! وهذه عيبة، حسن إعادة النظر فيها.

كان زيد بن حارثة رقا، وزوجه نبينا محمد ﷺ ابنة عمته زينب بنت جحش! برهان أن هذا الدين كانت الكفاءة فيه هي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

أمعن ديننا إذابة الفوارق، وحين زوج الله تعالى زينب بنت جحش، طليقة زيد، لنبيه محمد ﷺ، وبقرآن يتلى إلى يوم الدين، لا مجرد إيجاب وقبول بين متزوجَيْن!

كانت الجاهلية الأولى تتحرج أن يتزوج الرجل زوجة دعيّه! فجاء الإسلام فأجازها، قرآنا يهدي إلى الحق، وإلى طريق مستقيم، دينا قيما، ملة إبراهيم حنيفا، سما على القومية، والمحلية، والعصبية.

قال ابن عمر: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله (1).

إن الإسلام لا يحرم والد نسب ولده إليه؛ إكراما وقياما بواجب إعزاز، كان هو أحق به دون من سواه، وهذا من نبل ديننا.

أحيا القرآن المجيد ذكر زيد بن حارثة؛ اهتماما بشأنه، وتاريخا ماضيا عريقا خاضه، من رق إلى قيادة لغزوة مؤتة، في ظل دين حنيف هو الإسلام المجيد.

يا زيد: أنت مولاي ومني وإليَّ، وأحب القوم إليَّ. هذا خطاب نبينا محمد ﷺ لزيد، أعلى مكانته، ورفع قامته، وصان كرامته، وأولى صحبته وفاءً.

عن البراء بن عازب: اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب، كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا نقر بها؛ فلو

(1) صحيح الترمذي، الألباني: 3814

نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، قال: أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله، ثم قال لعلي: امح «رسول الله»، قال: لا والله، لا أمحوك أبدا، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، لا يدخل مكة سلاح إلا في القراب، وأن لا يخرج من أهلها بأحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع أحدا من أصحابه أراد أن يقيم بها، فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا؛ فقد مضى الأجل، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فتبعتهم ابنة حمزة: يا عم، يا عم، فتناولها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأخذ بيدها، وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمك، حملتها، فاختصم فيها علي، وزيد، وجعفر؛ فقال علي: أنا أحق بها، وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي، وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي صلى الله عليه وسلم لخالتها، وقال: الخالة بمنزلة الأم، وقال لعلي: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا [1].

كان زيد بن حارثة يدعى حب رسول الله ﷺ، وكان ابنه أسامة يدعى ابن حب رسول الله ﷺ، وهذه نظرة ديننا لمن أبلوا فيه بلاء حسنا، وفاء ومجدا.

بكى نبينا محمد ﷺ حتى انتحب؛ لبكاء رقية ابنة زيد بن حارثة على أبيها، وذلك أنه: لما أصيب زيد بن حارثة أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم قال فجهشت بنت زيد في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى رسول الله صلى الله عليه

(1) صحيح البخاري: 2699

وسلم حتى انتحب فقال له سعد بن عبادة يا رسول الله ما هذا قال هذا شوق الحبيب إلى حبيبه[1].

قالت عائشة رضي الله عنها: ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة في سريّة، إلا أمره عليهم، ولو بقي لاستخلفه[2]؛ لفضله وسبقه.

ناقش عبد الله بن عمر أباه عمر الفاروق في منحه أسامة بن زيد عطاء أكثر منه فقال: إنه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك، وإن أباه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك. وهذه منظومة بر متآلفة عز نظيرها!

عن عبد الله بن عمر بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعثا، وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمارته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله، إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده.[3].

انتهت غزوة بدر الأولى لا الكبرى دون قتال، وإنما كانت إبرازا لقوة الإسلام الناشئة الجديدة، وليعمل حسابها، فقد أصبحت ميزانا راجحا!

---

(1) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٣ /٤٧

(2) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج ٢ / ٤٩٥

(3) صحيح البخاري: 3730

المبحث الثاني والعشرون: إسلام جهينة

عن سعد بن أبي وقاص: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جاءته جهينة فقالوا : إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأتيك وتؤمنا فأوثق لهم فأسلموا قال : فبعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجب ولا نكون مائة وأمرنا أن نغير على حي من بني كنانة إلى جنب جهينة فأغرنا عليهم وكانوا كثيرا فلجأنا إلى جهينة فمنعونا وقالوا : لم تقاتلون في الشهر الحرام فقلنا : إنما نقاتل من أخرجنا من البلد الحرام في الشهر الحرام فقال بعضنا لبعض : ما ترون فقال بعضنا : نأتي نبي الله صلى الله عليه وسلم فنخبره وقال قوم : لا بل نقيم ههنا وقلت أنا في أناس معي : لا بل نأتي عير قريش فنقتطعها فانطلقنا إلى العير وكان الفيء إذ ذاك من أخذ شيئا فهو له فانطلقنا إلى العير وانطلق أصحابنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه الخبر فقام غضبانا محمر الوجه فقال : أذهبتم من عندي جميعا وجئتم متفرقين إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدي فكان أول أمير أمر في الإسلام. (1)

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جاءته جهينة فقالوا: إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق حتى نأتيك وقومنا، فأوثق لهم فأسلموا. جميعا، وهذا الظاهر.

بعض الناس تتشوف نفوسها إلى الحق، قبولا به، ورضا عنه، كجهينة، وبعضها الآخر ينفر منه نفور أسد من عرينه، كقريش، والهدى هدى الله يؤتيه من يشاء.

---

(1) تخريج المسند، أحمد شاكر: 70/3

إن إسلام جهينة أجمعها ولأول مرة؛ برهان أن هذا الدين إذا ما خلي بين الناس وبينه، لأعمل عمله، لولا إعلام سلبي، يحط قدره، ويشين شأوه.

إن إسلام جهينة أجمعها، برهان أن لهذا الدين سلطانا، أخاذا في القلوب، يسوقه سوقا إلى الهدى، وإلى صراط مستقيم، إذا حيل بينه وبين إعلام سلبي.

إن إسلام جهينة جميعها ولأول مرة، برهان أن الناس فطرتهم إلى الحق مائلة، وإليه مشرئبة أعناقها، ومهما كانت من لوثة، طال بها زمانها، أو قصر.

إن إسلام جهينة كلها، ودون ذكر لشبهة، أو لوثة، دلك أن القوم خلت منهم المرجفة وأنهم كانوا جميعا على أتقى قلب رجل واحد، منقبة يذكرها التاريخ.

إن التاريخ سيذكر لجهينة خلوها من مرجف، وحين أسلمت كلها، دون رفع أحدهم سبابته؛ اعتراضا، أو شبهة، أو لوثة، مما أضار غيرها، وعلى مر التاريخ.

حين أمروا بالإغارة على حي من بني كنانة، ولا يكونون مائة، وكنانة كثير، فلجأوا إلى جهينة، فمنعوهم، وقالوا: لم تقاتلون في الشهر الحرام؟

حين أغار المسلون بأمره صلى الله عليه وسلم، وكانوا في شهر رجب واشتبهت جهينة، بعدم قتال فيه؛ باعتباره شهرا حراما، وهذا لحداثتهم، إلا أنه أحدث بلبلة بينهم.

وقال الله تعالى ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ

اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217].

إن أمره صلى الله عليه وسلم بالإغارة على كنانة في رجب هو مصلحة، أقرها القرآن العظيم، وهدي خاتم المرسلين، وحين توافر خطر داهم، وجب رد مصدره على أعقابهم.

إن خطرا لو تحقق، أو مظنته، وجبت النفرة، ولو كانت الأشهر الحرم، وهذه مصلحة أعلى، هي درء الخطر، مقابلة مصلحة أدنى، هي حرمة الأشهر الحرم.

إن قتالا في الأشهر الحرم مفسدة أدني، جاز ارتكابها؛ ولدرء مفسدة أعلى، هي خطر داهم، يهدد ديننا وأمننا، وهذا هو فقه الموازنات والأولويات.

اشتبهت جهينة في القتال، أشهرها الحرم، وأحدثت بلبلة وخلخلة في الصف، وانقسموا حيالها ثلاثا: ما بين قائل بالقتال. أو القعود. أو الرجوع إلى نبينا صلى الله عليه وسلم.

أذهبتم من عندي جميعا، ورجعتم متفرقين، إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة. أحدثت جهينة الفرقة؛ لاشتباهها القتال في الأشهر الحرم، ولحداثتها. وهذا أثر الفرقة قعود لا قتال وركون لا عزيمة واشتغال كل ذي رأي برأيه.

إنه كان يجب إعمال أمره صلى الله عليه وسلم، بالإغارة على كنانة، ولا يلتفتون لفتوى جهينة! وما أكثر فتاوى تهد الجبال هدا، حين يشيع خطرها في الناس فتثنيهم.

إن اختلاف الأصحاب في شأن فتوى جهينة؛ مرده عدم إعمالهم لأمر قائدهم صلى الله عليه وسلم، وهو بين ظهرانيهم، فما بال بعد موته صلى الله عليه وسلم؟! فتاوى تجعل الحليم حيرانَ!

إن غضبه صلى الله عليه وسلم، وحين اختلف الأصحاب، حول فتوى جهينة، بعدم القتال أشهرها الحرم، كان نابعا من خوفه الاختلاف بعد مماته، وإذ قد حدث حين حياته صلى الله عليه وسلم.

إن الفتاوى غير المهورة بهدي القرآن، أو سنن النبي العدنان، إنما تحدث في الصف شقة، وحسن ألا يقول أحد قولا يخالفها، فيذوق وتذوق الجماعة وبال أمره.

إن فقه الأولويات هو ما غاب عن جهينة، وحين فتت في عضد المجاهدين؛ لشبهة الأشهر الحرم؛ برهان وجوب علمه، وسبره، ورسوخ قدم فيه.

إنه وعلى فرض عدم علم جهينة، بحجية الأمر، وأنه فوري، لا تراخي فيه، ولأنه يوازن بين مصالح ومفاسد، إلا أنه كان أوجب على الأصحاب ألا يتأثروا به.

إن خلاصة أمر ديننا أن الاختلاف على الأنبياء موهن للعزائم، خالٌّ بين الصفوف، مزعزع لثقة المؤمنين؛ ولأجله كان التزام أمرهم دينا وقربى.

لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش: هذا رد نبينا صلى الله عليه وسلم على المجاهدين، وحين أحدثت فتوى جهينة فيهم خللا؛ ولحداثتها.

لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش: أرأيت كلام قائد كمثله، وأرأيت فقيها كفقهه، وأرأيت بلاغا كبلاغه، وأدبا كأدبه، صلى الله عليه وسلم؟!

ليس بخيركم: هذا علم نفس حقا، وحين لا يدخل قائد في قلوب أصحابه، ما يوغل بعضها بعضا.

وهذا جمع بين الضد وضده! لأنه ليس بخيركم لولا أنه أصبركم على الجوع والعطش!

لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش. ما أجمل قائدا هذا وصفه! ولأنهما صفتان موجبتان لصفاء نفس، ونقاء قلب.

ليس بخيركم: إنها مندوحة أن يصير أحدهم أصبرهم على الجوع والعطش؛ تخلية ترهل مقعد، أو سمن ممرض.

أصبركم على الجوع والعطش: هذا بيان نبوي، ألا يكون هَمُّ أحدنا امتلاء وعاء بطنه، فما أقام صلبا كفى!

إن فحوى الخطاب ثناء على الإخشوشان؛ لأنه داعي صبر، وذم للبطنان، ولأنه موجبٌ جزعا!

إنه ليس مانع شرعي من تقلب في نعم ربنا، لكن مانعا شرعيا، بطنة ممرضة، وسمنا مقعدا، ودواما مفرطا، موجبا جزعا، ولأول ابتلاء يعرض لنفس!

لايجوز تقديم الإسلام للناس على أنه مالئ البطون، فتلك عيبة، وإنما على أنه يسد رمقا، وتلك ميزة! فكم من سقيم زاده إغراق إطعامه سقما!

عن عبد الله بن عمرو: قد أفلح من أسلم، ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه [1].

لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش. هذا حزم نبي قائد، وهذا حزم مركب؛ لأنه غضب حين خولف، ولأنه عزم حين استؤنف، دلك عليه حرف القسم اللام!

لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش. فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدي كأول أمير في الإسلام. لأنه أصبرهم جوعا وعطشا.

قال بعضهم لبعض: لم تقاتلون في الشهر الحرام فقالوا: نقاتل في الشهر الحرام من أخرجنا من البلد الحرام. هذا إفحام الخصم بمادة جدله. وهو أسلوب أقوى مضاء، وأقوم حجاجا.

إن الإسلام قد ورث تعظيم الأشهر الحرم بقية ملة إبراهيم عليه السلام، ولأنه دين إيجابي، فأبقى ما كان صالحا، وعدَّل ما كان ناقصا، وأبطل ما كان باطلا.

إن المسلم ليس خبا، وحين يدع نفسه فريسة لعدوه، ولما يمتطي ظهر مثل هذه الفتنة، ولما يخطط لمباغتة جند الإسلام، ومن أشهر حرامهم، ولعلمه عنهم أنهم ليسوا يخرجون لقتال فيها!

---

(1) صحيح مسلم: 1054

عن أبي بكرة نفيع بن الحارث: «الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض؛ السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى، قال: فأي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى، قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم -قال محمد: وأحسبه قال- وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم، فسيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالا، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب؛ فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه -فكان محمد إذا ذكره يقول: صدق محمد صلى الله عليه وسلم- ثم قال: ألا هل بلغت؟ مرتين.» [1].

قال قتادة: إن الظلم في الأشهر الحُرُم أعظم خطيئةً ووِزْرًا من الظلم فيما سواها. وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. [2]. وقال قتادة أيضا: إن الله اصطفى صَفَايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسُلا ومن الناس رسلا واصطفى من الكلام ذكرَه، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضانَ والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة،

---

(1) صحيح البخاري: 4406

(2) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، حكمت بشير ياسين: الجزء: 2 / 449

واصطفى من الليالي ليلةَ القدر، فعظِّموا ما عظم الله، فإنما تعظم الأمور بما عظَّمها الله عند أهل الفهم وأهل العقل.[1].

المبحث الثالث والعشرون: سرية عبد الله بن جحش

كانت سرية عبد الله بن جحش مقدمة لغزوة بدر الكبرى، بعثه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في رجب، مقفله من بدر الأولى. برهان عمل دؤوب فلا ينقطع، نشط فلا يفتر.

إن الناظر في أمر سرايا نبينا صلى الله عليه وسلم، وكم كانت؟ وكيف كانت مقدمة لغزوة بدر الكبرى؛ وليعلم أن ديننا له رجال، يسهرون ولا ينامون، ومن حيث كان قدرهم نشره على أيديهم.

إن مقدمات عظاما سبقت غزوة بدر الكبرى؛ برهان أن هذا الأمر جد، ودلالة أن جهاز المخابرات النبوي يقظ لايفتر، وأنه لا يجوز الاستهانة بعدوك، وإن بدا ضعفه.

إن الله تعالى وحين قال ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60]. لم يحدد لنا عدوا قويا من ضعيف؛ برهان وجوب الإعداد الجيد؛ ولأن الحرب

(1) تفسير الطبري، تفسير سورة التوبة، الآية: 36

مفاجآت. وأن عدم الاستهانة بالخصم هو مبدأ عسكري معمول به أبدا، ومهما كان ظاهرا من ضعفه!

كانت سرية عبد الله بن جحش ثمانية رهط مهاجري، لا أنصاري واحدا فيهم، برهان اطمئنان لصف المهاجرين، وتعويدهم ملاقاة قوم بينهم وبينهم نسب وصهر. ذلك أن عاطفة القربي والنسب ربما أحدثت عملها في الصف تخذيلا، وهو ما أراد نبينا ﷺ أن يسلك بهم شعاب التقوى والإيمان، وأن آصرة الدين لهي أشد ميثاقا.

ولكن وجها مليحا، وحين يكون اختيار الفريق ممن هم على دراية بالمسالك، ومن هم أعلم بالطرق، وممن هم على دربة بالزقاق والمنحنيات، وذلك قطعا، أو تقليلا لعوامل الأخطار والمهالك.

وإنصافا للقول، فإن هؤلاء الرهط ما كانوا قد أسلموا إلا وقد تحطمت هذه الوشائج على صخرة الهدى والإيمان والإسلام، إلا أن الاستيثاق منها أمر ربما فرضته قواعد الاشتباك الحقيقي الفعلي العملي.

هذا، وإن الاكتفاء بإسناد عمل السرايا إلى المهاجرين؛ ليبث فيهم روح قرابة، علها تكون مؤثرة في حرصهم على هداية أقوامهم، الذين كانوا من أصلابهم.

وإن إسناد سرية عبد الله بن جحش إلى المهاجرين وحسب؛ برهان أنهم أعلم بشعاب وجهتهم لاغيرهم، وبرهان خبرة قائد، كنبينا صلى الله عليه وسلم، في إسناد العمل إلى أهله.

ومازال العِقد مبرما أن قلةً نافذةً خير من كثرة غير نافذةٍ، دلالة أن سرية عبد الله بن جحش كانت ثمانية، هو تاسعهم، إحكام تصرفٍ، وإحسان تدبرٍ.

كتب نبينا صلى الله عليه وسلم كتابا لعبد الله بن جحش، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه. ثقة وبرهان ابتلاء، ودلالة وفاء، وأنه لن يفتحه!

وإن أمثال عبد الله بن جحش إنما تقوم على أكتافهم دعوة الحق، ولما كانوا أقوياء أمناء، وصدق الله تعالى ربنا حين جعل القوة والأمانة عنوان إشادة، ودلالة ريادة، وانظر إلى قوله تعالى ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26].

وهذا إسرار بالمهمة، وهذا يقين بصدق الرعية، وإخلاص الجندية، وطاعة أميرهم.

وإنما كان منه ليباعد بينه وبين العشيرة، فلا تؤثر فيه جواذبها ليكون أدعى في التضحية.

وانظر إلى عظم المهمة، وإن سرية هذا شأنها، وإذ يؤمر أميرها، ألا يفتح كتابه صلى الله عليه وسلم إلا بعد يومين! سيرا وتقلبا بين الشعاب والوديان والمرتفعات والجبال والهضاب، ووعورة كهذه، حسبنا أن هذا الجيل كان أهلا للقيام لها، وعلى وجهها، وحين قال الله تعالى فيهم، وقد صدقوا ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111].

وفيه من جلد القوم وصبرهم ما يشي كونهم كان عند محط نظر القرآن المجيد فيهم، وحين قال تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146].

كان قراره صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن جحش واضحا مبينا، برهان أن يكون قرار جهة الإدارة مبينا، لا غموض معه، واضحا لا لبس فيه، أدعى إذعانا، وأقطع لشبهة.

إن جهة الإدارة تكون كثيرا هي المسؤولة عن عِيٍّ أصاب قرارها، وحين تفلت المستقبِل منها؛ لغموض عابه، ولعموم شابه.

وانظر كيف كان قراره ﷺ!

1 - أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين.

2- ثم ينظر فيه.

3- فيمضي لما أمره به.

4- ولا يستكره من أصحابه أحدا.

فإن هذا قرار إداري جامع مانع. وفيه إيجاز كان وصفا لقرار إداري دقيق. وليكون تنفيذه على وجهه؛ ولأنه واضح شكلا ومضمونا.

وجه نبينا صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش ألا يستكره أحدا من أصحابه. دلالة لطف قائد، وبرهان وده؛ لينال حسن الطاعة، وكفاءة التدبير.

وسلاسة الانقياد، وفقيه ذاك القائد، وحين يستدعي مكامن اللطف في مرؤوسيه، فيتحسس حبهم، وليحبوه أيضا؛ ليثمروا عملا ناجحا مبرورا نافعا.

وجميل أن يشعر فريق العمل أنهم جميعا "أصحاب" فإن ذلك موجب رحمة، وسبب إلف، وليعين بعضهم بعضا، وليؤازر أخو أخاه.

إن الإكراه عيب يشوب الرضا! وكان الاستكراه أعظمَ؛ ولأنه حامل بين جنباته مفاعلة، لا تقوم معها لجهاز إداري قائمة، وحين تكون العلاقة الإدارية قائمة ما بين شد وجذب، كان عنوانه أن هذا مستكرِهٌ، وأن ذاك الآخر مستكرَهٌ!

إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشا، وتعلم لنا من أخبارهم: وبه كانت مهمة سرية بن جحش استخبارية قتالية معا.

وهذه لفتة حسنة، وحين يكون عمل جهاز الاستخبارات يقظا أبدا، سلم الدولة وحربها، يسرها وعسرها، وعلى حال من أمرها.

وإن هذا هرم إداري، فالخطاب فيه لأمير السرية وحده، ومن ثم فعليه بلاغ أصحابه، ولا أقول لمن دونه! وقافا عند وصفه ﷺ!

وانظر مرة أخرى، وحين يكون العمل الإداري في المنشأة قائما على أساس الصحبة المهورة بالتعاون والتعاضد والتفاني، وماذا هو كائن حالها إلا رقيا وعلوا وسؤددا؟!

ونظر عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه في كتابه صلى الله عليه وسلم فقال: سمعا وطاعة، وهذا برهان إسلاس قياد، وأخبر أصحابه بما فيه،

وهـذا عمـل إداري يشـي باجتمـاع الفريـق حـول قائـده، وأن بلاغـا واجبـا لمرئيـات القائد وقراراته، وباسمه كيما تنال قبولا، وكيما تصحبها قوة إلزام؛ ليسارع كل إلى تنفيذ ما وكل إليه، وبنفس راضية!

حين أمر صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش ألا يستكره أحدا فقال: نهاني أن أستكره أحدا فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فلينطلق. (1)

وهذا تفسير مبهج للقرار الإداري.

حين أخبر عبد الله بن جحش أصحابه، أنه غير مكره أحدا، فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف منهم أحد. وهذا برهان صدق بيعتهم، وعلى السمع والطاعة، في المنشط والمكره، لم تكن بيعة حبرا على ورق، مفرغة من تبعة انقياد، كان علامة على الصدق فيها، وإلا كانت معراة من دليل صدق، ومخلاة من برهان إخلاص!

إن تفسير عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه قرار نبينا صلى الله عليه وسلم، أنه لا إكراه، وأن الإكراه هو الإكراه على الشهادة، كان بعد نظر تحلى به، وهو ما جعله محل اختياره وثقته صلى الله عليه وسلم به، وإلا فلربما لو كان غيره، لأغرق نفسه في تأويلات شتى، كان أخرها الشهادة، ولو كانت فيها!

إن تفسير القرار الإداري مهمة غاية في أهميتها، ولذا فلا تمنح صلاحية ذلك إلا لمن سبر غور إدارته، وكانت له فيها مواقف تترى، يخبر عميقها، وله دربة خياراتها لما فيه صلاحها ورقيها.

---

(1) تاريخ الطبري: ج ٢ / ١٢٥

إن المنوط به تفسير القرار الإداري هو من أصدره أصالة، فهو يعرف مراده، أو مستقبله نيابة، فهو أعلم بقائده، وحين كان أكثر معايشة له، وخبرة به.

كانت قرارات نبينا صلى الله عليه وسلم واضحة، شكلها وموضوعها، وبحيث كانت جامعة لفحواها، وقاطعة لمعناها، ومانعة تداخلها مع ما سواها، ولأنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم، ولأنه صلى الله عليه وسلم أيضا ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3و4].

التقت سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى مع عير قريش، فأسروا منهم بعضهم، واغتنموا عيرهم، وقتلوا زعيمهم - عمر بن الحضرمي -، وقسموا غنائمهم، فأبقوا خمسها لنبيهم صلى الله عليه وسلم. وكان ذلك في شهر رجب الحرام.

حين قتلت سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه قريشا في شهر رجب الحرام، فقال صلى الله عليه وسلم «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا [1].

حين اعترض نبينا صلى الله عليه وسلم على سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى، مقاتلتهم قريشا، في رجب الحرام، إلا أنه لم يعنف أحدا، برهان حسن خلقه صلى الله عليه وسلم، ودلالة جمع للصف كانت أولى.

وهذا من فقه الأولويات. ومن حيث لا معارضة بل تأويل ولربما كان سائغا.

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٣٠٦

أقر القرآن مقاتلة سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى لقريش في رجب الحرام، بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217].

إن جواز قتل سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى؛ لأنها مفسدة أدني؛ لوقوعه في رجب الحرام. وإن فتنة شركهم مفسدة أعلى، فجاز ارتكاب أدنى المفسدتين؛ ولصالح أعلاهما، وهذا هو فقه الموازنات.

إن الكفر بالله، والصد عن سبيله تعالى، وعن المسجد الحرام، وإخراج أهله منه، كانت أكبر عند الله تعالى، من مجرد قتل بعض قريش، وهذا هو فقه الأولويات.

وافق القرآن الحكيم عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه، حين قسم الخمس للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41]. وهذا برهان إلهام رباني، وحين اختار صلى الله عليه وسلم كفؤا يعمل على نور من ربه!

وافق القرآن الحكيم عبد الله بن جحش رضي الله تعالى، وحين قتل قريشا، في رجب الحرام، ولأن شركهم كان أعظم ذنبا من فعله قتلهم، وهو ذنب أقل منه درجة!

دل قوله تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ على أن الذنوب تتفاوت درجاتها، وأن الخطايا تتفاوت دركاتها، والفتنة هي الشرك، وسمي فتنة؛ لإعمائه صاحبه، وحين كان الحق واضحا فيتركه، فكان بمثابة أعمى لايرى! وهذا من إعجاز القرآن المجيد!

حسم القرآن نزاعا بين الصحابة، شأن مقاتلتهم قريشا، في رجب الحرام، وعلى محضر من نبينا صلى الله عليه وسلم، دلالة أن هذه أمة مرحومة، يحدوها القرآن، ويهديها الفرقان.

شنع إعلام قريش السلبي أن محمدا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال. وهذا عمل ذلكم إعلام سلبي.

إنّ الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها، فإنّ الحرمات المقدسة قد انتهكت كلّها في محاربة الإسلام، واضطهاد أهله! فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرّة وشناعة؟ ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرّر قتل نبيّهم، وسلب أموالهم؟! [1] .

---

(1) فقه السيرة، محمد الغزالي: 224

كان نبينا ﷺ قد أمسك عن الخمس، ولكنه عاد فأخذه، حين نزل القرآن بجواز القتال في الشهر الحرام، فقبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين.

كان إمساك نبينا ﷺ عن الخمس في سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه اجتهادا منه ﷺ، وكان أخذه ﷺ بعده اقتداء منه للقرآن المجيد؛ برهان أنه بشر يقف عند النص، ولو كان رسولا نبيا ﷺ. وهذا سنن لغيره، وهذا هدي لسواه.

قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا الامر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين، وبعثت قريش في فداء عثمان والحكم بن كيسان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا" يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما. فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم. فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرا.[1] .

حين تغيب سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان في سرية بن جحش، وطلبت قريش افتداء أسيريها، فرد صلى الله عليه وسلم بقوله: إذا عاد صاحبانا رددنا صاحبيكم، وإلا اقتدنا لهما[2] .

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٣٠٦

(2) المرجع السابق: ج ٣ / ٣٠٦

إن توجيه اتهام لقريش أنها ربما كانت قد قتلت أسيرين لسرية عبد الله بن جحش، برهان تقديم الاحتراس من العدو، وذلك في مقابل أن إحسان الظن مقدم، وحين يكون في جانب التعامل مع المسلم، والأصل أنه وليٌّ، له حق التماس الأعذار، ومنه قاعدة إحسان الظن فيه، وهذا هو ديننا!

قدم ديننا الاحتراس من عدوه، على إحسان ظن به، ولأن العدو عادته المباغته، ويحمل غيظا، وحين قدم ديننا إحسان الظن في ولي الله؛ ولأن قلبه صاف راق يحمل ودا.

إن احتراس نبينا صلى الله عليه وسلم من قريش، وخشية أن تكون قتلت سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان صحابيان كان في سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه، يعد مبدأ نفسيا وعسكريا في آن، ومن ثم وجب إعماله؛ كيلا نؤتى على حين غفلة من أمرنا.

إن فقها هو جواز القود من أسير الحرب؛ ولقوله صلى الله عليه وسلم: «لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا» - يعني: سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم.

وإن من فقهها أيضا، جواز اتخاذ تدابير احترازية ضد العدو، ولأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أجل فداء أسيري قريش إلى حين التأكد من عودة صاحبيه وسلامتهما.

وإن من فقهها أيضا، وجوب الوفاء بالوعد؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم قبل فداء أسيري قريش حين قدم سعد وعتبة سالمين، وكان قد خشي عليهما منها.

وإن من فقهها أيضا، جواز الوصية، ولقول عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه: من كان يريد الموت فليمض، وليوص، فإنني موص، وماض لأمر رسول الله ﷺ.[1].

ولعل فقها أكبر، وحين ابتدأ عبد الله بن جحش بإيصائه، مهارة إدارية، وقدوة حسنة نافذة.

كان أسيرا قريش في غزوة عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنهما: الحكم بن كيسان فأسلم حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا، وذلك بعد مقامه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الثاني هو عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرا.

يا رسول الله: أنطمع أن تكون لنا غزاة نعطى فيها أجر المجاهدين؟[2].

هذا هو قول طمع عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه لنبينا صلى الله عليه وسلم؛ طمعا في أجر أكبر، وحين نزل فيه قرآن يؤيده وسريته!

إنه ليظل المجاهد يترقى درجة إثر درجة، حتى يبلغ به أمره طلب الشهادة، والسهر عليها، دليل طمع عبد الله بن جحش رضي الله تعالى فيها، وحين عاد حيا منتصرا من سريته!

وما إن طلب عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه غزاة تمنحه أجر المجاهدين، إلا وأسرع القرآن منزلا من السماء أنه قابل رجاءه رحمته تعالى بإنفاذه وبقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٣٠٧

(2) المرجع السابق: ج ٣ / ٣٠6

﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 218]. وهذا جواب قرآني حاسم، يهدي به الله تعالى باله، وبال من كانت سريرته سريرته!

ودعونا نتخيل قائدا كنبينا صلى الله عليه وسلم، وأولاء جنده، يدورون حوله، وهاهم أولاء يرجون الشهادة جميعهم! وماذا نحن قائلون إلا أن هذا رفع لمعنويات القائد، فضلا عن غبطته، بما رأى لا بما سمع.

إن القائد يكون أسعد لحظاته، وحين يصطف جنده من أمامه، يطلبون الشهادة، جميعهم، ولا يتخلف منهم ولو واحدا! وهذا دلالة عمل هذا الدين في قلوبهم جميعا.

إن الذين يرجون الشهادة، إنما يرجون رحمة الله تعالى، وهو سبحانه من ثم يشيد صنيعهم، ويؤتيهم سؤلهم؛ ولأنهم ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، إن الشهادة رحمة.

واستنباطا من قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ردا على طلبهم الشهادة، أن الشهادة نفسها وكلها رحمة، لا مجرد أنها سبب لها، وهذه بلاغة القرآن المجيد!

إن هذا الدين قام على أكتاف قوم، نذروا أنفسهم لله تعالى، حتى جاءنا كريما، مرفوعة هامته، سامقة قامته، أمانة في أعناقنا، على طريق أسلافنا من قبل.

وإذ نطلق على سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه (سرية الأولين)؛ ولأنه كان أول أمير فيها، وكان ابن الحضرمي أول قتيل فيها، وأول غنيمة

كانت فيها، وكان عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون فيها.

إننا لا نساير قول من قال: إن قتل المسلمين لحضرمي قريش كان آخر جمادي الثانية، لاحتمال أن يكون كاملا، لا أول رجب، لاحتمال أن يكون ناقصا. وهو وجه على كل حال.

إن دفاع بعضهم عن قتل المسلمين للحضرمي، وأنه كان آخر جمادي الثانية يدفعه القرآن العظيم، وحين قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: 217]. ولو أن هذا كان علاجا لذلك، ما كان للآية السابقة من محل، والقرآن منزه عن ذلك ابتداءً.

إن ديننا وحين أجاز القتال في الشهر الحرام دفعا، وكيلا يتخذه العدو سُلَّمًا لدحرنا، ونحن إذ قعود ونقول: لانقاتل في الشهر الحرام، وإن أتوا علينا!

وما كان لديننا أن يحرم قتالا في الشهر الحرام، إلا وحين أمن جهته، فإن ظنها لا أمان - ولو لمجرد الظن - زأرا! وإن كان الشهر حراما! حماية لبيضته، ودحرا لعدوه.

إنه لا يخرجنا خلاف أهل المغازي والسير حول عدد سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه، وهم يومئذ سبعة أو ثمانية أو تسعة، عن أنه عدد قليل، وأن البركة فيه، ومن جميع جوانب البحث!

ولو لم يبق من سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه، إلا خروجنا بقرآن، أشاد به، وصحبه معه، لكفانا؛ إعظاما لذلكم جيل، أقض مضاجع كفار عصره، وبسبعة أو ثمانية، ومن ثم يرجع كله سالما! دون كلم فيه، أو ثلم يكتويه!

وإن التاريخ سيقف معظما عملا، قام به عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه، بسبعة أو ثمانية، كان من شأنهم إثخانهم عدوهم، وغنموا أموالهم، وأسروا أسيرهم، وعادوا جميعهم، دون ولو جرح أحد منهم!

إن سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه، عمل عسكري فذ، ووسام على صدور جيل، جابه الموت، بصدور مكشوفة، فكتبت سلامته ونصره معا! قلادة أخرى!

وإن الطاعات لتتوالد! وهذا استنباط من سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه، وحين تشوفت نفسه شهادة، من بعد نصر تكلله، يوم سريته، وحين طلب عملا جهاديا كانت نفسه ثمنه!

إن حجاجا قام سوقه أن استحلال نبينا للشهر الحرام قد وقع، زعم يبطله استحلالهم له كل مرة، وحين داسوا حرمته، وهم إذ يكيدون للمسلمين كيدهم، ليل نهار، سنة ماضية! وماذا نحن أو هم قائلون، وحين طالبوا دم نبينا صلى الله عليه وسلم، ومن معه، آناء الليل وأطراف النهار، وغير ناظرين عما إذا كان لهم ذلك شهرا حراما أو حلالا؟!

إن حضورا ألفناه للصديق أبي بكر عز علينا ألا نراه كل مرة، وإذ هو يفاجئنا بشعر قال فيه ما لم يقله شعراء الزمان كله، إشادة بسرية عبد الله بن جحش! ولما جاء منه:

تعدون قتلا في الحرام عظيمة وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله لئلا يرى لله في البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دما وابن عبد الله عثمان بيننا ينازعه غلّ من القيد عاند

المبحث الرابع والعشرون: تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة البيت الحرام

كان تحويل القبلة في السنة الثانية من الهجرة قبل غزوة بدر الكبرى، برهانا على أنه تعالى له المشرق والمغرب، وأينما نولي وجوهنا فثم وجه الله. وكما قال سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: 115].

كان تحويل القبلة ابتلاء منه تعالى لعباده، وأنهم متعبدون بأمره ونهيه، وحيث كانت وجهتهم هي ربهم الأعلى، ولا ضير إذًا أن تكون إلى المشرق أو إلى المغرب.

إنه ليس يهم تاريخ تحويل القبلة، كونه كان في رجب أو نصف شعبان، فهذا درسُ تاريخٍ وحسب، وإنما المهم علمُ أننا أمة متعبدون بأمره تعالى، فعلا أو تركا، وذلك اختبارا لمدى عبودية العبيد ربهم الحق سبحانه.

كان تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام أول نسخ في الإسلام، برهان اعتداد بالنسخ، خلاف قائلين بغيره، وهذه مسألة أصولية لها بحثها وبسطها في موضع آخر.

صلى نبينا صلى الله عليه وسلم ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا إلى بيت المقدس، وهذا برهان شدة وحرص متابعة القوم لنبيهم، وليكون اقتداؤهم برهان عبوديتهم لربهم، وعلى شرعه تعالى وحده، لا هوى متبعا.

إن صلاة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس مع ميله إلى البيت الحرام قبلةً، برهان أنه صلى الله عليه وسلم إنما يعمل على هدي ونور من ربه، وليس له من أمره من شيء، فما بال غيره؟!

إن رغبة نبينا صلى الله عليه وسلم جعل قبلته إلى البيت الحرام مع بقائه إلى بيت المقدس، برهان مجانبة رغباتنا، واتباع الدليل، وإن خالفها، ولأنه تعالى أعلم.

إن في تطلعه صلى الله عليه وسلم تحويل القبلة، بيان مدى صبره صلى الله عليه وسلم على أمر ربه، وأنه تعالى مُرْضٍ عبده، إذا صبر، دلالة تحويلها إلى البيت الحرام، أمرا وإرضاءا.

إن تطلع نبينا صلى الله عليه وسلم إلى تحويل القبلة، كان برهان تعلقه بالبيت الحرام، ولأنه أول بيت وضع للناس، وأجل الكعبة البيت الحرام، مثابة للناس وأمنا. وكما قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

﴿حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 96 و 97].

إن بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، وهو عِقْدُ كل مسلم، ولا يغير من هذا غبار يهود، حينا من بعد حين آخر، لعلمهم أن عملهم زبد، يذهب جفاء!

إنني أرى البيت المقدسي شامخا عاليا، تملؤه السكينة، وأن مريدا له بضر سيقصمه مولاه، ولأنه تعالى يغار، وأشدها غيرة إذا انتهكت محارمه، كما قال صلى الله عليه وسلم: إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه [1].

إن فعل يهود في بيت الله المقدس لا يغير من أمره من شيء، وسيظل عاليا تملؤه السكينة، ويعلوه الوقار، وما فعلهم إلا زيادة بريق له ولمعانا!

وقال الله تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 144]. لم يمر وقت، دلالة فاء التعقيب، حتى صرفه مولاه إلى الكعبة إكراما له.

إن صرفه تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة قبلة بديلة، برهان قيمته، ودلالة اهتمامه تعالى بإرضائه، دلالة الفعل ﴿تَرْضَاهَا﴾، والمشارق والمغارب كلها لله تعالى.

---

(1) صحيح مسلم: 2761

عند النظر إلى الفعلين ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ و ﴿فَوَلِّ﴾، فكان الأول قسما مبرما، مقدمةً، وكان الثاني جوابا مسابقا الزمن، نتيجةً، برهان وفاء ربنا لعهد قطعه على نفسه سبحانه.

مر رجل على أهل مسجد، وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قِبل مكة فداروا كما هم قبل البيت! أرأيت كيف كانت متابعتهم لنبيهم ﷺ.

عن البراء بن عازب " كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده، أو قال أخواله من الأنصار، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا، أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولى وجهه قبل البيت، أنكروا ذلك [1].

وإنه لتمر علينا أحداث يقلب أحدنا فيها بصره مرة ثم يفتى! وكانت تمر عليهم دونها، فيبقون مكانهم يثبتون، لا يتحركون، إلا أن يسألوا رسولهم، وماذا هم فاعلون؟!

إن فارقا بيننا وبينهم، أنهم كانوا لا ينقلون خطوا عن خطوٍ، إلا بهدي، ونحن نسير خبط عشواء، نقلب الكتاب كله؛ لنجد فيه ما وافق قولنا، وإن بعدت به الشقة!

---

(1) صحيح البخاري: 40

وقال الله تعالى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 142]. والسفهاء هم يهود! مهنتهم تربصهم بوقائع المسلمين وأحداثهم؛ ليبغوا خلالها؛ زعزعة لثقتهم، وأنى لهم!

وهذا إعجاز قرآننا، ولأن يهود قالوها، ولأنه ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: 69].

قال الله ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، حين قال ﴿السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: 142].

كان نبينا ﷺ يصلي في مكة إلى بيت المقدس، والكعبة بين يديه، وكان الأمر بهذه المثابة غير ملفت، إلا أنه ﷺ حين صلى في يثرب، والكعبة من خلفه، ومن هنا تشوفت نفسه ألا يستدبرها، ومنه علم ربنا تعالى ما خاطبه به ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

إنه ومهما يكن من أمر، فإن نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، برهان مراعاة التشريع لما تهفو إليه قلوب العباد، وحيث كان في دينهم سعة.

إن اطلاعا أوليا على باب النسخ، يوقفنا على كم كان التشريع، إلى جانب رفع الحرج ودفعه، وجلب اليسر ووضعه، ولعلمه تعالى أن فينا ضعفا فأزاله بموجبه.

إن تشوف نبينا ﷺ أن تكون الكعبة قبلته حياء استدبارها، وإذ يصلي في يثرب، علاوة على أنها قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، فأراد ﷺ جمع الخيرين معا.

إن جعل الكعبة قبلتنا، هو ما يوافق لإعمال قوله تعالى ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125]. وإلا ما أمكن ذلك وهذا من موطئات التنزيل الحكيم.

حين نزل الأمر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ خطب نبينا ﷺ المسلمين، وأعلمهم به، برهان أن الأمر على الفور، لا التراخي، سعة عبد منيب، وقدرة ولي لله أواب، تيسيرا من الله تعالى العظيم الوهاب.

نزل الأمر بتحويل القبلة بين الظهر والعصر، فصلى نبينا العصر إلى الكعبة، وهذا برهان مسارعة إلى الطاعة، أول أمرها، وكما الصلاة أول وقتها.

يلاحظ من فقه سيرته ﷺ أنهم كانوا ينتظرون أمر السماء، فيتبادرونه أسرع ما تكون مبادرة تلبية لأمر السماء، فيعملونه أقدر ما توافرت قدرة وسعة نشاطا وهمة وإقداما، ولقوله تعالى ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]. وقوله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16].

وإنه ليهون الأمر، وحين علمنا نبينا ﷺ أن يهود تحسدنا على ثلاث، وحين قال ﷺ: إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها، وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها، وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين [1]

---

(1) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: 25029. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وأما من كان قد صلى قبل وقبلته بيت المقدس فقد حسم بقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 143].

المبحث الخامس والعشرون: فرض صيام شهر رمضان سنة ثنتين قبل وقعة بدر

فرض الله تعالى صيام شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة.

وإن للصيام لشأنا في ديننا، وأجله صام نبينا ﷺ ثلاثة أيام من كل شهر، وعاشوراء، ثم فرض رمضان بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183].

حكمة الصيام: لسنا في كثير حاجة لبيان أهمية الصيام، كونه ركنا رابعا، وأنه سبب لتقوى رب العالمين، وعلامة انقياد لسلطانه تعالى، وأن ما جاء عنه خير للعبيد أبدا.

وإن نظرا أوليا إلى أحكام الصيام، لتشي أننا أمام رب رحيم، يأمرلكن أمره مزيج رحمة، أسبغت على أمره، وكأن لم يكن أمرا، بل سياحة في رحمة.

وجاء قوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]. تتويجا لأمر عام في شريعتنا، وأنها قائمة على تكليف العباد، ما كان داخلا نطاق وسعهم، وأنه خير لهم.

ولم يكن أمره تعالى بالصوم، إلا لأن طاقة أحدنا لتسعه، تناغما بين سلطة الأمر، وإمكان نفاذه، وتنفيذه معا، وهذه مقتضيات رحمة، كانت وصفا لربنا الرحمن أبدا.

فرحتا الصائم! إنه وإن لم يكن من صومنا إلا فرحتان: يوم فطرنا، ويوم لقاء ربنا، لكان كافيا، ولتمنينا أن نصوم أبدا، مضاعفة لأفراحنا وأجرنا، لكنه التشريع وحسبنا. ولأنه تعالى يكلف من العمل ما تسعه نفوس عبيده، وهذه غاية الأهمية، لكنه سبحانه كان تشريعه بين منوعات شتى، ولأن النفوس ولعلها تمل، وكما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: يا حنظلة، ساعة وساعة.

وذلك أن: أن حنظلة الأسيدي -وكان من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- قال: لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: نافق حنظلة، يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله، نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات. [1] .

---

(1) صحيح مسلم: 2750

وجاء عن علي رضي الله عنه أنه قال: روِّحوا القلوب، واطلُبوا لها طرف الحكمة، فإنها تملُّ كما تملُّ الأبدان.[1] .

إنه ولو لم يكشف نبينا صلى الله عليه وسلم عن فرحة الصائم، لظل في النفس عالق ينتظرها، ولأن مجيئها من السلطة العليا قمن لزيادة فرح، كان في النفس سرا مكنونا.

من مسوغات الفطر في رمضان: وإنه قد أثبت الله تعالى في القرآن المجيد الصيام، على مقيم صحيح، ورخص فيه لمريض ومسافر، وأثبت إطعاما لكبير يطيقه. وهذا يسر ديننا مطابقا لقول ربنا ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

زكاة الفطر طهرة وطعمة! اقترنت زكاة الفطر بصيام رمضان؛ ولأنها طهرة للصائمين، من اللغو والرفث، ولأنها طعمة للمساكين، من جوع وعوز، كفى أحدهم أن يمد يده ليقبلها.

وإنه ليدور شهر رمضان بين صيام، وهذا أجر، وتفطير لصائم، كان له مثل أجره، وزكاة فطر، زكاء نفس، وطهرة، وطعمة، وفرح يوم فطر، ويوم لقاء رب، تقوى، وفوزاً، ورضاً،

ولقد خطب نبينا ﷺ الناس، بيانا لزكاة الفطر.[2] وهذا برهان أهميتها، ودلالتها طهرة وطعمة، بهكذا إيجاز كلام، جامع لسبل خير، عم نفعها، منفقها وآخذها.

---

(1) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي: 2/ 129، رقم (1389).

(2) البداية والنهاية، ابن كثير : ج267/2

مقدار الصاع: اجتهد الناس في مقدار الصاع، ولعدم توافره، والأولى توافره ضبطا لكيله، لا لوزنه، ولكن الأمر واسع، لتقارب كثافات الشعير والزبيب والأقط والتمر.

جاء مقدار زكاة الفطر صاعا، مقدراً ثلاثة كيلو تقريباً، لتدخل وسع كلٍ، ومن غالب قوت أهل البلد، رفعا لعسرٍ، وداعية يسرٍ، إشاعة لفضائل ديننا.

فرض نبينا ﷺ زكاة الفطر، من رمضان، صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير؛ على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين. كما جاء من حديث عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه: فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعا من تمر، أو صاعا من شعير على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة. [1] .

وأمر نبينا ﷺ، أن تؤدي زكاة الفطر، قبل خروج الناس إلى الصلاة، جمعا بين حقوق العباد، وحقوق رب العباد، آنا واحدا، وغمرا بالسعادة لمن كان من أهلها، وإتحافا بالأجر العظيم لمخرجها.

وإنه لمن جمال زكاة الفطر، أنها تخرج، وإذا كان يجد، ما يفضل عن قوته، وقوت عياله، يوم العيد وليلته، برهان أن وسعها يغمر كلاً، توسعة لأبواب الخير؛ رحمة من الله تعالى وفضلا.

---

(1) صحيح البخاري: 1503

على من تجب؟ وإن من حكمة زكاة الفطر، أنه ربما لم يوجد لها مستحق، ولما كان شرطها، أن يجد قوته، وقوت عياله، يوم العيد وليلته، وهذا فرض لا يغلب وقوعه إشاعة عفةٍ، تميز بها ديننا، وحث عليها ربنا

هل تجب على الجنين؟ وإن القول بجوب زكاة الفطر، على الجنين، هو قول لا دليل صحيحا عليه، ولأنه ليس محلا لها، ولا موضوعا، وأخرجها أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، عن الجنين إذا نفخ فيه روحه، وإنما أخذه أهل العلم استحبابا.

حكم إخراج القيمة من زكاة الفطر: اختلف الناس حول إخراج قيمة زكاة الفطر، وقول الجمهور بعدمه أولى اتباعا، وأبعد ابتداعا، وأقوم استنانا، وأنهض اقتداء. فالعبادات توقيفية.

عن أبي سعيد الخدري: كنا نخرج في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفطر صاعا من طعام، وقال أبو سعيد: وكان طعامنا الشعير والزبيب والأقط والتمر. [1] . يعني غالب قوتهم.

وقت إخراجها: وكان ابن عمر يعطيها الذين يقبلونها، وكانوا يعطون قبل الفطر بيوم أو يومين. وآخر وقتها صلاة العيد، فلا يجوز تأخيرها عنه، وأفضله قبل الخروج لها؛ لأمره صلى الله عليه وسلم به.

كانت زكاة الفطر طعمة للمساكين، فلا تخرج لغيرهم نصا، والمسكين هو الفقير الذي لا يجد كمال الكفاية كفاية الرجل المعتاد لا بسط ولا غلول.

---

(1) صحيح البخاري: 1510

يظل المرء مسكينا، ولو ملك سفينة! طالما لم يبلغ بها كفايةً ولقوله تعالى ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: 79]! وغير ذي سفينة من باب أولى!

ما المسكين؟ إن المسكين والذي له حق زكاة الفطر نصا هو ما عرفه القرآن الحكيم بقوله تعالى ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: 16]. وكما قال ابن عباس: هو المطروح في الطريق الذي لا بيت له، ولا شيء يقيه من التراب - وفي رواية: هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة، ليس له شيء - وفي رواية عنه: هو البعيد التربة. [1].

جعلت زكاة الفطر دفعا لا طلبا؛ إكراما لذي حاجة مدقع، فلا يذل بسؤال ولأنك عرفت قول الله تعالى ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 273]. وترك لك تقدير سيماهم!

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ هذا تفسير القرآن بعضه بعضا فكان من سيما المساكين أنهم لا يسألون الناس إلحافا أي: إلحاحا.

ليلة القدر في رمضان: إننا نجول شرحا وتفسيرا وبيانا لكلام الله تعالى ربنا الرحمن سبحانه؛ كيما نقربه لأنفسنا، ونعيش جوه الظليل الوارف، وهو يسير أبلغ يسرا، وقريب أعظم فهما، ولأن ليلة القدر وإنما كانت ذات قدر، وإن هي إلا

---

(1) تفسير ابن كثير: 570/4

في شهر رمضان، ولما كانت خيرا من ألف شهر، وكفى أن يتنزل من شأنها سورة بأكملها!

وقال الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [سورة القدر: 1-5].

المبحث السادس والعشرون: صلاة العيد وشعيرة التكبير

إن ربطا نبويا كريما، بين الصيام، وبين الصلاة: دلنا عليه صلاة التراويح، كل ليلة من رمضان، وشأن تتويجه بصلاة العيد جامعة، بيان قيمتيهما معا.

إن فطما لنفس، عن موبقاتها، صياما، وإن صلاة خمس مرات، وقيام ليل، وصلاة عيد، وترانيم قرآن، كان ربيعا للمؤمن، يتنقل فيه من بين زهور إلى زهور أخرى.

وقال الله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185].

جاء تعليل التكبير بعد قوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185]. تعالى نيابة أن يسرا أراده مولانا بنا قمن أن نكبره ومن موجبه وسببه، وأن عسرا لم يرده ربنا سبحانه لنا، موجب تكبيرنا وإعظامنا، وهذه كلية وجب درسها وفقهها أبدا!

وما ظنك بصلاة عيد، وخطبتها، كان عمادهما التكبير، إعلاء لقيمة الألوهية في النفوس، بحيث تكون مقدمة على كل شيء آخر؟

إن صيحات عباده تعالى بالتكبير، من غروب الثلاثين من رمضان، وإلى صلاة العيد، ومن أول شهر ذي الحجة وإلى نهاية أيام التشريق منه، برهان إشهاد ملائكته تعالى، أن قوما يكبرون ربهم، ومنه يقدمون أمره على كل أمر، ويجتنبون نهيه، كأعظم ما يكون اجتناب، خضوعا لربهم، وذلة لبارئهم، رصيد عزة وأنفة، وحين يجيء وقتها في حياة، كان ملؤها الكد والنصب والتعب!

إن صيحات التكبير، وهي إذ ترتج بها الطرقات والأسواق والمساجد والمنابر، برهان إرغام للشيطان، وليولي وله ضراط، وحين تلبس عباده تعالى بلباس التوقير لربهم، وحين أبى واستكبر، ولما ولى وأدبر، وحين خلع عن نفسه سلطانا لله خالقه عليه، وقت ان تسربل المؤمنون سربال عبوديتهم لربهم، وحين علموا أن سلطان رب الناس في قلوبهم أكبر.

كان من إعجاز يوم عيدنا، أن تصطف الملائكة، موكبا مهيبا، لتشهد كل رائح وغاد، لصلاة العيد، حتى أطفال الأمة ونساؤها، إشادة بفعلهم وصنيعهم.

كان مشهد المكبرين، في الأقصى، خزيا ليهود، وهكذا يحفرون لأنفسهم قبور خزيهم، كل مرة، ولو عقلوها ما فعلوها! يوم عيدنا! ولأن تكبيرنا صاعق بهم، ومزلزل أقدامهم، حتى ولوا مدبرين، ومالهم من الله تعالى من عاصم!

تميزت صلاة عيدنا، تضمنها اثنتي عشرة تكبيرة، إحصاءً، عَدَاً تكبيرات الانتقال، برهان فعل التكبير في القلوب أكثر، ودلالة اختيار رباني أقوم.

إننا وإذ لا نقف كثيرا عند إعجاز العدد اثنتي عشرة تكبيرة، في صلاة العيد؛ كيما لا ينسينا إعجازا أكبر، هو اختيار التكبير عما عداه، ومن صنوف ذكر عز حصرها! تعظيما لمقام ربنا.

كان التكبير سرا في صلاتنا، عَدَاْ إمامنا، إلا تكبيرات العيد، فإنها جهرا لكلٍ، حفاوة بعيدنا، ومباهاة بديننا، وتعظيما لربنا، أن ألهمنا أنه أكبر.

إن إعجازا بين ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: 203]. وأنه برهان عموم ذكر في الحج، وبين ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ختام صيامنا، برهان تخصيص للتكبير فيه!

كانت صلاة العيدين، بعد صيام وحج، إفرادا لأهمية ركنين في ديننا، تضمنتا كثرة كاثرة من شعائره تعالى، عما سواها، فكان التكبير إشعارا لذلكم فضل الله تعالى.

عد العيدان إشعار فرح بالمعايدات، ولما تميزت بهما فريضتا الصيام والحج، عما عداهما بهجة وسرورا، أن أتم الله تعالى بهما النعمة، وأقام بهما الحجة، وأسبغ بهما المنة.

إنه إذا كان الناس يعايدون كل عام مرتين، إثر صيامهم، ويوم حجهم، فإنهم يجددون إيمانهم، كل يوم خمس مرات في صلاتهم، وكل أسبوع يوم جمعتهم، حفاوة بإسلامهم، واعتزازا بشعائر ربهم.

كان ملفتا تكبير امرأة عجوز وراء تكبير الإمام، إلا أن تكبيرها كان أشد تأثيرا، وكأنها تقارع إمامنا تكبيرها! وحين أعظمت ربها، فكان برهانها.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وحكمة التكبير من هنا؛ ولأنه تعالى هدانا لصيام رمضان وقيامه، ولأنه داع عظيم لخُلُقِ الشكر لله تعالى العلي الأعلى، أن علمنا ديننا، وأن هدانا سبلنا، وأنه لم يتركنا هملا؛ لنخبط خبط عشواء، إلى هذا الجدار مرة! أو إلى هذا الركن كرة أخرى، فلا نكاد حينها لنعرف معروفا، أو لننكر منكرا!

إذا كان تكبيره تعالى، حين هدانا لصيام رمضان، وقيامه، فكان داعيا قرآنيا، أن يكون هديا، وأن يصير سمتا، وحين يوفق الله تعالى لعمل بر آخر، وأخذا بعموم النص، ذلك وأنه يمكن حيال ذلك أن يكون التكبير سبيلا، وحين يمن علينا ربنا، قياما بعمل آخر، كان عبادة لله تعالى مولانا الحق المبين!

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تضمن فعل التكبير مفعوله(الله)، وغاب عن فعل الشكر، إطلاقا لعنانه خفاقا، برهان ألا حد له، وبحيث يكون الشكر نهجنا للناس، وأن يكون الشكر عملنا مع رب الناس أيضا.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهكذا تتفاعل منظومات التكبير والهدى والشكر! لتعمل عملها صنعا لكائن! وصفه أنه مخبت قانت سائح لربه راكع وساجد أبدا!

الفصل التاسع

غزوة بدر الكبرى

تمهيد وتقديم:

كانت غزوة بدر الكبرى بعد سرية عبد الله بن جحش بشهرين، وأنت ناظر كم كان هذا الجيل باذلا، وكم كان عاملا، لا يعرفه وهن، ولا يتداركه هوان. ولما كان متجهزا أن يلقى عدوه، وبعد شهرين من سرية عبد الله بن جحش!

وإذ نوجز غزوة بدر الكبرى، أنها كانت لاسترجاع أموال المسلمين، غصبتها قريش، إبان هجرتهم إلى يثرب، وأنه قد حان يوم استرجاعها لأهلها، وهذا فقه نبوي. أن ينتظر إلى حلول وقت المنعة، وبحيث يمكننا إزالة العدوان، وآثاره معه، وإن ديننا لطويلٌ نَفَسُهٌ، وبحيث لا عجلة من أمره، وريثما يحل لكل وقت أذانه!

وإنه لينظر إلى غزوة بدر الكبرى، وأخواتها، أن هذا الدين ليس دين صومعة، قدر أنه جاء لإزالة الظلم، وإزاحة الظالمين، ولأنه دين يحفظ للبشرية عزها وإباءها، في سلمها وفي حربها، وفي فقرها وفي غناها.

إن نظرا إلى غزوة بدر الكبرى، وأخواتها، موجب لمراجعة أوراق قضيتنا من جديد؛ وليحكم فيها الإسلام حكمه النافذ، ودون وجه من أوجه الطعن، على حكمه النهائي البات، وأمام أية درجة من درجات التقاضي، وذلك لأنه دين يستمد قانونه من السماء، ومما أنزل الله تعالى الفرقان بصدده، أو هدي النبي العدنان بخصوصه، وبالتالي فكان غنيا سامقا، وليعلو ولا يعلى عليه أبدا.

وإن من فقه الأولويات أن رد الظلم واجب، وعلى قدر الاستطاعة، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يرد ظلم قريش عندما استولت على أموال المهاجرين إلا ريثما كان قوياً.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب

ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث.[1] ! هذا موجز رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب، كانت قد أريتها في منامها، وكان تأويلها أنهم مهزومون أمام جيش نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو إجهاز نفسي بالغ على قريش، وقبل قدوم الملائكة مردفين! تثبيطا لهمم قريش، وفرقاء المعاندة، وهو درس قاس، لمن أراد أن يذكر، أو أراد شكورا، وحين تكون الرؤيا من بينهم هم، لا ملقاة عليهم من خارج! وهذا إعجاز ضاف آخر!

إن رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب، كانت برهان أهمية الحرب النفسية، لاختلال توازن العدو، وفقدانه السيطرة على قراره، ولما كان بمثابة غبار، تذروه الرياح!

إنه ليحسن إعادة النظر في رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب؛ لتوظيفها حربا نفسية مثخنة في العدو، أمكن معها حشره، وإهانته، وتضييق الخناق عليه، والمكنة منه صاغرا، وقبل نزال الملائكة المردفين!

(1) تفسير البغوي، البغوي: ج ٢ / ٢٣١

إن درسا أفيده وراء رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب؛ وأن حربا نفسية تشنها السماء، وحين علم الله صدق العباد، ليكفيهم عدوهم، وهم في الغرفات آمنون، وقبل يوم نزالهم المتربصين، وقبل موعد نفرتهم، إلى دك حصون المعاندين.

كان موجب رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب، أن قريشا تأخذ حذرها، من طوفان القوة القادمة لهذا الإسلام القادم أيضا، وهو إذ يجرف من طريقه كل زنيم، وكل معتد أثيم، لكنها سنته تعالى أن يجعل ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ [يس: 9]!

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران123].

وذلتهم كان نقص عددهم، وأنه كان ثلاث مائة وأربعة عشرا مقاتلا، مواجهة بألف مقاتل قرشي! وكان عتادهم سبعين بعيرا، مواجهة ألف بعير لقريش. وهذا اختلال ظاهري لموازين القوى! ورغمه كان النصر المبين، ولأن جندنا يقاتلون، وحين ينازلون بصدورهم مكشوفة، كانت جنات عدن من أمامهم، مفتوحة على مصراعيها، يتنعمون بنعيمها، وهم إذ يثخنون عدو الله وعدوهم!

المبحث الثاني: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، إن التقوى هي عماد الأمر، وذروة سنامه، ولا تعويل على ما سواها، ولأنها ضابطة للصف وحدها، وهي الحاكمة، أمره ونهيه، وهي الفاصلة كل شيء فيه، ولأنها كانت الوجهة فيها إلى الله تعالى العلي الأعلى سبحانه! وحين مواجهة جنده تعالى- لا جنودنا -! لجند العدو المدججين.

إنه ليحسن غرس القيم الإيمانية النبيلة، في نفوس الجند العاملين المرابطين؛ ولأنها زادهم الحقيقي، عند منازلة عدو الله وعدوهم؛ بذلا للمهج، وابتغاء الأجر، والفوز العظيم.

إن مقارنة ابتدائية بين غزوة بدر الكبرى، وحين أعز الله جنده، قلة محتسبة، وبين يوم حنين، ولما لم تغن عنهم كثرتهم شيئا، حتى كان من إثرها، أنها لم تغن عنهم شيئا، وحين أنابوا، وعلموا أنما النصر من عند الله تعالى العزيز الحكيم.

إن وقوع غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان، كان اجتباء ربانيا، وأنه شهر فضيل مبارك، لأهل القنوت والصلوات والخلوات، وكما أنه كذلك لأهل الميدان والمنازلات والجولات والصولات!

وإنه ليحسن إفادة اختيار الأوقات الفاضلة، لأحداث المسلمين العظمى، اقتداء بغزوة بدر الكبرى، ولما كانت في رمضان، تخطيطا عسكريا معنويا عاليا رائعا مبرما!

قال أبو عبيدة بن الجراح: إنه قد جاءني كتابكم، تستمدوني، وإني أدلكم على من هو أعز نصرا وأحضر جندا، فاستنصروه، فإن محمدا صلى الله عليه وسلم، قد نصر يوم بدر، في أقل من عدتكم، فإذا أتاكم كتابي هذا، فقاتلوهم، ولا تراجعوني.؟ [1]. وهذا درس خالد كريم.

إن منازلات عدة متلاحقة، تجعل الجند المرابطين في شجاعتهم، وتلبسهم ثوب قوتهم، وتكون درسا حاضرا، في نفوس العدو، فتعمل أثرها فيه أبدا. وإنه لقريب منه عملا، تدريب القوات أبدا في ثكناتها؛ أهبة استعدادها، وإحرازا لنصرها!

قالت قريش: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟! [2]. وفي إشارة إلى سرية عبد الله بن جحش. وهذا درس نفيده، وأن عملا بطوليا سابقا، يكون حاضرا، في أذهان الأعداء، فيفقدهم توازنهم.

وهذا درس للأولياء، وحين يكون حاضرا، مجدهم ونصرهم من قبل، فيحفز في الجنود، فيقدمون، ولايدبرون.

المبحث الثالث: يا أبا علي، استجمر فإنما أنت من النساء!

أراد أمية بن خلف أن يتخلف عن قريش في غزوة بدر، إلا أنه خرج، وبعد أن أتاه عقبة بن أبي معيط، وهو جالس في المسجد، بين ظهراني قومه، بمجمرة

(1) مجمع الزوائد، الهيثمي، ج ٦ / ٢١٣

(2) السيرة النبوية، ابن كثير: (383/2).

يحملها، فيها نار ومجمر، حتى وضعها بين يديه ثم قال: يا أبا علي، استجمر فإنما أنت من النساء![1].

المبحث الرابع: علم نبوة ضاف!

أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم أمية بن خلف بقتله! ففعل به ذلك فعله، حتى أراد الانخذال عن بدر؛ خشية قتله، إلا أنه خرج حياء، ولمصيره المحتوم، ولقدره المعلوم. ولأنه وأمثاله، ليسوا من علم قوله تعالى ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154].

إن إخبار نبينا صلى الله عليه وسلم، بقتل أمية بن خلف، وعلى أيدي المؤمنين، علم نبوة ضاف، ولينضاف إلى أعلام نبوة سبقت، وأخرى لاحقة إن شاء الله تعالى.

إنه لا تنسينا حفاوة ملائكته تعالى، تجميلهم عرس بدر، وحين سبقهم قدره تعالى، بانهزام معنوي تمهيدي، كان عنوانه رؤيا عاتكة، وخبر مقتل أمية بن خلف!

حين خرج أمية بن خلف حياء قومه، أخذ لا ينزل منزلا، إلا عقل بعيره، فلم يزل كذلك، حتى قتله الله ببدر، ولعل ناقته أعلمها ربها به! وهذا تحقيق نبوءة نبينا صلى الله عليه وسلم، كفلق الصباح، أو أشد شروقا منه!

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٣١٥

المبحث الخامس: قريش تستشعر الهزيمة في بدرا!

خافت قريش منازلة نبينا صلى الله عليه وسلم في بدر، ولهزيمتهم أمام بني بكر، أول أمرهم! برهان أن التاريخ العسكري للأمم حاكم، فلتحسن قياداتها نصرها لمجدها! ولا يكون ثمة سبة، في تاريخها، فتنخر في اللاحقين، كما قد أذلت أسلافهم الذين خلوا من قبل!

موجبات استشعار الهزيمة: راحت قريش بدرا، منكسرة منهزمة، أمام رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب، وخبر مقتل أمية بن خلف، وكذا تاريخها العسكري الانهزامي، أمام بني بكر، وهذا نصر ابتدائي قبل النزال! ولأنه انهزام داخلي من قبله!

المبحث السادس: عمل الإدارة المعنوية للقوات المسلحة الإسلامية

إن عمل الإدارة المعنوية للقوات المسلحة الإسلامية، أعظم أثرا من إطلاق الرصاص، وحين تحسن إدارته، وهذا درس عسكري، نفيده قضايانا كلها، لا بعضها أو جزأها!

كان عمل إدارة الشؤون المعنوية للقوات المسلحة، يوم بدر كان مثخنا، حتى جاءت قريش، بنفوس منهزمة، وقبل إثخان جند الله فيهم، فتساقطوا أمام رماحهم، وكجلمود ضحر، حطه السيل من علٍ!

المبحث السابع: إبليس يغرر بقريش!

حين خافت قريش مواجهة نبينا صلى الله عليه وسلم، ولإرهاصات انهزامهم بائنة، أوحى إليهم إبليس في صورة سراقة بن مالك، وأنه جار لهم! فخرجوا سراعا. ولإنفاذ قدره تعالى فيهم.

وهذا تصوير للحدث، وكأنك تراه أمام عينيك، حقيقة لا وصفا! ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 47-48].

غر إبليس قريشا، في بدر، حتى عاين الملائكة المنزلين المردفين، فنكص على عقبيه، تاركا إياهم؛ يلقون حتفهم، ويلقون بوارهم، لقدر رباني قاصم فيهم.

قال الله تعالى حكاية إبليس ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وهذه سماجة رأي، وبلادة حس، أن يحيا امرؤ على غشه، ثم يقول ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾! ولان هذا خزي ولما كان استهزاء مقصودا.

المبحث الثامن: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123].

إن هذه ذلة عدد تنجبر، لا ذلة صغار تنكسر. وذلة العدد ابتلاء، وذلة الصغار احتواء.

وإن هذا لا يعارضه قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]! ولأن الذلة ظاهرة في عدد، ولأن العزة حقيقة في سند.

وهي ذلة ظاهرة في المجاز، ولأنهم يملكون ما من سببه الذلة، من قلة عدد وعتاد، لكن قريشا يفجأها نصر الله للمؤمنين، فكانت قريش هم الأذلة!

وهذا إعجاز القرآن! إذ كيف كان نصرا وهم أذلة؟! مما يقتضي بحثه بلاغة، ومقتضاه أن مآلكم كان ذلة، لولا نصره تعالى لكم!

وجملة ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: هذه حال، ولأن وصفا لحالهم، كان ذاك ظاهره من قلة عددهم، لولا أنهم يملكون الزاد التقوى.

﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: هذه حال، دلالة وصف ملاصق لهم. وهي حال جملة إسمية، دلالة شدة هذه الملاصقة، وثبوتها معا.

﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾: هذه حال، تصدرت بالمسند إليه، ضميرا منفصلا ﴿أَنتُمْ﴾: اهتماما وإثارته معا، ولما كان وصفا ميمونا.

وإن النصر ليعوزه سلطان، والسلطان من مقومات الألوهية، فناسب ذكر ﴿اللَّهُ﴾ لا الرب! وهذه بلاغة قرآننا! باختيار اللفظ الملائم لمقتضى الحال.

ولئن كانت الذلة للمؤمنين وصفا ثابتا، فإنها العزة لله تعالى نعتا قائما أيضا، ونصره تعالى للمؤمنين، كان نتيجة عزته، وجاء ثمرة خضوع مسلم لربه، وذلته أيضا!

والذلة سبب عظيم لتحصيل المرغوب، وسبيل قويم لدفع المرهوب، فكانت وصفا لصيقا لذلك.

﴿لَقَدْ﴾: حرف تحقيق وتوكيد، وهما لا يلزمان الفعل الماضي! لأنه يفيد التوكيد أصالة. لكنه إمعان القرآن وحسبنا!

﴿نَصَرَكُمُ- وَأَنتُمْ- لَعَلَّكُمْ﴾ هذا خطاب تعددت أدواته، والتي هي ضمائره كثرة وتنوعا! أفاد تلطفا ربانيا، وحنواً إلهياً، أسبغ على النص قيمة، ولما أظله من وارف المعاني، المضفية عليه إلفا!

﴿نَصَرَكُمُ- لَعَلَّكُمْ﴾ هذه كاف الخطاب، أفادت جمعا، وحصرا، للمؤمنين، في آن واحد، وكأنما هم مدعوون لشرف الخطاب، وقداسة الكلام! مع الله تعالى رب الأنام.

﴿نَصَرَكُمُ- أَنتُمْ﴾ هذه مزاوجة بين الضمير المتصل ﴿نَصَرَكُمُ﴾، والضمير المنفصل ﴿أَنتُمْ﴾، أفادت تفننا لغويا، حسَّنَ الكلام وأجاده وأفاده.

إن ميم الجمع وحين ختمت بها الضمائر آنفا، وإنما جعلت معاني داخلية متراكبة ومنسجمة في آن، تمثل في هذا الوقع المسيطر والمؤثر معا، وعلى القلوب، وعلى النفوس أيضا؛ وليشحذ الهمم أمام عظيم هو الله تعالى، وحين أنزل قرآنا، وهذه هي إحدى حبكاته!

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذا إضفاء على النص سكينته، وحين خوطبوا جمعا، وبميم الجمع، التي أفادت تجسيما للمعنى، وكأنما نراهم، وهاهم أولاء يُخاطَبُون!

ولماذا لا تكون ذلتهم، ومن باب قوله تعالى ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54]!؟

المبحث التاسع: ما عند الله تعالى لا ينال إلا بطاعته!

خرجت قريش على الصعب والذلول في تسعمائة وخمسين مقاتلا، معهم مائتا فرس يقودونها، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين.

إن خروج قريش يوم بدر، ومعهم القيان، يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء المسلمين. هذا عنوان هزيمتهم ابتداء، ولأن أمة همها القيان، لاحظّ لها في نصرها.

إن اندحار قريش يوم بدر، وها هي تتقدمها قيانها، برهان خوف ووجل، أن يفتتن الجند بذلك، ولما كان تاريخا وهديا وسننا، هزيمة فاعله أبدا.

إن الذهاب إلى ميدان القتال، يعوزه رجال أضربوا عن نسائهم، لا أن تسرح معهم غير نسائهم، فتنة وبغيا بينهم وتخذيلا، باسم الترويح، وما هو بترويح!

إن ما عنده تعالى من نصر، ليس يتنزل إلا بطاعته وخوفه ووجله، لا أن تستنزل رحماته، وقيان تروح وتغدو، بين بواسل القتال، توهينا وتضعيفا وتخويرا.

ماذا أغنت القيان المغنيات عن قريش، وها هي إذ تجر أذيال خزيها، يوم بدر، ولما صاحبن قواتهم المسلحة الباسلة! أو هكذا كانوا يظنون؟!

وهاك مقارنة مفيدة: مكث الرسول صلى الله عليه وسلم في بدر ثلاثة أيام بعد النصر، يصلون لربهم ويشكرونه تعالى، ومكث أبو سفيان فيها قبل هزيمتهم، يلهون ويشربون الخمر، وتغني القينات. قارن بين الحق والباطل في التعامل مع ربهم!

مكث الرسول في بدر ثلاثة أيام بعد النصر، إظهارا للقوة والعزة، ولو كانت الأخرى، فلربما قيل: ها هو قد هرب لاحتمال أن تنعقد الحرب ثانية.

أن يتضمن شريط الأخبار- على شبكة جوجل- عشرين خبرا، كان واحد منها خاصا بديننا، وكان لمزا! مقابل أربعة عشر خبرا، ما بين قيان! وبين كرة قدم! وفي وقت يحاصر يهود فيه أقصانا، ومسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإذ كان أولى معالجة! فهذا خطر يتهددنا، وهذا داع لمحو بركتنا!!

إن نظرة على شريط الأخبار، لتوجب أن ترغمك الشفقة، وخبرا واحدا ليس فيه، كان خاصا بحصار أقصانا، أو معالجة بلوانا! مقابلَ أخبار فن وكرة ومائدة أخرجت أجيالا مولعة بها!!

المبحث العاشر: طعام قريش وطعام النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر

نحرت قريش يوم بدر مائة وستة أباعر، في عشرة أيام، لإطعام ألف مقاتل، يعني معدل نصف كيلو لحما تقريبا، لكل منهم في اليوم! وهذا مليء بطون لا يناسب خشونة معركة!

وعلى جانب طعم المسلمين يومئذ، فإنني لم أعثر على كلام فيه، وإنما نسير مع تسلسل عام يحكي لنا سيرتهم، ومن خلال سبع غزوات كاملة، ربما كان منها يوم بدر، وإنما كان طعامهم الجراد!

فعن عبد الله بن أبي أوفى: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات نأكل الجراد. قال أبو بكر في روايته: سبع غزوات، وقال إسحاق: ست، وقال ابن أبي عمر: ست، أو سبع. [1] .

ولك أن تتخيل إذن قوما كان طعام واحدهم نصف كيلو لحما يوميا! مقابل نظير كان يأكل بضع جرادات يومه ذاك!

المبحث الحادي عشر: النسبة المئوية لقوات المسلمين يوم بدر!

كان مع المشركين ستون فرسا، وكان مع رسول الله ﷺ فرسان! يعني معدل3%! وكان مع قريش ستمائة درع، ومقابلها ستون درعا للمسلمين! يعني معدل10%! ورغم ذلك فقد حاز المسلون نصرا مؤزرا!

---

(1) صحيح مسلم: 1952

المبحث الثاني عشر: تأمين الجبهة الداخلية في يثرب

أولا: عبد الله بن أم مكتوم إمام الصلاة: كان اهتمام قريش ببطونهم وقيانهم، وكان اهتمام نبينا صلى الله عليه وسلم بإنابة ابن أم مكتوم بالصلاة في يثرب، وهذه مناسبة لاستدراك موقف سبق مع هذا الصحابي الكريم الأعمى، وحين أنزل الله تعالى فيه قرآنا، يتلى إلى يوم الدين، وحيث قال تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [عبس: 1-12].

ثانيا: أبو لبابة إمام المدينة: كان اهتمامه صلى الله عليه وسلم بإسناد إمارة يثرب إلى الصحابي الكريم أبي لبابة.

وفارق بين اهتمام نبينا صلى الله عليه وسلم بأمور دينه، من إمارة الصلاة ويثرب ولواء بدر، فأحرز نصرا، وبين اهتمامات قريش لبطونها، وقيانها، فباؤوا بهزيمة منكرة.

كان من تنظيم نبينا صلى الله عليه وسلم في بدر، وكما وأنه أعطى لواء بدر الأبيض إلى الصحابي الكريم مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وجعل اختصاص راية لعلي بن أبي طالب، ومعه فريقه، وإسناد راية أخرى لسعد بن معاذ رضي الله تعالى عنهم، ومعه فريقه، تنظيما للصفوف، لا كما يشاع أن هذا مهاجري، وأن هذا أنصاري! فإن هؤلاء قوم كانوا قد أعلنوا استعلاءهم على حمية جاهلية، وما كانوا ليسلموا، إلا وهم قد داسوها، تحت أقدامهم، وبحيث ظلت تراوح مكانها، ويوم أن تركوها وراءهم، يوم أن أسلموا، وما حدث أو ما

يحدث من هنات ههنا أو هنالك، فإنما هي أعمال فردية، لا تمثل ظاهرة، والحمد لله.

المبحث الثالث عشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7].

ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله تحت شجرة، يصلي ويبكي، حتى أصبح. [1].

إن قيام نبينا محمد ﷺ يصلي، يوم بدر، حتى أصبح، تبرء من الحول والقوة، إلى من له الحول والقوة سبحانه، وأن قيان قريش لم تغن عنها شيئا، سوى خوار وبوار!

إن قيام نبينا ﷺ بين يدي ربه، يوم بدر، برهان أن الحرب ضرورة ملجئة للتوجه إلى الرب العلي الأعلى، فيجيب مضطرا دعاه، لا إلى قيان قريش، وملئ بطونها، قال الله تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: 62].

نام الصحابة كلهم في غزوة بدر، إلا الرسول ﷺ فأخذ يصلي حتى أصبح. وهكذا القائد، يلجأ إلى مولاه، ويعلمه الأمة، فإنه ركنك في سرائك وضرائك!

---

(1) صحيح الترغيب، الألباني : 545

إن فرسا واحدا كان للمقداد، ومقابلة بستين فرسا لقريش، يعني ما نسبته1,7%، وهذا في جانب الفروسية وحده. وإن هذا لأمر كاشف عن مدى قلة عددهم وعتادهم، ولقد كان نصرهم مؤزرا رغمه!

المبحث الرابع عشر: هذا عمل القلة المؤمنة!

عن عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ قالَ: كنا يوم بدر اثنين على بعير وثلاثة على بعير وكان عليٌّ وأبو أمامة زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إذا حانت عقبتهما قالا يا رسول الله اركب نمش عنك فيقول إنكما لستما بأقوى على المشي مني، ولا أرغب عن الأجر منكما [1] خلاصة حكم المحدث: إسناده جيد.

فكان كل ثلاثة على بعير! هذا يمشي وهذا يركب تناوبا، فقال أبو لبابةَ وعليُّ بنُ أبي طالبٍ زميلَي رسولِ اللَّهِ لنبينا صلى الله عليه وسلم: نحن نمشي عنك. فقال: ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما! وهذه أخلاق قائد، يعمل على نور من ربه، ويتلقى عونه من مولاه.

عائشة أم المؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر. [2] وهذه خطة أمنية ألا ينكشفوا، والحرب خدعة، كافة أرجائها، صغيرها وكبيرها.

قال كعب بن مالك: قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم

---

(1) المجموع، النووي : 392/4

(2) صحيح ابن حبان، ابن حبان: 4699

يعاتب أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها.[1].

لم يعاتب الله أحدا تخلف يوم بدر، ولأن من تخلف كان معذورا، كعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، لتطبيب رقية زوجه، وكانت في مرض موتها، وطلحة وسعيد بن زيد، بعثهما ﷺ يتجسسان عير قريش. وكان أبو لبابة ممن تخلف عن بدر؛ ولأنه ﷺ أنابه على المدينة، وعاصم بن عدي استخلفه على أهل العالية، وبعضهم كسر كالحارث، فردهم إلى المدينة.

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 42].

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾،

وهذا إعجاز ضاف! ولأن عدد وعتاد نبينا ﷺ كان قليلا، مقارنة بقريش! وهذا داع نفسي للاختلاف في الميعاد حقا. وإذ لو لم يكن ذلك، فلربما أوقع في نفوسهم هاجسا، ليس في صالح معركتهم التي كانت حاسمة، في ميزان السماء!

وإنما جمع الله بين نبينا ﷺ وبين عدوه على غير ميعاد، أمرا كان مفعولا، وليضع جنده في الأمر الواقع، فيجيدون إثخانهم في عدوهم، ويزيدون عوض قلتهم!

---

(1) صحيح البخاري: 3951

قصف جبهة! لئن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه. [1].

هذا سؤال أعرابي جاهل، رده عليه سلمة بن سلامة بن وقش بقوله: لا تسأل رسول الله، وأقبل عليَّ، فأنا أخبرك عن ذلك، نزوتّ عليها! ففي بطنها منك سخلة! [2]. وحسن ألا يضيع أحدنا وقتا مع صنف كهذا! ولأن سؤاله كان خارجا عن معقول، ولذا كان اضطرار سلامة رده ذلك! لاستغراب منطقه، وفحش قوله.

مه أفحشت على الرجل؟! حين قال سلمةُ للجاهل: نزوت عليها ففي بطنها منك سخلة. أي: وطأتها ففي بطنها خروف صغير منك! قال نبينا ﷺ: مه أفحشت على الرجل، ثم أعرض عن سلمة! [3] ولأن ديننا أدب أبدا. ولأنه دينُ حميدِ الخصالِ، وكريمِ القالِ، وحسنِ الفِعَالِ.

قال الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120].

مر نبينا ﷺ على خمسة وأربعين محلة، طريقه إلى بدر سيراً، وهذا كشف عما أصابهم، ورغمه ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146].

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٣١٩

(2) المرجع السابق: ج ٣ / ٣١٩

(3) المرجع السابق: ج ٣ / ٣20

إن مرور نبينا ﷺ على خمسة وأربعين موطنا، ما بين سير على قدم، أو ركوب بعير، لا يخرجنا عن نصب نالهم، وجهد جهدهم، وخاصة إذا علمنا صحراء قطعوها، ورمضاء جابوها!

إنما خرج رسول الله ﷺ، يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم، على غير ميعاد: جواز أن تكون الحرب هجومية، ومن حيث كنتَ ذا حق مسلوب؛ وليمكن به إعادته إلى نصابه وهم أهله، وحين كان أهله هم النبي والذين هاجروا معه، ولما تركوا أموالهم وديارهم، وكانت قد اغتصبتها قريش!

المبحث الخامس عشر: غزوة بدر وقواعد القانون الدولي العام في الحرب

كان في خروجه ﷺ إلى بدر، يريد عير قريش، وعلى غير ميعاد، تحقيق عنصر المفاجأة والمبادأة بالحرب؛ ولأن له حق استرداد ما استلبته قريش من قبل.

ومن المؤكد أنه كانت هناك قواعد تحكم الحروب، إبان يوم بدر، وكان منها كما الفصل السابع من مجلس الأمن يوم الناس هذا!! موجب حق الدفاع المشروع، لاسيما وقد تحققت أسبابه.

المبحث السادس عشر: قاعدة الأصحاب تشد من أزر نبيها

قال المقداد بن عمرو يوم بدر: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك

بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خير ودعا له. [1]

يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك. وهذا التفاف الجند حول قائدهم؛ رفعا لمعنوياته، ومن حيث إنه يمضي لما أراه الله، لا هوى أو استعبادا.

وإن عيون الجند على قائدهم، ولئن عمل بما أراه الله، سوف يكونون أداته وسلاحه ويده ورجله ويمينه وشماله، ولأنه يعمل بما أراه الله.

وهذا تفويض للقائد، ممهور بتحديد سلطته، ولايخرج عنها قيد أنملة واحدة، كونه يعمل على نور من ربه، وحسبه ذلك.

وعلى شرط أن يكون هديا من الله، لنا فيه برهان، وإذا تحقق الشرط (لما أراك الله)، تحقق المشروط (فنحن معك).

عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: ولا طاعةَ لأحَدٍ في معصيَةِ اللهِ، إنَّما الطاعةُ في المعرُوفِ. [2].

وإنما الطاعة في المعروف، وهذا ملخص عقد البيعة بين الراعي والرعية، فإنهم سلاحه، وحين عمل على نور من ربه.

الأثر الإيجابي في تأمين الجهتين الداخلية والعسكرية: عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أشيروا عليَّ أيها النَّاس -وإنَّما يريد الأنصار-؛ وذلك أنَّهم كانوا عدد النَّاس، وذلك أنَّهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله، إنَّا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ٣٩٢

(2) صحيح الجامع، الألباني: 7519، حكم المحدث: صحيح.

إلينا فأنت في ذممنا، نمنعك ممَّا نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوَّف ألَّا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلَّا ممَّن دَهَمه بالمدينة من عدوِّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم، فلمَّا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنَّك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. قال: فقد آمنَّا بك، وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السَّمع والطَّاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله. فوالذي بعثك بالحقِّ، إن استعرضت بنا هذا البحر، فخضته لخضناه معك، ما يتخلَّف منَّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غدًا، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللِّقاء، ولعلَّ الله يريك منَّا ما تقرُّ به عينك، فسِر بنا على بركة الله. فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ونشَّطه ذلك، ثمَّ قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإنَّ الله قد وعدني إحدى الطَّائفتين، والله لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم). [1] .

وهذا حق القائد على جنوده، أن يعلنوا له ولاء الطاعة، ومن حيث كانت في المعروف.

فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فنحن معك. وهذا موجب أن يبين القائد صلاحياته، كون مصدرها قانون القرآن المحكم، وبتأويل سائغ له فيه سابقة من سلف، وإيناس من خلف.

وكان تحديد سلطات الراعي ممهورا بكونه لايخرج عن الفرقان الحكيم، ولا هدي سيد المرسلين، ولا الفرقان الحكيم.

---

(1) تفسير الطبري: (41/11)، 3823، وقال العماد الحافظ ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (261/3): له شواهد.

النبي القائد يستشير أصحابه: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: أشيروا عليَّ أيها النَّاس: وهذا تحقيق لتحديد سلطات القائد، ولأنه يعمل بأمر ربه ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]. ولتطمئن رعيته.

وفيه استفراغ لطاقات الرعية ومواهبهم؛ لأن الراعي ليس محيطا بكلٍ، ولأنهم يستروحون، حين قد استشيروا، وفيما ليس فيه نص. أو حتى فيه نص؛ ليتشاوروا كيفية إعماله وتنفيذه، وهذا بحث كان الأمر فيه واسعا والحمد لله.

وحين قال نبينا ﷺ أشيروا عليَّ أيها النَّاس، فقال سعد بن معاذ، وكان أنصاريا: والله لكأنَّك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل. وهذا في الخطاب تلميح، حيث أغنى عن التصريح.

وهذا تأمين السلامة للجبهة الداخلية، وموازاة بعمل الجبهة الخارجية، ضمانا لحسن سير المعركة، وكيما يضمن معها الإثخان في العدو.

ونفيد من مداولات بين نبينا ﷺ وجنده يوم بدر ذلكم المجال الرحب الواسع للمشاورة، وحينها يمكن للمجتمع أن يخرج بقرار جماعي، كان هدفا لهم جميعا إعماله. وأنها قرارات فرضتها أرض المعركة، فكانت بمثابة غرفة عمليات حقيقية، ولتكون أصوب وأدعى.

فسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ونشَّطه ذلك، ثمَّ قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإنَّ الله قد وعدني إحدى الطَّائفتين، والله لكأنِّي الآن أنظر إلى مصارع القوم، وهذا تحفيز قائد، وبعد أن حفزه جنده، متمثلا في قول سعد بن معاذ سالف الذكر، وهو برهان أنها أمة بعضها من بعض.

وفيه من عمل القائد ما هو شرح لنفوس جنده، وتطييب خواطرهم، وطمأنتهم أن النصر لهم.

وفيه تعليم للأمة بالشورى، وتدريبها عليها، وإلا فإن نبينا صلى الله عليه وسلم هو القائد البصير، والمجاهد المحنك!

أم هو الرَّأيُ والحربُ والمكيدةُ ؟ قال الحباب بن المنذر لنبينا صلى الله عليه وسلم يوم بدر: أرأيتَ هذا المنزلَ، أمَنزِلًا أنزلكَهُ اللهُ، ليسَ لنا أن نتقدَّمَه ولا نتأخَّرَ عنهُ، أم هو الرَّأيُ والحربُ والمكيدةُ ؟ قال : بل هوَ الرَّأيُ والحربُ والمكيدةُ . قال يا رسولَ اللهِ فإنَّ هذا ليس بمنزِلٍ، امضِ بالنَّاسِ حتَّى نأتيَ أدنى ماءٍ من القومِ فنُعسكِرَ فيه، ثمَّ نَعورُ ما وراءَه من الآبارِ، ثُمَّ نَبني علَيهِ حوضًا فنملأه ماءً، ثُمَّ نقاتلُ القومَ فنشربُ ولا يشرَبونَ. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ علَيهِ وسلَّمَ : لقد أشَرتُ بالرَّأيِ، ثم أمرَ بإنفاذِهِ، فلم يَجئ نصفُ اللَّيلِ حتَّى تحوَّلوا كما رأى الحُبابُ، وامتَلكوا مواقعَ الماءِ [1] .

أم هو الرَّأيُ والحربُ والمكيدةُ؟ هذا هو رأي الجند، وعندما يفسح لهم، فلعلهم أوعى بالميدان من قائدهم، وحين أشاروا بلا وجل، فثم مصلحة الأمة كلها.

وقبوله صلى الله عليه وسلم لقول الحباب، والثناء عليه، بإنفاذِ رؤيته، فيه استدعاء القائد لمواهب الجند، واستنهاض ما لديهم من كفاءة.

وحين أبدى المقداد رؤيته، فقال له رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له. وهذا برهان رضا عن قوم يتشاورون وليأخذ بعضهم على أيدي بعضهم، بغية صلاح شأن أمتهم وتقدمها ورقيها. ولربما كان فيه تحديد لسلطات الراعي أيضا، ولما لم

(1) فقه السيرة، الألباني: 224. حكم المحدث: إسناده ضعيف.

يترك لـه عنانـه، فيروح يمنـة ويسـرة، ولربمـا لـم يحالفـه صـوابه، فتتحمـل الأمـة خسـاره وبواره.

قـال عبـد الله بـن مسـعود رضـي الله تعـالى عنـه: شَـهِدْتُ مِـنَ المِقْـدَادِ بـنِ الأسْوَدِ مَشْهَدًا، لَأَنْ أكُونَ صَاحِبَهُ أحَبُّ إلَيَّ ممَّا عُدِلَ به؛ أتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يَدْعُو علَى المُشْرِكِينَ، فَقَالَ: لا نَقُولُ كما قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اذْهَبْ أنْتَ ورَبُّكَ فَقَاتِلَا، ولَكِنَّا نُقَاتِلُ عن يَمِينِكَ، وعَنْ شِمَالِكَ، وبيْنَ يَدَيْكَ وخَلْفَكَ. فَرَأَيْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أشْرَقَ وجْهُهُ وسَرَّهُ. يَعْنِي قَوْلَهُ. [1].

وهذا تسجيل موقف هكذا جيل للتاريخ؛ وليقول كلمته، في هكذا طراز لم تعهد البشرية مثله، لا في عهدها التليد، ولا في تاريخها الجديد!

حين قال المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه: ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. أشرق وجهه ﷺ لذلك وسره. وهذا عمل الرعية، وحين أسلمت وجهها لله، وهي محسنة.

قال الله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115]:

لم يكن قرار نبينا ﷺ يوم بدر فرديا، وإنما استشار أبا بكر وعمر الفاروق رضي الله تعالى عنهما، وكذا الأنصار، برهان أن عملا يتعلق بمصير الأمم، كان حسنا إشراك الأمم فيه.

(1) صحيح البخاري: 3952

باعتبار أن نبينا ﷺ يعمل بنور من ربه، فكان يمكنه اتخاذ قرار يوم بدر فرديا، وبناء على ذلك، بمعنى ومن حيث كونه رسولا نبيا، وإنما يعمل بالوحي، إلا أنه استشار أصحابه، سننا وهديا واقتداء.

كان في استشارة نبينا ﷺ لأصحابه يوم بدر، سنن أن المشورة خير، وإعمال هدي القرآن الحكيم، وحين قال الله تعالى ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]. وإن لم يكن فيها - المشورة -إلا تطييب خواطر الرعية، لكفى بها، ناهيك عن مبادرتهم، وعلى ساق.

إنما حرص نبينا ﷺ على مشورة الأنصار، يوم بدر، وكيما تزال شبهة دفاعهم عنه ﷺ، كل حين، لا حين خطرٍ على يثرب وحسب، كما قد قيل من قبل.

المبحث السابع عشر: استشراف العزم واستيضاح البذل

وكان نبينا محمد ﷺ (يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم)[1].

وحين تأكد نبينا ﷺ عزم أصحابه، واستفراغ جهدهم قتالا، أخذ يدعو على المشركين، فدل على جواز الدعاء على المشركين، وكأنه قرار إعلان حرب، يقودها وراءه جنده، وألف من الملائكة مردفين.

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢/ ٤٤٧

المبحث الثامن عشر: علم نبوة ضاف!

قال رسول الله ﷺ (هذا مصرع فلان) قال: ويضع يده على الأرض، ها هنا وها هنا. قال: فما أماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ [1].

وهذا علم نبوة ضاف آخر، وفيه تثبيت يقين المقاتلين بنصرهم.

« وعن أبي أيوب الأنصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة إني أخبرت ونحن بالمدينة عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذا العير لعل الله يغنمناها قلنا نعم فخرج وخرجنا معه فلما سرنا يوم أو يومين قال لنا ما ترون في القوم فإنهم أخبروا بمخرجكم فقلنا لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ولكن أردنا العير ثم قال ما ترون في القوم فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون قال فتمنينا معشر الأنصار أنا قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم فأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد من تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) ثم أنزل الله عز وجل (انى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) وقال (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) والشوكة القوم وغير ذات الشوكة العير فلما وعد الله إحدى الطائفتين إما القوم وإما العير طابت أنفسنا ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ينظر ما قبل القوم فقال رأيت

---

(1) صحيح مسلم: 1779

سوادا ولا أدري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم هم هلموا ان نتعاد فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا فأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدتنا فسره ذلك وقال عدة أصحاب طالوت [1] .

أُخبِرَ نبينا محمد ﷺ بعير قريش، فحرض أصحابه على اغتنامها، رد ما استلبوه يوم الهجرة. وفيه تحفيز المقاتل أن له أجره، وهذا معمول به عادة، ولاستفراغ الجهد لدى المقاتلين، وليقبلوا على القتال ونفوسهم راضية، أن لهم ولأهليهم جعلا، ولئن حل محل ذلك ما تعطيه الدول من رواتب للمقاتلين في العصر الحالي، وبحيث تكون الغنائم حقا صافيا للدولة، من بعد أن كفلت مقاتليها.

أفاد خبره ﷺ أنه أخبر بعير قريش، احتمال عيون بثها، أو نبأ ربانيا، وكلاهما جائز؛ ولأنه مؤيد من ربه. وفيه عمل جهاز المخابرات عن كثب، ومثابرا لأمن الأمة، واستقرار أمرها.

المبحث التاسع عشر: ما ترون في قتال القوم؟

لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم ولكنا أردنا العيرا! [2] . هذا ما يمكن حدوثه في الصف، ولا دخل له بمسألة الاعتقاد في شيء، ولأن النفس البشرية نفس مركبة من مشاعر وأحاسيس، ويقع بها وعليها من ذلك من واقع أنها نفس، وقول بغير ذلك يعد خروجا عن فطرة فطر الله تعالى الإنسان عليها.

---

(1) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٦ /73- ٧٤
(2) المعجم الكبير، الطبراني: ج ٤/١٧٥

وملكة التوفيق حاكمة هنا، وليعالج الأمر برضا وقبول تامين تامين، وكيما لا يتطاير شرر لهيب كهذا، فيتخلل صفا، أريد له التئامه، ووحدته وانضباطه.

ومنه فإن محاولة إحجام فريق عن خوض غمار القتال يوم بدر، يعد أمراً طبعياً لدى بعض النفوس، كان علاجه ميدانيا، توفيقا ربانيا وإلهاما نبويا، ضمان صف مرصوص، ووأد الفتنة في مهدها، فلا يتطاير شررها!

كان اعتراض بعضهم خوض غمار مواجهة يوم بدر، ابتلاء للقائد الميداني، وكيف يمكنه معالجة ذلك سريعا، ودون إحداث خسائر، أو بلبلة في الصف.

أعاد نبينا ﷺ قوله: ما ترون في قتال القوم؟[1]: ولربما تكون وسوسة، سرعان ما تطاير شررها، ثم يعودون إلى قرار نبيهم محمد ﷺ، الحرب والمكيدة لنصر رباني مؤزر، كان لهم وشرفا ومجدا.

حين أعاد نبينا ﷺ عرض قتال قريش، وكان رد بعضهم قاسيا، ولأنهم أرادوا العير! برهان حبك القائد خططه، وعلى احتمال كهذا، وكيف يمكنه حله ومواجهته، سرعة وحكمة، وكيما لا تتعدى رياحه إلى غير فريقهم، فيبغون خلالهم، وإن لم يكونوا يقصدون!

كان في إعادته ﷺ عرض مقاتلة القوم، رجاء من يقوم مبادرا، ليستنفر من عداه، وقد كان المقداد بن عمرو أميرها وأهلها، فلله دره، وعليه سلام المؤمنين!

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ج 7 /20

المبحث العشرون: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: 5].

هذا تقرير تقدير موقف؛ لإحكام خطة مواجهته ﷺ لوضع جديد، وفي قريب من أرض المعركة! ولأنها نفوس لها حظها، وإن كان للإيمان سبقه.

ولا يتعارض كرههم مع إيمانهم، وهذه إيجابية ديننا، وحسابه للنفوس حسابها!

إن نبينا ﷺ يعمل بهدي ربه، ولأنه هو الذي أخرجه، وبالحق، وكيف يكره المؤمنون؟!

وإنه ليزيد الإيمان بالطاعة، وينقص بالمعصية، فكراهيتهم لم تسلبهم إيمانهم!

وإن هذا تعجيب القرآن، ومن فئة آمنت، وكيف لها أن تكره بعض أمر ربها؟!

لكن هذا يخففه أنه يؤخذ من باب قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

ويستصحب إخراج الرب معه، لطف الربوبية، وهذا إيناس لنبينا ﷺ؛ كيما يطمئن قلبه!

وإن للربوبية ألطافها، وإن للألوهية سلطانها، فناسب لفظ الرب ههنا لطفا، وبدلا عن لفظ الألوهية حكما أيضا!

إن ربنا سبحانه ليس يخرج نبيه ﷺ إلا بالحق ابتداء، مما أغنى ذكره، لكنه جاء منصوصا عليه زيادة يقين وتثبيت، وهذا من تجليات الذكر الحكيم، وبسط أجنحة بلاغته على آيه؛ لتبدو ملامحها أخاذة، مهرة، مشرقة، براقة، ومؤثرة!

وجاء تكرار الخطاب ثلاثا! كما نلاحظه في ﴿أَخْرَجَكَ - رَبُّكَ - بَيْتِكَ﴾ برهان محبة الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، ولطفه معه، وإن خالطها إخراج، ولأنه بالحق!

وإن هذا ليشي باستقبال أمره تعالى، وأنه بالحق أبدا، برهان طمأنة، وحثا ومبادرة!

وهذا إيناس رباني؛ وكيما يلطف معهم نبيهم؛ ولأنهم مؤمنون، وهذا حنو قرآني آخر!

وإنما كان كرههم؛ ولأنه اشتبه عليهم أخذ العير دون مواجهة، أو احتمالها، وهو عدم تقدير موقف عسكري حق قدره.

إن غرفة عمليات القوات المسلحة لها تقديراتها للمواقف، وعلى الجنود الطاعة شرعا واجبا.

وكما أخرجناك فثبتنا لك الأنفال! إذًا لا مجال لكراهية الخروج، إلا أنها نفوس.

وهذا قسم رباني، وإذ لا موجب له، ولا إلزام به عليه سبحانه، سوى أنه إمعان في تثبيت قلوب المؤمنين!

ويمكن توجيه الكاف تشبيها، ولأنكم ستنصرون وتغنمون، تماما كما أخرجتم! وهذا تطييب خواطر المجاهدين؛ لاستنهاض نفرتهم مع نبيهم، وبحيث لا يتخلف منهم أحد!

وهذا أمر جدير عنايته، لدى اتخاذ جهة الإدارة القرار الإداري، ليعمل أثره في النفوس، فتقبل عليه راضية مرضية، لا سيفا مصلتا تتربص به الدوائر، تحللا من ربقته، وتخلصا من سطوته!

وكما أخرجك ربك بحق تحمله، وهو الإسلام، وحين لم تصبر عليك قريش فيه، فهكذا أخرجناك يوم بدر!

ومنه قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4]. برهان عدم تعلق مؤمن بدار الدنيا، كان هذا نصبها، وليقبل بكليته ومتعلقا بالآخرة، وكان مدخرا له فيه نعيمها.

وهذا تذكير بأن الحياة الدنيا كبد، ومن إخراج من مكة، إلى إخراج يوم بدر وهكذا! وهو إيناس آخر لاحتساب المؤمن كل ذلك عند ربه، وأن "ما يُصِيبُ المُسْلِمَ، مِن نَصَبٍ ولَا وصَبٍ، ولَا هَمٍّ ولَا حُزْنٍ ولَا أذًى ولَا غَمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بهَا مِن خَطَايَاهُ. [(1)]

وقوله تعالى ﴿بَيْتِكَ﴾: إمعان في تعلق القلوب ببيوتها، لكنه مناد الإيمان، إذا استدعى المؤمنين! فيجيبون ولا يتأخرون، ويسلمون تسليما.

---

(1) صحيح البخاري: 5641

وهذا انعتاق من الجواذب عموما، ومنها البيوت خاصة، ولشدة التصاق أهلها بها!

إن نفسا عالية لتعلن انعتاقها من جواذب الأرض، وكما أعلنت انعتاقها من الكفر من قبل، تاريخا أبيض ناصعا مشرفا، فتقلدت وسام الإيمان.

وكما سألوك عن الأنفال، وكما جادلوك في الحق، بعد ما تبين لهم، و ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾، ومنه فكان هذا شأنهم ﴿لَكَارِهُونَ﴾!

لم يُسْكِتِ القرآن صوتا، وإن جادل، إفساحا للنفوس، تعبيرها عن ذوات مكنوناتها.

وحين أخرجهم ربهم، وإنما كان على اختيار أنصارهم، فكان منقبة لهم، والحال ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾!

﴿مِن بَيْتِكَ﴾ البيت، حقيقة بيته الذي يسكنه، أو أنه مكة موطنه، أو المدينة مهاجره، وهو برهان اختصاص تكريم له صلى الله عليه وسلم، بعد دلالة إلصاق!

﴿مِن بَيْتِكَ﴾ بيته بالمدينة، أو المدينة نفسها، لأنها مهاجره ومسكنه، فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه.[1] .

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾

هذه طمأنة لنبينا صلى الله عليه وسلم، بعد دلالة إلصاق! وأن الله مولاه لم يكن ليخرجه، إلا بحق يعلمه، ولأن أفعاله تعالى منزهة عن عشواء، بل كلها حكمة.

(1) تفسير النسفي: ج٢ /٥٥

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ - وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ هذان حالان، وقعا في حيز بالغ قصره، برهان أن القرآن الفرقان معنِيٌّ بإبراز أحوال الناس، بلاغة وإيجازا وإعجازا!

المبحث الواحد والعشرون: في الطريق إلى بدر

انطلق نبينا صلى الله عليه وسلم إلى بدر، وسألوا غلاما لقريش عن أبي سفيان، فزعم عدم علمه به، وكان كلما ضربوه غَمَّى عليهم. وفيه جواز الضرب لاستنطاق المتهم.

كانت واقعة ضرب غلام قريش لاستنطاقه حضرة نبينا صلى الله عليه وسلم، فدل على جوازه، ضربا غير مبرح، وغير مهين لكرامة الآدمي، وبقدره، وبقدر المضروب نفسه، وذلك لأن كل نفس تحسب أنها ذات عزة وأنفة، ومهما كان نظر الأغيار إليها!

إن فتح باب إيذاء الآدمي، واستلابه كرامته، حجة استنطاقه، هو عمل غير مشروع، ووباله كان على المجتمع بأسره، وحين امتهنت فيه كرامة الإنسان، وذلك لأنه تعالى قد أكرم الإنسان - جنس الإنسان - أيما كان الإكرام، وحين قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلً﴾ [الإسراء: 70].

قال نبينا صلى الله عليه وسلم عن غلامي قريش: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. [1] وفيه الاحتراس من معلومات مضللة، كان من سببها الضرب والإيذاء.

إن امتهان كرامة الإنسان؛ ذريعة الحصول على معلومات كانت مضللة أساسا، بحاجة إلى إعادة النظر في هكذا منهج، أفرز حنقا مجتمعيا، وثأرا إنسانيا.

إن انتزاع معلومات من الخصم، تحت سطوة الضرب أو التهديد به، كان عملا مفرطا، نتج عنه شر مستطير، لا يجبره فوائد استحصلت، أو هكذا زعم بها.

إن التوسع في ضرب المتهم، أو التهديد به، هو عمل غير صالح، كان أدعى للعدول عنه، تحقيقا لسلم اجتماعي، وأمن مجتمعي، لا ثأر متبادل.

المبحث الثاني والعشرون: علم نبوة ضاف!

عن عروة بن الزبير فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد فأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قائم يصلي فسألوهما فقالا نحن سقاة قريش بعثونا لنسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما فلما إذ لقوهما قالا نحن لأبي سفيان فتركوهما وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتين ثم سلم فقال إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش [2] . قوله صلى الله

(1) تاريخ الطبري، الطبري: 28/2

(2) المرجع السابق: 28/2

عليه وسلم: إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، هذه أعلام نبوة، تضافرت سيرته صلى الله عليه وسلم عليها، وليست من ادعاء الغيب في شيء، أو قل إنها لفراسة، يرزقها عبد، كان من مؤداها ذلك.

وقف نبينا وصدّيقه على شيخ من العرب، وسألاه عن محمد وصحبه وقريش. وفيه جواز التخفي، والأخذ بأسباب الكتمان؛ لإدارة مهمات المسائل.

قصف جبهة! حين سأل نبينا صلى الله عليه وسلم شيخا عن قريش ومحمد وصحبه قال: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له صلى الله عليه وسلم: إذا أخبرتنا أخبرناك.[1]: وفيه الخروج من الشرط بشرط مثله، وهذه براعة حديث، وهذا لطف تصرف، وحكمة سيطرة على الموقف.

حين سأل نبينا صلى الله عليه وسلم شيخا عن قريش ومحمد وصحبه، فكان ذلك دليلا على براعة التمويه والتخفي، وجوازهما، وإنفاذا لعظائم الأمور.

مشروعية التعريض لمصلحة راجحة: ممن أنتما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن من ماء ثم انصرف عنه قال يقول الشيخ ما من ماء أمن ماء العراق؟!

حين سأل الشيخ العربي نبينا صلى الله عليه وسلم ممن أنتما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نحن من ماء، ثم انصرف عنه، قال: يقول الشيخ: ما من ماء أمن ماء العراق؟![2] . وفيه جواز التعريض والتورية في الرد، ودون كذب، ولأنه تعالى خلق الإنسان من ماء، فجرى التوفيق.

---

(1) تاريخ الطبري، الطبري، ج ٢/١٤١

(2) المرجع السابق: ج ٢/١٤١

والتورية أصل خروجا من كذب، ووصولا منها إلى مصلحة، وإلا فلا حاجة لها عند فوات المصلحة، أو الراجحة منها.

هذا، وقد أعملت توريته صلى الله عليه وسلم في الرجل فعلها، برهان حيرته، وحين قال: ما من ماء أمن ماء العراق؟!

عدم التهوين من شأن الخصم: قال نبينا صلى الله عليه وسلم: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها. [1] وفيه استنهاض همم القوم؛ لمواجهة عدو الله وعدوهم، الفينة بعد الفينة الأخرى؛ كيلا يفتروا، وهذه تعبئة عسكرية كان عمل نبينا صلى الله عليه وسلم طرازها الأول!

أثر المعصية في خذلان القوم: سمع الصحابيان عدي وبسبس احتدام جاريتين متلازمتين، وإذ تقول الملزومة لصاحبتها: إنما تأتي العير غدا أو بعد غد فأعمل لهم، ثم أقضيك الذي لك! [2]. وفيه تحسس أخبار العدو من كل طريق ممكن.

كان في قول الجاريتين أن غدا أو بعده مجيء عير أبي سفيان لبدر، دلالة يُقَدِّرُ عليها نبينا صلى الله عليه وسلم خطته؛ لإحكام السيطرة على الموقف، ولأخذ زمام المبادرة.

وقول الجارية: فأعمل لهم، ثم أقضيك الذي لك. وهذا برهان أن القوم كانوا غارقين في المعاصي والموبقات، والذنوب المهلكات، برهان شيوع ذلكم فيهم، وأن جارية هذا شأنها، تنتظر مجيئهم لتعمل لهم! وكان منه إلحاقهم بهزيمة منكرة.

---

(1) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: (282/1)

(2) تاريخ الطبري، الطبري، ج ٢/١٤٢

ولأنه قد جاء في قرآن ربنا سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 81].

وكان انتظار الجاريتين عير قريش، برهان أن القيان تعمل عملها فيهم، وهذه مقدمات هزيمتهم أمام محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه الغر الميامين رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وهذا كان فعل قريش، وقبل معركة كان أولى لهم ألا يغرقوا أنفسهم موبقات، تكون سبب إذلالهم، وأمام جند الله تعالى الميامين والمردفين!

نبي يشكر وعدو يفجر! وإذ كان مناسبا وضعنا أمام مشهد آخر ينقلنا إلى حيث انتهت بدر بنصره صلى الله عليه وسلم، وحيث مكث فيها ثلاثة أيام بعد النصر يصلون ويشكرونه تعالى، وحيث مكث أبو جهل فيها قبل هزيمتهم يلهون ويشربون الخمر وتغني القيان. قارن بين الحق والباطل في التعامل مع ربهم!

أثر الخبرة في تقدير الموقف: إن خبرة بالقوم أنباك عنها معرفة نبينا صلى الله عليه وسلم لعددهم ما بين التسعمائة إلى الألف، وحين علم أنهم ينحرون تسعة من الإبل يوما، ويوما آخر ينحرون عشرا، برهان أنك لا تترك أثرا، ويمكنك إفادة منه، وإلا وبنيت عليه حكما، لتقدير حالتك الراهنة.

إن خبرة لأبي سفيان، بنى عليها أن مخابرات نبينا صلى الله عليه وسلم، قد وصلت بدرا، وحين فتّ بعر البعير، ووجد فيه نوى تمر يثرب! ومنه فلا يستهان بأثر، ولو كان قليلا، برهان أن فيه خبرا، وموجب أن فيه عبرا!

إن قيادة الجماهير، وحين تسند إلى ذوي خبرة، لا ترهق، بل توفر، وحين تسند إلى أحداث، أو أشباههم! فإنهم يبعثرون هنا، ويسرفون هنا، ويخبطون عشواء هناك!

ومنه فإنه يجب أن تؤخذ قرارات تقدير الموقف، وفي كل جوانب الأمة وأنحائها، وعن دراسة ميدانية متعمقة، كمقدمات صحيحة، وإلا أفضت إلى نتائج سلبية، تدفع ثمنها الأمة كلها.

المبحث الثالث والعشرون: رؤيا جهيم بن الصلت وأثرها في خلخلة صفوف قريش

رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة ابن المطلب بن عبد مناف رؤيا. فقال: إني رأيت فيما يرى النائم، وإني لبين النائم واليقظان إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف، ومعه بعير له. ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان وفلان فعد رجالا ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لبة بعيره، ثم أرسله في العسكر فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه فبلغت أبا جهل - لعنه الله - فقال: هذا أيضا نبي آخر من بني المطلب سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا.(1)

فكانت رؤيا جهيم بن الصلت، لمصارع أشراف قريش، في بدر، وهو منهم! برهان هزيمة محققة، فتَّتْ في عضدهم جميعا، ولتنضاف إلى رؤيا عاتكة من قبل! وهذه حرب نفسية كانت إدارتها من السماء، ويحدونا فيها المثل الجميل،

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ١٤٣

إعمالا وتأثيرا وفعلا به تهتز أركان العدو، فلا يقوى على اتخاذ قراراه، وقد فقد توازنه!

وأنت ناظر حين قص جهيم بن الصلت رؤياه، فقال أبو جهل: هذا أيضا نبي آخر من بني المطلب سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا! وهو منبئ استهزاء، كفعلهم برؤيا عاتكة بنت عبد المطلب من قبل. وصدق الله تعالى ربنا حين قال ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: 126].

وأنت ناظر أيضا، وحين قال أبو جهل: هذا أيضا نبي آخر من بني المطلب، سيعلم غدا من المقتول، إن نحن التقينا. ومنه فإنه إذا كان القائد سفيها كهكذا أبي جهل، فقد ذاقت ويلات قراراته الأمة كلها!

كانت رؤيا كل من عاتكة وجهيم برهانين أن تعيد قريش النظر في حربها نبينا صلى الله عليه وسلم، ولكنه وعده تعالى النافذ والذي لا مرد له، وحين قال سبحانه ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: 6]!

كانت ولا تزال براهين الإعجاز لهذا الدين ماثلة أمام أعيننا جميعا، لولا نفوس تستكبر، ولولا قلوب غلف، وآذان صم، ومنه رؤيا عاتكة وجهيم!

وما الذي كان سيعيب قريشا، لو اجتمع مجلس قيادتها، وبرئاسة أبي جهل؛ ليقدروا موقفهم حق قدره، وبناء على معطيات رؤيا عاتكة وجهيم، أنهم مهزومون؟!

إن عجبا يحملنا على عجب آخر مثله، وحين رأينا قريشا يهز مشاعرها قول كاهن! ولا يهز شعرة فيها رؤيا عاتكة وجهيم! وأنهم مهزومون قدرا مقدورا!

إنه لو كانت عاتكة وجهيم في صف المؤمنين، لقيل: هذا أمر حيك بليل، محاباةً وحربا نفسية! نسج خيوطها محمد وصحبه! لكنه ما قولهم، وهما من عدتهم، وأهل الثقة فيهم؟! وهذا هو التحدي!

إنه ما أشبه اليوم بالبارحة، وحين رأت قريش رؤياها بهزيمتها، وإذ غرها عددها وعتادها، وإذ يدكها المؤمنون دكا.

إشارة أبي سفيان بالرجوع دون حرب وأثره وموقف أبي جهل منها! وهذا خذلان آخر منضافا إلى ما سبق من هز جيش قريش هزا! ومن حيث أشار أبو سفيان بالرجوع دون حرب محمد صلى الله عليه وسلم، ولعل أثرا رآه مما سمع أخبارا قد تواترت ومن بين شفاه آله وجنده! إلا أن أبا جهل رفض ليحاربن، وليشربن الخمر، ولتعزفن القيان! إعلانا بجهل مركب، وبمحادة الخالق.

وليس يفوتنا ذكر أن إشارة أبي سفيان بالرجوع كانت إرهاصا آخر منضافا إلى إرهاصات أخرى سبقت، ومن مثل رؤيا عاتكة وجهيم.

بيد أن عملا رأي أبي سفيان كان قد أعمل أثرا في آخرين، وحيث لم تخرج بنو زهرة والأخنس بن شريق مع قريش، يوم بدر، نزولا على رأي أبي سفيان، وهذه خلخلة في صف العدو، لصالح المؤمنين، حَسُنَ إدارتها أبدا.

إن إنجاح خطة هزيمة العدو من داخله، وإحداث بلبلة في صفوفه، أدعى أثرا من إطلاق رصاص، قد يكون عملا طائشا، بعض الأحيان، ويحسن نظر ذلك.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60]. ليس شرطا الهجوم،

وإنما التخويف والردع، ولعله يكون أبلغ، وحين يثخنون في عدوهم من داخله، فيشتتون عليه أمره، ويؤلبون عليه جنده.

آية أخرى! رجع طالب بن أبي طالب، مع من رجع يوم بدر، وهذا إحداث خلال وفرقة آخر في الصف، منضافا إلى رؤييّ عاتكة بنت أبي طالب وجهيم بن الصلت، ليضيق على العدو الخناق، قبل مواجهة كانت محسومة، ولصالح المؤمنين سلفا!

كان رجوع طالب بن أبي طالب، يوم بدر، حمية هاشمية لنبينا صلى الله عليه وسلم، وهي مطلوبة أحيانا، لكن ذهولا أنها منعدمة لدى من لا حظّ لهم في دينهم أو دنياهم!

المبحث الرابع والعشرون: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11].

هذه بركات السماء على جند أخلصوا دينهم لله.

وإذ كان غشيان النعاس المؤمنين يوم بدر آية وإعجازا، ولما كان أمنة في موطن خوف يبعد أن تطرف عين منه بسِنَةٍ.

قال ابن مسعود: النعاس في المصاف - أي القتال - من الإيمان، والنعاس في الصلاة من النفاق. (1)

(1) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ٢ / ٣٩٣

وإذ نتلمس منح السماء، وهي إذ تتنزل رحمة، على عباد الله تعالى المؤمنين أمنا، وحين تغشاهم النعاس، ومن نصب كان لنا تخيل أثره الشديد على مقاتلين، سهروا، وتعبوا، وفكروا، وتشاوروا، وما كان الله تعالى ليذرهم، إلا وقد أراحهم، نعاسا آمنا، وأمنة من خوف، ولينهضوا من بعده نشطاء واعين، وليتجدد نشاطهم من بعد نشاط آخر!

إن إنزاله تعالى الماء، يوم بدر، كان آية، وبرهانَ أن جهاد الأعداء خير كله، أوله أجره، وأوسطه خيره، وأخره فضله الواسع العظيم، نصرا، ونفلا، أو شهادة وعزا.

كان إنزال السماء ماءها، غوثا للمؤمنين كثيرا، وإذاقة للكافرين قليلا، آية أخرى، وليروا بأعينهم فيض السماء، على جند ربهم، وشح مطرها على عدوهم!

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ﴿عَلَيْكُم﴾: تشي باختصاص القوم فضل ربهم. وليرى عدو الله وعدوهم، ولعله أن يؤوب، وإذ رأى وما سمع، وليس من سمع كمن رأى.

وكما وأن ﴿عَلَيْكُم﴾ وكأنها سحابة غيم لتوحي بظلالها الوارفة، وحين أظلت عباد الله المؤمنين ومن علٍ!

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾. وهذه هي بعض فوائد الماء، قرآنا يتلى إلى يوم الدين، ومنهج خير وهدى، وقول صدق وزكاء، ولأنه قول رب الأرض والسماء سبحانه، ويحسن إكثار منه؛ ولأنه ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: 30].

﴿ مَاءً ﴾: 1- ليطهركم به.

2- ويذهب عنكم رجز الشيطان.

3- وليربط على قلوبكم.

4- ويثبت به الأقدام. وذلك لأن الأرض كانت رملا، وكان المطر سبب ثباتها، ومن ثم لتثبت به أقدام المؤمنين؛ تسهيلا لحركتهم، وتيسيرا لراحتهم ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وصفة علاجية: هذه صيدلية، كان الماء دواءها الأوحد، ولكافة أمراض البشر! حسية كانت أو معنوية أيضا.

وقال مجاهد: أنزل عليهم المطر فأطفأ به الغبار وتلبدت به الأرض وطابت به أنفسهم وثبتت به أقدامهم.[1].

المبحث الخامس والعشرون: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12].

كانت معركة بدر قائدها ربها - معيةً - وملائكته جندها - مثبتةً - ومحمد صلى الله عليه وسلم وصحبه عنوانها! قائد الميدان، ومن خلفه صحبه البررة الكرام.

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٣٢٦

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، وهذا ما يؤيد به ربنا جنده، وحين أخلصوا دينهم لله، وحري حسن علاقة معه تعالى، ولأنه لا غنى لنا عنه سبحانه طرفة عين.

إذا ألقى الله الرعب في قلوب الذين كفروا، فلا عددهم كافيهم أمرا، ولا عتادهم صاد عنهم دحرا، ولأن خط دفاعهم الأول قد صار منهارا!

حين يلقي ربنا تعالى الرعب في قلوب أعدائه، فهذه رسالة طمأنة لجنده المؤمنين، وأنهم هم الغالبون، ولا يخيفهم عدوهم شبرا، ولايزحزحهم شيئا!

إنه لإعجاز! وحين يلقي ربنا الرعب في قلوب الذين كفروا؛ ولأن القلب هو القائد، والأعضاء جنده، وإذا انهار القائد، فلا تسل عن تساقط جنده أجمعين.

كان إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا عملا تمهيديا للضرب فوق الأعناق، بحيث يكون ضرب أعناق خارت قواها من قبل! وبحيث كان الإثخان أنكى!

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾! الرعب كله! وهذا ما يوحي به النص الكريم! ويلقيه ربنا سبحانه لا غيره! فهل لهم من باقية قوة؛ لتضرب فوق الأعناق؟!ولكنه التخلص من كل نفس ورمق!

وإذ كان الإلقاء من أعلى، وإذ كان متضمنا قوة قذف معه، برهان نكاية ودليل إثخان، عدلا منه تعالى: و﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 13].

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي على الرؤوس، وهذا اختيار لإفقادهم توازنهم، إن كانت لهم منه بقية! وبعد إلقاء الرعب كله فيهم، وقلوبهم سواء.

جمع القرآن بين ثلاث مدمرات للعدو:

1- ألقى الرعب كله في قلوبهم.

2- وضربا فوق رؤوسهم؛ لإفقادهم توازنهم.

3- وبنانهم ألا يقدروا إمساك سلاحهم!

جمع القرآن أركان شل حركة العدو تماما، بحيث لايملك زمام المبادرة في مراحل القتال كلها، وليس يمكنه معها إعادة ترتيب أوراقه، أو من بعدها!

موجب القتال وسبب الهزال! ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ولأنه ليس بين المؤمنين وغيرهم ثأر، إلا أنهم مطالبون بالدخول في هذا الدين الإسلام، ثم هم مطالبون بالكف عن قتال المسلمين، والتحريض عليهم، أو التأليب عليهم أيضا.

إن تعليل قتال الكافرين بأنهم خالفوا، برهان إعلان حيثيات حرب، أقاموا سوقها، وكانت عليهم وبالا فهم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2].

بطلان حق الفيتو! إن إعلان القرآن موجب الإثخان في الكافرين، برهان وجوب إعلان أسباب المواجهة، ومع تصرف لاعتبارات لحق الفيتو، وحين كان سيفا مصلتا، لإجهاض حقوقنا!

إن علاجا لحق الفيتو، ولما كان لايستجيز حقا لأهله، ذريعة حفظ السلام، وما هو بحفظه، كان حقلا واسعا لإعمال طاقات العقلاء فيه حيلة وفطنة.

أصاب القوم يوم بدر طش من المطر، فانطلقوا يستظلون الشجر والجحف، ونبينا صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، ويحرض على القتال. وهذا شأن القائد وهمه.

إن قيام نبينا صلى الله عليه وسلم يصلي وتحت طش المطر، عنوانه أن استلهام نبي لعون ربه، وحين المطر، ومن أرض المعركة، برهان عبودية، وسبيل قدوة، وإذ كان هذا في حق نبي قائما، فكان في حق غيره من باب أولى.

حين صلى نبينا صلى الله عليه وسلم، وأكثر في سجوده قول: يا حي يا قيوم. برهان خصوص هذا الذكر، وعلى هيئته تلك، وحثا للأمة اقتداء به، وفي عظائم أمورها، لاسيما معاركها.

فالهجوم خير وسيلة للدفاع: خرج نبينا صلى الله عليه وسلم يبادر قريشا إلى الماء يوم بدر، حتى جاء أدنى ماء منه، فنزل به. ومنه فإنه إذا قضي أمر القتال، فالهجوم أقوى وسيلة للدفاع، والمبادرة به أقوم، وحين بادر نبينا صلى الله عليه وسلم ماء بدر، وأدنى ماء منه، في تحديد لمركز الانطلاق، وحين ترد إشارته.

قال ابن إسحاق: فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا: أن الحباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس،

حتى نأتى أدنى ماء من القوم، فنزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أشرت بالرأي.

فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فعورت، وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه، فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.[1]

قال الحباب بن منذر بن الجموح: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فكان رد نبينا صلى الله عليه وسلم: بل هو الرأي والحرب والمكيدة!

وحينها أشار الحباب بن منذر على نبينا صلى الله عليه وسلم منزلا غير خياره، برهان أن المشورة خير، ولأن القائد يعمل حينئذ، وكل عقول من معه لتعمل معه أيضا، لا عقله وحده، وصولا لخير أمته.

المبحث السادس والعشرون: قطع خطوط الإمداد عن العدو

وهذا فن عسكري عبقري! فقد أشار الحباب منزلا أدني من ماء بدر؛ ليبنوا عليه حوضا يشربون، ولا يشرب عدوهم. وهذا إبداع خيارات قطع خطوط الإمداد والتموين للقوات المعادية.

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٤٥٢

إن إشارة الحباب بن منذر بقطع خطوط الإمداد والتموين عن قريش كان بمثابة قصم لظهورهم، وخاصة أنه الماء! ولو كان غيره فلربما كان الأمر أهو قليلا!

لقد كان سبقا للحباب، يسجله له التاريخ، وحين أشار بقطع الماء عن قريش، يوم بدر، ولأن الماء شريان الحياة، وبه قوام كل شيء حي، ودونه الطعام!

فقد دلت الوقائع والدراسات أنه لاتستطاع الحياة دون ماء أكثر من ثلاث إلى ثمانية أيام، لندرك قيمة مشورة الحباب، بقطعه عن قريش، يوم بدر، ولأنهم بهكذا ينهزمون، أو يستسلمون.

السماء تؤيد وجهة نظر الخباب! وحين أشار الحباب بموقع بدر، نزل جبريل عليه السلام مخبرا نبينا صلى الله عليه وسلم بصواب رأيه، خشية ألا ينفذه، وبعثا للاطمئنان فيه، وهذا مدد السماء، كل مراحل قتال نبينا صلى الله عليه وسلم، يوم بدر وغيره.

كان تأييد السماء رأي الحباب، يوم بدر، برهان أن السماء كانت هي مركز القيادة والسيطرة على الحقيقة، و ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179]. ومن حيث كانوا كذلك مؤمنين.

عمل هيئة الإمداد والتموين في القوات المسلحة: نزل الأصحاب على القليب الذي يلي المشركين، نصف الليل، واستقوا منه، وملؤا الحياض، وليس للمشركين ماء. وهذا تأمين لجبهة الإمداد والتموين العسكري بامتياز، وهو قطع

لخطوط الإمداد والتموين العسكري للعدو وبامتياز أيضا، فجمع بين خيرين اثنين معا.

ومنه فإن عمل الليل يكون أدعى أمنا، وأوفر نشاطا، وهذا حسن تخطيط، وإدارة مراحل القتال، وعمليات المواجهة.

وكما أن فيه إعمالا عمليا لخطط قطع خطوط الإمداد والتموين عن العدو.

وفيه التقدم إلى أدنى نقطة تمركز ممكنة!

المبحث السابع والعشرون: مركز القيادة والسيطرة

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث: أن سعد بن معاذ قال: يا نبي الله [ألا] نبني لك عريشا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا، ودعا له بخير. [1].

حين قال سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه لنبينا صلى الله عليه وسلم: ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك. وهذا مركز القيادة الميداني، ليسهل مراقبة العمل العسكري وتوجيهه.

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢ / ٤٥٢

قدم سعد حيثيات اقتراحه ببناء عريش، يوم بدر، إن نصرا فثم ما أرادوا، وإن كانت الأخرى أمكن تأمين القائد، محافظة على معنويات الجند، وتبديل خطط سير المعارك، ومن حيث لزم الأمر ذلك.

كان اقتراح سعد ببناء العريش، لإمكان حماية القائد، وتسهيل عملية تخفيه عن العدو؛ ولأنه هدف لاهتزاز معنويات الجند، فكان سعد عسكريا ماهرا بامتياز.

أثنى سعد على من تخلف عن بدر، لأنهم لايعلمون، وإلا كانوا أسرع تلبية، وهذا ثناء الأصحاب بعضهم بعضا، تثبيتا للصف وقائده، وهذا عمل إدارة الشؤون المعنوية للقوات المسلحة.

كان التماس سعد أعذارا لمن تخلف يوم بدر برهان سلامة صدر الأصحاب، أنبأت عن محبة بين هذا الجيل، حسن اقتداؤها، وتجديدها كل حين، ولأن الشيطان أحرص تحريشا بين المصلين، وحين يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب. وكما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: إنَّ الشَّيْطانَ قدْ أيِسَ أنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جَزِيرَةِ العَرَبِ، ولَكِنْ في التَّحْرِيشِ بيْنَهُمْ. [1] .

كان التماس سعد أعذارا لمن تخلف يوم بدر بأنهم لايعلمون، برهان إخفاء الخطط العسكرية وسريتها، وأنها ليست مشاعا لكل أحد؛ ولإحكام سرية العمل العسكري، إنجاحا له، وإعمالا لمراحله، وكما خطط لها من قبل.

---

(1) صحيح مسلم: 2812

إنه ما أحوج الجيل أن يتحلى بأخلاق سعدا! وحين أظهر حبه لإخوانه، وملتمسا عذرا لمن تخلف، ولإشاعة هذا الحب في الله تعالى، منهجا وسبيلا، لاحنق ينفثه إبليس.

وكان التماس سعد عذرا، لمن تخلف، يوم بدر، خلقا حميدا حسنا، وبرهان إرغام للشيطان، وحين يئس أن يعبده المصلون، ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم، وكما أنف.

أثنى نبينا صلى الله عليه وسلم خيرا على سعد، لاقتراحه بناء العريش، تشجيعا للرعية على إبراز مواهبهم، إفادة للأمة كلها، وأنه لا يُستَقلُ رأيٌ، ولا يُنفَرَدُ بقرار.

المبحث الثامن والعشرون

بيان استغاثة نبينا صلى الله عليه وسلم يوم بدر

ويعلمنا نبينا صلى الله عليه وسلم، وإذ حمي الوطيس، وتقابلت الوجوه، أن لَجْأً إليه تعالى واجب، تفرضه العبودية، وكما أنه وجه آخر تمليه ضرورات المعركة، من صدق التوجه والإخلاص واللهث بالدعاء، وحين قال صلى الله عليه وسلم: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم أحنهم الغداة.[1] وهذا دعاء يحمل معنى الاستغاثة ابتداءً.

---

(1) الثقات، ابن حبان: ج ١ / ١٦٣

كان دعاء نبينا صلى الله عليه وسلم، يوم بدر، متضمنا معنى الاستغاثة، ولأنه تعالى قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9]. ولأنهما يشتركان في دفع ضر ومكروه.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾

بين يدي الدعاء والاستغاثة: إنه يشبه الدعاء الاستغاثة، من وجه اتحادهما في دفع المكروه، ويخالفها من وجه تضمنه جلب مرغوب، أو دفع مرهوب، اختصت به الاستغاثة وحدها دونه.

كان دعاؤه صلى الله عليه وسلم يوم بدر، متضمنا معنى الاستغاثة، ولأن كل دعاء استغاثة، لاشتراكهما في دفع المكروه، وليس كل استغاثة دعاء، لاختصاصها دفع المكروه.

وإنه ليعم الدعاء حالتي الرخاء والشدة، وتختص الاستغاثة بحالة الشدة، طلب الغوث من الله تعالى، ودفعا لمكروه محتمل أو محيق.

وحيث تراوحت حاجاتنا بين دعاء ربنا وحده، واستغاثتنا به سبحانه أيضا، برهان أننا أمة توحد ربها، وحين اختصته وحده بدعائها.

فاختص الدعاء بالله تعالى وحده، فلا يدعى غيره سبحانه، وأما الاستغاثة فتجوز بالله تعالى، وتجوز بغيره شرط كونه حاضرا حيا قادرا.

وقوله صلى الله عليه وسلم: يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث: فقدم نبينا صلى الله عليه وسلم بين يدي الاستغاثة به تعالى، اسمي الله تعالى الحسنيين

(الحي، القيوم)، وكذا صفة الرحمة، عنوان ذلة وخضوع واستكانة، لهذا لرب الكريم سبحانه، استمطارا لرحماته، واستحضارا لنصر مؤزر كريم.

ومنه فإنه يسن تقديم الثناء على الله تعالى، وبين يدي دعائه، واستغاثته، وبأسمائه الحسنى، وبصفاته العلا، برهان فقر العبد إليه تعالى، وهذا قمن بإجابته، وموجب تحقيق رجائه واستغاثته.

وعن أنس بن مالك قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد حتى إذا طلعت الشمس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته فقال: "انطلق بنا حتى ندخل على فاطمة بنت محمد". فدخلنا عليها وإذا هي نائمة مضطجعة فقال: "يا فاطمة ما ينيمك هذه الساعة؟ ". قالت: ما زلت منذ البارحة محمومة، قال: "فأين الدعاء الذي علمتك؟ ". قالت: نسيته، قال: "قولي: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من الناس". [1] .

إنه قد استغاث نبينا صلى الله عليه وسلم ربه تعالى، أن يصلح له شأنه كله، برهان حاجة العبد صلاحا، ولأنه يقوم اعوجاج نفسه الأمارة؛ ليسير مع قافلة السالكين الأوابين.

واستغاث نبينا صلى الله عليه وسلم ربه تعالى ألا يكله إلى نفسه طرفة عين؛ ولأنه داء قل من خلا عنه، إلا من أحبه مولاه واصطفاه، وحين أخذ بأسباب التوكل والنجاة.

---

(1) السلسلة الصحيحة، الألباني: 1/ 397

وقد جاء الاستسقاء بلفظ الاستغاثة؛ ولأنه حال جدب وقحط، معهما الفناء، وبهما الزوال، لولا إغاثته سبحانه بعبيده وإمائه أطفالا رضعا وشيوخا ركعا وبهائم رتعا.

وحديث: إنه لا يُستغاثُ بي، وإنما يُستغاثُ باللَّهِ. هذا حديث ضعيف، ويحمل على مالا يقدر عليه إلا الله تعالى؛ لأنه تجوز الاستغاثة بحي قادر حاضر.

إننا نسمع ونرى قوما يجيزون الاستغاثة بالمخلوق، مطلقة من قيد قدرته وحضوره وحياته، وهذا خروج عن سنن نبينا صلى الله عليه وسلم، وافتئات على هدي رسولنا صلى الله عليه وسلم.

إن حشر العقل في دائرة الحلال والحرام ظلم له؛ ولأنه ليس محيطا، وفيه اتهام للشرع، بإمكان الاستدراك عليه، وهذا حد لا يجوز تجاوزه طاعة لله تعالى.

وقد جرى هدي النبيين عليهم الصلاة والسلام، على أنه لا يستغاث إلا بربهم، فيما لا يقدر عليه سواه، وخروج عن ذلك معناه أنهم قصروا بيان الحق لنا، وفاعل ذلك على خطر عظيم، ولأنه مفتئت على مولاه تعالى الحق المبين سبحانه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن أنواعه - الشرك الأكبر - طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم. [1] .

وإنه ليس يفوتنا ذكر حال أبي جهل، وكيف أنه كان متناقضا مع نفسه، وحين دعا الله تعالى بقوله: اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه، فأحنه

(1) مدارج السالكين، ابن القيم: 353/1

الغداة. وهو إذ يعلم في قرارة نفسه أن نبينا صلى الله عليه وسلم على حق، وكما قال الله تعالى في أمثاله ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14].

إعجاز مضاء! وقد كان خفاف بن إيماء بن رحضة الغفاري أو أبوه أيما بن رحضة بعث إلى قريش حين مروا به ابنا له بجزائر أهداها لهم وقال لهم إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم فقد قضيت الذي عليك فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا ضعف عنهم ولئن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فما لأحد بالله من طاقة فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا الحوض حوض رسول الله.

فقال رسول الله دعوهم. فما شرب منهم رجل إلا قتل يومئذ، إلا ما كان من حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، نجا على فرس له، يقال له الوجيه، وأسلم بعد ذلك، فحسن إسلامه، فكان إذا اجتهد في يمينه قال: والذي نجاني من يوم بدر. [1] .

وانظر كيف كان الإعجاز المضاء! وحين يقتل من المشركين كل من شرب من حوض ماء النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدرا!

وانظر كيف كان عرض الإمداد من حلفاء قريش! وكيف لم يكن من ذلكم من شيء لهذا النبي والذين معه! ولهذا جاء المدد الرباني من السماء وبملائكته تعالى مردفين!

(1) الأغانى، أبو الفرج الأصفهاني: 4 / 385

عمل المخابرات العسكرية للعدو: قال محمد بن إسحاق وحدثني أبي إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار قالوا: لما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا احزر لنا أصحاب محمد فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصونه ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد. [1] .

قريش تسيء تقدير الموقف: كان على قريش أن تحسن تقدير موقف معركتها، يوم بدر، ومن حيث علمت أنها إنما تحارب الله تعالى، وعلى الأقل تأخذ تهديده صلى الله عليه وسلم على محمل الجد، ومن حيث رأت من آيات ودلالات، يجزم العقل أن المعركة إنما هي مع الله تعالى ولاريب!

من حيث رأت قريش، أن محاربتها لله مجرد إشاعة، وكان عليها أن تدرسها، ولو على أنها إشاعة! وفيه تقرير تحليل الإشاعة، أيا ما كانت، ولعل جانب صدق فيها.

حين قتل من شرب من قريش من حوض نبينا صلى الله عليه وسلم، يوم بدر، وهذا إعجاز آخر، ينضاف إلى حتمية اتخاذ قرار الانسحاب، والاعتراف بالهزيمة، قبل النكال! ولو كانوا يفقهون، ولكنهم مساقون إلى قدرهم المقدور، ولكنهم مقادون إلى مصيرهم المحتوم.

المطابقة العددية والنوعية بين جيش بدر وجيش طالوت! ولما كان عداد جيش المسلمين يوم بدر هو من عدد جنود طالوت! وإذ كان هذا مسلكا إعجازيا بامتياز أيضا! وإذ كان يكفي ذلك قريشا، وأن تعود أدراجها، وتسلم لهذا النبي

---

(1) المرجع السابق: 188/4

صلى الله عليه وسلم، والذين آمنوا معه، بحقهم المشروع، والذي كانوا قد اغتصبوه، وبه تُكفَى شر هزيمة، منكرة، كان عداد جيش المسلمين فيها هو نفس عداد جيش طالوت! ويوم أن بارزوا جالوت فهزموهم بإذن الله! وكان من واجبٍ استحضار هذه الجريمة نصب عيني قريش!

وفيه حسن العبرة من دراسة التاريخ، وبكأنه كتاب مفتوح، فيه العبر والعظات والدروس.

أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه: حدَّثَني أصْحابُ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا: أنَّهُمْ كانُوا عِدَّةَ أصْحابِ طالُوتَ الَّذِينَ جازُوا معهُ النَّهَرَ: بِضْعَةَ عَشَرَ وثَلاثَ مِئَةٍ. قالَ البَراءُ: لا واللَّهِ، ما جاوَزَ معهُ النَّهَرَ إلَّا مُؤْمِنٌ. [1] . **وهذا على شهادة القرآن الحكيم وحين** قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [البقرة: 249].

وفيه فقه الصحابة رضي الله تعالى عنهم بالقرآن، وكيف ربط البراء بين صفة وعدة أهل بدر، وبين صفة وعدة أصحاب طالوت؟!

وفيه استعمال القياس. ومن حيث قاس البراء عددهم وصفتهم على أصحاب طالوت.

وفيه الشهادة لأهل بدر بالإيمان، وقياسا على حكم القرآن، أن أصحاب طالوت كانوا مؤمنين.

---

(1) صحيح البخاري: 3957

وفيه إعجاز القرآن لوحدة العدد، واتفاق الصفة! بين أهل بدر وأصحاب طالوت، وهذا أمر نقف أمامه مشدوهين، وبقدر أننا لا نبحث عن حكمة، إلا أننا نوقن أنها حكمة، وإن غاب عنا تأويلها، وذلك لأن الله تعالى له الحكمة كلها، وله الحجة البالغة جميعها.

كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاثمائة وبضع عشرة على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمن وهذ اهتمام الأصحاب بعظائم الأمور.

وفيه أهمية دراسة التاريخ، ولأن فيه عظة وعبرة ودرسا. ولأنه تعالى قال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: 42].

المبحث التاسع والعشرون: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: 44].

وهذا إعجاز القرآن المجيد؛ وحين قلل كلا من الفريقين في عين الآخر! وليجترئ كل على الآخر، فيسهل انهزام الكافرين، بعد نشاط المؤمنين.

وإنما كان هذا المعنى الذي أشار إليه القرآن العظيم تأسيسا على أن هذا كان أول المعركة، ثم تاليه يكون قوله تعالى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 13].

قلل الله تعالى المجاهدين، يوم بدر، في أعين الكافرين؛ لتأخذهم جرأة المواجهة، ثم رأوهم ضعفهم، وحين حمي الوطيس، وما يستطيعون عندها فرارا!

قلل الله تعالى الكافرين، وكانوا كثرة في أعين المؤمنين، وكانوا قلة يوم بدر، وكيما لايخشوا مواجهتهم، ولما يأت مدده تعالى بالملائكة مردفين!

جعل الله تعالى يوم بدر آية، وحين بدأ القتال، وكل قليل عند صاحبه لتسهيل الاجتراء، ثم يرى الكافرون المؤمنين ضعفيهم لتسهيل خوفهم وذعرهم من المؤمنين!

وإذ كان من آياته تعالى يوم بدر:

1- إلقاؤه تعالى الرعب - كله - في قلوب الكافرين جميعهم، وبحيث لم يتبق كافر منهم قد بريء من ذلكم رعب!

2- قلل الله تعالى المؤمنين والكافرين كلا في عين الآخر!

3- أظهر الله تعالى المؤمنين ضعفي الكافرين، وفي أعين الكافرين، إمعانا في إرهابهم وتخويفهم!

من طُرَفِ يوم بدر! وإذ كان من طُرَفِ يوم بدر وإعجازه معا، أن قلل الله الكافرين في أعين المؤمنين، حتى قال الرجل لصاحبه: أتراهم سبعين؟ فقال: أراهم مائة! ومن حيث كانوا ألفا أو حواليها!

الرسول يصف ويعبئ الجند يوم بدر: صف رسول الله ﷺ أصحابه وعبأهم أحسن تعبئة. وهذا عمل القائد الفذ الماهر الخبير العبقري، وكيما يقوموا

إلى جهادهم، وما بقية فيهم إلا وتنبض بذلا، وأرواحهم رخيصة لله تعالى ربهم الحق!

وإنما صف رسول الله ﷺ أهل بدر ليلا. برهان فضل عمل الليل، أعظم سترا، وأبرد هواء، وأنسم عليلا؛ كيما لا يجهد المقاتلون، فيهجمون عليهم دفعة واحدة.

وأن يصف رسول الله ﷺ أصحابه، وأن يعبأهم أحسن تعبئة. فهذا عمل القائد الفذ الماهر الخبير العبقري، وكيما يقوموا إلى جهادهم، وما بقية فيهم إلا وتنبض بذلا، وأرواحهم رخيصة لله تعالى ربهم الحق!

يا رسول الله حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك! عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية حليف بني عدي بن النجار وهو مستنتل من الصف. فطعن في بطنه بالقدح وقال: " استو يا سواد ". فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني. فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه فقال: استقد. قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير وقاله.[1]. قال الألباني رحمه الله تعالى: وهذا إسناد حسن[2].

---

(1) أسد الغابة، ابن الأثير: 2 /332

(2) السلسلة الصحيحة، الألباني: 6 / 808

وإنما طعن نبينا ﷺ سوادا؛ لأنه خرج عن الصف، يوم بدر، فاستقاد سواد، فكشف نبينا ﷺ له بطنه، فقبلها، ولعل آخر عهده بالدنيا، فيكون ذلك، ولما استشرف الشهادة! وهو برهان آخر، أن أولاء قوم كانوا يتشوفون شهادتهم، وتشرئب لها أعناقهم فضلا وكرما.

أشجع الناس أبو بكر رضي! سأل على رضي الله تعالى عنه عمن هو أشجع الناس فأشاروا إليه فأخبر أنه أبو بكر رضي الله تعالى عنه، ولما كان يهوي بسيفه على من أراد نبينا ﷺ بسوء في عريشه يوم بدر.

إن شهادة عليٍّ أن أبا بكر هو أشجع الناس، ورغم كهولته، برهان أن أمتنا شابة، لا تشيب، ولأنه كان فيها أمثال هذين الشجاعين أبي بكر وأبي الحسن رضي الله تعالى عنهما.

قال: ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذته قريش، فهذا يحاده، وهذا يتلتله، ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلها واحدا، فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب ويجاهد هذا ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم! أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله [1]. وهذا برهان عمل القائد قدوة إقدام وصبر.

إن صفاء التوحيد، ونقاء العقيدة، هما اللذان لم تنسهما قريش، يوم بدر وغيرها، وحين وجهت سؤالها معترضة متهكمة، وكأن حقا تقول به: أنت جعلت الآلهة إلها واحدا؟ برهان حضور مسائل العقيدة، كل حين، وعلى الأقل كما يستحضرونها.

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ /٤١١

إن استماتة قريش في النيل من نبينا ﷺ، يوم بدر، برهان أن القائد مستهدف أولا، ولأنه عنوان أمته، ولأنه هيبة جماعته، فنيل منه نيل من أجمعهم.

حين حادت قريش وتلتلت -عنفت- نبينا ﷺ، فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب ويجاهد هذا ويتلتل هذا، وهذا برهان إقدامه - رضي الله تعالى عنه -، وهذا دليل استبساله.

ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله! هذا قول أبي بكر، حين حادت قريش نبينا ﷺ، وأرادته بسوء، يوم بدر، وهو برهان شفقة أبي بكر، لعنف حاق بنبينا ﷺ.

أنت جعلت الآلهة إلها واحدا؟! إن القوم يعلنونها، كل حين، أن المسألة عقيدة ودين، وهم ليسوا بأولى منا إعلانها صريحة أنها دين!

إن الدين هو الذي يحرك الجماهير، ويلهب المشاعر، ويستجيش الوجدان، ويدفع إلى إرخاص المهج وإزكاء روحها، وداعية نفرة حين لزومها.

إن الكفار يبدأون من حيث العقيدة، وأولى بنا أن نثمنها في القلوب والأحاسيس والمشاعر، فينبض بها الوجدان من بعد المشاعر.

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ [1]: هذا حث للأمة أن تستصحب تاريخها الناصع قدوات، فتكون زادها على طريق، ليس مفروشا بالورود.

---

(1) كنز العمال، المتقي الهندي: ج ١٢ / ٥٢٥

إن استلهام الرشد، يكون من قدوات صنعت تاريخا مجيدا، سطر بماء، لا كالذهب، بل أثبت مكانة، وأقوم سبيلا، مدرسة للأجيال، وحاضنة للباذلين.

وقال عليٌّ رضي الله تعالى عنه أيضا مجيبا عن سؤاله الذي طرحه آنفا: فو الله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه - رخصةً - وهذا رجل أعلن إيمانه - عزيمةً -!

إنه ليأتين زمان على الناس يكون الأخذ بالعزيمة في أمور دينهم أرشد كأبي بكر، ويكون الوقوف على الترخص أهوى، وحين يرضون بالزرع، ويتبعون الكلأ والعشب!

ما أحسن فقه عليٍّ - رضي الله تعالى عنه - وحين استحضر برهان أفضلية أبي بكر لعزيمته، على مؤمن آل فرعون لرخصته، برهان أن درجة العزيمة أعلى، وأن مكانة الرخصة أدنى!

إن أعمال أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه كانت كلها عزائم! يوم الغار مثال، ويوم بدر مثال آخر، ويوم المرتدين مثال، عنوان أن هذا الدين يلزمه رجال أولو عزائم، ينفحون عنه ويذودون!

المبحث الثلاثون: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك»

لَمَّا كانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ إلى المُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ القِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ برَبِّهِ: اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ ما وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إنْ تُهْلِكْ هذِه العِصَابَةَ مِن أَهْلِ الإسْلَامِ لا تُعْبَدْ في الأرْضِ، فَما زَالَ يَهْتِفُ برَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، حتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عن مَنْكِبَيْهِ، فأتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فأخَذَ رِدَاءَهُ، فألْقَاهُ علَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِن وَرَائِهِ، وَقالَ: يا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنَّه سَيُنْجِزُ لكَ ما وَعَدَكَ، فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بأَلْفٍ مِنَ المَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} فأمَدَّهُ اللَّهُ بالمَلَائِكَةِ. قالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَحدَّثَني ابنُ عَبَّاسٍ، قالَ: بيْنَما رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَومَئذٍ يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ المُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الفَارِسِ يقولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إلى المُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إلَيْهِ فَإِذَا هو قدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذلكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بذلكَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَقالَ: صَدَقْتَ، ذلكَ مِن مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَقَتَلُوا يَومَئذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ. قالَ أَبُو زُمَيْلٍ، قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى، قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ لأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: ما تَرَوْنَ في هَؤُلَاءِ الأُسَارَى؟ فَقالَ أَبُو بَكْرٍ: يا نَبِيَّ اللهِ، هُمْ بَنُو العَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ منهمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً علَى الكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلَامِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: ما تَرَى يا ابْنَ الخَطَّابِ؟ قُلتُ: لا وَاللَّهِ يا رَسولَ اللهِ، ما أَرَى الذي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِن عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِن فُلَانٍ نَسِيبًا

لِعُمَرَ، فأضْرِبَ عُنُقَهُ، فإنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ ما قالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ ما قُلتُ، فَلَمَّا كانَ مِنَ الغَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي مِن أَيِّ شيءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فإنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وإنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِن أَخْذِهِمِ الفِدَاءَ، لقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِن هذِه الشَّجَرَةِ، شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِن نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكونَ له أَسْرَى حتَّى يُثْخِنَ في الأرْضِ} إلى قَوْلِهِ {فَكُلُوا ممَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} فأحَلَّ اللَّهُ الغَنِيمَةَ لهمْ [1].

«اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك»

هذا برهان صدق الالتجاء، إلى باسط الأرض ورافع السماء، وحين ضرورة ملجئة، أو حاجة ملحة.

وهذا برهان تضرع نبينا، وذاك دليل عتو قارون، وحين ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾! [القصص: 78]. وهذا بطر قوم عاد قوم هود ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾! [فصلت: 15].

قال أبو بكر: يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. هذه استغاثة نبينا ﷺ، لموقف تستدعيه، وهذه شفقة صاحبه، ولأنها رحمة تحتويه!

(1) صحيح مسلم: 1763

وإذا كان هذا هو تضرع نبينا ﷺ، وقد وعده ربه النصر سلفا، فماذا كان تضرعه وحين لم يعده به مولاه؟!

كان يمكن لنبينا ﷺ دعاء ربه، وعلى قدرٍ، ولأنه مرتكن إلى وعده تعالى بنصر سبق، إلا أن مقام عبودية العبد، وأمام ربوبية الرب، لتوجب لهثا وذلة وخضوعا.

إن استشراف مقامات الربوبية في قلب العبد، هي آلته لتحصيل مراده تعالى له، من توفيق ونصر وإلهام، لا غنى عنه لسبق وعد رباني به، ولعمل نبينا ﷺ.

كانت استغاثة نبينا ﷺ، يوم بدر، تغليبا لجانب التضرع، وهو أكمل، وكانت شفقة أبي بكر تغليبا لجانب الرجاء، وهو أدنى، ولأن ابتلاء يمكن حدوثه، وعلى قول فريق بذلك، وحين كان مصلحة للعبد أوفي من نصره، وكمثل يوم حنين، إذ أعجبتهم كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئا!

ولا أقول كمن ذهب أن مقام نبينا ﷺ، يوم بدر، كان تغليبا لجانب الخوف، خشية طروء طارئ، ولأنه يملك يقينا بوعد ربه، ينافيه خوفه، ولو من طرف خفي!

إن ذهاب بعضهم إلى تغليب خوف نبينا ﷺ، يوم بدر، قد أطمع قوما آخرين، أنه مخالف لوجه يقينه يوم الغار! ولهذا فنحن نوقن بيقينه في كليهما ضبطا لحاله ﷺ، وجريا على سننه وعهده مع ربه تعالى، موقنا به أبدا.

ما ظَنُّكَ يا أبَا بَكْرٍ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟! وهذا يقين يوم الهجرة، و(اللهم نصرك الذي وعدتني)، وهذا يقين يوم بدر، فلا تعارض يحمل قوم هنا حملا غير الذي هناك!

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]. وهذه معية يوم الغار! و ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 19]. وهذه معية يوم بدر، فاستوى الطرفان، فارتفع تأويل هنا يخالف تفسيرا هناك!

كان سبيل نبينا ﷺ كل أمره، أنه تعالى لا يضيعه، فعم ذلك يوم الغار، وانسحب ذاك على يوم بدر، فارتفع قول بعضهم هناك ما يخالف قولا لهم هنالك!

إن التألّي عليه تعالى بلية! ويذوق وبلها فاعلها أول مرة؛ ولقول الأسود بن عبد الأسد المخزومي يوم بدر: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه. فكان أول من قتل فيه!

حين تألَّى الأسود بن عبد الأسد المخزومي على الله تعالى أن ينتصر يوم بدر، وبلا برهان منه، فكان مصيره اندكاك ركنه، وانخذال جنبه، واهتراء عضده!

وكان قد اشتهر الأسود بن عبد الأسد المخزومي بشراسته وسوء خلقه، فلقي حتفه، يوم بدر، وراحت شراسته وسوء خلقه معه، ولم تغنيا عنه من الله شيئا. وحسن الخلق وسام العارفين، وتاج السالكين، ومنقبة وذخر عباد رب العالمين.

وإنها لآية! وحين لم يتمكن الأسود بن عبد الأسد المخزومي أن يشرب من حوض بدر أو يهدمه! لكن حمزة عم نبينا ﷺ قتله فيه! برهان ألا يتألّى أحد على مولاه، ولا يناصبه العدا أبدا.

وكان قتل الأسود المخزومي في حوض بدر، لا أن يهدمه أو يشرب منه، برهان أن الجزاء يكون من جنس العمل، وليحذر عاقل فعله، أو أن يقول قائل قوله.

استشراف نصر المؤمنين في بدر: كان استشراف نصر المؤمنين في بدر، بادية إشراقاته، ومن أول يوم، بيد أن استشرافا آخر، أفيده من قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 13]. تشوفا به، أُفُقًا قادما!

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾، ﴿وَاللَّهُ، يُؤَيِّدُ، بِنَصْرِهِ﴾ هذه كلها هي ارتفاقات نصره تعالى للمؤمنين، يوم بدر، ويوم غير بدر، واستنزالا لفضله ومنه وجوده وكرمه.

إن مشيئته تعالى أبدا مع المؤمنين، حال نصرهم تأييدا، وحال هزيمتهم ابتلاء، وكيما لا تعجبهم كثرتهم، أو تزهو بهم قوتهم، وحينها فلم تغن عنهم شيئا.

الصِدِّيقُ في الميدان: إنه وما زالت صفحات الصديقية، بين نبينا صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر رضي الله تعالى عنه، حافلة بمكنونات التضحية والفداء والبذل والإيثار، وبحيث لم تف قواميسنا سد جانب من فضله.

إنه ليس تاريخا يسطر، بقدر ما هو سنن معطر، وأن يكون في صفحات تاريخ البشر، من كان كأبي بكر، استأهل به الصديق شرف صحبة نبي، وفداء وليّ!

إن قلوبا تدمع فقل، أو إن أعينا تخشع فقل، وحين تحسبها ساكنة، وهي تمر مر السحاب، في صفحات أبي بكر رضي الله تعالى عنه مقلبة، وعن افتدائه لنبينا صلى الله عليه وسلم، مسطرة ومسجلة!

يا رسول الله بعض مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. هذا ليس خطابا بلاغيا يند وصفا فحسب، بقدر ما إنه بيان محبة صحبة، أنبأ عنها فصل الخطاب.

يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. هذا يقين أبي بكر بربه ممزوجا بشفقته وصحبته على نبي أنار الوجود بهداه، والظلام بسناه.

يا رسول الله بعض مناشدتك ربك. أولاء قوم عرفوا عربيتهم، وعايشوا بلاغتهم، وحين زاوجوا بين الربوبية لطفا، والألوهية سلطانا، مناسبة المقام، ومقتضى الحال.

محاولة الثأر من حمزة بن عبد المطلب: حين قتل حمزة بن عبد المطلب الأسود بن عبد الأسد المخزومي. وهمَّ أنصاره لثأره، فانتدب نبينا صلى الله عليه وسلم من يبارزهم، فقام ثلاثة الأنصار فقالوا: أكفاء كرام، ولكن أخرجوا إلينا من بني عمنا!

وهـذا انتكـاس فطـرة، في النسـب، وكـان طبيعيـا، وحـين انتكسـت فطـرة الحنيفية فيهم! وإذ هم يقطعون وشائج قربى، كان حريا وصلها!

إن العـين لتـدمع، وإن القـلب ليحـزن، وحـين يصـل قـوم بنسـبهم إلى هكـذا دركات، وإنما جاء الإسلام ليعليها، فيعلون به ومعها أيضا.

إن أولاء قـوم قطعوا وشائج بينهم وبين السـماء، فلا غـرو أن يمزقـوها بينهم وبين أهل الأرض إربا إربا!

صحيح إن وشـائج الإسـلام تـذيب الفـوارق، وتبـت الجـاهلية بتـا، لكنـه صلى الله عليه وسلم تحسَّب أن يُنال منه، حين كره خروج ثلاثة الأنصار، ملاقاة من تنادوا بثأر الأسود بن الأسد المخزومي.

إن نبينا صلى الله عليه وسلم كان بعيد النظر، وكأبعد ما يكون لنظر من بعد، وحين كره خروج ثلاثة الأنصار؛ وكيما لايقال زج بهم دون المهاجرين، عيبة جاهلية، أراد وأدها مكانها.

المبحث الواحد والثلاثون: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: 19].

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عنه: أنَّه كانَ يُقْسِمُ قَسَمًا إنَّ هذِه الآيَةَ: {هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا في رَبِّهِمْ} نَزَلَتْ في حَمْزَةَ وصاحِبَيْهِ وعُتْبَةَ وصاحِبَيْهِ، يَومَ بَرَزُوا في يَومِ بَدْرٍ. (1) .

وعَنْ عَلِيِّ بنِ أبِي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه، قالَ: أنا أوَّلُ مَن يَجْثُو بيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَومَ القِيامَةِ. قالَ قَيْسٌ: وفيهم نَزَلَتْ: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} [الحج: 19]، قالَ: هُمُ الَّذِينَ بارَزُوا يَومَ بَدْرٍ: عَلِيٌّ، وحَمْزَةُ، وعُبَيْدَةُ، وشَيْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ، وعُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ، والوَلِيدُ بنُ عُتْبَةَ. (2) .

وإذا كان ذلك كذلك، وإذ يحصل مع علي رضي الله تعالى عنه، وهو من المبشرين بالجنة يجثو! فما بال غيره، ومن أمثالنا؟! وكيف يكون حاله يوم لقاء مولاه تعالى البر الرؤوف الرحيم؟!

ويكأنه حسن عبد بربه، ويكأنه ليس يفارقه.

وقوله: يجثو: هذا تصويرٌ مشفقٌ، لحال العبد، وحين كانت هيئته تلك يوم الحساب، فهلا حسبنا لذلكم يوم، وتلكم هيئة؟!

ولئن كانت هذه هيئته جثوا، ولأنه قتل دما مشركا حلالا، فما بال غيره وقد سفك دما حراما، فماذا هو جثوه، وكيف هي هيئته؟!

---

(1) صحيح البخاري: 4743

(2) صحيح البخاري: 4744

وهذا وضع خُشْعان في موضع خُضْعان، ولذا اختار له لفظ الرحمن، مناسبة السُؤْلان! وهو ما أنبأ عن بلاغة قوم كانت لهم سجية.

إن المخاصمة في الباطل لا وزن لها؛ ولأنه ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

إنه إذا كان الاختصام فيه تعالى وعن باطل فلا يقبل، ومنه كان التأويل غير السائغ لا يعمل به في ميزان ديننا.

وإن هذا لتأويل غير سائغ ولا سليم، ليس يقوم على هدي كتاب كريم، ولا سنن خاتم النبيين، وإمام المرسلين صلى الله عليه وسلم.

إن تأويلا غير سائغ، بل فاحش، لكلام الله تعالى، يملأ أوعية التواصل الاجتماعي، والتواصل الكتابي، ولعل وقفة يملؤها التقوى، وألا يخوض أحد فيه برأيه.

آن أوان ألا تطوى أعناق نصوص القرآن، زعم أن (شم النسيم) مذكور فيه! وهذا تعد على الذكر الحكيم، حسن رجوع عنه؛ لكيلا يذوق صاحبه وبال أمره.

وإنه لتُساق ترهاتٌ لتأويل كتاب ربنا سبحانه، زَعْمَ أنه أباح الاحتفال بمولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم! وما أباح! وإن هي إلا أساطير في أدمغة أصحابها! حان وقت سكوتهم، أو إسكاتهم، حسبة لله تعالى العلي الأعلى سبحانه.

وإنه لتلقى على مسامعنا، وعلى أبصارنا، ترهات يحسب أصحابها أنها علم، وهي سم ناقع، وليضحكوا على البسطاء، أن هذا هو تفسير قرآن ربكم!

إن قضايا أمتنا أعظم بكثير، وحين تضيع أوقاتها في تبرير شم النسيم، ومولد نبينا صلى الله عليه وسلم، ليدور أصحابها في عقم، ومن ورائه عقم غير صالح، حان وقت اجتذاذه.

***

برز عتبة وشيبة والوليد، وبرز إليهم حمزة وعبيدة وعلى، فقالوا: تكلموا نعرفكم. فقال حمزة: أنا أسد الله وأسد رسول الله أنا حمزة بن عبد المطلب [1].

وهذا تشبيه بليغ! ولأنه اقتصر على ركنيه المشبه(حمزة)، والمشبه به (أسد).

وقد جاء هذا التشبيه البليغ جملة إسمية، فأفاد ثبوتا، كشجرة أصلها ثابت، وفرعها في السماء! وجاء بذكر المسند إليه (أنا) في موطن قتال! فكان مثخنا في عدوه.

وإن تشبيه حمزة لنفسه بأسدا! ليس فخرا، بقدر ما تمليه ضرورات الحروب، فكان استثناء من أصل، وهذا أدب جم وخلق جميل أن قدم حمزة الله تعالى، ثم رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم هو. فهؤلاء قوم عرفوا كيف كانوا يتكلمون.

فإن هذا ترتيب يشي بمقام الرب في قلوب قوم باعوا أنفسهم له، وحين قدموه قولا وعملا. ومن جاء ترتيبه الأخير تواضعا، ليشفع له تشبيهه نفسه بأسد أملته ضرورات القتال.

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ٤١٤

وإذ كان من ألطاف ربنا سبحانه أن ينتصر أسده تعالى حمزة بقتله شيبة وحده، وقتله ربيعة مشاركة مع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، وحين لم يخيب الله رجاءه تشبيهه نفسه أسدَ اللهِ!

المبحث الثاني والثلاثون: علم نبوة ضاف!

«أشهد أنك شهيد»

جيء بعبيدة ابن الحارث إلى نبينا صلى الله عليه وسلم، فأشرفه صلى الله عليه وسلم قدمه، فوضع خده على قدمه الشريفة! وهذا تطبيق عملي لتوقيرهم نبيهم، ولا يحط من قيمتهم شيئا، بل يرفع شأنهم، وحين وقروا نبيهم صلى الله عليه وسلم.

«أشهد أنك شهيد» هذا قول نبينا صلى الله عليه وسلم، وحين مات عبيدة بن الحارث بين يديه صلى الله عليه وسلم، برهان جواز مخاطبة الشهداء، ولأنهم أحياء عند ربهم يرزقون!

وفيه جواز إطلاق الشهادة على من مات بسبب القتال، وإن كان بعده، ولأن عبيدة بن الحارث كان كذلك حين مات من أثر مقاتلة في أرض المعركة.

«أشهد أنك شهيد»، لا ندري كيف كانوا يركبون كلامهم آخذا بالألباب هكذا! ولأنه إيجاز حذف تقديره (أنا محمد رسول الله، أشهد أنك مت شهيدا، في سبيل الله، يا عبيدة)!

وفيه بيان عظم الشهادة في سبيل الله، وأنها درجة تتأبى غيرها مهج بذلت نفوسها لمولاها، ولأن دماءهم تقطر ألوانها، لكنها مسك عبيرها!

وهذه شهادة نبيّ! فلا حاجة إذًا لإشفاعها رجلا آخر، ولأنه صلى الله عليه وسلم أمين الله تعالى في أرضه سبحانه، كما قال: وأَنَا أَمِينُ مَن في السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا ومَسَاءً. [1].

المبحث الثالث والثلاثون: عمل الموالي يوم بدر

كانت للموالي وقفاتهم حميدةً في ساحات الوغى، وحين كان مهجع مولى عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنهما - أول شهيد، يوم بدر، وبرهان أن الناس في الإسلام سواسية.

استشهاد حارثة بن سراقة بن مالك: عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: أنَّ أُمَّ حَارِثَةَ أتَتْ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقدْ هَلَكَ حَارِثَةُ يَومَ بَدْرٍ، أصَابَهُ غَرْبُ سَهْمٍ، فَقالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ، قدْ عَلِمْتَ مَوْقِعَ حَارِثَةَ مِن قَلْبِي، فإنْ كانَ في الجَنَّةِ لَمْ أبْكِ عليه، وإلَّا سَوْفَ تَرَى ما أصْنَعُ؟ فَقالَ لَهَا: هَبِلْتِ، أجَنَّةٌ واحِدَةٌ هي؟ إنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وإنَّه في الفِرْدَوْسِ الأعْلَى. وقالَ: غَدْوَةٌ في سَبيلِ اللَّهِ أوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فِيهَا، ولَقَابُ قَوْسِ أحَدِكُمْ، أوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنَ الجَنَّةِ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فِيهَا، ولو أنَّ امْرَأَةً مِن نِسَاءِ أهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إلى الأرْضِ

(1) صحيح البخاري: 4351

لَأَضَاءَتْ ما بيْنَهُمَا، ولَمَلَأَتْ ما بيْنَهُما رِيحًا، ولَنَصِيفُهَا - يَعْنِي الخِمَارَ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وما فِيهَا.[1].

وجاء في رواية أخرى له أيضا أنه قد: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَومَ بَدْرٍ وهو غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقَالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ، قدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فإنْ يَكُنْ في الجَنَّةِ أصْبِرْ وأَحْتَسِبْ، وإنْ تَكُ الأُخْرَى تَرَى ما أصْنَعُ، فَقَالَ: ويْحَكِ، أوَهَبِلْتِ، أوَجَنَّةٌ واحِدَةٌ هي، إنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وإنَّه في جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ.[2].

وهؤلاء جيل كانت الجنة هدفهم الأسمى، ودونها كل حدث آخر.

وفيه طمأنة نفس المفجوعة بولدها. وتهدئة روعها بفقد فلذة كبدها، لعظم فراقه، وإن كان شهيدا، وهذه مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم. وفيه بيان عظم درجة الفردوس الأعلى من الجنة، وأنها مقام الشهداء، عند ربهم يرزقون فيها بغير حساب.

(ويحك): هذا أسلوب توجع موجبٌ ترحما؛ لأنه صلى الله عليه وسلم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]. وحسن اقتداؤه واستنانه.

(ويحك) وجاز: ويحَ و(ويحًا)، فمجيئه على الخطاب ناسب حال المفجوعة بولدها، فكان أسلوبا بليغا.

---

(1) صحيح البخاري: 6567

(2) صحيح البخاري: 3982

وفيه إثبات أن الجنان كثيرة! هكذا بألف مد بعدها نون ساكنة! مناسبة لحال المفجوعة بولدها! ولأنه أداء موح بانكسار نفس خيم عليه حزنها، وأطبق عليه غمها وحسرتها على ولدها، إحساسا فطريا طبعيا لا ملامة فيه.

وحين سمعت، فكان بردا وسلاما على فؤادها، أنبأنا أنه جف دمعها، وعاد إليها صوابها، وحيث سألت نبينا صلى الله عليه وسلم: في الجنة؟ قال: نعم.

إن جيلا كالصحابة الكرام ليوقف أمامه إكبارًا، ومن بعد إعظام آخر، وحين رضيت أم حارثة بمكانه من الفردوس الأعلى، ولم تطلب بعده غنما ولا نفلا!

إن مثلا هو أم حارثة، كامرأة عز نظيرها، ولما عادت راضية بموطن ولدها في الجنة، برهان أنها الغاية العظمى، ولا يعلوها أي هدف آخر، مغنما أو نفلا.

إن استشهاد حارثة بن سراقة، يعيدنا إلى الوراء قليلا، أن أباه هو سراقة بن مالك، الذي كان قد تتبع نبينا صلى الله عليه وسلم، يوم الهجرة، محاولا نيلا منه، ولما شاء الله تعالى هدايته، وليكون من نسله شهداء.

أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يحملوا- يوم بدر- حتى يأمرهم: وفيه وجوب طاعة القائد الميداني؛ لأنه له طرقا لمعرفة سير المعارك مالم يعرفه جنده.

إن قرار القائد الميداني، وبما له من دربة، أقوم أن يتبع، ولأن مصادره لاتخاذ قراره متعددة، كاستخبارات عملها الاستعلام، داخل العدو وخارجه.

أهميـة الغطـاء في الحـروب: إذَا أَكْثَبُـوكُمْ فَعلَـيْكُم بالنَّبْـلِ صـلى الله عليـه وسـلم: **عن مالك بن ربيعة أبو أسيد الساعدي: قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَ بَدْرٍ، حِينَ صَفَفْنَا لِقُرَيْشٍ وصَفُّوا لَنَا: إذَا أَكْثَبُوكُمْ فَعلَيْكُم بالنَّبْلِ.** [1] .

وفيـه أهميـة الغطـاء في الحـرب البريـة، وغيرهـا مـن أنـواع الحـروب، وعنـد المواجهة، ردا لنبالهم، وقطعا لدابرهم.

وفيـه الانتظـار، مـع احـتراس، حتى يقـرب العـدو، كمينـا منصـوبا بإحكـام، ليكـون الرمـي صـائبا، وحـل الوقـت الـذي بـه يمكـن الإثخـان، وعـن بعـد، وحسـب تقدير القائد الميداني، وبما له من سلطة تقديرية تمليها ضرورات الميدان.

عـن البراء بـن عـازب: اسْتُصْـغِرْتُ أنَـا وابنُ عُمَـرَ يَـومَ بَـدْرٍ، وكانَ المُهَـاجِرُونَ يَومَ بَدْرٍ نَيِّفًا علَى سِتِّينَ، والأنْصَارُ نَيِّفًا وأَرْبَعِينَ ومِئَتَيْنِ. [2] .

وهـذا جيـل كـريم، كان قـد تفـرد حتى في نوعيـة أشـباله، وحـين تسـارعوا إلى ميادين الجهاد والبذل والفناء!

---

(1) صحيح البخاري: 2900

(2) المرجع السابق: 3956

المبحث الرابع والثلاثون: شعار المسلمين جميعا يوم بدر

عن عبدالله بن عباس: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تنفَّلَ سيفَه ذا الفَقارِ يومَ بدرٍ وهو الَّذي رأى فيه الرُّؤيا يومَ أُحُدٍ.[1] .

مازال شك يساورني أنه صلى الله عليه وسلم اتخذ شعارا للمهاجرين، وآخر للأنصار؛ لأن ذلك مناف لوحدة الأمة الجديدة، وكونها ذابت معها الفوارق، اللهم كان لما يمليه تقارب العادات بين أهل كل محلة، ومنعا لتجاذب ربما لا يخلو منه عمل جماعي. فاللهم نعم.

ولربما كان من تأييد لوجهة نظرنا هذه، أن أحاديث مسألة الرايات هذه ليست خالية من مقال. ومما هو آت بيّنٌ.

ومن حيث قد قيل: كان شعار المسلمين جميعا يوم بدر: يا منصور أمت. وهو ما استروح له البال، جمعا للأمة، ودرءًا لمفاسد عصبية، مقتها ديننا، وجاء أول ما جاء ليذرها.

جاءت رواية الإمام البيهقي رحمه الله تعالى، بيان أن شعار يوم بدر كان ثلاثا، كما أخرج عن عروة بن الزبير: جعل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شِعارَ المهاجرين يومَ بدرٍ: (يا بَنِي عبدِ الرحمنِ) وشِعارَ الخَزْرَجِ: يا بَنِي عبدِ اللهِ) وشِعارَ الأَوْسِ: (يا بَنِي عُبيدِ اللهِ)، وسَمَّى خيلَه: (يا خيلَ اللهِ).[2] . وعن سمرةَ بن جندبٍ قالَ كانَ شعارُ المهاجرينَ عبدَ اللَّهِ وشعارُ الأنصارِ عبدُ الرَّحمنِ[3] .

---

(1) العلل الكبير، البخاري: 258

(2) السنن الكبرى للبيهقي: 361/6. حكم المحدث: مرسل.

(3) ضعيف أبي داود، الألباني: 2595

ونصت رواية أخرى، أنه كان شعارا واحدا، غزونا مع أبي بكرٍ زمن رسول الله صلى اللّه عليه وسلم، فكان شعارنا: أمت أمت. [1] . ولئن كان الحديث السابق عاما، ليس خاصا بيوم بدر، إلا أنه ومع عدم وجود ما يخصصه، فيكون عاما على كل المشاهد سننا وهديا.

وهذا موافق لأمة واحدة، بنص كتابها، وكما قال تعالى ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 52].

وعن سلمة بن الأكوع: غزونا مع أبي بكرٍ زمن رسول الله صلى اللّه عليه وسلم - فكان شعارنا: أَمِتْ أَمِتْ. [2] .

جاءت رواية وحدة شعار يوم بدر أصح من رواية الثلاث، وهو ما اطمأنت له النفس، وكيما لا يكون مدخل شر لأمة هي أمة واحدة، وإنما ربها إله واحد.

إن ما يؤكد ما راح إليه الفؤاد، أن شعار الصحابة يوم بدر كان: أحد أحد. وحدةَ شعارٍ لأمة واحدة، ليتنبه إلى مثل ذلكم، فقد يكون صغيرا، وهو عند الله كبير.

(1) الصحيح المسند، الوادعي: 445

(2) الصحيح المسند، الوادعي: 445

المبحث الخامس والثلاثون: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9].

عن عبدالله بن عباس أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: وهو في قُبَّةٍ له يَومَ بَدْرٍ: أنْشُدُكَ عَهْدَكَ ووَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَومِ أبَدًا فأخَذَ أبو بَكْرٍ بيَدِهِ، وقالَ: حَسْبُكَ يا رَسولَ اللَّهِ فقَدْ ألْحَحْتَ علَى رَبِّكَ، وهو في الدِّرْعِ، فَخَرَجَ وهو يقولُ: {سَيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُرَ، بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ والسَّاعَةُ أدْهَى وأَمَرُّ}.[1] .

أنْشُدُكَ عَهْدَكَ ووَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَومِ أبَدًا. هذه استغاثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بربه، يوم بدر، شرعة ومنهاجا.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾: هذا موح أن الجماعة المؤمنة كلها قد رفعت أكفها إلى ربها، مستغيثة لاهثة مستمطرة نصره إياها، وإذ قد كانوا قلة.

ألا ويمكن حمله على أنه وإذا كان الذي استغاث هو النبي صلى الله عليه وسلم على الحقيقة؛ ولأنه بمثابة الوكيل عن هذه الأمة.

وثمة ما ليس يمنع أن يكون كل منهم قد استغاث، وقد علم الله تعالى عنه ذلك، وليس هذا المحمل بعيدا أيضا؛ ولأن الحال كان مستدعيا لذلك.

وإذ إن الاستغاثة من أعمال الألوهية، إلا أنها ولما كانت في وقت الإلجاء فنادوه بربوبيته تعالى، استجلاب عونه ومدده سبحانه.

---

(1) صحيح البخاري: 4877

ولدفع مكروه عدو، فناسب أنها استغاثة، متضمنة معنى الدعاء، ليصير الالتجاء مركبا، مناسبة حالهم الذي يتفاعلون معه وبه.

﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾: جاءت واو الجماعة ضميرا متصلا، منبئا أن القوم كلهم استغاثوا، ولم يتبق منهم أحد، لوضع أحاطهم، فأوجب قيامهم إليه جميعا.

جاءت ﴿إِذْ﴾، بيان وحدة موضوعية لباب الاستغاثة، وأنها موضوعة، كيما يعرف العباد أن لهم ربا يغيثهم، إذا استغاثوه، رحمة منه وفضلا.

جاء الفعل ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ خطابا، برهان علمه تعالى بحالهم، فأراد تثبيتهم به، وأن لهم ربا، يكلؤهم، آناء الليل، وأطراف النهار.

جاء الفعل ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾: عظيم المبنى، موحيا بشدة أحاطت بالناس إحاطةً، درسا لمن أتى بعدهم، أن يستغيثوا فيغاثوا!

والفعل ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾: كناية عن طلب من ضعيف هم العباد، من قوي هو الله تعالى رب العباد، ودلالة دعاء فقير لغني، وبرهان تذلل لذلك الرب الرؤوف الرحيم، رجاء وطمعا.

إن الضمير المتصل واو الجماعة في الفعل ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾: أوحي مظلة الميدان كله، بظلال الالتجاء، وهذا مشهد مؤثر موجب الإجابة، بل الاستجابة!

وهذا مشهد يباهي ربنا سبحانه به ملائكته، وأن عبادا له، علموا أن لهم ربا، يردون حَوْضَ مَنِّهِ فَيَمُنُّ، ويقفون على باب عطائه، فيجزل عطاءهم.

وهم موقنون إجابة ربهم، ولأنه وعد الصدق، صدق وعده ليعز جنده، وليهزم الأحزاب وحده، وهم سببه، وحين قال تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: 60].

وإذ كانت الاستغاثة منه صلى الله عليه وسلم، فلمَ جاء خطابها للجميع؟ برهانَ ما لا يمنع ذلك، وإذ علم الله تعالى ما في قلوبهم، فأثابهم نصرا مبينا.

﴿رَبَّكُمْ﴾ جاءت كاف الخطاب ضميرا متصلا، موحيا باتصال بين العبيد وبين خالقهم سبحانه، برهان حنو لاند له، ودلالة رحمة لا نظير لها.

جاءت ميم الجمع في ﴿رَبَّكُمْ، لَكُمْ، مُمِدُّكُم﴾ دلالة استظلال كريم لعباده، منًّا وكرما، وألا يرجع أحدهم، إلا راضيا مرضيا، برهان ربوبية حانية!

وجاءت ميم الجمع في ﴿رَبَّكُمْ، لَكُمْ، مُمِدُّكُم﴾ هكذا غير مرة في هذا السياق، دلالة جرس أخَّاذ، وبرهان إيقاع مؤثر، أدهش البلغاء بلاغته، وأنبأ الفصحاء بيانه!

كان مقتضى السياق قول(فأغاثكم)لا ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ برهان إلصاق، أنبأت عنه لام الإلصاق، وهذه بلاغة القرآن، وهذا بيان الفرقان!

كان مقتضى السياق قول (فأغاثكم)لا ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ دلالة استفعال بمثله، لايقوم به فعل(أغاثكم)، إعجازا آخر مركبا!

إن المزاوجة بين الضمائر متصلةً، وبارزةً، ومستترةً غائبةً، تثير التفاتا واهتماما، أوجب للنص حركة دائبة، لا سكون معها، وتمنحه تفاعلا معه أيضا.

يتـواتر البيـان بضـمير الإفـراد في هـذا السـياق، برهـان وحدانيتـه تعـالى وقيوميته، لتستقر بالأذهان أبدا.

كانت استجابة ربنا سبحانه، لأهل بدر، وفي شخص نبينا صلى الله عليه وسلم، إمدادهم بألف، لا من جنسهم، بل ملائكة مردفين، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ جاءت الاستجابة فعلا مباشرا بالإمداد لا مجرد قول بها، ومتعقبا دلالة فاء العاقبة، وبرهان أنه تعالى يجيب مضطرا إذا دعاه، كاشفا عنه سوءا، وكما قال تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ [النمل: 62].

إنه لاحاجة أن يؤكد الله تعالى قوله! ولكنه من باب إطلاق زيادة عامل اليقين في قلوب المؤمنين، وليزدادوا يقينا إلى يقينهم.

مقتضى السياق أن يكون(بأني)، هكذا باقتران حرف الجر الباء، لكنها حذفت لئلا يتزاحم حرفان متقاربان(لكم)و(بأني) فيخلان السياق!

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّ(كُمْ) فَاسْتَجَابَ لَ(كُمْ) أَنِّي مُمِدُّ (كُمْ) هذا بيانه، وعمقه، وبلاغه، وإذ منح جرسا، ونثر إيقاعا، وأشاع إيحاء لا كشعر بل قرآن!

إن آيات العظمة لتنساب من بين لمسات بيان قرآننا، أنه تعالى العظيم القاهر الغالب، ودلك عليه ضمير إفراد أو جمع، كل في سياقه أشاع عزا ومجدا. وإذ جاء ههنا ضمير إفراد.

عن علي بن أبي طالب: لَمَّا كانَ يومُ بدرٍ قاتلتُ شيئًا من قتالٍ ثمَّ جئتُ لأنظُرَ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ ما فعلَ فجئتُ فإذا هوَ ساجدٌ يقولُ: يا حيُّ يا قيُّومُ يا حيُّ يا قيُّومُ لا يزيدُ عليْها. فرجعتُ إلى القتالِ ثمَّ جئتُ وَهوَ ساجدٌ يقولُ أيضًا. [1].

وإذ راح الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ورجع ثلاث مرات، ونبينا صلى الله عليه وسلم ساجد يقول: يا حي يا قيوم! برهان عمل السجود سننا، ودلالة خصوص هذا الذكر مواطن الشدة هديا.

وفيه برهان حبهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم، وأنه بأبينا وأمنا وأنفسنا وسائر الدنيا صلى الله عليه وسلم.

ما أجمل قول علي: حتى فتح الله على يديه! إسناد أمرنا إلى ربنا، وبرهان عبودية، وانعتاقا من حول، وأن الأمر كله لله، وأن ليس لنا من الأمر من شيء.

إن إمداده تعالى لأهل بدر بألف، ولأنه كان غاية ما تعرفه العرب آنذاك، برهان كثرة كاثرة، ولما كانوا قليلا فكثرهم، وهذا كرم الكريم إذا أكرم.

يلاحظ في إمدادات السماء كلها، أنها كانت الألف أو مضاعفاتها، برهان أن العرب لو كانت تعرف غيره، لتكرم الله بغيره أيضا.

إذا كان المشركون يوم بدر ألفا وثلاثمائة، فكان المسلمون ألفا وثلاثمائة أيضا! وذلك بإضافة ألف الملائكة إلى جملة الثلاثمائة وأربعة عشر من صحابته صلى الله عليه وسلم، مع فارق جنس العدد، فبه رجحت كفة المسلمين!

---

(1) تاريخ الإسلام، الذهبي: 83/2. حكم المحدث: غريب.

إننا وحين ننظر إلى مدد السماء، ألفا من الملائكة، لنستحضر أن مَثَلَهُم جبريل عليه السلام، له جناحان يسد بهما الأفق بين المشرق والمغرب! في هالة ترهب المشركين.

على أن قراءة وردت، أن المد بالألف من قوله تعالى ﴿بِأَلْفٍ﴾، وهو ما يوحي بأن الملائكة الكرام كانت ألوفا، لا ألفا واحدا!

﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾: هكذا جاءت قراءة(آلف) بمد الألف، فكأنهم عدد آلاف لا ألف واحدة. وهذا يلائم كرما عهدناه، ويناسب قهرا ربنا للمشركين عنه عرفناه.

وإنما جاءت قراءة (بآلف) بمد الألف، لنتخيل ميدان معركة كان جُلُّ جنودها هم جند السماء، وما ظنٌّ بإثخانهم وفعلهم في ميدان، وإذ كان من وصف إخوانهم خزنة النار أنهم غلاظ شداد؟!

﴿مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾: هكذا ينزلون دفعة تلو أخرى، إمعانا في إرهاب العدو، وما كان هذا المعنى ليستقر، لو نزلوا دفعة واحدة، درسا عسكريا باهرا بامتياز.

﴿مُرْدِفِينَ﴾: اسم فاعل، وهذا إعجاز مستقل! لأن الملائكة إمداد، وحسبهم الطاعة، لكن إسناد عمل الإرداف إليهم برهان تكريم لهم.

﴿مُرْدِفِينَ﴾: اسم فاعل، وهذا عمل عسكري مرن باهر، إذ يترك لقائد الميدان سلطة تقديرية، لتنظيم صفوفه، وحسب ما يراه من مقتضيات سير المعركة أمامه!

﴿مُرْدِفِينَ﴾: اسم فاعل، وكيما لا يكون عمل الميدان جامدا، لا حراك له، فلا يمكنه معها الاستجابة لمتطلبات ردود أفعال العدو المتغيرة لحظة بلحظة، فلزم ما يواكب ذلك، من حركة دائبة، في تغيير مماثل، يناسب رد فعل ملائم ولرد مكره أيضا.

نزل جبريل عليه السلام في يوم بدر في خمسمائة ملك، على الميمنة، وفيها أبو بكر، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة، وفيها علي بن أبي طالب في صور الرجال. وهذا هو تشكيلهم.

عن أبي داودَ المازنيِّ وكان شهد بدرًا قال إني لأتبعُ رجلًا من المشركين لأضربَه إذ وقع رأسُه قبلَ أن يصلَ إليه سيفِي فعرفت أنه قد قتله غيرِي. [1].

هذا برهان قتال الملائكة يوم بدر.

قيل إن نزول الملائكة يوم بدر كان لتكثير سواد المؤمنين لا القتال معهم. وهذا قول منتهض؛ لأنه يخالف طبيعة عمل هيئة الإمداد والتموين.

احتج القائلون بمدد الملائكة تكثيرا لا قتالا ولأن ملكا واحدا كجبريل أمكنه إبادة الدنيا كلها لا مشركي يوم بدر وحدهم. ولا دليل على ذلك.

إذا كان الملك جبريل عليه السلام قد أهلك بريشة واحدة من جناحه مدائن قوم لوط، وأباد بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة، فإن ذلك لعظم شأن جنس الملائكة المكرمين.

(1) مجمع الزوائد الهيثمي: 86/6. حكم المحدث: فيه رجل لم يسم.

وقوله تعالى ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12]: هذا دليل كاف لإثبات قتال الملائكة يوم بدر، ولأن التثبيت عام، فيشمل القتال وغيره.

عن عبد الله بن عباس وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما: لَمَّا كانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ إلى المُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِئَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ القِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ برَبِّهِ: اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ ما وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إنْ تُهْلِكْ هذِه العِصَابَةَ مِن أَهْلِ الإسْلَامِ لا تُعْبَدْ في الأرْضِ، فَما زَالَ يَهْتِفُ برَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، حتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عن مَنْكِبَيْهِ، فأتَاهُ أَبو بَكْرٍ فأخَذَ رِدَاءَهُ، فألْقَاهُ علَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِن وَرَائِهِ، وَقالَ: يا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنَّه سَيُنْجِزُ لكَ ما وَعَدَكَ، فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} فأمَدَّهُ اللَّهُ بالمَلَائِكَةِ. قالَ أَبو زُمَيْلٍ: فَحدَّثَني ابنُ عَبَّاسٍ، قالَ: بيْنَما رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَومَئذٍ يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ المُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الفَارِسِ يقولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إلى المُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إلَيْهِ فَإِذَا هو قدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذلكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بذلكَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَقالَ: صَدَقْتَ، ذلكَ مِن مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَقَتَلُوا يَومَئذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ. قالَ أَبو زُمَيْلٍ، قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى، قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ لأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: ما تَرَوْنَ في هَؤُلَاءِ الأُسَارَى؟ فَقالَ أَبو بَكْرٍ: يا نَبِيَّ اللهِ، هُمْ بَنُو العَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ منهم

فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً على الكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلَامِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: ما تَرَى يا ابْنَ الخَطَّابِ؟ قُلتُ: لا وَاللَّهِ يا رَسولَ اللهِ، ما أَرَى الذي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِن عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِن فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ، فأضْرِبَ عُنُقَهُ، فإنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ ما قالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ ما قُلتُ، فَلَمَّا كانَ مِنَ الغَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي مِن أَيِّ شيءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فإنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وإنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِن أَخْذِهِمِ الفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِن هذِه الشَّجَرَةِ، شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِن نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكونَ له أَسْرَى حتَّى يُثْخِنَ في الأرْضِ} إلى قَوْلِهِ {فَكُلُوا ممَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} فأحَلَّ اللَّهُ الغَنِيمَةَ لهمْ.[1].

قيلَ لعليٍّ ولأبي بَكْرٍ يومَ بدرٍ: معَ أحدِكُما جِبريلُ، ومعَ الآخرِ ميكائيلُ وإسرافيلُ ملَكٌ عظيمٌ يشهَدُ القتالَ أو قالَ: يشهَدُ الصَّفَّ.[2].

كان النصر يوم بدر وعدا من الله تعالى، ولا يخلف الله وعده، ورغم ذلك أخذ نبينا صلى الله عليه وسلم بالسبب، قتالا وسجودا واستغاثة، وجوب الأخذ بالسبب أمرنا كله.

---

(1) صحيح مسلم : 1763

(2) مسند أحمد، أحمد شاكر: 308/2. حكم المحدث: إسناده صحيح.

أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم مصارع القوم يوم بدر غير مرة، استنهاضا للجنود، واستدعاء لهمم القتال، وبشرى النصر بين أيديهم، وليعودوا نشطاء، فلا يعتورهم وهن.

كان يوم بدر حاسما في تاريخ إسلامنا، ولأنه صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا»، وهكذا كل عمل فاصل في تاريخ الأمم!

وبين كل فينة وأخرى، تتنزل آيات بينات، لهزيمة قريش، يوم بدر، وكان منه قوله تعالى ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45]. ولا يرعوون. ومن حيث أخذ نبينا صلى الله عليه وسلم برجع ويردد هذه الآية يوم بدر، وذلك ثقة بوعده تعالى، وبث النشاط في الجند، حتى هزم الله الجمع حقا، إيفاء بوعده تعالى الذي لايخلف!

حفل يوم بدر بأحداث عظام تخللته، ما بين جند مخلصين، ومدد الملائكة المردفين، وتضرع رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم، ونزول جبريل الأمين، دكا للمشركين!

عن عبد الله بن ثعلبة: أبشِر يا أبا بكرٍ أتاكَ نصرُ اللَّهِ؛ هذا جِبريلُ آخذٌ بعَنانِ فرسِهِ يقودُهُ علَى ثَنايا النَّقعِ! [1] .. وهذه بشارة النصر العملية، ومن بعد وعد رباني بذلك، حين جاء جبريل صلى الله عليه وسلم، نقعا مترباً بين الصفوف، حاملا لواء معركة فاصلة في التاريخ كله.

---

(1) فقه السيرة الألباني: 227. حكم المحدث: إسناده حسن

حين رأى نبينا صلى الله عليه وسلم، جبريل الأمين عليه السلام، نقعا بين الصفوف، راح يعبئ ويحرض، ولأن إرهاصات إيفاء ربنا وعده لاح أفقها، وأشرق سناها، وبلغت ضحاها!

عن أنس بن مالك: بَعَثَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ ما صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَما في البَيْتِ أَحَدٌ غيرِي، وَغَيْرُ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، قالَ: لا أَدْرِي ما اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ، قالَ: فَحَدَّثَهُ الحَدِيثَ، قالَ: فَخَرَجَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ فَتَكَلَّمَ، فَقالَ: إنَّ لَنَا طَلِبَةً، فمَن كانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ معنَا، فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ في ظُهْرَانِهِمْ في عُلْوِ المَدِينَةِ، فَقالَ: لَا، إلَّا مَن كانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا، فَانْطَلَقَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ حتَّى سَبَقُوا المُشْرِكِينَ إلى بَدْرٍ، وَجَاءَ المُشْرِكُونَ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: لا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنكُم إلى شيءٍ حتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ، فَدَنَا المُشْرِكُونَ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ، قالَ: يقولُ عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ الأنْصَارِيُّ: يا رَسولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: ما يَحْمِلُكَ علَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟ قالَ: لا وَاللَّهِ يا رَسولَ اللهِ، إلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِن أَهْلِهَا، قالَ: فإنَّكَ مِن أَهْلِهَا، فأخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِن قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ منهنَّ، ثُمَّ قالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حتَّى آكُلَ تَمَرَاتي هذِه إنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قالَ: فَرَمَى بما كانَ معهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حتَّى قُتِلَ. (1)

---

(1) صحيح مسلم: 1901

وذكر ابن إسحاق في خبره عن يوم بَدْرٍ قال: ثم خرج رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم إلى النّاس فحرّضهم، ونفل كل امرئ منهم ما أصاب. وقال: "والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجلٌ، فيُقْتَل صابرًا محتَسِبًا، مقْبلًا غير مُدْبر، إلا أدْخَله الله الجنّة". فقال عمير بن الحمام ـ أحد بني سلمة، وفي يده ثمرات يأكلهن: بخ بخ! فما بيني وبين أن أَدْخُلَ الجنّة إلا أن يقتلني هؤلاء؛ فقذف التمر من يده، وأخذ السيّف، فقاتل القوم حتى قتل، وهو يقول:

رَكْضًا إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادِ إِلَّا التُّقَى وَعَمَلَ المَعَادِ

وَالصَّبْرَ فِي اللَّهِ عَلَى الجِهَادِ

وَكُلُّ زَادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ

غَيْرَ التُّقَى وَالبِرِّ والرَّشَادِ. [1] .

قوله: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجلٌ، فيُقْتَل صابرًا محتَسِبًا، مقْبلًا غير مُدْبر، إلا أدْخَله الله الجنّة: وهذا تحريض آخر، ومن نوع تعبئة دائمة.

وقول عمرو بن الحمام: بخ بخ! فما بيني وبين أن أَدْخُلَ الجنّة إلا أن يقتلني هؤلاء؛ فقذف التمر من يده، وأخذ السيّف، فقاتل القوم حتى قتل. وهذا أثر التعبئة الحسنة، وكانت حسنة، ولأنها من في رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذ كانت غايتهم الجنة.

---

(1) صحيح مسلم: 3520

بَعَثَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ ما صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ: وفيه جواز عمل جهاز الاستخبارات، وإن عمل الاستخبارات لذو شأن هام في إدارة المعارك، ولربما كان هو عامل الحسم الأول فيها.

وكما أن فيه وجوب الأخذ بالسبب. ورغم وعد سابق بالنصر.

وقول رسول الله ﷺ يوم بدر: لا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنكُم إلى شيءٍ حتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ. وفيه إقدام القائد أولا، ليتبعه جنده تاليا. وهذه تعبئة عملية أخرى.

وحين دَنَا المُشْرِكُونَ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ، وهذه تعبئة أخرى. لاتزال تتربع عملها في النفوس، لتنتج أثرها.

ضرب عمير بن الحمام مثلا أعلى، وحين ألقى تمرات، رأى تناولها حياة طويلة، ومن حيث كانت الجنة أمامه، غرضا وهدفا وغاية، رخصت أمامها تمراته وحياته.

علم نبوة ضاف: وكان علما على نبوته ﷺ، وحين بشر عمير بن الحمام بالجنة، وبقوله: فإنَّكَ مِن أَهْلِهَا، ولأنه قاتل يوم بدر، حتى قتل شهيدا، وحين ألقى تمرات من يده، رأى أكلها أمدا بعيدا بينه والجنة.

وكل زاد عرضة النفاد*غير التقى والبر والرشاد: هذا بمثابة ديوان شعر بأكمله، ينطق تجربة صدقا، ويحكي قصة تاريخا، درسا للأجيال، تقى وبرا ورشدا.

عن البراء بن عازب: جَعَلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى الرُّماةِ يَومَ أُحُدٍ عَبْدَ اللَّهِ بنَ جُبَيْرٍ، فأصابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وكانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

وأَصْحابُهُ أصابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَومَ بَدْرٍ أرْبَعِينَ ومِئَةً، سَبْعِينَ أسِيرًا، وسَبْعِينَ قَتِيلًا قالَ أبو سُفْيانَ: يَوْمٌ بيَومِ بَدْرٍ والحَرْبُ سِجالٌ. [1] .

انتهى يوم بدر بقتل سبعين مشركا، وأسر سبعين منهم، أي على النصف من جيش المسلمين تقريبا، وهذه هزيمة منكرة، وبكل المقاييس، خاصة إذا علمنا أنها كانت أول مواجهة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فعن قتادة: افترضَ الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضِّرّاب بالسيوف. [2] .

وكان الثبات وذكره تعالى عاملين حاسمين موجبين نصرا عند اللقاء.

وافترض الله تعالى ذكره كثيرا عند التقاء الجيشين، برهان ذكره تعالى أيضا وكل حين، سببا للفلاح، وموجبا للنصر والتمكين، وهذا سلاح من جيل خاص، وإعداد خاص أيضا!

وجاء الثبات في القتال، بألا ينهزم أو يدبر، مؤتلفا منسجما، مع ذكره تعالى كثيرا، جوابا للشرط، لا فعلا له، برهان وجوب تحقق المشروط عند تحقق شرطه.

كان أسلوب الشرط عهدا في قرآن ربنا لمسناه، وعند الأمور الحسام، وأمام المسائل العظام، بلاغة وبيانا.

---

(1) صحيح البخاري : 3986

(2) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ١٠/ ٢٠

علق القرآن المجيد فلاح العباد، وحين يلقون عدوهم، أن يكونوا ثابتين مقاتلين، فلا يدبروا، وأن يكونوا ذاكرين الله كثيرا، فلا يفتروا، رجاء محققا.

وإذا كان الله تعالى قد افترض ذكره، وكثيرا عند أشغل الشواغل، وهو الجهاد، ففرضه حين لا شاغل، يكون أدعى، ومن حيث ذهن ساكن، يذكر مولاه أبدا.

وجاء الفلاح نتيجة مواجهة ثابتة، لا تتزحزح، وحين القتال، مقرونة بلسان رطب بذكره تعالى، تآلف قول الذكر، مع فعل القتال، وجوب ممازجة قول بفعل.

وإن انسياق نفس طواعية للقتال كفعلٍ، سهل أمرها، وأن تذكر ربها كقول، ولما علمت أن فعلها فيه نجاتها، وبإزهاقها مهرا للفردوس الأعلى!

وجاء قتال الكافرين مقرونا بذكر رب العالمين، بين نداء المؤمنين، وفلاح المتقين، برهان عظم أمرين هما: الإيمان والفلاح، وموجبهما ثباتا وذكرا.

وقد بان إعجاز القرآن، وحين سطر أمجاد البلاغة كلها، وإذ قدم إيمانا، جاء الجهاد والذكر، شرطي بيعة عليه، ليقود إلى فلاح، نتيجةً تتوقها النفوس.

وجاء الأمر بذكره تعالى، عند اللقاء، سببا موجبا للثبات، وأدعى لنفرة، في سبيله تعالى، ولأنه وقت وساوس الشياطين، وسوق بضاعتهم المزجاة.

وقد أمر القرآن المجيد بذكره تعالى، ولأنه موجب لثبات، جاء الأمر به سلفا، ليكون ثباتا مركبا، أملاه ظرف المقاتلة، وأوجبه حينُ المجاهدة.

وحين حرض نبينا صلى الله عليه وسلم، المؤمنين على القتال، لأمر ربه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ كانوا جثيا على الركب، كأنهم حرس يتلمظون، ولأنهم رهبان ليل، فرسان ليوث نهار.

إن الجمع بين قتال الأبدان ولهث ذكر باللسان، هما عنوان صدق أهل الإيمان، وعلو المقام، وانظر في ذلك صحابة العدنان صلى الله عليه وسلم، وكيف قد أذلوا أبا سفيان!

***

عن حارثة بن مضرب: قال عَليُّ بنُ أبي طالبٍ: كنَّا إذا احمَرَّ البأسُ، ولَقيَ القَومُ القَومَ، اتَّقَيْنا برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فما يكونُ أحَدٌ أقرَبَ إلى العَدُوِّ منه. [1] .

حكم المحدث: فيه زهير وهو ابن معاوية بن حديج، وإن كان ثقة - قد سمع من أبي إسحاق السبيعي بعد اختلاطه، لكن له متابعة تقويه، وشاهد.

فإنه ﷺ كان أدناهم للعدو، وكان أشدهم بأسا وفتكا، وهذا عمل القائد، مقدمة صفوفه.

قيلَ لعليٍّ ولأبي بَكْرٍ يومَ بدرٍ: معَ أحدِكُما جِبريلُ، ومعَ الآخرِ ميكائيلُ وإسرافيلُ ملَكٌ عظيمٌ يشهَدُ القتالَ أو قالَ: يشهَدُ الصَّفَّ. [1] .

(1) تخريج شرح السنة، شعيب الأرناووط: 3698

وما ظننا بشرف قتال، كان ميمنته الملك جبريل، وميسرته الملك ميكائيل، وبإشراف الملك إسرافيل، وذاك كان يوم بدر، ذاك الزمن الجميل الجليل!

إن أمة كان من قادة جيوشها جند السماء المنزلين، كان حقا عليها أن تستعيد أمجادها، ثم لتحقق ذاك مجدا، هو عون السماء مرة أخرى، وحين حققت إيمانها.

إنه يجب ألا نستعيد أمجاد بدر وأخواتها ثقافة، نحسن بها ذوقنا البلاغي، بقدر ما كانت قدوة حسنة، لنصحح مسارنا مرة أخرى، وعندها نتبوأ صدارة وسؤددا.

وإن مقاتلة جند السماء، تحت لواء المسلمين، يوم بدر، هو إعمال رباني كريم، لمقتضى تكريمه تعالى لبني آدم، وحين أسجد لأبيهم ملائكته!

عن رفاعة بن رافع: جَاءَ جِبْرِيلُ إلى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ: ما تَعُدُّونَ أهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قالَ: مِن أفْضَلِ المُسْلِمِينَ -أوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- قالَ: وكَذلكَ مَن شَهِدَ بَدْرًا مِنَ المَلَائِكَةِ. وعَنْ مُعَاذِ بنِ رِفَاعَةَ بنِ رَافِعٍ، وكانَ رِفَاعَةُ مِن أهْلِ بَدْرٍ، وكانَ رَافِعٌ مِن أهْلِ العَقَبَةِ، فَكانَ يقولُ لِابْنِهِ: ما يَسُرُّنِي أنِّي شَهِدْتُ بَدْرًا بالعَقَبَةِ. قالَ: سَأَلَ جِبْرِيلُ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا. [2].

---

(1) مسند أحمد، أحمد شاكر: 308/2. حكم المحدث: إسناده صحيح.

(2) صحيح البخاري: 3992

وعن سهل بن سعد الساعدي: قال لي أبو أُسيدٍ يا ابنَ أخي لو كنتُ أنا وأنت الآنَ ببدرٍ ثم أطلق اللهُ لي بصرِي لأُرِينَّك الشعبَ الذي خرجت علينا الملائكةُ غيرَ شكٍّ ولا تمارٍ.[1]

رأى إبليس جند السماء، وكان في صورة سراقة فقال: إني أرى ما لاترون إني أخاف الله! وهكذا المرجفون، وحين تنكشف سوءاتهم، وهي لا محالة مكشوفة!

فأقبَل أبو جهلِ بنُ هشامٍ، فقال: يا مَعشَرَ الناسِ، لا يَهزِمَنَّكم خِذْلانُ سُرَاقةَ إيَّاكم؛ فإنَّه كان على ميعادٍ مِن محمَّدٍ، ولا يَهُولَنَّكم قَتْلُ عُتْبةَ وشَيْبةَ والوليدِ؛ فإنهم قد عَجِلوا، فو اللاتِ والعُزَّى، لا نَرجِعُ حتى نَقرِنَهم بالحبالِ، ولا أُلفِيَنَّ رجُلًا منكم قتَل رجُلًا منهم، ولكن خُذوهم أخذًا حتى نُعرِّفَهم سوءَ صنيعِهم.[2]

حاول أبو جهل أن يلملم أوراقه المبعثرة، وحين أرجفهم إبليس، وحين جاء في صورة سراقة بن مالك، فقال: لايهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه.

إن شؤم هزيمة أبي جهل، يوم بدر، قد أحاطه، وملك عليه قراره، وحين استروحنا ذلك من محاولته جمع صف، قد تخاذل، وحين رأى الملائكة المردفين!

(1) الهيثمي المصدر: مجمع الزوائد الهيثمي: 87/6. حكم المحدث: فيه سلامة بن روح، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، لغفلة فيه.

(2) تخريج زاد المعاد، شعيب الأرناؤوط: 165/3. حكم المحدث: فيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف.

إنه وحين أقسم أبو جهل باللات والعزى ألا يرجعوا حتى يفرقوا محمدا وصحبه ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: 101]!

إنه ليس يجوز أن ينتصر أبو جهل، وهو إذ يجاهر قسما باللات والعزى في ساحة المواجهة، ومع محمد صلى الله عليه وسلم، وجند السماء، إلا أن يندحر مهزوما مدحورا!

عن عبد الله بن عباس: قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَومَ أُحُدٍ: هذا جِبْرِيلُ آخِذٌ برَأْسِ فَرَسِهِ عليه أدَاةُ الحَرْبِ. [1]. وهل يجول بخاطر عاقل أن معركة حضرتها جند السماء، وزعيمهم جبريل يمكن أن يخسروها؟!

وقال سهلُ بنُ حنيفٍ يا بنيَّ لقد رأيتُنا يومَ بدرٍ وإن أحدَنا ليشيرُ بسيفِه إلى رأسِ المشركِ فيقعُ رأسُه عن جسدِه قبلَ أن يصلَ إليه. [2].

وكان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق، وعلى البنان، مثل سمة النار، وقد أحرق به!

عن ابنِ عباسٍ قال كان سِيما الملائكةُ يومَ بدرٍ عمائمُ بيضٌ قد أرسلوها إلى ظهورِهم ويومَ حنينٍ عمائمُ حمرٌ ولم تقاتلِ الملائكةُ في يومٍ إلا يومِ بدرٍ إنما كانوا يكونون عددًا ومددًا لا يضربون. [3].

---

(1) صحيح البخاري : 4041

(2) مجمع الزوائد، الهيثمي: 87/6. حكم المحدث: فيه محمد بن يحيى الأسكندراني، قال ابن يونس: روى مناكير.

(3) المرجع السابق: 85/6. حكم المحدث: فيه عمار بن أبي مالك الجنبي، ضعفه الأزدي.

وكانت سيماء الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرخوها على ظهورهم إلا جبريل فإنه كانت عليه عمامة صفراء![1].

وقال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددا ومددا لا يضربون.[2]. ولما قال أبو جهل: اللهم أعن أعز الفئتين، وأكرم القبيلتين، وأكثر الفريقين. فنزل قوله تعالى ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فكان هو المستفتح[3].

المبحث السادس والثلاثون: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

قال تعالى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 17]. وهذا يوم بدر، وغير يوم بدر؛ لأنه تعالى فاعل أفعال العباد على الحقيقة، وماهم إلا سبب، ووقوع قدره تعالى على أيديهم كان تكريما لهم؛ ولأنهم يردون أمرهم كله لله.

---

(1) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٤ / ٤٣

(2) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ٤٢٩

(3) المرجع السابق: ج ٢/ ٤٣٢

كان القتال من المؤمنين جميعا، ولذا قال تعالى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، وكان الرمي منه صلى الله عليه وسلم؛ ولذا قال تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ وما قتل وما رمي إلا منه تعالى حقيقة.

جاء إسناد فعل القتل أو الرمي إليه تعالى حقيقة، إشعارا للمؤمنين بمن ربهم، وهذا فضل، وألا يداخلهم عُجْبٌ، فيأتي على إيمان قلوبهم، وكان ذا فضلا آخر.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾: ذلك لأنه صلى الله عليه وسلم رمى المشركين، يوم بدر، بحفنة تراب، فما بقي منهم أحد إلا أصابته. فدل على فضل ربه، وأن أكرمه تعالى به.

وكان القتال من المؤمنين جميعا، ولذا قال ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، هكذا بضمير الجمع المتصل (هم)، وكان الرمي منه صلى الله عليه وسلم، ولذا قال تعالى﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾، وما قتلٌ وما رميٌ إلا منه تعالى حقيقة.

المبحث السابع والثلاثون: «شاهت الوجوه»

عن سلمة بن الأكوع: غَزَوْنَا مع رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ حُنَيْنًا، فَلَمَّا وَاجَهْنَا العَدُوَّ تَقَدَّمْتُ فأعْلُو ثَنِيَّةً، فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ مِنَ العَدُوِّ، فأرْمِيهِ بسَهْمٍ فَتَوَارَى عَنِّي، فَما دَرَيْتُ ما صَنَعَ، وَنَظَرْتُ إلى القَوْمِ فَإِذَا هُمْ قدْ طَلَعُوا مِن ثَنِيَّةٍ أُخْرَى، فَالْتَقَوْا هُمْ وَصَحَابَةُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَوَلَّى صَحَابَةُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ وَأَرْجِعُ مُنْهَزِمًا، وَعَلَيَّ بُرْدَتَانِ مُتَّزِرًا بإحْدَاهُما مُرْتَدِيًا بالأُخْرَى، فَاسْتَطْلَقَ إزَارِي فَجَمَعْتُهُما جَمِيعًا، وَمَرَرْتُ علَى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ

مُنْهَزِمًا وَهو على بَغْلَتِهِ الشَّهْبَاءِ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: لقَدْ رَأَى ابنُ الأكْوَعِ فَزَعًا، فَلَمَّا غَشُوا رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ نَزَلَ عَنِ البَغْلَةِ، ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِن تُرَابٍ مِنَ الأرْضِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَ به وُجُوهَهُمْ، فَقالَ: شَاهَتِ الوُجُوهُ، فَما خَلَقَ اللَّهُ منهمْ إنْسَانًا إلَّا مَلأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بتِلْكَ القَبْضَةِ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَسَمَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ غَنَائِمَهُمْ بيْنَ المُسْلِمِينَ [1].

«شاهت الوجوه» هذا هو قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحين رمى المشركين، يوم بدر، بحفنة من تراب، لم تذر منهم أحدا، إلا جهته، فكان إعجازا قولا! وكان قهرا فعلا!

وإنه لن ينسى التاريخ لنبينا صلى الله عليه وسلم، يوم بدر، وإذ بحفنة تراب واحدة تغشى جيش قريش بأكمله! فتعمل فيهم ما لم تقو عليه (بي52)! أو غيرها معها، نصرا من الله تعالى العزيز الحكيم.

كانت حفنة التراب بمثابة الضربة الأولى، يوم بدر، وإذ كان من بركتها، قتل من قتل، وأسر من أسر، وبعد إذ أذن نبينا بعدها بدء القتال، لنصر موعود.

(1) صحيح مسلم: 1777

المبحث الثامن والثلاثون: الحكمة من نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أبي البختري بن هشام

نضرب صفحا عن رواية أن النبي نهى عن قتلِ أبي البختري وعن قتل بني هاشم لأنهم أُخرجوا كرها. ولأن في إسنادها من لم يسم [1] . قال المجذر بن زياد لأبي البختري بن هشام: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قتلك. [2] .

حديث نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل البختري ضعيف، وحمل على أنه كان أشد كفا ودفاعا عن نبينا صلى الله عليه وسلم بمكة، وشارك في نقض الصحيفة.

ورغم ضعف حديث النهي عن قتل البختري، لكفه عن نبينا صلى الله عليه وسلم، إلا أن تأويله موجب وفاء، نتعلمه منه صلى الله عليه وسلم، وهذا كان سننا للأجيال، وهديا للعالمين أجمعين.

بلغ البختري نهي عن قتله لا عن صديق له فأبى إلا أن يقتل معه أو أن يصفح عنهما معا! وهذا برهان بقية وفاء لطالما كانت عند العرب مسحة منها.

لا والله إذا لأموتن أنا وهو جميعا لا يتحدث عني نساء قريش بمكة أني تركت زميلي حرصا على الحياة[3] ! هذا قول البختري وفاء لصاحبه!

---

(1) الإصابة، ابن حجر: 364/3

(2) مجمع الزوائد، الهيثمي: 88/6. فيه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف.

(3) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٣٤٨.

قال المجذر بن ذياد: والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه-البختري-أن يستائر فآتيك به فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته. وهذا ذكر عذر المجذر بن ذياد، وحين خالف نهيه صلى الله عليه وسلم عن قتل البختري.

مقتل أمية بن خلف يوم بدر: أسر عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف، يوم بدر، فقتله بلال بن رباح، لأنه كان يعذبه في مكة. وفيه جواز قتل الأسير لمصلحة راجحة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم بلغه ذلك ولم يعنف بلالا.

المبحث التاسع والثلاثون: النبي صلى الله عليه وسلم يلتمس أبا جهل في قتلى بدر

عن عبدالرحمن بن عوف: بيْنَا أَنَا واقِفٌ في الصَّفِّ يَومَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ عن يَمِينِي وعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بغُلَامَيْنِ مِنَ الأنْصَارِ- حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بيْنَ أَضْلَعَ منهما - فَغَمَزَنِي أَحَدُهُما فَقالَ: يا عَمِّ هلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلتُ: نَعَمْ، ما حَاجَتُكَ إلَيْهِ يا ابْنَ أَخِي؟ قالَ: أُخْبِرْتُ أنَّهُ يَسُبُّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حتَّى يَمُوتَ الأعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لذلكَ، فَغَمَزَنِي الآخَرُ، فَقالَ لي مِثْلَهَا، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إلى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ في النَّاسِ، قُلتُ: أَلَا إنَّ هذا صَاحِبُكُما الذي سَأَلْتُمَانِي، فَابْتَدَرَاهُ بسَيْفَيْهِمَا، فَضَرَبَاهُ حتَّى قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأخْبَرَاهُ فَقالَ: أَيُّكُما قَتَلَهُ؟، قالَ كُلُّ واحِدٍ منهمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ، فَقالَ: هلْ مَسَحْتُما سَيْفَيْكُمَا؟، قالَا: لَا، فَنَظَرَ في السَّيْفَيْنِ، فَقالَ: كِلَاكُما قَتَلَهُ، سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بنِ عَمْرِو بنِ الجَمُوحِ، وكَانَا مُعَاذَ ابْنَ عَفْرَاءَ، ومُعَاذَ بنَ عَمْرِو بنِ الجَمُوحِ. [1]

(1) صحيح البخاري : 3141

أمر نبينا صلى الله عليه وسلم أن يلتمس أبو جهل في قتلى بدر وهذا برهان أهمية قتل إمام الكفر ولأنه تعالى قال: فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم.

وقتل أبو جهل يوم بدر، على يد كل معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء وعبد الله بن مسعود، كل قد أخذ منه شوطا، نكالا من الله تعالى، ولشدة عدائه لنبينا صلى الله عليه وسلم.

وهذا الحديث المشهور في أبي جهل: هذا فرعونُ هذه الأمةِ [1].

وعن أنس بن مالك: مَن يَنْظُرُ ما صَنَعَ أبو جَهْلٍ. فانْطَلَقَ ابنُ مَسْعُودٍ فَوَجَدَهُ قدْ ضَرَبَهُ ابْنا عَفْراءَ حتَّى بَرَدَ، قالَ: أأَنْتَ، أبو جَهْلٍ؟ قالَ: فأخَذَ بلِحْيَتِهِ، قالَ: وهلْ فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ، أوْ رَجُلٍ قَتَلَهُ قَوْمُهُ . قال أحمد بن يونس: (أنت أبو جهل؟).[صحيح البخاري : 3962].

وعن عبدالله بن عباس: انتهَى عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ إلى أبي جهلٍ يومَ بدرٍ وهو رقيدٌ فاستلَّ سيفَه فضرب عنقَه فندَر رأسُه ثم أخذ سلبَه فأتَى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأخبره أنه قتَل أبا جهلٍ فاستحلفه باللهِ ثلاثَ مراتٍ فحلِف فجعل له سلبَه [2].

وعن عبدالله بن أبي أوفى: أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ صلَّى يومَ بُشِّرَ برأسِ أبي جَهْلٍ، رَكعتَينِ [3].

---

(1) مسند أحمد : 125/6. قال المحدث أحمد شاكر : إسناده ضعيف.

(2) مجمع الزوائد، الهيثمي: 334/5. فيه إسماعيل بن أبي إسحاق أبو إسرائيل الملائي وهو ضعيف، وقال أحمد يكتب حديثه.

(3) ضعيف ابن ماجه، الألباني: 263. حكم المحدث: ضعيف.

المبحث الأربعون: بلاء عكاشة بن محصن يوم بدر

عنِ ابنِ إسحاقَ قالَ: عُكَّاشةُ الَّذي قاتلَ بسيفِهِ يومَ بدرٍ حتَّى انقطعَ في يدِهِ، فأتى رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّم فأعطاهُ جذلًا من حطبٍ فقالَ: قاتل بهذا. فلمَّا أخذَهُ هزَّهُ فعادَ سيفًا في يدِهِ طويلَ القامةِ شديدَ المتنِ أبيضَ الحديدَ، فقاتلَ بِهِ حتَّى فتحَ اللَّهُ على رسولِهِ ثمَّ لم يزل عندَهُ يشْهدُ بِهِ المشاهدَ معَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ حتَّى قُتلَ في قتالِ أَهلِ الرِّدةِ وَهوَ عندَهُ. وَكانَ ذلِكَ السَّيفُ يسمَّى العونَ[1]. قاتل عكاشة بن محصن، يوم بدر، حتى هلك سيفه، فأعطاه نبينا صلى الله عليه وسلم جزلا من حطب، وأمره أن يقاتل به! ولك أن تتخيل عمل حطب عمل سيف! فكان إعجازا نبويا!

و عُكَاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ الأَسَدِيُّ هو صاحب نبينا صلى الله عليه وسلم، والذي كان من شأنه سبقه أن يكون من السبعين ألفا، الذين يدخلون الجنة بغير حساب.

فعن أبي هريرة: يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِن أُمَّتي زُمْرَةٌ هي سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إضَاءَةَ القَمَرِ فَقَامَ عُكَاشَةُ بنُ مِحصَنٍ الأسَدِيُّ، يَرْفَعُ نَمِرَةً عليه، قالَ: ادْعُ اللَّهَ لي يا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، فَقالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ منهمْ ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ فَقالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ: سَبَقَكَ عُكَاشَةُ[2].

---

(1) تاريخ الإسلام، الذهبي: 100/2. حكم المحدث: ذكره ابن إسحاق بلا سند.

(2) صحيح البخاري : 5811

بشارة: عن حبيب بن سباع أبو جمعة: تغدَّينا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم ومعنا أبو عُبيدةَ بنُ الجرَّاحِ فقال يا رسولَ اللهِ : أحدٌ خيرٌ منَّا ؟ أسلمْنا معك وجاهدْنا معك، قال : نعم، قومٌ يكونون من بعدِكم يؤمنون بي ولم يروْني [1].

لم أجد حديث أن قتادة أصيبت عينه يوم بدر فردها نبينا صلى اللَه عليه وسلّم براحته.

عن رفاعة بن رافع لما كان يومُ بدرٍ تجمَّعَ الناسُ على أميةَ بنِ خلفٍ فأقبلنا إليه فنظرتُ إلى قطعةٍ من دِرعِه قد انقطعت من تحتِ إبطِه فأطعنُه بالسيفِ طعنةً ورميتُ يومَ بدرٍ بسهمٍ ففُقِئَت عيني وبصق فيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ودعا لي فيها فما آذاني شيءٌ [2].

قال رفاعة بن رافع بن مالك: ورميت بسهم يوم بدر، ففقئت عيني فبصق فيها رسول الله ﷺ، ودعا لي فما أذاني منها شيء. وهذه من بركة نبينا ﷺ.

المبحث الواحد والأربعون: مخاطبة نبينا ﷺ أهل القليب يوم بدر

خاطب نبينا ﷺ أهل القليب، يوم بدر، برهان سماع الأموات أصوات الأحياء. ولا يعارضه قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾[فاطر: 22]. فقد تأولوه على أن هذا مما يحدث يوم القيامة، والجمهور على ذلك.

(1) الإيمان، ابن منده : 107. حكم المحدث: إسناده صحيح مشهور.

(2) مجمع الزوائد، الهيثمي: 85/6. حكم المحدث: فيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف.

فعن عائشة أم المؤمنين: إنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ في قَبْرِهِ ببُكاءِ أهْلِهِ عليه فقالَتْ: وهِلَ، إنَّما قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: إنَّه لَيُعَذَّبُ بخَطِيئَتِهِ، أوْ بذَنْبِهِ، وإنَّ أهْلَهُ لَيَبْكُونَ عليه الآنَ وذاكَ مِثْلُ قَوْلِهِ: إنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ قامَ علَى القَلِيبِ يَومَ بَدْرٍ، وفيهِ قَتْلَى بَدْرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فقالَ لهمْ ما قالَ إنَّهُمْ لَيَسْمَعُونَ ما أقُولُ وقدْ وهِلَ، إنَّما قالَ: إنَّهُمْ لَيَعْلَمُونَ أنَّ ما كُنْتُ أقُولُ لهمْ حَقٌّ ثُمَّ قَرَأَتْ: {إنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتَى}[النمل: 80] {وَما أنْتَ بمُسْمِعٍ مَن في القُبُورِ}[فاطر: 22] يقولُ: حِينَ تَبَوَّؤُوا مَقاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ [1].

وعن أبي طلحة الأنصاري زيد بن سهل أنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمَرَ يَومَ بَدْرٍ بأَرْبَعَةٍ وعِشْرِينَ رَجُلًا مِن صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ، فَقُذِفُوا في طَوِيٍّ مِن أطْوَاءِ بَدْرٍ خَبِيثٍ مُخْبِثٍ، وكانَ إذَا ظَهَرَ علَى قَوْمٍ أقَامَ بالعَرْصَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَلَمَّا كانَ ببَدْرٍ اليومَ الثَّالِثَ أمَرَ برَاحِلَتِهِ، فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا، ثُمَّ مَشَى واتَّبَعَهُ أصْحَابُهُ، وقالوا: ما نُرَى يَنْطَلِقُ إلَّا لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، حتَّى قَامَ علَى شَفَةِ الرَّكِيِّ، فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بأَسْمَائِهِمْ وأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: يا فُلَانُ بنَ فُلَانٍ، ويَا فُلَانُ بنَ فُلَانٍ، أيَسُرُّكُمْ أنَّكُمْ أطَعْتُمُ اللَّهَ ورَسولَهُ؛ فإنَّا قدْ وجَدْنَا ما وعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهلْ وجَدْتُمْ ما وعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟! قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: يا رَسولَ اللَّهِ، ما تُكَلِّمُ مِن أجْسَادٍ لا أرْوَاحَ لَهَا! فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، ما أنتُمْ بأَسْمَعَ لِما أقُولُ منهمْ. قَالَ قَتَادَةُ: أحْيَاهُمُ اللَّهُ حتَّى أسْمعَهُمْ قَوْلَهُ؛ تَوْبِيخًا، وتَصْغِيرًا، ونَقِيمَةً، وحَسْرَةً، ونَدَمًا [2].

---

(1) صحيح مسلم: 932

(2) صحيح البخاري: 3976

المبحث الثاني والأربعون: حكمة عدم قتل الكفار جميعهم يوم بدر

إن من حكمة عدم قتل كفار بدر جميعهم مع قدرة ملك واحد على ذلك، كجبريل عليه السلام؛ لأنه أسلم منهم نفر كثير بعدها، وحين قد قتل من لاخير فيه ابتداءً.

إن قتل الكفار كان بأيدي المؤمنين، يوم بدر، ولكنه لا يتم ذلك على أيدي الملائكة المقربين، وليشفي الله تعالى صدور قوم مؤمنين، وإن ذلك لأحكم من أخذة جبريل عليه السلام، أخذة واحدة، وكما كان فعله عليه السلام قوم لوط!

قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: 97].

لم يعذر الله تعالى من كان في صف الكافرين، يوم بدر، ممن أسلموا، زعم أنهم مستضعفون، ولأن أرضه تعالى واسعة ليهاجروا فيها.

وكان عدم إعذاره تعالى لمن كان مع الكفار، يوم بدر، ممن أسلم، برهان عدم جواز تكثير سوادهم، وهذا شأن مخيف، ويكاد يضع أحدنا يده على قلبه وجلا وخوفا ورعبا!

المبحث الثالث والأربعون: استشارة نبينا ﷺ أصحابه في أسارى يوم بدر

استشار نبينا ﷺ أصحابه في أسارى يوم بدر. وهذا برهان الشورى، عملا حسنا، في مسيرة العمل الإسلامي، رغم وجود الوحيين، كيما لايكون الأمر ملكا عضوضا.

وإن وجود نظام الشورى في ديننا، دلالة إيجابيته، وأنه ليس دينا جامدا، بل مرنا يوائم تغيرا ت أحوال الزمان والمكان، وإذ ليس لمخالفة نص، بل لإعماله على وجهه.

وإن استشارته ﷺ أصحابه، هو إعمال منه صريح لأمره تعالى﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران: 159]. وهذا تعليم للأمة، جيلا من جيل آخر، وصقلا لأفرادها، وتربية لأعضائها.

وإذ يمكن القول إن مجال الشورى هو كل ما لم يرد فيه نص، من الوحيين، أحدهما أو كلاهما، وليس يخالف أصولهما العامة، وهذا هو مطلق الدينونة لله.

رأى عمر الفاروق قتل أسارى بدر، ومال ﷺ لرأى الصديق، عفوا عنهم أو فداءهم، لكن القرآن نزل مؤيدا الفاروق وبقوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[الأنفال: 67].

وإنه لو كان القرآن من عنده ﷺ، لكان قد أخفى عتابه له، غير مرة، كيوم أسرى بدر، لكنه جاءنا وكما أنزل! وإذ كيف يكون محمد ﷺ أمينا مع البشر دون رب البشر؟!

ولسنا بكثير حاجة لإثبات أمانته ﷺ، في تبليغ أمر ربه، وكما أنزل، ولأنه تضمن عتابا له، غير مرة، أمكن إخفاءه، لكنه تعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[الأنعام: 124].

وإذ قدم الصديق رضي الله تعالى عنه، حيثيات العفو والفداء، لأسارى بدر؛ ولأنهم أهلوهم، ولعلهم يسلمون، وهذا من باب إعذارهم، ولعلهم ينتهون، فيصيرون عبادا لله تعالى صالحين.

وإذ قدم الفاروق رضي الله تعالى عنه موجبات رأيه، قتل أسارى بدر، وأنهم صناديد الكفر وأئمته! وهذا بعد نظر، بعد نجوم السماء! إذ فرق بين فرد لا مناوئا، وآخر يشمخ أنفا!

وإذ كان رأي الفاروق، قتل أسارى بدر، ولأنهم أئمة الكفر، متوافقا مع الذكر الحكيم وإذ يقول ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: 12]. وهذا بدوره يخيف قوما كفارا صناديد آخرين، فيكفون أو يسلمون.

وإذ كان رأي الصديق عفوا عنهم، وهذه مصلحة أدنى، مقابلة رأي الفاروق قتلهم، وهذه مصلحة أعلى، وتفويت أدنى المصلحتين لصالح أعلاهما، فقه ودين، وهذا باب الموازنات، وبنص الوحي الكريم الذكر والقرآن المبين.

كان من نتائج رأي الفاروق، قتل أسارى بدر، إسلام آخرين، شاركوا قتالا فيها، وهذا فقه عميق، إذ لو كان رأي الصديق، لربما استكانوا، وما تابوا!

وهؤلاء هم أسارى بدر، والذين عمل فيهم نبيهم ﷺ، عشر سنين كاملة، وأبعدوا النجعة، وكيف يؤمل فيهم خير من بعدها؟! وهذا ما وافق فيه القرآن عمر رضي الله تعالى عنه!

قال الله تعالى ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾[التوبة: 12].وقتال أئمة الكفر، ولأنهم كذلك أئمته، وكفى به إثما مبينا، كان موجبا لقتالهم، هم حين نجاتهم حالا، أو من سواهم عبرة ومآلا، علاوة على برهان عموم ألا يصدق كافر. ولقوله تعالى أيضا ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾[آل عمران: 73].

المبحث الرابع والأربعون: تشبيهات نبوية

عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: لَمَّا كان يومُ بَدرٍ، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "ما تقولونَ في هؤلاء الأَسْرى؟"، قال: فقال أبو بَكرٍ: يا رسولَ اللهِ، قَومُكَ وأهلُكَ، استبْقِهِم، واسْتأْنِ بهم؛ لعلَّ اللهَ أنْ يتوبَ عليهم، قال: وقال عُمَرُ: يا رسولَ اللهِ، أَخرَجوكَ وكذَّبوكَ، قرِّبْهم فاضْرِبْ أَعناقَهم، قال: وقال عبدُ اللهِ بنُ رَواحةَ: يا رسولَ اللهِ، انظُرْ واديًا كثيرَ الحَطبِ، فأَدخِلْهم فيه، ثُمَّ أَضرِمْ عليهم نارًا، قال: فقال العبَّاسُ: قطَعْتَ رَحِمَكَ، قال: فدخَلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولم يرُدَّ عليهم شيئًا، قال: فقال ناسٌ: يأخُذُ بقَولِ أبي بَكرٍ، وقال ناسٌ: يأخُذُ بقَولِ عُمَرَ، وقال ناسٌ: يأخُذُ بقَولِ عبدِ اللهِ بنِ رَواحةَ، قال: فخرَجَ عليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: "إنَّ اللهَ ليُلينُ قلوبَ رجالٍ فيه، حتى تكونَ ألْيَنَ مِن اللَّبَنِ، وإنَّ اللهَ ليَشُدُّ قلوبَ رجالٍ فيه، حتى تكونَ أشدَّ مِن الحِجارةِ، وإنَّ مَثلَكَ يا أبا بَكرٍ كمَثلِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، قال: {مَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم: 36]، ومَثلُكَ يا أبا بَكرٍ كمَثلِ عيسى، قال: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ

أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: 118]، وإنَّ مَثلَكَ يا عُمَرُ كمَثلِ نوحٍ، قال: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح: 26]، وإنَّ مَثلَكَ يا عُمَرُ كمَثلِ موسى، قال: ربِّ {اشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس: 88]، أنتم عالَةٌ، فلا ينفلِتَنَّ منهم أحدٌ إلَّا بفِداءٍ، أو ضَربةِ عُنُقٍ"، قال عبدُ اللهِ: فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إلَّا سُهَيلُ ابنَ بَيضاءَ، فإنِّي قد سمِعْتُه يذكُرُ الإسلامَ، قال: فسكَتَ، قال: فما رأَيْتُني في يومٍ، أخوَفَ أنْ تقَعَ عليَّ حِجارةٌ مِن السَّماءِ في ذلك اليومِ، حتى قال: "إلَّا سُهيلُ ابنَ بَيضاءَ"، قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: 67]، إلى قَولِه: {لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: 68].[1]

شبه نبينا ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بنبيه تعالى إبراهيم عليه السلام، ولأنه تعالى قال فيه﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: 36].

وشبه نبينا ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أيضا، بنبيه تعالى عيسى عليه السلام ولأنه تعالى قال فيه﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[المائدة: 118].

شبه نبينا ﷺ عمر الفاروق رضي الله تعالى عنه بنبيه تعالى نوح عليه السلام ولأنه تعالى قال فيه: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[نوح: 26و27].

---

(1) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: 3632. حكم المحدث: إسناده ضعيف.

شبه نبينا ﷺ، الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه، بنبيه تعالى موسى عليه السلام، ولأنه تعالى قال فيه ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾[يونس: 88].

وإن نظرا إلى أبي بكر وعمر، رضي الله تعالى عنهما، وأنهما كمثل أربعة أنبياء! موجب نظر أنهم مباركون، وأن أمتنا ولادة لأفذاذ، يديرون حركة التاريخ، بإعجاب منقطع نظيره!

إن أمتنا بحاجة إلى إثرائها، بأمثال عمر، رضي الله تعالى عنه، شدة لوقتها، ورفقا كأبي بكر، رضي الله تعالى عنه لزمانه، وكيما يتحقق فيها قول القرآن الحكيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143].

وإن حديثا عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: جاءَ جِبريلُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ بَدْرٍ، فقال: خَيِّرْ أصحابَكَ في الأُسارَى: إنْ شاؤُوا الفِداءَ، وإنْ شاؤُوا القَتْلَ، على أنْ يُقتَلَ مِنهُم مُقبِلًا مِثْلُهُم. قالوا: الفِداءُ ويُقْتَلُ مِنَّا[1] .

وضعف حديث جبريل عليه السلام السابق، في تخييره ﷺ، في أسارى بدر، وبعد مشورة أصحابه رضي اله تعالى عنهم، ولأنه مخالف لنص القرآن: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[الأنفال: 67].

---

(1) تفسير ابن كثير: 33/4. حكم المحدث: غريب جدا.

وكان العباس عم نبينا ﷺ، ممن أسر يوم بدر، وفيه أن ذوي رحمه ﷺ لا يعتقون، ولأن كفرهم أوجبه، ولا يؤثر فيه رحمه ﷺ، وهذا هو قول الشافعي والبخاري وغيرهما.

نكير القرآن: اشتد نكير القرآن على من رأي العفو عن أسارى بدر وذلك بقوله تعالى بقوله ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[الأنفال: 68]. أي سبقت مغفرته تعالى، لمن شهد بدرا، وهذا سبب دم عقابهم وإنزال العذاب الأليم بهم. وفيه ان فاعل ذلك يعاقب ولما كان هذا حكما خاصا بأهل بدر وحدهم، وبمعنى آخر، فإن قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ليس موضعها ههنا.

وفيه الحث على فعل الخيرات، واجتناب المنكرات؛ كيما تكون كتابا، من الله سبق، ولأنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

وسبق فضل الله تعالى، مغفرة لأهل بدر، مانعا لعذاب من رأوا افتداء أسراها، برهان أن عملا صالحا، يكون ذخرا لصاحبه، ولما يحن وقته، فَإِنَّ﴿ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود: 115].

وإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وكان منه مغفرته تعالى لأهل بدر، ولما كان هذا هو معروفهم، وإلا عذب قائلين بعفو عن أسراها، ولما كان هذا هو عملهم لا سوؤهم!

وجاءت صنائع: على وزن فعائل: صيغة منتهى الجموع؛ لاستنهاض مشاعر الخير في النفوس، فتبذل عرفا، وتصنع خيرا. وتنشر برا.

إن صنائع المعروف تبقى رصيدا لأصحابها، يوم عوزهم إليها، ومنه فليكثر أحدنا معروفه صنائعه، وليملأ بها خزائنه، وليسر به ودائعه، ليوم عثراته، ووقت فجراته.

موقف سعد بن معاذ من أسارى بدر: وإذ قد عارض سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه، أسر المؤمنين للمشركين يوم بدر، وإذ رأى أن قتلهم أولى، وهذا برهان فتح مجالات الرأي والرأي الآخر، حتى يقول الوحي كلمته.

قال صلى الله عليه وسلم: كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟ حين كره أسر قريش في بدر. وهذا تلطف نبي مع رعيته، هديا، ولفتح مجال تقال فيه الكلمة ودون خوف، نهضة للأمة.

وإذ نسجل لسعد بن معاذ وصحبه، وقوفهم على باب عريشه صلى الله عليه وسلم، يستقبلون هم سيوف قريش عنه، وبعد إذ رماهم صلى الله عليه وسلم بحفنة تراب أثخنتهم وفتتهم وأوجعتهم.

عن جابر بن عبدالله: أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أحَدٌ مِنَ الأنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لي الأرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وأَيُّما رَجُلٍ مِن أُمَّتي أدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لي الغَنَائِمُ، وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ كَافَّةً، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ. [1] .

(1) صحيح البخاري : 438

المبحث الخامس والأربعون: في مسألة الغنائم يوم بدر

(1)

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوسِ من قبلِكم، كانت تجمع وتنزِل نار من السماءِ فتأكُلها[1].

وهذه بلاغة نبوية، ولأنه كناية عن الإنسان، وحذف الإنسان، وأتى بصفة من صفاته، وهي سواد الرأس!

والحكم للغالب من أمر الناس، إذ غلب فيهم سواد شعر الرأس. وأن أمتنا شبيبة لاشيبة، وأن النادر لا حكم له.

وهذا بيان فضل الإسلام، على ما سواه، سماويا كان أو أرضيا. وفيه استنهاض قيم الإسلام فتهفو إليه الأفئدة.

وجاء حل المغانم بنص القرآن المجيد، وبنص حديث نبينا صلى الله عليه وسلم، وهذا باب واسع سعة ديننا، وبحبوحة عيش كريم.

والغنائم: فاعل: فأسند فعل حلها إليها، وهذا محال! فالحل منه تعالى حقيقةً، فكان اهتماما وتقريرا لشأنها.

وأسند فعل الحل إلى الغنائم، وهذا خلاف الأصل، إذ لا يسند لغير عاقل فعل أو قول، فكان استدعاء مُحِلٍ حقيقةً، فكان هو الله تعالى!

وهذا خبر، أفاد حل الغنائم. وفيه جواز استنباط الأحكام من خبر صحيح، وهذا تقعيد لأصل جاء إثراء لديننا.

(1) الجامع الصغير،السيوطي: 7338. صحيح.

وهو إيجاز نبوي كريم، وبيان محمدي فصيح، لأن تقديره: لم يحل الله الغنائم لأحد من البشر غير المسلمين.

وهو بيان حل الغنائم سُنةً. وقوله تعالى﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: 69]. وهذا بيان حلها قرآنا كريما.

وقوله تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. هذا أمر منه تعالى، والأمر مقتض وجوبا، فوريا لا تراخيا، وحينما توافر سببه، وهو وجود الغنائم بحالها ووصفها حلالا طيبا.

وهذه بلاغة قرآنية، ومن حيث إن الغنائم لاتؤكل كلها، فكانت على المآل وحين تباع ليشترى من ثمنها ما يؤكل.

وهذا إعجار بياني قرآني، لأنه جاء الأمر بأكلها، دلالة حلها، ولأنه تعالى ليس يأمر بأكل إلا ما كان حلالا، وجاءت(حلالا)حالا، أفاد حلا آخر، فصار حلا مركبا!

﴿ فَكُلُو ﴾: هذا خطاب للمؤمنين لا غيرهم فقد اختصوا بحل غنائم كانت حراما على غيرهم.

﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ ... وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾: جاء الخطاب للمؤمنين تكريما؛ لأنه تعالى عادة يخصهم بندائه وخطابه، وذلك دلالة قربهم وتقريبهم لاغيرهم.

﴿ مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴾: أي كلوا منه بعضه لا كله! ولأنه﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ

إن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41]. تكافلا مجتمعيا.

وجاء وصف الحال(حلالا)،أنه طيب، دلالة طيب الحلال منطوقا، ودلالة خبث الحرام مفهوما.

وجاء الأمر بالتقوى ديانة، ولأن نفسا قد يمتطيها طمعها، فتتعدى، فكان خطاما لها!

وجاء الأمر بالتقوى مقدما على ما بعده اهتماما، ألا تعمد نفس إلى تواكلها، فتأمن معه هلاكها.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾: هذا تقديم ما حقه التأخير، بلاغة قرآن، بتقرير شأن التقوى وعظمها.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾: جاء الأمر بالتقوى، لأن النفوس ممهورة على التساهل، فكان أمرا لها بالتقوى، تذكيرا لها بربها ألا تتعدى.

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾: وهذا تأخير ماحقه التقديم، لأن النفوس ممهورة على حسن ظنها بربها، عكس تقوى حاملة على فعل، أو داعية إلى قول، أو موجبة لقول أو فعل.

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾: غفور: لذنوب أهل الإيمان من عباده، (رحيم) بهم، أن يعاقبهم بعد توبتهم منها. [1]. فدل على وجوب التوبة، لنيل مغفرته تعالى، والفوز برحمته سبحانه.

---

(1) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج /٦٣

وإن هذه لآية باهرة، تأخذ الألباب أخذا! ولأنها أشاعت معاني التفاؤل، ومن خلال ما خيم عليها من ألفاظ موحية به، ومن مثل: حلالا، طيبا، واتقوا، غفور، رحيم!

مسألة فداء الأسرى يوم بدر: عن عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما: فادى نبينا صلى الله عليه وسلم أُسارَى بَدْرٍ، وكان فِداءُ كلِّ واحدٍ منهم أربعةَ آلافٍ[1].

وقيل إن افتداءهم كان ما بين أربعمائة درهم إلى أربعة آلاف درهم، كما جاءعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة، وهذا كان أقل ما فودي به أحد منهم من المال، وأكثر ما فودي به الرجل منهم أربعة آلاف درهم[2].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الأنفال: 70]. وهذه دلالات رحمة ربنا تعالى، وحتى حين إنزال العقوبة!

ومنه فإنه لا ينسينك تنفيذ عقابك، خروجا بك عن إحسانك.

ونزلت هذه الآية الكريمة في العباس بن عبد المطلب، عم نبينا صلى الله عليه وسلم، ولما فدى نفسه بأربعين أوقية ذهبا، فأبدله تعالى بها أربعين عبدا يتجرون له!

---

(1) المعجم الأوسط الطبراني: 229/3. حكم المحدث: لم يروه عن عثمان الجزري إلا معمر.

(2) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ /٤٦١

﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾: حين رزق الله العباس أربعين عبدا ويتجرون كلهم له، ثم قال: وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه[1].

وهذا إعجاز القرآن العظيم، وحين استشرف فألا حسنا، وقد تحقق للعباس برزقه أربعين عبدا بعد أسره.

بيد أن مسألة حام حولها قوم وذلك أن العباس عم نبينا صلى الله عليه وسلم كان قد فك وثاقه بعد إذ كان أسيرا، وثار التساؤل عن كيف كان ذلك وهل لأنه عمه صلى الله عليه وسلم؟

والجواب أنه ولئن كان قد فك أسره، وإنما لأنه صلى الله عليه وسلم كان قد أخذ بمشورة الصديق أبي بكر، بفك أسارى بدر، على أن يفتدي كل راغب في فك وثاقه أن يدفع فداءه، وبالتالي كان هذا الذي عومل به العباس حينها، وليس يغير من الحكم من شيء، وأنه تعالى قد أنزل في كتابه القرآن الكريم، عتابا له صلى الله عليه وسلم، وذلك حين قال تعالى﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال: 69].وذلك أنه تعالى كان قد أحل لهم الأكل مما غنموا أو افتدوا، وكانت هذه توبة منه تعالى، على ألا يعودوا، ولأمره تعالى لهم بالتقوى، ومن مقتضى التوبة عموما هو الإقلاع عن الذنب، وكان منه ذلك.

وأخرج العيني: أن عمرَ رضِيَ اللهُ تعالَى عنه لما ولِيَ وثاقَ الأسرَى شدُّوا وثاقَ العباسِ فسمعه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يئِنُّ فلم يأخذْه النومُ فبلغ الأنصارَ فأطلقوا العباسَ فكان الأنصارُ لما فهموا رضا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

(1) المرجع السابق: ج ٢ / ٤٦٢

وسلَّمَ بفكِّ وِثاقِه سألوه أن يتركوا له الفداءَ طلبًا لتمامِ رضاه فلم يُجبْهم إلى ذلك[1].

«سمعت أنين عمي العباس في وثاقه»:[2]. هذه مشاعر نبي، وهذه أحاسيس رسول، تنبئ عن رحمة، وتكشف عن رأفة، سبيلا للسالكين، ودليلا للفالحين.

وهذا هو تعبير نبينا صلى الله عليه وسلم، وحين أسر عمه العباس بن عبد المطلب، وليس في قاموس تعبيراتنا ما يؤوله، ولأنه إحساس عبر عنه قوله!

وهذا سر أمر القرآن بإنذار العشيرة الأقربين، كما قال تعالى﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]. لأنها صلات توجب محبة وحرصا وإلفا، وإذ لا تعرفها عكوسها ولا نقائضها على الوجه الآخر.

إنه لا أحد وفضلا عن نبينا صلى الله عليه وسلم، لا يلام على شفقة تمليها وشائج القربى، وتوجها روابط الدم، ولأنها رسائل فطرة منسابة، ورحم رقراقة وثابة.

إن الكفر والإيمان لايتأبيان توجيه علائق القربى، وتنظيم وشائج الدم، من حيث هكذا مشاعر رحمة، وأحاسيس أرحام.

إن هذه المشاعر الرحيمية لم تمنعه صلى الله عليه وسلم من فداء عمه؛ ولأن الحق عال فوق هامات الناس أجمعين.

---

(1) عمدة القاري، العيني: 155/17. حكم المحدث: مرسل.

(2) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ٤٦٢

وهذه رقة قلب، تأطر قلبا شفيقا، وبحيث لا تحق باطلا، ولاتبطل حقا، برهان أنه صلى الله عليه وسلم أخذ فداء عمه، وقبل أسره من قبل!

المبحث السادس والأربعون: فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل

عن عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان الَّذي أَسَرَ العبَّاسَ بنَ عبدِ المُطَّلِبِ أبو اليَسَرِ بنَ عَمرٍو - وهو كعبُ بنُ عمرٍو، أحدُ بني سلِمةَ -، فقال له رسولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم: كيف أَسَرْتَه يا أبا اليَسَرِ؟ قال: لقد أعانَني عليه رَجُلٌ ما رأيْتُه بَعدُ ولا قَبْلُ، هَيْئتُه كذا، هَيْئتُه كذا. قال: فقال رسولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليه وسلَّم: لقد أعانَكَ عليه ملَكٌ كريمٌ. وقال للعبَّاسِ: يا عبَّاسُ، افْدِ نفْسَكَ، وابنَ أخيكَ عَقيلَ بنَ أبي طالبٍ، ونَوفلَ بنَ الحارثِ، وحليفَكَ عُتبةَ بنَ جَحْدَمٍ - أحدَ بني الحارثِ بنِ فِهْرٍ -. قال: فأَبَى، وقال: إنِّي قد كنتُ مُسْلِمًا قَبلَ ذلكَ، وإنَّما استَكرَهوني. قال: اللّهُ أَعلَمُ بشأنِكَ، إنْ يَكُ ما تَدَّعي حقًّا، فاللّهُ يَجزيكَ بذلكَ، وأمَّا ظاهرُ أمْرِكَ فقد كان علينا، فافْدِ نفْسَكَ. وكان رسولُ اللّهِ قد أخَذَ منه عِشرين أُوقيَّةَ ذهبٍ، فقال: يا رسولَ اللّهِ، احسِبْها لي مِن فِدايَ، قال: لا، ذاكَ شيءٌ أعطاناهُ اللّهُ منكَ، قال: فإنَّه ليس لي مالٌ، قال: فأين المالُ الَّذي وضعْتَه بمكَّةَ حيث خرَجْتَ عِندَ أُمِّ الفضلِ وليس معكُما أحدٌ غيرُكُما؟ فقُلْتَ: إنْ أُصِبْتَ في سفري هذا فلِلْفَضْلِ كذا، ولِقُثَمَ كذا، ولعبدِ اللّهِ كذا؟ قال: فوالَّذي بعثَكَ بالحقِّ ما عَلِمَ بهذا أحدٌ مِنَ النَّاسِ غيري وغيرُها، وإنِّي لأَعلَمُ أنَّكَ رسولُ اللّهِ[1].

---

(1) مسند أحمد، أحمد شاكر: 105/5. حكم المحدث: إسناده ضعيف.

قولـه: فـأين المال الـذي دفنتـه أنـت وأم الفضـل وقلـت لهـا: إن أصبـت في سـفري فهـذا لبني الفضـل وعبـد الله وقـثم. وهـذا علـم نبـوة آخـر ضـاف، ولأنـه لـم يعلم بهذا المال إلا العباس وزوجه أم الفضل!

وقولـه: فوالَّـذي بعثَـكَ بـالحقِّ ما عَلِمَ بهـذا أحـدٌ مِـنَ النَّـاسِ غيري وغيرُهـا، وإنِّي لأَعلَمُ أنَّكَ رسولُ اللهِ. وهكذا يتأيد دعاة الهدى من ربهم، كما قد تأيد الأنبياء من قبلهم، حجة دامغة، وحكمة بالغة.

قـال نبينـا صـلى الله عليـه وسـلم لعمـه العبـاس حـين ادعى إسـلامه قبـل أسره: إنْ يَكُ ما تَدَّعي حقًّا، فاللهُ يَجزيكَ بذلكَ، وأمَّا ظاهرُ أمْرِكَ فقد كان علينا. وفيه أن من عمل تحت راية قوم يأخذ حكمهم.

عن أنس بن مالك: أنَّ رِجَالًا مِنَ الأنْصَارِ اسْتَأْذَنُوا رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالوا: ائْذَنْ لَنَا، فَلْنَتْرُكْ لِابْنِ أُخْتِنَا عَبَّاسٍ فِدَاءَهُ، فَقَالَ: لا تَدَعُونَ منه دِرْهَمًا[1].

إن وشائج القربى شيء، وإن إحقاق الحق في مواجهة الباطل شيء آخر.

عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما: أُتِيَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَقالَ: انْثُرُوهُ في المَسْجِدِ وكانَ أكْثَرَ مَالٍ أُتِيَ به رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَخَرَجَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الصَّلَاةِ ولَمْ يَلْتَفِتْ إلَيْهِ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ جَاءَ فَجَلَسَ إلَيْهِ، فَما كانَ يَرَى أحَدًا إلَّا أعْطَاهُ، إذْ جَاءَهُ العَبَّاسُ، فَقالَ يا رَسولَ اللَّهِ: أعْطِنِي، فإنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وفَادَيْتُ عَقِيلًا، فَقالَ له رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: خُذْ فَحَثَا في ثَوْبِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ،

---

(1) صحيح البخاري : 2537

فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، اؤْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ إلَيَّ، قالَ: لا قالَ: فَارْفَعْهُ أنْتَ عَلَيَّ، قالَ: لا فَنَثَرَ منه، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ، فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، اؤْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ عَلَيَّ، قالَ: لا قالَ: فَارْفَعْهُ أنْتَ عَلَيَّ، قالَ: لا فَنَثَرَ منه، ثُمَّ احْتَمَلَهُ، فألْقَاهُ علَى كَاهِلِهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ، فَما زَالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ حتَّى خَفِيَ عَلَيْنَا - عَجَبًا مِن حِرْصِهِ - فَما قَامَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وثَمَّ منها دِرْهَمٌ. [1]

المبحث السابع والأربعون: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 71].

هذه صورة حية من وقائع يوم بدر، وإنها لتحكي لنا تصويرا عظيما لحال الناس، وحين تأخذهم جهالتهم أن ربهم ليس محيطا بهم، وأنه تعالى يعلم سرهم ونجواهم! وكما قال تعالى﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: 80].

وإنما عالجت هذه الصورة ذلك الذي ادعاه العباس أنه أسلم يوم أسر في بدر، وإنما كان هذا رد القرآن، دحضا لزعمه، وفضحا لأمره! وكيما يكون عظة لغيره وعبرة، على مدار السنين، وسائر الأزمان.

إن إدعاء العباس ومن شاكله إسلامهم يوم أسرهم في بدر إنما كان زعما لا ينطلي، وحين رده القرآن، ومنسحبا على أصل كفرهم في مكة، ولاجديد يميط أذاهم، ليرفع عنهم وصمة كذبهم على الله وخيانتهم له تعالى ولأنما اتخذوا من دونه أولياء لا وليا واحدا، إمعانا في كفرهم وجحودهم وتكذيبهم.

---

[1] صحيح البخاري : 421

إن القرآن بهكذا تنزيل كريم قد فضح زعم العباس إسلامه يوم بدر، ولفك وثاقه، ودون فدائه! وعلى حين كان يجهل قرة ربه الجبار وأنه سيظهر كيد نفسه التي بين جنبيه!

وإنما نزل القرآن على نحو ما سبق، معتبرا ذلك خيانة العباس لنبينا صلى الله عليه وسلم، وفي ذات الوقت كانت تسلية له صلى الله عليه وسلم، ولأنه ولئن أرادوا خيانتك فقد سبقت خيانتهم لله من قبل، وبه يرتفع إشكال نفسي قد رأينا ظلاله، من خلال الصورة المعبرة، التي حكاها القرآن المجيد، ومن خلال هذه الآية الكريمة.

وهذا دليل قياس القرآن، والمقيس هو خيانة الرسول صلى الله عليه وسلم، والمقيس عليه هو خيانة الله تعالى، والعلة هي الكفر به سبحانه. وهذه مسألة أصولية لها مكانها في بابها، لكني أشرت إليها، ومن طرف، وكيما تكون عالقة في الأذهان، وأنه هذا هو القرآن الحمال أوجها وصورا وتعبيرات وأصولا وقواعد وأحكاما!

وإرادة الخيانة خيانة! ولقياس القرآن إرادة خيانة نبينا صلى الله عليه وسلم على خيانته تعالى، ولأنها جرت قولا. وحين ادعى إسلامه ومن كان على شاكلته.

وفيه أن من كذب على الله تعالى فهو على غيره أكذب، ومن خان الله تعالى فهو لغيره أخون. وليكون الصلح مع الله أولا.

وإن كفرا به تعالى خيانة له، ولأن كافرا مؤتمن على وديعة فطرة إيمان فيه، وإضاعتها خيانة، وهذه من كنايات الذكر الحكيم القرآن العظيم.

وجاء سبق فعل الشرط(يريدوا) ب(إنْ)، لا لإفادة الشك، على أصلها، بل تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم، وتسرية عنه فعل قومه به، وهذه وقفة من وقفات بلاغة قرآننا!

وجاء جواب الشرط(خانوا) مقترنا بفاء العاقبة، برهان تتابع القوم على خيانتهم، ولحذر تلبس بداء كان مزمنا فيهم.

واقترن جواب الشرط ب(قد)، برهان تحقيق أفاد توكيدا، خيم على النص غيم شؤم الكفر، وكونه خيانة لله.

واعتبار الكفر خيانة أفاد تجسيمه، تنفيرا عن صورة تشمئز منها القلوب الندية، وتدبر عنها النفوس الزكية!

وإن نسبة الإمكان إليه تعالى، برهان نسبة الحوادث إليه تعالى على الحقيقة، وإن غيرُه إلا سببٌ.

وإن إمكانه تعالى ممن كفر، سنة ماضية، خذلانا، وانهزاما، وضيق نفس، وحشرجة صدر، وحرمان أمن.

ولأنهم كانوا سريعا خانوا الله تعالى، فإنهم أيضا سريعا قد أمكن الله منهم، ولأن الجزاء من جنس العمل!

وكان الإمكان منهم هو أسرهم، فأعرض القرآن عنه، دلالة أن الأسر موثق مهين مذل.

ولأنهم لم يقدروه تعالى قدره ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر: 67].

المبحث الثامن والأربعون: في مسألة الغنائم يوم بدر

(2)

اختلف الصحابة رضي الله تعالى عنهم في المغانم يوم بدر، لكن هذا لم يمنع حقا لأخ على أخيه، ولم يغمط بسببه أخ أخاه، دينا ألف بينهم، وإسلاما جمع شملهم .

وإذ كان الأصحاب في بدر ثلاثة أقسام:

1- قسم كان حارسا لنبينا صلى الله عليه وسلم.

2- وقسم كان في الميدان، فيقتل أو يأسر.

3- و قسم كان يجمع المغانم.

ورأى كل فريق أحقيته في المغانم دون الآخر، ومن باب عمله الذي كان منوطا به.

وإنما أنزل الله تعالى فرقانا، فحكم بقسمتها سويا، ولأن كل فريق ما كانت لتقوم معركة من دونه، جنبا إلى جنب إلى الفريق الآخر.

ففي حديث عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه: سَأَلْتُ عُبادَةَ بنَ الصَّامتِ عن الأنفالِ، فقال: فينا مَعشَرَ أصحابِ بَدرٍ نَزَلَتْ حين اختَلَفْنا في النَّفَلِ، وساءتْ فيه أخلاقُنا، فنَزَعَه اللهُ مِن أيدينا، فجَعَلَه إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقَسَمَه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فينا عن بَواءٍ، يقولُ: على السَّواءِ.[1].

(1) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: 22753. حكم المحدث: حسن لغيره.

وإذ نزلت سورة الأنفال مبينة توزيع الأنفال، وبعد اختلاف الأصحاب فيها، حتى ساءت بسببه أخلاقهم، فنزعه الله منهم، وهذا شؤم الاختلاف، سببا لنزع الخير، وحلول ما موجبه سوء خلق، لطالما وقف الإسلام منه موقفا حازما.

وإذ كان نزول سورة الأنفال رحمة منه تعالى، وكيما لا يُعَضَّ على الدنيا، فتهلِك عاضا عليها، كما قد أهلكت الذين خلوا من قبل، وحين كانت لهم هما وشغلا.

وحين نزلت الأنفال مبينة توزيعها قسطاسا مستقيما، أوقف الله تعالى به شرا مستطيرا، كاد يحيق بأصحاب العدنان، ومقاتلي الميدان، وأهل الإيمان.

وإذ حسن وضع اختلافهم في الغنائم موضعا حسنا، وذلك لأنهم أولاء هم الذين هاجروا وتركوا الديار والأموال في مكة، حسبة لله تعالى، وما كان من أولاء إخوانهم الأنصار أيضا، والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم، وإذ ناصفوا إخوانهم أموالهم وأهليهم، إيثارا، ما جاد التاريخ بمثله! ومن هنا فإن ما حدث في شأن الغنائم، يوم بدر، ليوضع في نصابه جنبا إلى جنب مع هؤلاء جيلٍ، سبق وصف جانب من مناقبهم وحسبنا!

ولهذا السبب فإنه سرعان ما يتنزل قرآن، ترجع معه الفئة المؤمنة أوَّابَةً تَوَّابَةً، وإذ كان من وصفها ما حكاه ربنا سبحانه بقوله﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: 2- 4].

ولعلك ناظر بعينيك أنه لم يرد في الآية ذكر للدنيا ولا غنائمها ولا نفلها، ما يردهم ربهم الرحمن إلى الأصل الذي آمنوا فيه، وحين تواءم تماما مع قول أحدهم ولما أعطاه نبينا صلى الله عليه وسلم فيئه سهمه: ما على هذا اتَّبعتُكَ!

فعن شداد بن الهاد: أنَّ رجلًا مِنَ الأعرابِ جاءَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فآمَنَ بِهِ واتَّبعَهُ وقالَ: أُهاجرُ معَكَ فأوصى بِهِ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ بعضَ أصحابِهِ فلمَّا كانَت غزوةٌ، غنِمَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فيها أشياءَ، فقَسمَ وقسمَ لَهُ فأعطَى أصحابَهُ ما قَسَمَ لَهُ وَكانَ يرعى ظَهْرَهُم . فلمَّا جاءَ دفَعوا إليهِ فقالَ: ما هذا ؟ قالوا: قَسْمٌ قَسمَهُ لَكَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ . فأخذَهُ فجاءَ بِهِ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ: يا مُحمَّدُ، ما هذا ؟ قالَ: قَسمتُهُ لَكَ . قالَ: ما على هذا اتَّبعتُكَ، ولَكِنِّي اتَّبعتُكَ على أن أُرمَى هاهُنا وأشارَ إلى حلقِهِ بسَهْمٍ فأموتَ وأدخلَ الجنَّةَ . فقالَ: إن تَصدُقِ اللَّهَ يَصدُقْكَ فلبثوا قليلًا، ثمَّ نَهَضوا إلى العدوِّ، فأُتِيَ بِهِ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ يُحمَلُ، قد أصابَهُ سَهْمٌ حيثُ أشارَ. فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: أَهوَ هوَ ؟ قالوا: نعَم قالَ: صدقَ اللَّهَ فصدقَهُ وَكَفَّنَهُ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ في جُبَّةٍ، ثمَّ قدَّمَهُ فصلَّى عليهِ . فكانَ مِمَّا ظَهَرَ مِن صلاتِهِ عليهِ: اللَّهمَّ إنَّ هذا عَبدُكَ، خرجَ مُهاجرًا في سبيلِكَ، فقُتلَ شَهيدًا، أَنا شَهيدٌ علَيهِ. [1].

هذا، علاوة على أن الآية التي بين أيدينا الآن، وإن لم تأت على ذكر الدنيا أو أموالها، لا مدحا ولا ذما، وإنما قد أمعنت في تحويل دفة الطلب إلى شراع

---

(1) نخب الافكار، العيني: 400/7. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

البذل والإنفاق! وحين قال تعالى﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وليعرفوا أن هذه هي منزلتهم عند ربهم منفقين باذلين، لا آخذين مستشرفين!

وكان نزول الأنفال أجرا حسنا، ولما علم تعالى دبيب ما يعوق قلوبا مؤمنة، فنزعه منها صقل إيمانهم، وإرجاعهم، وتثبيتهم، فلا يجعلونها هما موبقا.

وإذ قال الله تعالى﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: 1]. هكذا يرد الأمر إليه تعالى وحده، راحةَ نفسٍ، وأُلفةَ قلبٍ، ونزعَ فتيلِ ما سببه زعزعة الصف، وخِلال فيه.

ومن حيث تضمنت هذه الآية ثلاثة شروط لتحقيق صدق الإيمان وهي:

1 - تحقيق تقوى الله تعالى في السر والعلن.

2 - إصلاح ذات البين ولأن فساد ذات البين يمتد شرره امتداد النار في الهشيم، وكما روى أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال: ألا أخبرُكم بأفضلَ من درجةِ الصِّيامِ والصَّلاةِ والصَّدقةِ قالوا بلى قالَ صلاحُ ذاتِ البينِ فإنَّ فسادَ ذاتِ البينِ هيَ الحالِقةُ. (1)

3 – تحقيق طاعة الله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

هذا، ولست أذهب مذهب قائل بنسخ آية الأنفال الأولى؛ ولأنها تعني إرجاع الأمر إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ورده إليهما، في كيفية توزيع الغنائم، حكما عاما، قسطا بين المسلمين.

(1) صحيح الترمذي، الألباني: 2509

وعليه فإنه يمكن أن يجمع بين آية الأنفال الأولى، نصا في الاحتكام إلى الله تعالى، ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، في الأنفال عامة، وبين آية الأنفال(41)، بيان قسمتها، ومستحقيها، وأنصبائها خاصة. وكما قال تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار عن طريق الحرب والقتال. كمالٍ أو أسرى وسبايا من نساء وأطفال، أو أرض، وسميت أنفالا؛ لأنها زيادة في أموال المسلمين.

وإنما أحل الله تعالى الغنائم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، دون غيرهم، جبرا لخواطرهم، وتقوية لهم من ضعفهم، وإغناء لهم من فقرهم، وإعانة لهم على عدوهم، واستنهاضا لعزائمهم. ولأنها أمة مرابطة. فكان ذلك متضمنا إيجاد مصادر تمويلية دائبة معينة على الجهاد وتبعاته الكثيرة العديدة. وكما أن فيه إذلالا وإثخانا بعيدين غائرين عميقين في قلوب أعداء الله تعالى، وحين يكون حرمانهم من أموالهم وأرضهم وأبنائهم ونسائهم، ولعلهم أيضا يعودون فيتوبون، ولما كان هذا هو مصيرهم المحتوم.

فعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أحَدٌ مِنَ الأنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لي الأرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، وأَيُّما رَجُلٍ مِن أُمَّتي أدْرَكَتْهُ

الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ، وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ كَافَّةً، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ. [1].

وإنما تعطى غنيمة الحرب لمن شهدها، قاتل في الميدان، أو لم يقاتل، كحارس، أو مرابط، أو جامع للغنائم.

وشروطها خمسة: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، والذكورية. فإن اختل شرط، فلا يعطى مغنما، وإنما يُرضِخ الإمام له، أي أنه يعطيه فيمنحه عطاءً.

وتقسم الغنيمة خمسة أخماس، فخُمُسٌ لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ينفق في مصالح المسلمين كالفيء، وأربعة الأخماس للمقاتلين، للراجل سهم، وللفارس ثلاثة أسهم، سهمان اثنان لفرسه، وسهم واحد له، ومساواة بأخيه الراجل.

ولعل حدسا قد حدث، وكأنه كان توطئة ربانية منه تعالى، وحين وفق سبحانه الصحابي الكريم عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه يوم سريته، وقبيل يوم بدر بشهرين، أن قسم ما غنمه فيها، وأبقى خمسا لنبينا محمد ﷺ، وهو ما نزل القرآن الكريم مؤيده، وبقوله تعالى﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وكما سبق صحبا كراما، جُعِلَ الحقُّ على ألسنتهم، وجعل العدل في قلوبهم.

---

(1) صحيح البخاري: 438

وظاهر الآية على أن الخمس كان مبدؤه يوم بدر تصريحا وتشريعا، ومنه فإن لهذه الغزوة قصب سبق في بيان أحكام الغنائم والأنفال على النحو السابق بيانه. وهو الذي عليه جمهور أهل العلم.

ومن السنة أيضا، فعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: "كَانَتْ لِي شَارِفٌ مِنْ نَصِيبِي مِنْ الْمَغْنَمِ يَوْمَ بَدْرٍ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَانِي شَارِفًا مِنْ الْخُمُسِ فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَبْتَنِيَ بِفَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاعَدْتُ رَجُلًا صَوَّاغًا مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ أَنْ يَرْتَحِلَ مَعِيَ فَنَأْتِيَ بِإِذْخِرٍ أَرَدْتُ أَنْ أَبِيعَهُ الصَّوَّاغِينَ وَأَسْتَعِينَ بِهِ فِي وَلِيمَةِ عُرْسِي فَبَيْنَا أَنَا أَجْمَعُ لِشَارِفَيَّ مَتَاعًا مِنْ الْأَقْتَابِ وَالْغَرَائِرِ وَالْحِبَالِ وَشَارِفَايَ مُنَاخَتَانِ إِلَى جَنْبِ حُجْرَةِ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ رَجَعْتُ حِينَ جَمَعْتُ مَا جَمَعْتُ فَإِذَا شَارِفَايَ قَدْ اجْتُبَّ أَسْنِمَتُهُمَا وَبُقِرَتْ خَوَاصِرُهُمَا وَأُخِذَ مِنْ أَكْبَادِهِمَا فَلَمْ أَمْلِكْ عَيْنَيَّ حِينَ رَأَيْتُ ذَلِكَ الْمَنْظَرَ مِنْهُمَا فَقُلْتُ مَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَالُوا فَعَلَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ فِي شَرْبٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَعَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَجْهِي الَّذِي لَقِيتُ فَقَال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَا لَكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ عَدَا حَمْزَةُ عَلَى نَاقَتَيَّ فَأَجَبَّ أَسْنِمَتَهُمَا وَبَقَرَ خَوَاصِرَهُمَا وَهَا هُوَ ذَا فِي بَيْتٍ مَعَهُ شَرْبٌ فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِدَائِهِ فَارْتَدَى ثُمَّ انْطَلَقَ يَمْشِي وَاتَّبَعْتُهُ أَنَا وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ حَتَّى جَاءَ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ حَمْزَةُ فَاسْتَأْذَنَ فَأَذِنُوا لَهُمْ فَإِذَا هُمْ شَرْبٌ فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلُومُ حَمْزَةَ فِيمَا فَعَلَ فَإِذَا حَمْزَةُ قَدْ ثَمِلَ مُحْمَرَّةً عَيْنَاهُ فَنَظَرَ حَمْزَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى رُكْبَتِهِ ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى سُرَّتِهِ ثُمَّ صَعَّدَ النَّظَرَ فَنَظَرَ إِلَى وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ حَمْزَةُ هَلْ

أَنْتُمْ إِلاَّ عَبِيدٌ لِأَبِي فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَدْ ثَمِلَ فَنَكَصَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَقِبَيْهِ الْقَهْقَرَى وَخَرَجْنَا مَعَهُ".[1]

والشاهد: قوله رضي الله تعالى عنه: كَانَتْ لِي شَارِفٌ مِن نَصِيبِي مِنَ المَغْنَمِ يَومَ بَدْرٍ، وكانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أعْطَانِي ممَّا أفَاءَ اللَّهُ عليه مِنَ الخُمُسِ يَومَئذٍ، فدل على العمل بالخُمُسِ من يوم بدر. والجمهور على أن ابتداء فرض الخمس كان بقوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ} الآية.[2].

والشارف هي المسنة من الإبل.

وإنما كان حمزة مسكرا، وقبل نزول تحريم الخمر، ولأنه رضي الله تعالى عنه قتل يوم أحد، وكان تحريمها بعدها، ولأنه ﷺ لم ينكر عليه حينها، ونعرفه من سياق الحديث، وإذ: فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَدْ ثَمِلَ فَنَكَصَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَقِبَيْهِ الْقَهْقَرَى وَخَرَجْنَا مَعَهُ.

وفيه رفع القلم عمن هذا حاله، ومن حيث أتى بعمل غير محرم حينها، وأما بعد فيؤاخذ، ولأنه أتى ما علم من شرعنا أنه محرم بالضرورة، فكان لا يميز بعمله، حتى لايفيد من عمله! فيصير الشرع هوانا.

ويجوز تنفيل بعض المجاهدين، بإعطائهم زيادة على سهمهم، تشجيعا وتحريضا، أو لعمل مميز قام به أحدهم، كإنكاء في عدو، أو بلاء حسن تفرد به.

---

(1) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، كتاب فرض الخمس: 3091

(2) المرجع السابق: 198/6

ويجـوز اختصـاص بعـض المجاهـدين بنفـل - أي زيـادة - وقبـل إخـراج الخمس، لأنه ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار من مغانم بدر، وذلك لما رواه عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تنفَّلَ سيفَه ذا الفَقارِ يومَ بدرٍ، وهو الَّذي رأَى فيه الرُّؤيا يومَ أُحُدٍ.[1]

وكذا تنفل جملا كان لأبي جهل. وذلك يوم بدر أيضا، فعن عبدالله بن عباس أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أهدى في بدنِهِ بعيرًا كان لأبي جهلٍ في أنفِهِ برةٌ مِنْ فضةٍ.[2]

ولما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا». وفيه جواز النفل لبعث همة رجال الوقعة فيثخنون، ولشحذ نفرتهم فيذودون.

و"الأنفال مرجعها إلى حكم الله ورسوله يحكما فيها بما فيه المصلحة للعباد في المعاش والمعاد".[3]

وإذ كانت النساء تداوي جرحى بدر، ولم يُقسَمْ لهن سهمٌ من الغنائم، لكنه رُضِخَ لهن، فأعطاهن جعلا خارج القسمة، وتقديرا لجهودهن، وبذلهن، ورفعا من شأنهن.

فعن يزيد بن هرمز: أنَّ نَجْدَةَ، كَتَبَ إلى ابْنِ عَبَّاسٍ يَسْأَلُهُ، عن خَمْسِ خِلَالٍ، فَقالَ ابنُ عَبَّاسٍ: لَوْلَا أَنْ أَكْتُمَ عِلْمًا ما كَتَبْتُ إلَيْهِ، كَتَبَ إلَيْهِ نَجْدَةُ: أَمَّا بَعْدُ، فأخْبِرْنِي هلْ كانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يَغْزُو بالنِّسَاءِ؟ وَهلْ كانَ

---

(1) العلل الكبير، البخاري: 258

(2) أحاديث معلة، الوادعي: 224. حكم المحدث: معل.

(3) البداية والنهاية، ابن كثير، ج ٣ / ٣٦٩

يَضْرِبُ لهنَّ بسَهْمٍ؟ وَهلْ كانَ يَقْتُلُ الصِّبْيَانَ؟ وَمَتَى يَنْقَضِي يُتْمُ اليَتِيمِ؟ وَعَنِ الخُمْسِ لِمَن هُوَ؟ فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابنُ عَبَّاسٍ: كَتَبْتَ تَسْأَلُنِي هلْ كانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يَغْزُو بالنِّسَاءِ؟ وَقَدْ كانَ يَغْزُو بهِنَّ، فيُدَاوِينَ الجَرْحَى، وَيُحْذَيْنَ مِنَ الغَنِيمَةِ، وَأَمَّا بسَهْمٍ فَلَمْ يَضْرِبْ لهنَّ، وإنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَقْتُلُ الصِّبْيَانَ، فلا تَقْتُلِ الصِّبْيَانَ، وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي مَتَى يَنْقَضِي يُتْمُ اليَتِيمِ؟ فَلَعَمْرِي، إنَّ الرَّجُلَ لَتَنْبُتُ لِحْيَتُهُ وإنَّه لَضَعِيفُ الأخْذِ لِنَفْسِهِ، ضَعِيفُ العَطَاءِ منها، فَإِذَا أَخَذَ لِنَفْسِهِ مِن صَالِحِ ما يَأْخُذُ النَّاسُ فقَدْ ذَهَبَ عنْه اليُتْمُ، وَكَتَبْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الخُمْسِ لِمَن هُوَ؟ وإنَّا كُنَّا نَقُولُ: هو لَنَا، فأبَى عَلَيْنَا قَوْمُنَا ذَاكَ. وفي روايةٍ: عن يَزِيدَ بنِ هُرْمُزَ، أنَّ نَجْدَةَ كَتَبَ إلى ابْنِ عَبَّاسٍ، يَسْأَلُهُ عن خِلَالٍ... بمِثْلِ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بنِ بلَالٍ. غيْرَ أنَّ في حَديثِ حَاتِمٍ: وإنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَقْتُلُ الصِّبْيَانَ، فلا تَقْتُلِ الصِّبْيَانَ، إلَّا أَنْ تَكُونَ تَعْلَمُ ما عَلِمَ الخَضِرُ مِنَ الصَّبِيِّ الذي قَتَلَ. وَزَادَ إسْحَاقُ في حَديثِهِ، عن حَاتِمٍ، وَتُمَيِّزَ المُؤْمِنَ، فَتَقْتُلَ الكَافِرَ، وَتَدَعَ المُؤْمِنَ.[1].

والشاهد قوله: وَقَدْ كانَ يَغْزُو بهِنَّ، فيُدَاوِينَ الجَرْحَى، وَيُحْذَيْنَ مِنَ الغَنِيمَةِ، وَأَمَّا بسَهْمٍ فَلَمْ يَضْرِبْ لهنَّ، فدل على جواز مداواة النساء جرحى الحروب، كما دل على مسألتنا، وأنهن لم يقسم لهن من الغنيمة، وإن أعطاهن وأحذاهن منها قدْرا مقدورا.

ولست أريد الوقوف على حكمة عدم قسم لهن محددا في الغنائم سواسية مع شقائقهن الرجال، ولأن جهادهن فرع عن أصل، كان الرجال هم

(1) صحيح مسلم: 1812

المكلفون به ابتداء، ولأن ما يمكن قوله إنه ﷺ أعطاهن، ولم يهملهن، وهذا في حد ذاته جبر وتلطف وإكرام، ولعله ﷺ أعطاهن أكثر نصيبا من الرجال، ومن حيث لـم يسـعفنا دليـل حـول ذلـك نعرفـه، ولعـل قـولا منضـافا مقتضـاه؛ وحتى لا يستشرفن خروجا للقتال، فيزاحمن الرجال، على نحو يفتن، أو على شاكلة تخرج بهن عن مصاف الحشمة والحجاب، اللتين لطالما كانت وقارهن وهيبتهن معا. وخاصة عند تباعد الأزمان عن أزمنة الوحي والهدى والنور والصلاح والحبور، وكما قال أنس بن مالك رضي الله تعالى: إنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أعْمالًا، هي أدَقُّ في أعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إنْ كُنَّا لَنَعُدُّها علَى عَهْدِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ المُوبِقاتِ قالَ أبو عبدِ اللَّهِ: يَعْنِي بذلكَ المُهْلِكاتِ [1].

والشاهد: أن تباعد الأزمان مظنة تحللٍ أو تساهلٍ.

المبحث التاسع والأربعون: هذا فن عسكري ألمعي! مكث نبينا ﷺ في بدر ثلاثة أيام بعد نصره فيها

عن أبي طلحة الأنصاري زيد بن سهل: أنَّهُ كانَ إذَا ظَهَرَ علَى قَوْمٍ أقَامَ بالعَرْصَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ [2].

إن مكث نبينا ﷺ في بدر ثلاثة أيام بعد نصره فيها، برهان قوة صامدة، لا تغادر مكانها، تطهيرا له من رجسهم، وإظهار منعة، كيما لايرفعوا رأسا بعدُ!

(1) صحيح البخاري: 6492

(2) صحيح البخاري: 3065

وهو عنوان تمهل، وكيما لايقولوا: ها هو محمد في عجلة من أمرة، خشية انقضاض قريش عليه مرة أخرى، وهذه حنكة عسكرية بامتياز!

وهو عنوان تخطيط محكم، لترتيب مغادرة المكان، وتأمين حركة جنده، وكيما لايؤخذوا على حين غرة من قريش!

ومُكْثُ نبينا ﷺ في بدر ثلاثة أيام وترا، برهان وتره ﷺ في أمره كله، وعنوان حث أن يكون أمرنا كله وترا، صلاة وغيرها، وفيما يمكن أن يكون وترا، ولأنه تعالى وتر يحب الوتر.

عن عبدالله بن عمر: إنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ. قال نافِعٌ: وكان ابنُ عُمَرَ لا يَصنَعُ شَيئًا إلَّا وِتْرًا [1].

وكانت عودته ﷺ من بدر مشهدا مهيبا، وحين اصطحب الأسارى والغنائم، إعلانَ إذلالٍ للخصم، وكذا إعزازا لجيشه معا، فكان توفيقا مبرما محكما بامتياز.

أرسل نبينا ﷺ صحابيين، يبشران المدينة بنصر الله له في بدر، وكيما يخرجوا مهنئين فرحين، ليعم الفرح مجتمع الأمة بأسرها، بحدث كان كيوم بدر سننا وهديا.

ولايفوتنا ذكر أن رقية بنت نبينا ﷺ قد ماتت وهو في معمعة بدر ويوم أن راح وخلف عثمان زوجها معها لتمريضها عنوان مصلحة الأمة العظمى أولا!

---

(1) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: 5880. حكم المحدث: صحيح لغيره.

فلمّا تُوفيت تولّى عثمان دفنها وكان ذلك في اليوم الذي جاء به زيد بن حارثة إلى المدينة حاملاً خبر انتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى [1].

إن نبينا ﷺ كان أبا حليما، وراعيا رؤوفا، لكن هذا لم يمنعه مغادرة ابنته رقية طريحة فراش مرضها، وإذ كانت غزوة بدر أعظم، ولامتزاج حلم وحزم مؤتلفين.

عن عثمان بن عفان: ما لي أراكَ قد جَفَوتَ أميرَ المؤمنينَ عُثمانَ ؟ فقالَ لَهُ عبدالرحمن: أبلِغهُ أنِّي لم أفرَّ يومَ عينينِ، - قالَ عاصمٌ: يقولُ يومَ أُحُدٍ – ولم أتخلق يومَ بدرٍ، ولم أترُكْ سنَّةَ عُمرَ، قالَ: فانطلقَ فخبَّرَ ذلِكَ عثمانَ، فقالَ له أمَّا قولُهُ أنِّي لم أفرَّ يومَ عينينَ، فَكَيفَ يعيِّرُني بذَنبٍ، وقَد عفا اللَّهُ عنهُ، فقالَ: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ، وأمَّا قولُهُ: إنِّي تخلَّفتُ يومَ بدرٍ: فإنِّي كنتُ أمرِّضُ رقيَّةَ بنتَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ حين ماتَت، وقد ضربَ لي رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ بسَهْمي، ومَن ضربَ لَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ بسَهْمِهِ فقد شَهِد، وأمَّا قولُهُ: إنِّي لم أترُكْ سنَّةَ عمرَ: فإنِّي لا أطيقُها ولا هوَ، فأْتِهِ فحدِّثهُ بذلِكَ [2].

وإنما ضرب نبينا ﷺ سهما لعثمان في بدر، برهان جواز إسهام أهل الأعذار، وحين كان تخلفه أجل تمريض زوجه رقية رضي الله تعالى عنهما، وجبرا لخاطر فؤاده، يوم أن واراها التراب.

---

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر: 4/ 1839-1843

(2) الصحيح المسند الوادعي: 935. حكم المحدث: حسن.

وحديث تبسمه ﷺ في الصلاة؛ لمرور جبريل وميكال يحفانه، مرجعه من بدر ضعيف؛ ولتعارضه مع خشوع في الصلاة، كان هدي نبينا ﷺ، ولامصلحة في صحته [1].

بشر عبد الله بن رواحة: يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل المشركين وأسرهم، قتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وقتل زمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو [2].

وفيه جواز التبشير بالنصر وسلامة القائد.

لا تنسلخ الحية من جلدها! ويوم أنكر المنافقون ويهود نصر بدر وقد حكى الأفق نصرهم واحتفلت نجوم السماء بهجة وسرورا لغيظ أعمى أبصارهم.

قال سلمة بن سلامة بن وقش: ما الذي تهنئوننا به؟ والله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعلقة فنحرناها! [3] وفيه جواز الاستخاف بالعدو، وحين نصر مؤزر.

حين هزأ سلمة بن سلامة بن وقش من مشركي بدر، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: أي ابن أخي أولئك الملأ [4]. وفيه إقراره ﷺ على قوله فعلا كبسمة، وقولا كقوله ﷺ.

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير، ج ٢/ ٤٧٠
(2) المرجع السابق: ج ٢/ ٤٧٠
(3) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ /١٥٧
(4) المرجع السابق: ج ٢ /١٥٧

كان قتل عقبة بن أبي معيط آية كبرى؛ ولأنه وضع قدمه على عنق نبينا ﷺ وهو إذ يصلي في مكة وألقى بسلا شاة على رأسه وهو ساجد فأمكن الله منه.

قال: نعم أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقي وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عيني ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي [1].

إن اختصاص عقبة بن أبي معيط بالقتل بعد بدر، كان برهان جواز الإثخان فيمن كان أشد كفرا وأعظم عداوة لله تعالى ولرسوله ﷺ [2]. وحين الإمكان منه.

حين استشكل عقبة بن أبي معيط قتله من بين أسارى بدر فقدم ﷺ عريضة تاريخه المرّ برهان جواز إعلان الخصم بموجبات عقابه قبل تنفيذه.

حين كان يوم قتل عقبة بن أبي معيط أراد التأثير في عواطفه ﷺ فقال: من للصبية يا محمد؟ قال ﷺ: النار! ولأن حكمهم كأبيهم، ولتاريخه المر في الدعوة.

يا معشر قريش علام أقتل من بين من ههنا؟ هذا استشكال عقبة في انفراده بالقتل .قال: على عداوتك الله ورسوله. وهذا رد استشكال الحكم.

ليس يهمنا اسم من قتل عقبة بن أبي معيط أعاصم بن ثابت أم علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما؟ ولخلاف ورد في ذلك بقدر ما يهمنا أن معاديا لله ورسوله قد أمكن منه.

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ٤٧٣

(2) المرجع السابق:: ج ٢ /473].

حديث: «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه». وحين سمعه ﷺ عن أخت النضر بن الحارث وحين قتل من أسارى بدر. ضعيف جدا فلا حجة فيه. ولا حاجة له.

أهدى أبو هند، مولى فروة البياضي لنبينا ﷺ زق - إناء - خمر مملوء حيسا وهو التمر والسويق بالسمن فقبله منه ﷺ ووصى به الأنصار[1] وفيه جواز قبول الهدية وأنها سبب للتآلف، ولأنها سبيل للمودة، ولأنه" كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقْبَلُ الهَدِيَّةَ ويُثِيبُ عَلَيْهَا[2] .

وحين أقبل ﷺ بأسارى بدر فرقهم بين أصحابه، وقال: استوصوا بهم خيرا. وفيه وجوب الإحسان إلى الأسير، ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[الأنعام: 161].

وإذ أوصى نبينا ﷺ بأسارى بدر خيرا، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم طعامهم وشرابهم، وهذا نظام دين جاء بالإحسان خلقا حميدا، وإعمال أمره ﷺ رسولا كريما.

قال مصعب بن عمير لمؤسر أخيه زرارة بن عمير: شديد يك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك. قال: يا أخي هذه وصاتك بي؟ فقال له: إنه أخي دونك. ومنه فإن أخوة الدين أعلى.

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٣ / ٣٧٣

(2) صحيح البخاري: 2585

المبحث الخمسون: تبشير النجاشي بنصر بدر

أن يفرح النجاشي بنصر نبينا ﷺ في بدر، فدل هذا على أنه رجل بلغ الإيمان به مبلغه، وخالط شغاف قلبه، وإذ كان من هناك، من وراء البحار!

إن يهود رأوا بأعين رؤوسهم نصر نبينا ﷺ في بدر، وكذا المنافقون، ولكنهم أنكروا! وذاك النجاشي من مرتفعات وهضاب الحبشة ومنابع نيل مصر يفرح!

إن تاريخا يحكي قصة هذا النجاشي، لحري به أن يستدعى أمام أولاء قوم غرهم جهلهم بتاريخهم، وحين أسلم ملكهم لله، وكان قلبه صافيا لمولاه!

حين دخل جعفر بن أبي طالب وأصحابه على النجاشي، وكان مرتديا ثيابا خلقا مفترشا الأرض! وما كان لمثله إلا أن يسلم وجهه لله، وقد كان غير عابئ بأزياء الملوك.

وإذ بشر النجاشي جعفرا وصحبه بنصر نبينا ﷺ في بدر، ومن خلال عين له هناك. وفيه قِدَمُ عمل جهاز الاستخبارات، وأهميته في اتخاذ القرارات، للأمم والجماعات.

إنه وحين يبشر النجاشي بنصر نبينا ﷺ في بدر، فدل ذلك على سلامة قلب رجل ولم ير محمدا ﷺ، أسوة لذوي قرابته، أن يستعيدوا مجد ملكهم من قبل!

إن مشكاة واحدة لعيسى ومحمد عليهما السلام، وحين كان النجاشي حكيما من حكمة عيسى، ولما افترش التراب شكرا لله على نصره نبيه محمدا ﷺ !

قال النجاشي وحين سأله جعفر عن لبسه ثيابا خلقة وعن جلوسه فوق التراب!: إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى: إن حقا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعا عند ما يحدث لهم من نعمة، فلما أحدث الله لي نصر نبيه ﷺ - في بدر- أحدثت له هذا التواضع! [1] .

وكان حقا على مسلم أن يفرح لنصر المسلمين، فرادى أو جماعات، إن شرقا وإن غربا، ولأن أخوة الإسلام لا تعرف أرضا بعينها أو سماء بذاتها!

المبحث الواحد والخمسون: وصول خبر مصاب أهل بدر إلى أهاليهم بمكة

قال أبو سفيان: والله ما هو إلا أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا [2].

وهكذا ينصر الله تعالى عبيده، ويوم أن يكونوا كما كانوا ينصرون، وحالهم أنهم على الجادة.

قال أبو رافع: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة فثاورته فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك علي يضربني وكنت رجلا ضعيفا فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلقت في رأسه شجة منكرة وقالت تستضعفه إن غاب عنه سيده فقام موليا ذليلا فوالله ما

---

(1) الشكر لله، ابن أبي الدنيا: ١٣١

(2) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٤ / ٧٣

عاش الا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتله فلقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثا ما يدفنانه حتى أنتن في بيته [1].

واستقواء أبي لهب على ضعيف، كأبي رافع، ليس مروءة وكانوا يزعمونها!

وأن تقوم امرأة كأم الفضل منتقمة مذلة ضاربة مهينة أبا لهب وحين استقوى على عبد فتلك آية أخرى ألا تستقو فيستقوي عليك دينا مقضيا!

وإذ كان موت أبي لهب آية موجبة قشعريرة، وحين تركه ذووه ثلاثا حتى أنتن، خشية انتقال عدوى داء عضال كان قد مات به، وهكذا يذكرها التاريخ غير مرة، فهل من مدكر؟!

أشعر أسير بدر سهيل بن عمرو ذما في نبينا ﷺ فطلب الفاروق أن ينزع ثنيته فلا يقوم خطيبا أبدا فقال ﷺ: لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيا!

لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيا هذا حديث ضعيف لكنه في مواجهة أصل: أنّه ﷺ نَهَى عن النُّهْبَةِ،والْمُثْلَة [2].

فدل على حرمة التمثيل كأصل إلا أن يمثل عدونا بنا فنرده بتمثيل مثله.

ولقوله تعالى ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: : 194].

---

(1) المرجع السابق: ج ٤ / ٧4

(2) صحيح البخاري: 2474

وقوله صلى الله عليه وسلم: اغزوا على اسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا. هذه أخلاقنا في جهادنا.

حين أراد الفاروق تمثيلا بسهيل بن عمرو نهاه نبينا ﷺ ثم قال: إنه عسى أن يقوم مقاما لا تذمه. علم نبوة آخر، لأن سهيلا أسلم فثبت وارتد آخرون.

قول أبي لهب حين أراد على ولده ربيعة تطليق رقية بنت نبينا ﷺ: أشغلوا محمدا بنفسه! حربا نفسية نفيدها في رد كيد أعدائنا إشغالهم بأنفسهم ومن كل حدب فيفقدون توازنهم.

المبحث الثاني والخمسون: بعث قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فداء أسراهم

روى ابن سعد والحاكم بإسناديهما إلى عائشة رضي الله عنها: (أن أبا العاص بن الربيع كان فيمن شهد بدراً مع المشركين فأسره عبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري. فلما بعث أهل مكة في فداء أسراهم قدم في فداء أبي العاص أخوه عمر بن الربيع وبعثت معه زينب بنت رسول الله، وهي يومئذ بمكة، بقلادة لها كانت لخديجة بنت خويلد من جزع ظفار، وظفار جبل باليمن وكانت خديجة بنت خويلد أدخلتها بتلك القلادة على أبي العاص بن الربيع حين بنى بها، فبعثت بها في فداء زوجها أبي العاص، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، القلادة عرفها ورق لها وذكر خديجة وترحم عليها وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا إليها متاعها فعلتم. قالوا: نعم يا رسول الله فأطلقوا أبا العاص بن الربيع

وردوا على زينب قلادتها وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم على أبي العاص أن يخلي سبيلها إليه فوعده ذلك ففعل) [1] .

وإذ أخذ نبينا ﷺ عهدا على أبي العاص بن الربيع، زوج ابنته زينب رضي الله تعالى عنها، أن يسمح لها بالهجرة إلى المدينة، مقابل إطلاق سراحه من أسرى بدر، وهذه مفاوضات نافعة، يتوصل منها إلى مصالح لكلا طرفي المنازعة.

كان أبو عزة محتاجا ذا بنات فطالب نبينا ﷺ أن يمن عليه بإطلاق سراحه فمنَّ عليه ﷺ وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدا [2] وهذه مفاوضات نافعة أيضا، ولان عدم الظاهرة على نبينا ﷺ مصلحة لجانب الدعوة، مقابل إطلاق سراح ابي عزة ولأنه فقير لا مال له، وذو بنات ضعيفات.

إلا أنه وما أن منّ نبينا ﷺ على أبي عزة يوم بدر، فأطلق سراحه، شرط ألا يعود، إلا أنه خان عهده يوم أحد فظاهر هو بنفسه على نبينا ﷺ، ثم طلب العفو، فقتله ﷺ، وهذه حكمة، وأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين! وكيما لا يطَّاول بخداع مرة ثانية، وكيما يكون عبرة لاغيار مثله، وهذا من أسباب تشديد العقوبة.

إن العود إلى الجريمة في القانون الوضعي من أسباب تشديد العقوبة، وكان هذا ما حدث مع أبي عزة، وحين أخلف وعده مع نبينا ﷺ في بدر فقتله في أحد!

---

(1) رواه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (31/8)، والحاكم (366/3). وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(2) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج / ٤٨٤

إسرار عمير بن وهب وصفوان بن أمية قتل نبينا ﷺ

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة، قال: جلس عمير بن وهب الجمحي صر صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش بيسير، وهو في الحجر وكان عمير شيطاناً من شياطين قريش، وكان يؤذي رسول الله وأصحابه، وكان ابنه وهيب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: والله إن ليس في العيش خير بعدهم، فقال له عمير: صدقت والله أما والله لولا دين علي ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهن الضيعة لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة ابني أسير في أيديهم.

فقال صفوان: فعلي دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أسوتهم ما بقوا، قال عمير: فاكتم عني شأني وشأنك، قال افعل.

ثم إن عميراً أمر بسيف فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فرآه عمر قد أناخ بعيره على باب المسجد متوشحاً السيف، فقال: هذا عدو الله عمير ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير، قد جاء متوشحاً، قال: فأدخله علي.

قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر، أدن، يا عمير، فدنا ثم قال: أنعموا صباحاً، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قد أكرمنا الله بتحية خيراً من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة، ما جاء بك يا عمير" ؟ قال: جئت لفداء الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف في عنقك قال: قبحها الله

من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً، قال: أصدقني بالذي جئت له، قال: ما جئت له، قال: ما جئت إلا لذلك، قال: بلى، قعدت أنت وصاحبك صفوان بن أمية في الحجر، فذكرت ما أصاب أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي وعلي عيال لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله عز وجل حائل بيني وبينك.

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا نكذبك، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق. ثم تشهد شهادة الحق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا له أسيره.

ففعلوا، ثم قال يا رسول الله، إني كنت جاهداً في إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعل الله أن يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم.

فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلحق بمكة، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول لقريش: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر. وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً، فلما قدم مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه، فأسلم على يديه ناس كثير[1]

(1) المنتظم، ابن الجوزي: 1/304،305

وإذ أسرَّ عمير بن وهب وصفوان بن أمية قتل نبينا ﷺ، فحدثه ﷺ بأمره، وتحمل صفوان دينه وعياله، فأسلم عمير، ولأنه لم يسمع أحد غيرهما ما أضمراه. وهذا علم نبوة آخر لنبينا ﷺ.

حين أسلم عمير بن وهب فقال نبينا ﷺ: فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن وأطلقوا أسيره، ففعلوا. وهذه وسائل تحفيز نفيدها أمرنا كله. وكما أن فيه فضل الفقه في الدين، ولأنه سبيل إنذار الأقوام، حين رجعوا إليهم، وكما قال تعالى وتعلم القرآن الحكيم. ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[التوبة: 122].

ورد الله تعالى كيد صفوان بن أمية، وحين استمهل قريشا، ريثما يأتيها خبر قتله ﷺ، على يد عمير بن وهب، لتأتيه صاعقة السماء بإسلام عمير، وليحلف على إثرها ألا يكلمه، لا كلمه!

وكان من أمر عمير بن وهب، أن رجع إلى مكة، بوجه غير الذي راح به، يدعوهم إلى الله تعالى مولاهم الحق، فنفع الله به نفعا كثيرا، وهذه بركات التوبة والإقلاع، وهذه نفحات الأوبة والامتناع.

وسبحان من أبدل عمير بن وهب بعمير بن وهب آخر، وحين كان صنديدا يوم بدر، وهاله تولي إبليس في صورة سراقة! ولأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء! وكما روى عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِن أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ

وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ[1].

نزلت سورة الأنفال تعالج يوم بدر، دلالة أهمية هذه الغزوة في تاريخنا، وتأصيلا لقانون غنائم الحرب في ديننا، معينا يهتدي به حيارى الزمان، وكل زمان آخر.

كان من فضله تعالى معالجة يوم بدر لنمرَّ على سورة الانفال وإذ إن حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفا، لينال قارئها ولا محالة اثنتين وخمسين ألفا وتسع مائة وأربعين حسنة! وعدا من الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

المبحث الثالث والخمسون: الفردوس الأعلى لأهل بدر!

انتهت غزوة بدر بتتويج من حضرها تاج الفردوس الأعلى من الجنة، وهو وسام ربنا الرحمن لمن جاهد في الله حق جهاده، ولأنه اجتباه لذلكم فضل.

ودلنا على ذلك حديث أم حارثة بن سراقة بن مالك. فعن أنس بن مالك: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَومَ بَدْرٍ وهو غُلَامٌ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ، قدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي، فإنْ يَكُ في الجَنَّةِ أصْبِرْ

(1) صحيح مسلم: 2654

وأَحْتَسِبْ، وإنْ تَكُنِ الأُخْرَى تَرَى ما أصْنَعُ؟ فَقالَ: ويْحَكِ، أوَهَبِلْتِ، أوَجَنَّةٌ واحِدَةٌ هي؟ إنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وإنَّه لَفِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ[1].

وإذا كان حارثة بن سراقة قد توسم الفردوس، ولم يكن في حومة الوغى، بل كان من النظارة من بعيد، وإنما أصابه سهم، وإذ يشرب من الحوض فما بالك بغيره وممن كان في بحبوحة القتال؟

وإنه ليدلنا على موجب استحقاق أهل بدر الفردوس، وحين ننظر أنهم كانوا ثلاث مائة وأربعة عشر، مجابهةَ ألفٍ مدججين، فدل على أن أجرهم كان على قدر عملهم بذلا.

وإذ كان درسا بليغا، وحين نصر الله تعالى ثلاث مائة وأربعة عشر، يوم بدر، على ألف! وإنّه ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾، وأن إيمانهم كان هو عتادهم وعددهم، زادا ومنعة.

وكان درسا بليغا آخر، أن الفردوس كانت مهر أهل بدر، وإذ لم يسألوها! أما سواهم ممن هم أمثالنا، فإنهم مأمورون بسؤاله تعالى إياها، وفارق بين الفرقتين عظيم!

عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: بَعَثَنِي رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَا والزُّبَيْرَ والمِقْدَادَ، فَقالَ: انْطَلِقُوا حتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فإنَّ بهَا ظَعِينَةً معهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ منها فَذَهَبْنَا تَعَادَى بنَا خَيْلُنَا حتَّى أتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا: أخْرِجِي الكِتَابَ، فَقالَتْ: ما مَعِي مِن كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فأخْرَجَتْهُ مِن عِقَاصِهَا، فأتَيْنَا به النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه

(1) صحيح البخاري: 6550

وسلَّمَ، فَإِذَا فيه مِن حَاطِبِ بنِ أبِي بَلْتَعَةَ إلى أُنَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ مِمَّنْ بمَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ ببَعْضِ أمْرِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما هذا يا حَاطِبُ؟ قالَ: لا تَعْجَلْ عَلَيَّ يا رَسولَ اللَّهِ، إنِّي كُنْتُ امْرَأً مِن قُرَيْشٍ، ولَمْ أكُنْ مِن أنْفُسِهِمْ، وكانَ مَن معكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لهمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بهَا أهْلِيهِمْ وأَمْوَالَهُمْ بمَكَّةَ، فأحْبَبْتُ إذْ فَاتَنِي مِنَ النَّسَبِ فيهم، أنْ أصْطَنِعَ إليهِم يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وما فَعَلْتُ ذلكَ كُفْرًا، ولَا ارْتِدَادًا عن دِينِي، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّه قدْ صَدَقَكُمْ فَقالَ عُمَرُ: دَعْنِي يا رَسولَ اللَّهِ فأضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقالَ: إنَّه شَهِدَ بَدْرًا وما يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ اطَّلَعَ علَى أهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ قالَ عَمْرٌو: ونَزَلَتْ فِيهِ: {يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاءَ} قالَ: لا أدْرِي الآيَةَ في الحَدِيثِ أوْ قَوْلُ عَمْرٍو [(1)].

كاد سر فتح مكة أن يحبط، وإذ تأوله حاطب بن بلتعة، رضي الله تعالى عنه، وإذ يعد هذا خيانة عظمى في القانون العسكري، موجب قتلا، إلا أن بدرا كانت سببا لا مخففا، بل عفوا عن العقوبة!

وإذ قال نبينا ﷺ في حاطب: قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. ولأنها يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه أن قال نبينا ﷺ: لن يَدخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا والحُدَيْبيةَ. [تخريج المسند شعيب الأرناؤوط: 15262].

(1) صحيح البخاري: 4890

خلاصة حكم المحدث : صحيح. ولعل أحدنا يشفق على نفسه - جداً - وهو إذ يقول: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما!

إن الغنم الأكبر، هو ذلكم الفوز الأكبر، وحين كان أجر أهل بدر هو الفردوس الأعلى، ولا نظر قبل أو بعد، لمتاع دنيوي مُنِحُوه، وإن هذا لفضلا، ولاستشراف فضل آخر. وحين غنموا وكان الفردوس لهم فوزا ومستقرا ومقاما.

المبحث الرابع والخمسون: ما تَعُدُّونَ أهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟

عن رفاعة بن رافع جَاءَ جِبْرِيلُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ: ما تَعُدُّونَ أهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قالَ: مِن أفْضَلِ المُسْلِمِينَ -أوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- قالَ: وكَذلكَ مَن شَهِدَ بَدْرًا مِنَ المَلَائِكَةِ. وعَنْ مُعَاذِ بنِ رِفَاعَةَ بنِ رَافِعٍ، وكانَ رِفَاعَةُ مِن أهْلِ بَدْرٍ، وكانَ رَافِعٌ مِن أهْلِ العَقَبَةِ، فَكانَ يقولُ لِابْنِهِ: ما يَسُرُّنِي أنِّي شَهِدْتُ بَدْرًا بالعَقَبَةِ. قالَ: سَأَلَ جِبْرِيلُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا [وفي روايةٍ]: أنَّ مَلَكًا سَأَلَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ... نَحْوَهُ[1].

ولعل ظلالا وارفة وحين كان من شهد بدرا من أفضل المسلمين، جند إنسٍ، أو من الملائكة المقربين، ودلك على عظم أمر كهذا وحين تستحضر تلك أفضلية من أزل وإلى يوم الدين!

(1) صحيح البخاري: 3992

ولذ فقليل أن نقول: ثناء على ربنا وتمجيدا، وشكرا لله تعالى وتحميدا، أن كان ذا فضل، وحين توج جند الله المخلصين، يوم بدر، فردوسه الأعلى، من الجنة، وعموم من دعاه ورجاه.

المبحث الخامس والخمسون: قدوم زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة

فك نبينا ﷺ أسر أبي العاص بن الربيع، زوج ابنته زينب، شرط أن يلحقها به إلى المدينة، وهذا شرط نفيده في المفاوضات تحسينا لوضع قائم، نخرج منه بغنم وكاسب يعود نفعها على الأمة.

وإذ عرضت هند بنت عتبة مساعدة زينب بنت نبينا ﷺ، لهجرتها إلى المدينة، فعرّضت بها خشيتها، ولعل كمينا تنصبه لها! وهذا فقه بنت النبي ﷺ! ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 34].

قالت زينب في حق هند بنت عتبة وحين عرضت مساعدتها: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل. وفيه جواز أن يكون في الكافرين أمناء، رجالا أو نساءً.

قالت زينب بنت نبينا ﷺ وحين اعتذرت من هند بنت عتبة: ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك. وإنكارها تعريضها وتوريتها، ولأنها لايعرفها كذب!

وكان عرض هند بنت عتبة، مساعدة زينب بنت نبينا ﷺ، ولتسهيل هجرتها، برهان مروءة، تحلت بها نساء الزمان ورجالها، وأن خصومة في المنهج لا تعوق مسيرتها !

تجشم كنانة أخو زوج زينب بنت نبينا ﷺ إيصالها لأبيها بالمدينة ونهارا، برهان دفع ريبة، وإذ لم يك ليلا، ودليل شجاعة، وإذ يعلم ألا تسكت قريش.

كان أبو سفيان حكيما حين خاطب كنانة، وحين جاهر بسفره إلى المدينة يريد إيصال زينب بنت نبينا ﷺ إلى أبيها: يا أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك. فيه ضبط نفس وصولا لإحراز حل مرضٍ لأطراف النزاع، لا صخب مؤججا.

عرض أبو سفيان على كنانة انتظار الليل، وريثما يخيم ظلامه، ثم يروح بابنة نبينا ﷺ إلى أبيها، خشية عار سيلحق به، وإذ يُفْهِمُ أنهم - قريش - ضعاف أمام إخراج امرأة !

وكان أبو سفيان عاقلا، وحين رجع مهزوما من بدر، وحين أشار أنهم لا حاجة لهم بامرأة، كزينب بنت النبي ﷺ ! وهذه مروءة عز وجودها أزمنة كثيرة !

كان يمكن لأبي سفيان حبس زينب بنت نبينا ﷺ، وحين أرادت الهجرة لأبيها ﷺ، إلا أن القوم كانت لديهم بقية مروءات، وألا يتعرضون لنساء ضعيفات!

وكان يمكن لأبي سفيان التترس بزينب بنت نبينا ﷺ، لولا هزيمة بدر نكراء، لا زال يجر أذيالها، برهان إنكاء في العدو، ألا يعود لمثله أبدا !

أفي السلم أعيارا جفاءً وغلظةً * وفي الحرب أشباه النساء العوارك؟

هذا تشفي هند بنت عتبة في قريش، وحين استقووا على إرجاع زينب، وإلى الليل فقط!

وكان إذ بعث نبينا ﷺ زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقال: كونا ببطن يأجج، حتى تمر بكما زينب، فتصاحباها، فتأتياني بها. وفيه جواز ائتمان الأمناء على النساء.

وكما أن فيه جواز سفر دون محرم، وللضرورة الملجئة.

المبحث السادس والخمسون: ثناؤه ﷺ على زينب

عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: (أن رسول الله لما قدم المدينة خرجت ابنته زينب من مكة مع كنانة أو ابن كنانة فخرجوا في إثرها فأدركها هبار بن الأسود فلم يزل يطعن بعيرها برمحه حتى صرعها وألقت ما في بطنها وأهرقت دماً فحملت فاشتجر فيها بنو هاشم وبنو أميه فقال: بنو أمية نحن أحق بها وكانت تحت ابن عمهم أبي العاص، فصارت عند هند بنت عتبة بن ربيعة وكانت تقول لها هند: هذا بسبب أبيك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة: ألا تنطلق فتجيئني بزينب قال: بلى يا رسول الله قال: فخذ خاتمي فأعطها إياه فانطلق زيد وترك بعيره فلم يزل يتلطف حتى لقي راعياً فقال: لمن ترعى قال: لأبي العاص قال: فلمن هذه الغنم قال: لزينب بنت محمد فسار معه شيئاً ثم قال له: هل لك أن أعطيك شيئاً تعطيها إياه ولا تذكره لأحد قال: نعم فأعطاه الخاتم فانطلق الراعي فأدخل غنمه وأعطاها الخاتم فعرفته فقالت: من أعطاك هذا؟ قال رجل قالت: وأين تركته؟ قال: بمكان كذا وكذا قال: فسكتت حتى إذا جاء الليل خرجت إليه فلما جاءته قال لها: اركبي قالت: لا ولكن اركب أنت بين يدي

فركب وركبت وراءه حتى أتت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هي أفضل بناتي أصيبت فيَّ)[1].

قال نبينا ﷺ في زينب : هي أفضل بناتي أصيبت فيَّ: ولأنها تركت زوجها، وهو وإن كان دينا وقد فرض عليها ذلك، إلا أنها مصيبة مؤثرة طبعا وفطرةً، فكان كتعزية مصاب. ولأنها كانت قد أجهضت من حملها، وهذان عاملان محددان وموجبان كونها حقا قد أصيبت في أبيها محمد ﷺ

وفيه جواز المفاضلة بين الأبناء، لدين أو لبر أو لغيرهما، وبرهان المسارعة بذلكم بر أو ذلكم فضل آخر، ولنيل فضلهما، جزاء من الله العزيز العليم.

وإذ كانت زينب أفضل بنياته ﷺ إصابةً فيه، وكانت فاطمة ابنته من أفضل نساء أهل الجنة. وهذه نساء بيت النبي ﷺ! ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: بَعَثَنَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في بَعْثٍ وقالَ لَنَا: إنْ لَقِيتُمْ فُلَانًا وفُلَانًا - لِرَجُلَيْنِ مِن قُرَيْشٍ سَمَّاهُما - فَحَرِّقُوهُما بالنَّارِ قالَ: ثُمَّ أتَيْنَاهُ نُوَدِّعُهُ حِينَ أرَدْنَا الخُرُوجَ، فَقالَ: إنِّي كُنْتُ أمَرْتُكُمْ أنْ تُحَرِّقُوا فُلَانًا وفُلَانًا بالنَّارِ، وإنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بهَا إلَّا اللَّهُ، فإنْ أخَذْتُمُوهُما فَاقْتُلُوهُمَا[2].

حين عزمت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الهِجرةِ، قابلها رجلان من المشركين، وهما هبَّار بن الأسودِ، وآخر، قيل: هو نافِعُ بن عبد قيس، فضربا بعيرا كانت تركبه، فسقطت، وكانت حاملا، فسقط حملها.

---

(1) المستدرك على الصحيحين: الحاكم : 219/2. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه

(2) صحيح البخاري: 2954

فأرسل نبينا ﷺ سرية، بقيادة حمزة بن عمرو الاسلمي، وقال ﷺ لهما: إني أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا وأن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموها فاقتلوهما: ولأنهما خاضا في ابنته زينب حين هاجرت.

قال ﷺ: إني أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا، وأن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموها فاقتلوهما، وفيه جواز العدول من قول إلى قول خير منه.

وكما أن فيه عدم جواز التحريق بالنار، ولأن النار لا يعذب بها إلا الله تعالى.

وفيه جواز عقوبة القتل تعزيرا لا حدا.

المبحث السابع والخمسون: إجارة زينب لزوجها

روى الحاكم بإسناده إلى أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ((أن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إليها أبو العاص بن الربيع أن خذي لي أماناً من أبيك، فخرجت فأطلعت رأسها من باب حجرتها والنبي صلى الله عليه وسلم في الصبح يصلي بالناس فقالت: أيها الناس: إني زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وإني أجرت أبا العاص، فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة قال: أيها الناس إنه لا علم لي بهذا حتى سمعتموه ألا وإنه يجير المسلمين أدناهم))[1] .

(1) مستدرك الحاكم (49/4)، ورواه الطبراني (425/22) (18899). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (333/5): رواه الطبراني في ((الأوسط)) و((الكبير)) باختصار، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات، وصححه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (770/6).

كان المسلمون قد غنموا أموال أبي العاص بن الربيع، زوج زينب بنت نبينا ﷺ، في سرية، ثم هرب، فاستجاربها، فأجارته. وفيه جواز إجارة مسلم لكافر، ولأنه ﷺ علم فلم ينه. بل قال ﷺ: أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له. وفيه إقراره ﷺ بإجارة الكافر، ورغم حرب كانت منه، ولقوله تعالى﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: 6].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : صَرَخَتْ زَيْنَبُ أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَتْ : ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ زَيْنَبَ، فَقَالَ : " أَيْ بُنَيَّةُ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ، وَلَا يَخْلُصَنَّ إِلَيْكِ، فَإِنَّكِ لَا تَحِلِّينَ لَهُ "

أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له: وهذا كقوله تعالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾. وهذه رحمة لطاما كانت خلقا ووصفا ملاصقا لنبينا محمد ﷺ، فلم يجهز عليه، ورغم القدرة عليه.

ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له: وفيه أن الكفر لايبطل عقد الزواج، بل يوقفه، وآثاره، فإن أسلم يجدد العقد المفسوخ، وتعود إليه آثاره.

أي بنية: وهذا نداء نبوي حان لطيف، لبنية قارورة، ولأن وضعا نفسيا وضعته واحتملته، فأجبره ذلكم النداء الندي.

وما أشد حاجتنا إلى لطف مع أبنائنا، وبمثل هذا نداء، يبث حنانا بثا، ويدفئ مشاعر دفئا.

والمثوى هو المأوى، اسما مكان، ويصلحان أحدهما بدلا عن الآخر، ولا دليل لغويا لاختصاص أحدهما بكافر أو مؤمن.

وإذ أكرم الإسلام أبا العاص وحين أجاره، ولذا كان له الأثر الحميد فيه، حتى أعلن إسلامه، وعلى ملأ من قريش، ثم عاد مهاجرا إلى المدينة مسلما، وبعد إذ أجارته المدينة كافرا!

قال أبو العاص: يا معشر قريش، هل بقى لاحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ قالوا: لا فجزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيا كريما.

قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، والله ما منعني عن الاسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت.

ثم خرج حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم.[1] . وفيه عظم شأن الأمانة.

وإنه حين أجارت المدينة أبا العاص، ورجع إلى مكة فأعطاهم أموالهم، ثم أخبرهم أنه جاء لذلكم خاصة، وكيما لا يقولوا راح بأموالنا، ثم أعلن إسلامه، وهذه مروءة حسبها له التاريخ، جيلا من بعد جيل آخر نورا وهدى للسالكين.

إن في رجوع أبي العاص مكة، وبعد إجارة زوجه له، عنوان أن هذا الدين يحول مسلما ثلاث مائة وستين درجة، إيجابا لا سلبا، بخلق عظيم، وأمانة منقطع نظيرها.

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٢ / ٥٢٠

حين أسلم العاص زوج زينب بنت نبينا ﷺ، ردها عليه بالعقد الأول، وبعد مرور ست سنين، برهان أن الكفر يوقف العقد وأثره، وليعود بعد الإسلام بنفس أثره.

حديث أن رسول الله ﷺ ردَّ بنته على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد. ضعيف واهٍ. وإنما بالنكاح والعقد الأول، ولصحة خبره.

إنما جاز إمضاء العقد الأول بإسلام الزوج، ولو بانقضاء العدة، لفعله ﷺ، ويتوجه أنه تخصيص لبابه، ولمشيئتها إمضاءه، ومن حيث لم تنكح زوجا غيره، ومن ثم كانت مستبرأة رحمها، ولأنها كانت قد أسقطت حملها، وإذ كانت في طريقها إلى المدينة.

فإذا أسلمت المرأة، فلا تنكح حتى تحيض وتطهر لاستبراء رحمها من عقدا الأول، ولا حاجة لانقضاء ثلاثة قروء، لأنه ليس طلاقا رجعيا تؤمل فيه رجعة.

وإذا أسلم الزوج تعود إليه زوجته وبالعقد الأول، ودون حاجة لحيض وطهر منه، استبراء رحمٍ، ومن حيث لم تنكح زوجا غيره. وهذا إمضاء مجد كان بينهما.

المبحث الثامن والخمسون: التوضيحات الكبرى من غزوة بدر الكبرى

كانت ملحمة بدر الكبرى هي المعركة الفاصلة، كما كانت نصرًا مؤزرًا، وهو إعجاز بالغ ضارب؛ ذلك لأنها كأول ملحمة يكون النزال فيها مع الكافرين، ومنه يكون النصر المبين توفيقًا منه تعالى وتسديدًا؛ لرفع معنويات الجند المسلمين كيما يلقوا عدوهم، وطاقات نصره تعالى لهم عليهم تَتْرَى تُحرِّكُهُم وتحفزهم في ساحات الوغى وتسددهم، وشعلة متقدة تقودهم إلى ساحات العطاء والبذل لمُهَجٍ رخيصة في سبيل إعلائها دين ربها الرحمن سبحانه، استبسالًا وعزمًا وفداءً.

لكنه عند التأمل فيما لو كانت الأخرى، لكان قد أصابهم نَصَبٌ محتمل، ولكان قد تحصَّل منه تأثير في إقدامهم وكرِّهم وفرِّهم في ساحات القتال والإقدام، ولكان قد نتج عنه بعض هَنَّة في شجاعتهم، أو كان قد حاق بهم بعضٌ من وَهَنٍ أو غَيْضٌ من ضعف.

وهكذا يكون اختيار الله تعالى لعباده المسلمين لِما هو خير وإحسان لهم، ولما هو بِرٌّ وخلاص لدينهم، الذين هم في الأصل لا يبتغون سواه، أو كذا هو المؤمل فيهم؛ لأنهم رجاء وإخلاصًا ينصرون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على كل أحوالهم، وفي كل آنٍ من أوقاتهم صدقًا واحتسابًا.

وأقول هذا لأن الشأن فيهم يوم بدر كان نية استرجاعهم أموالهم التي اغتصبها مشركو قريش منهم يوم الهجرة، وهو أمر لا مؤاخذة فيه، فأمَّةُ الشكيمة هي أمتنا، وأمة الإباء هي أمتنا، لا تقبل ضيمًا، وتأنف ظلمًا، ولا ترضى إذلالًا.

ولكن الله تعالى يريد قطعًا لدابر الكفر والكافرين، وهو أمر أعمق سموًّا، وهو شأن أرفع هامة، وأعلى قامة، وأهدى سبيلًا، وأقوم قيلًا، ومن ثَمَّ يكون الأمر

كله لله تعالى، ومن ثَمَّ أيضًا تكون أموالهم غنائمَ، وتصبح نساؤهم وأطفالهم سبايا، فيكون قد تحصل لهم ما يريدون، ولكنه بغير طريقهم الذي كانوا يسلكون.

وبه يكون الحق قد أُحِقَّ، ويكون الباطل قد أُبطل، ويكونون قد فازوا بالحسنى، وهو النصر المبين، ويكونون قد استردوا أموالهم من الكافرين، فتَشْفَى قلوبهم من بعد غيظها وامتعاضها، وتطمئن قلوبهم من بعد فزعها وخوفها.

ومنه يكون النظر إلى أن مراد الله تعالى فوق كل نظر؛ لأنه تعالى ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: 7]، وهو سبحانه يقدِّر صالحًا لعبيده، وهذا هو الشأن معه تعالى أبدًا أبدًا، ومن ثَمَّ يُجري سنته لا على أساس غيرها، ويكون المرء مطمئنًّا غاية الاطمئنان لمراده تعالى، وإن كان قد خفيَ عنه، أو كان على غير مراد ذات نفسه، فتأمل.

ذلك لأن الله تعالى يعلم - وعِلْمُهُ الحق - ما يصلح لعبيده فيُوقعه في كونه الواسع الفسيح، ويُنزله قضاء منه وقدرًا سبحانه؛ إنفاذًا لوعده، وإعمالًا لقوله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: 185]، كما وأنه سبحانه وتعالى يعلم - وعلمه الحق المبين - ما لا يتوافق مع عبدٍ من عبيده المساكين، فلا يقع منه في كونه الضافي المديد، إلا ما كان منه ابتلاء واختبارًا، رحمة منه وفضلًا؛ ذلك لأنه تعالى جواد كريم، وذلك لأنه سبحانه أرحم بنا أجمعين منا أجمعين بأنفسنا، وهو سبحانه من ثَمَّ ﴿ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: 28].

ومن حيث أراد المسلمون أموالهم في بدر، وأراد الله الحق بقطع دابر الكافرين، وهي مصلحة أرجح، وهكذا يُنظَر في المصلحتين، فيفوت أدناهما لصالح أعلاهما؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ

غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال: 7].

لكن السؤال القائم يقول: وما سندكم في استيلائكم على أموال قريش يوم بدر؟

وإجابته من طريقين:

فأما أولهما: فلأنها قد أصبحت دار حرب وهم به محاربون، ومنه فقد تأصَّلَ لدينا حلُّ أموالهم واعتبارها غنيمةً لدار الإسلام، طالما أنهم كانوا قد وصلهم البلاغ، ومن حيث إنهم قد رفضوا دعوة الله تعالى، فما بقيَ أمام المسلمين من بدٍّ سوى انتزاع زعامتهم منهم؛ كيما يكون الناس في بُحبُوحةٍ من أمرهم، فإيمان بعد بلاغ، وإسلام بلا تأليب من صناديد الكفر آنذاك، أو صدهم عن سبيل الله كثيرًا.

وأما ثانيهما: فلأنهم كانوا قد استولوا على أموال المسلمين يوم الهجرة، ولما أن تركوا الديار والأموال، وهاجروا في سبيل الله تعالى مولاهم الحق، فكان الأصل أن تبقى هذه الديار وهذه الأموال أمانة عندهم ليردوها إلى أصحابها، أو كانوا قد أعطوها إلى ذويهم ممن بقي في مكة، وهو أمر على كل حال ليس من الصعوبة تخيله.

فكما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أبقى عليًّا رضي الله تعالى عنه، لإعطاء الناس ودائعهم، ولرد أماناتهم التي كانت لديه صلى الله عليه وسلم، ولم يجد لأخذها أو التصرف فيها سبيلًا؛ لأنها أمانات، ونبي الهدى والنور صلى الله عليه وسلم يعي ويدرك ويعلم المعنى العظيم للأمانات، وما تنطوي عليه من

وجوب ردها لذويها، وما تحفل به من لزوم إرجاع لأصحابها، فدينٌ يدعو إليه نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم كان من سطوره الأولى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 58] - أقول: لما كان ذلك كذلك، فكان عليهم أن يفعلوا مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكنهم لَمَّا لم يفعلوا، واغتصبوا الأموال التي كانت عليهم حرامًا، وبلا مستند من واقع أو عرف، وإلا فإن التعديات على حرمات الناس في أموالهم مغروس في الفِطَرِ تحريمها، ومغروز في تراكمات الأجيال صيانتها من تعدٍّ حرام أو من استحلال ذميم - لما لم يفعلوا، فكان لا بد من البحث عن توقيت ملائم لرد هذه الأموال لأصحابها، وهو أمر لم يكن الإسلام وحده هو الذي يعمل به، وإنما كان معمولًا به ولا زال.

بيد أن العمل على استرداد أموالهم التي كانوا قد اسْتُلِبُوها لَهُو إعزاز للدين نفسه في حقيقة الأمر، فقومٌ آمنوا، ويدفعون عن أنفسهم ضيمًا، ويوجبون لذوات أنفسهم شكيمة، إن هو إلا من موجبات صميم دينهم، وإن هو إلا من مقومات حقيقة إسلامهم.

فلقد علَّمهم إسلامهم في مهد ألف بائه أن الضرورات الخمس هي: حفظ الدين والعقل والنفس والعِرض والمال، ومنه فكل دون حفظه كله أو بعضه لقليل.

بيد أن سؤالًا ربما قد جال في الأذهان مؤداه: ولِمَ لَمْ يطلب المسلمون الصلح مع قريش قبل غزوهم، فلربما كانوا قد أجابوا؟

وهو سؤال له وجاهته، لو لم نكن نعرف هذه الطبيعة التي تكوَّن لدينا عنها ذلكم الركام الهائل من العداوة للدعوة الجديدة، وما قد ترتب عليه من مجابهتها في كل محفل، وما قد نشأ عنه من مضايقات للرسول صلى الله عليه وسلم والعصبة القليلة المؤمنة التي أسلمت معه، وما قد لاقَوه منهم على امتداد الفترة كلها من لدن بعثته صلى الله عليه وسلم وإلى أن هاجر، وبعد أن هاجر بإخوانه إلى المدينة النبوية، على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات.

ناهيك عن أنه ولما لم يصدر منهم طلبٌ لصلح، أو إشارة له يومًا، مما يمكن معه القول بأن القوم يمكن أن يُتَصالح معهم، أو أن قريحتهم إليه أقرب، وأن طبيعتهم إليه أميل، لكن كِبْرهم كان سائقهم، وطغيانهم قد أضحى قائدهم، ومنه فقد صار الالتقاء معهم في طريق صلح لا يوجد له سبيلٌ ممهد مما سُقْتُهُ، ولم يكن له من طريق معبد مما رَوَيْتُهُ، ولو كمِفْحَصِ قَطاة!

ولما كان الوضع على هذه الصورة، فبه وضح الجواب، ومنه بان سرُّ الغزو.

هذا وناهيك أيضًا عن أن الأمة كانت في ذلكم الوقت - وفي كل وقت - وعلى عهد رسولها صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرهم - إنما تُقاد بالقرآن الكريم، ولم يكن لها من عند أنفسها من سبيل تسلكه إلا بوحي من الله تعالى تعليمًا لها وتأديبًا وتوجيهًا وتشريعًا؛ لأنها كانت في أول أطوارها، وذلكم هو شأنها في كل حين، وليس لديها من التجارب ما به قد عالجت مثل ذلكم من وضع جديد قد فُرض عليها فرضًا في أرض الجزيرة العربية، وكان القرآن العظيم هو حاديها في كل مطلب من مطالب حياتها، وكان الكتاب المجيد هو مرشدها في كل درب من

دروبها؛ إنْ من سرائها، وإنْ من ضرائها، ولم يكن لها إلا أن تكون به منقادة سلسة القياد ممهورة بالرضا والسعادة، ولم يكن أمامها غير التسليم لأمر ربها الرحمن بالاطمئنان والقبول، وهي إذ تتلقى أمور حياتها من السماء مباشرة، مما يعد قانونًا محكمًا، فإنه ليس لها إلا أن تسعد به طاعة، وليس لها إلا أن تهنأ به معيشة، وليس لها أن تعدوه، ولو خطوة واحدة، أو خطرة من خطرات أنفسها؛ لأنها بايعت أول ما بايعت رسولها صلى الله عليه وسلم على سمع كامل، وعلى طاعة تامة، ومنهما فأصول الاتباع عليها قائمة، ومنهما فأصول الابتداع عنها لمُنفكَّة.

ومن ثَمَّ فالوحي هو الذي يحدد مسارها في كل حركة، والقرآن الكريم هو الذي يبين طريقها في كل سكنة.

ومنه فأمَّةٌ هذا طريقها مع ربها مرفوعة القامة، سامقة العزة، أبيَّة التصرف، ولا خوف عليها؛ لأنها استمدت قانون حياتها من القرآن العظيم.

ومنه ولما لم يأتِ تنزيلٌ يطالبها بالصلح مع قريش، بحيث تكون البداءة به من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه، علاوة على ما عُرف عنهم من صَلَفٍ واستكبار وتهديد للدعوة الجديدة في كل محفل، ومن تقدير الرسول صلى الله عليه وسلم لوضع الحالة آنذاك، ومن حيث إنه لم يَرِدْ ما يشي باطلاعهم على الصلح مع المسلمين، ومن حيث لم يأتِ أحد ببادرة وساطة كما كان من شأن الوسطاء يوم الحديبية أيضًا - علمنا أنه لم يكن هناك مجال للصلح.

وإلا فهذا هو قوله تعالى أمامنا، وإلا فذلكم هو نص القرآن العظيم بين أيدينا مادًّا يد الصلح والسلام إلى كل راغب فيه، كما كان من شأنه صلى الله

عليه وسلم مع بني قريظة؛ قال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال: 61]، وإلا فهذا هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((والذي نفسي بيده، لا يسألونني خُطَّةً يُعظِّمون فيها حُرُماتِ الله إلا أعطيتهم إياها)) في مسألة الحديبية المعروفة، ومنه يكون الأمر عامًّا من سيرته صلى الله عليه وسلم في الحديبية وفي غيرها؛ بحيث لو أنه كان قد تناهى إليه خبر من صلح، أو قد عرض عليه نبأ من سلام، فليس يُظَنُّ فيه إلا ما كان من شأن قوله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية.

وأيضًا فإن الشأن من سنته صلى الله عليه وسلم هو استشراف مظانّ الصلح والموادعة أينما كان لها من سبيل؛ كما قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: حدثنا عبدالله، حدثني محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا فضيل بن سليمان - يعني: النميري - حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنه سيكون بعدي اختلاف - أو أمر - فإن استطعتَ أن تكون السَّلْمَ، فافعل))؛[1]. فرصيد القوم من العداء، واستحكام الكفر فيهم، وقيام الأمة الجديدة الوليدة على منهج القرآن الكريم، وصدق التلقي من رسولها الكريم صلى الله عليه وسلم - يجعلنا في مأمن من هذا الجانب تمامًا، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: 14].

فاستيلاء المسلمين إذًا على أموال قريش في غزوة بدر الكبرى كان عدلًا من جانبين: فإنهم محاربون بعد أن وصلتهم الدعوة، وأموالهم حينئذٍ غنائم، وإنهم كانوا قد استولوا على أموال المهاجرين، ووجب ردها، فتأمل!

---

(1) مسند أحمد بن حنبل، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (684).

المبحث التاسع والخمسون : خاتمة في غزوة بدر الكبرى

وهكذا نطوي كلامنا عن صفحة يوم بدر، مكللة بنصر مهيب للمؤمنين، واندحار عظيم للمشركين، برهان أن الله أبدا مع المؤمنين، وحين حققوا إيمانهم ويقينهم.

وهكذا نأتي على بدر، وتغمرنا عزة أمجاد، ذكرها التاريخ، ولم يجحد حق إخواننا لهم، ويوم أن سطروا مجد انتصار، معانقا صحيح إيمانهم وبذلهم. وهكذا نأتي على بدر، مرفوعة هاماتنا، إمكان النصر، وحين تتجدد فينا دواعي صدقنا لربنا، وأخذنا أسبابه، متوكلين لا متواكلين طرفة عين واحدة.

وهكذا نأتي على بدر، وقد تعلمنا أن الله مع المؤمنين، قدرا مقدورا، وأن ظلام ليل وإن طال فلابد من نهار، تكشف فيه الغمة، وتنصر فيه الأمة.

وهكذا نأتي على بدر، وقد رافقنا فيها وحي السماء، لحظة من بعد لحظة أخرى، برهان معية ربنا، وما كان ليذر المؤمنين، بل يكلؤهم آناء ليلهم وأطراف نهارهم.

وهكذا نأتي على بدر، وقد رأينا صحبا كراما، ذادوا عن نبيهم، محبة وحرصا، برهان صدق، وعلامة بذل، لقائد كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وهكذا نأتي على بدر، ويحدونا ظن حسن بربنا، أن معيته تعالى سنن وسبيل دائمين، ولا تكاد تتخلى، وحين التزمنا بدينه تعالى شرعة ومنهاجا.

مرت غزوة بدر، بأحداث عظام، وما كان ليقوم بها سوى قوم عظام، دلك على عظمتهم أن خارما واحدا من خوارم المروءة لم يسطره التاريخ الحصيف فيهم.

وهكذا نأتي على غزوة بدر ليس حديثا فكاهيا، بقدر ما هو عظة واقتداء، برهط كان من سيرتهم بيع نفوسهم رخيصة لله ولما جاهدوا فيه حق جهاده.

وهكذا نأتي على غزوة، بدر ليس تاريخا نسرده، مادة للتسلي، بقدر ما كان عرضا، لمجابهة بين حق هو الإسلام، وبين باطل هو الكفران، وبينها برزخ لايلتقيان!

وهكذا نأتي على غزوة بدر، وقد رأينا كيف كانت تربية نبينا صلى الله عليه وسلم، لجيل كالصحب الكرام، وكأنهم شخص واحد، ولأن تربيتهم نبعت من معين خير وهدى واحد أيضا.

وهكذا نأتي على غزوة بدر، ولنقف ثابتين، لاتزحزحنا أنملة، أن حقا حمله هذا الرهط، كان هو الذي قادهم إلى فعلهم وعزهم، حتى نالوا به مجدا عنانا.

وهكذا نأتي على غزوة بدر، وقد بانت لنا معادن قوم، أصقل الإسلام قلوبهم، وبحيث أخرج منها شرا، ولو كدبيب نمل على صخرة صماء في الليلة الظلماء.

وهكذا نأتي على غزوة بدر، ورأينا كيف كانت تضحيات قوم، لا مجدا لأنفسهم ابتغوه، بل مجدا لدين ربهم، كان عنوان بيعتهم، وأضحى برهان إخلاصهم لله.

غزوة بني سليم

سبع ليال فقط كانت بعد بدر الكبرى! حتى غزا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بنفسه بني سليم. وهذا برهان حركة دائبة لهكذا غزو من كفر؛ وليحق الله الحق، ويبطل الباطل، ولو كره المجرمون.

رجع صلى الله عليه وسلم من بني سليم دون قتال، ولما لم يلق منهم كيدا، برهان أن ديننا يقول كلمته، و حاضر في أذهان المناوئين، أننا دائما ههنا، نحرس ثغرا، ونرد كيدا.

غزوة السويق

سميت غزوة السويق؛ ولأن المسلمين غنموا أزوادا كان منها السويق، وحين تتبعوا أبا سفيان، حين أقسم ألا يغتسل من جنابة، حتى يأخذه ثأره من بدر.

كانت قريش أبدا هي البادئة حربها مع إسلامنا، إن في بدر، وحين كان استردادا لأموالنا، غصبوها يوم الهجرة، وإن في السويق، وحين قتلوا اثنين منا.

كان سلام بن مشكم هو ذاك اليهودي الذي سهل لأبي سفيان قتل مسلمَيْن يوم غزوة السويق، وهذا برهان قريحة يهود الغاشمة، وأنها لاتكن خيرا للعباد.

قال المسلمون: يا رسول الله أنطمع أن تكون هذه لنا غزوة؟ هذا قولهم يوم السويق برهان تعبئة ذاتية للقوم أبدا وكل حين من أمرهم لملاقاة عدو الله

وعدوهم. وفيه شحذ لهمم القائد وطمأنته إلى جاهزية جنده معه. ولذا كانت موافقته ﷺ بقوله : نعم!

دخول علي بن أبي طالب على زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ

خطب علي بن أبي طالب فاطمة من نبينا ﷺ على درع، برهان وجوب المهر، وإن قل، وطالما كان مقوما بمال! وفيه تيسير المهور، وأن إغلاءها ليس دينا مجيدا، ولا خلقا حميدا. ولا سيما حين عدم القدرة.

وخطبة علي فاطمة من نبينا ﷺ على درع، برهان وجوب الولي، ووجوب المهر، ولأنه تعالى قال: ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 25]. وقوله تعالى﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة: 232]. وقوله ﷺ (لا نِكاحَ إلَّا بوَلِيٍّ)[1].

وبينما رأي الإمام أبو حنيفة وغيره، جواز نكاح بغير ولي، واستدل بنفس الآية السابقة ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ وتأسيسا على أن التراضي بين الزوجين كان كافيا، ولا حاجة من بعده لاشتراط شرط آخر، وأنه قد نهى الشارع عن عدم إعماله، وقد جعله عضلا، وبقوله تعالى﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾، ثم اعتمد على إرسال الحديث السابق. والجمهور على القول الأول.

(1) أخرجه أبو داود (2085)، والترمذى (1101)، وابن ماجه (1881)، وأحمد (19518). صحَّحه الإمام أحمد كما في ((كشاف القناع)) للبهوتي (48/5)، وعلي بن المديني كما في ((السنن الصغير)) للبيهقي (17/3)، وابن القيم في ((تهذيب السنن)) (102/6)، وابن الملقِّن في ((البدر المنير)) (543/7)، وقال ابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (372/2): حسَنٌ صحيح. وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (249/6): اختُلِفَ في وصله وإرساله. وذكَرَ أنَّ له طُرقًا. وصححه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (1881)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (822) وقال: ولا يُعَلُّ بإرسالِ مَن أرسَلَه.

عن عبدالله بن عباس: لَمَّا تزوَّج عليٌّ فاطمةَ، قال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم: (أَعْطِها شيئًا)، قال: ما عندي شيءٌ، قال: (أين دِرْعُكَ الحُطَمِيَّةُ؟)[1].

وهذا برهان أن المهر حق خالص للزوجة. وأن (شيئا) يصلح مهرا خلاف تعسير فيه.

وحين نعلم مهرا قيمته درعٌ ثمنه أربعة دراهم، فدل على يسر ديننا أيما يسر، ولقول علي رضي الله تعالى عنه: فوالذي نفس علي بيده أنها لخطيمة ما قيمتها أربعة دراهم، فقلت: عندي. فقال: (قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها)[2].

إن وزن الدينار يساوي 4.25 غرام ذهب، والدينار = 12 درهما، يعني قيمة الدرهم=4,25÷12=1,4166جم ذهبا×810ج=1147ج، وهذا كان مهر فاطمة بنت محمد ﷺ- رضي الله تعالى عنها-! وذلك بحساب قيمة الذهب يومنا هذا: 1442/10/24.

وحين زوج نبينا ﷺ ابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها بدرع قيمته أربعة دراهم =1147ج! وهذا ولي نبي، وهذه فاطمة بنت نبي، وهذا زوجها الإمام علي، فماذا هو فاعل ولي غير نبي، وماذا هي فاعلة غير بنت النبي، وماذا هو فاعل خاطب غير علي؟!

---

(1) الصحيح المسند، الوادعي: 703، خلاصة حكم المحدث : صحيح.

(2) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير: (1396/1).

إننا بحاجة إلى مراجعة أعراف أهدرت قيمنا، وسابقت إسلامنا، وأعضلت بناتنا، وأعسرت أولياءنا، وأرهقت شبابنا. لاستدانة بيوتات، حتى قلت البركات. وعمت التطليقات، وزادت التسريحات!

عن أبي العجفاء السلمي: قال عمرُ بنُ الخطَّابِ : ألا لا تغلوا صُدُقِ النِّساءِ، فإنَّه لو كان مَكرُمةً في الدُّنيا، أو تقوَى عند اللهِ عزَّ وجلَّ كان أولاكم به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ما أصدق رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم امرأةً من نسائِه، ولا أُصدِقت امرأةٌ من بناتِه أكثرَ من ثنتَيْ عشرةَ أُوقيَّةً ! وإنَّ الرَّجلَ ليُغلي بصدقةِ امرأتِه، حتَّى يكونَ لها عداوةٌ في نفسِه، وحتَّى يقولَ : كلَفتُ لكم علَقَ القِرْبةِ ! وكنتُ غلامًا عربيًّا مُولَّدًا، فلم أدْرِ ما علَقُ القِرْبةِ ؟ ! قال : وأخرَى يقولونها لمن قُتِل في مغازيكم أو مات : قُتِل فلانٌ شهيدًا، أو مات فلانٌ شهيدًا، ولعلَّه أن يكونَ قد أوقر عجُزَ دابَّتِه، أو دفَّ راحلتِه ذهبًا أو ورِقًا، يطلُبُ التِّجارةَ، فلا تقولوا ذاكم، ولكن قولوا كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم : من قُتِل في سبيلِ اللهِ، أو مات، فهو في الجنَّةِ[1].

والشاهد قوله: وإنَّ الرَّجلَ ليُغلي بصدقةِ امرأتِه، حتَّى يكونَ لها عداوةٌ في نفسِه، وحتَّى يقولَ : كلَفتُ لكم علَقَ القِرْبةِ ! وهذا كناية عن شديد تأسف، وبليغ مشقة.

وعن سهل بن سعد الساعدي: جاءَتِ امْرَأَةٌ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقالَتْ: جِئْتُ أهَبُ نَفْسِي، فَقامَتْ طَوِيلًا، فَنَظَرَ وصَوَّبَ، فَلَمَّا طالَ مُقامُها، فقالَ رَجُلٌ: زَوِّجْنِيها إنْ لَمْ يَكُنْ لكَ بها حاجَةٌ، قالَ: عِنْدَكَ شَيءٌ تُصْدِقُها؟ قالَ: لا، قالَ:

---

(1) صحيح النسائي، الألباني: 3349

انْظُرْ. فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فقالَ: واللَّهِ إنْ وجَدْتُ شيئًا، قالَ: اذْهَبْ فالْتَمِسْ ولو خاتَمًا مِن حَدِيدٍ. فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ قالَ: لا واللَّهِ ولا خاتَمًا مِن حَدِيدٍ. وعليه إزارٌ، ما عليه رِداءٌ، فقالَ: أُصْدِقُها إزارِي، فقالَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إزارُكَ إنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ منه شَيءٌ، وإنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عليها منه شَيءٌ. فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَلَسَ، فَرَآهُ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُوَلِّيًا، فأمَرَ به فَدُعِيَ، فقالَ: ما معكَ مِنَ القُرْآنِ؟ قالَ: سُورَةُ كَذا وكَذا، لِسُوَرٍ عَدَّدَها، قالَ: قدْ مَلَّكْتُكَها بما معكَ مِنَ القُرْآنِ [1].

والشاهد قوله ﷺ : اذْهَبْ فالْتَمِسْ ولو خاتَمًا مِن حَدِيد. وهذا هو كلام الحي الثاني، وهو عمدة في رجوع أمتنا إلى نوره وهداه، والعمل بسناه ومقتضاه، وقبل أن تجف دموع ندمنا! وحين عزف شبابنا، وعنست بناتنا.

إن المهر ليعد بمثابة رمز تكريم، ولقوله ﷺ: (قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها)، وأنها ليست متاعا، بقدر ما إنها شقيقة الرجال، في إكرامها، وجعلها في القلب قبل العين، مقلة فؤاد، وسبب إلف ووئام.

إذ ولو كانت النساء يقدر تكريمهن بالمال، فما ظنك ببنت نبينا ﷺ ؟ وكم كان من المال مقدرا به إكرامها! وما بالنا بغيرها؟ لا حطا من قيمة، بل قياسا حسن اعتراف به، ووضعه محله اللائق به.

إن المغالاة في تأثيث منازل مدججة بمتاع زائل، ولربما مات الزوجان، أحدهما أو كلاهما، ولم يفيدا منه شيئا، بل أسرة تئن دَيْنا، طيلة حياتها، وكان سبب شقاق وطلاق.

---

(1) صحيح البخاري: 5871

إن إفراطا في تكاليف زواج، أو تفريطا فيها، هما جناحا طائر، إذا قص أحدهما وقع الطائر! ولعل حكماء عقلاء يراجعون، وكيما لاتسقط الأجنحة كلها!

وإذ بلعت الجمعيات الخيرية طُعْمَ مشاركة في تأثيث بيوتات زوجين بمغالاة، لم يكلفهما شرعنا به، أو قريبا منه، ولذا وجب ترشيدها إلزاما، لأنها سبب فتنة.

إن قول ربنا سبحانه: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[الطلاق: 7]. يمثل مجالا رحبا واسعا؛ لضبط مسألة الإنفاق، والمغالاة في الزواج، وفضلا عن أوجه الإنفاق جميعها، وإن جاءت الآية نصا في مسألة الإنفاق على المولود. وهو فقه، وجب تسخير إعلام جريء فقيه، علاجا له.

إن الشرع حين قال: ولو خاتَمًا مِن حَدِيدٍ، هو نفس الشرع الذي قال: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[النساء: 20]. برهان إنفاق كل ذي سعة من سعته، والموفق من وفقه الله.

إنه وبدل أن تفرح بيوت بزواجها، أصبحت تسابق تفريح قاعات، زعم ضيق بيوتها، لتزيد طين الدَّيْن بلة، ولأن الشوارع من حقها وأن تفرح ومجانا ! فضلا عن بيتي العروسين؛ وكيما لا تترك فارغة، لإسعاد غيرها بأهلها!

وإذ يبلغ متوسط تكاليف تأثيث مطبخ العروس في مصر ثلاث مائة مليار جنيه سنويا! وبناء على تقرير جهاز التعبئة العامة والإحصاء، أن عدد حالات

الزواج كان مليون حالة تقريبا، وبحسب بيان صحفي صادر عن الجهاز المركزي للإحصاء ؛ إذ" بلغ عدد عقود الزواج(927844) عقدا عام 2019 م"[1].

وهذا فضلا عن أبواب أخر، ليس مجالنا الآن حصرها، ولأنها لا تخفى على بصير، وهذا رقم يحطم اقتصاد الأسر والدولة، ولأنه إهدار مباشر للأموال! وإذ كان يكفي منه نزر يسير.

ومنه فإنه يعد تأثيث مطبخ العروس، وعلى هذا الوجه، من باب إسراف، نهت عنه شريعتنا، وخاصة حين نعلم أنه يقضي على تدوير رأس المال، فتشل عجلة الاقتصاد!

غزوة نجد سنة ثلاث من الهجرة

حين نعلم رجوعه ﷺ من غزوة تلو أخرى، فدلك على أن هذا النبي ﷺ ربما لم يهنأ بيوم تنام فيه عيناه قريرة، ولأن دينه يشغله لا فعل المغبونين.

كانت غزوة نجد برهان ألا ينتظر نبينا هجوم أعرابها، وحين أعلمته عيونه استعدادهم لغزوه، فطاردهم في عقر دارهم، حتى تواروا خلف رؤوس الجبال.

أنزل الله تعالى مطرا يوم غزوة نجد، تثبيتا للمؤمنين، وإذ عنده تتفتح أبواب السماء، لتنزل مطرا، وتستقبل دعاء، أن يعز الله جنده، وأن يهزم الأحزاب وحده.

(1) جريدة المال، مصر، الأحد، 8 نوفمبر 20.

بلغ من تواضع نبينا ﷺ يوم غزوة نجد، وحين نشر ثيابه؛ لتجف من مطر، وذلك بمرأى من المشركين، وهذا نظام قائد بين جنده لا كنبينا ﷺ له مثلا!

يعد نبينا ﷺ بمثابة القائد الأعلى للقوات المسلحة عصره، وأوجب ذلك توسطه جندا، وإقدامه؛ حربا وإثخانا، وتواضعه؛ نشر ملابسه؛ لتجف من مطر!

إن نشر قائد كنبينا ﷺ ملابسه لتجف من مطر، وعلى مرأى من المشركين، هو دعوة عملية، أن هذا الدين يصبغ أتباعه صبغة الرضا والبساطة واليسر.

وأن تنزل السماء غيثها، فتلك آيتان: واحدة للمسلمين، وليرفعوا أكفهم إلى ربهم، استمطار نصره، وأخرى للمشركين، فيشغلهم بها عن جنده، فصار نصرا مركبا.

أرسل المشركون يوم نجد أشجعهم؛ لقتل نبينا ﷺ، فقال له: من يمنعك مني يا محمد؟ قال: الله! فدفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده! وهذا يقين نبي!

وبين فينة وأخرى يعلمنا نبينا ﷺ كيف يكون يقينه بربه، وهو سلاحه الفاتك نحر عدوه، وتثبيت قلبه في آن؛ ليصير اليقين عقدا وفوزا مركبا!

جاءت كرة الإثخان لصالح نبينا ﷺ، وحين أخذ سيف غورث بن الحارث المشرك، وقال له: من يمنعك مني؟ فقال: لا أحد! ثم شهد شهادة الحق، ولآية رآها رأي عينه لا خبرا!

يستنبط من عمله ﷺ السابق لقلب موازين القوة لصالحه، أن يكون عمل المسلمين ذلك، فيقيمون حملات وسط القتال، دعوة عدوهم، أو توهينه، أو خلال فيه!

وقد بلغ من لطف نبينا ﷺ، وكأثر من آثار حكمته، أنه رد سيف غورث بن الحارث المشرك، وكان قد أخذه منه، وحين جاء لقتله به، اعتبار فوات مصلحة إعجازا، واعتبار مصلحة أخرى هي تعففه ﷺ حقيقة وإظهارا، ولتأثير أعمق في الخصم، ولعله أن يراجع نفسه فيؤوب، وهو ما تم له، ومن حيث أعلن إسلامه، ولما رأى بعيني رأسه إعجازا فوق الإعجاز!

وحين رجع غورث بن الحارث وقد أسلم وسأله قومه لم تقتل محمدا؟! قال: دفعني ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين! فعرفت أنه ملك! فأسلمت، آية أخرى!

إن ديننا يتأيد كل حين بمؤيدات تترى، ولم يكذب التاريخ الصادق يوما، حتى يكذب على تاريخنا، فكان حجة على القوم دامغة، وبراهين قاطعة!

إن سلاحا مداه أمتار، وحين يقلب الله به موازين القوة، وأمام إف35 أو إف ألف! هي آيات معجزات باهرات، ولِمَ لَمْ يسلم القوم، ولما رأوا، فأراحوا واستراحوا؟

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[المائدة: 11].

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[المائدة: 11]. هذا هو غورث بن الحارث، وحين جاء معاديا فآب مسلما، وكما قدمت آنفا.

قال ابن إسحاق: حدثني عمرو بن عبيد عن الحسن عن جابر بن عبد الله أن رجلا من بني محارب، يقال له: غورث، قال لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتل لكم محمدا؟ قالوا: بلى وكيف تقتله؟ قال: أفتك به. قال: فأقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس، وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجره. فقال: يا محمد، انظر إلى سيفك هذا؟ قال: نعم، فأخذه ثم جعل يهزه ويهم، فكبته الله. ثم قال: يا محمد، أما تخافني؟ قال: لا، ما أخاف منك؟ قال: أما تخافني وفي يدي السيف. قال: لا، يمنعني الله منك. ثم عمد إلى سيف النبي صلى الله عليه وسلم فرده عليه فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) [المائدة : 11][1] .

وهذه آية من آي القرآن المجيد، فيها من اللطائف والبدائع ما آثرت بيان بعضها فأقول:

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾: وفيه إثبات إيمانهم به تعالى، وهذا معنى لطيف، لتشحذ به هممهم، ارتقاء بهم إلى قمم الجبال العالية. لكنه أيضا

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٩٦

إثبات إيمانهم منه تعالى، والخبر من علٍ ليس كالخبر ممن دونه! فكان تحفيزا وثناء وتكريما فوق ما سلف!

وقوله تعالى: ﴿ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾. وفيه أن مرد كل نعمة إليه تعالى، لأنه الوهاب.

وجاءت﴿ نِعْمَتَ ﴾. نكرة لإفادة عموم النعم، وبلا حصر. وكما أنه أضيفت النعمة إليه تعالى، إلصاقا واختصاصا واستحقاقا.

وفيه أنه لا يفيد بهذا الإنعام إلا المؤمنون، وحسب.

وفيه وجوب ذكر نعمه تعالى أبدا، وتجديدا لعقد التقوى مع الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ اذْكُرُوا ﴾: هذا أمر للإيجاب، ذكرا للنعم، فيتجدد بسببه الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ﴾: وهذا نداء تنبيه، ولفت نظر، واستدعاء إيمان.

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾: وهذا تحول من الهجوم إلى كف ذاتي، وهو نعمة عند العقلاء، وبكل المقاييس.

وقوله تعالى: ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾: فيه استعلاء الرب تعالى؛ ولأنه المنعم! وكما أن فيه عموم استعلائه تعالى على سائر خلقه.

وقوله تعالى: ﴿ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ ﴾: وفيه أن البسط لا يناسب حربا! فجاء توهينا للحرب! فكان إعجازا. وأن البسط رسالة سلام، فكان لاعتبار ما سيكون! وقد أسلم غورث بن الحارث بعدُ، فكان إعجازا!

وقوله تعالى: ﴿ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ وفيه أن تكرار ﴿ أَيْدِيَهُمْ ... أَيْدِيَهُمْ ﴾ قد أشاع بلاغة، وكأنما تبدو ألا تكرار! ويكأنها وقد ازدان النظم بها حللا تبدت، وجواهر قد تربع بها النص على كل نص آخر!

وجاء لفظ الجلالة ﴿ اللَّهِ ﴾؛ لاقتضاء أن للحرب سلطانا وقهرا! وإذ لايؤديه لفظ الرب فيما لو كان قد جاء!

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ ﴾: وإذ هم فعلوا، ولم يهموا! فكأن الهم نوع فعل!

وكما أن الفعل الماضي﴿ هَمَّ ﴾: وفيه أن هذا اعتبار لما كان، ولأن فعلا يسبقه هم عادةً.

ومجيء الاسم الموصول ﴿ الَّذِينَ ﴾: لإفادة الاهتمام بهم، وبإيمانهم.

وجاءت كلمة ﴿ قَوْمٌ ﴾: نكرة احتقارا لهم؛ ولشناعة فعلهم. وكما أن مجيئها نكرة لتفيد عموما، فلا تختص بمن نزلت فيهم.

ووله تعالى: ﴿ أَن يَبْسُطُوا ﴾: مصدر مؤول؛ لإفادة استمرار عدائهم، وكيما يحذر منه. وكما أنه عموم أفاد اشتراكهم كلهم فيه، وإن كان غورث بن الحارث فردا، إلا أنه بمثابة الناطق الرسمي باسمهم!

وما أبلغ معنى خيم على النص، ومن خلال بسط تراه المقل، وتجد أثره العيون، وإذ هم يبسطون أيديهم، وإذ إننا نلمس أيديا حانية؛ لتكف أيديهم عنا! وإذ كان ربنا سبحانه هو الذي يتولى كفهم عن المؤمنين بنفسه! ودفاعا عن الذين آمنوا! وهذا معنى لطيف بهيج معا!

وقوله تعالى ﴿ فَكَفَّ ﴾: وهذ فاء العاقبة، وقد أفادت عدم إمهال لبغتهم! وكما أن فيه زجرا مخيما ونكالا مهيمنا! لمسنا أثره من الفعل﴿ كَفَّ ﴾: هكذا مضعفا لامه! ليوحي بمعان مضاعفة الكف أيضا!

وقد جاء فاعل الفعل﴿ كَفَّ ﴾ مستترا جوازيا، وللعلم به، ولأنه هو الله تعالى، ولأنه هو الفاعل لكل شيء على الحقيقة، ولئن كان وقوعه بيد سواه، سببا منه تعالى وتقديرا.

وقد جاءت غزارة الخطاب، وما بين ضمائر مستترة، تضمنت معنى الخطاب، ومنه النداء، واو الجماعة التي حظي بها النص كثيرا، وما بين كاف الخطاب ضميرا بارزا متصلا، وكل هذه الضمائر قد حشدت حشدها، ليكون النص مبرما محكما غزيرا، ومتآلفا منسجما، ولم ينله إلا نظمه المعجز المبهر، وإذ كان يمكن لضمائر هكذا غزيرة في غير نص القرآن الحكيم أن يظهر مبعثرا، لا لملمة لأبعاضه!

ولئن قيل : ولم هذا الحشد كله لتلكم ضمائر قد أتت على نص قصير كهكذا قرآن بين أيدينا؟

وقلت: ولأنه مطلق التحدي، ولأنه عموم الإعجاز، فإن هذه الضمائر بين أيديكم، تتصرفون بها، وإذ لا يمكنكم حبكها كقرآننا! وفي هذا الحيز الضيق القصير! ولو من ثقب خفي! وثَمَّ ههنا الإعجاز!

وقلت أيضا: ولأنه جاء هكذا حشدا حشدا، واهتماما بالمخاطب، ولأنهم هم ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾! فدل على قيمة الإيمان والمؤمنين به معا!

وإذ نلمس معنى لطيفا، أظلت بلاغته النص كله، وحتى بدا وكأنما هو حلية، تسر الناظرين، ولمَّا بدا وكأنهم كلما هَمُّوا بعدائكم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾: فكففنا عنكم عداءهم! أيضا﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾! هذه المرة، وفي كل مرة!

والنص كله فيه طمأنة أفئدة المؤمنين، وأنه تعالى معهم، وكما قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4].

****

الباب الثاني: أحداث السنة الثالثة للهجرة

الفصل الأول

خبر يهود بني قينقاع في المدينة

وفيه مقدمة، وعدة مباحث:

المقدمة: قال نبينا صلى الله عليه وسلم: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم فقالوا: يا محمد إنك ترى أنا قومك، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس [1].

أمعن يهود في نقض عهدهم مع نبينا صلى الله عليه وسلم، حتى أعذرهم بدعوتهم إلى الإسلام، ولأنهم يجدون ذلك في كتابهم، وإلا هزيمة منكرة كما حل بقريش يوم بدر.

المبحث الأول: سبب المواجهة

المرأة وحجابها! وإذ نقض يهود بني قينقاع عهدهم مع نبينا صلى الله عليه وسلم، وحين آذوا امرأة مسلمة في السوق، فتعبأ لذلك مسلم، فقتلوه، فحاصرهم نبينا صلى الله عليه وسلم خمسة عشر يوما، لإنزالهم على حكمه.

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: ج3/191

إن فعل يهود وحين استقوت على امرأة في السوق، هو عمل يحمل من الدناءة، ما يبين عن خلوهم من مروءة، ولعوار قرائح، وإذ وجدت من النساء سبيل انتقام.

وما ليهود وحين رأت امرأة حشمتها في ستر وجهها، ليريدوها سافرة، وهم أولاء تسفر نساؤهم، فما بقي إلا أن يحنقوا لسترها، ويسفلوا لطهارتها؟!

إن ربطا بين فعل يهود الآن جهة النساء سفورا، وبين عملهم يوم قينقاع، هو تاريخ بعضه من بعض، وحين يجعلون امرأة سلعة بوارهم، ويحسبونه كسبا!

إن جعل المرأة سوق رواج بضاعة قوم، لهو شبه بهم فعل يهود، ولأن تاريخهم يوم قينقاع مؤذ، وحين حملوا امرأة على كشف وجهها إرادة سفورها.

إن الحرية الشخصية مدخل إيذاء للعالمين، ويوم أن قصروها على عري وسفور، ومبدأهم يساوي بين سفور وحجاب، فلم إذاً حرب الحجاب كحرية شخصية؟!

لو كانت المرأة حصيفة لسترت نفسها كرامة لها، وحين اتخذت سلعة مبتذلة للناظرين، ودون مهر حلال طيب مبارك فيه، يزيدها وضاءة وبهاء وغلاء.

نؤكد أنه صلى الله عليه وسلم حاصر بني قينقاع أجل امرأة، حملوها على كشف وجهها! ونريد أن يكتب تاريخنا لنا أننا مثل نبينا صلى الله عليه وسلم، لم نحد عنه قيد أنملة واحدة، عزة وإباء.

حين حاصر نبينا صلى الله عليه وسلم بني قينقاع، لإيذائهم امرأة! هبت حمية عبد الله بن أبي بن سلول: يا محمد أحسن في موالي! وكان أولى له أن يهب حمية شرف وعزة إلى جانب امرأة!

إن عجبا يتملكنا، وحين نرى قوما يسددون رميهم في نحور النساء، وهم يحسبون أنهم يدافعون عنهن، وهم إذ يرمونهن في أعز ما يملكن، وهن صامتات!

إن نفرة تسبقها تعبئة، أن يقف الناس أجمعون، حائط دفاع عن قيمهم وإرثهم الفطري، حماية لجناب نسائهم من نهشهن، ودون حق الله فيهن حلالا طيبا.

وإذ جاءت برتوكولات حكماء صهيون، تعبيرا عن أصل فتنة، حمل لواءها يهود بني قينقاع، ولأن لكل فرع أصلا، وجب بته وقطعه، صيانة للطهارة، وصونا للعفة.

حين سن يهود بني قينقاع جواز الإجهاز على امرأة عفيفة في السوق، فدل ذلك على وزرهم، وإلى يوم القيامة، أضعافا مضاعفة، فهل هم مطيقوها؟!

إن كل سبب يجعل من خروج المرأة على غير حشمة، يحمل وزره فاعله، وإلى يوم القيامة، ليحمل أثقالا تئن منها الجبال، فما بالك بضعيف مثله؟!

إن كل تزيين لخروج المرأة على غير عفاف، كان على صاحبه إثمه، وإثم من فعلته، وإلى يوم القيامة، ولا ينقص ذلك من وزره من شيء، قدرا مقدورا!

إن كل تزيين لخروج المرأة مزاحمة، ودون لطف الحجاب، برهان العفة، كان في فاعله شبه ببني قينقاع، ومن تشبه بقوم فإنه منهم، وكانوا أول قائم به.

وحين وضع ابن سلول يده في جيب درعه صلى الله عليه وسلم، حتى يحسن في مواليه بني قينقاع! وفعلها صلى الله عليه وسلم. برهان جواز تقدير لكل حدث قدره، وحسب موازين القوى المتاحة.

كان في فعله صلى الله عليه وسلم مع ابن سلول سيد المنافقين، برهان أن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يقتل أصحابه، وإلا فقد كان يمكنه كما حاصر يهود بني قينقاع، أن يدك حصنه دكا!

المبحث الثاني: عودة إلى الحجاب

كان الحجاب بمعنى حجب الوجه معروفا، لحمل يهود امرأة على كشف وجهها فأبت! ولا يعرف إلا عن دين أمر به، وإلا ما فعلته امرأة عفيفة في سوقها.

إذا كان الحجاب برهان طهارة، فليس يجوز للطهارة أن يمسها خبث، وكائنا ما كان سببه، ولأنه صلى الله عليه وسلم أقر امرأة على أنها أبت طاعة يهود في كشف وجهها!

لو علم المؤرخون ما أصاب حجاب نسائنا، لأسموا معركة بني قينقاع (معركة الحجاب)، ولأنه كان سببها برهان فرضه، وإلا ما قامت به امرأة بوجهه ذاك.

وإذا ساغ لرجل مناداة بكشف وجه النساء، ولمرض في قلبه، فما هو مسوغ أن تجأر به امرأة، وإذ كان الأصل فيها حياؤها وإباؤها، وبدل أن تزأر لفطرتها؟!

وسبحان الله! وإذ كلما نادوا بخلع الحجاب، فإنك تراه مكتسحا آفاقا بعيدة!

وكل يوم يزداد نوره عن سابقه، وإنما الأرزاق بيد الله الرزاق ذي القوة المتين.

المبحث الثالث: حفظه تعالى لموازين القوى يوم قينقاع

والى عبد الله بن أبي بن سلول يهود، وخلع ولاءهم عبادة بن الصامت. وهذه آية لحفظ موازين القوى لصالح نبينا صلى الله عليه وسلم، وكل حين ليطمئن حاملوا اللواء أن الله معهم.

إن موازين القوى أبدا لصالح المؤمنين، ومن بين عهود الكافرين بينهم البين! وهذا من حفظ ربنا، وليضرب الله قلوب بعضهم ببعض، لنخرج نحن سالمين! ولئن كبا جواد المؤمنين مرة، فسرعان ما ينهض جوادا غير الذي كان من قبل!

وإذ حفظ الله تعالى لنبيه موازين القوي لصالحه يوم قينقاع، وحين غدر عبد الله بن أبي بن سلول، وليخلع ولاءهم عبادة بن الصامت، وبقي إحسان إدارة هذا الملف لنفيد منه جيدا!

وإذ تضرب قوى الشر بعضها بعضا؛ ولأنك تحسبهم جميعا، وقلوبهم شتى، وبقي ألا نكون مع هؤلاء ولا هؤلاء، لنحسن إدارة معركتهم معا لصالحنا، ولنخرج من بين أنيابهم سالمين.

﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشىٰ أن تصيبنا دائرةۚ فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا علىٰ ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ [المائدة:52]. وهذا مثال من تعجل ولاء الكافرين، فارتمى بين أضراسهم، لتدور عليه الدائرة!

قال الله تعالى ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ [المائدة:56]. وهذا مثال من أعلن ولاءه لله ولرسوله وللمؤمنين، فكان من حزبه ربه تعالى غالبا أبدا.

المبحث الرابع: سرية زيد بن حارثة إلى ذي القردة

تمثل سرية زيد بن حارثة إلى ذي القردة نوعا من حرب اقتصادية مثخنة في الخصم، ودون إطلاق رصاصة واحدة، وهذا عمل يفيده العقلاء، فيثخنون في خصمهم، ولايؤلبون عدوهم!

وإذ تمثل هذه السرية من قطع خطوط الإمداد، ولأن ذلك شلل تام يأتي على الخصم، فلا يمكنه حراك من بعده، وليفقد توازنه، وهذا فن عسكري باهر.

وإذ تمثل سرية زيد بن حارثة بن سراقة امتدادا لجيل سراقة بن مالك، وإذ نستحضره ماثلا أمام أعيننا، وحين أنار الله قلبه، وبعد إذ كان يريد نبينا صلى الله عليه وسلم بسوء! فكان منه الشهيد حارثة! صاحب الفردوس! وهذا حفيده زيد ولد حارثة! ﴿ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾ [آل عمران:34]!

وها هو ذا سراقة، وما زال حيا، ينظر نسله بإعجاب، ومن بعد هدى الله له، لينير الله بهم جميعا دروبا مظلمة، تسلك بالناس سبل الهدى، ودين الحق، وليظهره الله تعالى على الدين كله ولو كره الكافرون.

إن حركة دائبة، لتتبع حركة الخصم، كانت درسا من سرية زيد بن حارثة، وحين لاحق عير قريش، طريقها إلى العراق بدل الشام، وحين انكشفت سوأتهم في بدر.

إن فنا عسكريا ماهرا، وحين تخصص عيون، لمتابعة حركة سير الخصم، وتغيير خطوطه، كانت درسا من سرية زيد بن حارثة، وهذا فن يفقد الخصم توازنه.

حين يباغت خصم في درب، كان في حدسه بعده عن الملاحقة، فإن هذا في حد ذاته يمثل عنصر مفاجأة، يحول دون تصرف سريع آخر، لتغيير خط الإمداد!

غنم زيد بن حارثة كل مال قريش يوم سريته! وأريد تسجيل هكذا فخرا لجندي، أعجز خصمه حتى سلبه سائر ملكه! لتنقطع به سبله، وحتى ألفناه جثة خاملة هامدة!

حين نعلم عز زيد بن حارثة يوم سريته، وحين أذل صفوان بن أمية، صاحب خطة قتل نبينا صلى الله عليه وسلم، بيد عمير بن وهب، ليلقى صغارا، ومن بعده صغار آخر، وليذوق وبال أمره حيا.

وإذ كان صفوان بن أمية شيخا قائدا لعير قريش، وإذ لم تنفعه خبرته يوم سرية زيد بن حارثة، وكان شابا حفيدا لسراقة بن مالك، وليذله الله بيد هكذا شبل! وفي عمر حفيد له أيضا!

وكان نجاح سرية زيد بن حارثة فضلا من الله تعالى، ثم إنه عمل استخباراتي ممتاز لنعيم بن مسعود، وعمل إرشادي لفرات بن حيان، وعمل جهادي لزيد بن حارثة، وهذه أركان خطة ناجحة.

كان من نتائج سرية زيد بن حارثة، غنم عير قريش كلها، وبما فيها، وأسر الدليل حيان، ثم إسلامه من بعد، وها هو صفوان بن أمية، يجر أذيال خيبته وهزيمته، بخفي حنين!

إنه ينبغي التذكير كل مرة أن توزيع أربعة الأخماس الغنائم على مشاركي المعركة عدل وشحذ همم الجهاد بأعلى أهبة ممكنة، وهذا درس عسكري بامتياز.

وينبغي التذكير أبدا أن قسمة خمس واحد من غنائم الحرب لله ولرسوله وللمساكين وذوي القربى وابن السبيل جبر خاطر، ولما كان معذورا كل من هؤلاء.

المبحث الخامس: مقتل كعب بن الأشرف

عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من لكعب بن الأشرف؛ فإنه قد آذى الله ورسوله؟ فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال: فأذن لي أن أقول شيئا، قال: قل، فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا، وإني قد أتيتك أستسلفك، قال: وأيضا والله لتملنه، قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين -وحدثنا عمرو غير مرة، فلم يذكر «وسقا أو وسقين»، فقلت له: فيه «وسقا أو وسقين»؟ فقال: أرى فيه «وسقا أو وسقين» - فقال: نعم،

ارهنوني، قالوا: أي شيء تريد؟ قال: ارهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟! قال: فارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فيسب أحدهم، فيقال: رهن بوسق أو وسقين؟! هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة -قال سفيان: يعني السلاح- فواعده أن يأتيه، فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة، وهو أخو كعب من الرضاعة، فدعاهم إلى الحصن، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة، وأخي أبو نائلة -وقال غير عمرو: قالت: أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم، قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة؛ إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب- قال: ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين -قيل لسفيان: سماهم عمرو؟ قال: سمى بعضهم؛ قال عمرو: جاء معه برجلين، وقال غير عمرو: أبو عبس بن جبر، والحارث بن أوس، وعباد بن بشر- قال عمرو: جاء معه برجلين، فقال: إذا ما جاء فإني قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه، فدونكم فاضربوه -وقال مرة: ثم أشمكم- فنزل إليهم متوشحا وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحا، أي أطيب. وقال غير عمرو: قال: عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب، قال عمرو: فقال أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم، فشمه، ثم أشم أصحابه، ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم، فلما استمكن منه، قال: دونكم، فقتلوه، ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه [1].

وإذ قال نبينا صلى الله عليه وسلم: من لكعب بن الأشرف فإنه قد أذى الله ورسوله: وهكذا يكون إيذاء الله ورسوله سببا موجبا لقتل فاعله، وهكذا يكون حث القائد عليه.

(1) صحيح البخاري: 4037

وإذ كان إيذاؤه تأليب قريش على نبينا صلى الله عليه وسلم بعد هزيمتها في بدر فكان يلزم إسكات صوت كهذا.

وإذ تجشم محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف، وبحيلة فطنة، برهان تخطيط فريد، لفوز معركة، وإنكاء بعدو، ودون خسائر، أو أقلها ما أمكن، وهذا فن عسكري.

وإذ طلب محمد بن مسلمة، إذن نبينا صلى الله عليه وسلم، تحايلا على كعب بن الاشرف؛ للإمكان به. وفيه استئذان القائد لعمل قبل شروع فيه، ليرفض، أو يقر، أو يوجه، أو يعدل.

إن استئذان محمد بن مسلمة من نبينا صلى الله عليه وسلم أن يحتال لقتل كعب، فيه جواز الحيلة، شرط أن تكون صدقا صرفا، لا كذبا محضا، وما كانت حيلة إلا لخفاء وجهها.

وإذ قالت امرأة كعب بن الأشرف: أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم! وحين رأته خارجا ليلا، لملاقاة محمد بن مسلمة وأبو نائلة، وهذه هي رسالة السماء لها وله قبل قتله.

وهي رسالة كافية أن يعود كعب بن الأشرف أدراجه، ولأنها من امرأته، لا غيرها فتؤخذ على أنها ضاغط نفسي لإثنائه! لكنه قدره تعالى، وحين تعمى أمامه الأبصار.

إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا، وإني قد أتيتك أستسلفك. وهذه هي حيلة محمد ابن مسلمة، لقتل كعب بن الأشرف، وهو تعريض بالإنفاق، فكان صدقا لا كذبا.

إن استئذان محمد بن مسلمة من نبينا صلى الله عليه وسلم أن يحتال لقتل كعب فيه جواز الحيلة شرط أن تكون صدقا صرفا لا كذبا محضا وما كانت حيلة إلا لخفاء وجهها.

وقال موسى بن عقبة: وكان كعب بن الأشرف أحد بني النضير أو فيهم قد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء، وركب إلى قريش فاستغواهم، وقال له أبو سفيان وهو بمكة: أناشدك أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه، وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق؟ إنا نطعم الجزور الكوماء ونسقي اللبن على الماء ونطعم ما هبت الشمال. فقال له كعب بن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلا. قال فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم: **(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا)** [النساء: 51 - 52].

قال موسى ومحمد بن إسحاق: وقدم المدينة يعلن بالعداوة ويحرض الناس على الحرب ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يشبب بأم الفضل بن الحارث وبغيرها من نساء المسلمين [1].

قال أبو سفيان: إنا نطعم الجزور الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبت الشمال. وهذه مفاضلته عن الهدي ودين الحق، ولا يستويان مثلا!

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/٨

ولقد بلغ الجهل بأبي سفيان مفاضلته ملئ بطون قومه على نور الإسلام وهداه وسناه، ولأن الإسلام جاء يهدي قلوبا لتسمو، لا ليملأ بطونا لتسفل!

وإذ بلغ الحمق أوجهه، وحين أقر كعب بن الأشرف أبا سفيان أن إطعامه الناس أفضل عند الله من دين محمد! لينزل قرآن يمقتهما وفعلهما إلى يوم الدين، وبقوله تعالى﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هٰؤلاء أهدىٰ من الذين آمنوا سبيلا * أولٰئك الذين لعنهم اللهۖ ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾[النساء:51و52]. وهذا لعن القرآن الكريم لأبي سفيان وكعب بن الأشرف، وحين زعما أن إطعام الطعام أفضل من دين الإسلام.

وإن هذا الزعم من أبي سفيان وكعب بن الأشرف، ليقرب من قوله تعالى:

﴿ وما يستوي الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ [فاطر:19-22].!

إن الإيمان بالجبت والطاغوت هو أصل فساد القلوب، ولأنهما يزيحان هدى منها، ولأنهما يحلان بغض دين الحق والعمل به، وإن زعموا جهلا أن عملهم أهدى سبيلا!

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: والصواب من القول في تأويل: "يؤمنون بالجبت والطاغوت"، أن يقال: يصدقون بمعبودين من دون الله، يعبدونهما من دون الله، ويتخذونهما إلهين [1].

(1) تفسير الطبري، الطبري: 8 / 465

وذلك أن "الجبت" و"الطاغوت": اسمان لكل معظم بعبادة من دون الله، أو طاعة، أو خضوع له، كائنا ما كان ذلك المعظم، من حجر أو إنسان أو شيطان[1].

وإذ كان ذلك كذلك، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها، كانت معظمة بالعبادة من دون الله، فقد كانت جبوتا وطواغيت. وكذلك الشياطين، وحين كان الكفار تطيعها في معصية الله. وكذلك الساحر والكاهن اللذان كان مقبولا منهما ما قالا في أهل الشرك بالله.

وكذلك حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، لأنهما كانا مطاعين في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله، فكانا جبتين وطاغوتين[2].

وكان قد أصيب الحارث بن أوس، يوم قتل كعب بن الأشرف، فتفل صلى الله عليه وسلم على جرحه فاندمل. وهذه بركة نبينا صلى الله عليه وسلم.

وحين قتل كعب بن الأشرف، فما أصبح بيت من يهود إلا ويخاف على نفسه. وهذه فائدة الإعمال في أئمة الكفر، يخاف بهم من أدناهم، وهذا فن عسكري.

ليس شرطا أن يؤتى على إمام الكفر برأسه، حال عدم إمكانه، وإنما حربا إعلامية ضروسا، تجعله يحرم نومه، ويهز ركنه، ويشخب فؤاده، فلا يمكنه قراره.

---

(1) المرجع السابق، 465/8

(2) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٥ / ١٨٥

وإذ تمثل واقعة قتل كعب بن الأشرف وحدها إثخانا في يهود، كما أنكأت وقعة يوم بدر في قريش، وهذا فن إدارة تعدد الجبهات، فيمعن في أولاها، وكل بحسبه ووقته.

إن طول لسان كعب بن الأشرف، وتجرؤه على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وحين لم تسلم منه نساء المؤمنين، كانت حيثيات موجب إهلاكه، وقد ألقى بنفسه حتفه!

من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه: هذا حديث ضعيف. لأنه موجب فوضى، نهى عنها ديننا، ولأن ديننا تخطيط بإحكام، وآداب ونظام. فلا يخل بأمن جهة، ولايوهن جبهة.

إن من أهم ما يلفت النظر، في قتل كعب بن الأشرف، أنه لم يكن مجرد كافر فحسب، بل شاعرا لسنا، لسانا إعلاميا فجا، فكان ثلغ لسانه قربى، وهذا من فقه الموازنات.

إن أمن الأمة سياج منيع، والاقتراب منه خيانة عظمى، وهذا ما حدث يوم آذى كعب بن الأشرف الله ورسوله، وألب على مواجهة المسلمين، وشبب نساءهم.

الفصل الثاني

غزوة أحد

قال الله تعالى ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ۚ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ۗ والله لا يحب الظالمين﴾ [آل عمران:140].

وإذ كان يوما على قريش، هو يوم بدر، وآخر على يهود، فقد كان حصار بني قينقاع من بعد بدر، وحصار بني النضير من بعد يوم أحد، وحصار بني قريظة بعد الأحزاب، وهذا فن عسكري باهر.

إن المبادلة بين إجهاز على قريش يوما، وآخر على يهود يوما آخر، برهان أن الحق حاضر، وكل مرة، فلا يطلن أحد برأسه، وإلا حصد الحق رأسه، جزاء وفاقا.

وإنما حرمت الخمر بعد غزوة أحد، عام ثلاث من الهجرة، يعني بعد البعثة بستة عشر عاما! برهان تدرج شرعنا، وحين تمهد أرض خصبة، ينادي فلاحوها بزرعها، وكما حصل من الفاروق، يوم ان قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا [1].

وفيه مباحث:

(1) تفسير القرآن، علي بن المديني: 171/3. خلاصة حكم المحدث: صحيح!

المبحث الأول: علم نبوة ضاف!

أحد جبل يحبنا ونحبه: عن أبي حميد الساعدي: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وساق الحديث وفيه، ثم أقبلنا حتى قدمنا وادي القرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني مسرع، فمن شاء منكم فليسرع معي، ومن شاء فليمكث، فخرجنا حتى أشرفنا على المدينة، فقال: هذه طابة، وهذا أحد، وهو جبل يحبنا ونحبه[1].

وإذ قال نبينا صلى الله عليه وسلم: أحد جبل يحبنا ونحبه. ولعل اختياره ربانيا أن يكون أرضا لمعركة يوم أحد، برهان علاقة متينة بين محبة أرض، والجهاد عليها، فألا حسنا!

وفيه إثبات أن الجماد له مشاعر، كما للحي ولو من وجه، فقد نسب إليه نبينا صلى الله عليه وسلم محبته له، وهذا برهان وجوب الإحسان إلى كل شيء!

فعن شداد بن أوس قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته[2].

قال صلى الله عليه وسلم: أحد جبل يحبنا ونحبه. وقال ربنا تعالى ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله ۗ وما الله بغافل عما تعملون﴾ [البقرة:74]! فدل على أن للجبال أحاسيس خير! وهذا بيان أن نحذو حذوها شبها خشية وإجلالا.

(1) صحيح مسلم: 1392
(2) صحيح مسلم: 1955

قال صلى الله عليه وسلم أحد جبل يحبنا ونحبه. وقال ربنا تعالى ﴿فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكا وخر موسىٰ صعقا﴾ [الأعراف:143]! وهذا عقد اتفاق بين الوحيين، إثبات استجابة لحجر! وهي أخص خصائص الكائن الحي!

المبحث الثاني: علم نبوة ضاف!

نخلة تئن لفراق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: وهذه نخلة بكت وكطفل يئن وحين كان يقعد عندها صلى الله عليه وسلم للخطبة واستبدلها بالمنبر.

فعن جابر بن عبد الله: أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ألا أجعل لك شيئا تقعد عليه؟ فإن لي غلاما نجارا قال: إن شئت، قال: فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر الذي صنع، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها، حتى كادت تنشق، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم حتى أخذها، فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت، قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر[1]. ونريد أن نكون كنخلة أشد حبا له صلى الله عليه وسلم.

قال صلى الله عليه وسلم أحد جبل يحبنا ونحبه. وهاتان شجرتان ناداهما صلى الله عليه وسلم (التئما علي بإذن الله) فالتأمتا[2]! وهذه دلائل نبوة فوق الإعجاز فليقرأها مبغضوه صلى الله عليه وسلم!

(1) صحيح البخاري: 2095
(2) صحيح مسلم: 3012

قال صلى الله عليه وسلم أحد جبل يحبنا ونحبه. وهذه حصوات كن يسبحن بين يديه صلى الله عليه وسلم برهان أن الحصى دقيقا! وكالجبل جليلا! كل يسبح بحمد ربه!

وقال الله تعالى ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ۚ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولٰكن لا تفقهون تسبيحهم ۗ إنه كان حليما غفورا﴾ [الإسراء:44].

المبحث الثالث: علم نبوة ضاف!

الحصى يسبح بين يدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: عن رجل يقال له: سويد بن يزيد السلمي قال: سمعت أبا ذر يقول: لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيته كنت رجلا أتبع خلوات رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيته يوما جالسا وحده فاغتنمت خلوته فجئت حتى جلست إليه فجاء أبو بكر فسلم عليه، ثم جلس عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبي بكر، ثم جاء عثمان فسلم ثم جلس عن يمين عمر وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع حصيات - أو قال: تسع حصيات - فأخذهن في كفه فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن، ثم أخذهن فوضعهن في كف أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان

فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((هذه خلافة النبوة)) [1].

أحد يحبنا ونحبه وهو على باب الجنة، وعير يبغضنا ونبغضه وهو على باب من أبواب النار [2]. هذا حديث ضعيف. و(أحد جبل يحبنا ونحبه) حديث صحيح.

فعن أبي عبس عبد الرحمن بن جبر: أحد هذا جبل يحبنا ونحبه، على باب من أبواب الجنة، وهذا عير جبل يبغضنا ونبغضه، على باب من أبواب النار [3].

وجعل السهيلي حديث: المرء مع من أحب [4]. مقويا حديث: (أحد على باب الجنة) السابق، ولا غرابة؛ فالحديث الأول عام يشمل معية المرء لمن أحب من إنس ومن أحد، ومن غيرهما.

ومنه فإن اعتراض العماد ابن كثير على تقوية حديث: أحد على باب الجنة، بحديث المرء مع أحب، تأسيسا على أن أحدا ليس امرأً، في غير محله؛ لأن الحديث عام.

---

(1) كنز العمال، المتقي الهندي: (386/12)

(2) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٤/١٣. قال: وهذا إسناد ضعيف جدا، فيه عبدالمجيد بن أبي عبس، قال فيه أبو حاتم في الجرح (٦/ ٦٤): لين. وفيه أبوه ابن أبي عبس، فسره الخطيب في التالي فقال: عبدالمجيد هو ابن أبي عبس بن محمد بن أبي عبس بن جبر، وقال الحافظ في اللسان (٤/ ٥٥): وعبدالمجيد هذا نسب في هذه الرواية لجده، وهو: عبدالمجيد بن محمد بن أبي عبس بن جبر: تخريجات السهلي، جبل عير والأحاديث الواردة في شأنه: ج1.

(3)3 الجامع الصغير السيوطي:240. حكم المحدث: ضعيف.

(4) صحيح البخاري: 6168

وإذ كانت غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، وكانت غزوة أحد في السنة الثالثة منها، وإذ تخللتهما غزوات وسرايا أخر، برهان تدريب متواصل للقوات، وكيما تكون على أهبة استعداد أبدا.

المبحث الرابع: قال الله تعالى ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم﴾ [آل عمران:121].

كان هذا يوم أحد، وإذ غدا صلى الله عليه وسلم من أهله مودعا، ولأن القتال تحفه جواذب، ومنها الأهل، فكان انخلاعا منها.

وكان هذا بعد صلاة الجمعة، برهان عمل فاضل، وهو غدوه للجهاد، من بعد عمل فاضل، وهو يوم الجمعة.

وهذا خبر جاء بمعنى الأمر، وهو من أدب القرآن العظيم، نفيده كلامنا، تنمية بشرية باحتراف!

والغدوة نهارا، فدل على بدء النفرة لغزوة أحد نهارا، وكان بعد صلاة الجمعة، برهان إقدام وبذل.

وفيه أهمية القائد، لتنظيم الصفوف، وكيما يكونوا على كلمة سواء، ويرجع إليه في إدارة الصف.

إن قدر وشرف هذه الأمة، أنها في رباط، وإلى يوم القيامة، فكان الجهاد إباءها وعزتها وكرامتها.

ودلنا على أهمية يوم أحد، أنه مات أحد الأنصار، يوم نفيرها، فصلى عليه نبينا صلى الله عليه وسلم، ثم انصرف إليها قائلا: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل.

فعن جابر بن عبدالله، أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال: رأيت كأني في درع حصينة، ورأيت بقرا منحرة، فأولت الدرع المدينة، والبقر والله خير فإن شئتم أقمنا بالمدينة، قالوا: ما دخل علينا في الجاهلية أفيدخل علينا في الإسلام؟ قال: شأنكم إذا، قال: فلبس رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته، فقالوا: ما صنعنا؟ رددنا على رسول الله رأيه فجاءوا، فقالوا: شأنك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: الآن ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل [1].

إن يوم أحد كان سببه قريش، ولما أرادت ثأرا لهزيمتها يوم بدر، وحين اغتصبوا أموال المسلمين في بدر، وهكذا كانوا هم رأس الحربة في المرتين.

وإذ كان غدوه هذا قبل بدء المعركة بيومين فدل على أن بدء المعارك يكون ومن يوم تجهيزها.

وهذه وظيفة القائد، تنظيم الصفوف، وإيكال المهام، ولبس اللأمة معهم! استنهاض طاقاتهم.

﴿تبوئ المؤمنين﴾ وهذه شهادة القرآن، لأهل أحد، أنهم كانوا مؤمنين، وهذه منقبة لهم، ولأنهم خرجوا جهادا في سبيل ربهم، وابتغاء مرضاة بارئهم.

(1) إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري:368/6. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

ولعاقل أن يصور كيف خرج المؤمنون، يوم أحد، وبلا فرس واحد، لملاقاة عدو، بمائة فرس، يقودها المغوار خالد بن الوليد، وليعلموا أنه ﴿وما ٱلنصر إلا من عند ٱلله ٱلعزيز ٱلحكيم﴾ [آل عمران – 126].

إننا لا نعجب إلا من خروج أهل أحد بلا فرس واحد، مقابلة مائة فرس لعدوهم، ولأننا أدركنا ههنا لماذا أسماهم ربهم بالمؤمنين! فكانوا بها جديرين.

﴿تبوئ المؤمنين﴾: وهذه تسميته تعالى لأهل أحد، دلالة ثبوت إيمانهم، لا مجرد وصف، قد يكون يوما، وقد يفارق أياما، وهذه من لفتات القرآن المجيد!

﴿مقاعد للقتال﴾ مقاعد أي: مواقف، فجاءت المقاعد دلالة الثبوت والمداومة، وعدم المفارقة، عكس مواقف؛ لأنها تحمل معنى التأقيت والفوات والمغادرة، وهذه من بلاغة القرآن العظيم!

﴿مقاعد للقتال﴾ وتحمل معنى الإصرار على القتال، كما أن فيها أفضلية الرمي قعودا، وكيلا ينكشف الجند أمام عدوهم، وهذا فن عسكري، وسبق قرآني!

﴿مقاعد للقتال﴾: فتتخذ لهم معسكرا وموضعا لقتال عدوهم، وذلك بعد جلسة مشاورة وعصف ذهن. فكان قراره صلى الله عليه وسلم.

﴿والله سميع عليم﴾: سميع جلسة المشاورة، وعليم بأحوال العباد، برهان استصحاب معيته تعالى، فألا حسنا، وأن ذلك موجب إتقان، وداعية اطمئنان.

المبحث الخامس: قال الله تعالى ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[آل عمران:122].

والطائفتان هما بنو حارثة وبنو سلمة، وحين هموا بالرجوع يوم أحد، فسمي فشلا.

وفيه ذم همهم، ولأنه برهان جبن، وقرين خور، وفيه للمؤمنين علو شأنهم؛ ولأنه أثبت أن الله تعالى وليهم.

وفيه مزاوجة بين العقاب ﴿أن تفشلا﴾، وبين الجزاء ﴿والله وليهما﴾.

بيد أن لطيفة: ذلك أنه النص لم يترك وقتا، ولو قليلا، لتفهم هذه المزاوجة الحانية، وكيما لا نعمل فيها عقولنا فتروح يمنة أو يسرة، ومن ثم لا تحوم حول حلاوة البيان، وطلاوة الفرقان! ولما جاء التعبير ﴿والله وليهما﴾، في إثر التعبير ﴿أن تفشلا﴾ مباشرة، وكيما تستروح نفوس، أن الله تعالى مولاها، ولئن عثرت مرة! وهذا من لفتات قرآننا البلاغية، وحين يربت على صدور المؤمنين.

وإن قوما هم الأصحاب، كانوا محظوظين، ولما ينزل فيهم قرآن، يبلغ بهم آفاقا عليا، وحين كان الله تعالى وليهم، لا هم أولياء له، وإن وقع تضمنا وفرق بينهما عظيم. وذلك لأن سبق ولايته تعالى، قمن باطمئنان العبد، وهدوء باله، واسترواح نفسه، وهداية قلبه، أن الله تعالى مولاه، وما وراء ذلك من إكلاء، ورعاية، وحفظ، وسائر المعاني الإيجابية المؤثرة.

إن هم بعض الأصحاب، يوم أحد، بالقعود وعدم الخروج، كان صغيرة، ودل على أن الصغائر لا تقدح في أصل الولاية لله، ولأنه يبقى أنه هم لا فعل.

وإنه ولئن كان الهم بعدم الخروج، يوم أحد، كان حديث نفس، إلا أن القرآن أسماه جبنا وفشلا، ولأن الهم مطية الفعل، وداعية له، وجوب مجاهدة النفس.

إنه ولئن كان الهم بالذنب حسنة، إلا أنه تعالى قد أسماه فشلا، حذرلجج فيه، ليكون داعية إحجام، لا موجب إقدام، وهذه من لفتات القرآن المجيد!

إن حديث النفس وحين يطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم عليه، كان فضلا منه على عبيده، وكيما يؤبوا إلى حظيرة الإيمان والتقوى، ليكون العبد بصيرا بحاله، وعاملا لمآله.

وفرق بين حديث نفس، كان هما، فلم يخرج به عبد من مصاف الأولياء، ليعصم الله تعالى صاحبه، وبين خور مكتسب، كان برهان فراغ قلبي، وخواء إيماني، ليخيب الله فاعله!

عن عبدالله بن عباس ري الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة[1].

(1) صحيح البخاري:6491

ينبغي مجاهدة نفس، عن هم وخاطرة، خشية اندفاعها، إلى فعل الذنب، وكما هم عبد الله بن أبي ابن سلول، يوم أحد، فرجع بثلاثمائة من ألف، ولولا نصر الله لانخذلوا!

المبحث السادس: أشيروا علي ما أصنع؟

هذا هو منهجه صلى الله عليه وسلم، كل أمره، يستشير أصحابه، وهو النبي المؤيد بوحي السماء، برهان هدي نتبعه، وسنن نترسمه، أمرنا كله أيضا.

وهذا هو قوله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، ولأن المعارك ذات أركان وحارات وزقاق، فلزمت التعبئة، وبإشراك الناس، فليس القائد محيطا بكل.

ولأنه دلت تجارب العقلاء، أن عاملا قد يقول قولا، يقلب به موازين المنشأة، وحين يدلي برأي يحارون به، ولم يك مثلهم، بل كناسا.

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم يوم أحد: أشيروا علي ما أصنع؟ فقالوا: يا رسول الله، اخرج إلى هذه الأكلب[(1)]! وفيه جواز إطلاق لفظ الكلب على الكفار خبرا على ما جاء، لا مجابهة ولان النص لا يحتمله. وإنما جوزنا ذلك، ولأنه صلى الله عليه وسلم سمعه منهم، ولم ينكر.

وأكلب: جمع قلة، على وزن أفعل، تقليلا لأمرهم، وذما لشأنهم، وتوهينا لقوتهم.

---

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/١٨٩

قالت الأنصار يوم أحد: يا رسول الله، ما غلبنا عدو لنا أتانا في ديارنا، فكيف وأنت فينا [1]!! وفيه مضاء التاريخ العسكري للقوم سلبه وإيجابه.

وفيه طمأنة القائد، ومسرته بذلك، وهو داعية بذل جنده، والتبرك به صلى الله عليه وسلم.

وإذ دعا نبينا صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي ابن سلول، يوم أحد ولم يدعه قط قبلها، فاستشاره. فقال يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب [2]. وفيه جواز استشارة منافق أو كافر، لرأي صواب عنده، ودفعا لشره، وعلى حذر منه.

وإذ أشارت الأنصار وعبد الله بن أبي ابن سلول بالخروج، لملاقاة قريش، يوم أحد، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة، فيقاتلوا في الأزقة [3]. وهذه حرب العصابات، ولأنها في العدو إنما تكون أثخن أحيانا.

وإذ أشارت الأنصار وعبد الله بن أبي ابن سلول عليه صلى الله عليه وسلم بالخروج يوم أحد، إلا أنه صلى الله عليه وسلم فضل استدراج عدوه إلى داخل يثرب؛ ليكون أمكن للكل المشاركة، ومن كل صوب، وحين يمكن للرجال وللنساء وللأطفال اشتراكهم في الإثخان في قريش، فيفقدها توازنها.

---

(1) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: ج ٢ / ٦٨

(2) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/ ١٨٩

(3) المرجع السابق: ج ٢/ ١٨٩

أتى النعمان بن مالك الأنصاري إلى نبينا صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله لا تحرمني الجنة، فو الذي بعثك بالحق لأدخلن الجنة! فقال له بم؟ قال: بأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وأنى لا أفر من الزحف. قال: صدقت. فقتل يومئذ [1].

وإذ كان التوحيد وعدم الفرار، موجبين لقسم النعمان بن مالك، أنه سيدخل بهما الجنة سببا، وإذ أقره صلى الله عليه وسلم على قوله، برهان أهمية التوحيد، وفضل الزحف غير مدبر.

وحين علم الله تعالى صدق النعمان بن مالك حب الشهادة، وشغفه بها، أكرمه بها، يوم أحد؛ لأنه: اصدق الله يصدقك. وهذه همم يقوم عليها دينه تعالى.

وإذ قالت الأنصار يوم أحد: بئسما صنعنا، نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحي يأتيه [2]! وهذا كان أدبهم مع نبيهم صلى الله عليه وسلم، وكان هذا لطفه صلى الله عليه وسلم بهم، وهذان ركنا المعاملة الحسنة: أدب مرسل، ولطف مستقبل.

وإذ كان الناس يوم أحد فريقين: فريق يرى عدم الخروج، لتهجم قريش، فينزلوا بهم، وآخر يرى الخروج، لملاقاتهم، حتى لا يتهمون بالجبن، فاختار صلى الله عليه وسلم ما أشار به الفريق الثاني، وهذا برهان نزوله صلى الله عليه وسلم على مشورة أصحابه.

---

(1) المرجع السابق: ج ٢/ ١٨٩

(2) تفسير الرازي، الرازي: ج ٨ / ٢١٨

قال أحدهم: شهدت أحدا فنظرت إلى النبل تأتي من كل ناحية ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها كل ذلك يصرف عنه [1]. وقال الله تعالى ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا۩إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ [الحج:38].

إن المسلم ليتربى على مائدة القرآن العظيم، وإذ يستمد عونه من ربه سبحانه، إن حال ضعفه أو قوته، أو حال فقره أو غناه، أو سقمه أو صحته؛ ولأنه يدور مع القرآن تماما حيث دار.

المبحث السابع: قال الله تعالى ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة۩فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ [آل عمران:123].

يذكر ربنا سبحانه عباده، يوم أحد، نصره لهم يوم بدر، وقد كانوا أذلة؛ لقلة عددهم وعتادهم. وكيما يعيشوا هذا الإحساس المرهف، وإذ هم ضعفاء فقواهم ربهم، وإذ هم قلة فأكثرهم بارئهم.

وإذ كان تذكيره تعالى لعبيده، يوم أحد، بنصره لهم، يوم بدر؛ طمأنة لقلوبهم، وأنه ناصرهم كل حين، وإن مسهم قرح يوما، وهذا هو مطلق التسليم له تعالى.

وإذ كان نزول الملائكة، مددا منه تعالى، لا عن حاجة به إلى ذلك، لأنه هو الغني، وإنما تعليما لنا، أن الأخذ بأعظم أسباب النصر واجب، وأن إهمالها موجب خذلان.

---

(1) البداية والنهاية، ابن: ج ٤ /٣٤

وقال تعالى ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ۙ ويوم حنين ۙ إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ [التوبة:25].

وأنه كاد يحيق بهم خذلانهم، يوم حنين، وإذ أعجبتهم كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئا، ولكنه تعالى لطفا بهم منه سبحانه، لم يرد إلا أن يرفع رؤوسهم خفاقة عالية مشرئبة، تطاول عنان السماء، حين نصره لهم، وهاهم أولاء وإذ تراهم خضعانا خشعانا، لرب كريم، كان هذا هو دأبه معهم سبحانه أبدا.

إن سنن الله الجارية لاتحابي، وحين شرط الله **﴿بلىٰ ۚ إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هٰذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾** [آل عمران:125]. وهذا نظم عميق أداؤه حافلة معانيه غزيرة ألطافه! وإذ لأنه بوجود الصبر والتقوى، فمعهما لا يضركم كيدهم شيئا! وفوات أحدهما أوكلاهما، يضركم كيدهم أشياء.

وإذ قلت شرطا، وما هو بشرط، بل هو توجيه حان لطيف، وإن تحمل معنى الشرط، وعلى طريقة القرآن المجيد، وإذ يأخذ بأيدينا، إلى مدارج السالكين والمتقين، بظلال ترف هدى، وتتلمس حنوا ولطفا!

وإذ كان التلبس بالصبر والتقوى، هما العاملان الحاسمان الحائلان، دون ضر المؤمنين، ومن كيد الكافرين، برهان عض عليهما بالنواجذ، وسؤاله تعالى الصبر والتقوى، وأخذا بأسبابهما.

قال نفر من قريش: يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرا، ففعلوا[1]. وهكذا كان المال أداة صد ومكر وكيد.

إن المال عطية الله تعالى إلى خلقه، وهو المالك الحقيقي له، ومنه فلا يجوز استعماله إلا في مراضيه، لمنح العبد بركته، وإلا أصابه خذلان ما الله به عليم.

كان استعمال المال، وعلى غير ما وجهه، يوم أحد، صدا عن سبيله تعالى، وقتلا لعبيده، وهما صورتان، أكد القرآن على حسرة تنال فاعل ذلك، وخذلانا وانهزاما.

وإذ كان استعمال المال للصد عن سبيله تعالى، يوم أحد، وغير يوم أحد، برهان أن فاعله يمتطي بذات نفسه سبيل حسرته، وطريق هزيمته، والملوم هو، لا غيره.

وإن حسرة أعلن عنها القرآن المجيد، وحين تتلبس منفقا مال ربه، صدا به عن سبيله، ولتجعله هائما، لا يدري له رأسا من قدم، أو يمينا من شمال، ليذوق وبال أمره.

وإن إنفاق المال في سبيل الله، هو إقراض له تعالى، وهو من ثم يضاعفه له أضعافا كثيرة! وإذ قال الله تعالى ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ۚ والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ [البقرة:345].

---

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ /١٨٧

وإذ كان إنفاقه للصد عن سبيله تعالى حسرة وخذلانا وانهزاما، ومصيرا كالحا ينتظرهم على أبواب جهنم وبئس المصير! وإذ كما ال الله تعالى ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ۚ فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ۗ والذين كفروا إلىٰ جهنم يحشرون﴾ [الأنفال:36].

وهذه مقارنة لطيفة بين فريقين، ولعاقل أن يختار!

وإن لكل شيء أولويات، وأولى أولويات المال أن يكون في سبيله تعالى، ولو بشق تمرة، والمهم ههنا هو النية، لأنه يعظم معها الصغير، ويتضاءل دونها الكبير!

والأصل في الذين كفروا هو إنفاقهم أموالهم؛ ليصدوا عن سبيل الله، وهذا خبر في سياق الذم، وهو تأكيد من خلال إن، ولأنهم فاعلوه لا محالة! وهذا من إعجاز القرآن الحكيم، وإذ كان بإمكانهم التوقف عن ذلك تحديا للقرآن، ولكنه وأنى لهم؟ وإذ لايفوتون القرآن قيد شيء!!! وإذ لا يفوتهم القرآن أي قيد كان في اللغات قيدا!!!

وإن هذا المال الذي بين أيدينا، عطيته سبحانه إلى عبيده، ومنحته سبحانه إلى خلقه، والمؤمل فيهم، هو إنفاقهم له، في مراضيه ومحابه، ليكون لهم نورا وحجة وبرهانا؛ ولأن قدمي عبد لا تزولا، حتى يسأل عن ماله، من أين اكتسبه، وفيم أنفقه!

فعن أبي برزة الأسلمي نضلة بن عبيد، أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال: لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه[1].

وإن هذا المال الذي هو ماله تعالى على الحقيقة، له سبيل تحصيل حلال، وهو ما يليق بتعظيم مالكه، وهو الله تعالى، وطريق حرام، وهو تعد يذوق وباله فاعله.

وإذ كان وجود المال لدى قريش في أحد ابتلاء، حين اتخذوا منه مطية لمجابهة حق دعاهم إليه نبينا صلى الله عليه وسلم، فكان ظلمهم مركبا: ظلم كفرهم، وظلم إنفاقهم معا.

ولايكون المال سببا للسعادة ولا للأمن، وإلا سطا الناس بعضهم على بعض، فكان الأمن والطمأنينة محصورين في ذكره تعالى، لهثا باللسان أبدا! وإذ قال تعالى ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ۗ ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد:28].

وإذ حصر الله تعالى الذكر سببا للطمأنينة، وعلى الباحثين عنها ألا يتعبوا كثيرا؛ لأنها متناول كل أحد، وحين كانت ذكرا يسيرا سهلا، لا فعلا مرتقى صعبا.

وإن المال مطية عاقل إلى الرضوان، وحين ينفقه على وجهه، في سبيله تعالى، وأقرب وجهه هو الأهل والأقربون، فقها ودينا، لأنهم أولى بالمعروف، وإذ قال الله تعالى ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولٰكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال علىٰ حبه ذوي القربىٰ

(1) صحيح الترمذي الألباني: 2417. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدواۖوالصابرين في البأساء والضراء وحين البأسۗأولٰئك الذين صدقواۖوأولٰئك هم المتقون﴾ [البقرة:177].

ولا يكون المرء غنيا عن كثرة ماله، وإنما غناه في نفسه، التي رضيت بالعطية، قليلها أو كثيرها، وحين يستوي أمامه، وفي قلبه، تراب الدنيا ومدرها.

وإنه ليس يمنع ديننا تحصيل مال، ولأنه به قوام حياته، وإنما يمنع أن يكون ذلك شططا حراما، أو داعية بطر، أو طغيان، أو سفه، أو شح، أو جرثوب بخل.

وإذ نهمس في آذان المتبرعين بأموالهم وفوائض حاجاتهم، أن يتحسسوا بها ذوي قرباهم، سرا لاعلانية، فذلكم أتقى وأقرب، وأعظم ثوابا وأجرا وأصوب.

وإنه حين يتحسس كل ذي فضل قرباه، ولرب واجد ذا حاجة فيهم، وحينها سددنا ثغرا، لاينفذ من خلاله تأوهات عوزهم، وأنين فلذاتهم، وإذ ضمدنا جراحاتهم.

إن تلمس حاجات المعوزين سرا، لتحفظ عليهم حياءهم، ولرب يوم كنا سبب نزع ماء وجوههم، وحين فضحنا أمرهم، ويوم كشفنا سترهم، وهذا فقه!

لست أسابق حدثا، يوم أحد، وما حل فيه، وبرهان صحة هدي نبينا صلى الله عليه وسلم، جر قريش إلى يثرب، لكنه ساير رأي أصحابه، كيما لايتهم، وحفظا لمؤازرتهم ونشاطهم.

وإذ قال نبينا صلى الله عليه وسلم: رأيت فيما يرى النائم كأنى مردف كبشا وكأن ضبة سيفى انكسرت فأولت أنى أقتل صاحب الكتيبة وأن رجلا من أهل بيتى يقتل[1]. فقتل حمزة، وقتل رسول الله ﷺ طلحة، وكان صاحب اللواء. ولأن رؤيا الأنبياء وحي.

وهذه إرهاصات نتيجة أحد! وإن لم يعبر عنها نبينا صلى الله عليه وسلم صراحة، وحفظا لمعنويات جنده.

وإذ كان لا يكفي حافز الشهادة، في أحد، بدل يوم بدر، لكن عاطفة كهذه ليست ركنا أوحد، في تقدير الحالة العسكرية، وإذ نحن أمام رؤيا نبي وهديه ووحيه.

قال صلى الله عليه وسلم: رأيت البارحة في منامي بقرا تذبح والله خير، ورأيت سيفي ذا الفقار انقصم من عند ضبته. وهذا تقرير موقف عسكري، فيه رائحة نتيجة أحد!

وإذ رمى الصحب، يوم أحد، من فوق البيوت، وكانوا قد سكوا أزقة المدينة بالبنيان، حتى صارت كالحصن، وفيه تحصين الأهداف الاستراتيجية، والحرب مفاجآت.

قال صلى الله عليه وسلم: أولت البقر الذي رأيت بقرا فينا، وفي القوم، وكرهت ما رأيت بسيفي[2]. وهذا تأويل رؤياه صلى الله عليه وسلم، وإذ إنه منبئ عن نتيجة أحد سلفا، والأيام دول، والحرب سجال.

---

(1) غاية المقصد فى زوائد المسند، الهيثمي: (685/2).

(2) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ٢٤

وإذ لا نعول كثيرا على قلة سبعمائة مسلم، مقابل ثلاثة آلاف كافر، يوم أحد، بقدر ما نعول أن تقدير الموقف كان محسوما، برؤياه صلى الله عليه وسلم، ونكتفي بقول إنه كان قدرا مقدورا.

كان رأى ابن سلول، كما نبينا صلى الله عليه وسلم، مكثا بيثرب، برهان ألا نعدم رأيا سديدا، ولو من عدو، لكنه سايرهم، كما نبينا صلى الله عليه وسلم، لإيقاع قدر لا مهرب منه ابتلاء.

وأن يقول العدو عن المؤمنين إنهم جبنوا وضعفوا، حربا نفسية ينبغي ألا تؤثر موضوعيا في قرار الحرب، لأن الحساب الدقيق أولى إعمالا، وليقل العدو ما يقول.

إن جر العدو إلى نقاط قوتنا، ولو عقر دارنا أولى من مجابهته في أرض مكشوفة، غطاؤنا فيه لايفي بمواجهته، شرط تأمين تام للمواقع الحساسة.

إن إجبار العدو أن ندخله مجالنا، استفرادا به، يعد كمينا صيدا سمينا، إذا أحسن التخطيط له، ولسهولة قطع خطوط إمداده، بتطويق الميدان، بعد حبسه فيه.

قال الصحب يوم أحد: استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن لنا ذلك [1]. وهذا قول مؤثر في معنوياتهم، ابتداء وبداهة، وحسبنا أنه قدر، يحمل بين ثناياه خيرا.

(1) تفسير الآلوسي، الآلوسي: ج ٤/٤٢

قال عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس[1]؟ وهذا لا يبرر الانقلاب على القائد، لأن ضرره أقرب من نفعه.

وإذ كانت إرهاصات نتيجة يوم أحد قبل المعركة هي:

1- رؤيا نبينا صلى الله عليه وسلم.

2- رأي نبينا صلى الله عليه وسلم.

3- رأي عبد الله بن أبي بن سلول.

4- لوم الصحب أنفسهم، لمخالفة هديه صلى الله عليه وسلم ورؤياه وأثره فيهم.

وإذ تبع عبد الله بن عمرو بن حرام عبد الله بن أبي بن سلول، حين انخذل، ليزعم أن قتالا لن تنعقد دائرته، وهذا زعم لا ينهض، فإن تكثير سواد الجند نوع شد أزرهم، وإرهاب عدوهم.

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣/٢٧

المبحث الثامن: وقال الله تعالى ﴿وليعلم الذين نافقوا ۚ وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ۖ قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ۗ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ۚ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ۗ والله أعلم بما يكتمون ﴾[آل عمران:167].

وهذا كشف القرآن له! والتاريخ يعيد هكذا مشهدا كل حين؛ إعجازا.

وإن يوما واحدا، هو يوم أحد، وكشعرة سوداء في فرس أبيض، لا تعيبه، بل تزيده جمالا، ولما كان عجب خشي أواره، على المؤمنين، فكان بمثابة تنبيه.

﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ [آل عمران:167]. هذا دمغ القرآن عبد الله بن أبي بن سلول وحزبه، كشفا لنفاق أخفوه، وإنشاء لموقف جديد، مع هكذا نفر، يكشفهم القرآن أبدا.

﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ هذا موجب نعتهم بالكفر، وإنما كانوا أقرب، لا قحا، لدعواهم أنهم مؤمنون، وهذا فضح لهكذا نفر تلك سيرته.

إن ما حدث من رجوع ابن سلول يوم أحد كان بمثابة تطهير للصف؛ ولأنهم ربما أبغوا خلالهم، يبغونهم الفتنة، وفيهم سماعون لهم، وفيه درء خطر محقق.

المبحث التاسع: استنهاض الهمم

قال النبي صلى الله عليه وسلم: من رجل يخرج بنا على القوم من كثب من طريق لا يمر بنا عليهم. وهذا إبداع عسكري للالتفاف على خطوط العدو وإفساد أمره معا.

وفيه استنهاض النشاط، والبذل، ودواعيهما، وهو أدعى من أمره لهم.

سلك نبينا صلى الله عليه وسلم في مال لمربع بن قيظي، وكان رجلا منافقا ضرير البصر. وفيه جواز المرور؛ بهكذا سنن، وإن عارض المالك؛ للمصلحة، ومن حيث كان مرورا وحسب.

قال مربع القيظي، وهو يحثو التراب في وجوه المجاهدين: إن كنت رسول الله، فإني لا أحل لك أن تدخل في حائطي. وما هو قوله لو كان غير رسول؟!

إن عمل المنافق مربع بن قيظي كان بمثابة كشف عما يكنه منافق، و إنشاء لسبيل مواجهة نوع كهذا، يبغي الخلال، ويكن كفرا ويطفح هزؤا!

النهي عن قتل المنافقين: كان هم الصحب الكرام الغر البررة الميامين، على قتل مربع بن قيظي؛ لأنه آذى الله ورسوله، إلا أنه صلى الله عليه وسلم نهاهم؛ لأنه أعمى البصر، أعمى البصيرة، وفيه عدم جواز قتل من علم نفاقه. لمصلحة الأمة وكيما لايقال: إن محمدا يقتل أصحابه!

التأهب لقتال العدو: قال نبينا صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن جبير يوم أحد: انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك. وهذا فقه عسكري ممتاز.

لبس نبينا صلى الله عليه وسلم درعين يوم أحد، وفيه وجوب الأخذ بأسباب النجاة، ولو كان رسولا نبيا، هديا وسننا حسنا.

صبي يسابق الجندية! قال عبد الله بن عمر: عرضت على النبي ﷺ يوم أحد فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني. وفيه جواز رد الصغير ريثما يكبر. وكما أن فيه هكذا حرص اولاء الأصحاب على الفداء والمنازلة وإنما كان همهم هو إرضاء ربهم تعالى ويكأنه يكون مهرا! وحين نراه هكذا من صبي! وهذا شأن امتنا ولادة أكابر ومنتجة جهابذ! وفيه جواز التجنيد من سن خمسة عشر.

إن شابا ينشأ على تربية الجندية، وهو ابن خمسة عشر عاما، برهان أننا أمة جد، وعمل، وكفاح، لا يعرفها ما أصاب شبابها عصرنا هذا، بعد نجعة، أقض مضاجعها.

إن تسابق غلمان لحضور يوم أحد! برهان أننا أمة مجيدة حين تربى على مائدتها، هكذا أحداث، علموا أن الجنة تحت ظلال سيوفهم، ويعاد مجدها، بعودة جيلها.

إن مقارنة، وعلى وجهها الأول، بين جيل تسابق أحداثه على الجهاد، وبين جيل همه الإبداع في فنون الطبخ؛ ولو لتفطير الصائمين، موجب إعادة نظر تربية!

مشروعية الشفاعة وقبولها: رد ﷺ يوم أحد سمرة بن جندب، ورافع بن خديج، وهما ابنا خمس عشرة سنة! فقيل: يا رسول الله إن رافعا رام فأجازه، فقيل: فإن سمرة يصرع رافعا فأجازه!

وهذا مواجهة رده صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو على ما أنف، مصلحة راجحة رآها ومن شفاعة صحابه الكرام البررة الغر الميامين. وكما أن فيه بعد نظر القائد، وحين يصدق جنده، فيبعث فيهم ثقته!

وبكأنه هذا كان جيلا، يأخذ بالشفاعة، وكيا يسمح له بالالتحاق بالجندية! ولأنهم كانوا يعرفونها؛ سببا للرضوان، ودخول الجنان!

وانظر يوم الناس هذا، وإذ جاءت الشفاعات لعدم الالتحاق بالجندية! وهذا شأن غريب أصاب جنديتنا! ولعله؛ ومن كثير مما أشغلها عن حقيقة دورها المنشود، ولعلها أن ترشد! فتعود إليه يوما!

كانت تربية رافع بن خديج، وسمرة بن جندب، جنبا إلى جنب تربية ابن عمر، برهان إطباق أمة بأسرها، على تربية هكذا جيل، يسابق افتداء روحه بالجنة.

المبادأة بقتل قائد جند الخصم! إنه حين حمي وطيس يوم أحد، قتل نبينا ﷺ طلحة صاحب لواء قريش. وهذا فن عسكري، إذ إن سقوط اللواء مؤذن بتهاوي درجات الهرم من بعده، وبكلفة أقل!

تأويل رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم: أول ﷺ رؤياه يوم أحد باستشهاد نفر من صحبه، وهذا برهان أن الحرب ليست نزهة، وإنما الأصل فيها، هكذا إراقة دماء، تستحيل يوم القيامة مسكا.

إن الأصل في الحرب إحدى هي نيل إحدي الحسنيين: إما شهادة، تاجها العز والشرف، وإما نصر، وسامه المجد والسمو، وإنه ليهون تأويل رؤياه ﷺ، عند فهم هكذا!! ولدى استيعاب كان رشدا!!

قال ﷺ: ورأيت سيفي ذا الفقار انقصم من عند ضبته: وإذ قد أصيب وجهه ﷺ، وقصمت رباعيته ﷺ، وخرقت شفته ﷺ، وهذا تأويل رؤياه ﷺ كفلق الصبح!

إن إصابة نبينا ﷺ يوم أحد له أوجه:

1- تأويل رؤياه كفلق الصباح.

2- إن القائد حين يبلي، فإن ذلك استنهاض لمن دونه.

3- إن الحرب فناء في الله.

جواز الإقسام على الله تعالى: حين أقسم نعيم بن مالك ليدخلن الجنة! وفيه جواز الإقسام عليه تعالى. لابطرا ولا كبرا، ولكنه ذلكم يقين عبد بمولاه، وحسن ظن به تعالى، ولأنه تعالى عند حسن ظن عبده به، وحين نعيم بن مالك أمهر جنته بروحه رضي الله تعالى عنه!

كان إقسام نعيم بن مالك أنه ليدخلن الجنة سننا فعليا بجوازه، وأيده قوله ﷺ: رب أشعث أغبر ذي طمرين، مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره [(1)].

قدم نعيم بن مالك برهان صحة إقسامه ب:

1- أنه يحب الله ورسوله.

---

(1) جامع العلوم والحكم، ابن رجب: 269/1. خلاصة حكم المحدث: مشهور.

2- وأنه لا يفر يوم الزحف وهذا اجتهاد صحابي في حضور النبي فدل على جواز الاجتهاد.

إنه إذا كان الفرار يوم الزحف أحد السبع الموبقات، فكان عدمه من موجبات صحة الإقسام عليه تعالى، وأنه سبب لدخول الجنة، وبضدها تتميز الأشياء.

قال ﷺ: "إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل[1]". وفيه أن اللأمة وهي الدرع سنته، وسنة الأنبياء قبل، وأن لبسها عنوان عزم لا تردد فيه.

قيل إن اللأمة هي درع واق، وقيل إنها بمثابة زي عسكري، وما أهمنا هو ذلكم إعلان عزم وبذل وجهاد، وهي سنن نبينا ﷺ، ومن كان قبله من الأنبياء، وهي عرف عسكري مجيد.

المبحث العاشر: استخلاف ابن أم مكتوم على المدينة

استخلف نبينا ﷺ عبد الله ابن أم مكتوم على المدينة ثلاث عشرة غزوة، ومنها يوم أحد، برهان إكرامه، ويوم أن نزل فيه عتاب السماء، وبقوله تعالى ﴿عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى﴾ [عبس:1-10]!

(1) أخرجه أحمد: 3 /351، والدارمي: (2159).

كان في استخلافه ﷺ ابن أم مكتوم الأعمى على المدينة يوم أحد أو غيره دليل جواز تولية الأعمى الإمامة الصغرى لا الكبرى.

لا حاجة لنا فيهم: قال ﷺ: لا حاجة لنا فيهم. وحين استأذنه الأنصار أن يستعينوا بيهود يوم أحد بدلا عن فرار بن أبي! برهان أن يهود لايستأمنون، وأنه تعالى كاف عبده.

ومن فقه عدم استعانته ﷺ يوم أحد بيهود. وهي رسالة إلى مستعينين بهم، أو مسترشدين، ولينظروا أمرهم، ويستعيدوا مجدهم من هدي نبيهم ﷺ أولى!

إن استعانته ﷺ بطبيب يهودي، أو رهن درعه عند آخر، أو يوم حنين، سنن فردي تأقيتي لا نظاما عاما أبديا، وإذ قال الله تعالى **﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾** [آل عمران:73].

إنه فرق عظيم بين جواز الاستعانة بكافر لحاجة ومصلحة وضرورة تقدر بقدرها، وبين جعله نظاما عاما، وفارق بين المسألتين عظيم.

استدعاء همم واستنهاض قمم: عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ سيفا يوم أحد فقال: من يأخذ مني هذا؟ فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا، أنا، قال: فمن يأخذه بحقه؟ قال: فأحجم القوم. فقال سماك بن خرشة أبو دجانة: أنا آخذه بحقه. قال: فأخذه، ففلق به هام المشركين[1].

(1) صحيح مسلم:2470

أخذ أبو دجانة سيفا رفعه نبينا ﷺ وبحقه! وحقه أن يثخن به حتى ينحني! برهان إقدام لا فر، وضرب فوق الأعناق، وإذلال لمن عادى الله ورسوله.

حين عرض نبينا ﷺ سيفه، وأعرض عن كل من عمر والزبير، ومنحه أبا دجانة، برهان إسناد العمل لمن هو كفؤ به، وهذه مهارة إدارية نبوية بامتياز.

كانت مواقف أبي دجانة يوم أحد شاهدة أنه المقاتل المختار لوقته من النبي المختار ﷺ، وحين شق كافرا نصفين، وعلى مرأى من كعب بن مالك!

إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا المـوطن: حين استل أبو دجانة سيفه يوم أحد واعتصب مشى بين الصفين متبخترا! فقال ﷺ: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن. وفيه جواز التبختر في الحرب.

رأى أبو دجانة إنسانا يحمس الناس حمسا شديدا فصمد له، فلما حمل عليه السيف ولول، فإذا امرأة، فأكرم سيف رسول الله ﷺ، أن يضرب به امرأة[1].

هند بنت عتبة تتزعم لواء الشر يوم أحد! كانت نساء قريش خلفها يوم أحد، يضربن الدفوف، تشجيعا واستنفارا. وبئس قوم جعلوا نساءهم مطية استنفارهم! فإنهن فتن كقطع الليل المظلم!

وإذ اتخذت قريش من نسائها قيانا، مقابلة طهارة صف نبينا ﷺ، من مثل ذلكم رجس، فدل على تأخيرهن، ولأن ما عنده تعالى لا يستنزل بمعصيته، لاسيما الجهاد.

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ١٩

قالت هند بنت عتبة:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق.

وهذا لا يعد استنفارا للقتال، بقدر أنه خروج بخلق الحياء عن بابه.

كان تأليب هند بنت عتبة يوم أحد برهان أنها صنديدة كفر عاتية، وأن حقا كان قد حالف زينب بنت نبينا ﷺ يوم أن أخفت عنها هجرتها، وإذ عرضت هند مساعدتها.

بيد أنه وإذا كانت هند بنت عتبة كان هذا شأنها، عربيدة هوى، صنديدة كفر، إلا أن صنفا كهذا يكون القتال نعتا فيها، ويكون استنفار قومها وصفا لها، فمما لاشك فيه أنه أمر إيجابي، وحين كان اهتمام نساء ذلك الزمان بعظائم الأمور، لا كشأن غيرهن، ممن هن أمثال كثير من نساء أزمنة أخرى، ولما كانت اهتماماتهن دون ذلك!

قال تعالى **﴿ما كان الله ليذر المؤمنين علىٰ ما أنتم عليه حتىٰ يميز الخبيث من الطيبۗ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولٰكن الله يجتبي من رسله من يشاءۖ فآمنوا بالله ورسلهۦۚ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾** [آل عمران: 179]. وحين ميز الله تعالى المنافق برجوعه، عن المؤمن بثباته، وذلك يوم أحد.

وذلك بظهور أمارات كاشفة، وإلا فإن علم الغيب خاص به تعالى.

المبحث الحادي عشر: مقتل حمزة بن المطلب

عن وحشي بن حرب: خرجت مع عبيد الله بن عدي بن الخيار، فلما قدمنا حمص، قال لي عبيد الله بن عدي: هل لك في وحشي نسأله عن قتل حمزة؟ قلت: نعم، وكان وحشي يسكن حمص، فسألنا عنه، فقيل لنا: هو ذاك في ظل قصره كأنه حميت، قال: فجئنا حتى وقفنا عليه بيسير، فسلمنا فرد السلام، قال: وعبيد الله معتجر بعمامته، ما يرى وحشي إلا عينيه ورجليه، فقال عبيد الله: يا وحشي، أتعرفني؟ قال: فنظر إليه ثم قال: لا والله، إلا أني أعلم أن عدي بن الخيار تزوج امرأة يقال لها: أم قتال بنت أبي العيص، فولدت له غلاما بمكة، فكنت أسترضع له، فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه، فلكأني نظرت إلى قدميك، قال: فكشف عبيد الله عن وجهه، ثم قال: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم؛ إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر، قال: فلما أن خرج الناس عام عينين - وعينين جبل بحيال أحد، بينه وبينه واد- خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفوا للقتال، خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع، يا ابن أم أنمار مقطعة البظور، أتحاد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؟! قال: ثم شد عليه، فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي، فأضعها في ثنته حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا، فقيل لي: إنه لا يهيج الرسل، قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآني قال: آنت وحشي؟ قلت: نعم، قال:

أنت قتلت حمزة؟ قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟ قال: فخرجت، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج مسيلمة الكذاب، قلت: لأخرجن إلى مسيلمة؛ لعلي أقتله فأكافئ به حمزة، قال: فخرجت مع الناس، فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائم في ثلمة جدار كأنه جمل أورق ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتي، فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته. قال: قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار، أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: فقالت جارية على ظهر بيت: وا أمير المؤمنين، قتله العبد الأسود[1].

وعن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري: خرجت مع عبيد الله بن عدي بن الخيار إلى الشام فلما قدمنا حمص قال لي عبيد الله: هل لك في وحشي نسأله عن قتل حمزة؟ قلت: نعم قال: وكان وحشي يسكن حمص قال: فسألنا عنه فقيل لنا: هو ذاك في ظل قصره كأنه حميت قال: فجئنا حتى وقفنا عليه فسلمنا فرد السلام قال: وعبيد الله معتجر بعمامة ما يرى وحشي إلا عينيه ورجليه قال: فقال له عبيد الله: يا وحشي أتعرفني؟ فنظر إليه وقال: لا والله إلا أني أعلم أن عدي بن الخيار تزوج امرأة يقال لها: أم القتال بنت أبي العيص فولدت له غلاما بمكة فاسترضعه فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه فلكأني نظرت إلى قدميك قال: فكشف عبيد الله عن وجهه ثم قال: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر قال: فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر قال: فلما أن خرج الناس عام عينين - قال: وعينين جبل تحت أحد بينه وبين واد - قال: فخرجت مع الناس إلى القتال فلما

---

(1) صحيح البخاري: 4072

اصطفوا للقتال خرج سباع أبو نيار قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباع يا ابن أم أنماريا بن مقطعة البظور تحاد الله ورسوله؟ قال: ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب قال: وانكمنت لحمزة حتى مر علي فلما أن دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثنته حتى خرجت من بين وركيه قال: فكان ذلك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم فأقمت بمكة حتى نشأ فيها الإسلام ثم خرجت إلى الطائف قال: وأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا قال: وقيل له: إنه لا يهيج الرسل قال: فجئت فيهم حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أنت وحشي؟ قلت:نعم قال: أنت قتلت حمزة؟ قال: قلت: قد كان من الأمر ما بلغك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما تستطيع أن تغيب عني وجهك؟ قال: فخرجت فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مسيلمة الكذاب قال: قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأكافئ به حمزة قال: فخرجت مع الناس فكان من أمرهم ما كان قال: وإذا رجيل قائم في ثلمة جدار كأنه جمل أورق ما نرى رأسه قال: فأرميه بحربتي فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه قال: ودب رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته قال عبد الله بن الفضل: وأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: قالت جارية على ظهر البيت: إن أمير المؤمنين قتله العبد الأسود[1].

أبلى حمزة عبد المطلب رضي الله تعالى عنه بلاء حسنا، يوم أحد، وكأنما حاصد، لا يفوته من شيء، حتى كان أسدا مؤيدا، لا يحول بينه وبين الشهادة سوى أمره تعالى ﴿كن فيكون﴾ [يس:82].

---

(1) صحيح ابن حبان، شعيب الأرناؤوط: 7017. خلاصة حكم المحدث: صحيح

وها نحن قد ألفينا حمزة يحصد ليكون مجدا، ليس يبغاه، وإنما صحبا ببدر، وحين لقياه، شهيدا يقطر مسكا، فجاهد في ربه حتى ألقاه، متوسدا نعيما، ليس يبلاه.

وإنه وإن لم يكن من حمزة سوى قتله عثمان، حامل لواء قريش في أحد، فكفي به نصرا مبينا مؤزرا، ولأن سقوط اللواء يعني اندحار ما دونه، وهذا فن عسكري.

هلم إلي يا بن مقطعة البظور. هذا تبكيت قاله حمزة، وقبل قتله سباع، ابن أم أنمار. وكانت أمه تختتن النساء، ولعله جاز في مثل مواقف الجهاد لا غير، ولأنه تنابز بالألقاب، قد نهى الشراع عنه عنه كما في قوله تعالى **﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾** [الحجرات:11].

والله إني لأنظر لحمزة يهد الناس بسيفه، ما يليق شيئا يمر به مثل الجمل الأورق! وهذه شهادة الميدان له، وهو إذ ما زال في دنياه، وبقى لينظر ما ادخره له مولاه يوم أخراه.

إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق. هذا قول جبير بن مطعم، وكان مولى وحشيا، يستجيشه لقتل حمزة. وهذا أسلوب استنهاض البذل. وهذا فن نفيده في إدارة المنشأة.

ومن خدعنا بالله انخدعنا له [(1)]. وكانت هذه حيلة وحشي، قاتل حمزة، أن يسلم، ولو ظاهرا؛ اتقاء قتله، وقد حدث.

(1) قاله ابن عمر رضي الله عنهما. أخرجه أبو نعيم في "الحلية"١/ ١٢٩، بسند حسن.

قال ﷺ لوحشي قاتل حمزة وحين أسلم: ويحك غيب عني وجهك فلا أرينك. وهذا عدل ديننا، وهذا ضبط إسلامنا. فبانتهاء القتال، لا يحل قود! ولأن التوبة تجب ما قبلها.

قال وحشي حين قتل مسيلمة: فإن كنت قتلته فقد قتلت خير الناس- حمزة- بعد رسول الله ﷺ، وقتلت شر الناس. برهان صدق إيمانه، وحسن إسلامه.

كان عبيد الله، سيد وحشي، لايرى منه عبده وحشي، إلا عينيه ورجليه، وهذه قيافة عظيمة. اشتهر بها القوم يومهم ذاك!

وقال وحشي: لأخرجن إلى مسيلمة؛ لعلي أقتله فأكافئ به حمزة. وهذا أثر توبة صادقة، وقد جبها إسلامه. وهو مصداق قوله تعالى ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولٰئك يبدل الله سيئاتهم حسنات۝وكان الله غفورا رحيما﴾ [الفرقان: 70].

قالت جارية يوم قتل مسيلمة: وا أمير المؤمناه قتله العبد الأسود. وهذا أسلوب ندبة عربي فصيح. ومن جارية هالها مقتل كذاب أشر!

وهذا إثبات أن قاتله هو وحشي.

وهذا كذب جارية وبهتانها وتغييبها! إذ كان أمير الشياطين! لا أمير المؤمنين! ولأنها قالت على ظهر البيت: إن أمير المؤمنين قتله العبد الأسود! وهذا برهان آخر أن الذي قتل مسيلمة هو وحشي.

قال ابن هشام: فبلغني أن وحشيا لم يزل يحد في الخمر حتى خلع من الديوان، فكان عمر بن الخطاب يقول: قد قلت إن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة[1]!

وبكأنه تعالى قد عظم قتل حمزة، فابتلى وحشيا بشرب الخمر، ولم يزل يحد فيها حتى خلع من الديوان، وحتى قال الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه: قد قلت بأن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة!

وإنه ليظل قتل عظماء الملة منارا للسالكين، وسبة في جباه المستكبرين، وانظر كيف حاق بوحشي قاتل حمزة! رغم عمله عملا صالحا!

ولو يعلم عاقل كيف كان وحشي، قاتل حمزة، حبيس ذنبه، إلى أن غاب عن دنياه، لفعل فعل أبي ذر، وحتى يلقى ربه، ألا يصيب دما حراما!

السماء تحمي النبي صلى الله عليه وسلم: قتل ابن قمئة، أو أبي بن خلف مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه، وهو يظن أنه نبينا ﷺ. وهذا من ألطافه تعالى، وكيما لايصار إلى تتبع القائد، وهذا فن عسكري.

وكان قد حمل اللواء يوم أحد ثلاثة: حمزة ولما قتل فمصعب ولما استشهد فعلي رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وإذ نتعلم من علي فن الحياء، وأدب الإسلام، وحين كف عن مواصلة قتل أبي سعد، ولأنه كشف له عورته، فانصرف عنه!

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/ ٢٢

ثناؤه ﷺ على الزبير: أثنى نبينا ﷺ على الزبير، فقال: «إن لكل نبي حواريا وحواري الزبير». ولأنه قتل طلحة حامل لواء المشركين في أحد. وعلى قول بعضهم.

كان يقال لأبي عامر في الجاهلية: الراهب، لكثرة عبادته، فسماه ﷺ الفاسق، لخلفه الحق وأهله، وهروبه من الإسلام ومخالفته ﷺ [1].

إن الرهبانية ليست دينا، ولأنه تعالى مقتها، ولأنها أبعد بأهلها عن إقامة منهج العدل في الأرض، ولأن أهلها لم يراعوها حق رعايتها، وكما قال تعالى ﴿ **ثم قفينا علىٰ آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ۖ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ۖ وكثير منهم فاسقون** ﴾[الحديد:27].

المبحث الثاني عشر: غسيل الملائكة

قال الألباني رحمه الله تعالى: حديث" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم أحد: ما بال حنظلة بن الراهب!؟ إني رأيت الملائكة تغسله. قالوا: انه سمع الهائعة فخرج وهو جنب ولم يغتسل [2] حدثني ابن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن قتل حنظلة بن أبي عامر بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث حين علاه

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/٢٣

(2) . رواه الطيالسي. ص 167 - 168 صحيح. أخرجه الحاكم (3 / 204) وعنه البيهقي (4 / 15) وابن حبان في صحيحه كما في " التلخيص " (159) من طريق ابن إسحاق

شداد بن الأسود بالسيف فقتله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن صاحبكم تغسله الملائكة.. فسألوا صاحبته فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لذلك غسلته الملائكة.. وقال الحاكم: " صحيح على شرط مسلم [1]".

قوله صلى الله عليه وسلم: لذلك غسلت إن صاحبكم لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه. وهذا حنظلة! ولئن كان هذا شأنه، وهو إذ مازال على ظهر الأرض! فما بالنا وهو إذ يتوسد ترابها؟!

ولقد بلغ بحنظلة أن يخرج جنبا ليلة عرسه الأولى، ملبيا نداء الجهاد، فكان وسامه في الدنيا: غسيل الملائكة. وإذ لم يذكر التاريخ غيره!

كان وصف حنظلة، بغسيل الملائكة، وإذ مازال في أرض الجهاد، وليلة عرسه الأولى، وإذ كان أولا وآخرا ممن ذكره التاريخ بهذا اللقب الحميد!

أول بأول! وإذ تقلد حنظلة وسام (غسيل الملائكة)، كأول وسام هذا نوعه، ولأنه أول عرسه، فكانت مناسبة أول بأول!

ولقد والله كنت وصولا للرحم برا بالوالد [2]. وهذا وصف والد حنظلة غسيل الملائكة له، وقبل أن يسلم وبعد أن أسلم، ولعل منه: خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم لله. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس

(1) إرواء الغليل، محمد ناصر الألباني: ج ٣/ ١٦٧

(2) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ /٤١

يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله. قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا [1].

المبحث الثالث عشر: كنايات النصر المؤزر يوم أحد!

عن عبدالله بن الزبير: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير [2]. وإذ قد انتهت وقعة أحد، وإذ كان ممكنا أخذهن سبيا. وهذا برهان نصر يوم أحد كان محققا.

وإذ كان هروب هند بنت عتبة، يوم أحد، عنوان نصر، وكان ترك الرماة أماكنهم، استعجالا به، ليحل الانتكاس محل الفوز! وهذا موجب مخالفة القائد.

المبحث الرابع عشر: مصابه ﷺ يوم أحد

عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟! فأنزل الله عز وجل: **{ليس لك من الأمر شيء}** [آل عمران: 128] [3].

---

(1) صحيح البخاري: 3383

(2) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس: (416/1).

(3) صحيح مسلم: 1791

قوله ﷺ: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعو إلى الله؟! ولست أروح بعيدا حين يعدم قوم فلاحا، وحين يشجون غير نبي بغير حق!

وقوله ﷺ: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ﷺ، وهو يدعوهم إلى الله: وهذا نكيره ﷺ على قومه، وإذ آذوه ضربا! وهو إذ يدعوهم إلى ربهم، لا يريد منهم جزاء ولا شكورا.

إنه ليس يكون فلاح نصيب قوم ناصبوا دعاة الحق، وبقدر ما يصيبهم من نكد، ليس عنهم يرفع، إلا حين يرفعون بأسهم عن قوم مؤمنين، وهذا نظام رباني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشتد غضب الله على من قتله النبي في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله ﷺ [1].

قلت: أو غير نبي، والفرض أنه بغير حق. وقال تعالى ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾. وهذا حكم عام!

وعن سهل بن سعد الساعدي أنه سمع سهل بن سعد وهو يسأل عن جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كان يسكب الماء، وبما دووي؛ قال: كانت فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تغسله، وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة،

---

(1) صحيح البخاري: ج ٥/٣٧

أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها وألصقتها، فاستمسك الدم، وكسرت رباعيته يومئذ، وجرح وجهه، وكسرت البيضة على رأسه [1].

وإذ أحرقت فاطمة بنت نبينا محمد ﷺ قطعة حصير، فوضعت رمادها على جرحه ﷺ، فاستمسك الدم. وهذا علاج جرح نازف، عهدناه من أهلينا متواترا.

علم نبوة ضاف! قال عبد الله بن شهاب الزهري يوم أحد: دلوني على محمد، لا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد! فعاتبه في ذلك صفوان فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع! [2]! وهذا من قوله تعالى ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ [يس:9]! وهذا علم نبوة آخر لنبينا ﷺ.

المبحث الخامس عشر: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ [آل عمران: 128]

عن عبدالله بن عمر: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخرة من الفجر، يقول: اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا، بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد. فأنزل الله: {ليس لك من الأمر شيء} إلى قوله: {فإنهم ظالمون} [آل عمران: 128]. وعن حنظلة بن أبي سفيان، سمعت سالم بن عبد الله يقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(1) صحيح البخاري: 4075

(2) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٤ / ١٨٧

يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت {ليس لك من الأمر شيء} إلى قوله: {فإنهم ظالمون} [آل عمران: 128] [(1)].

ومن حيث إن غاية الأمر هو توبتهم، وهذا استشراف أوبتهم، وإن فعلوا ما فعلوا! وهذا مقتضى رحمته تعالى الواسعة، وكما قال تعالى ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ [الأعراف:156].

إن تقدمة الخير بين يديه تعالى، ومنه تقديم توبتهم، مؤذن بقرب توبته تعالى عليهم، وعاقل هو ذاك المبادر لنيلها، وحصيف هو ذاك المسارع للفوز بها.

وإن موجب العذاب هو وقوع الظلم، وإن حلول النعيم إنما يكون بإقامة العدل، سنة الله، ولن تجد لسنته تبديلا.

إن ظلمهم الأكبر كان هو كفرهم، وما أصابك منهم من أذى، إنما هو من ذاك الذي أحاق بهم من ظلمهم.

إن تنكيلا بداعية الحق ظلم، كما أن إيذاءه ﷺ كان ظلما، وبنص القرآن المجيد!

إن الأمر كله لله، وليطمئن إذا كل مظلوم، لأن ربه عالم به، فيأتيه حقه، ولو بعد حين!

وإنما جاء توكيد ظلمهم، ولأنه دأب لهم، فينفثونه في أهل الخير والهدى، وهذا خلق ذميم!

---

(1) صحيح البخاري: 4069

وإذ جاء نعتهم بظلمهم جملة إسمية، برهان ثباته فيهم، كلصوق ثوب بلابسه، شارة عليهم.

ولئن كان ظلمهم ثابتا فيهم، فإن توبته تعالى عليهم ظل وارف، لمن به أوبة، أو له بها إشراف نفس!

وإنه تعالى ليس ينتقم تشفيا، وإنما يعفو تفضلا، وتبقى أوبة، برهان توبة!

وقدم ربنا سبحانه التوبة على العذاب، وهذا من باب قوله تعالى ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ [البقرة:143]. وفيه استنهاض برهم.

وجاء ﴿شيء﴾ نكرة أفادت عموما، فلا شيء- ولو واحدا-، لك يا محمد، برهان أن السلطان والأمر كله لله.

﴿ليس لك من الأمر﴾ إذا كان نبينا ﷺ ليس له من الأمر شيء، فغيره أولى، وليعرف أحدنا قدره تماما!

ولأن وظيفة الرسل هي البلاغ، وحسبهم أنهم أدوا أمانة كلفوها، وما بقي فهو لله.

وفيه دليل على ترك الأمر لمن هو أعلم بمصالح النص ومعانيه ومراميه، فليس كل ذي قلم يكتب، أو كل ذي مرسمة يرسم!

وجاء الخطاب له ﷺ محبة له، واهتماما به، وتقريرا بشأوه، لأنه جاهد في الله تعالى حق جهاده.

﴿أو يتوب عليهم﴾ وإنما توبتهم بإسلامهم، وإنما تعذيبهم بكفرهم، وهذا ميزان ربهم! قسط عدل.

وإنما جاء العطف بدلالة الأولى، بمعنى إلا أن يتوب الله عليهم، وهكذا تنتفي شبهة عطف لا موجب له!

والآية كلها تسلية للدعاة أن يهونوا على أنفسهم، فإنما هم دعاة، يربتون على صدور مناوئيهم!

جاء نصب الفعلين﴿ يتوب ﴾ و﴿ يعذبهم ﴾ بأن المضمرة جوازا وتقديره: أو أن يتوب.

﴿يتوب عليهم﴾ وفيه حث على التوبة، ولأن الأجل عنده تعالى، والموت بغتته موحشة، وفجأته مؤلمة!

وإنما ذيلت التوبة ب(على)؛ إيذانا بشمولها، وإيجابا لعمومها المؤمنين أجمعين، وهو معنى موح بمظلة التوبة الحانية من رب كريم، كان من وصفه قوله تعالى ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾ [الشورى:25]. وكأن اكتساء عبد منيب بها، كان شحذ همم لها!

وإذ جاء التصاق ضمير(هم) في ﴿يعذبهم﴾ كناية عن إلصاق العذاب بهم، ولأن ذلك أمعن نكالا بهم.

وقدم الله تعالى توبته على نقمته، ولأنه سبحانه قال: إن رحمتي سبقت غضبي.

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش "[1].

(1) صحيح البخاري: 7554

﴿فإنهم ظالمون﴾ وفيه الزجر عن الظلم، ولأن بوائق عاجله بوار، ولأن عاقبته وآجله خسار.

وإذ جاء ذكر الكافرين بضمير الغائب، نفرة من فعلهم، وذما لظلمهم، وإعراضا عنهم.

وهذه آية بلاغية كلها، وكواحة مقسمة جداول وأنهارا، تأخذ باللباب، سوقا إلى رب الأرباب!

وهذه آية مجزأة أبعاضا، لكنها مؤتلفة مبانيها، منسجمة معانيها، وحدة موضوعية، أخاذة، وكأن لم يبد ذلكم أبعاض!

وهذه آية لا كشعر عروضا، بل هي قرآن ﴿بلسان عربي مبين﴾ [الشعراء:195]. له ظل خاص به، يتمايز به أيضا.

وهذه آية تعلمنا انخلاعا منا من أنفسنا! لأنه ﷺ هم أن يدعو عليهم طبيعة، فجاءه النص الحاسم، وأن ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾

وحين دعا ﷺ ربه قائلا: اللهم العن أبا سفيان، اللهم العن الحرث بن هشام، اللهم العن صفوان بن أمية: فنزلت {أو يتوب عليهم}، فتاب الله على هؤلاء، وحسن إسلامهم، فكان مصداق أن الأمر له تعالى، وإذ أسلم من كان موضوعا لدعائه ﷺ.

وعلى قول: إنه حين رأى ﷺ قتل عمه حمزة قال: لأمثلن منهم بثلاثين: فنزلت: ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون [(1)].

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/٢٠٧

ولئن كان همه ﷺ بالدعاء على الكافرين أمر طبعي، ولا ينافي رحمة وصف بها، لاسيما ما رآه منهم في أحد.

وإن همه ﷺ بالدعاء عليهم يوم أحد لا ينافي أنه ﷺ **﴿وما ينطق عن الهوىٰ ﴾**[النجم:3]. ولأن أخاه موسى ﷺ سبقه في ذلك، وحين قال تعالى **﴿ وقال موسىٰ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس علىٰ أموالهم واشدد علىٰ قلوبهم فلا يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم ﴾**[يونس:88].

وجاء منعه تعالى نبيه ﷺ أن يدعو عليهم تقوية لعصمته، وتأكيدا لطهارته، ولما رآه يوم أحد، فتشيب منه الولدان!

وإنما جاء منعه تعالى نبيه ﷺ أن يدعو عليهم من باب ترك المفضول لمصلحة فعل الأفضل، وهذا فقه الموازنات.

وهذا أيضا من باب قوله تعالى **﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله ۚ وكفىٰ بالله وكيلا ﴾** [الأحزاب:48]! فإنه ﷺ لم يطعهم يوما، وإنما من باب توكيد فعله، وترك ما يخالفه.

وهو من باب قوله تعالى أيضا **﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ۖ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾**[النحل: 126]. وهذا قرآننا!

وإن أكمل درجات العبودية لله تعالى هو **﴿فستذكرون ما أقول لكم ۚ وأفوض أمري إلى الله ۚ إن الله بصير بالعباد﴾** [غافر:44]. و**﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ۖ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ۖ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ۚ إن الله عليم بما يصنعون﴾** [فاطر:8]!

ولئن كان فيه عجزه ﷺ، وغيره أولى، عن معرفة أسرار العبودية لله تعالى، وإن بلغ علما، ولأنه تعالى قال ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾!

وفيه دليل على إيداع ملكة التوبة فطرة لا كسبا، وعلى وجود نزغات الشر ابتلاء واختبارا، وموفق من ذا قد جاهد نفسه.

المبحث السادس عشر: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتىٰ إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ۚ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ۚ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ۖ ولقد عفا عنكم ۗ والله ذو فضل على المؤمنين﴾ [آل عمران:152].

وعن البراء بن عازب: جعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرجالة يوم أحد -وكانوا خمسين رجلا- عبد الله بن جبير، فقال: إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم. فهزموهم، قال: فأنا -والله- رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة؛ ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أخراهم، فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم غير اثني عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومئة: سبعين أسيرا، وسبعين قتيلا، فقال

أبو سفيان: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فما ملك عمر نفسه، فقال: كذبت والله يا عدو الله؛ إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوؤك، قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مثلة، لم آمر بها، ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: أعل هبل، أعل هبل، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ألا تجيبوا له؟ قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل، قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ألا تجيبوا له؟ قال: قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم[1].

من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟! ولا ينسى أنهم حصدوا نصرا، لكنهم استعجلوه، بترك أماكنهم، وجمع الغنائم، مخالفة قائدهم ﷺ، في أحد! وحين قال ﷺ: لا تبرحوا من مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم لا يغيب مخالفة توجيهات القائد بعد هزيمة جنده!

قال ابن عباس: ما نصر الله في موطن كما نصر يوم أحد[2]. وهذا إنصاف، ولأنه تعالى قال **﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ**

(1) صحيح البخاري: 3039
(2) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣/٤٦

الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾!

إن نصره تعالى يوم أحد، وإذ قد استعجلت نتائجه، بترك الأماكن، وانشغال بالغنم، كان سببا لقدر رباني آخر، ألا يخالفوا، وألا ينشغلوا بالغنائم.

حتى نظرنا إلى النساء يشتددن في الجبل، وقد رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فجعلوا يقولون: الغنيمة الغنيمة[1]! وهذا تسجيل التاريخ لما حدث يوم أحد! وإذ كانت العبرة به سبيل مراجعة وتمحيص.

إن سننه تعالى لا تتبدل ولا تتغير، ولئن أوقع الله هزيمة نبيه ﷺ في أحد ابتلاء، وهم كانوا من كانوا، هداة؛ ليضع أحدنا يده على صدره، ما الله تعالى هو فاعل بنا.

إن رسالة توجهها هزيمة، يوم أحد، أن ينهض كل هاديا مهديا، ملتزما لا يحيد، وإلا حل به ما حل بقوم، كان بينهم نبيهم ﷺ، ولتعديل خططهم، واعتصامهم بربهم.

إن إغفال سننه تعالى، كثيرا ما كان سبب إيحال الناس، وإذ هم معتمدون على رحمة رب رحيم حقا، إلا أنه شديد العقاب، وحين تنتهك محارمه سبحانه!

إن القضايا العظمى للأمة، لا تنهض مانعا دون قضايا أحدنا الفردية، جنبا إلى جنب ليكون عضوا فاعلا، سببا لدفع بلاء، واستمطار عون ومدد السماء.

---

(1) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٤ /٢٣٤

إن صلحا معه تعالى، واجب النفاذ، عاجل البيان، وكيما يرفع عنا بلاء لا نطيقه، وإذ لا ينفع حيالها سوى توفيقه وتسديده وكبت عدو الله وعدونا!

إنه لا يحل أن تغرق أمتنا في وحل، ومنه إلى وحل آخر، وهي إذ تنأى بنفسها، عن صلح عاجل مع مولاها، وإذ لا ينفعها سواه، وإذ لا يتداركها إلا هو سبحانه.

قالت قريش يوم أحد: اعل هبل. ورغم كفرهم ذلك، أحل الله بنا ما أحل! برهان وجوب: **﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ۚ إنه بما تعملون بصير﴾** [هود:112]! ولا يجوز تمييع مواقفنا مع ربنا على نحو توكل معيب.

أدى عدم الوقوف مليا عند تسجيل التاريخ هزيمة حلت بنا يوم أحد، أن نغض طرفا، ولو على غير عمد، عما يجب حيال منهج ربنا، وكما أمر ربنا.

هل تغير موقفنا مع ربنا، وإذ نعيش يوما عصيبا، كمسألتي السد والأقصى، أم مازالت غفلات تحيطنا، ومن كل حدب، وحين يمكنه تعالى أن يذل أعناقهم لنا، وحين أوبتنا؟!

رأينا نبينا ﷺ، وحين الجدب كان يستسقي ربه، برهان أنه الركن الشديد سبحانه، وإذ طرح وراءه أسبابا، كان التعلق بها يأسا وهدرا، وما أحوجنا إلى ذلك!

إن بسط أجنحة الخضعان والخشعان لربنا، هو سبيلنا لوقفة السماء، وتوجيه دفة نقمتها من عدو تربص، أو عربيد تنمر، وهذا هو السبب الابتدائي.

﴿ ولقد عفا عنكم ۗ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾: لكنه موجب يقظة لفاعله، ولمن جاء بعده. وليس يعني إهمال مقدمات كمخالفة مركز القيادة والسيطرة، أفضت إلى نتائجها من حيلولة دون نصر كريم!

اللهم إنه ليس لهم أن يعلونا: هم ليس لهم! ولكنها قرصة أذن، يمكن أن تحل! ولعل إفاقة بعدها، وقد أفاقوا، ولأنهم نصروا بعد كل معاركهم، ونحن إذ لهم تبع، فتقر آذاننا يوم إعفالنا، ونعاود مجدنا حين أوبتنا ورجعتنا!

قال أبو سفيان يوم أحد: اعل هبل! وهذا ختم على القلوب مركبا! وإذ وجب أن يعود إلى رده شكرا لناصره، ولكنه مرة أخرى: الطبع على القلوب!

يوم بيوم بدر، والحرب سجال: هذا ما سجله التاريخ لأبي سفيان، وقال تعالى: **﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ۚ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ۗ والله لا يحب الظالمين ﴾** [آل عمران:140].

يوم بيوم بدر، والحرب سجال: قالها أبو سفيان تشفيا، وقول الله تعالى: **﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ۚ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ۗ والله لا يحب الظالمين ﴾**، وهذا ربت على القلوب!

رأيت النساء يشتددن على الجبل، وقد بدت أسوقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن: إن هذا كيد يتكرر، ويجب تجنبه وتجنيبه؛ لأثر سلبي عرفناه ألا يتكرر أيضا.

وإذ نربأ ألا تتخذ النساء ذريعة لمآرب كيد، ولأن شأنهن عظيم، وأنهن شقائقنا إكبارا وإعظاما، لا سلعة بوار وفتنة وتدمير وخسار، وأنهن لسياج أمن وإعفاف!

المبحث السابع عشر: إشادة وإفادة بعمل أبي طلحة

لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو طلحة بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم مجوب عليه بحجفة له، وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل، فيقول: انثرها لأبي طلحة قال: ويشرف النبي صلى الله عليه وسلم ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تشرف، يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقزان القرب على متونهما تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثا [(1)].

وعن ثابت بن أنس، أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي النبي ﷺ يوم أحد، والنبي ﷺ خلفه يترس به، وكان راميا. وهذا خبر صدق، عن أبي طلحة، ساقه سواه! لا هو! وليكون عمله في سامع أو قارئ أوقع.

وإذ وقى أبو طلحة رضي الله تعالى عنه نبينا ﷺ بصدره يوم أحد، برهان عمل مبرور، وسعي مشكور، سجله التاريخ مجدا، وما كان الله ليضيع أجر

(1) صحيح البخاري: 4064

الصابرين المحسنين، ولأنه تعالى قال ﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ [هو:115]. وهذا عاجل بشرى المؤمن!

قال أبو طلحة يوم أحد: هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك. والاستماتة في حماية القائد الرمز، عمل رشيد، ومسلك سديد.

وإذ كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ ويقول: إني جلد يا رسول الله، فوجهني في حوائجك، ومرني بما شئت. وهذا ثبات جأش منقطع النظير.

وإذ كان نبينا ﷺ يشرف يوم أحد، وينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك. وهذا فرد أمة وحده!

وإذ كانت عائشة وأم سليم زوج أبي طلحة تشمران، حتى يرى خدم سوقهما - الخلخال - تنقران القرب، وتفرغانه في أفواه القوم يوم أحد وقبل الحجاب.

كان عمل عائشة وأم سليم يوم أحد، هو سقيا المجاهدين، برهان جوازه ولحاجة وضرورة، تقدر بقدرها، وعلى التزام بشرط الملة، وقانون الدين.

إن إسهابا أطراه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، شأن عمل مجيد فريد، لأبي طلحة، يوم أحد، واستماتته دفاعا عنه ﷺ، كان مقصودا، ولأنها أمثال تحتذى، وبطولات تقتدى.

وكان أبو طلحة مشهورا بالرمي، وحتى كانوا يتواصون بإلقاء ما بأيديهم من رمي إليه، وهذا برهان منقبته، ودليل تدريب على الرمي، سبب نصر وتمكين.

وبينما كان طلحة يذود عن نبينا ﷺ، وإذ أدميت أنامله، فقال: حس، فيرشده ﷺ أن لو قلت: بسم الله، لرفعتك بها الملائكة، وفيه بركة البسملة، وتعلق به تعالى.

عن قيس بن أبي حازم: رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم قد شلت[1]. وهي شلاء من شدة وقع النبال عليها، فداء له ﷺ، وهذه قيمته ﷺ في قلوبهم.

بلغ من شدة يوم أحد أنه لم يبق معه ﷺ سوى اثنين، هما طلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، وهذا بلاء يصطبر، وهذه شدة تختبر، ولكل ليل يتبعه نهار، أو ظلام يقشعه نور.

إن شدة أحاطت بنبينا ﷺ ومن معه يوم أحد كانت تحمل بين جنباتها فألا حسنا بزوالها، بل وإحلال قوة محلها، ولأنه تعالى لم يكن ليذر المؤمنين.

وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه إذا ذكر يوم أحد قال: ذاك يوم كله لطلحة. ولأنه طعن سبعين طعنة أو حواليها! وكان كمن قال الله تعالى فيهم **﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾** [آل عمران:(146)]!

(1) صحيح البخاري: 3724

إن ما حدث يوم أحد رسالة لمن به بأس أن الفرج قريب، وأنه هو ذاك نصره تعالى وإذ ها هو يتلمسك؛ وكيما يعود إليك مؤزرا، فلا تأس وكن مطمئنا ثابت الجأش!

إن ما طرأ يوم أحد رسالة لمن كان به شك، أو ألم به ريب، أن يوقن ولمن كان به ضعف أن يقوى، ولمن كان به وهن أن ينهض، أو به هنة أن يفيق، ولأن الله معنا!

المبحث الثامن عشر: من مناقب سعد بن أبي وقاص

عن سعد بن أبي وقاص أن النبي صلى الله عليه وسلم جمع له أبويه قال كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين فقال النبي صلى الله عليه وسلم سعد ارم فداك أبي وأمي قال فنزعت بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فوقع وانكشفت عورته فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجذه [(1)].

وعنه رضي الله تعالى عنه: نثل لي النبي صلى الله عليه وسلم كنانته يوم أحد، فقال: ارم، فداك أبي وأمي [(2)].

وإذ قال ﷺ: يا سعد ارم فداك أبي وأمي. وهذا برهان صبره ﷺ وشحذه لرعيته، وهو دليل فضل سعد؛ ولجمعه أبويه له، ولم يكن ذلك لسواه، منقبة سامقة تبوأها رضي الله تعالى عنه.

(1) مجمع الزوائد، الهيثمي: 15/9، خلاصة حكم المحدث: رجاله رجال الصحيح، غير أسد بن موسى، وهو ثقة.
(2) صحيح البخاري: 4055

وإذ قال سعد يوم أحد: حتى إنه ﷺ ليناولني السهم ليس له نصل، فأرمي به. وهذا إعجاز آخر؛ ولأنه: ﴿ فلم تقتلوهم ولٰكن الله قتلهم ۚ وما رميت إذ رميت ولٰكن الله رمىٰ ۚ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا ۚ إن الله سميع عليم ﴾ [الأنفال:17]. وإن أنت إلا سبب!

وإذ قال سعد يوم أحد: حتى إنه ﷺ ليناولني السهم ليس له نصل، فأرمي به. وهذا برهان عمل الفداء، ولطالما عرق ينبض، وإن شح الإمداد، أو انقطع العتاد.

وإذ قال سعد: رأيت يوم أحد عن يمينه ﷺ وعن يساره، رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك ولا بعده، يعني: جبريل، وميكائيل عليهما السلام.

ودل خبر سعد نزول جبريل وميكائيل يوم أحد أنه تعالى ويوم أن أرسل رسله وعلمه أزلا أنه يكبت عدوا، ويهزم حزبا، نقمة واقتدارا، بقدرته وعزته.

﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشىٰ طائفة منكم ۖ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ۖ يقولون هل لنا من الأمر من شيء ۗ قل إن الأمر كله لله ۗ يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ۖ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ۗ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلىٰ مضاجعهم ۖ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ۗ والله عليم بذات الصدور﴾ [آل عمران: 154].

ما وقع نفع إلا امتنانا، كنعاس يوم بدر ويوم أحد، وجعل الله تعالى يوم بدر للمؤمنين، وما وقع ضر إلا اختبارا، كجعل يوم أحد لقريش، وهذا مقياس يريح قلوب العباد.

وإن النعاس دون غم لم تكن له قيمته العليا! فكان مجيئه على تيكم صورة ذا قيمة، وكأنما نفس تتشوفه!

وجاء النعاس أمنة كبدل كل من كل، وكأنما كان أمنة كله، وإذ لا خوف واحدا معه! مع ما كانوا فيه من وطيس، وهاهنا الإعجاز!

وجاء تنوين التمكين في ﴿أمنة﴾ و ﴿نعاسا﴾ برهان تمكنهم أمنا، ودلالة استغراقهم نعاسا! وهذا غير مألوف في حرب، فثم الإعجاز!

وإذ تأكد الاستغراق مرة أخرى في مجيء كل من ﴿أمنة﴾ و ﴿نعاسا﴾ نكرة، برهان استغراق في كل منهما، وهذا غير مألوف في الحروب أيضا، فثم الإعجاز أيضا!

﴿أنزل﴾ فيه إثبات علوه تعالى على خلقه، وأنه تعالى بائن منهما، كما قال سبحانه ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه:5].

﴿عليكم﴾ تفيد القيومية، وقد شملهم النعاس، أمنة كلهم، ولم يتبق ولو واحدا إلا ونالهما جميعهما، ومن بعد غم.

﴿ثم﴾ تفيد تراخيا! وهنا الإعجاز! إذ لو كان قد أنزل النعاس أمنة دون تمكن الغم لما كانت لهما قيمتهما!

وجاء ﴿الغم﴾ معرفا، وكأنما من سطته كان معروفا لجميعهم، ومن حيث قد أصاب كلا، ولم يفلت منه أحد فثم إعجاز!

عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان[1].

وهذا خطاب من الله تعالى العلي الأعلى إلى عبيده، وهم أدني، فكان إعلاء من دنو، وثناء من علو، فترقى درجاتهم.

و﴿الغم﴾ واحد قابله اثنان: ﴿أمنة﴾ و﴿نعاسا﴾، فكان بمثابة ﴿فإن مع العسر يسرا﴾ [الشرح: 5].

وجاء تصوير الموقف عن أبي طلحة قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، وكان سيفه يسقط من يده أثره.

فعن أبي طلحة الأنصاري زيد بن سهل: غشينا ونحن في مصافنا يوم أحد، حدث أنه كان فيمن غشيه النعاس يومئذ قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط من يدي وآخذه، والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرغبه وأخذله للحق[2].

هكذا شأن الموقنين بنصره تعالى، يسقط السيف من يد أحدهم فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه، يقينا بنصر ربهم الحق سبحانه، والمنافقون كساؤهم القلق، حتى حملهم على جبنهم، ورغبتهم عن الحق، وخذلانهم أمام جنود الحق وحماة

---

(1) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٩/٢٥٦

(2) صحيح الترمذي، الألباني: 3008

العقيدة، ولأنهم ﴿قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء﴾ [آل عمران:154].

عن أبي طلحة "غشينا النعاس ونحن في مصافنا، فكان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه، وما أحد إلا ويميل تحت حجفته"[1].

وإن كل ذلك إلا محبة الجهاد.

﴿أمنة﴾: جمع على وزن فعلة! كأن الأمنة كلها قد أسبغتهم كلهم، وكأن الأمن جميعه قد شملهم جميعهم أيضا.

﴿يغشىٰ﴾: هذا تجسيم، وكأنما نراه يحكى صورته، لا خبرا وحسب، فكان أوقع تأثيرا، وهذا بيان القرآن.

﴿يغشىٰ﴾: هذا تلبس تام بالأمنة وبالنعاس، كناية عن سكون، استدعاه غم من بعد غم، فضلا من تعالى ونعمة.

﴿منكم﴾: لا يفيد بالفضل إلا مستحقا له، وهذا هو مطلق العدل، ولتعزيز البذل في النفوس.

(1) تفسير البيضاوي، البيضاوي: ج ٢/ ١٠٤

المبحث التاسع عشر: رد على من طعن في فرارعثمان يوم أحد

أراد قوم الصيد في ماء عكر، وحين وجهوا سهامهم لعثمان؛ لفراره يوم أحد، وهذا برهان أن العظام مستهدفون، ولا يضرهم كيد أعدائهم شيئا!

إن الله تعالى خلق نفوسا ذات منحنيات ومرتفعات ومنخفضات، ولو أراد غير ذلك، لكان سمو ملائكة، خارجا عن نطاق بشر، فطرهم سبحانه عليه، ومنه فرار يوم أحد.

إنه لو كان عثمان وحده، أو ثلة يوم أحد، لكان عيبا، تقام به الدنيا ولا تقعد، لكنه ما ظنك بفتنة قلبت رأس المجن، على المسلمين جميعهم ابتلاء.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها * كفى المرء نبلا أن تعد معايبه. ومنه عثمان وصحبه يوم فروا في أحد.

كان يكفي إعلانه تعالى العفو عمن فر يوم أحد، لكننا نستجلي حكما، وإذ لم يكفهم نص القرآن، حين وجهوا سهامهم إلى عثمان خاصة، ولشك في قلوبهم.

إن ثلما أعده المرتابون جرحا في عثمان، وكان كافيهم أنه هو ذلكم الأشم، الذي كفل جيش العسرة بأكمله، وما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم ولا قبله!

عن عبدالرحمن بن سمرة: جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار قال الحسن بن واقع: وفي موضع آخر من كتابي، في كمه حين جهز جيش العسرة فينثرها في حجره. قال عبد الرحمن: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها في حجره ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين[(1)].

(1) صحيح الترمذي، الألباني: 3701

سبق بيان تغييبه صلى الله عليه وسلم لعثمان يوم بدر، لتمريض أهله، وفي مرض الموت! ولم يكن منه، بل أمرا من قائد الميدان، ورسول الرحمن، فانفكت جهة العصيان!

وإذ كانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة. ومنه فلا مأخذ عليه عدم حضورها، خاصة وأنه صلى الله عليه وسلم ضرب على يده بيده اليمنى وقال: هذه يد عثمان نيابة.

فعن عثمان بن موهب قال: (جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوما جلوسا فقال: من هؤلاء القوم؟ قالوا: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر. قال: يا ابن عمر، إني سائلك عن شيء فحدثني عنه، هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم. قال: هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهدها؟ قال: نعم. قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان، فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر. قال ابن عمر: تعال أبين لك، أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له. وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه. وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان فكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى: هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان. فقال له ابن عمر رضي الله عنه: اذهب بها الآن معك) [1].

(1) صحيح البخاري: 3698

إن تفنيدا سهلا ميسورا، لوقائع عدها المرجفون ثلما في عثمان، كان سيدها، أنه تعالى عفا عنهم، برهان عفو عما سبق أحدا أيضا، ولم إذن تمحل؟!

مشابهة بين بدر وأحد: أشبهت أحد بدرا في دعائه صلى الله عليه وسلم: اللهم إن تشأ لا تعبد، ونعاس، وأمنة، وتميرات رماها عمير بن الحمام في بدر، ومثلها رجل آخر في أحد؛ برهان أن هذه أمة متصلة السند.

المبحث العشرون: فصل فيما لقي النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ من المشركين قبحهم الله

بين نبينا صلى الله عليه وسلم اشتداد غضبه تعالى على من آذاه صلى الله عليه وسلم، وينسحب ذلك على كل مؤذ، أي مكان أو زمان، وعلى من قتله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله، ولأنه لا يقتل إلا لذلك.

وهذا أبو عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة، وإذ نزع الحلقتين من وجنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، أزم على كل واحدة منهما بأسنانه حتى لا يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسقطت ثنيته، فكان أحسن الناس هتما[1].

كان أبو عبيدة من أحسن الناس هتما! وهذا تعبير شجي، يبلغ بيانه في القلوب قبل سحره للأفئدة مبلغ قوم أحسنوا كلامهم، وحين كان الهتم أجمل الصور!

(1) مسند أحمد، ط الرسالة، أحمد بن حنبل: ج3/217

وإنما كان أبو عبيدة- رضي الله تعالى عنه- أحسن الناس هتما؛ ولأنه سقطت ثنيتاه، وهو إذ ينزع حلقتين، غرزتا في وجنتي نبينا صلى الله عليه وسلم، إثر إيذاء الكافرين له، يوم أحد.

رأيت تغالب القوم يوم أحد على اشتراك كل منهم في مداواة جرحاهم، فدل على أنهم جميعا كانت لديهم خبرة الإسعافات، فكان سبيلا يحتذى!!

وإذ يحسن إعطاء الجند وقادة الميدان دورات تدريبية في إسعاف جرحاهم، ما أمكن ذلك، حتى إذا قطعت خطوط الإمداد، أمكن إسعاف بعضهم بعضا، وهذا فن عسكري.

كان من إعجاز يوم أحد إغماؤه تعالى أعين أربعة عن نبينا صلى الله عليه وسلم، جاؤوا لقتله، وهو بين أيديهم، ولم يروه! هكذا روى التاريخ عن عبد الله بن شهاب الزهري.

كان في إغماء أربعة جاؤوا لقتله صلى الله عليه وسلم يوم أحد برهان قسوة قلب وعمى بصيرة معا؛ لأنه ولئن بقيت فيهم مسحة من عقل لآمنوا، ولم يعجزهم تفكيرهم هذا.

أن يظل أربعة قرشيين على كفرهم، وإذ ها هو صلى الله عليه وسلم بين أيديهم، ولم يروه! برهان صحة القرآن كله، ولأنه تعالى قال **﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ۚ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾** [يونس: 101]! ولأنه قال **﴿وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾** [يس:9]. ولأنه تعالى قال **﴿والله يعصمك من الناس﴾** [المائدة:67].

إن بقاء أربعة على كفرهم، وإذ كان صلى الله عليه وسلم بين أيديهم، ولم يروه! برهان خشية أحدنا على نفسه، وإذ إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث يشاء.

فعن شهر بن حوشب: قلت لأم سلمة: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالت: فقلت: يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال: يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ. فتلا معاذ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا [1].

سجل التاريخ أن الذي رمى في وجنتي نبينا صلى الله عليه وسلم عبد الله بن قمئة، والذي رمى في شفته وأصاب رباعيته عتبة بن أبي وقاص. وهذه صحيفة الحالة الجنائية لكل منهما!

سبحان الخلاق العظيم! هذا هو عتبة بن أبي وقاص، يجرح نبينا صلى الله عليه وسلم، يوم أحد، وهذا هو أخوه سعد بن أبي وقاص، وجها لوجه، يداوي نبينا صلى الله عليه وسلم، يوم أحد أيضا! وهذه مفارقة عجيبة!

عن سعد بن أبي وقاص قال: و الله ما حرصت على قتل أحد قط، ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص [2]. وإذ لا وزن لعلائق النسب، وحين تتعارض مع الإسلام.

---

(1) صحيح الترمذي، الألباني: 3522

(2) عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير، محمد بن عبد الله بن يحي ابن سيد الناس: (421/1)

وإذ قدم سعد بن أبي وقاص حيثيات حرصه على قتل أخيه عتبة، وأنه كان:

1- سيء الخلق.

2- مبغضا في قومه.

3- اشتداد غضب الله تعالى عليه؛ لإدمائه وجه رسوله صلى الله عليه وسلم [(1)].

إنه ليس يقاس على حيثيات حرص سعد بن أبي وقاص على قتل أخيه عتبة، ولكفره يوم أحد، ولأنها واقعة عين، ولأنه يوم قتال، ونبيهم صلى الله عليه وسلم بين أيديهم!

علم نبوة ضاف: كان إعجازا، وعلم نبوة، في دعاء نبينا صلى الله عليه وسلم على عتبة بن أبي وقاص: اللهم لا يحول عليه الحول حتى يموت كافرا؛ ولأنه ما مر عليه حوله إلا ومات كافرا!

نؤكد ونعيد تأكيد أنه صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن أبي وقاص أن يموت كافرا، ولأنه حاد الله ورسوله، لاعن بقية يؤمل إسلامه، وإنما كسر رباعيته صلى الله عليه وسلم وأدماه.

وإذ يستنبط من دعائه صلى الله عليه وسلم على عتبة بن ربيعة، ولأنه جرحه، وأدماه، أن شدة الإيذاء والعداوة له صلى الله عليه وسلم ربما كان مؤذنا ألا يتوب صاحبها، ومنه كان مخلدا في النار، وليحذر عاقل فعل عتبة هذا.

---

(1) المرجع السابق: (421/1).

داوى رسول الله ﷺ وجهه يوم أحد بعظم بال [1]. وهذا حيث غريب، أدعو إلى مراجعة ذلك علميا، ولعله يثبت به إعجاز آخرا! ولأن غرابته لا تمنع صحته.

منع الله تعالى نبيه ﷺ من الكفار طيلة عمره كله، رغم سعيهم حثيثا، أن ينالوا منه، وذلك في حد ذاته إعجاز موجب إسلامهم، لأنه ﴿والله يعصمك من الناس﴾.

المبحث الواحد والعشرون: إن كان محمد ﷺ قد قتل، فقد بلغ الرسالة فقاتلوا عن دينكم!

إنه، ولئن كان القائد مستهدفا كل حين من أمره، إلا أنه تعالى جعل الموت أو القتل عنوان قيوميته تعالى، وأنه ناموسه إلى خلقه؛ كيما يكونوا على أهبته.

إنه يجب إعداد الجيل أن قائده، وحين يختاره ربه سبحانه من بينهم، فإن هذا عنوان صبرهم واحتسابهم وجلدهم، وأنه لا يغادر أحد مكانه؛ ولموت قائده أو قتله.

وإنه لفارق، بين قائد، وبين الرسول القائد، إلا أنه يبقى وجه الاستعداد، لحصول مفارقة هذا أو ذاك أرض الميدان، فيصبروا.

حين صرخ عبد الله بن قمئة: قتلت محمدا، وصرخ الشيطان أزب العقبة: ألا إن محمدا قد قتل [1]! فبهت كثيرون، وثبت آخرون على العهد، كأنس بن النضر.

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير:32/4. حكم المحدث: غريب.

إنه يجب أن توضع خطط الدولة على أي وجه تصير الأمور، ولا تتبدل ولا تتغير بذهاب قائد أو آخر، حفظا لسيرها، وحرصا على نظامها، ولا تعلق بقائد.

صحيح، ليس نبينا ﷺ كقائد! وليس قائد كنبينا ﷺ، ولا قياس، وإنما هذا هو سننه تعالى ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ۚ أفإن مات أو قتل انقلبتم علىٰ أعقابكم ۚ ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضر الله شيئا ۗ وسيجزي الله الشاكرين﴾ [آل عمران:144].

وإذ قال أنصاري: إن كان محمد ﷺ قد قتل، فقد بلغ الرسالة فقاتلوا عن دينكم [2]. وهذا هو عين الحق، ويقين الحكمة؛ لتنهض الدولة فلا تعثر، وتقوم فلا تقعد.

أبلى النضر بن الحارث يوم أحد حتى طعن ما بين ثمانين طعنة، وكذا طلحة بن عبيد الله، حتى نزل فيهما وأمثالهما ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ۖ فمنهم من قضىٰ نحبه ومنهم من ينتظر ۖ وما بدلوا تبديلا﴾ [الأحزاب:23].

عن أنس بن مالك قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني المشركين-، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر،

---

(1) جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير، جلال الدين السيوطي: ج35/2

(2) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/ ٣٥

إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى -أو نظن- أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: **{من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه}** [الأحزاب: 23]، إلى آخر الآية. وقال: إن أخته -وهي تسمى الربيع- كسرت ثنية امرأة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص، فقال أنس: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فرضوا بالأرش، وتركوا القصاص، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره [(1)].

وإذ قال أنس بن النضر: واها لريح الجنة أجده دون أحد. وهؤلاء كانوا يقولون قولا يقطر مسكا لا كلاما، وعبيرا لا لسانا، ونسيما لطيفا بل وعليلا.

وهذا استشراف فضل الشهادة، وعلو همة، لا أنف في التراب، يتمرغ ذلا وجبنا، يتوارى خلف سدود الأهواء، وجدر النزوات.

وهكذا سجل التاريخ، ولا ينسى قولا عبقريا، دل على شهامة أنس بن النضر، وكيف كان حس الشهادة يساوره، حتى توسمها!

ما عرفت أخي إلا ببنانه: وهذ قول الربيع أخت أنس بن النضر، وحين لقي في ربه مصرعه، فكان حريا نزول قرآن فيه، ولأنه صدق ما عاهد الله عليه.

---

(1) صحيح البخاري: (2805).

المبحث الثاني والعشرون: بل أنا أقتله إن شاء الله

علم نبوة ضاف! وإذ قال نبينا ﷺ: بل أنا أقتله إن شاء الله[1]. وحين أخبر بعزم أبي بن خلف على قتله ﷺ، وهذا علم نبوة، ومنبئ كيف كان الناس هكذا يقدمون فلا يتأخرون.

وإذ طعن نبينا ﷺ أبي بن خلف في عنقه طعنه تدأدأ منها عن فرسه مرارا[2]. حتى أقسم، وقال: لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون!

هذا هو نبينا ﷺ، وحين يطعن أبي بن خلف طعنة يخارمنها قوم بأكملهم ،كما قد خار خوار الثور، وهذه أعلام نبوة، عن القوم أنفسهم، حجة عليهم، لا خبرا من لدنا!

حين يقدم جنده تعالى زائرين لاستلاب حقوقهم من متربص بهم و بطعنة واحدة سوف تنكئهم كأبي بن خلف، ولما طعن طعنة لو وزعت على قومه لأثختنهم!

حين نذكر طعنة نبينا ﷺ لأبي بن خلف، ولو وزعت على أهل المجاز لخاروا، فإنما لا نتسلى أو نسلي به، وإنما ليكون عقدا لازما، يتحقق أبدا بتحقق أسبابه!

إنه ليس ينظر لقتل نبينا ﷺ أبي بن خلف على أنه قتل، فذلك يمكن أن يتحقق على يد غيره، وإنما كعلم نبوة، وحين أيقن بقتله، وحين تأله أبي بقتل نبينا ﷺ.

---

(1) المصنف، عبد الرزاق الصنعاني: ج ٥/٣٥٦

(2) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ / ٦٠١

وليس ينظر في قتله ﷺ لأبي على أنه مجرد قتل، فذاك يمكن أن يحسنه غيره وإنما لطعنة لو وزعت على قومه لخاروا منها جميعا، ولم يذكر التاريخ مثلها أبدا!

وإنه ليس ينظر على قتله ﷺ أبي كقتل، فذاك يمكن ان يكون يسيرا على غيره، وإنما لطعنة أودت به، فخار منها، ولم تقطر بسببها نقطة دم واحدة! وهذا ليس شائعا!

ليس ينظر لقتله ﷺ لأبي على أنه قتل، فذاك عمل جندي ماهر أيضا، وبقدر أنه ﷺ لم يقتل أحدا غيره، برهان عداوة سبقت قتله، وحين عزم على قتله ﷺ.

ينظر في واقعة قتله ﷺ لأبي بن خلف على أن القائد يجب أن يكون ماهرا بفنون القتال، ومتقدما صفوف جنده، ليعملوا عمله، وحين كان شجاعا مقداما.

لسنا نخوض كثيرا في رواية أنه رؤيت نار يتسعر فيها أبي بن خلف ليلة قتله، وبقدر ما ننظر في إعجاز الواقعة كلها من ألف بائها إلى واوها ويائها!

نقارن؛ للاعتبار، بين نار تسعر فيها أبي بن خلف ليلة قتله، وبين شهادة عبد الله بن حرام يوم أحد، وإذ أخذت الملائكة تظلله بأجنحتها حتى رفع!

مقتل مصعب بن عمـــير: كان مصعب بن عمير رضي الله تعالى عنه متنعما قبل إسلامه، وحين أسلم اخشوشن، ولما مات في أحد كفن في ثياب إذا وضع على رأسه بدت رجلاه، وإذا وضع على رجليه بدا رأسه!

كانت نظرة أسلافنا العظماء في دينهم إلى دنياهم كمعبر إلى الآخرة، يتزودون منها لها، لا دار مغانم ومآكل ومشارب، فذاك الذي ينتظرهم في الجنان.

وإذ قال إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف: أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أتي بطعام وكان صائما، فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة، إن غطي رأسه، بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه - وأراه قال: وقتل حمزة وهو خير مني - ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط - أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا - وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام[1].

أثنى عبد الرحمن بن عوف خيرا على أخويه مصعب وحمزة، وكان أكثر منهما مالا. ولأنه تعالى قال **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ۚ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ۚ إن الله عليم خبير﴾** [الحجرات:13]. وهذه شهادة عدل، لأنها منه تعالى.

إن عاقلا هو ذاك عبد الرحمن بن عوف، وحين بسطت له الدنيا، ومؤديا حق الله فيها، ويخشى ربه، ولأن هذا صنف قال الله تعالى فيه **﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلىٰ ربهم راجعون﴾** [المؤمنون:60].

خروج اليمان وثابت بن وقش: كان والد حذيفة وثابت بن وقش من كبار السن، وآثروا إلا أن يحضروا يوم أحد، برهان أن هذه أمة يسابق بعضها بعضا في الجهاد، نصرة لرب العباد. صغارا كانوا، وكمثل عبد الله بن عمر يوم أحد! وكبارا كانوا، ومن نظير هذين رجلين اثنين ويوم أحد أيضا!

(1) صحيح البخاري: 1275.

وإذ كان من أهمية يوم أحد خروج أطياف الأمة كلها إليها، ولأنه إذا نفر النفير هبت أمتنا ملبية مناديها، فكانت كالسيل ليس يدرى أوله خير أم آخره!

خرج اليمان والد حذيفة، وما أخرجه إلا حب الشهادة، فقد قتل خطأ بأيدي المؤمنين، ولينال أجر الشهداء وعلى نيته، فتصدق ولده بديته على المسلمين.

ولئن قيل: ولم كان اليمان وثابت بن وقش بين نساء المؤمنين يوم أحد؟ قيل: لأنهما كبارا سن زهدا في النساء، وما أخرجهما إلا حب الشهادة.

وإذ بلغ حسن الخلق من حذيفة، ولما لم يعاتب قتلة والده؛ لأنه رأى بعيني رأسه خطأ، ليس مقصودا، وإنها ساحة قتال يحصل فيها من مثله ما يوجب عذرا!

وإذ بلغ حسن الخلق بحذيفة، وحين لم يكتف بالعفو عن قتلة والده خطأ، بل دعا لهم بالمغفرة، وليكون أجره وأجر والده على الله تعالى، وكفى بالله حسيبا.

المبحث الثالث والعشرون: غزوة أحد برهان عزة أمة

إن دينا نصب له سوق الجهاد في سبيله تعالى، وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاما حافلة ببذل المهج، ليدلنا على عظمته، وحين رابط أهله كل حياتهم لله.

وما ظننا بقوم رابطوا ثلاثة وعشرين عاما كاملة؛ لنشر دينهم الحق، في سبيل ربهم الحق، فما ربك بفاعل بهم غير الفردوس الأعلى، وساما وتاجا؟!

إن أحدنا ليغشاه خجله، وهو إذ يعيش سيرة أولاء قوم رابطوا ثلاثة وعشرين عاما كاملة، في سبيل ربهم الحق، وإذ نحن نعدم، ولو رباطا قليلا!

إن نبينا ﷺ ترك دنياه شاهدة كل بقعة فيها، ولجت فيها قدماه الشريفتان، أن ههنا نبيا جاهد في الله حق جهاده! وأولاء صحبه، قد رفعوا رايته من بعده كانوا عليها أمناء.

إن الله تعالى سائلنا فردا فردا، وماذا قدمت لدين داينت نفسك به، وإذ هو يعافس هنا، وإذ هو يعاقر هناك، وإذ هو يرفع راية، وما هي براية؟!

يضع أحدنا يده على قلبه، وإذ يرى اليمان وثابت بن وقش طاعنين، وقد تسابقت بهما همتهما أبناءهما البررة، فتقدموا جميعا صفوفا، بذلوا فيها نفوسهم لله.

إنه وإن لم نخرج من أحد إلا بأمثال اليمان وطلحة وحمزة، وقود خير لجهاد، تكون فيه كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، لكفى!

إنه وإن لم نخرج من أحد إلا بمثل قتل أبي بن خلف، صنديد كفر، آذى الله ورسوله ﷺ، لكفى بها نعمة، وحين كانت علما على نبوته ﷺ، وأنه سيقتله!

إنه وإن لم نحرج من أحد إلا بحكمة ربانية، وحين انكشفت سوأة بن سلول، مدبرا على عقبيه، ولتطهير صف، كان طهارته منه أولى من رجسه فيه، لكفى!

إنه لحمد لله حمدا، وإنه لشكر له شكرا، وأن أدبر ابن سلول، يوم أحد: ولأنهم ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهمۗ والله عليم بالظالمين﴾[التوبة:47]!

إن أحداث الأمة العظام، كيوم أحد، كانت حقلا، لإبراز هكذا معادن قوم، حق قول ربهم فيهم ﴿ إن الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنةۚ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلونۖ وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآنۚ ومن أوفىٰ بعهده من اللهۚ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم بهۚ وذٰلك هو الفوز العظيم ﴾[التوبة:111].

وإن لم نخرج من أحد إلا بضربته ﷺ أبي بن خلف، لو وزعت على قومه لخاروا منها، لكفى، ولأنها أمة باذلة، يرمي عنها ربها، وإذ كانت في الأعين أنها الرامية.

وإذ نخرج من أحد إلا بنار، ها هي تستعر بأبي بن خلف، وحين آذى رسولنا ﷺ، برهان أنه تعالى يسعر نارا مثلها، لكل عتو متكبر جبار غره جهله!

علم نبوة ضاف: رد عين قتادة بن النعمان: لنا نبي ﷺ رد عين قتادة بن النعمان! ولما سقطت على خده، حتى عادت أسلم، وحتى رجعت أحد، وهذا إعجاز، فوق أنه علم نبوة، موجب أوبة وتوبة!

كانت عبقرية ابن قتادة بن النعمان، وحين عرف نفسه لعمر بن عبد العزيز، أنه ابن من رد عليه نبينا ﷺ عينه! فعادت أحسن مما كان، فأكر عمر وفادته!

حين عرف ابن قتادة نفسه لعمر بن عبد العزيز، وأنه ابن من رد عليه النبي ﷺ عينه عرف عمرا! برهان علمه بالتاريخ، ولأن التاريخ منهل علم صادق.

كان شرفا لابن قتادة بن النعمان، أن ينسب نفسه لوالده، بصفته لا باسمه، وهذا برهان وجوب تحلي الآباء بصفات بر، توجب شرف أبنائهم بها وبهم.

وكان فضله تعالى أن ترد عين قتادة بن النعمان إليه، لتكون شرفا له ولذريته من بعده، مثلا يحتذى، وقدوة تقتدى، وكأفضل من محاضرة، وكأجمل من كتاب.

إن أعمال البر يبقى نفعها ما بقي الزمان، وهذه عين قتادة بن النعمان، وذا أثرها باق في ذريته، وفي غيرهم، إلى يوم يبعثون، مدرسة بر، وزاد تقوى.

إن عظائم الأمور كانت منهج الأولين، وذا أثر، وجهاد قتادة بن النعمان شاهد، وأن الآخرين إنما يستمدون زاد همتهم من عمل الأولين، سنة وهديا.

إن كل ما أحاق بالمسلمين، يوم أحد، يجبره وكمثل رد عين قتادة إليه، أثرا يتلقاه الأجيال، معينا لا ينضب، وزادا به تعلو قمم، وتسمق همم، وتقر عينا.

إن عملا واحدا يمكن أن يغير بسببه مجرى التاريخ، وحين يترك للأجيال، أن رجلا جاهد في أحد، فسقطت عينه، فردها ﷺ، بركة يوم، ونبي، ومجاهد معا.

إن عملا قام به قتادة، يوم جاهد في أحد، حتى فقئت عينه، برهان وجوب قيام الآباء بأعمال بر خالدة، تكون أنسا وفخرا لأبنائهم، لا شرا يعايرون به.

عمل أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية: ولسنا نقول: قاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، يوم أحد، فحسب بل إنها قاتلت دون نبي أمتنا ﷺ، حتى جرحت في الله جرحا غائرا، بقي أثره فيها، ولتلقى ربها وها هي امرأة جاهدت في ربها حق جهاده، برهان اجتبائها، ودليل وفائها.

إن وضع مشاركة أم عمارة، يوم أحد، في موضعه، فقه ودين، ولأن أصل عملها كان السقيا، ولما رأت انكشافه ﷺ، فهرعت مدافعة، وهذا عمل توجبه المعارك.

إن عمل أم عمارة، يوم أحد، كان اجتهادا صائبا، برهان إقراره ﷺ لها، وهذه مسألة أصولية، أسبرها العلماء، بحثا ضافيا، وهذا سند مليح في المسألة.

ليس في عمل أم عمارة، يوم أحد، سندا لأدعياء تحرر المرأة! ومم تتحرر وقد حررها دينها من جاهلية وشر، كانت فيه متاعا حراما، يتوارثها الظالمون، جيلا ومن بعد جيل آخر؟!

عن أم عطية نسيبة بنت كعب: أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء فنزلت هذه الآية إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الآية[1].

ولعلها هي أم عمارة نسيبة؛ دلالة رواية ابن حجر عن أم عمارة بنت كعب الأنصارية: أنها أتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: ما أرى كل شيء

(1) صحيح الترمذي، الألباني: 3211

إلا للرجال، ما أرى النساء يذكرن في شيء فنزلت { إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات }[1].

وهذه حفاوة بها وببنات جنسها! وهكذا أيضا كان في ديننا من يرفع رأسا بحق رآه، ومن يسمق قيمة برأي ارتآه، زمن جنس نسائنا، وإذ كانت رافعة رايته نسيبة بيت كعب المازنية!

إن القرآن إنما يخاطب الرجال والنساء معا، إلا ما خص أحدهما، لكن أم عمارة أرادت بيانا شافيا، أسعفها به القرآن، تضميدا لجراح نساء، أعيتهن عيبة الجاهلية.

رد مزاعم حول الغنـــائم: لا يمكن مسايرة زعم أن المسلمين كانوا يخرجون بغية الغنائم، وها هو عبد الرحمن بن عوف، أغنى عصره، يجرح في ربه عشرين جرحا، وتهتم أسنانه.

لا يجوز رمي المسلمين أنهم كانوا يخرجون للغنائم، وها هي بلاد تفتح، وها هو الهدى يصدح، وبفعل قوم، كان زادهم الفتح المبين، لرب العالمين.

زعم قوم أن المسلمين كانت تغرهم غنائمهم، ولأن هذا طلحة، وحين فاته يوم بدر، يتمنى شرف يوم أحد، ليرى الله منه صنيعا حميدا، وقد فعل.

وحين قال أنس بن النضر: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قتل[1]! هل أراد به مغنما؟!

---

(1)الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني: 479/4. خلاصة حكم المحدث : روي من طرق.

وإذ قال أنس بن النضر: إني أجد ريح الجنة وطيبها عند جبل أحدا! هل هذا قول تشم منه رائحة حب المغانم، ولومن طرف خفي؟ أم إنها الجنة مبتغى وهدفا؟

فعن أنس بن مالك: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني أصحابه- وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء -يعني المشركين-، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنا نرى -أو نظن- أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: **{من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه}** [الأحزاب: 23]، إلى آخر الآية. وقال: إن أخته -وهي تسمى الربيع- كسرت ثنية امرأة، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص، فقال أنس: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فرضوا بالأرش، وتركوا القصاص، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره[2].

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير :ج ٤ / ٣٩
(2) صحيح البخاري: 2805

عـــداوة أبي بـــن خلـــف: قد بلغت عداوة أبي بن خلف، أن يعد فرسا خصيصا، ليقتل نبينا ﷺ به! وليتوعده ﷺ، أنه هو الذي سيقتله! وقد حدث! وانظر عداوة في سبق إصرار غريب!

كان سبق عداوة أبي بن خلف في إصرار، برهان دعائه ﷺ، أن يقتله، وأن يدعو بموته كافرا! وهذا من أسباب تشديد العقوبة الجنائية، سبقا للإسلام به.

قال أبي بن خلف: فو الله لو بصق- ﷺ - علي لقتلني! وهذا أثر كبر، تملك صاحبه، وحين يؤزه أزا، إلى حتفه وبنفسه! ليأخذ كل على ذات نفسه تواضعا.

قال أبي بن خلف: فو الله لو بصق- ﷺ - علي لقتلني! وهذا من باب قوله تعالى: ﴿يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون﴾[النحل:83].

حماية الهدف الاستراتيجي للأمة: علت قريش جبل أحد، فقال ﷺ: اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا، فأنزلهم المسلمون. وهذا فن عسكري، ألا يسمح للخصم بموقف تسهل منه المفاجأة!

إنه يحسن الوقوف أمام عدم السماح للخصم بثغر استراتيجي هام يمنحه يدا طولى، إن سلما أو حربا، وكما كان هديه ﷺ فيه، يوم أحد، وهذا فن عسكري.

هناك خطوط استراتيجية، تهم وتخص الشأن الإسلامي، حسن إدارتها بحكمة المسلمين، ولتفويت هدف أكلهم، يوم أكل الثور الأبيض!

توطأ المسلمون جبل أحد، بعد إنزال قريش منه، ليتبوأ هدفا استراتيجيا هاما جديدا، وهذا فن عسكري آخر: احتلال الهدف بعد تطهيره من الخصم!

صلى نبينا ﷺ الظهر، يوم أحد، قاعدا من أثر الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه ﷺ قعودا. لينظر الرعية ماحل براعيهم، فيهون عليهم ما أصابهم، فنا عسكريا آخر.

علم نبوة ضاف: خبر قزمان: أخبر نبينا ﷺ أن قزمان من أهل النار! وهذا علم نبوة آخر! ولأنه قاتل قتالا عظيما، يوم أحد، حتى أذهل! فقال: ما قاتلت إلا على أحساب قومي!

إن خبر قزمان، وأنه من أهل النار، ورغم قتاله وبأسه، إلا أنه لم يكن في سبيله تعالى، بل حمية لقومه، وإنه تعالى لا يقبل إلا عملا صالحا خالصا.

إن عملا صالحا لا يكون إلا وفق الكتاب والسنة، وإن عملا مخلصا لا يتأتى إلا إذا كان العبد يفعله ولا يفعله إلا لله، وهذان شرطان عليهما مدار ديننا.

كان قتال قزمان عملا صالحا، لكنه انهد كما الجبل حين ينهد، وإذ فارق الإخلاص عموده وركنه وأسه وشرطه، وجوب مجاهدة نفس على إخلاصها لله.

إن ربنا غني غنى مطلقا، وأعمالنا لا تزيد في ملكه شيئا، كما أن انعدامها لا تنقص من ملكه وغناه شيئا، وإن هذا إلا لنا، وإن ذاك إلا علينا.

إن المرء ليقف حاسرا حيرانا، وإذ تتحقق نبوءاته ﷺ، كفلق الصباح، أو هي أبلج، وحين أنبأ أن قزمان المقاتل الشجاع من أهل النار! لفوات إخلاصه.

اجتمعت على قزمان بليتان: ولأنه قاتل حمية، وهذا ضرب فوات الإخلاص، ولأنه قتل نفسه، فاستعجل أجل الله، وكلاهما تعد على مقام الألوهية الكريم.

إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر! وإن فجر رجل كهذا، لأنه قاتل حمية، وأنه قتل نفسه، وهذا مقياس الفجر!

إن مقياس فجر عبد بنص الحديث، أنه قاتل حمية، وأنه قتل نفسه، وهذان عاملان يأتيان على العبودية أحدهما، فما بالك باجتماعهما، ليصير فجرا مركبا!

حين أخبر ﷺ أن رجلا فاجرا، ولأنه قاتل حمية، وأنه قتل نفسه، فهل نقف على النص، بحيث لا يكون فجر إلا معهما، أم يكون حكما عاما، في كل من عصى؟!

إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة: هذا خبر أكده نبينا ﷺ. وهذا وحي، وهو نذير لمن أشرك، وبشير لمن أسلم، وهذا العالم الواسع مدعو، لتدارك أمره.

أول وقف بالمدينة! أوقف مخيريق ماله كله، كأول وقف بيثرب، إذا قتل في سبيل ربه، فنال أجر الشهداء، وأجر الواقفين، سنة حسنة، له أجرها، وأجر من عمل بها، إلى يوم القيامة.

سجل التاريخ لمخيريق، أنه أول من أوقف أمواله بالمدينة، عنوانا على تقوى، وأمارة على بذل، وكناية عن حب، وبرهانا على إيثار، ولما كان بكل ماله.

حين أوقف مخيريق ماله كله لله، فكان برهان يقين عبد بربه، أنه سيتولى ذريته من بعده، درسا لمن أتى بعده، والذي منه قوله تعالى﴿**إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾ [الذاريات:58].

وفرق بين الوصية وشرطها الثلث، فيما أقل، ولأنها ليست منجزة، وبين الوقف، ولأنه تصرف صاحب حق فيما يملكه، ومنجزا على شرط واضعه وحسب.

وشرط صحة الوقف بكل ما يملك أن يكون صحيحا رشيدا غير سفيه غير قاصد إيقاع ضرر بورثته، وإلا أثم مع صحة تصرفه.

خبر أصيرم: أسلم عمرو بن ثابت الملقب بـ (الأصيرم)، بعد إذ كان صنديدا، لينال شرف الشهادة، يوم أحد، ولم يكن قد صلى صلاة واحدة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

مقابلتان:

1- إنه من أهل النار، وهذه لقزمان، لأنه قاتل حمية قومه!

2- إنه من أهل الجنة، وهذه لأصيرم، لأنه قاتل لربه، ولم يصل قط! وهذه حكمة ربنا.

عمرو بن الجموح: كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا غزا، فلما توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد أراد أن يتوجه معه، فقال له بنوه: إن الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد!!، فأتى عمرو بن الجموح – رضي الله عنه – رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله إن بني هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، ووالله إني لأرجو أن استشهد "فأطأ بعرجتي هذه في الجنة"، فقال له رسول الله – صلى

عليه وسلم -: ((أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد))، وقال لبنيه: ((وما عليكم أن تدعوه لعل الله – عز وجل – أن يرزقه الشهادة))، فخرج مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقتل يوم أحد شهيد[1].

كان عذر عمرو بن الجموح لعرجه، فلا جهاد عليه، إلا أنه قال: فو الله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة. فنال الشهادة، وإنما يبحث غيره عن عذره!

وإذ دعا عمرو بن الجموح يوم أحد كما في المسند بسند حسن " يقول: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل أأمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم-: نعم. تقول زوجته: لكأني انظر إليه وقد أخذ درقته، وهو يقول: اللهم لا تردني حتى أطأ بعرجتي هذه الجنة صحيحا، وقاتل حتى قتل، فمر عليه –صلى الله عليه وسلم- فقال: لكأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة إيه إيه!!

مفارقة بين هندين! المرأة رقيقة لطيفة! لكن هند بنت عتبة حرمها الله أنوثتها! لأنها بقرت عن كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها وهذا عمل لايطيقه رجل! وكيف لامرأة أن تطيق تقول سيرته فضلا عن فعله وحكايته؟!

قالت هند بنت عتبة:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات

ما كان لي عن عتبة من ولا أخي وعمه وبكر

(1) راجع فقه السيرة للغزالي (ج1 ص260)، وقال الألباني: سنده حسن إن لم يكن مرسلا، وقد روى بعضه أحمد بسند صحيح.

شـــفيت نفســـي وقضـــيت   شـــفيت وحشـــي غليـــل
فشكر وحشي علي عمري   حتى تـرم أعظمي في قبري

وقالت هند بنت أثاثة:

نحن جزيناكم بيوم بدر   والحرب بعد الحرب ذات سعر
صبحك الله غداة الفجر   م الهاشـميين الطـوال الزهـر
بكل قطاع حسام يفري   حمـزة ليثـي وعلـي صـقري
إذ رأم شيب وأبوك غدري   فخضـبا منـه ضـواحي النحـر

وهذا اسم واحد لوصفين مختلفين، وهذه أبيات أربعة لكل منهما، وهذه قوافي للصدر موافقة لقوافي العجز، ولكل منهما! مع أعداد كلمات تكاد تكون واحدة! بل أعداد حروف، ولعلها شبه متطابقة ايضا! برهان بيان فائق للعرب، وبلاغة ندت وصفا!

أن يتوافق اسما هند بنت عتبة، لتهجو المسلمين، وهند بنت أثاثة، لتهجو الكافرين، فهذا اختيار رباني، تلفه الحكمة البالغة، وتكتسيه الحجة الدامغة.

وإذ قال أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام المقبل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: قل: نعم، هو بيننا وبينك موعد: وفيه مبدأ إعلان الحرب عهدا معروفا.

قال ﷺ لعلي بن أبي طالب: اخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون وما يريدون[1]. وفيه جواز تتبع آثار الخصم، وهذا فن إدارة جهاز الاستخبارات.

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ / ٦٠٩

وقد مربنا يوم أحد أربع نسوة هن: أم المؤمنين عائشة، وأم سهيل، ونسيبة بنت كعب المازنية، وهند بنت أثاثة، وقد أبلين بلاء حسنا، مقابلة صنديدة واحدة، هي هند بنت عتبة! ويقولون: حجر الإسلام على النساء!

ومر بنا يوم أحد وكيف بلغ بأبي سفيان حنقه بابن عمه حمزة! وإذ يضربه ميتا! وهذا برهان أكباد كفر غليظة، وإنما جاء الإسلام ليقوم اعوجاجها.

ومر بنا ابن أصيرم يوم أحد، وحين أخلص فرزق الشهادة، ولما لم يصل لله ركعة واحدة، وإنما العبرة بالخواتيم، ليشفق أحدنا على ذات نفسه، إخلاصا وبذلا.

وإنما أفرزت غزوة أحد جيلا عجيبا، في بذله كحمزة، ورهطا حميدا في خلقه كطلحة، ونفرا كريما في وقفه كمخيريق، ونسوة خالدات كنسيبة، ورجالا كانوا لنا مجدا.

وأفرزت غزوة أحد معادن، باذلين أنفسهم، بأن لهم الجنة، وحين أوقف مخيريق ماله كله، ليرد بفعله لا قوله على زعم أن جندنا كانوا يريدون مغنما!

إن مزاعم تساق الفينة بعدها فينة أخرى أن أسلافنا كانوا يريدون غنما ،إنما مدارها على جهل بتاريخ، لم يقرأ من أساس، وعلى حنق عليه دفين!

سؤال نبيا ﷺ عن سعد بن الربيع أهو حي أم ميــــت؟ قال ابن إسحاق: وفرغ الناس لقتلاهم فحدثني محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة المازني، أخو بني النجار: أن رسول الله ﷺ قال: «من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟».

فقال رجل من الأنصار: أنا، فنظر فوجده جريحا في القتلى وبه رمق.

قال: فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟

فقال: أنا في الأموات فأبلغ رسول الله ﷺ سلامي وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته، وأبلغ قومك الأنصار عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف.

قال: ثم لم أبرح حتى مات، وجئت النبي ﷺ فأخبرته خبره[1].

وإذ قال نبينا ﷺ: من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ وهذا برهان اهتمام القائد بجنده حقا واجبا، ورفعا لمعنوياتهم.

وينبغي فعل ما يشي باهتمام الجند، لأنهم هم الركن الركين الحاسم في المؤسسة العسكرية، وعليهم وبهم نصرها أو خذلانها، ولا ينظر إليهم كمتاع فتخور المؤسسة العسكرية وتنهار.

جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته: هذه رسالة سعد بن الربيع الأخيرة إلى نبينا ﷺ، وإذ هو في رمقه الأخير، يوم أحد، برهان محبتهم لقائدهم. وإذ إنها لرسالة تقطر حبا، بل تنهمر منها دلالات البذل، وبراهين الإلف، بنبي كان وصفه، أنه كان ﷺ يسأل عن أصحابه، ويتحسس آلامهم ومحابهم معا.

(1) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: ج ٣ / ٥٢٤

وأبلغ قومك الأنصار عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف. وهذه صورة محبتهم.

ويكأن سعدا بن الربيع كان يعد نفسه، ليوم كأحد، وحين أمهر نفسه بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وهذا بيان أن الجهاد كان عمل قلوبهم.

وإذ كان سعد بن الربيع نقيب الأنصار، يوم العقبة، وإذ هو ذاك الذي عرض مناصفة ماله وزوجيه مع أخيه المهاجري عبد الرحمن بن عوف، وهذا سجله رضي الله تعالى عنه! وهذه صحيفة حسن سيره وسلوكه، شاهدة عليه رضي الله تعالى عنه.

وإذ لقي سعد ربه بأنه: نقيب يوم العقبة، وعرض مقاسمة ماله وزوجه مع أخيه المهاجري عبد الرحمن بن عوف، وجاهد يوم أحد، حتى استشهد، وأرسل سلاما إلى نبينا ﷺ، وأوصى قومه به ﷺ.

دفن حمـــزة: عن أنس بن مالك: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة يوم أحد فوقف عليه قد مثل به فقال لولا أن تجد صفية في نفسها لتركته حتى تأكله العافية حتى يحشر يوم القيامة من بطونها قال ثم دعا بنمرة فكفنه فيها فكانت إذا مدت على رأسه بدت رجلاه وإذا مدت على رجليه بدا رأسه قال فكثر القتلى وقلت الثياب قال فكفن الرجل والرجلان والثلاثة في الثوب الواحد ثم يدفنون في قبر واحد قال فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عنهم أيهم

أكثر قرآنا فيقدمه إلى القبلة. قال: فدفنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصل عليهم[1].

وإذ قال نبينا ﷺ: لولا أن تحزن صفية وتكون سنة من بعدي لتركته - حمزة - حتى يكون في بطون السباع. فيه النظر إلى مآلات الأقوال والأفعال هديا نبويا.

وفيه العمل بالمصالح المرسلة، وهذه مسألة أصولية.

قال ﷺ: لولا أن تحزن صفية وتكون سنة من بعدي لتركته -حمزة-حتى يكون في بطون السباع. وليتم أجره كاملا في الشهداء وأن جسده كله قد بيع لله.

وفيه رقة طبع النساء، واعتباره ﷺ لذلك.

حين توعد نبينا ﷺ التمثيل بثلاثين من الكفار، ولأنهم قتلوا عمه حمزة، ومثلوا به أنزل الله: **﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم بهۦولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾** [النحل:(126)]. فعفا ﷺ وصبر، ونهى عن المثلة.

وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به: جواز عمل المفضول وترك الأفضل، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. وفيه جواز ترك المفضول لفعل الأفضل.

وإذ نقدم للناس نبيا كان وقافا عند الكتاب، وقد سبق في علمه تعالى، أنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، برهان تعظيم للكتاب، ومنزله، سننا وهديا للتابعين.

---

(1) صحيح الترمذي، الألباني: 1016

وإذ نقدم للناس نبيا كان هديه فعل الأولى، وهذا شأن ديننا، يعلو بأهله، قمما سامقة، في الأدب الرفيع، والخلق الجميل، والسمت الجميل، ابتغاء وجه ربهم.

عن أنس بن مالك، كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث في خطبته على الصدقة، وينهى عن المثلة[1].

و"ما قام رسول الله ﷺ في مقام قط ففارقه، حتى يأمر بالصدقة وينهى عن المثلة[2]". ولأن كليهما صنائع معروف، تقي مصارع السوء.

والنهي لوجوب الترك، لأن المثلة امتهان لكرامة الإنسان حيا أوميتا، ولا محل لها.

حين أعلن ﷺ أنه لم ولن يصاب بمثل عمه حمزة، جاءه جبريل عليه السلام، مهدئا روعه، وأن حمزة مكتوب في الملائكة، أنه أسد الله، وأسد رسوله ﷺ، وهذا مجده هناك!

كان في تهدئة جبريل روعه ﷺ بشأن حمزة رسالة إلى كل مكلوم، أن الفرج قريب، وأن النصر آت، وأن مع العسر يسرا، ولن يغلب عسر يسرين أبدا، وليطمئن أحدنا قلبا.

لقد جمع حمزة بين كونه عما لنبينا ﷺ، وأنه كان أخاه من الرضاعة، وليعلم سر تأثره به، وليدرك سبب حزنه عليه، صلات قربى عديدة، أفرزت هما رأيناه.

---

(1) فتح الغفار الرباعي: 3/1594. خلاصة حكم المحدث: رجال إسناده ثقات.

(2) البداية والنهاية، ابن كثير، ج ٤ / ٤٥

الصلاة على حمزة وقتلى أحد: عن عبدالله بن مسعود أن النساء يوم أحد كن خلف المسلمين يجهزن على قتلى المشركين فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر أنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم فلما خالف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصوا ما أمروا به أفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم في تسعة سبعة من الأنصار ورجلين من قريش وهو عاشرهم فلما رهقوه قال رحم الله رجلا ردهم عنا فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل فلما رهقوه أيضا قال يرحم الله رجلا ردهم عنا فلم يزل يقول ذا حتى قتل السبعة فقال النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبيه ما أنصفنا أصحابنا فجاء أبو سفيان فقال اعل هبل فقال النبي صلى الله عليه وسلم قولوا الله أعلى وأجل قال أبو سفيان لنا عزى ولا عزى لكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله مولانا والكافرين لا مولى لهم ثم قال أبو سفيان يوم بيوم بدر يوم لنا ويوم علينا ويوم نساء ويوم نسر حنظلة بحنظلة وفلان بفلان وفلان بفلان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا سواء أما قتلانا فأحياء يرزقون وقتلاكم في النار يعذبون ، قال أبو سفيان قد كانت في القوم مثلة فإن كانت لعن غير ملإ منا ما أمرت ولا نهيت ولا أحببت ولا كرهت ولا ساءني ولا سرني قال فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلت منها شيئا قالوا لا قال ما كان الله ليدخل شيئا من حمزة النار فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة فصلى عليه وجيء برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصلى عليه فرفع الأنصاري وترك حمزة حتى صلى عليه سبعين صلاة[1].

---

(1) مجمع الزوائد، الهيثمي: 112/6. خلاصة حكم المحدث: فيه عطاء بن السائب وقد اختلط.

كان عمل النساء يوم أحد موجزا في أربع: مداواة جرحى المسلمين، وسقيا المؤمنين، والإجهاز على جرحى الكافرين، والذود عن رسول رب العالمين ﷺ.

أفاد عبد الله بن مسعود أنه لم يكن يظن أن أحدا يريد الدنيا، يوم أحد، حتى كشف الله ذلك وبقوله تعالى ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتىٰ إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ۚ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ۚ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم ۗ والله ذو فضل على المؤمنين﴾ [آل عمران:152].

إن رغبة في الغنائم لا يخلو منها جيش، إلا أنه يمكن حصرها في نفر قليل، ولأن ابن مسعود كان يعرف هذا، وإخلاص ذاك وأمارات تبدو على قسمات ذاك، كاشفة ولاشك.

لا سواء: أما قتلانا فأحياء يرزقون، وقتلاكم في النار يعذبون: وهذا إفحامه ﷺ، قاطعا أبا سفيان، وحين زعم تساوي الطرفين كأحد ببدر! ولا مساواة.

وإذا لم يكن في الجهاد إلا فارق واحد، وأن قتلى المؤمنين أحياء عند ربهم يرزقون، وأن قتلى الكفار في النار يعذبون، لكفاه فضلا ذلكم القتال.

وحين لم تأكل هند شيئا من كبد حمزة، قال ﷺ: ما كان الله ليدخل شيئا من حمزة في النار! وهذا علم نبوة، قطع بعدم إسلام هند، ليعمل الخبر فيها عمله، ولتعيش نكدا من بعد نكد!

قال ﷺ:ما كان الله ليدخل شيئا من حمزة في النار! وهذا برهان فضل حمزة، وقطع له بالجنة، برهان قتاله في سبيله تعالى، لا ليقال شجاع، وقد قيل!

وإذ كان يجمع بين الرجلين في ثوب واحد، يوم أحد، برهان أن هذه أمة كانت ذا حاجة، ولم يثنها ذلك عن بذلها بما تملك، وأعزه نفسها التي بين جنبيها.

وإذ كان ﷺ يجمع بين الرجلين في كفن واحد، يوم أحد، فدل ذلك على جواز أن يكفن الرجلان في ثوب واحد لحاجة، وكان يقدم الأكثر قرآنا في اللحد، فضلا لصاحب القرآن.

لقد بلغ بصاحب القرآن أن يقدم في لحده على من هو دونه، وهذه رسالة توجب عملا وتفاعلا مع القرآن، وإذ كان هذا هو فضل صاحبه.

أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة. وهذه شهادته ﷺ، على شهداء أحد، وأنهم جميعا جاهدوا في ربهم حق جهاده، وحين اجتباهم ربهم لذلكم فضل.

وإذ أمر نبينا ﷺ بدفن شهداء أحد بدمائهم، ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا. برهان جوازه، وإعماله، ولأن دماءهم يوم القيامة مسك يقطر، وهذا فضل الشهيد.

صلى نبينا ﷺ على قتلى أحد بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات. وهذا فقه الصلاة، لا أنها صلاة على القتلى، خاصة أنه لم يصل على قتلى بدر.

أمارات الفراق ودلالات الوداع لنبينا ﷺ: عن عقبة بن عامر: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى أحد بعد ثماني سنين، كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن

تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها، قال: فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها: وهذه رسالة وداع نبينا ﷺ للدنيا وأهلها. وفيه إثبات الحوض، وبراءة الأمة من الشرك، وأنها على أصل توحيدها، وأنها تتنافس على الدنيا، وأن هلكتهم في ذلك.

فعن عمرو بن عوف المزني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافت صلاة الصبح مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم، وقال: أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟، قالوا: أجل يا رسول الله، قال: فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم[2].

روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا صبيحة يوم أحد من السحر، فإذا امرأة أقبلت بين عدلين. فقلنا: ما الخبر؟ قالت: خيرا، دفع الله عن رسوله وعن المؤمنين، واتخذ الله من المؤمنين شهداء، ورد الله الذين كفروا

---

(1) صحيح البخاري: 4042
(2) صحيح البخاري: 3158

بغيظهم، لم ينالوا خيرا. ثم قالت لبعيرها: (حل)، فقلنا: ما هذا؟ قالت: أخي وزوجي. ودفن أخوها وزوجها في قبر واحد[1].

قالت امرأة عمرو بن الجموح ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ۚ وكفى الله المؤمنين القتال ۚ وكان الله قويا عزيزا﴾ [الأحزاب:25]. وهكذا نزل قرآن على قولها! وهذا أيضا برهان أن هذه أمة كيف كان اتصالها بربها حتى كانوا يقولون قولا، فينزل قرآنا كما قالوا!!

وإذ قالت امرأة عمرو بن الجموح لبعيرها: حل، ثم نزلت وفيه جواز مخاطبة الحيوان، وأنه يفهم عن صاحبه، لا سيما إذا كان مدربا، وهذا من لطفه تعالى!

وهذه مشاعر صفية نحو أخيها! قال ابن إسحاق: وقد أقبلت - فيما بلغني - صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه، وكان أخاها لأبيها وأمها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنها الزبير بن العوام: القها فارجعها، لا ترى ما بأخيها، فقال لها: يا أمه، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله. فلما جاء الزبير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك، قال: خل سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، فصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن[2].

---

(1) إمتاع الأسماع، المقريزي: ج ١/١٦١

(2) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري، ج ٣ / ٦١٢

قالت صفية: قد بلغني أنه مثل بأخي وذلك في الله، فما أرضانا ما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله. وهذا صبر امرأة، وعلى أخيها! وحسن اقتداؤه.

وحين أتت صفية أخاها حمزة، ورأته مسجى، فنظرت إليه، وصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت. وهذا هدي الإسلام، وحين نزول المصيبة سننا حسنا. وفيه جواز الصلاة على الشهيد ولفعلها حضرة النبي ﷺ.

وإذ أمر نبينا ﷺ بحمزة فدفن، ودفن معه ابن أخته عبد الله بن جحش، وأمه أميمة بنت عبد المطلب. وفيه جواز دفن الجماعة في قبر واحد، وفي وقت واحد.

خبر سعد بن أبي وقاص: دعا سعد بن أبي وقاص أن يقتل فقتل، ودعا عبد الله بن جحش أن يقتل جدع أنفه فقتل جدعا، وهذا برهان صدقهم، قضاء نحبهم في ربهم.

شابهت أحد بدرا، وحين تحول عرجون سيفا، قاتل به عبد الله بن جحش، وهذا ما صنعه ﷺ مع عكاشة، يوم بدر، وهذه أمارات نبوة معجزة إعجازا!

والعرجون: هو العود الأصفر الذي يحمل العنقود من التمر إذا بلي وأصبح قديما؛ حيث يقطع من نخلته ويترك فتجده قد التوى واستدار، وأصبح كهيئة الهلال.

كان نبينا ﷺ يجمع بين الرجلين والثلاثة في القبر الواحد، بل في الكفن الواحد، يوم أحد، وذلك دفعا لمشقة حلت بهم، والنص يدور مع علته حيث دارت.

أمر نبينا ﷺ بدفن شهداء أحد بدمائهم، ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا. برهان جوازه وإعماله، ولأن دماءهم يوم القيامة مسك يقطر، وهذا فضل الشهيد.

قال ﷺ: ما كان الله ليدخل شيئا من حمزة في النار! هذه إدارة الشؤون المعنوية للقوات المسلحة، وحين يكون عملها هزيمة الخصم من داخله ليهوى!

جمع ﷺ بين المتصاحبين في اللحد الواحد، كوالد جابر، وابن الجموح فكانا صاحبين، ولأنه تعالى قال: الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين!

ما من جريح يجرح في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك: وفي الدنيا ذكر مثله، ومن مات فقد قامت قيامته.

أمر رسول الله ﷺ يوم أحد بالشهداء أن ينزع عنهم الحديد والجلود- لينتفع بها-،وقال: ادفنوهم بدمائهم - فسوف تكون مسكا - وثيابهم: فلا يكفنون.

يا رسول الله فأيهم يقدم؟ وهكذا عن يتشوفون فضلا. قال: «أكثرهم قرآنا». وهكذا يكرم صاحب القرآن حيا وميتا.

احتمل ناس من المسلمين قتلاهم يوم أحد إلى المدينة فدفنوهم بها، ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك وقال: «ادفنوهم حيث صرعوا. وهذا حكم واضح.

عبد الله بن عمرو بن حرام: عن جابر بن عبدالله، لما قتل عبد الله بن عمرو بن حزم يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جابر ألا أخبرك ما قال الله عزوجل لأبيك قال بلى قال ما كلم الله عزوجل أحدا إلا من وراء حجاب وكلم أباك كفاحا فقال يا عبدي تمن علي أعطك قال يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية قال إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون. قال يا رب فأبلغ من ورائي فأنزل الله عز وجل هذه الآية ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا[1].

وجد عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر على النحو الذي دفن لم يتغير إلا ما لم يدع القتل أو القتيل. وذلك في خلافة معاوية، وبعد ستة وأربعين عاما، وإلى يوم القيامة!

أن يوجد عبد الله بن حرام، وحيث لم يتغير، وبعد ستة وأربعين عاما من دفنه، فدل ذلك على فضل الشهداء وغيرهم، ممن فضلوا بهذا الفضل العظيم.

كان في نبش معاوية قبور قتلى أحد، لإجراء عين، جواز ذلك، وللمصلحة، وبقدرها، شرط إكرام الموتى، وعدم امتهانهم، وذلك من سر ديننا، ورفعه الحرج.

كان إحساس عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر أنه سيكون أول قتيل في أحد! وقد كان! وأوصى جابرا بقضاء دين والده، وكذا بأخواته خيرا من بعده، برهان ضعف البنات.

---

(1) حادي الأرواح ابن القيم: 275. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح، وأخرجه الترمذي (3010)، وابن ماجه (190) باختلاف يسير.

يوصي أو لا يوصي عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر جابرا ببناته خيرا، فدل ذلك على فضل الإحسان إلى البنات، وإذ هن كسيرات أسيرات ضعيفات مرحومات، وإنها لذكرى لمن أراد أن يذكر.

سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه أبكي، وينهوني عنه، والنبي صلى الله عليه وسلم لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه[1].

تبكيه أو لا تبكيه لم تزل الملائكة تظله حتى رفعتموه. وهذا فضل الشهداء، وإنهم لأحياء عند ربهم يرزقون.

وحين بكى جابر وعمته والده يوم أحد فقال ﷺ: تبكيه أو لا تبكيه لم تزل الملائكة تظله حتى رفعتموه. وإما إنه ﷺ يرى ما لا نرى، أو أن هذا خبر الوحي أو كلاهما.

وعن جابر بن عبدالله: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه فقال يا جابر ما لي أراك منكسرا قلت يا رسول الله استشهد أبي وترك عليه دينا وعيالا فقال ألا أبشرك بما لقي الله به أباك إن الله لم يكلم أحدا من خلقه قط إلا من وراء حجاب وإن الله أحيا أباك فكلمه كفاحا وقال يا عبدي تمن علي ما شئت أعطيك قال تردني إلى الدنيا فأقتل فيك فقال تبارك وتعالى لا إني أقسمت بيمين أنهم إليها لا يرجعون يعني الدنيا[2].

---

(1) صحيح البخاري: 1244

(2) التوحيد، ابن خزيمة: 2/890. خلاصة حكم المحدث: أشار في المقدمة أنه صح وثبت بالإسناد الثابت الصحيح.

وعن جابر بن عبدالله أيضا: لقيني النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: (يا جابر ما لي أراك منكسرا)؟ فقلت: يا رسول الله استشهد أبي وترك عيالا ودينا فقال: (ألا أبشرك بما لقي الله به أباك)؟ قلت: بلى يا رسول الله قال: (ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب وإن الله أحيا أباك فكلمه كفاحا فقال: يا عبدي تمن أعطك قال: تحييني فأقتل قتلة ثانية قال الله: إني قضيت أنهم لا يرجعون) ونزلت هذه الآية: **{ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون}** [آل عمران: 169] [1].

يا جابر ألا أبشرك؟ هذا نداء واستفهام، جاءا هكذا متضامين مؤتلفين، في تركيب بلاغي ند وصفا، وليحمل معنى اللطف بابن مات والده في سبيل مولاه.

يا جابر ألا أبشرك؟ هذا استفهام يحمل معنى العرض، كأسلوب مؤثر في سامعه، وكان خيرا، مما لو كان استفهاما صرفا، ولم يكن له وقعه الذي حدث!

يا جابر ألا أبشرك؟ هذا استفهام يحمل معنى التشويق واستثارة المستقبل، سلوكا معتبرا، عند توجيه الخطاب، ليعمل عمله، وفيه استدعاء، وحفزا لكليته.

يا جابر ألا أبشرك؟ قال: بلى بشرك الله بالخير. وفيه رد الخير بخير مثله، وهذا هو متقضى الخلق الحسن الحميد، أمة كان الحب فيه تعالى قائدها.

حين رأى نبينا ﷺ جابرا مهتما، ولقتل أبيه، وقد ترك عيالا ودينا، لينزل الله قرآنا بردا وسلاما على صدور المكلومين، ومن حيث قال الله تعالى **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاۚ بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾** [آل عمران:169].

(1) صحيح ابن حبان، ابن حبان: 7022. خلاصة حكم المحدث: أخرجه في صحيحه.

كان من بشرى جابر بوالده أنه تعالى ما كلم أحدا إلا من وراء حجاب سوى أنه كلمه كفاحا، ليتمنى عودا، ليقتل فيه تعالى، غير أنهم إليها لا يرجعون.

أما والله لوددت أني غودرت مع أصحابه بحضن الجبل: عن جابر بن عبدالله: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر أصحاب أحد قال والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بفحص الجبل[1].

وعنه أيضا: كان صلى الله عليه وسلم إذا ذكر أصحاب أحد قال: والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بنحص الجبل[2].

كان ﷺ يقول إذا ذكر أصحاب أحد: «أما والله لوددت أني غودرت مع أصحابه بحضن الجبل» يعني سفح الجبل[3]. وفيه جواز تمني الشهادة لفضلها.

وكان نبينا ﷺ يزور شهداء أحد كل عام مرة، وأمر به، وهذا هدي نبوي، وأن يستأنسوا بزيارة نبيهم ﷺ لهم، وأن يعلم ذووهم كم كان فضلهم! وحين كان اهتمامه ﷺ بهم.

وإذ ألقت امرأة السلام على شهداء أحد، فسمعت رد سلامها من تحت الأرض، حتى اقشعرت كل شعرة فيها، وهذا قولها، وحديثه ﷺ يؤيده، وكذا القرآن فهم أحياء.

أرواح الشهداء في جوف طير خضر: عن مسروق بن الأجدع: سألنا عبد الله عن هذه الآية: **{ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم**

---

(1) عمدة القاري العيني: 135/14. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

(2) شرح البخاري لابن الملقن: 366/17. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(3) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٥١.

يرزقون} [آل عمران: 169]. قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا[1].

وعن عبدالله بن عباس: لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد من أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم فقالوا من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق؟ لئلا يزهدوا في الجهاد وينكلوا عن الحرب فقال الله عزوجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله **{ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا}** الآية[2].

طلع ربنا على الشهداء إطلاعة فقال: اسألوني ما شئتم، فقالوا: يا ربنا وما نسألك ونحن نسرح في الجنة في أيها شئنا. أبواب الجنة الثمانية مشرعة للشهداء.

عدد الشهداء يوم أحـــد: قال قتادة: وحدثنا أنس بن مالك: أنه قتل منهم يوم أحد سبعون، ويوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون. وقال: وكان بئر

(1) صحيح مسلم: 1887

(2) شرح البخاري لابن الملقن: 403/17. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

معونة على عهد رسول الله ﷺ، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر، يوم مسيلمة الكذاب[1].

وعن أنس، قال: يا رب السبعين من الأنصار، سبعين يوم أحد، وسبعين يوم بئر معونة، وسبعين يوم مؤتة، وسبعين يوم اليمامة[2]. وهذا العدد متساو في أربع معارك ولعل سرا يعلمه الله!

ولئن قتل سبعون في أحد، ولئن كان نصفا مما قتل وأسر من قريش يوم بدر، وهذا إيناس رباني، ولعل حكمة في تكراره يوم بئر معونة ويوم مؤتة ويوم اليمامة!

قال الله تعالى ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنىٰ هٰذا قل هو من عند أنفسكم إن الله علىٰ كل شيء قدير﴾ [آل عمران:165]. وهذا إيناسه تعالى لعبيده، وأن قدرا حين ينزل، فإنما ينزل معه لطفه، تخفيفا منه تعالى ورحمة.

﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنىٰ هٰذا قل هو من عند أنفسكم إن الله علىٰ كل شيء قدير﴾ ؟، وهذا تساؤل ليس في محله؛ لأنهم خالفوا أمر قائدهم، سننا أبدا، للوقوف مليا أمام النص!

﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنىٰ هٰذا قل هو من عند أنفسكم إن الله علىٰ كل شيء قدير﴾؟ وهذا شأن عام، فإن شؤم مخالفة النص عظيم، وليحذر أحدنا التعدي، وليدور مع النص حيث دار.

(1) صحيح البخاري: 3850

(2) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج ٢/١٩٩

مقتل أبي عزة الجمحـــي: قال الألباني رحمه الله تعالى: وكان رسول الله ﷺ أسره ببدر، ثم من عليه، فقال: يا رسول الله أقلني، فقال رسول الله ﷺ: " والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها، وتقول خدعت محمدا مرتين، اضرب عنقه يا زبير، فضرب عنقه[1] " ثم قال: " وبلغني عن سعيد بن المسيب أنه قال: قال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم):إن المؤمن لا يلدغ من حجر مرتين، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت، فضرب عنقه ". قلت: وهذا مع بلاغة مرسل، وقد وصله البيهقي (9 / 65) من طريق عمد بن عمر، حدثني محمد بن عبد الله عن الزهري عن سعيد بن المسيب به مطولا. قلت: وإسناده واه جدا، من أجل محمد بن عمر وهو الواقدي وهو متروك[2].

وأما حديث " لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين " فصحيح اتفق الشيخان على اخراجه، وأما سببه المذكور فلا يصح، وإن جزم به العسكري، ونقله عنه المناوي في " فيض القدير " ساكتا عليه، غير مبين لعلة! وتبع العسكري آخرون كابن بطال والتوربشتي كما نقله الحافظ في " الفتح " (10 / 440)، وأشار إلى ضعفه فراجعه إن شئت[3].

وإذ كانت حكمة ألا يؤسر في أحد من المشركين سوى أبي عزة الجمحي، ذلك الذي من عليه نبينا ﷺ يوم بدر بلا فداء اختبارا له وألا يعود. وها هو قد عاد!

---

(1) ذكره ابن هشام في " السيرة " (3 / 110)
(2) إرواء الغليل، الألباني: 5 / 41
(3) المرجع السابق: ج ٥ / ٤١

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين: وحين كذب أبو عزة الجمحي يومي بدر وأحد، أن يفك أسره لبناته، ولفقره، وعلى ألا يعود. وهذه من أحكام العود في قانون العقوبات الإسلامي.

وحين كذب أبو عزة الجمحي يومي بدر وأحد؛ لفك أسره على ألا يعود، فأمر نبينا ﷺ به فضربت عنقه! وهذا من أحكام العود، والسبب المشدد في قانون العقوبات الإسلامي.

المبحث الرابع والعشرون: نعي نبينا ﷺ لحمنة بنت جحش أخيها وخالها وزوجها يوم أحد

قال ابن إسحاق: ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش كما ذكر لي، فلما لقيت الناس نعى إليها أخوها عبد الله بن جحش، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن زوج المرأة منها لبمكان! " لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها.

وقال ابن ماجة: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا إسحاق بن محمد الفروي، حدثنا عبد الله بن عمر، عن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جحش، عن أبيه، عن حمنة بنت جحش، أنه قيل لها: قتل أخوك. فقالت: رحمه الله وإنا

لله وإنا إليه راجعون. فقالوا: قتل زوجك قالت: وا حزناه! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن للزوج من المرأة لشعبة ما هي لشئ "[1]!!

وهذه حمنة بنت جحش وحين نعي إليها يوم أحد أخوها وخالها فاسترجعت واستغفرت، وحين نعي زوجها ولولت! وهذا إخبار عن قيمة الزوج في حياة الزوجة!

رحم الله عبد الله بن جحش، مصطحبا تاريخا حافلا بالجهاد، وحين نصره الله تعالى في سريته قبيل بدر، وها هو يجود بنفسه يوم أحد، في حواصل طير خضرا!

إن قلادة تقلدتها حمنة بنت جحش، في أحد، ولما نعي إليها أخوها عبد الله بن جحش، وخالها حمزة بن عبد المطلب، وزوجها مصعب بن عمير، أولئك الأخيار!

إن امرأة كحمنة بنت جحش، لجديرة بتقلد أوسمة الدنيا، وحين نالت شرف استشهاد أخيها وخالها وزوجها، في أحد، وهذا مثال عمل هذا الدين في أهله! بررة صابرين محتسبين.

إن الله ربنا لسوف يجبر خاطر حمنة بنت جحش يوم القيامة، وحين كان ابتلاؤها في استشهاد أخيها وخالها وزوجها، يوم أحد، ولأن ربنا لرءوف رحيم. كما قال تعالى ﴿إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾ [البقرة: 143].

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج / ٩٣

وإذ قال نبينا ﷺ:إن زوج المرأة منها لبمكان! وحين تجلدت حمنة بنت جحش لاستشهاد أخيها وخالها، لكنها صاحت لاستشهاد زوجها، وهذا وفاء زوجة فطري! وهذه مشاعر صاحبة متدفقة، إلفا لعش جمعهما، وميثاق غليظ ضمهما!

إن للزوج من المرأة لشعبة ما هي لشيء: أي: قدر عظيم من المودة وشدة اللصوق، والمحبة والتعلق، ليس مثلها لقريب ولا لغيره!

وإذ أصيبت امرأة من بني دينار في زوجها، وأخيها، وأبيها بأحد، فلما نعوا لها قالت: ما فعل ﷺ؟ قالوا: بحمد الله كما تحبين. قالت: كل مصيبة بعدك جلل. أي قليلة! "[1].

ودلنا على قدره ﷺ بين المسلمين، ويوم أحد، حين تنعى امرأة في زوجها وأخيها وأبيها، لتسأل عنه ﷺ، وأن كل مصيبة غيره قليلة، وهذا فقه ودين.

إن امرأة تسأل عن نبينا ﷺ وقد أصيبت في أبيها وأخيها وزوجها يوم أحد ليتحقق فيها قوله ﷺ: لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين[2].

قال ابن إسحاق: فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة فقال: " اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقني في هذا اليوم ". وناولها علي بن أبي طالب سيفه فقال: وهذا فاغسلي عنه دمه،

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج / ٩٣

(2) صحيح البخاري: 15

فـوالله لقـد صـدقني اليـوم. فقـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم: " لـئن كنـت صدقت القتال لقد صدقه معك سهل بن حنيف وأبو دجانة [1]".

وقول نبينا ﷺ لفاطمة: اغسلي عن هذا دمه يا بنيه، فو الله لقد صدقني في هذا اليوم - أحد -!إشارة إلى سيفه ﷺ، وهذا برهان نسبة الفعل إلى الجماد!

وهذا من ضروب الكنايات، ولأنه كناية عن قتاله ﷺ، يوم أحد، وحذف القتال، وأتى بشيء من آثاره، وهو دم سيفه ﷺ!

وقوله: يا بنية: وهكذا نتعلم كيف نربي بناتنا وأبناءنا؛ لندعوهم دعاء التلطف، ونناديهم نداء الرحمة والإلف والمودة كلها.

وفيه دليل عمل المرأة في بيتها، ولأن عليا قال لها - فاطمة - مثل ذلك يومه ذاك، وحين رجعا من أحد: اغسلي عن هذا دمه.

وقول نبينا ﷺ لعلي: لئن كنت صدقت القتال، لقد صدقه معك سهل بن حنيف وأبو دجانة. وهذا حافز القائد للمؤسسة، وفيه استدعاء قيم الثناء على من بذل.

إن الثناء على المجدين في العمل، حق لهم، وثواب معنوي فائق، ولما يزيدهم نشاطا، ولما يستدعيه في آخرين من دونهم، لتغدو المؤسسة دوي عمل طموح.

إن عبارات الثناء تمثل حافزا معنويا فاعلا؛ لاستدعاء طاقات العاملين في المؤسسة، وكأعظم من دينار أو درهم، كما أنها تغرس فيهم قيم الوفاء النبيلة.

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج / 94

عن ابن عباس، قال: جاء علي بن أبي طالب بسيفه يوم أحد قد انحنى فقال لفاطمة: هاك السيف حميدا فإنها قد شفتني[1]. هذا وصف لجماد بأنه حميد! إشارة إلى وفاء أفراد هذه أمة لجماداتها، ولإنسها بابا أولى.

وقوله: حميدا: هذه حال! وحميد على وزن فعيل، إمعانا في حمده! وبرهان وفاء صاحب السيف لسيفه!

وجاء بالحال- حميدا- مذكرا، إكراما للسيف بتذكيره! ونسب إليه التأنيث بقوله: شفتني! ليفرق عن ذي الجلال! وهذه بلاغة البيان، أو قل بيان البلاغة، عز نظيره!

إن أمة حمدت سيوفها، وحين رفعت بها رؤوسها، لجدير بها أن تكون أمة حميدة بفعلها كذلك، ولأن جزاء الإحسان هو الإحسان بمثله، كما قال تعالى ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [الرحمن: 60]. ولو كان جمادا.

إننا لنتعلم على موائد نبينا ﷺ وصحبه، كيف كان الوفاء لسيف ماض، أقض الله به مجامع الكافرين، يوم أحد، ولو كان ليس نصرا مؤزرا، وكفى به سيفا مضاء.

لقد سبقنا الأغيار، وحين أثبتنا للجماد حركة، حميدة، ولما أبلى بلاء حسنا، يوم أحد، وهاهم الآن يثبتون أن للجمادات حركة اهتزازية، ولو موضعية!

هاك السيف حميدا فإنها قد شفتني. وهذه عبارة نصفها مؤكدات! ولأجل سيف كان فردا فذا سهلا لينا بيد صاحبه، حتى شفى فؤاده، إثخانا في الكافرين!

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ٩٤

المبحث الخامس والثلاثون: لكن حمزة لا بواكي له

وإذ كان مرجع نبينا إلى المدينة وجعل النساء يبكين قتلى يوم أحد. فسمع ﷺ البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عيناه ثم قال: لكن حمزة لا بواكي له: هذا حديث ضعيف، فلا يناسب مقام نبوة، جاءت لتقض النوح، وتبطله.

عن بعض رجال بني عبد الأشهل ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن بأنفسكن». قال: ونهى رسول الله ﷺ يومئذ عن النوح. وهذا حديث منقطع.

لمصلحة ماذا تردد أحاديث هي أبعد ما تكون عن هديه ﷺ، وكان منها بواكي حمزة وبفعل الأنصار؟! وهذا دين جاء يعلم الناس جدهم، ويهذب سلوكهم!

يمكن قبول نوح نساء الأنصار على قتلاهم في أحد، ولعدم وصولهن النهي، وعند وصوله، فثم التلبية، ولأن ديننا أجاز بكاء فطرة، غير نوح بدعة.

فقد بكى النبي صلى الله عليه وسلم لوفاة ابن ابنته زينب رضي الله عنها، فعن أسامة بن زيد رضي الله قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رسول إحدى بناته، يدعوه إلى ابنها في الموت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ارجع إليها فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب، فأعادت الرسول أنها قد أقسمت لتأتينها، فقام النبي صلى الله عليه وسلم وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، فدفع الصبي إليه ونفسه تقعقع كأنها في شن، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله، ما

هذا؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت[2].

فإن كان البكاء مصحوبا بلطم للخدود وشق للثياب والتسخط على قدر الله، فإ، هذا لا يجوز؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية. [3].

قال النووي رحمه الله: أما الندب والنياحة ولطم الخد وشق الجيب وخمش الوجه ونشر الشعر والدعاء بالويل والثبور فكلها محرمة باتفاق الأصحاب وصرح الجمهور بالتحريم ووقع في كلام بعضهم لفظ الكراهة وكذا وقع لفظ الكراهة في نص الشافعي في الام وحملها الأصحاب على كراهة التحريم وقد نقل جماعة الاجماع في ذلك[4].

وأما النياحة، فإنها لا تجوز، ولاسيما بعد الوجوب. فعن جابر بن عتيك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يعود عبد الله بن ثابت فوجده قد غلب فصاح به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبه فاسترجع رسول الله صلى الله

---

(1) صحيح البخاري: 1284

(2) صحيح مسلم: 976

(3) صحيح البخاري: (1294).

(4) المجموع، محيي الدين النووي، ج ٥ / ٣٠٧

عليه وسلم وقال غلبنا عليك يا أبا الربيع فصاح النسوة وبكين فجعل ابن عتيك يسكتهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعهن فإذا وجب فلا تبكين باكية قالوا وما الوجوب يا رسول الله قال الموت قالت ابنته: والله إن كنت لأرجو أن تكون شهيدا فإنك كنت قد قضيت جهازك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قد أوقع أجره على قدر نيته وما تعدون الشهادة قالوا القتل في سبيل الله تعالى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله المطعون شهيد والغرق شهيد وصاحب ذات الجنب شهيد والمبطون شهيد وصاحب الحريق شهيد والذي يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجمع شهيدة[1].

وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: " وقوله عليه السلام فإذا وجب فلا تبكين باكية يعني بالوجوب الموت فإن المعنى والله أعلم أن الصياح والنياح لا يجوز شيء منه بعد الموت وأما دمع العين وحزن القلب فالسنة ثابتة بإباحته وعليه جماعة العلماء بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على إبراهيم ابنه وقال إنها رحمة من حديث جابر وحديث أنس وبكى على زينب ابنته فقيل له تبكي فقال إنما هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده من حديث أسامة بن زيد وروى أبو إسحاق السبيعي عن عامر بن سعد البجلي عن أبي مسعود الأنصاري وثابت بن زيد وقرظة بن كعب قالوا رخص لنا في البكاء على الميت من غير نوح وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النوح من حديث عمر وحديث علي. .. وأجمع العلماء على أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء ورخص الجمهور في

(1) صحيح أبي داود، الألباني: 3111

بكاء العين في كل وقت" [1] . وإذ كانت فرصة إبليس حين سمع يهود والمنافقون بكاء نساء الأنصار قتلاهم، وليشمتوا ويمكروا ويفرقوا: وهكذا يصطاد منافقو كل زمان في مائهم العكر.

(1) الاستذكار، ابن عبد البر: ج ٣/ 67و 68

الفصل الثالث

وفيه مباحث:

المبحث الأول: غزوة حمراء الأسد

أحداث ودلالات

إن الأيام دول، وهذه وقفة كافية عند الذي حدث في أحد، وهكذا كان على يهود والمنافقين علم ذلك، لكنه الإرجاف الذي ما فتئ ينفث سمه فيهم أبدا.

إذ لو انتظر المنافقون قليلا، وحين خرج نبينا ﷺ لملاقاة القوم ثانية، وإذ ما زال جرح أحد نازفا، فلربما كان لهم قول ثان، لكن إرجافا لصيقا بهم، أدى بهم إلى فعلهم هذا!!

وإذ سمع نبينا ﷺ تلاوم قريش، وأنها أصابت شوكته وحسب، وإذ لم تبتره وحزبه، وإذ عزم أمره قائلا: لا ينطلقن معي إلا من شهد القتال[1]. ولتعلم يهود والمنافقون أن هكذا يجمع نبينا ﷺ جنده، ولملاقاة عدوه، ولو كان توا راجعا من أحد!!

وإذ مازال جرح أحد نازفا، يخرجون، ولينزل فيهم ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ۚ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ [آل عمران:172].

---

(1) تاريخ الإسلام، الذهبي: ج ٢ / ٢٢٣

وهكذا طلب نبينا ﷺ عدوه، حتى بلغ حمراء الأسد. وليعلم الذين في قلوبهم مرض، أننا أمة تصح أبدا، وإن أو عكت يوما، فإن شذى طيبها لتفوح منه الأرجاء، وإن عليل نسيمها ليعم به الأنحاء.

وإنه لجدير بأمتنا إعادة النظر في تاريخها الناصع المجيد، ولما لم تحط رحالها يوما، فنشرت دينها، وهدى الله بها قلوبا غلفا، وأعينا عميا، وآذانا صما.

وإذ ما زال جرح نبينا ﷺ وصحبه نازفا من أحد، وها هو يخرج إلى حمراء الأسد، وهذه رسالة إلى أولي العزم الأكيد، والأمر الرشيد، أن هكذا كان أسلافهم من قبل، منارات خير، ودعاة هدى للعالمين.

وحسن أن توجه طاقات خلابة، تستجيش أمتنا، نحو مجدها الأسعد، وإلى تاريخا الأمجد، لتعود قوية الشكيمة، فلا يتربص بها هكذا، ومن كل حدب ينسلون!

وإذ أذن نبينا ﷺ، لجابر بن عبد الله، بالمقام في المدينة، على أخواته، أمرا لوالده، يوم حمراء الأسد، ولأن ديننا يحفظ جبهته الداخلية، كالخارجية تماما، وبقدره وعلى شرطه.

وكان أن طلب رسول الله ﷺ العدو حتى بلغ حمراء الأسد؛ ولأنه أحيانا يكون الهجوم خير وسيلة للدفاع، وإذ علم نواياهم، وأخبر سرائرهم، علامات ونبوءات ودلالات!

وحسن أن يبادر الخصم بضربة، تجهز عليه، وحين يتبدى لجهاز الاستخبارات، أن خططا تبرم، وأن شباكا تنصب، وأن حيلا تحاك، وبمكر مثله، أو أشد مكرا.

وكان أن رجع نبينا ﷺ من أحد يوم الخامس عشر من شوال، وخرج إلى حمراء الأسد يوم السادس عشر من شوال نفسه! وبنفس فصيل أحد، استردادا لحق، واسترجاعا لكرامة!

ولربما جالت بنا الخواطر! إذ كيف يعود نبينا محمد ﷺ من أحد ليرجع إلى حمراء الأسد يومه التالي! وإذ ما زال جرحه نازفا! لكنه التاريخ مجد أمتنا!

إن أمتنا لا يعتريها خوار، بل ولا بصيصه! وحين تخرج مكلمة من أحد، ومباشرة إلى حمراء الأسد، رسالة تجأر بالحق، وبه يعدلون، وأن ههنا أمة محمد ﷺ!

إن أمتنا أسود زئيرها أزيز! وحين تؤوب أوبتها، صانعة للأحفاد أمجادا، لا مجدا واحدا، وأن آباءهم لم يرضوا دنية يوما، ولم يقبلوا ضيما ما بقوا، وليكونوا إذا مثلهم، وأن عدوهم منهم لمرجف!

وهكذا يخرج نبينا ﷺ إلى حمراء الأسد، منبئا عدوه، وكأن لم تكن به لمة، وبكأن شبيبة الأمة معينها، الذي لا ينضب، بل خزائنها ملأى، بأمثال الجبال الشم الرواسي.

وأن يخرج أهل أحد لحمراء الأسد - جميعا -، نصرة نبيهم ﷺ، بل دينهم، بل وأنفسهم، كلما ذاقوا مرارته، فهذا برهان أن جوادا وحين يعثر مرة، وإذ سرعان ما تراه ينهض ليعاود الكرة!

وإذ يحدث في الجيوش غربلة! فيجددون الدماء التي رهلت، ويميطون أذى عنها إذا عثرت! لكن جند أحد خرجوا عن آخرهم! إلا جابرا واحدا!! فما هو قولنا؟!

وقولنـا: إن جنـد محمـد ﷺ لا يعثـرون، وإذ هـا هـم جـراحهم تنـزف، فيخرجون وعلى قلب رجل واحد، لملاقاة عدوهم مرة واحدة أيضا، وهذا في حد ذاته يفقده توازنه، قولا فصلا.

وإذ قال أحدهم: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله صلى الله عليه[1]؟! وهذا مثلهم بذلا!

والله مالنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت أيسر جرحا منه، فكنت إذا غلب حملته عقبة، ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، فأقام بها ثلاثا الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة[2]! وهذا وصفهم حالهم، يوم خرجوا، إلى حمراء الأسد! لكنه مناد الجهاد إذا زأر، ولكنه داع القلب إذا نفرا!

إن خروج باذلين أخوين، مثقلين جراحا، ولا دابة لهما، وتلبية لنداء يوم حمراء الأسد، لخارج عن دائرة التصور! ولكنه التاريخ، وحين أتحفناه مجدا حسنا.

---

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/٢١٢

(2) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/٢١٢

إن رؤوسا أينعت، وإنه قد حان وقت قطافها، وهذا هو مبدأ خروجه صلى الله عليه وسلم، يوم حمراء الأسد، ولأن قريشا غرها في دينها، أنها غلبت يوما، وما تعلم أن الكرة عليهم من بعدها أبدا.

إن الأعداء يتربصون بأمتنا الدوائر كلها، ولئن كنا مساكين في ديننا، أو مقصرين، ومنه فأمل ملاحقتهم معقود، وأينما نبتت لهم نابتة، ولو كانوا وراء بحارهم! وهذا ما نفيده من وقفات، كانت سوقا ربانيا حميدا، ومن مثل ما سوف نرى من تسخيره تعالى لمعبد الخزاعي، - وعلى كفره - ولصالح المؤمنين. ودون إطلاق رصاصة واحدة، فلقد كان عمله تخويفا وإرهابا وإرعابا نفسيا، أتى أكله، ودون زحف!

مناورة عسكرية خالدة: ولعل حمراء الأسد كانت أشبه بمناورات يوم الناس هذا، إظهارا للقوة، وأمام خصوم غرتهم الأماني، يهالهم التخويف، ويقض مضاجعهم قوة المؤمنين!

وإذ مثلت حمراء الأسد في نظرنا وكمناورات، يقوم بها بواسل الأرض ونسور البحر والجو، حينا من بعد حين آخر، ليرهبوا به عدو الله وعدوهم، وآخرين من دونهم.

وإذ استغرقت حمراء الأسد ثلاثة أيام، ثم رجعت القوات ثكناتها في المدينة، برهان عمل عسكري خاطف، لا يكلف خزانة الأمة كثيرا، ويرهب الخصم أكثر، وهذا فن عسكري بامتياز.

إن عملا دؤوبا للقوات المسلحة أوجب، وليكون حاضرا في الأذهان أبدا، أمام خصم متربص، وليكون ماثلا في الخواطر، أن دعة لا تعرفها عسكرية مجيدة.

وقد أثار زخم حمراء الأسد في الخصم رعبا ووهنا، حط رحاله فيه، ولما رأى جندا مغاوير، خرجوا إليه، ومازالت جراحهم تنزف، جراء يوم أحد، فما باله ولو لم يكونوا ينزفون؟!

استعمال عبد الله بن أم مكتـــوم: واستعمل نبينا صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أم مكتوم، على المدينة، يوم حمراء الأسد، وما زال ماثلا في الذهن عتاب ربه تعالى له، ويوم قال سبحانه: ﴿ **عبس وتولى*أن جاءه الأعمى*وما يدريك لعله يزكى** ﴾[عبس:1-3]!

إن استخلافه صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أم مكتوم سبع عشرة مرة، برهان عمل عتاب ربه فيه، وبرهان إفادتنا رفع معنويات ضعفائنا، وإذ هم رموز الابتلاء، وشارات الاختبار.

وإنه لحسن وقوف مليا، أمام استخلافه صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أم مكتوم سبع عشرة مرة، وبعد عتابه تعالى له، برهان أن هؤلاء هم ضعفاء عباده تعالى في أرضه، وإنما بهم تنصرون!

إن الضعفة والمساكين من عبيده تعالى، هم ذلكم السلاح الماضي الفتاك، وليس يغيب عن أمة إيواؤهم، ولأنهم عون ربهم، وبعدوهم ينكأون، سرا مكنونا!

إن أمة يستظل بظلها الضعفة والمساكين، لاخوف عليها، وإذ هي تغمرهم بعطفها، وإذ هموا في إحسانها يرفلون، ولأنهم ضعفاء عباد الله في أرضه.

وكأني بذلك العمود الممتد، أفق السماء يطاولها، ووتدا في الأرض يثبتها، هو ذاك عبد الله بن أم مكتوم، وإذ كانت تستنزل به معونات السماء، ويوم كان أعمى! ولأنه صلى الله عليه وسلم وضعه نصب عينيه أبدا، ومن بعد عتاب السماء له صلى الله عليه وسلم!

وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر: معبد الخزاعي نموذج: وإذ يقيض الله تعالى من عبيده من ينصره، ولو كان مشركا، وها هو التاريخ، يقدم لنا معبدا الخزاعي، يوم أن نافح عن نبينا صلى الله عليه وسلم، يوم حمراء الأسد، فيما رجع منصورا!

إنه ليس يخاف على هذا الدين أبدا، ولأنه يحمل بين جنباته أسباب نصره، وليظهره تعالى على الدين كله، ويوم أن أيده تعالى بالرجل الفاجر كمعبد!

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل ممن معه يدعي الإسلام: هذا من أهل النار. فلما حضر القتال قاتل الرجل من أشد القتال، وكثرت به الجراح فأثبتته، فجاء رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل الذي تحدثت أنه من أهل النار؟ قد قاتل في سبيل الله من أشد القتال، فكثرت به الجراح، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما إنه من أهل النار. فكاد بعض المسلمين يرتاب، فبينما هو على ذلك إذ وجد الرجل ألم الجراح، فأهوى بيده إلى كنانته، فانتزع منها سهما، فانتحر بها، فاشتد رجال من

المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، صدق الله حديثك؛ قد انتحر فلان، فقتل نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بلال، قم فأذن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر[1].

والشاهد قول نبينا صلى الله عليه وسلم: وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

وإنما قلت: فاجرا، ولأن كل كافر فاجر، ولو لم يك معاديا محاربا، وذلك من قوله تعالى ﴿ **أولئك هم الكفرة الفجرة** ﴾ [عبس:42].

إن نصرة معبد الخزاعي نبينا صلى الله عليه وسلم، يوم حمراء الأسد، وبدون طلب منه، عنوان أن ديننا يحمل من أسباب قوته الذاتية، ما به ترفرف أجنحته خفاقة عالية! وسواء كنا سببا لذلك، فيكون لنا شرفا وفخرا، أم قصرنا، وسفينة الدين ماخرة، لا يردها كيد كائد، ولا يعوقها تأخر كسالى!

إن وجود كفار بين ظهراني قومهم، يحملون لواء نصرة الإسلام، - وكمعبد - برهان أن هذا الدين مهيمن على الدين كله، ولو كره المشركون، وهذا إعجاز كريم! ولأنه يحمل من أسباب قوته الذاتية، ما يجعله عصيا، على كل ذي عداوة له.

(1) صحيح البخاري: 6606

وإذ ليس يخلو زمان من محبي ديننا، عرفناهم أم جهلناهم، ولأنه تعالى يعلمهم، جندا مخلصين، ولينصر الله بهم دينه، وليعز بهم جنده، وكمعبد الخزاعي!

إن خضعانا يملأ قلوبا خاشعة، وحين نعلم أنه تعالى قيض من بين صفوف الكفار، من كان ذا شأفة، يرفع بها لواء مجد ديننا، ولو رجع البعض القهقري.

وإذ بقي إحسان بحث، عمن يؤمن بقضيتك، ومن بين صفوف عدوك، ولن تعدمه، فخذ من سبب ذلك أداة، بل أدوات، تقض بها مضاجعه، وتفقده بها توازنه!

إن علما واحدا، في صفوف خصمك، يكون كأعلام كثيرة، فيما لو أحسن استثماره لقضيتك، وهو لابد فاعل، ولأنه تعالى ناصر دينه، بنا أو بغيرنا!

إن عينا من صفوف العدو تعمل عملها فيه، وكبدل عن استعراض القوة، أغناك عنها، وكمعبد الخزاعي، فكن ماهرا في ذلك جد المهارة، ولا تكلف عنتا!

وإذ لو كنت ماهرا استخباراتيا، فأمكنك قض مضاجع خصمك، وجعلته يدور حول نفسه، وحين تستثمر كمعبد الخزاعي، ومن بينهم، ليصبح بعضهم في ريب من بعض!

وسبحان الله وتعالى! وإذ يمكث نبينا صلى الله عليه وسلم، في حمراء الأسد، ثلاثة أيام، لملاقاة قريش، ولا يعلم أن الله صدهم عنه، وبعمل نبيل، قام به معبد الخزاعي!!

﴿حسبنا الله ونعم الوكيـــل﴾! وكان أن عزم أبو سفيان ملاقاته صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد، فقال صلى الله عليه وسلم: ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾! وهذه أربع كلمات، نال بقولها الأولون نصرا مؤزرا، فضمها إلى قواتك!

وإذ كان مدد السماء يوم حمراء الأسد من ثلاثة جوانب هي: معبد الخزاعي، كمعول هدم لأركان قريش، ورغم كفره! وقول نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾!، ثم عزم المؤمنين، وها هم يخرجون، وعن آخرهم، إلا جابرا، وما زالت جراحهم تنزف!

وأقف ذاهلا، وأمام العدد(7)ومضاعفاته، ولأنه كان حاضرا، يوم أحد، وبقوة، وحين كانوا (700)، وقتل منهم (70)، وكذا يوم حمراء الأسد، وإذ كانوا (700)، إلا (70)! والله أعلم!

قال الله تعالى ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران:173]: وهذه أربع كلمات مثخنات في صدر عدوك!

ونعيد الكرة: ولأن فردا واحدا يكون له فضل حسم في سير المعركة لصالحك، وكمعبد الخزاعي، ولأنه سبب رجوع أبي سفيان القهقري! ولا تنس ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾!

وإذ قال صلى الله عليه وسلم حين بلغه أنهم هموا بالرجعة: والذي نفسي بيده لقد سومت لهم حجارة، لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب[1] . وهذا عمل إدارة الشؤون المعنوية للقوات المسلحة.

وإذ رأيت من جندك فتورا، فقوهم عزائمهم قولا وعملا، وكمثل قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لقد سومت لهم حجارة، لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب!

وذكر ابن هشام: أن معاوية بن المغيرة بن أبي العاص استأمن له عثمان على ألا يقيم بعد ثلاث، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها زيد بن حارثة وعمار بن ياسر وقال: ستجدانه في مكان كذا وكذا فاقتلاه. ففعلا رضي الله عنهما[2].

وإذ قال نبينا صلى الله عليه وسلم: ستجدانه في مكان كذا وكذا فاقتلاه: وهذا علم نبوة! بيد أنك أيضا تعمل على عين ربك، وحين تكون عبدا ربانيا: وكما قال تعالى: ﴿ ولِتصنع علىٰ عيني ﴾![طه:39].

وإذ قال عبد الله بن أبي: والله ما أبغي أن يستغفر - نبينا صلى الله عليه وسلم - لي! وهذا أثر غضبه تعالى، على عبد نافق، وما أسوأ النفاق عاقبة، أن يصد صاحبه عن الهدى! وليكون أحدنا على حذر منه أبدا، وعلى مجانبة له الدهر أيضا!

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٥٨

(2) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ١٠٢

وإذ يمكن أن يصد المرء نفسه بنفسه، عن الهدى، وحين يعلوه كبره، ولو كان باسم الإسلام الخالد! وهاك مثلا عبد الله بن أبي بن سلول، وحين أبى واستكبر، فكان جواظا، أثيما، عتلا، زنيما.

ونعما ما توجت به غزوة حمراء الأسد، وحين نزل فيمن حضرها قرآن أثني عليهم، وبحيث كانوا مجدا للأولين، كما أنهم زاد وذخر للآخرين، ولأنهم استجابوا لله وللرسول، ومن بعد قرحهم، ولأنهم أحسنوا، ولأنهم اتقوا، ولكل ذلك كان لهم الأجر العظيم، من الله تعالى العلي العظيم.

ومرة أخرى، قال الله تعالى ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ۚ للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾!

المبحث الثاني: سرية أبي سلمة

وهذا أبو سلمة رضي الله تعالى عنه، يجعله نبينا صلى الله عليه وسلم صاحب لواء سريته إلى بني أسد، وتوا يشفى من جرحه في أحد، وليعلم الناس أن ههنا دينا جديدا حاضرا في الأذهان.

قصد حلفاء من بني أسد حرب نبينا صلى الله عليه وسلم، وكان هذا سبب إطلاق سرية أبي سلمة إليهم، وفي عقر دارهم، ليردوهم فيها، وليكونوا عبرة لرافع رأسه أن تهوي!

كانت سرية أبي سلمة في المحرم من السنة الرابعة، أي بعد غزوة حمراء الأسد بشهرين ونصف! برهان نشاط بلا فتور، يناسب دين الهدى والنور.

كان اختيار نبينا صلى الله عليه وسلم أبا سلمة لسريته إلى بني أسد، ولأنه أسدي يعرف كيف قومه ودروبهم، وهذا فن عسكري ممتاز، إذ يختار للمهمة الأعلم بمسالكها.

كان سرية أبي سلمة الأسدي إلى قومه بني أسد، برهان أن علائق الدين تعلو علائق القربى، وأن وشائجها لتتحطم تحت صخرة الهدى ودين الحق.

كان اختيار أبي سلمة لسريته ومعه تاريخ جهاد عريق، إذ هاجر ثلاثة الهجرات! الحبشة الأولى والثانية والمدينة، رفقة زوجة مجاهدة هي أم سلمة رضي الله تعالى عنها.

وإذ يختار للمهام العظام أهلها، أمناء عليها، ذووا تاريخ مجيد، وأداء فريد، كاختيار أبي سلمة لسريته، وهذا فن إداري عسكري، وذلك بإيكال المهام إلى أهلها.

إن اختيار أبي سلمة لسريته، وقد كان كبير السن، طاعنا فيه، برهان أن هذا الدين شبيبة أتباعه، ولو كانوا معمرين! ولم تزدهم كهولتهم إلا دربة وهمة ونشاطا.

تمالأ بنو أسد لمهاجمة نبينا صلى الله عليه وسلم، فسخر الله أحدهم ليسربه إليه صلى الله عليه وسلم! وهذا برهان أن هذا الدين ينصره ربه، وإنه ليؤيده بالرجل، ولو كان فاجرا.

خرج مع أبي سلمة يوم سريته مائة وخمسون مجاهدا، ويوم أحد كانوا سبعمائة مجاهد، برهان إحكام اختيار عدد المقاتلين، وحسب احتياج كل مهمة، وهذا فن عسكري ماهر.

غنم أبو سلمة خيرا يوم سريته، وحبا دليله الأسدي منها مكافأة وأجرا، برهان جوازه، ولإقراره صلى الله عليه وسلم به، إذ لم يقل شيئا، إقرارا سكوتيا، وهذه مسألة متعلقة بعلم أصول.

كان اصطفاء ربنا أبا سلمة إليه، وحين ختم حياته الدنيا، بوسام سرية كانت باسمه، عملا مجيدا، يناسب أمجادا مثله، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة.

كانت وفاة أبي سلمة بعد سريته بثلاثة شهور، وإذ أدمى جرح أحد عليه، فمات به، ولعل هذا ليحسب في قوافل الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

كانت أم سلمة زوج أبي سلمة طاعنة في سنها، ليتزوجها نبينا صلى الله عليه وسلم، جبرا لها أرملة، جاهدت في الله حق جهاده، ليختم لها تاريخ ضمها إلى شرف النبوة الكريم.

قالت أم سلمة: ما بأس بالنكاح في شوال والدخول فيه، تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال وبني فيه. ولأن الجاهلية كانت تتشاءم من النكاح في شوال.

وعن عائشة أم المؤمنين: تزوجني النبي صلى الله عليه وسلم في شوال وبنى بي في شوال، فأي نسائه كان أحظى عنده مني، وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال[1].

(1) صحيح ابن ماجه، الألباني: 1632

وإذ تزوج نبينا صلى الله عليه وسلم كلا من عائشة وأم سلمة رضي الله تعالى عنهما، في شوال، قضاء مبرما على جاهلية تشاءمت بشوال، وإنما لا تشاؤم ولا طيرة في الإسلام زمانا أو مكانا أو حالا، مرئيا أو مسموعا أو معلوما.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل قالوا وما الفأل قال كلمة طيبة"[1].

إنه ليس ينظر إلى أم سلمة كونها امرأة كسائر النساء! ولأنها أول مهاجرة إلى الحبشة منهن، وأول ظعينة إلى المدينة منهن، وكانت توصف بالصائبة رأيا.

خيركم من طال أجله وحسن عمله: هذا ما تمايزت به أم سلمة، ولعلها حكمة ربنا، ولأن مثلها إنما يحتاج إليها؛ لمشورة، أو رأي صائب، ومثالا يحتذى.

فعن أبي بكرة نفيع بن الحارث أن رجلا قال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: من طال عمره، وحسن عمله، قال: فأي الناس شر؟ قال: من طال عمره وساء عمله[2].

وإذ كانت أم سلمة آخر أمهات المؤمنين موتا، ولعله إكرامه تعالى لها بطول عمرها، جزاء للصابرين، وعدة للشاكرين، وآية للعالمين، وأنه ما زال نور النبوة مشرقا.

وإذ بقي نور هدايته صلى الله عليه وسلم ماثلا أمام العيون خمسين سنة بعد موته صلى الله عليه وسلم، وممثلا في أم المؤمنين أم سلمة، كيما يعيش الناس على نور نبوتهم، صافيا بلا كدر.

---

(1) صحيح البخاري: 5776

(2) صحيح الترمذي، الألباني: 2330

الباب الثالث: أحداث السنة الرابعة

الفصل الأول

وفيه مباحث:

المبحث الأول: غزوة ذات الرجيع

عن أبي هريرة: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة، منهم خبيب الأنصاري، فأخبرني عبيد الله بن عياض، أن ابنة الحارث، أخبرته، أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه، قال خبيب الأنصاري: ولست أبالي حين أقتل مسلما... على أي شق كان لله مصرعي، وذلك في ذات الإله وإن يشأ... يبارك على أوصال شلو ممزع، فقتله ابن الحارث، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه خبرهم يوم أصيبوا[1].

وعن أبي هريرة أيضا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عينا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري جد عاصم بن عمر بن الخطاب، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة -وهو بين عسفان ومكة- ذكروا لحي من هذيل، يقال لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم قريبا من مئتي رجل، كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب. فاقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق، ولا نقتل منكم أحدا، قال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم

(1) صحيح البخاري: 7402

أخبر عنا نبيك. فرموهم بالنبل، فقتلوا عاصما في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، منهم خبيب الأنصاري، وابن دثنة، ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن لي في هؤلاء لأسوة. يريد القتلى، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم، فأبى، فقتلوه، فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرا، فأخبرني عبيد الله بن عياض، أن بنت الحارث أخبرته: أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها، فأعارته، فأخذ ابنا لي وأنا غافلة حين أتاه، قالت: فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده، ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي، فقال: تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك، والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خبيبا، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين. فتركوه، فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها، اللهم أحصهم عددا ما أبالي حين أقتل مسلما.. على أي شق كان لله مصرعي وذلك في ذات الإله وإن يشأ.. يبارك على أوصال شلو ممزع فقتله ابن الحارث، فكان خبيب هو سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبرا، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه خبرهم وما أصيبوا، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل، ليؤتوا بشيء منه يعرف، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم

بدر، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر، فحمته من رسولهم، فلم يقدروا على أن يقطع من لحمه شيئا[1].

كانت غزوة ذات الرجيع في صفر من السنة الرابعة، وقد أسماها أبو هريرة سرية، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن حاضرا فيها، اللهم إنه أمر بها جهادا على الكافرين.

كانت سرية ذات الرجيع مثال العزة والشرف، وحين أوثق الكفار ثلاثة، وعاهدوهم إن استسلموا فلا يقتلوهم، وإنما أبى عاصم بن ثابت أن يدخل في ذمة كافر!

وكانوا قد قالوا لهم: لكم العهد والميثاق، إن نزلتم إلينا، ألا نقتل منكم رجلا. فقال عاصم بن ثابت: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر: وهذا عهد قطعوه وأخلفوه، وهذا إباء عاصم فقتلوه.

اللهم أخبر عنا رسولك: وهذا قول عاصم بن ثابت، أمير سرية ذات الرجيع، حين تأكد قتل قريش له، ولإبائه الاستسلام. وهذا فعل قائد لا يتنازل شيئا!

اللهم أخبر عنا رسولك: وهذا يقين العبد بربه، وأنه مجيب سؤله، لاسيما وقت اضطراره، لأنه تعالى يجيب مضطرا، إذا دعاه، ولو كان كافرا، فما بال عاصم؟!

(1) صحيح البخاري: 3045

اللهم أخبرعنا رسولك: هذا دعاء عاصم في الفضاء الممتد! وكان كافيا علمه تعالى به، لكنه اليقين، وحين يكون سبيل العارفين، وزاد السالكين.

إنه في وقت لزوم إقامة الحجة لا مساغ لرخصة، بل عزيمة: وشاهده فعل عاصم بن ثابت، وحين قال: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، وكما أن شاهده غلام الملك! وحين أمره وأن قال: قل: باسم الله رب الغلام، وعلى ملأ الملك كله!

وإذ إن ما نراه لتدمع منه العيون شفقة، لانكشاف سوءات كان ترفع هامة!

إن ما أصاب دعوتنا من تخلل الرخص، ودرسها عن كثب، ولا أخال العزائم كانت درسا، لرؤوس طأطأت، ودون إكراه وقع عليها! فما بالها حين إكراه إذا وقع!

إن هشاشة الدين أبلغ أثرا من هشاشة عظام صاحبها! ولأن فوات الدين خسار جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين!

إنه لا فرق بين العباد المخلصين، وأولاء العلماء الربانيين، بل إن نقيصة العباد، وحين كان زعم بها، وانفراد بها، عن طائفة العلماء، ولأنه تعالى إنما يخشاه من عباده العلماء، فإذا هو شبه بالضلال إذا! وكقول سفيان بن عيينة: من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى.

إن قول الحق، وحين يجب، لا ينفعه من بعد إفك مهرب، ولا يسيغه من بعد تحايل مطلب، وإذ جابه أحدهم به يوما فقال ﴿**وما لى لآ أعبد آلذى فطرنى وإليه ترجعون**﴾! [يس:22].

وإنه لا يجوز كتم الإيمان، وحين إقامة حجة، حل وقتها، ولا يتحلل منها بزعم، وإن طاول عنان السماء، وإذ أبى مؤمن آل فرعون، إلا أن يظهر يجأر، بحق كان يعلمه، وإذ يتأبى دينا لله صحيحا، وحين قال **﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ۖ وإن يك كاذبا فعليه كذبه ۖ وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ۖ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾**![غافر:28].

وإذ كان مؤمن آل فرعون، يكتم إيمانه، ولكنه صدح بالحق، وصدع به، وحين حلول أجله، وتأخير البيان عن وقته إثم، ويضاعف إن كان فاعله رأسا كان مسموعا.

وإذ أبى مؤمن آل فرعون إلا أن يظهر يجأر بحق كان يعلمه، وإذ تأبى دس رأسه في التراب! وإذ قال الله تعالى مخلدا ذكره، ولحسن صنيعه لله: **﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ۖ وإن يك كاذبا فعليه كذبه ۖ وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ۖ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾**!

وإذ أطاع خبيب الأنصاري وزيد وثالثهما قريشا، فنقضت قريش عهدها معهم قتلا وبيعا واسترقاقا! وهذا شأن الناقضين، لا عهد لهم، ولا وعد، وإن سلمت إليهم مفاتيح بابك!

وإذ قال خبيب حين عزمت قريش قتله: دعوني أصلي ركعتين، فكان أول من سن الركعتين عند القتل!

وأجمل بعبد شهيد كانت الصلاة آخر عهده بالدنيا!

وحين قال خبيب عند قتله: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لـولا أن تـروا أن مـا بي جـزع مـن المـوت لـزدت! وفيـه أن الصـلاة سـبب لمجابهـة الملمات، واستعانة بها، وقت الحاجات والضرورات! وهو اقتداء بنبينا صلى الله عليه وسلم، وحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى[1].

وإذ قال خبيب عند قتله: اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا. وهذه عزائم قامت على أكتافها الملة، وكان أمامها باب رخص، لكنها أوصدته بمغاليق الثبات!

المبحث الثاني: من كرامات الأولياء

وبين الفينة وأختها يطلعنا ربنا على كرامات لبعض أوليائه، حجة ولعلها تحرك ساكنا في العالمين، وكما كان من قطف عنب في يد خبيب، وذلك نقلا عن بنت قاتله!

وحين قتل عاصم بن ثابت، وأرادوا قطعة من جسده، للتأكد من قتله، أرسل تعالى دبرا - نحلا - غطاه، كيما ينزجروا عنه، خوفا ورعبا، ثم ظلا ظليلا آية أخرى!

إن دبرا – نحلا - ظلا يسوقهما الله تعالى، لتغطية عاصم بن ثابت، عن أعين قريش، كان كرامة أخرى، وحجة أخرى أيضا، لكنها القلوب، وحين يعلوها صدأ كصدأ الحديد، أو أشد صدأ!

(1) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: 205/3. خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن.

﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ [يونس:101]! وهذا ما يحدث كل حين، وحين رأوا ظلا ظليلا، يظلل عاصم بن ثابت، وهاهم أولاء لا يحرك فيهم ساكنا!

وإذ نؤكد كل روحة وغدوة، أن صحبا كراما، وإنما قضوا نحبهم لله، وحين قد خلعوا عن أنفسهم ربقة شرك الجاهلية في ربها، لا أنه ثقافة وتسلية! بل ولأنه منهج وجب الاقتداء به.

إن الشرك ليس يطيق نفسا مسلمة، ويضيق بها ذرعا، ويزداد حنقه عليها مضاعفا، ورغمه يصبر المؤمنون لله تعالى ربهم الحق، ولأن ذلك هو قدره فيهم!

ولست أبالي حين أقتل مسلما وعلى أي جنب كان في الله مصرعي!

هذه كلمات من نور، خرجت من في خبيب بن عدي، وهم إذ قاتلوه، دينا وصبرا وجلدا!!

وأهم ما قال خبيب بن عدي، أنه قتل مسلما، ولأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، عبدت ربها وحده، وأماطت أشواك الجاهلية عن فؤادها، فأسلمت وجهها لله!

وأفضل ما قال خبيب بن عدي، وأنه على أي جنب كان في الله مصرعه، ولأن الإخلاص جود بنفسه لخالقها، وهو ركن الملة (العبادة) الثاني، ومن بعد عمل صالح ركنا أولا.

إنه لسوف يقف التاريخ مليا، وأمام كلام خبيب بن عدي، وكما قد وقف حتى جاءنا هكذا عن قوله، وأن رجلا أبى ذمة الكافرين، رغم ثمن لذلك، كانت هي نفسه!

ذكر سبب لغزوة الرجيع، وأن فريقا زعم الإسلام، وطلبوا منه صلى الله عليه وسلم نفرا يفقهونهم، فغدروا بهم، وصدق ربنا ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾ [التوبة:12].

وإن التاريخ ليعيد نفسه كل مرة، وليحذر المؤمنون، وهاهم أولاء أعداؤهم، يجمعون أمرهم، وهم يمكرون، وإذ معنا طمأنة ربنا تعالى، ولأنه قال ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ [الأنفال:30].

إننا في يقين، لاتهزه ولو جبالا شامخة، وأن الله مع المؤمنين، وما كان الله تعالى ليذرهم طعمة للكافرين، وإن أهملوا أو قصروا، فإن عينه تعالى تحرسهم، ولبقية خير فيهم!

وإذ إن من كرامات عاصم بن ثابت أن منعه النحل منهم! فقالوا: دعوه حتى يمسي فيذهب عنه، فنأخذه، فبعث الله الوادي فاحتمل عاصما فذهب به(1)! وفي كل مرة!

وإن قيل وما سر ذلكم فضل، وأن الله منع الكافرين أن ينالوا من عاصم بن ثابت؟ قلت: وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدا أن لا يمسه مشرك ولا يمس

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ /٧٤

مشركا أبدا تنجسا[1]. فأبر الله عهده! وفي كل مرة أيضا!

وإذ قال الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه: يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركا أبدا في حياته، فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع منه في حياته[2]!

ورغم أن خبيبا أكرم بكرامة قطف عنب، ولم يكن عنب! لكنه لما ترخص فكان مصيره البيع عبدا رقيقا! وهذا يوقف أحدنا عند حده، فإن أوجه الرق كثيرة! ولأن الترخص له وقته، ولأن العزيمة لها وقتها أيضا، وهذا فقه، ويهدي الله لنوره من يشاء!

واجتمع رهط من قريش فيهم: أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمدا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟

قال: والله ما أحب أن محمدا صلى الله عليه وسلم الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، واني جالس في أهلي. قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا[3].

وإنه حين أوثق الكفار زيدا بن الدثنة لقتله، فأرادوا فتنته، وأن لو كان محمد مكانه، وإذ هو يرفل في أهله، ليرد كيدهم في نحورهم، وألا تمس محمد شعرة بدلا!

---

(1) المرجع السابق: ج ٤ /٧٤

(2)المرجع السابق: ج ٤ /٧٤

(3) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ /75

وإذ قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحد كحب أصحاب محمد محمدا! وقد كانوا له أشد حبا قبل الإسلام! فما الذي تغير سواه؟!حجة دامغة!

وفي مغازي موسى بن عقبة: أن خبيبا وزيد بن الدثنة قتلا في يوم واحد، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع يوم قتلا وهو يقول: وعليكما أو عليك السلام! خبيب قتلته قريش. وذكر أنهم لما صلبوا زيد بن الدثنة رموه بالنبل؛ ليفتنوه عن دينه، فما زاده إلا إيمانا وتسليما[1].

سمع نبينا صلى الله عليه وسلم خبيبا وزيد بن الدثنة ويوم قتلا وهو يقول: وعليكما أو عليك السلام خبيب قتلته قريش! وهذا علم نبوة آخر وفيه فضلهما - رضي الله تعالى عنهما-.

وإذ كانت تصيب سعيد بن عامر غشية كل فينة، وحين سأله الفاروق قال: كلما تذكرت موقف خبيب، وإذ يصبر حين قتله، أصابتني غشيتي! وهذه أمة واحدة!

وكان إذا خرج عطاء سعيد بن عامر أيام عمر رضي الله تعالى عنهما، اشترى لأهله قوتهم، وتصدق بما بقي، وتوفي ولم يكن يملك شيئا! والآن نعرف لم كانت تغشاه غشية حين يذكر خبيبا؟!

وكان خبيب ذا كرامة حيا، وحين كان قطف عنب بيده، ولم يكن عنب! وميتا، وكأنما ابتلعته الأرض، فلم يعلم له أثر بعد قتله! وهذا شأن تاريخ الأمجاد نورا يهدي، ورشدا يقتدى.

---

(1) المرجع السابق: ج ٤ /76

وإذ قال المنافقون: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا! لا هم أقاموا في أهلهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم[1].

وإذ شمت المنافقون لقتل أصحاب الرجيع، لأنهم لم يبقوا سالمين، ولم يؤدوا رسالة صاحبهم! ولا يعلمون أن تاريخا نسجوه مجدا، فكانوا به شعلة متقدة! تنير درب السالكين!

إنه ليس شرطا أن ينال أصحاب الرجيع مجد انتصارهم في الدنيا، ولأن عملهم يبقى زادا للسائرين، هدى ونورا، يسلكون على أثره قدوة أبية، ما قبلت ضيما.

حين شمت المنافقون في أهل الرجيع قال الله ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله علىٰ ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾ [البقرة:204]!

وإذ بقي ذكر أهل الرجيع، رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وبقي ذكر المنافقين، وأنهم ألد الخصام. وهذا برهان فعل أثر السيرة، حسنها وسوئها.

وهو ألد الخصام! وهذا للمنافقين، لما شمتوا في أهل الرجيع! **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ۗ والله رءوف بالعباد﴾** [البقرة:207]. وهذا في أهل الرجيع! ولما كان عملهم لله تعالى ربهم الحق.

وإذ ذكر التاريخ أن المنافقين هم ألد الخصام، وأطرى أهل الرجيع أنهم باعوا نفوسهم لله، فأسماهم عبادا له. **﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾** [الحديد:25].

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ /7٧

المبحث الثالث: سرية عمرو بن أمية الضمري

قال أبو سفيان بن حرب: أما أحد يغتال محمدا فإنه يمشي في الأسواق فندرك ثأرنا[1]؟ وما زال يوم بدر فاعلا فيه! برهان ضرورة عمل مثخن في الخصم لا ينساه!

إن يوم أحد لم يشف غيظ قريش؛ ولأنهم يعلمون أن شأفتهم قد كسرت، يوم بدر، وعلى نحو أذلهم، وأخفض رؤوسهم، ودك حصونهم: وأهبط منزلتهم في العرب! فيحاولون قتله صلى الله عليه وسلم.

وهذا إضافة إلى أن يوم أحد كان نصرا مؤزرا للمسلمين! وتعرف ذلك قريش تماما، لأن الذي حدث لا لضعف المؤمنين، وإنما فتنة مغنم، يمكن تداركها بعد، مما أثار قريشا، فحاولت قتله صلى الله عليه وسلم. ولأن مقياس الحروب ليست بكم ظفرت هذه المرة، وإنما معادلة وتصفيات لما قبله، ويوم أحد معه، وحينها لتجدن محصلة نصرا مؤزرا، ولا ثلم يوم أحد من ورائه من شيء!

وإذ قال أبو سفيان بن حرب: أما أحد يغتال محمدا فإنه يمشي في الأسواق فندرك ثأرنا؟ وهذا برهان أن القائد يظل هدفا ولتحسب القيادة لذلك حسابها حمايته.

وهو أيضا برهان أنه صلى الله عليه وسلم مانعه ربه، ولأنه يمشي في الأسواق، رغم علمه هدفا لخصمه. وإنما لا يمنع هذا حرسا يتخذه القائد لحمايته، وأخذا بالسبب.

(1) إمتاع الأسماع، المقريزي: ج ١٣/ ٢٨٢

قال أبو سفيان بن حرب: أما أحد يغتال محمدا فإنه يمشي في الأسواق فندرك ثأرنا؟ وهذا برهان تواضعه صلى الله عليه وسلم، وحين يمشي في الأسواق، وليعيش أحاسيس رعيته صلى الله عليه وسلم.

وإن قرب القائد من رعيته يتحسس حالهم ويتعسس أمرهم مطلب قيادي هام، وإن قرب القائد من رعيته يجعله واقفا بنفسه على أحوالهم ودون وسائط، وقد تصيب أو قد تخطئ. وإن اعتماد القائد على التقارير قد لا يفي بإيصال حقيقة أمر الرعية إليه، فيكون قراره حيالها مشوبا معيبا!

وإذ كثيرا ما تحصل الهوة بين القائد ورعيته من تيكم وسائط قد لا تحسن أو تغش. ومنه فقد كان حريا أن يجعل القائد من وقته سعة يتعسس رعيته بنفسه، فذاك يزيد قراره صوابا وحسنا.

اطو أمرك فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فينميه إلى محمد[1]. وإن هذا ما نم عن جهل أبي سفيان بشأن السماء، وأن الله يدافع عن الذين آمنوا، فما باله بنبيهم صلى الله عليه وسلم.

وقد غاب عن أبي سفيان أيضا أن الله تعالى يسمع سرهم ونجواهم، وأن الله علام الغيوب، وأنه تعالى مانع نبيه صلى الله عليه وسلم.

علم نبوة ضـــاف! حين رأى نبينا صلى الله عليه وسلم أعرابيا أرسله أبو سفان لقتله قال: إن هذا الرجل يريد غدرا والله حائل بينه وبين ما يريده[2]. وهذا

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٧٩/٤

(2) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ١٣٥

علم نبوة، فوق أنه يقين نبي بربه سبحانه، وكما قال تعالى ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ [المائدة:67].

حين صدق أعرابي نبينا صلى الله عليه وسلم بما أخبره ربه! وأنه جاء لقتله نيابة عن أبي سفيان، وأنجاه صدقه، ولأن الصدق منجاة، وأن الكذب مهلكة، وأنه تعالى مانع نبيه صلى الله عليه وسلم.

وحين صدق الأعرابي، ولما رأى صدق النبوة، كفلق الصباح، وبعد فجأته، أن الله أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم، أسلم وجهه لله، وليبقى أبو سفيان حبيس كفره، إلا أن يتوب.

وإذ كان من نبينا صلى الله عليه وسلم أنه أمر عمرو بن أمية الضمري، وسلمة بن أسلم بن حريش أن يقتلا أبا سفيان بن حرب غرة، ولكفره، ولأنه أرسل من قبل أعرابيا لقتله صلى الله عليه وسلم.

وإذ تسلل عمرو بن أمية وصاحبه سلمة بن حريش إلى مكة، إلا أنه قد انكشف أمرهما، وتبعتهما قريش حتى أمكنهما منها هربا، فاضطرا إلى غار، وإذ بعثمان بن مالك بن عبيد التيمي يختلي لفرسه حشيشا، فقتله عمرو، ولأنه سوف يسمع بهما قريشا، وحينها قال أبو سفيان: قد علمنا أنه لم يأت لخير[1]!

وإذ قتل عمرو بن أمية عثمان بن مالك، وحيث كان يعلف فرسه، خشية معرفته به، فيخبر قريشا، وفيه جواز قتل من يخشى شره، ودرء بطشه، وأنه لا شك فاعل.

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣/١٣٧

وإذ قد تتبعت قريش عمروا، ليدخل غارا آخر، وإذ يدخل عليه أحدهم الذي قال:

فلست بمسلم ما دمت حيا * ولست أدين دين المسلمينا: ولأن هذا إصرار على الكفر، ولذا قتل عمرو ابن أمية الضمري قائله شر قتلة قتلها أحد من قبل!

وإذ كان من أسباب سرية عمرو الضمري عزم أبي سفيان قتل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن عمروا أبلى بلاء حسنا آخر، وأثناء سيره أداء لمهمته الأم، برهان جأش ثابت، وعمل فريد.

وإذ تصرف عمرو بن أمية الضمري كثيرا، وموسعا صلاحياته، لا تعديا وإنما لما يفرضه واقع الحال، وحين قتل هذا، وهذا، وهذا! وحين حمل خبيبا، وهذا برهان ضرورة إعطاء الجند صلاحيات، حسب موقفهم الميداني فيتصرفون من خلال ما تبدى أمامهم، أو ما يرونه من خلفهم.

وإن قائدا ماهرا هو ذاك الذي يمنح لمرؤوسيه صلاحيات إعمال النص، فتكون بمثابة لائحة تنفيذية ضافية، يمليها الميدان، وقد تغيب عن مخيلته وباله، وحين إصدار القرار. فلا تفوت مصلحة، ولا ترتكب مفسدة، وهذا ديننا، وإذ كان من أمره أنه إنما جاء ي المصالح وتكميلها، ولدرء المفاسد وتقليلها.

وإنه وإن كان صحيحا وأنه لم تنجح خطة عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أسلم في قتل أبي سفيان، لانكشاف أمرهما، لكنه رجع برصيد ثمين، وحين قتل ثلاثة وأسر واحدا وأهبط خبيبا.

كان قتل خبيب بن عدي وصلبه على الخشبة عملا موجبا لاستنهاضه صلى الله عليه وسلم سرية عمرو بن أمية الضمري ولأن رجلا كامرأة وحين كان يوم بني قينقاع!

المبحث الرابع: سرية بئر معونة

عن أنس بن مالك: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث خاله -أخ لأم سليم- في سبعين راكبا، وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل، خير بين ثلاث خصال؛ فقال: يكون لك أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألف وألف. فطعن عامر في بيت أم فلان، فقال: غدة كغدة البكر، في بيت امرأة من آل فلان! ائتوني بفرسي، فمات على ظهر فرسه، فانطلق حرام أخو أم سليم -وهو رجل أعرج- ورجل من بني فلان، قال: كونا قريبا حتى آتيهم، فإن آمنوني كنتم، وإن قتلوني أتيتم أصحابكم، فقال: أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فجعل يحدثهم، وأومؤوا إلى رجل، فأتاه من خلفه فطعنه -قال همام: أحسبه- حتى أنفذه بالرمح، قال: الله أكبر! فزت ورب الكعبة، فلحق الرجل، فقتلوا كلهم غير الأعرج؛ كان في رأس جبل، فأنزل الله علينا، ثم كان من المنسوخ: إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ثلاثين صباحا؛ على رعل، وذكوان، وبني لحيان، وعصية، الذين عصوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم[1].

---

(1) صحيح البخاري: 4091

وعن أنس بن مالك أيضا: أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه رعل، وذكوان، وعصية، وبنو لحيان، فزعموا أنهم قد أسلموا، واستمدوه على قومهم، فأمدهم النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين من الأنصار، قال أنس: كنا نسميهم القراء، يحطبون بالنهار ويصلون بالليل، فانطلقوا بهم، حتى بلغوا بئر معونة، غدروا بهم وقتلوهم، فقنت شهرا يدعو على رعل، وذكوان، وبني لحيان، قال قتادة: وحدثنا أنس: أنهم قرؤوا بهم قرآنا: ألا بلغوا عنا قومنا، بأنا قد لقينا ربنا، فرضي عنا وأرضانا، ثم رفع ذلك بعد[1].

وعن أنس بن مالك أيضا: قنت النبي صلى الله عليه وسلم شهرا يدعو على رعل وذكوان[2].

و«بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى بئر معونة، فاستعدى عليهم عامر بن الطفيل أناسا من بني سليم، فكان أول من طعن: حرام بن ملحان، فتلقى دمها بيده، وجعل ينضحها على وجهه ويقول فزت ورب الكعبة» * الإسناد: رجاله رجال الصحيح خلا محمد بن مرزوق وهو ثقة وشيخ الطبراني قال الخطيب البغدادي وكان ثقة[3].

كانت سرية بئر معونة في شهر صفر للسنة الرابعة، وهي سنة غزوة الرجيع! وإذ انتدب نبينا سبعين من قراء المسلمين قياما لحاجة بعثهم بها ولعلها كانت دعوة أهل نجد إلى الدخول في الدين الجديد، وإذ أخذ الكفار السبعين مسلما على حين غرة، فقتلوهم شر قتلة، فقنت نبينا صلى الله عليه وسلم عليهم

---

(1) المرجع السابق: 3064
(2) صحيح البخاري: 1003
(3) كتاب الأوائل، الطبراني:١٠٢

شهرا كاملا، وكأول قنوت يرد عنه صلى الله عليه وسلم. وإذ لم يكن معروفا من قبل.

اختص نبينا صلى الله عليه وسلم سبعين قارئا لسرية بئر معونة، ولعل ذلك اجتباء ربهم لهم، وكيما ينالوا في الآخرة فضل الشهداء، بعد إذ نالوا في الدنيا لقب القراء!

وإذ كان قدره تعالى نافذا، وحين قتل في سرية بئر معونة سبعون أنصاريا، كان يقال لهم القراء، ولأنهم كانوا نهارا يحتطبون فيعملون، وكانوا ليلا يقومون لا يفترون! وهذا جيل فريد.

كان نيل أربع قبائل من سبعين قارئا قتلهم غرة عملا لا شهامة فيه، وهكذا يتسلخ المشركون من قيم، وهكذا يتبرأون من شيم، كان عليها أجدادهم من قبل.

لم يكن مبرر واحد لقتل سبعين قارئا مسلما على يد أربع قبائل! ولأنهم صدقوهم، أن لم يريدوهم، وليسوا هدفا لهم، وإنما حاجة بعثهم فيها نبيهم صلى الله عليه وسلم، لكنه الافتراس، وحين يكون خلقا!

ولعل قتل سبعين قارئا من خيرة الأمة كان قدرا مقدورا، وليسن فيه دعاء القنوت، مناسبة الملمات العظام، ولشهر كامل، برهان أثره فيه صلى الله عليه وسلم.

إن الكلام حول القنوت، وهل هو لمناسبة ملمة بالأمة، ولاجتماعهم عليه في الصلاة جميعا، أو عام في كل ذي ملمة غير اجتماع، والأمر واسع ولله الحمد.

كان قنوته صلى الله عليه وسلم على قاتلي السبعين قارئا محصورا في صلاة الفجر، برهان كفائه فيه، ولسبب الملمة، لاتواترا بلا سبب، فيكون ابتداعا مخالفا هديه صلى الله عليه وسلم.

سيظل بئر معونة علما، أن قوما أجهزوا على سبعين مسلما قارئا ههنا، وليقول التاريخ فيهم كلمته، غدرا كان وسما لهم، ولمثل من فعل فعلهم أبدا!

من فضله تعالى أن بعث أملا أن تنال الشهادة كما نالها السبعون، ليقول: إنا لقد لقينا ربنا، فرضي عنا، وأرضانا. حتى وإن نسخ؛ ولأنه محفور بالأذهان.

كان عامر بن الطفيل زعيم قاتلي السبعين، وهو الذي رأى عامر بن فهيرة شهيدا، رفع إلى السماء، ثم نزل! إلا أنه ظل قاسي القلب، رغم رؤيته ما رأى!

يكافئ ربنا عبادا له، أبلوا فيه البلاء الحسن الجميل، وها هو عامر بن فهيرة، ذلكم العبد الرقيق! وإذ ترفعه الملائكة شهيدا إلى ربه، في موكب يظل عالقا بالأذهان أبدا.

كان عامر بن فهيرة قارئا من السبعين، الذين اجتباهم ربهم للشهادة، في بئر معونة، ليختم دنياه بها، ولا ينسى ربه رعيه غنم أبي بكر، لتزيل آثار الهجرة!

إذا كان العبيد يخفضهم قومهم أحيانا، إلا أنهم في ظل ديننا منحهم ربهم فضلا حسنا، وحين رفعت الملائكة المولى عامر بن فهيرة، شهيدا تزفه زفا!

إن مفارقة، وإذ يري سيد هو عامر بن الطفيل عبدا هو عامر بن فهيرة ترفعه الملائكة، وها هو يهوي في الطين، بلادة لا حس لها، وجهالة لا شعور معها.

إن الذين يمقتون عبدا، وها هي رسالة السماء أن عبدا هو عامر بن فهيرة كان سيد شهداء يومه، وحين زفته ملائكة الرحمن في علياء السماء شهيدا!!

إن مقياس التقوى هو ذلكم العامل الفاصل في موازين ربنا تعالى، وحين كان أكرم الناس أتقاهم، حتى ولو كان عبدا زبيبا، كعامر بن فهيرة أوبلال!

وإذ نعلم أن الشهادة وسام، يخصه تعالى بمن هو أهله، وكان عامر بن فهيرة قارئا من أهله، وحين رعى غنما لأبي بكر، تثير ترابا يزيل أثر الهجرة!

وإذ تكللت سيرة عامر بن فهيرة بلاء حسنا جميلا، ويوم أن تحمل بطش قريش حين أسلم، حتى اشتراه أبو بكر، ذلكم الرجل العبد الصالح، ليقيه العذاب.

وقفنا وقفات كانت موجب اصطفاء عامر بن فهيرة للشهادة، يوم أسلم فصبر، ويوم الهجرة فاصطبر، ويوم بدر فانتصر، ويوم أحد فاستنفر، ويوم معونة فصبر!

وإذ قال عامر بن فهيرة حين طعنه جبار بن سلمى الكلابي: فزت ورب الكعبة، يعني بالجنة. وهذا برهان أن غاية أولاء قوم هي الجنة وحسب!

وقف عامر بن الطفيل جامدا، لا حراك لقلبه، تأثرا ولو نذرا يسيرا، حين رفعت الملائكة عامرا بن فهيرة! بيد أن طاعنه أسلم، وتأثرا بقوله: فزت ورب الكعبة!

﴿قل انظروا ماذا في السماوات والأرض ۚ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[يونس:101]. كعامر بن الطفيل! وأمام آية عظمى! يسلم طاعن عامر بن فهيرة!

إن ثبات أهل الحق على حق يؤمنون به، هو في حد ذاته سبيل دعوة للآخرين، وحين أسلم جبار بن سلمى الكلابي، طاعن عامر بن فهيرة، وأمام صبره في ربه تعالى، ثم ما سمعته أذناه!

إن المسلم داعية حق في حياته، وعند موته، وكعامر بن فهيرة، حين جاهد في الله حق جهاده حيا، وحين بشر بفوزه الجنة عند مصرعه، وهذه حفاوة وغبطة.

وإذ كانوا يرون أن الملائكة وارت جسد عامر بن فهيرة، وحين قتل، وإذ لم يوجد له جسدا! وهذه آية أخرى، لذلكم صنف، قضى نحبه في الله، وما بدلوا تبديلا.

قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فعرض عليه الإسلام، ودعاه فلم يسلم، ولم يبعد، وقال: يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فقال صلى الله عليه وسلم: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، فبعث المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة في أربعين من خيار المسلمين، فلما وصلوا نزلوا بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا عليه فقتله ثم استصرخ بني عامر فلم يجيبوه،

واستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عصية ورعل وذكوان فأجابوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوا حتى قتلوا جميعا يرحمهم الله: إلا كعب بن زيد أخا بني دينار تركوه وبه رمق فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدا رحمه الله[1].

وإذ قال أبو براء عامر بن مالك بن جعفر: يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك: ولعل هذه هي حاجته صلى الله عليه وسلم التي بعث السبعين رجلا لأجلها.

وإذ نال عمرو بن أمية الضمري شرف المشاركة في سرية بئر معونة، وتوا عاد من سريته التي بعث فيها، لكنه ههنا جندي، وهناك كان قائدا!!

وإذ لم يجف عرق عمرو بن أمية الضمري بعد، وتوا عاد من سريته التي كان قائدها، ليكون جنديا في سرية بئر معونة، ولأن المقدمة والساقة سواء لدى هؤلاء.

إن نبينا صلى الله عليه وسلم كان قائدا لاند له! وحين قلد عمرو بن أمية الضمري قيادة سريته، وحين انتدبه جنديا في سرية بئر معونة، بعدها مباشرة لئلا يرفع أحدهم فخرا.

مفارقة! عاد عمرو بن أمية الضمري من سريته منصورا مؤزرا، وأصبح يوم معونة أسيرا كسيرا! وعلى أي جنب كان أولاء رضوا! ولأنهم يقودهم إخلاصهم لله.

---

(1) كتاب الأوائل، الطبراني:١٠٢

وكأنما منح الله تعالى عمرو بن أمية الضمري فكاكا من أسره، كان قد من به عليه عامر بن الطفيل؛ وكيما تبقى رأسه عالية مرفوعة، وإذ كان قائد سريته الأولى، وهذا شأن ربنا الرحمن سبحانه في عبيده.

وكان عمرو بن أمية الضمري قتل رجلين عامريين، قصاصا لإخوانه الذين قتلهم عامر بن الطفيل! وإذ لم يعلم جواره صلى الله عليه وسلم لهما، فدفع صلى الله عليه وسلم ديتهما! وهذا خلقه صلى الله عليه وسلم ودينه! وإنما لم يعنف عمروا، ولعدم علمه، ولبلائه البلاء الحسن في الله تعالى.

إن المرء ليقف منبهرا أمام عظمة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وحين يدفع دية رجلين عامريين، قتل أهلهم سبعين من جنده! ولأجل جواره صلى الله عليه وسلم لهما! وإن ديننا ليحفظ العهد ويعمل الميثاق! وإن تعداه غيره؛ ولانه تعالى قال﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ۖ ولا يجرمنكم شنآن قوم علىٰ ألا تعدلوا ۚ اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ ۖ واتقوا الله ۚ إن الله خبير بما تعملون** ﴾[المائدة:8].

المبحث الخامس: غزوة بني النضير أحداث ودلالات

قال الله تعالى ﴿**سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم * هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار * ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم**

في الآخرة عذاب النار * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب * ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين * وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير * ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾[الحشر:1-7].

إن أحداث التاريخ متعلقة بعضها ببعض، ومنه مطالبته صلى الله عليه وسلم يهود بني النضير دية رجلين قتلهما الصحابي عمرو بن أمية الضمري العامري، لحلف كان بين بني عامر ويهود.

وإذ مكرت يهود بني النضير على نبينا صلى الله عليه وسلم، حين طالبها بدية ذين الرجلين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، وبمقتضى ذلكم العهد الذي كان مبرما بينهما، ورأتها فرصة لقتله صلى الله عليه وسلم، برهان عمل نقض عهدهم فيهم أبدا.

إن يهود هكذا جبلتهم، لا تنهض تستريح إلا بنقض، وإن طبيعتهم لا تستكين إلا بكيد، وخبيئتهم لا تطمئن إلا بخلف! وحين أجمعت أمرها لقتله صلى الله عليه وسلم!

إن يهود ومن رحمته تعالى أن كانوا عددا قليلا – ولا يزالون -، ولأن هذه القلة عاثت أرضه تعالى فسادا، ولربما كان من فعلهم ما يصير به مثل ماء المحيط ملحا! فما بالهم لو كانوا كثرة! فأي ماء كان سوف يصير من فعلهم ملحا أجاجا؟!

إن مسلما لا يستراح له بال إلا بعفو وبذل وتجاوز وإحسان! وإن يهوديا لا يهدأ له بال إلا بخلف ونقض وبغي وعدوان! وتبارك بارئ هذا! وسبحان خالق ذاك!

نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه[1].

هذا رد يهود بني النضير عليه صلى الله عليه وسلم، وحين طالبهم بدية رجلين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، لعهد بينهما، وإنما هم قد أخفوا أمرهم، ولا يعلمون أنه تعالى كاشف سرهم ونجواهم ومخزيهم معا.

إن قلبا متصلا بالله تعالى ما كان لله أن يذره، وما بالنا بنبينا صلى الله عليه وسلم؟! وحين أطلعه تعالى على كيد يهود بني النضير به، أو كيد غيرهم أيضا، وإذ إنه تعالى مانع نبيه صلى الله عليه وسلم، ولكنه الشطط حين يملي لصاحبه أضغاث أحلام، تكون بيئة ملائمة لإسقاطه، في مستنقع كيده، ومن ثم يكون هلاكه به، والله المستعان.

إن غشاوة وضعها بنو النضير على أعينهم، وكيما تستميت جاهدة استغفال أنفسها، لا غيرها! أنه تعالى ليس مانعا نبيه منهم، أو من غيرهم، وهكذا يؤدي بهم خداعهم أنفسهم، ولينفذ أمره تعالى فيهم، إجلاء وذلا وخسارا، وإذ ها هم يجرون أذيال خيبتهم معهم، وليكون تطهير المدينة منهم، ومن رجسهم معا!

(1) إمتاع الأسماع، المقريزي: ج ٨ / ٣٥٩

﴿يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ [التوبة:42]، هذا نص القرآن فيمن يطاول على منهجه تعالى، وهذا برهان وضع أحدنا يده على ذات فؤاده، وليشمر عن ساعدي جد إخلاصه لله تعالى وخشيته.

إنه من ذا الذي تغيب له خافية عن مولاه تعالى، وحتى ذهبت ببني النضير الأماني، وأنه تعالى لا يعلم ما تكن صدورهم بغض نبينا صلى الله عليه وسلم، وما يعلنون طاعته في دية القتيلين؟!

مفارقة (1)! وإذ قالت يهود: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه[1]. هذا وجه يهود الأول!، وإذ قالت يهود أيضا: فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه؟[2]. وهذا وجههم الآخر! فخرجوا لنا بوجهين مختلفين، ولسانين متباينين، وفي مجلس واحد، وما تفرقوا عنه بعد! والله المستعان.

وإنه لا تنطلي خفية يزعمها ذو الوجهين، ولأن الله تعالى كاشف خبيئته، وانظر كيف كان صنيعه يوم فعلت ذلك بنو النضير، وليكونوا آية للعالمين، وإلى يوم الدين؟!

وإذ لو عقلت يهود، لدفعت دية العامريين! وإذ لو استيقظت لم تكن لتتعدى أصول المواثيق، وحين أمعنت في خطة قتل نبي، جاءهم بالهدى ودين الحق، وليخرجهم من الظلمات إلى النور، ولأن ثمن نقضهم كان فادحا، فأظهر الله سوأتهم، وحين حاولوا طمس خبيئتهم، وكأنما تنطلي عليه تعالى قريحتهم!

---

(1) المرجع السابق: ج ٨ / ٣٥٩

(2) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ /٢٢٤

وهكذا يزعمون، وفي غيهم يعمهون، وهذا جهل برب قادر قهار، وإله غالب جبار، سبحانه!

وإنه لا مساغ لاستدراك عليه تعالى، وأنه لم خلق خلقا كيهود! وإذ هي قريحتهم، ولأنه ابتلاء، كيما يتجدد في العالمين حركة دائبة، يتتبعونهم وراء كل جحر، دفنوا رؤوسهم فيه! وبه تتحقق سنة التدافع الربانية، والتي كانت من أخص خصائص حركة التاريخ في الكون، وفي التصور الإسلامي بوجه أخص.

وليرجع عمرو بن جحاش بخفي حنين، وليرد الله كيده، ويهود في نحورهم، وحين تنبئ السماء نبينا صلى الله عليه وسلم، أن قم - يا رسول الله - من ههنا مكان، تدس لك فيه سموم يهود وغيظهم!

أنا لها أنا لها: هذا قول عمرو بن جحاش، وحين عرضت يهود من يقتل محمدا! ثم تستل عناية ربنا نبيه صلى الله عليه وسلم من بينهم، وينقذه وينجيه، لينكفؤا جميعا، خزايا حيارى، أمام تحدي السماء.

وإذ يقوم نبينا صلى الله عليه وسلم ناهضا من مكان رجس يهود، ومن بين أيديهم، وها هو نبأ السماء، أنه تعالى أطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على مكرهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال!

وجه المسألة الأولى: وإذ أجمعت يهود غيظها، إسقاط حجر على نبينا صلى الله عليه وسلم، وفي عقر دارهم، وبلا قيد مروءة، هي ألف باء التعامل البشري، وإذ جرت العادات حماية حمى ضيف حل! وذلك فضلا عن إكرامه جائزته وضيافته.

من أسرع؟! هذا سؤال لا محل له! وإذ خيل ليهود أن تسابق زمنا، خلقه رب الزمن! وليفحمهم حين يصعد أجيرعمرو بن جحاش بحجره! لتنزل السماء إخباره صلى الله عليه وسلم أمرها أن: قم! وإنما تصحبك رعاية مولاك وحفظه، وإكلاؤه وعنايته، وإنما أنت رسوله، وإنما أنت نبيه، وإنما أنت صفيه!

مفارقة (2)! وبون شاسع، وفرق واسع، بين رؤيتين: رؤية عمرو ين جحاش وإذ غرته جهالته، وحين أعمى الله تعالى بصيرته، وأنه يمكنه نفاذ أمره، ومن بين أمر الله! وحين قال: أنا لذلك[1]. ورؤية سلام بن مشكم، وحين كان ذا عقل راجح - ولا يمنع – وإذ قال: لا تفعلوا، والله ليخبرن بما هممهتم به أنه لنقض للعهد، الذي بيننا وبينه[2].

إنني وغيري ولاشك تغمرهم الدهشة كلها، وفي سائر معانيها ومراميها، ولم لم يسلم عمرو بن جحاش، وحين رأى رأي عين أم رأسه استلاله صلى الله عليه وسلم، من بينهم سالما منصورا، ولأن هذا فوق التصور البشري، وأن قدرة أخرى من ورائه كانت سبب الإنقاذ، مما شكل تحديا، كان في حد ذاته برهانا على الإعجاز الرباني والتحدي الإلهي! الذين لطالما رفرفا وهيمنا على سماء الموقف كله، تفردا وقيمة وسلطانا، وعظمة لله تعالى العلي الأعلى سبحانه!

وجـــه آخــــر للمســـــألة: وليس يمنع من خبر عمرو بن جحاش، خبرا آخر مقتضاه، أن امرأة من يهود أخبرت أخاها، الذي كان يهوديا فأسلم، أنهم أجمعوا أمرهم لقتله صلى الله عليه وسلم، وحين "أرسلوا إليه أن أخرج إلينا في ثلاثين من

(1) السيرة الحلبية، الحلبي: ج ٢/ ٥٦٠

(2) المرجع السابق: ج ٢/ ٥٦٠

أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبرا فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك فلما غدا عليهم في ثلاثين من أصحابه قال بعضهم لبعض كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون كل يحب أن يموت قبله فأرسلوا إليه أن أخرج في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا فإن آمنوا بك اتبعناك ففعل واشتملت اليهود الثلاثة على الخناجر فأرسلت امرأة من بني النضير لأخ لها مسلم تعلمه بذلك فأعلم أخوها النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فرجع"[1].

إن الله تعالى الذي قال لنبيه موسى صلى الله عليه وسلم: ﴿ ولتصنع على عيني﴾[طه:39]. وما كان ليهود، وإذ عرفت ذلك، أنه يمكنها نيل، ولو من ثقب، من نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أيضا معصوم بأمر ربه، ولأنه تعالى قال ﴿والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة:67].

وإنه لو كان قد نزل قول الله تعالى ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ في غير موسى عليه السلام، لكان ليهود شبه عذر، وحين استغفلت أنفسها، وأنه يمكنها زعم - فقط زعم - نيل، ولو ما أسمي في القاموس نيلا، منه صلى الله عليه وسلم!

وعلى أي وجه كانت المسألة: فماذا هي قائلة يهود، وحين يخرج نبينا صلى الله عليه وسلم، من بين أيديهم سالما منصورا، وإذ لم تمس شعرة واحدة منه؟!ولربما لوكان غيرها لأسلمت عن آخرها، لكنه الصرف والختم، وحين قال الله سبحانه ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[الأعراف:146].

(1) المرجع السابق: ج ٢ / ٥٦٠

حين خذل ربنا يهود، بخروجه صلى الله عليه وسلم من بين أيديهم سالما منصورا، وليعلم الناس أنه لا تغني الآيات والنذر، ومن حيث كان علمه تعالى فيهم أنهم لايؤمنون!!

مفارقة (3)! وإذ يرى عامر بن الطفيل العامري خبيبا بن عدي شهيدا، ترفعه الملائكة، وأمام عينه! وترى يهود استلاله صلى الله عليه وسلم، ومن بين أيديهم سالما منصورا! ولا يؤمن عامرا! ولا تؤمن يهود!

إن يوما أشبه البارحة، وحين توافق العامريون أحلاف يهود، ومع يهود، ألا يؤمنوا، ومن بعد الآيات والنذر، ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [يونس:101]!

وإذ تصحب نبينا صلى الله عليه وسلم عناية ربه تعالى، وإذ خرج من بين يهود سالما آمنا، وكان يمكن متابعته، وظفر به! لكن ما يحكم معادلة بيننا وبين أغيار معاندين، هو قول الله تعالى سبحانه: ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ [يس:9]. وإذ إن حرمان التوفيق إنما يتأتي، وحين يتقمص أحدهم ثوبا ليس له، وحين يؤدي به طغيانه وكبره أنه فوق مستوى المقدورات الربانية الحكيمة الكريمة، والتي لا يتسنى لأحدهم خروج عنها شيئا، وفضلا عن أن يكون خاضعا لسلطانها، ومهيمنة عليه أجمعه، وكل حين!!

نتيجة التآمر: وإذ بعث نبينا صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة، يأمر يهود بالخروج من جواره وبلده، وحين هموا بقتله خيانة عظمى! ويقول أسلافهم: سنعود إلى المدينة! ولو كان غيرهم لاستحوا!!

أي عـود إلى المدينـة يزعمـه يهـود، وهـم أولاء الـذين أخرجـوا أنفسـهم، بنقضهم عهدا، ونبذهم وعدا، وخلفهم عقدا، وإجماعهم كذبا، وبهتانهم زيفا؟!

إنه لو عقلت يهود لغارت بهم أرضهم من تحت أرجلهم خجلا، ولانحاشوا من بلادهم، إلى حيث لا بلاد، فتتلقفهم طيور طاوية جائعة، وتفترسهم دواب جارحة، تقتات بلحومهم، ظامئة ترتوي بدمائهم.

وهكذا وبعد موافقة يهود على خروجهم من يثرب، تطهيرا لها منهم، دبت فيهم داعية الخلف، وبسبب تحريض المرجفين، وماهم بمغنين عنهم شيئا.

كان نبينا صلى الله عليه وسلم حليما مع يهود، حين حاصرهم، بعد خلفهم وتآمرهم على مقام نبوته الكريم صلى الله عليه وسلم، وهذا فن عسكري: اسلك دروبا عدة قبل رفع السلاح.

شبهة انتشار الإسلام بحد السيف: إن قراءة الناس لتاريخنا مشوبة، وحين زعموا انتشار الإسلام بالسيف، وها هو نبينا صلى الله عليه وسلم، يحلم بيهود، وإذ لم يفتك بهم ابتداء، رغم خيانة عظمى، تجيز جز الرقاب، وإذ قد حاصرهم؛ للفت في عضدهم، فيسلمون أو يستسلمون، أو يجلون أويخرجون.

وإذ كان نبينا صلى الله عليه وسلم صابرا، غاية صبر نبي! فضلا عن صبره صلى الله عليه وسلم! مع يهود، وحين أمر صلى الله عليه وسلم بإخراجهم، من بعد غدرهم، ولما حاصرهم، لدفعهم على النزول، ودون إراقة دماء، ما كان إلى ذلك سبيل!

مفارقـــة (4)! إن مفارقة بين فعل يهود في فلسطين! وبين حلمه صلى الله عليه وسلم معهم، وإذ يداديهم! ليخرجوا من يثرب سالمين، وبعد خيانة عظمى، سنت لها القوانين الدولية عقوبة الإعدام!

وإذ كان حصاره صلى الله عليه وسلم يهود عملا عسكريا ممتازا! ولأن فيه محاولة إجبار الخصم، نزولا على الحق، دون إراقة دماء، وفيه قطع خطوط إمداده لذلك السبب نفسه، ويوم اللقاء إذا فرض، ولا يلومن أحد حينها إلا نفسه!

وإذ حاصر نبينا صلى الله عليه وسلم يهود خمس عشرة ليلة كاملة، قطعا لخطوط إمدادهم، ومحاولة إرغامهم، أن يتوبوا، أو أن يخرجوا، وبأقل خسائر ممكنة للطرفين، وهذا فن عسكري أيضا!

كان قطع نخيل يهود وتحريقه خيرا، وبدل أن يقتلوا، وهذا فن عسكري باهر، إذ كلما أمكن حقن الدماء، فكل ما دونه يسير، ولا اعتبار لاعتراض الخصم هنا، ولأن كل خصم شديد الحساسية تجاه خصمه، وفيما يتخذه من إجراءات.

تحريم الخمر يوم بني النضير: وإذ كان تحريم الخمر في السنة الرابعة للهجرة، ويوم بني النضير، أي بعد أربع عشرة سنة من البعثة، برهان سنة التدرج، ودلالة خاصة الواقعية، وكأخص ما يتميز به ديننا من خصائص، وإذ أوغل القوم في تآمرهم، وعلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم، ورأس مركز القيادة والسيطرة، وهذه رحمة ديننا.

تأهيل ذوي الاحتياجات الخاصـــة: ولازال عبد الله بن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه حاضرا، إذ أمره صلى الله عليه وسلم على المدينة، يوم بني النضير،

وبعد إذ عاتبه ربه فيه، برهان جبر خواطر المنكسرين، وتأهيلهم، عملا إيجابيا حميدا.

أثر الحصار على الخصم: يهود بني النضير نموذج: وحقا قد عمل حصار يهود فيهم عمله، حتى سألوه صلى الله عليه وسلم أن يجليهم، ويتجاوز عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة. أي السلاح!

وإذ أجلى صلى الله عليه وسلم بني النضير، ودون سلاح، وفيه جواز نزع سلاح الخصم؛ لتجريده، وإضعاف شوكته، وهذا خير لطرفي النزاع، وقطعا لمادة المحاربة، وهذا فن عسكري!

يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار: وإذ سأل يهود جلاءهم، وتجاوزا عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة، فكانوا يخربون بيوتهم، فيهدم الرجل بيته، فيضعه على ظهر بعيره ويفر.

وهكذا حين تخطئ الحسابات العسكرية! فتجلب سما ناقعا! وهذا ما حدث ليهود، وحين تآمروا، وحين لم يعلنوا توبتهم، وحين خربوا بيوتهم، وبأيديهم!

إن المرء ليقف حاسرا حائرا! وماذا كان سوف يضير يهود، لو آمنوا، أو تابوا من خيانتهم، ليعيشوا في بيوتهم آمنين، ودونما هكذا ذل إجلاء مهين؟!

إن الإسلام يحترم حقوق الملكية الخاصة، وحين خرب يهود بيوتهم بأيديهم، ودون عمل يقيد هذا الحق، على أنهم دهاة، وإذ خربوها، لا أن يفيد مسلم بها! وهذا كشف عن خبيئة قوم هزالا!

بنو النضير غلاظ القوب جفاة الأفئدة: قال ابن إسحاق: ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان وهما: يامين بن عمير بن كعب بن عم عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما[1].

ولأحدنا أن يذهل وكيف يسلم اثنان وحسب من قوم كان عددهم ألفا وخمسمائة؟! وهو عدد في قياسات زمانهم كان كبيرا كثيرا، وهو وإن دل فإنما يدل على قسوة قد انقطع نظيرها، ويبين عن جفاء عز وجود مثله، إلا في يهود، ومن سلك سبيلهم.

وقال ابن إسحاق أيضا: وقد حدثني بعض آل يامين: أن رسول الله ﷺ قال ليامين: «ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني؟» فجعل يامين لرجل جعلا على أن يقتل عمرو بن جحاش، فقتله لعنه الله[2].

إن عجبا وحين لم يسلم من بني النضير إلا رجلين! والأعجب أن منهما يامين بن عمير، ابن عم عمرو بن جحاش، ذلك الذي كان قد راح ليقتل نبينا صلى الله عليه وسلم، وكان الأولى بإعلانه إسلامه هو ذلك العمرو! لأنه رأى ما رأى من آيات ربه الكبرى.

وإذ شكا نبينا صلى الله عليه وسلم عمرو بن جحاش لابن أخيه يامين، وحين أسلم، حفزا له، فقتله أجيره لذلكم، ولأنه خان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، إصرارا، وسبق ترصد، سببا مشددا للعقوبة الجنائية.

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/٨٧

(2) المرجع السابق: ج ٤/٨٧

تقســـيم الفـــيء: حين أجلي بنو النضير، وزع نبينا صلى الله عليه وسلم أموالهم فيئا، وخص بها أنصاريين فقيرين، وكذا المهاجرين الأولين، لأنهم تركوا ديارهم وأموالهم، وهذا رزق ربهم سيق إليهم.

وإذ كان الفقر هو مقياس توزيع الفيء يوم بني النضير، ولأنه صلى الله عليه وسلم قسمه على المهاجرين الأولين لفقرهم، وكذا أنصاريين ولفقرهما أيضا، وهذا قرار سيادي.

وإذ نزلت سورة الأنفال، علاجا ليوم بدر، ونزلت سورة الحشر، خصوصا في بني النضير، وهذا برهان أنهما حدثان عظيمان، ولا غرو! فهذه قريش بعدائها، وأولاء يهود بجفائها ونقضها ميثاقها!

واستهلت سورة الأنفال بسؤال عن الأنفال، ولأنه موضوعها، وبدأت سورة الحشر بالتسبيح، ولتوفيقه تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، إخراج بني النضير، دون قطرة دم، ولعلهم يذكرون.

وأن تظفر بعدوك إجلاء، وعن آخره، ودون سفك دماء، لأحد الطرفين، فهذا سبق عسكري، وتفرد نبوي، ناسبه تسبيحه تعالى مستهل سورة الحشر!

وحسن أن يعيش قادة الأمم وسط ميدانهم، كما نبينا صلى الله عليه وسلم، في أحداثها العظام، وهذا ما ظهر جليا واضحا، يوم بني النضير، يدا بيد مع جنوده، وليعملوا عملا دائبا.

إن تآمرا على نبينا صلى الله عليه وسلم، جعله تعالى مشاقة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم، موجبين لأشد العقاب، وإنزال العذاب، وكان هذا يوم

النضير، هديا قرآنيا، وسننا نبويا أبدا. قال الله تعالى ﴿ ذٰلك بأنهم شاقوا الله ورسولهۦومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ [الحشر:4].

كانت السماء ترقب عن كثب، سير المؤمنين يوم بني النضير، وأن الله معهم ولن يترهم، وإذ ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾[القمر:49].و ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة علىٰ أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾[الحشر:5].

مفارقة (5)! وإذ يتمنى أحدنا أن لو كان قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهاهم أولاء يهود، يزايلون نبيا، جاءهم بالهدى ودين الحق، نورا وسلاما، وأمنا للعالمين!

وقوله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة علىٰ أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾، وفيه جواز القطع، أو عدمه، حسبما تمليه طبيعة الميدان، سلطة تقديرية لقائده.

وإذ لا يكون في كونه تعالى إلا ما أذن به، وإنكاء لفاسق، وإثخانا لمعاند.

وإذ قسمت الأنفال في سورة الأنفال، ووزع الفيء في سورة الحشر، وهذه مشابهة بينهما، وحدة موضوعية لكل سورة، تظهر بهاءها، وتتبدى حللها، زينة وحسنا.

﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ [الحشر:16]. وهذا درس من دروس يوم بني النضير، أودعه الله كتابه، وليكون دليلا للسالكين أبدا. وحين أبرم المنافقون زعما أنهم عون لإخوانهم من بني النضير، ولأنهم سيتركونهم وحيدي ميدانهم، وقد تركوهم!

﴿ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ [سبأ:19]! وهذا مثل الذي حدث ببني النضير، ولما هجروا الهدى، وباينوا الحق، واستدبروا الصراط، سنة الله الماضية!، والتي تخترق حواجز الزمان، وتتقطع أمامها أواصر المكان! بل لا حواجز أصلا، وأمام القدرة الإلهية النافذة!

﴿ أربعين سنة ۛ يتيهون في الأرض ۚ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ [المائدة:26]! وهكذا أسند فعل التيه إلى يهود! وكأنما هم الذين تاهوا، ولا يملكون! وهذا إمعان في الإيلام، ساقهم إلى مصيرهم المجهول، وبأنفسهم!

إن تاريخ يهود نكد، ولأنهم نكدون! فهم الذين عاثوا في الأرض كلها فسادا، وهم الذين جادلوا نبي الله موسى في بقرة! وليتهم جادلوا في فقه ينفع!

وإذ مر عمرو بن سعد القرظي، على ديار بني النضير، خاوية، وكأن لم يكن ههنا دور! ولأن ما حل بهؤلاء، وهم أشد قوة، وأكثر جمعا، يمكن أن يحل في غيرهم، من بني قريظة، أو مما سواهما.

وإذ عرف بنو النضير ما عرفه عمرو بن سعد القرظي، وأن كتاب التوراة أنبأ أن ههنا نبيا اسمه أحمد، ومن جزيرة العرب، ولسوف يبعث، وها هو قد بعث! لكنه الصرف، وحين كان سببه الكبر.

إن عظة في جعله تعالى ديار بني النضير عبرة، وإذ يمر عليها عمرو بن سعد القرظي؛ لتحرك فيه داعية خير، تكون سببا في مراجعة فؤاد غوى وقلب هوي!

﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ۗ إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ [النمل:52]! وليست بنو النضير وحدها، وإنما كل من حاد وحاد، فإن هذا مصيره المحتوم، وليضع عاقل يده على قلبه، خوفا ووجلا.

"ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال"! هذا حل بالمسلمين كماحل بيهود يوما!! وحين تلاك ألسن بالقرآن، ولا يحرك فيها القرآن ساكنا!

"ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال"! هذه رسالة امرأة مسلمة للعالم أجمع! ألا تضيعوا ملككم من إغضاب مليككم الله الأكبر!

"ابك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال"! لقد ذقنا مرارة هذا، ويوم انصرفنا عن جادة طريقنا، واستدبرنا كتاب الله وراء ظهورنا!

إننا نقصص كثيرا، أنه حدث أن...، وأنه جرى في...! وكأنما نحن بعيدون ألا يحدث ذلكم فينا! وحين تحكم السنة الماضية، أن جعلت بيوتا خاوية على عروشها، وحين أدبرت عن هدي السماء الأعلى! وحين تصرمت من قيد الحنيفية الأسمى.

إن ما حدث ببني النضير ليحدث مثله، بل أشد وقعا، وأنكى أثرا! وبقيت أفئدة تدرك، وأبصار ترى، وبصائر تعتبر، وحين أذل الله الناس أجمعين بفيروس ميت ولا يكاد يرى!

إن ما حل ببني النضير كان يسيرا، وقياسا على ما حل بيوم الناس هذا!! كمثله، أو أكثر فتكا، ولأن بني النضير بقعة محدودة، ولأن ما طرأ أذل عالما ذا بقع عديدة مديدة!

إن كل أحد يوم الناس هذا، يتوقع ألا يعود إليه نفسه الذي أخرجه! أو أن يدخل نفسه أخرجه! وجراء فيروس ميت لايرى! وهذا أشد فتكا مما حدث ببني النضير! فهل من مدكر!

قال عمرو بن سعد القرظي: رأيت اليوم عبرا قد عبرنا بها، رأيت منازل إخواننا خالية، بعد ذلك العز والجلد، والشرف الفاضل، والعقل البارع، قد تركوا أموالهم، وملكها غيرهم، وخرجوا خروج ذل.

ولا والتوراة ما سلط هذا على قوم قط لله بهم حاجة، وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف ذي عزهم، ثم بيته في بيته أمنا، وأوقع بابن سنينة سيدهم، وأوقع ببني قينقاع فأجلاهم، وهم أهل جد يهود، وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة، فحصرهم فلم يخرج إنسان منهم رأسه حتى سباهم، وكلم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب.

يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني، وتعالوا نتبع محمدا والله إنكم لتعلمون أنه نبي قد بشرنا به، وبأمره ابن الهيبان أبو عمير، وابن حراش، وهما أعلم يهود جاءانا، يتوكفان قدومه، وأمرانا باتباعه، جاءانا من بيت المقدس، وأمرانا أن نقرئه منهما السلام، ثم ماتا على دينهما، ودفناهما بحرتنا هذه، فأسكت القوم، فلم يتكلم منهم متكلم، ثم أعاد هذا الكلام ونحوه، وخوفهم بالحرب والسباء والجلاء[1].

وأقول: وهل يمكن لأحدنا أن يزيد حرفا على قوله، أو أن ينقص حرفا من حجته!

وأقول أيضا: ولتعلق هذه اللوحة في ميادين الناس كافة، وليذكروا أبدا سنة الله الماضية!

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ /١٥٥

وأقول أيضا: وهل ما يحل بعالم الناس هذا، يومهم هذا، بعيد أم قريب، أو أقل أو أكثر، مما حل ببني النضير؟!

وأقول: إن ما حدث ببني النضير، أخرج هذا الشعور الباطنى الهائل، بتعبيرات تند وصفا، وتخلع قلبا، وتخشع لبا، وتطأطئ رأسا، وتخفض هامة!

ولتجأر ألسنة، ولتهفو نفوس، ولتخضع قلوب، ولتؤوب جوارح، وحين رأت بأبصارها، لا سمعت بآذانها، سنة الله الماضية، وحين لا تحابي، ويوم ألا تغمض طرفا عن قوم آخرين، ولو كانوا مسلمين!! وكما حدث بملك أندلسنا، وحين تقاذفتهم ريح قاصفة عاتية! ليست ماطرة! وإن هم إلا في بحر هائج متلاطم! وإذ ليسوا يملكون من أمرهم شيئا! اللهم إلا نذرا يسيرا، وكذر الرماد في العيون!

وإن هذا عيب في طريقة سلوك المنهج! وإنما المنهج غاية يحكمها سلوك، وكلاهما من معيننا الأول، ألا وهو، كتاب الله وسنة نبيه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وحين قال من حديث عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس؟ وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوها: ما ظهرت الفاحشة في قوم قط يعمل بها فيهم علانية ؛ إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، وما منع قوم الزكاة ؛ إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، وما بخس قوم المكيال والميزان ؛ إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله ؛ إلا سلط الله عليهم عدوهم فاستنقذوا بعض ما في أيديهم، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه ؛ إلا جعل الله بأسهم بينهم[1]. والله الهادي إلى صراطه المستقيم.

(1) صحيح الترغيب، الألباني: [2187]. خلاصة حكم المحدث: صحيح لغيره.

المبحث السادس: غزوة بني لحيان

كان ثأر نبينا صلى الله عليه وسلم لقتل خبيب بن عدي وصحبه سببا لغزوة بني لحيان، وهذا برهان أن تبقى دماء شهداء الأمة دينا في أعناق قادتهم، ريثما يقدون منها.

وإنما تكون الحرب غرة؛ لفعله صلى الله عليه وسلم، وحين سلك طريقا، يبعد ظنا أنه يريد بني لحيان أخذا بدماء خبيب، وإن يسهر القائد حتى يعيد الحق إلى نصابه، دينا ومروءة.

لم تكن قريش لتأمن هي الأخرى، وحين وجدهم صلى الله عليه وسلم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال. وهذا برهان حذر دائم بين أطراف النزاع، وكل من طرفه وحسبه.

صلى نبينا صلى الله عليه وسلم بعسفان صلاة الخوف، وهذا برهان قيمة صلاتنا على أي حال كان أمرنا، ولأنها صلة بين العبد وربه أبدا، وفيها راحة فؤاده، وأمن قلبه.

وكفى بالصلاة زادا للتقوى، وحين كانت على وجه صلاة، أسميت في شرعنا صلاة الخوف، برهان أدائها، ولو على وجه خوف، كان سيد الميدان!

حين صلى نبينا صلى الله عليه وسلم الظهر، فقالت قريش: قد كانوا على حال، لو أصبنا غرتهم! وهذا مبين حذر، كان من وجهه صلاة خوف، تلائم حركة الميدان.

قالت قريش: تأتي الآن عليهم صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم! وهذه شهادة الغير لصالح كيف فعل صلاتنا فينا، وفي أذهان عدوهم أيضا!

﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرىٰ لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ۗ ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ۚ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضىٰ أن تضعوا أسلحتكم ۖ وخذوا حذركم ۗ إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾ [النساء:102]. هذا توفيق القرآن بين وضع القتال وحال الأمن، وكلاهما يمكن إقامة صلاتنا فيها، لئلا ينفذ عدونا منها خلالنا.

شرع القرآن صلاة الخوف، رسالة إلى ميادين قتال أمتنا، اهتماما بها، فإنها زاد جنودهم المعنوي، وتعمل فيهم عملا، لاتسده إدارة الشؤن المعنوية.

إن حفزا ذاتيا لصلاتنا لايسد مسده جهاز التوعية المعنوية برمته، وحين كانت في معزل عن إسناد توعوي قائم على إحكام وتمتين علاقتنا بربنا!

حين صلى نبينا صلى الله عليه وسلم الظهر في عسفان قال المشركون: دعوهم فإن لهم صلاة بعد هذه الصلاة، هي أحب إليهم من أبنائهم[1]. وهذا برهان عمل صلاة العصر.

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ١٥٨

صف نبينا صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة العصر صفين بين أيديهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعدو بين يديه صلى الله عليه وسلم[1]. برهان تحسب، ودليل تهيؤ، لغرة هي من عمل خصم لدود!

يغفل المشركون عناية ربهم بأوليائه فيوردهم أمرهم هذا مهالكهم! وحين تآمروا بغتة المؤمنين وحين صلاتهم، لينزل جبريل عليه السلام بصلاة الخوف أمنا وسلاما.

هممنا أن نغير عليه، ثم لم يعزم لنا، فأطلعه الله على ما في أنفسنا من الهم به، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف[2]. وهذه إرهاصات إسلام خالد بن الوليد!

المبحث السابع: غزوة ذات الرقاع أحداث ودلالات

عن أبي موسى الأشعري خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، وكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع؛ لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا. وحدث أبو موسى بهذا ثم كره ذاك، قال: ما كنت أصنع بأن أذكره؟! كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه[3].

---

(1) المرجع السابق: ج ٣ / ١٥٨

(2) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ٩٥

(3) صحيح البخاري: 4128

عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجد حتى إذا كنا بذات الرقاع من نخل لقي جمعا من غطفان فذكر معناه ولفظه على غير لفظ حيوة وقال فيه حين ركع بمن معه وسجد قال فلما قاموا مشوا القهقرى إلى مصاف أصحابهم ولم يذكر استدبار القبلة [1].

كانت غزوة ذات الرقاع بعد شهرين ونصف تقريبا من غزوة بني النضير، وليكون حاضرا في الأذهان كيف كانت حياة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إدارة أمة على ذلكم وجه، جهادا في الله تعالى حق جهاده، وإذ لم يعرفه سوى حياة جد ونصب، حتى ترك لنا صلى الله عليه وسلم إرثا خالدا، فيه نعماؤنا وراحتنا وهدانا وسكينتنا.

وإنما خلف نبينا صلى الله عليه وسلم أبا ذر أو عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنهما -، على المدينة يوم ذات الرقاع، ولفضل كل منهما، وحين كانت وجهته بني محارب وبني ثعلبة من غطفان في بلاد نجد، وهكذا ليبسط دين الحق على جزيرة العرب.

وإذ التقى نبينا صلى الله عليه وسلم جمعا عظيما من غطفان، فتقارب الناس ودون حرب، حتى خاف بعضهم بعضا، وصلى صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف الناس.

فعن جابر بن عبدالله أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه في الخوف في غزوة السابعة؛ غزوة ذات الرقاع. قال ابن عباس: صلى النبي صلى الله عليه وسلم الخوف بذي قرد. وقال بكر بن سوادة: حدثني زياد بن نافع، عن أبي

---

(1) صحيح أبي داود، الألباني: 1241

موسى، أن جابرا حدثهم: صلى النبي صلى الله عليه وسلم بهم يوم محارب وثعلبة. وقال ابن إسحاق: سمعت وهب بن كيسان، سمعت جابرا: خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذات الرقاع من نخل، فلقي جمعا من غطفان، فلم يكن قتال، وأخاف الناس بعضهم بعضا، فصلى النبي صلى الله عليه وسلم ركعتي الخوف. وقال يزيد، عن سلمة: غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم القرد[1].

ومنه فليس شرطا أن ينعقد قتال لغزوة أو سرية، ولأن المقصد هو أن يكون الدين الجديد حاضرا في الأذهان، على وجوه تجعل منه مادة تفاعلية حركية دائبة بين الناس.

وتكللت غزوة ذات الرقاع ببركات كان منها، خبر غورث بن الحارث، وخبر معالجة امرأة، وخبر المرابطين وخبر فرخ الطائر، وأخيرا خبر جمل جابر.

وهكذا يكون أحسن القصص زادا وجندا قدوة وتعليما.

ونتناولها تباعا بإذنه تعالى:

أولا: قصة غورث بن الحارث يوم ذات الرقاع: وعن جابر بن عبدالله: قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم محارب خصفة بنخل فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله. فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ. قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. قال: لا، ولكن أعاهدك على أن لا

(1) صحيح البخاري: 4125

أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله فأتى أصحابه وقال: جئتكم من عند خير الناس. ثم ذكر صلاة الخوف وأنه صلى بكل طائفة ركعتين [1].

وإذ ظن غورث بن الحارث أنه يمكنه نيل من نبينا صلى الله عليه وسلم، ولأنه غفل أن نبينا صلى الله عليه وسلم معصوم قدرا وشرعا من أولئك وأغيارهم، وهذه أعلام نبوة خالدة.

وإذ نذكر أنفسنا بخطابه تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم: ﴿ **والله يعصمك من الناس**﴾[المائدة:67].

وإذ لا ننسى قوله صلى الله عليه وسلم: لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك [2].

وكأني بغورث بن الحارث، وإذ تغور به الأرض، وحين واجهه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يقدر عليه، وأمام قومه، وحين وعدهم قتله لنبينا صلى الله عليه وسلم، وها هو صلى الله عليه وسلم يقف لسيفه، ومن أمامه!

وكأني به أيضا وقد انصدع عن وجهه، وأمام ثباته صلى الله عليه وسلم، وحين قال صلى الله عليه وسلم: يمنعني الله منك. برهان يقينه صلى الله عليه وسلم بربه، وليراه غورث، ولعله أن يعمل فيه عملا ينفعه، تأثرا وإسلاما، وهذا أثر البذل والثبات في نفوس الأغيار، وكم من حدث كان شبيها، فأتى أكله، فأسلم من سببه صاحبه! وانظر جبارا قاتل خبيب بن عدي، وحين أسلم تأثرا بصنيعه، ولما سمعه يقول عند قتله: فزت ورب الكعبة!

---

(1) تاريخ الإسلام الذهبي: 249/2. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(2) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٢/ ٢٨٣

وإننا لمنبهرون! وحين أصر غورث بن الحارث على قتل نبينا صلى الله عليه وسلم، وليمنعه ربه تعالى منه، آية ودليلا، ثم إن انبهارنا لتزداد وتيرته، وحين يعفو عنه صلى الله عليه وسلم! ولم يعاقبه! وهذه أخلاق نبوة، عز وصفها، وند وجودها!

ولعل إعجازا، وحين سقط السيف من يد غورث بن الحارث، ليعلمه نبينا صلى الله عليه وسلم درسا، ولما أسلم وجهه ليقتله صلى الله عليه وسلم! وقد عفا عنه، خلقا نبويا حميدا، لطالما ذاعت به التواريخ، وتناشدت به الأباعد والأقارب، وحين قال غورث: كن خير آخذ!

وحين أمكن الله تعالى نبينا صلى الله عليه وسلم من غورث، دعاه إلى الإسلام، سبيلا للعفو، فأبى وعلى عدة ألا يتعرض لنبينا صلى الله عليه وسلم، ثم راح إلى أهله فقال: جئتكم من عند خير الناس! وهذا أثر التعامل وحين كان راقيا، وهذه ثمرة الخلق وحين كان ساميا، وأنه لا محالة تارك أثرا عاليا.

ثانيا: خبر معالجة امــرأة: وعن معاذ بن جبل: أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن رجل أتى امرأة لا تحل له، فأصاب منها ما يصيب الرجل من امرأته إلا الجماع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يتوضأ وضوءا حسنا[1].

عن عبدالله بن مسعود: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، وها أنا فاقض في بما قضيت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك. فلم

---

(1) الاستذكار، ابن عبدالبر:302/1. حكم المحدث: فيه ابن أبي ليلى لم يلق معاذا ولا أدركه ولا رآه.

يرد عليه شيئا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق الرجل فأنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وأقم الصلاة الآية فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه فتلا عليه: وأقم الصلاة الآية، فقال رجل من القوم: هذا له خاصة. فقال: بل للناس كلهم عامة[1].

عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل أنه كان قاعدا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب امرأة لا تحل له فلم يدع شيئا يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصابه منها إلا أنه لم يجامعها فقال توضأ وضوءا حسنا ثم قم فصل قال فأنزل الله عز وجل هذه الآية { وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل } فقال معاذ بن جبل أهي له خاصة أم للمسلمين عامة فقال بل هي للمسلمين عامة[2].

وإذ أصاب رجل امرأة رجل من المشركين، يوم ذات الرقاع: ولأنهن كن سبايا يوم الناس ذلك، وإن هذا ليس تبريرا عاريا عن برهان، ولأن عبدا قد تصيبة لمة، وليعود ناهضا منكسرا مستغفرا تائبا أوابا، وليصبح كأحسن سيرته الأولى! وإذ ينزل فيه ومثله قرآن كريم إلى يوم الدين، وحين قال الله تعالى: **﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلىٰ غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾**.

هذا، وإن ديننا يتعامل مع نفوس بشرية، وإن كان يسمو بها إلى آفاق الخير والصلاح، إلا أنه ومن باب أنهم بشر، فإنما يسري عليهم قانون البشر، كصيام يوم أفطره، أو صلاة تركها، أو ذنب أعضله، وإنما كان هذا رحمة، وحين

(1) أحكام القرآن، ابن العربي: 27/3. خلاصة حكم المحدث: صحيح، وأخرجه مسلم (2763) باختلاف يسير.

(2) سنن الدارقطني، الدارقطني: 326/1 . خلاصة حكم المحدث: صحيح.

يعود إلى حظيرته، وكما قال الله تعالى ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ [الأعراف:201]. وسرعان ما يعود، وإن نقص إيمانه قدر ذنبه، إلا أنه ربما عاد كأحسن مما كان، ولازداد إيمانا مع إيمانه.

وكما أن فيه حلمه صلى الله عليه وسلم، وحين لم يعنفه، لطفا تزيا به، وفا تسربل به أيضا.

وكما أن فيه ضرورة أن تتحجب النساء، ولأنهن فتنة ضارة على الرجال، وكما قال صلى الله عليه وسلم: ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء[1].

وكما أن فيه صدق الصحابة الكرام، وحرصهم على ما يتزودون به، طاقة إيمانية، تنفر بهم عن إثم، وتحول بينهم وبين ما يكدر صفو تقواهم، أو يعيق سبيل رشدهم. وإذ ها هو يجثو بين يديه صلى الله عليه وسلم، معترفا بذنبه، ولهذا فسرعان ما نزل القرآن يربت على ذلكم صنف، كان هكذا قلبه متعلقا بالله!

تأويل سائغ: يجمع بين إصابة رجل امرأة يوم ذات الرقاع، وبين أنها كانت سبيا، لسبب القتال، وكان معمولا به وقتها؛ لجواب على: كيف تغيرون على امرأة؟!

---

(1) صحيح البخاري: 5096

أصاب صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع نسوة، وكان في السبي جارية وضيئة، وكان زوجها يحبها، فحلف ليطلبن محمدا ولا يرجع حتى يصيب دما أو يخلص صاحبته [1].

التعدي في الخصومة: وحين أصاب رجل امرأة مشرك فأقسم ليهريقن من دم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: وهذا تعد في الخصومة، ولأنه وإن لا بد فاعلا، فكان أمامه شكواه أمام النبي صلى الله عليه وسلم، وعندها كان سيجد جوابا شافيا، يزيل أثر حفيظته! أو على الأقل كان يطالب بعقاب من اقترف الذنب، وأما غيره فلا، وذلك لأن من مبادئ علم الجريمة المتعاقبة جيلا من جيل آخر، أن الجناية شخصية، وكما أن العقوبة شخصية أيضا، وهو مبدأ أصيل، أصله الإسلام قرآنا يتلى وحين قال الله تعالى﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾[فاطر:18].

ثالثا: خبر المرابطين: عن جابر بن عبدالله خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعني في غزوة ذات الرقاع - فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين، فحلف أن لا أنتهي حتى أهريق دما في أصحاب محمد، فخرج يتبع أثر النبي صلى الله عليه وسلم، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم منزلا، فقال: من رجل يكلؤنا؟ فانتدب رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال: كونا بفم الشعب، قال: فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع المهاجري، وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجل فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة للقوم، فرماه بسهم فوضعه فيه فنزعه، حتى رماه بثلاثة أسهم، ثم ركع وسجد، ثم انتبه صاحبه، فلما عرف أنهم قد

(1) كتاب الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، الساعاتي، أحمد بن عبد الرحمن:ج92/21].

نذروا به هرب، ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدم، قال: سبحان الله ألا أنبهتني أول ما رمى، قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها[1].

وقوله صلى الله عليه وسلم: من يكلؤنا هذه الليلة؟ وفيه استنهاض همم القوم لداعية بذلهم وجهادهم.

أي الليل أحب إليك أن أكفيك أوله أو آخره ؟! وحين انتدب أنصاري ومهاجري حراسة ثغرهم، يوم ذات الرقاع، وتسابقا أيهم يحرس أول الليل أو آخره، برهان أمة يتفانى أبناؤها، حراسة بيضة دينهم وإخوانهم.

إن تسابق صحابيين يوم ذات الرقاع على حراسة ثغر المسلمين، برهان أمة هممها كنجوم علوا، وكالجبال رسوخا، وكالقمم رفعة، وكالكرم جودا بنفوسهم.

إن اهتمامات صحابة نبينا صلى الله عليه وسلم، وعلى شاكلة حراسة ثغر، ورفع رمح، وتصويب نبل، يشي مراجعة الاهتمامات، يوم الناس، وكل يوم لتساير ولو بعضا كأسلافهم.

وإذ تجشم أنصاري حراسة ثغر المسلمين، يوم ذات الرقاع، وقام ليله مصليا، برهان عمل الصلاة فيهم، وحضورها في حاضرة قلوبهم، زاد تقوى وإلف جهاد معا.

---

(1) صحيح أبي داود، الألباني: 198

وها هو حارس ثغر ذات الرقاع، وإذ رمي بنبال ثلاث، وإذ هو يصلي، فلا رحمة من رام، ولا ترك صلاة من مصل! برهان بذل عجيب، وجأش غريب، لا غريب على مثل أنصاري فعل فعله هذا.

حراسة ليل وقيامه وترتيل قرآن!! كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها، حتى أنفذها! هذا فعل زاد تقوى الناس يومهم ذاك، فصلاته وقراءته تشغلانه عن نبال ثلاث أهرقت دمه!!!

وأيم الله لولا أن أضيع ثغرا أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها. وهذه طاعتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم، وهذا أثر صلاتهم وقرآنهم!

إن الصلاة وقراءة القرآن هما زادا المسلمين، وحين انقطاع الأزواد، ولأن أنصاريا رمي ثلاث نبال أهرقت دمه، فلم يقطع صلاته رغمها! وهذا تاريخ مسطر.

وفيه فضل المرابطة؛ ولأن رباطا في سبيل الله ولو ساعة خير من الدنيا وما فيها.

فعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها[1].

---

(1) صحيح البخاري: 2892

إن أحدنا ليغبط رجلا، قام ليله، حارسا ثغرا، ومصليا نفلا، وقارئا وردا، متقلبا بين أخيار نافعة، وثمار يانعة، يغترف منها أجرا، ويقطف من سبها فضلا.

إن التزود بزاد التقوى هو عمل الأبرار، ويوم أن وجدوا في ذلك حياة السعداء، ودأب الأولياء، تشميرا عن ساعدي جد عمل عال كعلوهم، سامق كمثلهم.

إن أمة فيها كمثل رجل، قام ليله حارسا مصليا قارئا، لاخوف عليها، ولأن الصالحين هم عنوان ثباتها وصبرها وحراستها وقوة شوكتها وأنفة شكيمتها.

رحم الله رجلا قام من الليل فصلى، وهذا الذي فعله رجل أمره نبينا صلى الله عليه وسلم بحراسة ثغره، فزاد الصلاة وقراءة القرآن؛ ليكون عنوانا لمن أتى بعده، تشميرا ونشاطا وجدا واتصالا بالله تعالى العلي الأعلى.

رابعا: خبر فرخ الطائر: عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بعض مغازيه فبينما هم يسيرون إذ أخذوا فرخ طير، فأقبل أحد أبويه حتى سقط في أيدي الذي أخذه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تعجبون لهذا الطير أخذ فرخه فأقبل حتى سقط في أيديهم والله لله أرحم بخلقه من هذا الطير بفرخ هذا[1].

قلت: هذه الغزوة المشار إليها هي غزوة ذات الرقاع، فقد اورد هذا الحديث الإمام العماد الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى سياقها[2].

(1) البدور السافرة السيوطي: 278. حكم المحدث: إسناده صحيح.

(2) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/ ٩٩

وإذ جاء رجل بفرخ طائر، فأقبل إليه أبواه أو أحدهما، حتى طرح نفسه في يدي الذي أخذ فرخه! وهذه مشاعر طيور نحو أفراخها، صورة توجب رحمة كرحمتها!

وحين ارتمى طائر في يد آخذ فرخه! قال صلى الله عليه وسلم: فو الله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه. هذه رحمة ربنا الواسعة، وأحدنا يعيش أملها، ويرجو عبقها.

فو الله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه: وفيه تحين فرص تقريب المعاني لدى القلوب، وذلكم أدعى سبيلا وأثرا، وأقوم طريقا وأينع ثمرا.

فو الله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه: وهذا القسم بالألوهية، وهذه الرحمة للربوبية، وهذه بلاغة نبوية، ومقسم به تعظيما، ومقسم عليه تحصيلا.

فو الله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه: وإذ قال نبينا صلى الله عليه وسلم قوله هذا وسط ساحة القتال، برهان استصحاب رحمة الناس بعضهم بعضا، كل أحيانهم، ولو وقت ضرب رقاب أعدائهم!

وإذ يجمع قوله صلى الله عليه وسلم: أتعجبون من هذا الطائر أخذتم فرخه، مع قوله صلى الله عليه وسلم: ردوا فرخها إليها. برهان وجوب الرحمة بالحيوان وغيره معا، وهذا ديننا.

وهذا الجمع برهان عدم جواز إيذاء الحيوان وغيره معه، وهذه بداهة في ديننا.

وهذا الجمع برهان أن كل مسلم جمعية رحمة بالحيوان قائما بذاته!

خامسا: خبر جمل جابر: عن جابر بن عبدالله: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات الرقاع مرتحلا على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما لك يا جابر؟ قال: قلت: يا رسول الله، أبطأ بي جملي هذا. قال: فأنخه، وأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: أعطني هذه العصا، أعطني هذه العصا من يدك -أو قال: اقطع لي عصا من شجرة- قال: ففعلت. قال: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخسه بها نخسات، ثم قال: اركب فركبت، فخرج والذي بعثه بالحق يواهق ناقته مواهقة، قال: وتحدث معي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أتبيعني جملك هذا يا جابر؟ قال: قلت: يا رسول الله، بل أهبه لك. قال: لا، ولكن بعنيه قال: قلت: فسمني به. قال: قد أخذته بدرهم، قال: قلت: لا. إذن يغبنني رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فبدرهمين؟ قال: قلت: لا. قال: فلم يزل يرفع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الأوقية، قال: قلت: فقد رضيت، قال: قد رضيت؟ قلت: نعم، قال: نعم، قلت: هو لك، قال: قد أخذته، قال: ثم قال لي: يا جابر، هل تزوجت بعد؟ قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال: أثيبا، أم بكرا؟ قال: قلت: بل ثيبا، قال: أفلا جارية تلاعبها، وتلاعبك قال: قلت: يا رسول الله، إن أبي أصيب يوم أحد، وترك بنات له سبعا، فنكحت امرأة جامعة تجمع رؤوسهن، وتقوم عليهن، قال: أصبت إن شاء الله، قال: أما إنا لو قد جئنا صرارا، أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذلك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها، قال: قلت: والله يا رسول الله ما لنا من نمارق، قال: إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملا كيسا، قال:

فلما جئنا صرارا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجزور فنحرت، فأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ودخلنا، قال: فأخبرت المرأة الحديث، وما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: فدونك فسمعا وطاعة، قال: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جلست في المسجد قريبا منه، قال: وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأى الجمل فقال: ما هذا؟ قالوا: يا رسول الله، هذا جمل جاء به جابر، قال: فأين جابر؟ فدعيت له، قال: تعال أي ابن أخي، خذ برأس جملك فهو لك، قال: فدعا بلالا، فقال: اذهب بجابر، فأعطه أوقية، فذهبت معه، فأعطاني أوقية، وزادني شيئا يسيرا، قال: فوالله مازال ينمي عندنا، ونرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمس فيما أصيب الناس، يعني يوم الحرة[1].

من كرامة نبينا صلى الله عليه وسلم ذلكم جمل جابر، وحين أبطأ به لينخسه صلى الله عليه وسلم، فيقوم مواهقا مسرعا، وكأنما هو ناقته صلى الله عليه وسلم جريا وعدوا، وهذا علم نبوة ضاف باعث ثباتا ويقينا.

اتخذ نبينا صلى الله عليه وسلم حيلة كريمة مع جابر، وحين عرض عليه أن يبيعه جمله، وظلا يتساومان إلى أن أخذه صلى الله عليه وسلم منه بأوقية! ثم رده إليه ومع الأوقية وزيادة!

---

(1) صحيح البخاري: 2097

وفيه جواز السوم والمساومة.

وكان من مناقب جابر أن والده حين استشهد في أحد، وترك له سبع بنيات، ليتزوج امرأة مسنة، تقوم على خدمة أخواته. وهذا حنانه وعطفه عليهن!

وإن هذا هو جابر بن عبد الله يطمئن والده رمقه الأخير على بنياته، وليبر أباه فيهن برا حسنا، آية ودليلا للناس، أن يتقوا الله في أخواتهن حقا واجبا.

إن زواج الشاب جابر من امرأة مسنة ترعى أخواته، كان عملا نبيلا بل كان النبل دونه! لأنه آثرهن إيثارا، وجبر بخاطرهن جبرا، وأحن عليهن حنانا! ورفرف عليهن طائرا يحنو على فراخه!

بل كان النبل واسعا سعة أفق السماء الممتد مد البصر! وحين حن نبينا صلى الله عليه وسلم على جابر، برد جمله إليه، وثمنه، يعينه على تربية أخواته، وإذ كان معدما.

إنه ستظل قصة جمل جابر حاضرة ما حضر تاريخ! ولأنه سعى بنخسة نبي، ولأنه بيع بأوقية، ولأنه رد إلى صاحبه جابر مع الأوقية، عونا وكفالة اجتماعية!

وإنه سيظل بر جابر بأبيه، وحين قام على أخواته، قيام أب حان، وحين آثرهن على نفسه، بزواجه من امرأة طاعنة، وإذ كان شابا، ولرب بكر يلاعبها وتلاعبه!

بـر نبينـا صلـى الله عليـه وسـلم جـابرا، وحـين رد جملـه وثمنـه، عونـا على أخواته، جبر خـواطر الضـعفاء، ألا يجـرح مشـاعرهم، وألا ينـزع مـاء وجـوههم، وهـذه أخلاق الإسلام الخالد!

كانت التساوم على ثمن جمل جابر، برهان جـوازه، وحسـب قـانون العـرض والطلب، وقانون حرية الأسواق، مبدأين عظيمين من مبادئ اقتصاد السوق.

اشـترى الله تعالى من والـد جـابر نفسـه! وبـأن لـه الجنـة! واشـترى نبينـا صلى الله عليه وسلم جمل جابرا! وبأن لـه جملـه ردا وثمنـه معـه!! وهـذه ألطـاف كفالتـه تعالى للمجاهدين!

لـم يكـن جمـل جـابر بـن عبـد الله مجـرد جمـل، بـل سـببا نبويـا لمضـاعفة، بـرا بجـابر ووالـده المجاهـدين، وأخواتـه الضـعفى، وبنخسـه صلـى الله عليـه وسـلم قـام ناهضا!

المبحث الثامن: غزوة بدر الآخرة أحداث ودلالات

وهكـذا يظـل يـوم أحـد حاضـرا سـلبا وإيجابـا عمـلا، ولمـا كانـت كـل غزواتـه صـلى الله عليـه وسـلم مـن بعـده تعبئـة واسـتعدادا لملاقـاة قـريش يومـا يسـتردون مجدهم وينكأون عدوهم.

وإذ خرج نبينا صلى الله عليه وسلم في شعبان يوم بدر الآخرة، تشبيها ببـدر الأولى، يقينـا بنصـر ربـه، وفـألا حسـنا بهـا، وهـذه تعبئـة عسـكرية، ليـرى المسـلمون نصرهم أمامهم. وبعد أن ساروا في مجد لهم كان عتيدا، هو هذا يوم بدر الكبرى،

يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، والله على كل شيء قدير. ﴿ وما أنزلنا علىٰ عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعانۗ والله علىٰ كل شيء قدير ﴾[الأنفال: 41].

إن التعبئة العسكرية الجادة هي التي تحكم عمل القوات المسلحة، وبحيث تقودهم هممهم، وتشرئب أعناقهم، إلى نصر مجيد، سبقه دفع وإنكاء مجيدين أيضا، وتشوفا لفضل ربهم العلي الأعلى سبحانه.

إن ربطا بين بدر الآخرة وغزوة ذات الرقاع؛ لأنها كانت مباركة في أحداثها، التي عبق نسيمها جوا عاطرا مطيرا بنصر مهيب، وكان مكتسيا ببركات غيمت سماءها.

وإذ لا يمكننا الفصل بين غزوة ذات الرقاع وبدر الآخرة؛ كما أنه ما أمكننا ذلكم فصل بينها وبدر الكبرى، لاستصحاب نصر فيهما، يعمل في الجند عمله، كعمل التسمية سواء، وهذا فن عسكري، وتوفيق إلهي.

ولعل مفارقة أن يتولى زمام المدينة يوم بدر الآخرة عبد الله بن عبد الله بن أبي! وهذه آية! أن يخلص ابن من لم يخلص أبوه! و﴿ **يهدي الله لنوره من يشاء**﴾[النور:35].

غاير نبينا صلى الله عليه وسلم كثيرا بين الأصحاب في تولية زمام يثرب، وهذا فن إداري، لتجديد الدماء، وتطوير الكفاءات، ولإحلال يتميز به العمل الإداري الصائب.

كان الفارق الزماني بين ذات الرقاع وبدر الآخرة شهرين ونصفا تقريبا، وهو نفس الفارق الزماني بين ذات الرقاع وبني النضير، برهان كفايته لإعادة التعبئة.

وإذ رجع نبينا صلى الله عليه وسلم من ذات الرقاع في جمادي الأولى، وخرج إلى بدر الآخرة في شعبان. بفارق زمني كاف لتعبئة عسكرية عدة وعتادا كافيين لأداء قتالي باهر.

إن التعبئة العسكرية الجادة هي التي تحكم عمل القوات المسلحة، وبحيث تقودهم هممهم، وتشرئب أعناقهم، إلى نصر مجيد، سبقه دفع وإنكاء مجيدين، وتمثلا يوم ذات الرقاع، بل وبركات السماء، وحين كانت عنوانا لها، وانظر إلى غورث بن الحارث، وحين تجاسر على مقام النبوة العالى السامق الرفيع الأبي العصي، وكيف أسقط في يده صلى الله عليه وسلم، منطرحا بين يدي نبي، كان العفو صفته، بل كان عفوا مدرارا! وانظر إلى جابر، وجمل جابر، وأخوات جابر، ووالد جابر، وزواج جابر، وما كان قد صنعته هذه الأحداث في قلوب القوم، ولأنهم رأوها رأي أعين رؤوسهم، فبعثت فيهم يقينا لا خبرا قد أعله الإرسال أو الوقف أو الاعتلال! فعملت فيهم عملا تعبويا رشيدا مجيدا، وحين علمت أن الحق لله!!

وإذ رجع أبو سفيان يوم بدر الآخرة، ولهذا عاد نبينا صلى الله عليه وسلم إلى يثرب دون قتال، ويبدو أن رجوع أبي سفيان كان لاحتمال علمه بخروجه صلى الله عليه وسلم لملاقاته بألف وخمسمائة جندي.

وفي مقارنة يسيرة، أنه كان جيش بدر الكبرى ثلث ألف تقريبا، وكان جيش بدر الآخرة ألفا وخمسمائة، أي زيادة بنسبة خمسة أضعاف تقريبا، برهان أمة تزداد شكيمتها، فيرهبون عدو الله وعدوهم.

وفي مشابهة بين بدر الكبرى والآخرة، أنه صلى الله عليه وسلم بادر قريشا فيهما، برهان أن الهجوم لاسترداد حق أدعى، وأن مباغتة العدو أنكى، لإفقاده توازنه.

وإذ يلاحظ زيادة عدد الجنود ما بين بدر الكبرى والأخرة بنسبة الخمسة الأضعاف برهان لزوم زيادة القوات، كيما تكون نظما فريدا؛ لتحقيق عامل الردع العسكري.

وإذ يلاحظ فارق زمني مقداره سنتان بين غزوة بدر الكبرى، وكانت في رمضان من السنة الثانية، وبين غزوة بدر الآخرة، وكانت في شعبان من السنة الرابعة هجرية، وليتحصل ذلكم الاتصال المعنوي بينهما، وخاصة إذا تأكد بوحدة الاسم لهما!

وإذ كان التخطيط العسكري لمجابهة الاحتمالات المختلفة واضحا يوم بدر الآخرة، وحين أخذوا تموينهم الكافي ذهابا وإيابا، لاحتمال عدم ملاقاة عدوهم، وهو الذي قد وقع.

وإذ تشابهت غزوتا بدر الكبرى والآخرة في عمل المنافقين تثبيطا، وعمل نبينا صلى الله عليه وسلم استنفارا، ليخرج الناس مبتهلين إلى ربهم نصرا قريبا، يعز فيه أهل طاعته، ويدحر فيه أهل معصيته.

وكان أن شهد يوم بدر الآخرة منافع، فتاجروا في ثمانية أيام، رزقا للعباد، وحين لم يلقوا قريشا، وهذا فن عسكري مجيد، وكيما لا تعود القوات بخفي حنين.

وإذ قال الله تعالى﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾[الحج:28]. وهذا في الحج، وقد وقع مثله يوم بدر الآخرة، وحين لم يلقوا عدوهم، فأبدلوها استثمارا، حتى ربح الرجل منهم بالدرهم درهمين!

وإن الربح بالدرهم درهمين يوم بدر الآخرة، برهان فضل أعمال التجارة كسبا حلالا، خير من أن يسأل أحدهم الناس أعطوه أو منعوه، وفيه عزة المسلم، وأن اليد العليا خير من اليد السفلى.

وإنه ليس يفهم من الربح بالدرهم درهمين يوم بدر الآخرة، بيع أضعافا مضاعفة، وإنما عمليات بيع متعددة بربح متعدد، فيحصل هذا، **﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ۗ والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾** [البقرة: 261].

عمل الفرصة البديلة: حصل هذا يوم بدر الآخرة، وحين لم يلقوا عدوهم فاتجروا فأربحهم ربهم، وهذا فعل النية الحسنة، يتقلب ذووها في فضل ربهم سبحانه!

﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ۗ والله ذو فضل عظيم﴾[البقرة:174]. وهذا ما يحصل للمسلم أبدا، وحين يكون قصده ربه، فينعم عليه بعافيته، ويتفضل عليه برزقه، وحين يقلب درهمه متاجرا، وليعود بالدرهم الواحد درهمين اثنين! **﴿ فضلا من الله ونعمة ۚ والله عليم حكيم﴾** [الحجرات:8].

﴿ واتبعوا رضوان الله ﴾: وإرضاؤه تعالى بفعل مراضيه، ومن مثل جهاد عدوه، ومنه ما حدث يوم بدر الآخرة، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، وإلى ما دعاهم إليه من اتباع أثر العدو، ومن ثم ينالون الفضل العظيم.

﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾: وهذه آية جامعة؛ ولأن النعمة هي العافية، والفضل هو التجارة الرابحة، والسوء هو القتل، وقد أنجاهم ربهم منه، وهذه ثلاث فيهن سلامة العبد، وسعادته ورغده وأمنه.

وإذ كان لحسن القصد أثره الحسن يوم بدر الآخرة، وفي كل مرة! ولأنهم رجعوا بنعمة عافيتهم، وأنهم تاجروا فربحوا، وكان فضلا، ولم يمسسهم سوء، فلم يقتلوا، وكان فضلا أيضا، وليكون فضله تعالى مضاعفا﴿ والله ذو فضل عظيم ﴾.

إنه حين يتبع المسلم رضوان ربه تعالى، فلسوف يغدق عليه مولاه بنعم العافية والرزق والسلامة أبدا، وبحيث يتقلب في نعماء ربه شاكرا، ليزيده فضلا، وكما قال تعالى **﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾** [إبراهيم:7].

﴿ والله ذو فضل عظيم ﴾: هكذا جاء الفضل مطلقا، ليعم كل نعمة مسداه، وليشمل كل منة مهداة، لتحيط عبدا، وحين كان قصده مولاه، متبعا رضاه، ومقتفيا هداه وسناه.

المبحث التاسع: غزوة دومة الجندل فنون عسكرية وأسرار تعبوية

وها هو الإسلام قد تطلع إلى أعالي الشام، وها هي دومة الجندل من قريب، وها هو نبينا صلى الله عليه وسلم، يتشوف شروق شمس الإسلام، إلى هناك، إلى حيث والي الروم قيصر، وإلى بلاد الروم!!!

إن دومة الجندل أرادت أن تطل برأسها، فراح إليها نبينا صلى الله عليه وسلم، وفي عقر دارها، ليكون عبرة لأحفادهم من بعد، فلا يرفعون رأسا أبدا!! وهذا مثخن سلفا، منكيء خلفا، وهذا فن عسكري!

وإذ وصل نبينا صلى الله عليه وسلم خبر دومة الجندل، يريدونه شرا، ففرقهم في الشعاب والوديان، وفي عقر دارهم، ولينتظر القيصر قدوم جنده قريبا! وبعد أن عمل نبيهم صلى الله عليه وسلم فيه، ومن طرف خفي! وهذا فن عسكري!

وإذ كان إرهاب العدو بغيره فنا عسكريا، وحين راح نبينا صلى الله عليه وسلم إلى دومة الجندل، يدكهم دكا، وحين أطلت رأسا، حان قطافها، وليسمع القيصر صرخات جيرانه! فتدب روعا فيه، يفقده توازنه!

إن دك حصون الباطل وقلاعه مهمة أيسر من اليسر نفسه، وحين يعزم جند مخلصون، أداة لقدر، كان مقدورا، فليهبوا، وسيجدون ملائكة سمائهم يظلونهم!

وإذ كان درسا عسكريا ممتازا، من دومة الجندل، وحين باغتهم نبينا صلى الله عليه وسلم، وفي عقر دارهم، هزيمة نفسية منكرة، وأمام صبيانهم ونسائهم، وجارهم القيصر!

وإننا لنشكر نبينا صلى الله عليه وسلم، ونثني عليه خيرا، وحين ترك لنا إرثا عسكريا مهيبا، وحين لم ينتظر عدوه، يروح إليه، بل سابقه إلى داره، وليعتبر أحفاده من بعده، وقيصر جاره أيضا!

وإذ أراد نبينا صلى الله عليه وسلم أن يدنو أداني الشام، وقيل له: إن ذلك مما يفزع قيصر: فزاده إيمانا بنصر مولاه، وتسليما بقدره وهداه، فهب هبته وإلى هناك!

إن قائدا كنبينا صلى الله عليه وسلم، لا يفت في عضده، قيصر،أو كسرى، أوكلاهما، ولأنه يحمل حقا، كان من سلطته وصفته، أنه يبطل باطلا، كان زهوقا، مدرسة للأجيال، أن حقا يحمل بين جنباته نصره ذاتيا!

إن مثبطا - ولو كان مخلصا - لا يجوز أن يفت في عضد قائد ماهر، بل يزيده إصرارا، وحين يعمل بحق، ليكون نور السماء حاديه، وليضحي شروق شمسها هاديه، في ظلام الغواية الحالك!

وإنه قد ذكر لنبينا صلى الله عليه وسلم، أن دومة الجندل جمع كبير، وأنهم يظلمون من مر بهم، وهم يريدون أن يدنو من المدينة، فخرج إلى كثرتهم بألف فقط!!!

وإنا كانت هذه الصفات الثلاث لدومة الجندل، ولربما أحدثت وهنا وخوفا، وإنما لم تزد نبينا صلى الله عليه وسلم إلا إباء وعزما وإصرارا، على اقتلاع خيامهم، وتشريد ذكورهم!

إن خروج نبينا صلى الله عليه وسلم إلى دومة الجندل، وعلى كثرتهم بألف فقط، برهان أن كثرتهم لن تغني عنهم شيئا، وأمام زحف قوى حق، كسيل جارف كل حصاة معه!!!

وإذ كان لنبينا صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى دومة الجندل بأكثر من ألف، لاسيما أنه خرج قبلها يوم بدر الآخرة بألف وخمسمائة مقاتل، وليمنح درسا، مفاده أنه ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ [البقرة:249]!

لم يرع نبينا صلى الله عليه وسلم، ولم يلتفت إلى كثرة عدد دومة الجندل، قدر أنه أيقنهم زبد بحر، يلفظ أنفاسه، وحين كمون عاصفة مرت به! وهذا شأن جنده تعالى أبدا!

إنه لو التفت نبينا صلى الله عليه وسلم - ولو التفاتة واحدة - إلى كثرة دومة الجندل عددا، فما خرج يوما لملاقاة عدو! ولأن سنة الله الماضية أن الباطل أكثر، وإنما كان هذا منه تعالى ابتلاء واختبارا! ولأنه تعالى قال ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [العنكبوت: 3].

كان نبينا صلى الله عليه وسلم يسير الليل، ويكمن النهار، في غزوه، ومنه ما حصل يوم دومة الجندل، برهان أن ليلا حالكا ستر بذاته، وهذا فن عسكري، يساعد على تخفي القوات المسلحة، وإن وجدت قنابل مضيئة! لأنه يظل الليل ليلا! ولأنه هذا خلقه تعالى، وما كان لأحد أن يوقف قدرا عن رحيله وسيره، أو أن يبطئ قضاء عن عدله! أو أن يفرق غيثا عن سيله! أو نجما عن ليله!

وإذ أخاف نبينا صلى الله عليه وسلم دومة الجندل ببني تميم، وأثناء طريقه إليها، ومرورا ببني تميم! وأخاف قيصر بدومة الجندل! فانتصر صلى الله عليه وسلم مرتين، في رحلة مجد واحدة، وهذا فن عسكري، حسن الاطلاع به! وليصير النصر نصرا مركبا مضاعفا!

وإذ خرج نبينا صلى الله عليه وسلم إلى دومة الجندل، ومعه دليل له من بني عذر، يقال له: مذكور، هاد خريت. برهان اتخاذ هاد من القوم، كان أعلم بشعابها، وهذا عمل جهاز الاستخبارات! وحين كان ذكيا، ولما كان فطنا، والأصل أنه كذلك، ولأنه يعمل على نور من ربه، وباسمه تعالى.

إنه وحين هجم نبينا صلى الله عليه وسلم على بني تميم، فرت دومة الجندل رعبا! وعلى كثرتهم! وهكذا يكون الكفر هزالا، وإن كثرا! وحين يلقى مهرة ثقالا بإيمانهم، لايهابون موتا.

كان إخلاء دومة الجندل ميدانهم لنبينا صلى الله عليه وسلم، ودون قتال، نجاحا باهرا، لخطة ردع عسكرية، وحين أخافهم بجيرانهم، من بني تميم! وهذا فن عسكري حسن!

وإنها لآية! وحين تخلي دومة الجندل ميدانها فارغا، ليملأه جند الله المغاوير، ودون إطلاق رصاصة واحدة، وهذا فن الردع العسكري: إزهاق العدو، وبأقل كلفة ممكنة.

وإنها لمعجزة! وحين أخلت دومة الجندل ميدانها، وليحل فيه جند الله، رافعين لواء نصرهم، وليعلم قيصر من بعيد! ليجهز يوم إخلائه ميدانه! وعن قريب!

وهذا بث رعب في الخصم، منقطع نظيره، وعز مثيله، من نبي بعثه الله تعالى نبيا، أميا للعامين، رحمة مهداة، ويحمل بين يديه مصحف هدايته، وبرهان نصرته، معا!

وإذ هرب أهل دومة الجندل، فنزل صلى الله عليه وسلم بساحتهم، و﴿فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾ [الصافات: 177]. فأقام بها أياما، وبث السرايا. تتبعا لآثارهم، وأينما وجد لهم جحر، وهذا فن عسكري، تطهيرا من رجسهم!

إننا وحين نسطر تاريخا هكذا مجيدا لنا، وإنما لأننا أهل حق وحسب، لا كبرا، ولا حسدا، ولا إغماطا، ولا فخرا، وإنما لأننا نرد كل أمرنا لله تعالى ربنا الرحمن سبحانه، وما حل بنا من نعمة، فإنها منه تعالى، فضلا علينا، ومنة منه إلينا - سبحانه -!

وأن يقيم نبينا صلى الله عليه وسلم أياما في ساحة دومة الجندل، ولا نفس يسمعه! فدل على كم كانت لأسلافنا ضراوة، قلعت خيام أعدائهم، فيحلوا محلها عزا ونصرا!!

وما أشبه ليلا ببارحته، وحين أجلى بنو النضير لخيانتهم، وحين أجلت دومة الجندل نفسها، لاستكبارها وعتوها على نبي، جاءهم بالهدى ودين الحق!

إن إقامة نبينا صلى الله عليه وسلم في دومة الجندل عدة أيام! ودون محاولة إخلاء واحدة، هذا ينبئ عن كم كانت قوة هؤلاء شكيمة، وحين أجلوا عدوهم، وبزأرة من هناك! من بني تميم!

لم يقم نبينا صلى الله عليه وسلم في ساحة دومة الجندل مجرد إقامة، بل حولها إلى مركز للقيادة والسيطرة! وكعريش يوم بدر الكبرى تماما! وبعثا لسراياه، وهذا إنكاء ما أشده! وكفن عسكري باهر ما أنكأ أثره!

﴿ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾! هذا الذي أصاب دومة الجندل، وعلى بعد أميال من صراخ بني تميم! وما بالنا لو نزل بساحتهم من قبلهم ؟!

وحين اعتقل محمد بن مسلمة رجلا من دومة الجندل، وعرض صلى الله عليه وسلم عليه الإسلام، فأسلم من توها، وهذا أثر انهزام العدو، ولعله أن يحسن إسلامه يوما، فكان خيرا له.

الباب الرابع: أحداث السنة الخامسة للهجرة

الفصل الاول: غزوة الخندق

تمهيد وتقديم:

يتابع هذا الدين، تحركات أعدائه، وعن كثب، ومن خلال أعين جنده البررة الساهرين المحتسبين، وحين قد توصل جهاز المخابرات، العين الساهرة الأمينة على مصالح الأمة، وأن هنالك تحركات، وشباك ينصبها أعداء الأمة، ومتمثلة في مشركي قريش والمنافقين ويهود، أحزابا كانت قد تكتلت، وتكاتفت، وخططت، ومكرت، وكادت، وبكأنها لم تكن وعلى علم أن الله تعالى يعلم سرهم ونجواهم! وأنه تعالى مكبتهم ومخزيهم ومحبطهم ومنكل بهم!

وفيه مباحث:

المبحث الأول: تاريخ الغزوة

قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا * وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون

إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا * ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا * قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا * قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا * قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا * أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا * يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا * لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا * ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما * من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا * ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما * ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا * وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا﴾ [الأحزاب:9-27].

قال البخاري رحمه الله تعالى: باب: غزوة الخندق، وهي الأحزاب.

قال موسى بن عقبة: كانت في شوال سنة أربع. واستدلوا بحديث ابن عمر، ومن حيث رده صلى الله عليه وسلم في أحد ثم أجازه في الخندق.

والجمهور على أنها في السنة الخامسة. والله أعلم.

المبحث الثاني: عبد الله بن عمر شاب يعرض نفسه للشهادة!

فعن عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ عرضه يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة، فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق، وهو ابن خمس عشرة سنة، فأجازه[1]

عن عبدالله بن عمر: عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيش وأنا ابن أربع عشرة فلم يقبلني فعرضت عليه من قابل في جيش وأنا ابن خمس عشرة فقبلني قال نافع وحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال هذا حد ما بين الصغير والكبير ثم كتب أن يفرض لمن يبلغ الخمس عشرة[2].

وهذه أمة تعلق أشبالها بالجهاد عامين كاملين!!

وحين يتعلق فؤاد شبل عمره أربع عشرة سنة بالجهاد، عامين كاملين، ولازال به معلقا، حتى يجيزه نبينا صلى الله عليه وسلم يوم الخندق، فهذه نوعية أمة كان هكذا أشبالها فما بال رجالها؟!

إن أمتنا بحاجة إلى إعادة النظر في تأهيل أبنائها، كيما يكونوا على مستوى عبدالله بن عمر، يوم أحد ويوم الخندق، ولحاجتنا لهم كثيرا، وما أكثرها!

(1) صحيح البخاري:3871

(2) صحيح الترمذي، الألباني: 1361. وأخرجه البخاري (4097)

وإنما يعاد إلى أبناء أمتنا تأهيلهم سلبا بمنع معوقات تأهيلهم مرئيا وغير مرئي، وإيجابا ببعث روح أمثال ابن عمر فيهم، وحين انتظر عامين كاملين لإيجازه.

وإنما تبدو المفارقة، وحين كان في عقد عبد الله بن عمر، أنه ذاهب إلى ساحة قتال! ويعني ذلك أنه قد لا يعود حيا، وإنما كان في عقده لا محالة أيضا قوله تعالى ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ۚ بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ [آل عمران: (169)].

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ۚ وكان الله بما تعملون بصيرا** ﴾ [الأحزاب:(9)]. هذا مستهل هو غزوة الأحزاب، لتتشوف نفس كل خير من ربها، ولئن كان من ساحات الوغى نصرا مؤزرا. وهو أيضا متضمن ختما لها، وأنه النصر المبين والفوز الكبير، وفى هكذا قصرها، وكما يبدو تتضمن سردا لغزوة هي من أهم غزوات التاريخ الإسلامي، وفي حيز هكذا، يكاد يعد حرفا حرفا، وبأيسر ما كان يسر، فهذا برهان إعجاز هذا القرآن، وحين تنزل هكذا، آخذا بمجامع القلوب، وحين قص علينا غزوة، وكأنما نعيش مراحلها المتباينة، رأي العين! وفي إيجاز بليغ، لا يبلغ حسنه إلا من أنزله تعالى!

وكأني بالغزوات الأمهات كالخندق، كانت تسبقها غزوات قصار أو سرايا، ولا أروح بعيدا إذا حسبتها بمثابة مناورات عسكرية، لتدريب الجند وإلهابهم.

وإذ سبقت غزوة دومة الجندل غزوة الأحزاب، ولعلها كانت بمثابة مناورة عسكرية مجيدة مهيبة، وإذ ضرب نبينا صلى الله عليه وسلم بحجر واحد عصفورين، فأثخنت في أهلها، وألهبت مشاعر الجند ليوم الأحزاب.

وإنه ليفاد من إجازته صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمر لعمر خمس عشرة سنة جواز تكليف الصبي من ههنا عمره! وعلى حد قول أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز عن هذه السن أنه: هذا حد ما بين الصغير والكبير[1]. وانظر شبابا جاوزوها، ولازالوا عبئا على أمتهم! ومن يحمل إصر ذلك؟!

وإذ كانت شرارة إلهاب قريش يوم الخندق إيعازا من يهود! وهذه أمة عجيبة، كأشد ما كان عجبا، وإذ هم يحملون أخبار صدق النبي الجديد صلى الله عليه وسلم، وأكثر من غيرهم! والفرض أنهم ومن هذا العلم مقتضى، أن يكونوا أول مؤمن به! لكن واقع حالهم ومقالهم، أنهم كانوا أول كافر به! وكما سجل الله تعالى عليهم موقفهم هذا، وبقوله سبحانه﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به۔ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون ﴾ [البقرة: (41)].

لم تعِ بنو النضير الدرس! وإذ لم ينس بنو النضير حرقة إجلائهم، ولما ناصروا قريشا يوم الأحزاب مرة أخرى، وهكذا نفوس لا يصلحها الإجلاء، بل الإخلاء، فلا يبقى لهم أثرا!

إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله[2]. هذا زعم يهود لقريش يوم الأحزاب! وحالهم كما قال تعالى ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ [التوبة:(126)].

---

(1) سنن الترمذي، الترمذي: ج ٣/١٢٧

(2) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ /٢٣٣

عمل الإرجاف: وإنه ليفاد من تحزب قريش ويهود ضد نبينا صلى الله عليه وسلم عمل المرجفين كل حين، لمناوأة الدعوات وأصحابها، وبأثواب تلائم المرحلة، وإذ لا يخفون علينا! بأماراتهم وبأفعالهم وسوابق عهدهم.

وحين تحزب الأحزاب ضد الدعوة الجديدة في يثرب، لم تقف دونها مكتوفة الأيدي، وإنما جابهتها بكل ممكن، حتى كتب لها النصر المبين، سننا وهديا أبديين!! وإذ كلما طلت أفعى برأسها ضربت أعناقها!

إنه لا يجوز أن تستسلم الدعوات لأعمال الإرجاف، وبحيث يكونون لقمة سائغة، بل إن حقا تلزمه قوة تحميه، من هكذا قوى غاشمة، لتردها على أعقابها، أو تثخن فيها قوى الحق الفاعلة، أو أن تباد فلا تقوم لها قائمة.

إن يوم الأحزاب دليل على إعداد عدة مكافئة، بل راجحة، لصالح المؤمنين؛ وكيما لا تطل قوى الإرجاف من جحورها، وإذ تحطمها على صخرة جحورهم!

وإذ قالت قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه[1]

إنه سيكون على يهود إثم قريش، وحين كذبوهم أن دينهم خير من دين رب العالمين، ولأنهم ساءلوهم فأفتوهم ضلالا مبينا، يعلمون كذبهم فيه!!!

---

(1) المرجع السابق: ج ٢ /٢٣٣

ولا ينقص ذلك من إثم قريش شيئا، ولأنه تعالى قال ﴿ **وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ۚ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ۖ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص** ﴾ [إبراهيم:(21)]. وقوله تعالى ﴿ **وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار**﴾ [غافر:(47)].

مزلق التعدي في الفتوى: إن التعدي في الفتوى نظام يجب حذره، ولأن فيه شبها بيهود، وحين أفتت قريشا، أن دينها خير من دين خير البرية صلى الله عليه وسلم، وإذ عندها علم الكتاب الأول!!

وانظر كيف أنه تعالى لم يعذر قريشا، بل وألقى التبعة عليها، وحين سايرت يهود في كذبها، أن دين قريش خير من دين الإسلام الخالد، برهان أن الأتباع حكمهم حكم متبوعيهم.

إن قرآننا عقد فصل تلاوم بين الأتباع ومتبوعيهم، ولما لم تسمع في ذلك دعوى هؤلاء ولا هؤلاء! برهان عدم الإخلاد إلى فتوى، ضررها أكثر من نفعها.

ألهبت يهود قريشا وغطفان وبني مرة، وأشجع. وهذه خمس جهات، فتحت على نبينا صلى الله عليه وسلم في يثرب! و تدبير ربنا ومكره قد سبق تفكيرهم ومكرهم! وإذ قال الله تعالى ﴿ **ويمكرون ويمكر الله ۖ والله خير الماكرين** ﴾ [الأنفال:(30)]. وقال تعالى ﴿ **إنهم يكيدون كيدا * وأكيد كيدا * فمهل الكافرين أمهلهم رويدا**﴾ [الطارق:15- 17].

إن دعوات وحين تبنى على صدق التوحيد وصحيح الاعتقاد، لا تهزها شعرة، كما لم تهز شعرة في جند نبينا صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب، وها هي خمس جهات تجابهه!

حفر الخندق فن عسكري ألمعي: وحين علم نبينا صلى الله عليه وسلم تحزب الأحزاب، بادر بحفر الخندق حول المدينة، برهان إعداد عدة على مستوى الحدث! ولأنه لا تغني غير جدة مع كيد لدين الإله الأعظم سبحانه!

يعود فضل حفر الخندق إلى سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه، وبه يفاد من تجارب الغير، وحيث يترتب عليها مصلحة راجحة للعباد، عاجلهم وآجلهم، وحين كان من وصفها أنها تعلو مصالح دونها، فضلا على أنها تعلو المفاسد كلها، وإن وجدت.

إنه كان يمكن لربنا تعالى إخبار نبيه صلى الله عليه وسلم، بنصره يوم الأحزاب، ومسبقا، وبريح لم يروها، وهكذا تحديدا! وإنما لم يكن ذلك؛ لحفز الناس، على فعل سبب واجب، وحينها يحل مدد السماء!

كان حفر الخندق يوم الأحزاب، برهان وجوب أخذ السبب، وعلى وجهه وهذا هو عمود التوكل عليه تعالى، وذروة سنامه، وألا يخالل مؤمنا تواكل أو غبشه.

إن الحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها فهو أحق بها، ومنه حفر الخندق يوم الأحزاب، وحين أشار به سلمان الفارسي، كإرث عسكري كان عندهم في بلاد فارس. وحين قال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا[1].

وإذ كان حفر الخنادق كمفهوم عسكري متداولا بين الأمم ولا زال، دلالة أهميته في حسم المعركة لصالح خصم، وحين واتته ظروف مشابهة أو مماثلة.

قال الطبري، والسهيلي: أول من حفر الخنادق منوشهر بن أيرج بن أفريدون، وكان في زمن موسى عليه السلام[2].

سماه من بعد جعيل عمرا   وكان للبائس يوما ظهرا

هذا ما ارتجزه المسلمون حين حفرهم الخندق، جواز ارتجاز حلال، يعين على أداء الأعمال.

وإذ كان صلى الله عليه وسلم يردد وراءهم(عمرا) و(ظهرا): مشاركة في حفزهم، وإجازة لفعلهم، وتطييبا لخاطرهم.

الأنصار والمهاجرون يد واحدة: وإنما شارك المهاجرون والأنصار نبيهم صلى الله عليه وسلم حفر خندقهم، وبأنفسهم، من جانب أننا أمة لها هبة ونفرة، وإذا دعاها مناد جهادها، في الله ربها.

---

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/ ٢٣٤

(2) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ١٨٣

وإنما أظهر نبينا صلى الله عليه وسلم رضاه عن فعل المهاجرين والأنصار، مشاركتهم حفر الخندق، وبقوله: اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر الأنصار والمهاجره. سننا وهديا.

فعن أنس بن مالك: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم، ويقولون: نحن الذين بايعوا محمدا... على الإسلام ما بقينا أبدا والنبي صلى الله عليه وسلم يجيبهم ويقول: اللهم إنه لا خير إلا خير الآخره... فبارك في الأنصار والمهاجره [1].

وإنما يحتاج القائد أن يطمئن على رضا مرؤوسيه عن عمله وطريقة سياسته، وهذا عمل إيجابي، يوقفه على نقاط قوته فيصقلها، وعلى نقاط ضعفه فيعالجها.

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

وهذه طمأنة جنده له صلى الله عليه وسلم، ولعل فيها ما يشحذ همته، ولعل فيها ما يشي طمأنته على وفاء مرؤوسيه وفنائهم في دينهم وطاعة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

إنه ليس يقال إنه صلى الله عليه وسلم قد أنشأ شعرا، يوم ارتجز حين حفر الخندق: ولأنه من باب سجع غير متكلف، وإن حبك على وزن الأشعار، وهذه مسألة اتسع فيها كلام، لست أرى كثير محل له.

---

(1) صحيح البخاري: 2835

لكن قوله صلى الله عليه وسلم: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة: برهان حث الناس على إخلاصهم لربهم كل حين، ومراقبة هذا في عملهم، وربطهم به، فيجيدون، وحين يخلصون.

فاغفر للأنصار والمهاجرة: هذه مهارة نبوية قاطعة. لاختيار أنسب كلام يشحذهما فكان هو الدعاء. والكلام صدرا وعجزا، أداء بياني، وإعجاز بلاغي.

قبل النظر عما إذا كان رجزه صلى الله عليه وسلم يوم الخندق شعرا أو غيره، وإنما ينظر في معان هكذا سامقة، تدفع دفعا إلى العمل، وربطا بالآخرة، ودعاء للباذلين.

وإذ كانوا يؤتون يوم الخندق بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة. هذا شعير مطبوخ بزيت، وهذا طعامهم رضا وقناعة، وحين لم يتأفف أحدهم!

وهكذا كان طعامهم شعيرا مطبوخا بزيت سنخ! أي زنخ! ورحم الله نفسا رضيت بهكذا طعام!

وماذا يسد رمقا مقدار كف أو كفين، لهكذا أمعاء تقوم بأعمال شاقة؟! لكنه الاحتساب!

كان نبينا صلى الله عليه وسلم ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه، أو أغبر بطنه! وهذا قائد هكذا كانت همته، وهكذا كانت مشاركته، ومعه يكون بذل جنده مضاعفا.

إن أمتنا بحاجة إلى قدوات تعتمل في نفوسهم هموم دين ربهم، فيخرجون يعملون وينشطون ويبذلون، وسط أقوامهم، استنهاض مكامن العطاء والخير فيهم!

إن تفاني الرعية أعمالها مرتهن بمدى قيادة جادة، وحين تقدمت صفوفها باذلة، دون ضن، وعاملة، بلا أف، راضية غاية الرضا، وهنا تبذل رعيتهم أوفى!

وهكذا كانت أعين الجند على نبينا صلى الله عليه وسلم، يوم الخندق، وصفا دقيقا لفعله، ورضا عنه، وليبذلوا كبذله، وإذ ما ظنك بقائد، هكذا عيون جنده عليه، إلا اقتداء.

كان من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم يوم الخندق صخرة أعيتهم، فنضح عليها ماء، فدعا فيه، فتحولت رملا كثيبا مهيلا! وهذا شحذ إضافي ضاف ألمعي آخر!

أعلام نبوة ضافية: عن البراء بن عازب: لما كان حين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا نأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء فأخذ المعول فقال: بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب

الثالثة وقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة[1].

وعن رجل من الصحابة: لما أمر النبي بحفر الخندق، عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر، فقام رسول الله، وأخذ المعول، ووضع رداءه ناحية الخندق، وقال: تمت كلمة ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم، فندر ثلث الحجر، وسلمان الفارسي قائم ينظر، فبرق مع ضربة رسول الله برقة، ثم ضرب الثانية، وقال: تمت كلمة ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم، فندر الثلث الآخر، فبرقت برقة فرآها سلمان، ثم ضرب الثالثة، وقال: تمت كلمة ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم، فنذر الثلث الباقي، وخرج رسول الله، فأخذ رداءه وجلس، قال سلمان: يا رسول الله، رأيتك حين ضربت، ما تضرب ضربة إلا كانت معها برقة، قال له رسول الله: يا سلمان، رأيت ذلك فقال: أي والذي بعثك بالحق يا رسول الله، قال: فإني حين ضربت الضربة الأولى رفعت لي مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة، حتى رأيتها بعيني قال له من حضرة من أصحابه: يا رسول الله، ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ديارهم، ويخرب بأيدينا بلادهم، فدعا رسول الله بدلك، ثم ضربت الضربة الثانية، فرفعت لي مدائن قيصر وما حولها، حتى رأيتها بعيني، قالوا: يا رسول الله، ادع الله أن يفتحها علينا ويغنمنا ديارهم، ويخرب بأيدينا بلادهم، فدعا رسول الله بذلك، ثم ضربت الثالثة، فرفعت لي مدائن الحبشة وما حولها

---

(1) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: 7/458. وأخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (8858)، والروياني في ((المسند)) (410)، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (3/421).

من القرى، حتى رأيتها بعيني، قال رسول الله: عند ذلك دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم[1].

وإذ كان من لطفه تعالى إظهار أعلام نبوة يوم الخندق، تكون زادا ونشاطا وزيادة يقين، برهان حسن البرهان والحجة، ولأنهما أدعى لصدق البذل والهمة.

وإذ قام نبينا صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وبطنه معصوب بحجر! ولبثوا ثلاثة أيام لايذوقون ذواقا! وتصوير هذا، وحين كان العمل الشاق يلزمه زاد طعام وشرب كافيين، وهؤلاء لم يجدوا ذواقا ولو واحدا، وصبروا.

قام نبينا صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وبطنه معصوب بحجر! وهذا كناية عن جوع، ودلالة عن صبر، وبرهان احتساب، وإشارة إلى قدوة، وعنوانا على بذل، يدفع الرعية دفعا!

المبحث الثالث: إجابة نبي دعوة ولي!

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا خلاد بن يحيى: حدثنا عبد الواحد بن أيمن، عن أبيه قال: أتيت جابرا رضي الله عنه فقال: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: (أنا نازل). ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب الكدية، فعاد كثيبا أهيل، أو أهيم، فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئا ما

(1) صحيح النسائي، الألباني: 3176

كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت تنضج، فقلت: طعم لي، فقم أنت يا رسول ورجل أو رجلان، قال: (كم هو). فذكرت له، قال: (كثير طيب، قال: قل لها: لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنور حتى آتي، فقال: قوموا). فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: (ادخلوا ولا تضاغطوا). فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز، ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: (كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة)[1].

وقال رحمه الله تعالى أيضا: حدثني عمرو بن علي: حدثنا أبو عاصم: أخبرنا حنظلة بن أبي سفيان: أخبرنا سعيد بن ميناء قال: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمصا شديدا، فانكفأت إلى امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصا شديدا، فأخرجت إلى جرابا فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتها، وطحنت الشعير، ففرغت إلى فراغي، وقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه، فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ فقال: (يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع سورا، فحي هلا بكم). فقال رسول الله ﷺ: (لاتنزلن برمتكم، ولا تخبزن عجينتكم حتى أجيء). فجئت

(1) صحيح البخاري:3875

وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتي، فقالت: بك وبك، فقلت: قد فعلت الذي قلت، فأخرجت له عجينا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: (ادع خابزة فلتخبز معي، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها). وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، إن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو[1].

هذان حديثان عظيمان صحيحان، رواهما الإمام البخاري رحمه الله تعالى، بيان فعل جيل، كان فريدا من نوعه، في يوم الخندق، ويبين منهما كم كان هذا الجيل فريدا، غاية في تفرده، وكم كنا نحن بحاجة إلى إعادة رسم خريطة طريقنا، إلا على هدي من هؤلاء، لنصبو رقيا إلى هناك، وإلى حيث القمم السامقة، التي تطاول عنان السماء، علوا ورفعة وسموا!

* * *

فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت: وهذا عمل الانضباط، وهو أساس النظام في القوات المسلحة، بل في نظام ديننا، بل في نظام العالم كله، ومن حيث قد خلق الله تعالى كل شيء بنظام محكم دقيق، ولقوله تعالى ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر**﴾ [القمر:(49)].

وبه يقيد المرء حركته، حسب مقتضيات ما يصل إليه من أوامر قائد الميدان، إن سلبا فلا يتأخر عن عمل كلف به، وإن إيجابا فيأتمر بكل ما يوكل إليه من مهام، وعلى وجهها؛ كيما تأتي المؤسسة عملها، وعلى أحسن وجه يكون الأداء.

---

(1) صحيح البخاري: 3876

وكان هذا عمل جابر رضي الله تعالى عنه، حين استأذن نبينا ﷺ إلى بيته لعمل كان قد رآه حسنا.

وإذ قال جابر لامرأته سهيمة بنت مسعود بن أوس الأنصارية: رأيت النبي ﷺ شيئا، ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ وهذا نبأ معاينة، لا مخابرة، وكيف كان صبرهم جميعا، وتراهم يعلوهم الرضا والقبول والتسليم.

وهذا برهان محبتهم لنبيهم ﷺ، وكأعلى درجاتها، مالم يحك تاريخ مثله.

وهذا إسناد أعمال المعيشة المنزلية للزوجة، وما أمهرها في ذلك، وحين تكون ذات دين، فتخشى ربها، وإذ هي ذات دربة، وسطا: فلا إسراف ولا تقتير.

وهذا كناية عن كرم جابر بن عبد الله بن حرام، رضي الله تعالى عنه، ومواساته، كأعظم صورها، وهذا مثال لذلكم جيل!

وهذه رحمة في قلوب العبيد بعضهم بعضا، وكجسد واحد في توادهم وتراحمهم. وإذ لم يصبر جابر على وضع رأى نبينا ﷺ عليه، وهو ذلكم عصب على بطنه ﷺ، من شدة جوع، كان منها ما فعله جابرا! وإذ كان من أثره قوله: رأيت بالنبي ﷺ خمصا شديدا.

وهذه شفقة وإيثار، أفرزا ذلكم تعبيرا، يحكي تجربة الصدق، في أوسع أبوابها.

وهذا كناية عن معرفته رضي الله تعالى عنه حال بيته، لكنها مشاعر الرحمة، وحين يخيم ظلها موقفا، كهذا الذي نعيش ظلاله، وبما قد تلاه تبعا.

وإذ قالت سهيمة بنت مسعود بن أوس الأنصارية امرأة جابر: عندي شعير وعناق! وهذا ما كان في بيت مسلم! رضي وقنع بقوت يومه! وكأنما قد حيزت له الدنيا! ويريد أن يطعمه كله رسول الله ﷺ! وضيفا أو ضيفين معه! وكيما لا يتبقى في بيت جابر لآله شيئ! ولأنه أبقى لهم الله ورسوله!

وإذ قال جابر: فذبحت العناق، وطحنت الشعير! وهذا يقين عبد بربه، وأنه لن يتركه هملا، وإنما عقده أنه تعالى كفل عبيده رزقهم، ولن يفوت نفسا رزقها.

قال جابر: فذبحت العناق، وطحنت الشعير(كله)!وهكذا أصبح بيت جابر وفي حس غير طاويا! وإن عقده أن خزائنه تعالى ملأى، ومقدر فيها رزق جابر سلفا!

وإذ وجه جابر دعوة نبينا ﷺ بقوله تملحا أنبأك عنه تصغير كلمة طعام: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان! وهكذا حدد جابر الطاقة الاستيعابية لطعام أعده يكفيه وآل بيته! وثلاثة الضيوف، وهذه مقاييس العبيد!

وإذ يفاجأ جابر بقدوم نبينا ﷺ، ومن معه! يوم حفر الخندق! وإذ بطونهم خاوية! وأمعاؤهم طاوية! ولسنا ندري كم كان يمكن أن يكفي قوم ألف!! أعيتهم أعمال الحفر، ولم يأكلوا شيئا منذ ثلاثة أيام؟! وهذا وضع يخيم بظلاله، على مشاعر جابر، وكعبد تسري عليه قوانين البشر!

وإذ قال جابر لامرأته: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم! جياعا ثلاثة أيام. وعلى مائدة قوامها بعض شعير وعناق واحدة!

والعناق: الأنثى من المعز.[1].

والعناق: بالتحريك...: الأنثى من ولد المعز إذا لم تستكمل السنة[2].

وإذ خيم الوضع بظلاله سهيمة أيضا! ولا غرابة! فإنها امرأة، تغلبها عواطفها، ولا تكاد تملك حيالها من أمرها إلا قليلا! وحين قالت لجابر: بك وبك!! وليبدو جابر مسيطرا على موقف، كان أقرب إلى الاحتدام، حكيما مهذبا كريما عفوا، ليبعث رسالة حلم ونبل إلى العالمين، ولما أسكتها بأمان، أنه نقل رسالتها، وحرفيا إلى رسول الله ﷺ! وبالتالي فإنه خارج المسألة! وإن أرادت - سهيمة - أن تعنف، أو تؤفف، أو تؤسف - وأنى لها - فدونها رسول الله ﷺ!!

ولم يزل نبينا ﷺ يكسر خبز جابر! ويغرف حتى شبعوا، وبقي بقية. وقال ﷺ لامرأة جابر: كلي هذا وأهدي! وهذا علم نبوة ضاف! وبركة طعام رجل آثر به عن رضا.

وليبث أملا كان معقودا على وجنتي سهيمة، أن الله تعالى رافع رأسها ورأس زوجها، في العالمين، ويوم أن جادا بكل ما يملكان! وقد كان في عداد الناظرين قليلا! وإن وضح بعد، أن وجوها أخر في المسائل، لتخفى على عبيد أمثالنا، وإنما الغيب غيبه تعالى، وإنما الإعجاز إعجازه سبحانه، وحين يكفي صاع شعير ألف عامل حافر! ولما لم يأكلوا شيئا ثلاثة أيام كاملة متتابعة! لا يفرق بينها فارق زمني، يهدئ من روع أثرها، وإنما عمل أثر الجوع فيه أثره، حتى وكأني بهم متزاحمين، ليأكلوا! وربك أعلم ماذا كان يمكن أن يكفيهم، وإذ جاء وصفهم بما

---

(1) لسان العرب، ابن منظور: ج ١٠/٢٧٤

(2) المصطلحات، إعداد مركز المعجم الفقهي: ص: ١٨٣٤

أنبأ عنه قول نبينا ﷺ: ادخلوا ولا تضاغطوا!! كناية كثرة عدد، ودلالة جوع مسيطر، متكامل الأركان، وبرهان نصب وجهد، كانا عنوانا على قسمات الداخلين من الأنصار والمهاجرين! وإذ ها هم يتضاغطون، لتؤدي معنى الازدحام وزيادته معه!

وإذ به بعثت روح الطمأنينة في جابر؛ لينحو نحوا آخر، راحة فؤاد، واستقرار لب!

إن كفاية بعض شعير، وماعزا صغيرة، لجموع المهاجرين والأنصار، ومن معهم، وبعد ثلاثة أيام حفرا، وجوعا، وإنما هي ظاهرة خارج التصور البشري، إلا لمن رأى! ولم نر! وكأنما نراها! ماثلة أمام أعيننا! وبكل حركاتها وسكناتها! وإلا لمن آمن! ونشهد الله أنا به لمؤمنون! مشهدا يند، وحدثا يعز!

وإذ كان شحذا لهمم الناس، حينا من بعد حين آخر، ولما يقفوا على ذلكم بعد إعجازي، لأعلام نبوته ﷺ، ولما يكف بعض شعير، وماعز صغيرة، لجموع غفيرة طاوية! وإذ بلغ تعدادهم ألفا!!

وإذ قال جابر في نفسه: إنا لله وإنا إليه راجعون! وحين أذن نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الخندق جميعا أن: يا أهل الخندق إن جابرا قد صنع سورا، فحي هلا بكم!! وإذ قال جابر لامرأته: افتضحت! جاءك النبي ﷺ بالجند أجمعين! فقالت: هل كان سألك كم طعامك؟ فقلت: نعم، فقالت: الله ورسوله أعلم! وهذا يقينها بربها، وبأنه صلى الله عليه وسلم قد أتى بأمر آخر، خارج دوائر الطاقة البشرية، والتفكير الابداعي الإنساني! وإنما كانت مائدتهما محلا له! وبه قضي الأمر!

وإذ قال جابر: فلقيت من الحياء ما لم يعلمه إلا الله! وحين فوجئ بجمع غفير، دعاهم نبيهم ﷺ، على صاع شعير وماعز صغيرة! لكنها بركة نبي، وغوث إلهي!، وجبر خاطر ولي، كان هو جابر بن عبد الله بن حرام صاحب الأخوات السبع، ورمز الوفاء الأوفي، وميزان الكرم الأعلى!! وسهيمة الوفية، تيكم الزوجة الندية، وحين أكرمت زوجها، على أي بذل كان حسنه مهيمنا ظاهرا، وعلى أي تفان كان نوره أخاذا باهرا!

إنه وقف التاريخ، وسيقف التاريخ مليا، أمام بركة نبي، قسم صاعا من شعير، وماعزا صغيرة، على أهل الخندق جميعا! ولا ننسى عدادهم ألفا! وبقيت بقية تكفي سهيمة بنت مسعود الأنصارية، زوجة جابر! وتهدي منها الناس يوما كاملا! وليقر قلبا جابر! ولتطمئن فؤادا زوجه الصالحة، الموقنة بوعد ربها سبحانه، وأنه تعالى لن يضيع عبدا، قد خلقه يوما، وإنما ضمن وقدر له رزقا حسنا!

إن زوجة كزوجة جابر، كان يقينها بربها، أن طمأنته، ويكأنها بثت في روعه أن الله معنا! وحين حل أضياف كثر، لا يكفي ثلاثة منهم صاع شعير! وإذ يكفيهم جميعهم! وإذ تأكل امرأته وتهدي الناس يومها كاملا!

وإذ قال نبينا ﷺ لجابر: استعر صحافا! وأي صحاف تستعار، أمام صاع شعير وماعز صغيرة؟! وهذا سؤال لا محل له، لأننا في حضرة نبي، له خصائصه مع ربه تعالى، وكان ما أثلج صدر جابر.

بيد أنه ﷺ وحين أمر جنده القيام معه إلى وليمة جابر، ليس يعد افتئاتا على ولاية جابر، وحين دعا جابر النبي ﷺ وواحدا أو اثنين معه. وذلك لأننا أمام

إظهار وجه إعجازي جديد، كان منه فعله ﷺ، وحين طمأن جابرا، باستعارة صحاف، وإذ جاءت جمعا على وزن فعال، كناية عن كثرة، ولأنه جمع كثرة!

وكذا قوله ﷺ: كثير طيب، فدل على أن شيئا إعجازيا سيحدث! وبالتالي فنحن أمام وضع، كان حدث جابر وفعله ودعوته ميدانا خصبا لتجاوزه، وعلى الأقل في مرحلة من مراحله؛ ليحل محله إثبات ذلكم الوجه الإعجازي والتحدي، المبهورين بمقاديره تعالى، وبالتالي أيضا يمكن القول بانتقال ملف المسألة برمته إلى حيث حقل المقادير الربانية الحكيمة.

وإذ كان قوله ﷺ عن صاع شعير، وعناق صغير: كثير طيب! وأي كثرة والصاع أربعة أمداد، يعني ما يعادل ثلاثة كيلو جرامات تقريبا! ونحن أمام زهاء ألف أو تزيد! برهان أنه قول باعث على طمأنينة جابر، وبث روح أمنه، وعدم إحراجه، وبكل ما يحمل ذلك من معان! ولأن هذا قول موجز بليغ مؤثر غاية التأثير، مطمئن إلى أقصى درجات الطمأنينة، وحين يتحول الصاع كثيرا! وبلا حصرا! وهذا جانب ضاف! ولأنه طيب، ولربما لم يكف الكثير لعارض، مما يعتري الكثير من عوارض، جرت بها العوائد!! فجاءت كلمة(طيب) لتبرئه من هكذا رواكد، ولترشحه من هكذا رواسب!

وإذ قالت سهيمة بنت مسعود بن أوس الأنصارية زوجة جابر: فلم نزل نأكل ونهدي يومنا أجمع! وهذا إعجاز خارج حسابات البشر، لأنه تعالى ذو القدرة المطلقة النافذة، ولأن نبيه ﷺ ذو بركة، منحة منه تعالى ومنة، إذ كفى صاع من شعير جمعا، كان مؤلفا من فريق العمل يوم حفر الخندق جياعا ثلاثة أيام كاملة

وبيت جابر وإهداء سائر اليوم! وكيما لا يكون أمام مشهد كهذا إلا الخرور سجدا لرب قادر كان هذا جزءا من مقاديره البالغة سبحانه!

وإذ قال جابر: جاءنا ﷺ بخلق على صاع من شعير وعناق! وهذه رواية البيهقي، أتم دلالة، أن هناك أمرا نبويا وراء ذلك، وأنه ﷺ ما كان ليحرج جابرا!

وإذ قال جابر لامرأته: افتضحت! جاءك النبي ﷺ بالخندق أجمعين. وهذا مجاز، علاقته المحلية، ولأن الذين جاؤوا هم أهل حفر الخندق، وليس الخندق، وهو كناية عن كثرة أيضا!

فما ﷺ زال يقرب إلى الناس حتى شبعوا أجمعين، ويعود التنور والقدر أملأ ما كانا! هذا ما حدث يوم وليمة جابر، وهذه بركة نبي، وعلم نبوة ضاف.

إنه وحين يكون العبد وليا لمولاه تعالى، وليوقن عندها أنه مبارك، ولتحل بركات السماء حوله، ليمشي في أرضه تعالى، وهو ذا العبد المبارك!

إن تسجيل التاريخ كيوم الخندق لجابر، أنه تعالى لا يضل ولا ينسى، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، شرط انخلاع العبد من ذات نفسه.

كان جابر وزوجه سهيمة عبدين ربانيين، وحين كفى خبز صنع من ثلاث كيلوات شعير ألفا، ما أكلوا ثلاثة أيام، وهم يعملون عملا شاقا، كان منه أن يأكلوا أكلا مضاعفا!

إن إعجازا باهرا، تم على يدي نبينا ﷺ، وحين حطت البركة رحالها بين يديه، ليأكل ألف رجل، وآل بيت جعفر، وجيرانهم، يوما كاملا، ولم ينقص شعير جابر.

المبحث الرابع: حفنة تمر تكفي ألفا!

علم نبوة ضاف: عن ابنة بشير بن سعد عن ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير قالت دعتني أمي عمرة بنت رواحة فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي ثم قالت أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما قالت فأخذتها وانطلقت بها فمررت برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألتمس أبي وخالي فقال تعالي يا بنية ما هذا معك قالت قلت يا رسول الله هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه فقال هاتيه قالت فصببته في كفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فماملأتهما ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب ثم قال لإنسان عنده اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغداء فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه وإنه ليسقط من أطراف الثوب [1].

أعطتني أمي حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما. وهذا غداء رجلين يوم الخندق!

وضع نبينا ﷺ حفنة تمر هي غداء اثنين في ثوب فامتلأ! فأكل أهل الخندق جميعهم ولم ينقص! والحديث وإن كان به مقال، إلا أن شاهده حديث جابر!

إعجاز رباني واندهاش عبد! إن ما حدث لجابر في صاع شعيره وعناقه، أو لابنة رواحة في كف تمرها من بركات يمكن حدوثه أبدا ولما يكون القوم على مثل جابر وابنة رواحة!

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: 4/100، وفيه انقطاع، ويشهد له حديث جابر السابق.

إن يوم الخندق كله كان معجزا وإذ ها هو صاع شعير جابر وعناقه وتمر ابنة رواحة وبركاته وضربه ﷺ كدية ثلاث مرات بكفه ليرى منها فتحا مبينا.

سلمان منا أهل البيت: فاحتق المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي - وكان رجلا قويا - فقالت الأنصار: سلمان منا، وقالت المهاجرون: سلمان منا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلمان منا أهل البيت. [1]. أي أرادوا نسبته إليهم، ولفضله عبدا ربانيا! وهكذا يتسابق أهل الفضل نسبة فاضل إليهم، حجة بالغة!

وإذ كان سلمان فارسيا، لكن عبوديته لله جعلته ميدان تنافس نسبته إلى أهل الخندق، برهان أن: كن عبدا ولا عليك، فإن الله مكتنف عليك أهل الأرض!

إن تسابق أهل الخندق، مهاجرين وأنصار نسبة سلمان إليهم، برهان أن هذه أمة نفضت عنها عيبة الجاهلية، ولما نفضها ﷺ بقوله: سلمان منا أهل البيت!

وإذ قال نبينا ﷺ: سلمان منا أهل البيت: برهان جواز إلحاق نسب من غيره لأهله، وأن هذا دين يعلو فوق التراب، ولأنه: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ۚ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ۚ إن الله عليم خبير** ﴾ [الحجرات:13].

«سلمان منا أهل البيت»، وانظر أثر هذا في سلمان، ولما يكون كله ولاء لهذا النبي والذين معه، وحين يتسابق جمع أهل الخندق عليه، ليلحقوه بهم!

---

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ /٢٣٥

«سلمان منا أهل البيت» وهذا إلحاق بآل بيت النبي، دون حقوق النسب كبنوة أو أبوة، وإنما هو وضع، يكافأ به من كان ذا سبق وفضل، كأشبه بمسائل بالجنسية.

المبحث الخامس: قال الله تعالى ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هٰذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ۚ وما زادهم إلا إيمانا وتسليما﴾ [الأحزاب:22].

وهو من مثل قوله تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ۖ مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتىٰ يقول الرسول والذين آمنوا معه متىٰ نصر الله ۗ ألا إن نصر الله قريب﴾ [البقرة:(214)]. فقلوبهم كجبال راسية، وكذا إيمانهم. وهذا جمعهم بين الآيتين عظيم، وإنما ينم عن فقههم وإنما يدل على كم كانوا يتوقون إلى الرضوان، وكم كانت تشرئب أعناقهم إلى الجنان! وكم هو برهان عن مزايلتهم عمل أهل الجحيم والنيران!

أو أنه - ولا يتنافيان - من باب ما رواه كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذكرت الأحزاب فقال: أخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها - يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى - فأبشروا بالنصر فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله، موعد صادق، إذ وعدنا بالنصر بعد الحصر[1]

﴿ وصدق الله ورسوله ﴾: هذا قول المؤمنين حين رأوا الأحزاب يوم الخندق، وقد جاؤوا من كل حدب ينسلون يريدون شوكة الدين، وإذ قال

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٢٣٦

المنافقون: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾ [الأحزاب: (12)]! وهذا فارق الفريقين. وأنه وحين ما زادهم النظر إلى الأحزاب، إلا إيمانا بربهم، وصدق وعده تعالى بنصره المبين، وهذا فارق بين مسلم مؤمن مصدق، وحين يتنزل أمامه قول ربه، وإذ لا يزيده إلا إيمانا وتسليما، وبين منافق، حرم لذة التصديق، وحلاوة الإيمان، ليعيش نكدا، بين شكه وريبه!

وحين صعبت صخرة يوم الخندق، فتناولها نبينا ﷺ بادئا تناولها بقوله: بسم الله: وهذا برهان بركة التسمية، حين يسير فيبارك، وحين شديد، فيلان كصخرة يوم الخندق!

حين يضرب نبينا ﷺ صخرة يوم الخندق ثلاثا، وتبدى أمامه نور ثلاث مرات، بتأويل فتح بلاد كسرى والروم وصنعاء، وهذا علم نبوة ضاف، وإذ قد حدث كلفق صباح.

الله أكبر قصور فارس ورب الكعبة: وهذا فأل حسن فقال عندها المنافقون: نحن نخندق على أنفسنا، وهو يعدنا قصور فارس والروم. وهذا عي مركب.

دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك وما تركوكم: هذا أمره ﷺ ولأن الحبشة قفار نائية ولأن الترك بلاد باردة إلا إذا جهلوا قطفت أعناقهم!

افتتحوا ما بدا لكم، فو الذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله محمدا مفاتيحها قبل ذلك.

من خصائص نبينا ﷺ: بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي.

إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها: فتحت آفاق وستفتح آفاق أخر ولأن هذه أعلام نبوة كفلق الصباح!

أنهى ﷺ حفر الخندق وقبل هجوم القوات المعادية وهذا فن عسكري مجيد لإعاقة سير العدو وتقدمه نحو ثغور المسلمين فيطمع الذي في قلبه مرض!

كان تقدير موقف الجبهة ممتازا يوم الخندق وإذ أخذ كل موقعه حسب أوامر مركز القيادة والسيطرة وبحيث لا ينفذ نافذ أو يتخلل متخلل فيزعزع صفا.

إن السيطرة على أرض الميدان هي فن عسكري أجاده نبينا ﷺ يوم الخندق وبحيث لا يمكن تخلل الخصم أو واحد منه جهته فيعمل عمله وينتج أثره!

إن إحكام السيطرة على أرض الميدان هي ألف باء مقدمات ضمان اتخاذ القوات نقاط هجومها وبعد إذ أمنت جهتها ألا ينفذ منها متخلل.

إن إحكام سيطرة القوات المسلحة يوم الخندق على أرض الميدان رافع معنوي ذو أثر بالغ يدفع الجند دفعا إلى إنكاء عدوهم حيث قد أمنت ثغورهم.

إن آثفة الأثافي ألا يحكم ميدان القتال وحين أمكن للخصم أن ينفذ ولو من كسم الخياط ولأن ذلك موهن صفا يتحمل وزره قائد الميدان وجنده معه.

كانت معركة الخندق غير متكافئة وحين هجمت قريش في عشرة آلاف مقابل ثلاثة آلاف مسلم! ورغم ذلك يحسم فيها نصر المسلمين رسالة أن العدد لا يحسم معركة!

إن المتباهين بحشود مملينة لا يغرنهم! فمقاتل واحد يعدلهم جميعا ولأنه داخل معركته بصدر مكشوف لنيل إحدى الحسنيين نصرا أو شهادة، وبه قضي الأمر!

ينظر إلى حفر الخندق كوسيلة دفاع وهجوم من الطراز الأول ولأنه بمثابة ساتر ترابي يسهل عمليات الكر والفر والمناورة والسيطرة على الجبهة.

نشأ ساتر ترابي عن عمليات حفر الخندق بمثابة إعلان عن حرية الحركة داخل الميدان وبعيدا عن أعين الخصم فلا يمكنهم رصد صفوف القوات المسلحة.

كان من توفيقه تعالى تلكم الموانع الطبيعية حول المدينة من جهات ثلاث أتم الخندق موانعها من جهاتها الأربع قدرا مقدورا وسببا ميمونا!

تم حفر الخندق خلال ستة أيام! برهان سرعة تنفيذ المهام الموكلة إلى القوات المسلحة للنظر في خطوات لاحقة يستدعيها الميدان متوقعة وغير متوقعة.

لا ننسى انضباطا تميزت به القوات المسلحة يوم الخندق وحين لا يخرج أحدهم لقضاء حاجته إلا بإذن! كيما يوفق القائد أمره فلا يبغت بخلة في صفه!

لا ننسى إشرافا شخصيا من نبينا ﷺ على أعمال حفر الخندق برهان اطلاع القائد على نقاط التمركز الاستراتيجية بنفسه!

لا يفوتنا التنويه بتقسيم مجموعات العمل يوم الخندق وحسب اتفاق العادات أو اختلافها فنا إداريا ممتازا كيما يحصل التوافق ويمنع الاختلاف.

أمر نبينا ﷺ يوم الخندق بالذراري والنساء، فجعلوا فوق الآطام. أي الحصون كفن عسكري به تأمين الجبهة الداخلية لجهة الضعفة فلا يأسرهم الخصم.

استعمل نبينا ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم يوم الخندق ويبدو أن هذا رجل مبارك ولأنه تولاها سبع عشرة مرة! ولا ننسى رفع معنوياته من عتاب سبق!

اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم: هذا دعاؤه ﷺ يوم الأحزاب، فمهما اتخذت من حصون فلا تنس الركن الأوفى!

قال كعب القرظي: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه. يبقى ذو وفاء في صفوف الخصم فاستفد منه.

إن في صفوف الكفار ذا مروءة، ولا يقبل ضيما، ويحفظ عهدا، ويتبقى علينا حبك، كيف استثماره، ومن مثل النجاشي وعمرو بن سعد وكعب بن أسد القرظيين.

قال كعب بن أسد القرظي: ولم أر منه - نبينا ﷺ - إلا وفاء وصدقا[1]. وهذا رصيد المسلم كل حين، نور يهدي، وخلق حميد، وسمت رشيد، يبقى حاضنة للخير والعدل أبدا.

---

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/٢٣٧

إن داعية خيروجب أن يكون هو الثوب الأبيض، فينعكس هداه على كل مار، ويطال هداه كل سالك، فلا يرون منه إلا كل شيء حسن، وأما الشر فلا يعرفه!

وإنه كثيرا ما يعرض استفزاز عفوي، عابر أو مقصود، وواجب السالك أن يدير له ظهره، ولأنه باعث خيرا، وباث هدى، وناشر نورا، ولا وقت لديه يقضيه في غير ذلك!

ولازال حيي يستميل كعبا ولا يحرك شعرة: جئتك بقريش على قادتها وسادتها وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه[1] قال كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه، يرعد ويبرق وليس فيه شيء، ويحك يا حيي! فإني لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا[2].

إن قلبا ينبض، وإن وريدا يئن، ولماذا هكذا يهود؟! وإذ بينهم وبين نبينا ﷺ عهد، وكان على الأقل إن لم يناصروه للعهد والميثاق المبرم بينهما، فلا أقل من أن يتركوه وشأنه!

إن يهود فعلهم شين، وليس يعرفهم زين! ولأنهم ينفضون عنهم كل خلق حميد، وإذ يرون أنفسهم في حبك الكراهية، وبث فنون العداء بين الناس!

﴿أوكلما عٰهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾؟! [البقرة: 100]. هذا شأن يهود! وهذا طبعهم مغروس فيهم، إلا أنه يند عنه كمثل كعب وأخيه سعد القرظيين! ولتكون حجة دامغة!

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣/ ٧٠٥

(2) المرجع السابق: ج ٣/ ٧٠٥

إنه كان على يهود يوم الأحزاب أن تنصر نبينا ﷺ، لا أن يكونوا ضده في صفوف قريش! وحين يخرجهم أذلة، ومن عند أنفسهم يقولون: ها هو محمد يخرجنا!

كان حيي بن أخطب واسعا باله، فظل بكعب بن أسد القرظي، حتى نقض عهده مع نبينا ﷺ، وهذا برهان عمل الآلة الإعلامية السلبية، فتنة وابتلاء، مما يلزم مواجهتها، وبآلة إعلامية أشد وأقوم.

أرسل نبينا ﷺ وفدا ينظر خبر نقض يهود يوم الخندق، على أن يوافوه سرا حين كان صحيحا، أو علانية حين كان كاذبا، وهذا عمل جهاز المخابرات دأبا.

لا تفيد يهود من تجارب مرت، وكذا كل مضيع للحدود، ويوم أن رفعت بنو قريظة هامة نقض عهدها يوم الخندق، كما بنو النضير وانتظارا لما حل بهم مثلهم.

قال سعد بن معاذ: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير، أو أمر منه(1). وهذا تذكير بسنن الله تعالى الماضية، ولعلهم ينتهون.

أكلت أير أبيك! هذا رد بني قريظة، على تذكير سعد بن معاذ إياهم، بالتزام صوابهم، ألا ينالهم مثل ماحل ببني النضير، وهذا كشف عن سوء خلقهم وقد تسربلوا به.

---

(1) دلائل النبوة للبيهقي: 1292

وحين قالت يهود لسعد بن معاذ: أكلت أير أبيك. فقال: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن [1]. وهذا كاشف عن حكمة سعد وحسن خلقه، إحسانا لإدارة الخلاف!

إن إدارة الخلاف مهارة، نسجها توفيقه تعالى للعبد، ويوم ألا يسيء، كما يسيء أحدهم، بل إذا أحسنوا أحسن، وإذا أساؤوا تجنب إساءتهم. كسعد بن معاذ مع يهود.

إن إحسان إدارة الخلاف أن يزال أو تضيق مساحته فن إداري وواجب شرعي، حفظا للمروءات، ويزيد المرء نبلا، ويرفع درجته؛ لأنه حسن خلق حميد.

إنه لو كان سعد بن معاذ رد كما ردت يهود أو قريبا منه لا تسعت هوة خلاف، كان غنيا عنها، وهذا نبل خلق، وتفرد إحسان، لحسن إدارة العلاقات بإيجابية.

قالت يهود: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد! فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه! [2]: وهذا غضبا لنبينا ﷺ، ولئن كان له أن يمسك أولى، موجب حسن الخلق.

حين تشاتم سعد بن معاذ ويهود قال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم لما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة! [3]. وهذا حق مسلم على أخيه، نصحا لرده.

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/ ١١٩

(2) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢٣٨/٢

(3) المرجع السابق: ج ٢٣٨/٢، عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس: 38/2

أتبع السيئة الحسنة تمحها: هذا خلق ديننا وما أجمله حين يكون رداء جمال لصاحبه وكما كان السعدان مع يهود! سعد بن معاذ وسعد بن عبادة.

فعن أبي ذر الغفاري: اتق الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن [1].

حين قالت يهود: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمدا! [2]. هكذا بجرة قلم واحدة، ينكثون عهدهم! وكل فاعل فعلهم كمثلهم! وكل ناقض نقضهم كشبههم!

حين قالت بنو قريظة: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد! هكذا يعلنون حالة الحرب، وموجب ذلك حصارهم وإجلاؤهم، كما فعل بإخوانهم بني النضير.

حين قالت يهود: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمدا! وإذ كان عهد وميثاق! وحين يحاصرون أو يطردون جاؤوا يبكون وهم يقولون: ظلمنا المسلمون!

حين قالت يهود: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمدا! فقال نبينا ﷺ: الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين. وهذا إيذان بنشوب حرب، حسمت سلفا ولصالح المؤمنين.

قال سعد بن معاذ: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير، أو أمر منه [3]. وهذا تذكير، ولعلهم ينتهون.

---

(1) صحيح الترمذي، الألباني: 1987

(2) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣ / ٧٠٦

(3) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ١١٩/٤

تقنع نبينا ﷺ حين جاءه خبر نقض بني قريظة، ومكث طويلا، فاشتد البلاء والخوف، وعرف الناس أن لم يأته عنهم خير، برهان أن القائد عمود ميدانه.

يبدو أن إعلان بني قريظة نقضهم عهدهم مع نبينا ﷺ كان بمثابة إطلاق شرارة الحرب الأولى يوم الخندق، ولأن خطرهم أقرب، لاعتبار سكناهم يثرب.

اهتم نبينا ﷺ لإعلان بني قريظة نقضهم عهدهم، ولأن هذا يمس ولو من طرف سلامة الجبهة الداخلية، لأنهم ساكنو يثرب، وربما هذا ما خفي على جنده.

إذا كان قد ظهر اهتمام نبينا ﷺ نقض بني قريظة عهدهم، إلا أنه لم يدم طويلا حتى رفع رأسه قائلا: أبشروا بفتح الله ونصره. لتنكشف غمة خيمت قليلا.

حمي وطيس يوم الخندق، حين أعلنت بنو قريظة نقضها عهدها مع نبينا ﷺ، برهان أنه حين حل صباحهم تراموا نبالهم وحجارتهم، وكان هذا سلاحهم يومهم هذا.

اللهم إني أسألك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد: اعتدنا هذا الدعاء من نبينا ﷺ، حين غزوات عظام، كانت فاصلة في تاريخ أمتنا، برهان لزوم هذا الدعاء، وكلما حمي وطيس يوما.

وإذ حمي وطيس يوم الخندق، وعظم البلاء، واشتد الخوف، وإذ أتى العدو من فوقهم ومن أسفل منهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحاجر وظنوا بالله تعالى الظنونا، وكما قال تعالى﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴾[الأحزاب:10].

وقت حمي وطيس يوم الخندق نجم نفاق، مطلا برأسه، فهذا يزعم بيته عورة، وما هو بعورة، وهذا يريبه أنا سنأكل كنوز كسرى وقيصر، ويثبت المؤمنون!

إن المعارك هي مفرزة الناس الأولى، وإذ حينها تتكشف سوءات قوم منافقين، وإذ فيها يذود مخلصون عن دينهم، باذلين كل غال ورخيص، بل كله رخيص في سبيل ربهم الحق سبحانه.

وإذ حاصرت الأحزاب يثرب نحو شهر، فاشتد البلاء على نبينا ﷺ، حتى طلب صلحا، يمنحهم بموجبه ثلث ثمار المدينة! وفيه جواز الصلح لدرء مفسدة أكبر هي الهلكة.

كان في عرضه ﷺ الصلح يوم الخندق موازنة بين تحصيل مصلحة أعلى هي الصلح فضا لحصار دام شهرا بفوات مصلحة أدنى هي منحهم ثلث ثمار المدينة.

إن ديننا ليس جامدا، لا حراك له، وإنما حسب مقتضيات المصلحة العامة للأمة، ليدور معها القائد حيث دارت، ومنه عرض صلح يوم الخندق، وبقدره سننا متبعا حين تواتي ظروف مثلها، وهديا نبويا ولما تقع أحوال مشابهة.

على أنه ورغم ميله ﷺ للصلح مع الأحزاب يوم الخندق، إلا أنه استشار السعدين - سعد بن معاذ وسعد بن عبادة - رضي الله تعالى عنهما - قبل إصدار قراره، وهذا برهان عظمة قائد، لا ينفرد بقرار، وإنما ليشيرا عليه أن: لا!

إن قائدا يستشير رعيته المخلصين منهم، برهان أنه يعمل بهم، وبعدد عقولهم جميعا، لا عقله وحده، فتغيب مسائل، قد تفوت، أو تحصل بها المصلحة.

إن إشارة السعدين - رضي الله تعالى عنهما - على نبينا ﷺ ألا يطلب صلحا يوم الخندق، برهان همة نافذة، ودليل أمة راشدة، وحين يكون فيها من يشير على قائدهم أن: لا!

وإذ كانت إشارة السعدين ألا صلح يوم الخندق، برهان إعزاز قائد الميدان، وبعث همة فيه، من قوم أولي بأس شديد، ومن أولاء صحب كرام قد باعوا نفوسهم لله، ولأن المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم.

إنه لتهنأ أمة قال فيها السعدان لنبيهم ألا صلح مع من كانوا لا يطمعون من ثمر المدينة إلا كراء، وحين كانوا كفارا كمثلهم، وإذ يحال عليهم أن يطئوها، وحين أسلم الناس وجوههم لله!

إن الإسلام يمنح صاحبه أنفة مركبة، لا يعتورها كبر، وحين كان زاد السعدين من نصيبها أكبر، ولما أقسما ألا يمنحا خصمهم من ثمر يثرب شيئا!

إن القائد بحاجة إلى من يقوي من عزيمته، وكمثل السعدين حين شدا من أزر نبيهم ﷺ، وأشركاه في أمره، كهارون وموسى، وحين قال الله تعالى﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون ﴾[القصص:34]. سنة ماضية، لا تتخلف، ولا تتأخر.

أنت وذاك: بهكذا رضا نزل نبينا محمد ﷺ على رأي السعدين يوم رفضا صلحا عرضه ﷺ يوم الخندق، رأياه غبنا، وإنما هذه أسباب دربة وخبرة، وتداول

للرأي والرأي الآخر، وإذ كان يمكن أن تكفينا السماء هم ذلك، وإلا كان قد نزلت فيها السماء بثقلها، بيانا وتوجيها، عهدا ميمونا.

ليس يقال: ولم لم يلجأ نبينا ﷺ إلى السماء طالبا عونها يوم الخندق في صلح لإقراره أو رفضه؟ وإن ذلك لم يحدث - في نظرنا - لئلا يقال يوما من أجيال لاحقة: وها هي السماء كانت عونهم، ولا عون لنا، وبالتالي فنحن في حل مما لحق آنفا بنا، أو قد أحاق بنا! وهكذا تحسب السماء حسابها، وهكذا تبرم أمرها، وليكون الناس أدرى بأمور دنياهم ومعاشهم تدريبا وخبرة.

﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴾[الأحزاب:10]. هذا وصف لا وصف يدانيه ليوم الخندق!

أرهب سعد بن معاذ يهود بأيام الله تعالى فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير، أو أمر منه [(1)]. وهذه براعة عسكرية، وتلك حنكة حربية؛ لا ستدعاء ما حل بأمم مثلهم، ولعلهم يرعوون، فيؤبون إلى صوابهم أو قريبا منه، وليفت في عضدهم؛ ولهم يتقون أو يحدث لهم ذكرى!

إنه وحين رأت قريش الخندق قالت: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها [(2)]. ومنه فإن الإبداع في فنون القتال، ومباغتة الخصم به، فاعل فيه، ويفقده التوازن.

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣/ ٢٠٠

(2) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣/٧٠٨

إنه لا بأس باستعراض القوى أمام الخصم، بل واجب؛ لإرهابه، لكنه وجب ألا يعرف كل ما لديك، فلا يتمكن من مواءمة قواته، وإعادة ترتيب صفوفه؛ ليكون ميزان القوة لصالحك!

إن كشف أساطيل القوة كلها أمام الخصم، ليس فنا عسكريا، لأن ذلك يمنحه فرصة مراجعة خططه، استجابة لتغيرات الميدان، وحين كانت سماء المعركة مكشوفا له! وحين كانت أرضها منبسطة سهلة أمامه! ومنه: اجعل بعض قوتك سرا!

إنه يجب وكما حدث يوم الخندق، أن تسيطر على سماء معركتك بعناصر مفاجئة مباغتة، يدور حوالها الخصم، دوران الثور بالساقية، فليس يملك من أمره شيئا.

وإذ تيممت قريش مكانا من الخندق ضيقا، وإن هذه ثغرة، كان يمكن أن تنفذ من خلالها الأحزاب، وحتى يمكن من بعد مراقبة التحصينات جيدا؛ كيما لا يجد خصمك منه منفذا.

إنه يبقى حفر الخندق عملا بشريا، ومنه شبه ثغرة، فاتت المؤمنين، كان يمكن منه فعل الأحزاب فيهم، لكنها إرادته تعالى، وأن واجهوا أرضا سبخة غارت فيها خيولهم!

ولعل ثغرة فاتت، وليست بفائتة! فيمكن أن تركوها المؤمنون فخا! يصيدونهم منه! وحين تنغرس أقدام خيولهم فيه! وهذا فن عسكري ممتاز، حسنت إدارته أبدا.

وإذ ما كان لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، إلا أن يقتحم على قريش ثغرة، نفذوا خلالها، حتى كبدوهم ويلا، وحين أنشبوهم نبالا، وحين جالت خيولهم استسلاما، ليوم إنفاذهم فيهم!

وسبحان الله وتعالى! فكثيرا ما تتحول أرض المعركة لينة طائعة سهلة يسيرة للمؤمنين! وحين غاصت بقوائم خيول الكافرين، ولأن النصر من عند الله العزيز الحكيم.

كان تنازل علي وعمرو بن ود، وتجاولهما يوم الخندق، برهان فن عسكري باهر، تمتع به علي، وحين ألهب خصمه، نزاله مع كلام هده هدا، فخار قبل نزاله!

من أمجاد القتال في الإسلام: مبارزة علي بن أبي طالب عمرو بن ود نموذج

ذكر الحافظ البيهقي في (دلائل النبوة): عن ابن إسحاق في موضع آخر من السيرة قال: خرج عمرو بن عبد ود وهو مقنع بالحديد، فنادى من يبارز؟ فقام علي بن أبي طالب فقال: أنا لها يا نبي الله. فقال: «إنه عمرو اجلس»! ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟ فجعل يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها، أفلا تبرزون إلي رجلا؟ فقام علي فقال: أنا يا رسول الله؟ فقال: «اجلس». ثم نادى الثالثة فقال:

ولقد بححت من النداء ... لجمعهم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع ... موقف القرن المناجز
ولذاك إني لم أزل ... متسرعا قبل الهزاهز

إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

قال: فقام علي رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أنا. فقال: «إنه عمرو». فقال: وإن كان عمرا. فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه حتى أتى وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
في نية وبصيرة والصدق منجي كل فائز
إني لأرجو أن أقيـ م عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

فقال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علي. قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب.

فقال: يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك، فإني أكره أن أهريق دمك؟ فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك، فغضب فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو علي مغضبا واستقبله علي بدرقته، فضربه عمرو في درقته فقدها، وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجه، وضربه علي على حبل عاتقه فسقط وثار العجاج، وسمع رسول الله ﷺ التكبير، فعرفنا أن عليا قد قتله، فثم يقول علي:

أعلي تقتحم الفوارس هكذا عني وعنهم أخروا أصحابي
اليوم يمنعني الفرار حفيظتي ومصمم في الرأس ليس بنابي

إلى أن قال:

عبد الحجارة من سفاهة رأيه وعبدت رب محمد بصواب

قال: ثم أقبل علي نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلل، فقال له عمر بن الخطاب: هلا استلبته درعه، فإنه ليس للعرب درع خير منها؟ فقال: ضربته فاتقاني بسوأته، فاستحييت ابن عمي أن أسلبه، قال: وخرجت خيوله منهزمة حتى اقتحمت من الخندق[1].

تمثل مبارزة علي عمرا مثالا للعسكرية الإسلامية النافذة، في وقت نحن بحاجة إلى إحيائها في نفوس أمتنا من جديد، وها هو الشر يكشر أنيابه!

اختبر نبينا صلى الله عليه وسلم عزيمة علي بن أبي طالب، يوم مبارزة عمرو بن ود، عاملا في استجاشة ضمائر المقاتلين، لينفذوا في عدوهم إنكاء، لا تعرفه هوادة، وهذا فن عسكري!

حين أجهز علي بن أبي طالب على عمرو بن ود، سأله الفاروق: لِمَ لَمْ تسلبه درعه، وليس في العرب مثله؟ ليرد أنه اتقاه بسوأته، فاستحى لذل علي، وهذا خلق نظام مسلم أبدا.

حين أجهز علي على عمرو بن ود، خرجت خيوله منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق. برهان أن قائد القوم إذا سقط سقطوا من خلفه، وهذا فن عسكري.

وإذ طلب الأحزاب شراء جثة عمرو بن ود، بعشرة آلاف درهم، فردها نبينا صلى الله عليه وسلم إليهم، ودون درهم واحد، فإن الموتى لا يباعون ولا يشترون! سننا وهديا.

---

(1) دلائل النبوة، للبيهقي: (4/15)

وإذ قال نبينا صلى الله عليه وسلم: فإن كان حقا فالحنوا لي لحنا أعرفه: هذا فن الشفرة، إرثا عسكريا معهودا، وفنا استخباراتيا معروفا، يتيه معه خصمك، وترشد به دربك، وتصل به هدفك.

وإذ قال نبينا صلى الله عليه وسلم: ولا تفتوا في أعضاد المسلمين: ولأنه صلى الله عليه وسلم قال أيضا: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ،وإن حرمة أخ في الله معظمة وإن حقوقه لمحفوظة عند ذوي المروءات والقيم.

فعن أبي بكرة نفيع بن الحارث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس فقال: ألا تدرون أي يوم هذا قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس بيوم النحر قلنا: بلى يا رسول الله، قال: أي بلد هذا، أليست بالبلدة الحرام قلنا: بلى يا رسول الله، قال: فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، وأبشاركم، عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت قلنا: نعم، قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ يبلغه لمن هو أوعى له فكان كذلك، قال: لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض فلما كان يوم حرق ابن الحضرمي، حين حرقه جارية بن قدامة، قال: أشرفوا على أبي بكرة، فقالوا: هذا أبو بكرة يراك، قال عبد الرحمن: فحدثتني أمي عن أبي بكرة، أنه قال: لو دخلوا علي ما بهشت بقصبة[1].

(1) صحيح البخاري: 7078

المبحث السادس: مقتل نوفل

حين طلب المشركون رمة نوفل بالثمن، فأبى صلى الله عليه وسلم عليهم أن يأخذ منهم شيئا، ومكنهم من أخذه إليهم. وهذه مبادئ حقوق الإنسان عندنا في ديننا!

هو لكم لا نأكل ثمن الموتى[1]. إن الإنسان من حيث إنسانيته مكرم! ولذا لا يجوز أن يكون سلعة، تعقد عليها مماكسات الناس بثمن، ولو ملئ الأرض ذهبا!

هو لكم لا نأكل ثمن الموتى: هذا إعلان نبوي كريم، يبين منه كم هي كرامة الإنسان، في عالم ديست فيه حقوق الإنسان، بأقدام واضعي مبادئ حقوق الإنسان!

هو لكم لا نأكل ثمن الموتى! إن خزائن الناس يجب ألا يدخلها إلا مال حلال، صرف حلال! وحينها تبتغى البركة وتلتمس، وإلا فمحق من ورائه محق آخر.

هو لكم لا نأكل ثمن الموتى: إن عفة المسلم نظام لا يفارقه، وإن أنفته عن باطل، دين دان مولاه به، وليس من ضابط لذلك إلا شرع ربه ونظام خالقه.

وإذ ورد أنهم قتلوا مشركا يوم الأحزاب، فاشترى المشركون جيفته، باثني عشر ألف درهما، فقال صلى الله عليه وسلم: ادفعوا إليهم جيفته، فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية.

---

(1) تفسير الألوسي، الألوسي: (49/16)

ادفعوا إليهم جيفته، فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية: إن خبث جيفته لشركه، بيد أنها لا تمثل ولا تمتهن، وإن خبث ديته ولأنه سحت بين ينافي أنفتنا.

فعن عبدالله بن عباس: قتل المسلمون يوم الخندق رجلا من المشركين، فأعطوا بجيفته مالا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادفعوا إليهم جيفتهم؛ فإنه خبيث الجيفة، خبيث الدية، فلم يقبل منهم شيئا[1].

أن نوفلا لما تورط في الخندق رماه الناس بالحجارة فجعل يقول قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب فنزل إليه علي فقتله وطلب المشركون رمته من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن فأبى عليهم أن يأخذ منهم شيئا ومكنهم من أخذه إليهم[2].

وإذ تورط نوفل في الخندق فرماه الناس بالحجارة فقال: قتلة أحسن من هذا يا معشر العرب! وجواز تلبية طلبات المقتول، إحسانا به ولطفا، وهذا ديننا.

إن الله كتب الإحسان على كل شيء: ولعل قتلة نوفل بالحجارة يوم الخندق إما قبل النص وإما أنه ما أمكن الإجهاز عليه إلا هكذا ضرورة وخشية هروبه.

فعن شداد بن أوس: ثنتان حفظتهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته[3]

---

(1) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: 2230. خلاصة حكم المحدث: إسناده ضعيف

(2) البداية والنهاية، ابن كثير: 109/4. وقال: غريب من وجهين.

(3) صحيح مسلم: 1955

المبحث السابع: عائشة أم المؤمنين في حصن بني حارثة يوم الخندق

قال ابن إسحاق: وحدثني أبو ليلى عبد الله بن سهل بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاري أخو بني حارثة: أن عائشة أم المؤمنين كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق وكان من أحرز حصون المدينة قال: وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن فقالت عائشة وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب: فمر سعد وعليه درع له مقلصة وقد خرجت منها ذراعه كلها وفي يده حربته يرقد بها ويقول:

لبث قليلا يشهد الهيجا جمل   لا بأس بالموت إذا حان الأجل

قال فقالت له أمه: الحق: أي بني فقد والله أخرت قالت عائشة: فقلت لها: يا أم سعد: والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي قالت: وخفت عليه حيث أصاب السهم منه فرمي سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل رماه كما حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة حبان بن قيس بن العرقة أحد بني عامر بن لؤي فلما أصابه قال: خذها مني وأنا ابن العرقة فقال له سعد: عرق الله وجهك في النار اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[1].

وإذ كانت عائشة أم المؤمنين في حصن بني حارثة، يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة. ولأنها مستهدفة، كزوجها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أو أشد، وفيه حماية آل القائد؛ ولعلة استهدافهم جميعا.

---

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/ ٢٤٠

عادة ما يكون القادة أو أهلوهم مستهدفين، ولذا فإنه لا غرو إذا أقيم لهم سياج أمن أحوط، وزيادة عما سواهم، ولهذا السبب، ولأنه يمكن تترس عدو بهم.

وتاريخيا، ما نزل الحجاب وإلى يوم الخندق، ولقول عائشة رضي الله تعالى عنها: وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب.

المبحث الثامن: لقد حكمت فيهم بحكم الله فوق سبع أرقعة!

عن أبي سعيد الخدري: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد، فأتاه على حمار، فلما دنا قريبا من المسجد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار: قوموا إلى سيدكم، أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: تقتل مقاتلتهم وتسبي ذريتهم، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قضيت بحكم الله، وربما قال: قضيت بحكم الملك. ولم يذكر ابن المثنى وربما قال: قضيت بحكم الملك. وفي رواية: لقد حكمت فيهم بحكم الله، وقال مرة: لقد حكمت بحكم الملك[1].

وعن عائشة أم المؤمنين: أصيب سعد يوم الخندق؛ رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة، رماه في الأكحل، فضرب النبي صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعته، اخرج إليهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فأين؟ فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه

(1) صحيح مسلم: 1768

وسلم، فنزلوا على حكمه، فرد الحكم إلى سعد، قال: فإني أحكم فيهم: أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم. [وفي رواية]: أن سعدا قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك، من قوم كذبوا رسولك صلى الله عليه وسلم وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له؛ حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب، فافجرها واجعل موتتي فيها، فانفجرت من لبته، فلم يرعهم -وفي المسجد خيمة من بني غفار- إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دما، فمات منها رضي الله عنه[1].

وعن عبدالله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، لقد ضم ضمة، ثم فرج عنه[2].

لقد حكمت فيهم بحكم الله فوق سبع أرقعة! هذا ثناء نبينا صلى الله عليه وسلم على سعد بن معاذ، وحق له، وأجمل بهكذا جيل وافق حكم ربه من فوق عرشه، بائنا عن خلقه سبحانه.

إن العبد حين يكون متصلا بربه تعالى، فإنما يكون وكأنما ينظر في لوح القلم المحفوظ، ليوافق حكمه حكم ربه الرحمن، وهذه كلية قمنة درسا!!

---

(1) صحيح البخاري: 4122

(2) صحيح الجامع، الألباني: 6987

وكم أوقفنا التاريخ على أمجاد قوم نزل القرآن بحكمهم، وكأنما كانت صحائف ربهم منظورة من أمامهم، ليقرؤوها علينا معاشر البشر المساكين!!

واسألوا التاريخ عن الفاروق عمر، كيف وافق حكم ربه في الخمر والحجاب، وكيف سعد بن معاذ، وإذ وكأنما يقرأ صحيفة السماء في بني قريظة، وما كانوا يحملون في قلوبهم؟!

إنه حسن بحث عن فارق بين قوم نزلت السماء بحكمهم، وبين أمثالنا، إلا ذلكم الاتصال بالله، وعلى مثل ملك كريم، أو قد أزيحت من أمامهم الحجب!

المبحث التاسع: شبهات وردود حول حسان بن ثابت

عن عروة بن الزبير أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ نساءه يوم الأحزاب أطما من آطام المدينة وكان حسان بن ثابت رجلا جبانا فأدخله مع النساء فأغلق الباب فجاء يهودي فقعد على باب الأطم فقالت صفية بنت عبد المطلب انزل يا حسان إلى هذا العلج فاقتله فقال ما كنت لأجعل نفسي خطرا لهذا العلج فائتزرت بكساء وأخذت فهرا فنزلت إليه فقطعت رأسه[1].

وعن الزبير بن العوام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الخندق فجعل نساءه وعمته صفية في أطم يقال له فارع وجعل معهم حسان بن ثابت وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد فرق يهودي حتى أشرف على نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عمته فقالت صفية يا حسان قم إليه حتى

(1) مجمع الزوائد، الهيثمي:137/6.حكم المحدث: رجاله إلى عروة رجال الصحيح، ولكنه مرسل.

تقتله قال والله ما ذاك في ولو كان ذاك في لخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت صفية فاربط السيف على ذراعي ثم تقدمت إليه حتى قتلته وقطعت رأسه فقالت له خذ الرأس فارم به على اليهود قال ما ذاك في فأخذت هي الرأس فرمت به على اليهود فقالت اليهود قد علمنا أن محمدا لم يكن يترك أهله خلوفا ليس معهم أحد فتفرقوا وذهبوا قالت عائشة فمر سعد بن معاذ وهو يقول مهلا قليلا يدرك الهيجا جمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل – قالت وما رأيت أحدا كان أجمل منه ذلك اليوم وكان عليه أثر صفرة وكان عليه درع مقلصة وقد تزوج فبنى بأهله قبل ذلك فعليه أثر زعفران قال وكان حسان إذا شد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الكفار يفتح الأطم وإذا كروا رجع معهم[1].

قال السهيلي في (الروض الأنف): "ومحمل هذا الحديث عند الناس على أن حسانا كان جبانا شديد الجبن، وقد دفع هذا بعض العلماء وأنكره، وذلك أنه حديث منقطع الإسناد، وقال: لو صح هذا لهجي به حسان، فإنه كان يهاجي الشعراء، كضرار، وابن الزبعرى، وغيرهما، وكانوا يناقضونه ويردون عليه، فما عيره أحد منهم بجبن، ولا وسمه به، فدل هذا على ضعف حديث ابن إسحاق، وإن صح فلعل حسان أن يكون معتلا في ذلك اليوم بعلة منعته من شهود القتال، وهذا أولى ما تأول عليه، وممن أنكر أن يكون هذا صحيحا أبو عمر بن عبد البر في كتاب (الدرر) له[2].

(1) المرجع السابق:137/6. حكم المحدث: إسناده ضعيف.

(2) الروض الأنف، السهيلي: (6/ 324)

وكان حسان بن ثابت لسنا شجاعا، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن، فكان لا ينظر إلى قتال ولا يشهده[1].

وإذ ندفع عن حسان؛ فلأنه اختياره صلى الله عليه وسلم، وحيث كان يعمل على نور من ربه، وإن جاز أن يقع هذا في البشر، ومن منطلق بشريتهم، وعلى اختلاف بين طاقاتهم في ذلك، إلا أن حسان لم يكن من هؤلاء، ولسيرته شاعرا لسنا، ما كانت لتسكت شعراء العرب عن هجائه في ذلك، ولا سيما أنه كان شاعر الدعوة في أخطر مراحلها آنذاك! وبالتالي فقد جاءتهم الفرصة سانحة لمثل ذلكم مدخل!

إن حسان بن ثابت لم يك وليد لحظته، حتى يكون مجهولا حاله، بل حاله أنه كان ذائعا صيته، شريفا شجاعا شاعرا مفواها، عز أن يكون إلا كالسيف مضاء!

إن حسان بن ثابت ابن بيئة عربية، كانت تكشف عن سوآت أبنائها، وخاصة في مسائل النبل والإقدام، ولم يذكر تاريخه هنة من ذاك، لتنطلي فرية حيكت.

إنه مرت غزوات كثيرة وسرايا، قبل يوم الأحزاب، ولم يشر فيها من قريب أومن بعيد أن حسان كان قد تخلف، أو أن نابتة جبن قد لاكت سمعته، بل كريما نبيلا.

---

(1) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٤ / ٣٩٩

ما علمنا عنك كذبا قط! هذا كان تاريخ نبينا صلى الله عليه وسلم معهودا في قريش! ومنه حسان بن ثابت، لم يقل فيه أحد غير أنه لسان فصيح، وبيان شعر بليغ، عز نظيره.

وإذ كان عمر حسان بن ثابت يوم الأحزاب ما بين إحدى وسبعين إلى خمسة وثمانين سنة، على خلاف في هذا، وهذا عمر لا يتصور معه طلب من صفية، ولا تخلف عن يوم الأحزاب.

إن نبينا صلى الله عليه وسلم كان يعمل على عين ربه، ومنه مسألة حسان رضي الله تعالى عنه، فلو كانت به لمة ما كان له صلى الله عليه وسلم أن يستأمنه على نسائه، وعلى فرض صحة الخبر.

إن غرابة ألا يعلق الحافظ ابن كثير على ضعف خبر حسان بن ثابت وحصن صفية يوم الأحزاب، وليس يغير هذا من ضعف الخبر من شيء على كل حال.

المبحث العاشر: الولاء والبراء يوم الأحزاب، سعد بن معاذ نموذج

عن عائشة أم المؤمنين: أصيب سعد يوم الخندق؛ رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة، رماه في الأكحل، فضرب النبي صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعته، اخرج إليهم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فأين؟ فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه

وسلم، فنزلوا على حكمه، فرد الحكم إلى سعد، قال: فإني أحكم فيهم: أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم. [وفي رواية]: أن سعدا قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك، من قوم كذبوا رسولك صلى الله عليه وسلم وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له؛ حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب، فافجرها واجعل موتتي فيها، فانفجرت من لبته، فلم يرعهم -وفي المسجد خيمة من بني غفار- إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دما، فمات منها رضي الله عنه.[1] هذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وإذ يحكي لنا أقصوصة الولاء والبراء، دينا قيما، جاء بها الإسلام الحنيف؛ إعلاء لقيمة المحبة في الله تعالى، وفي أعظم درجاتها، وإظهارا لأهمية البراء فيه تعالى أيضا، وفي أقصى قيمها العظمى؛ ولأن ديننا جعل ذلكم العقد، عقدا منظوما في درره، وبحيث تتلألأ قيم العبودية لله تعالى، وحين كان نوره يطالع قمر السماء ليلة بدره، أو يسابق شمس النهار حين ضحاها.

وليس من شك أن هذه القيمة دائرة مع المسلم حيث دار، ولأنها مرتبطة بالشهادتين، ولا فكاك، إلا أن مناسبات عدة لتحكي لنا أمجاد قوم، علمونا‌ها واقعا معاشا، لا نصا في الكتاب أو السنة وحسب، وكيما يأتلفا في إبراز هذه القيمة سننا لنا نسلكه، وهديا لنا نترسمه!

(1) صحيح البخاري: 4122

وكان من ذلك موقف سيدنا وإمامنا سعد بن معاذ - رضي الله تعالى عنه - صحابيا ميمونا، منحنا درسا في عقيدتنا، يوم الأحزاب، وإذ لم ولن ننساه، حياتنا ما حييناها، وإذ ينفع عقد ذلك، وعض عليه بالنواجذ، يوم نلقى الله تعالى ربنا على ذلك، والله المستعان.

* * *

اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك، من قوم كذبوا رسولك صلى الله عليه وسلم وأخرجوه: هذا كلام سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه، يوم الأحزاب، وهو إذ يئن أثر سياطهم، وهو إذ ينزف أثر سهامهم ونبالهم! عنوان بذل، ودليل صدق، وإن كل ذلك إلا برهان جريان قاعدة الولاء والبراء في الله تعالى ربهم الحق، ومتخللة من بين عروقهم، وذلك حسما لمادتها، ولأن حسمها إنما هو حسم لمادة العقيدة نفسها.

فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهد من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه: وهذا قول ينضوي تحت محبة، ليس يحدها حد، وليس يرد عليها قيد، من أولاء صحب كرام غر ميامين، بذلكم نبيهم الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم، وهو تأكيد من بعد إعمال صادق لقوله صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين [1] .

وإن سألت عن ولاء فهاكه! وإن سألت عن براء، فإنه من مفهوم المخالفة لهذا الحديث، الجامع لكل ولاء ومحبة ونصرة، لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، وإن ذلكم الحديث المانع لكل ولاء لغير الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وهو

---

(1) صحيح البخاري: 15

الجامع لكل براء من دونه تعالى ولرسوله وللمؤمنين، دينا وعقدا واجبا، وإذ إن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم، لا إيذاء سعد! وإذ إن إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم، لا إخراج سعدا! كانا سبب محبة سعد جهادهم، وهذا هو مطلق الولاء، وإذ ينخلع سعد بموجبه من ذات نفس، كان لبعض النفوس فيه حظ ونصيب! وهذه هي النصرة أوسع أبوابها، إن شئت فقل، وهذه هي الموالاة فيه تعالى، أشمل مسائلها، إن شئت فكن! وإذ هذا هو البراء أعم أفراده، إن شئت فنعم، وقد كان من الأحزاب، يومهم ذاك، مثلا يحتذى، وسبيلا يرتجى!

إن حسم مادة الولاء والبراء، وكونها لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، هي فيصل بين إيمان العبد أو مما سواه، وكما كان من فعل سعد بن معاذ وقوله، تربية إيمانية سامقة، كانوا قد نشأهم عليها نبيهم صلى الله عليه وسلم.

إن إظهار العداء لنبينا صلى الله عليه وسلم وإخراجه أو أولياءه، برهانان لعداوة رب أرسله، بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، ذاك الزمان، وكل زمان آخر، ولأن ذلك هو المتحصل، برهانا عمليا من ساحات مناطات النصوص، وإذ ليس أمامنا إلا نظر إلى إحسان لنقول: هذا إحسان! أو نلمس شارات إساءة لنقول: هذا سوء! وإذ ليس أمامنا وحي، يكشف عن كل حالة على حدة، ويدخل إلى النفوس أعماقها! ليطلعنا على ما تخبئه كل نفس، وما أكثر ما تخبئه نفوس! وما أعظم ما تخفيه قرائح! لكنه ستر مولانا سبحانه، أن لم يطلع أحدنا على نفوس قوم آخرين! وإلا فلربما وسعه كون آخر! هربا رعبا! وكفرض غير واقع، ولا ملائم معا!

إن قاعدة الولاء والبراء في الله تعالى، ثابتة رسوخ الجبال، ولا تتغير بتغير الشخوص أو الأزمان، وإنما لا تتبدل بتبدل الأماكن أيضا، ولأنها ثوابت من ديننا، ولا أثر لعوامل مناخ فيها، ولا تتأثر بموجات ريح عاتية قاصفة! أو بهبوب رياح عاصفة! ولأنها ثابتة ثبات نصوصها في الذكر الحكيم القرآن المبين، وحين قال الله تعالى ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ۚ أولٰئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ۖ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ۚ رضي الله عنهم ورضوا عنه ۚ أولٰئك حزب الله ۚ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[المجادلة:22]. ولأنها قائمة على محبة العبد لأخيه العبد، من آمن بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا، إجمالا وتفصيلا، وعلى نحو جعل منها منارة هدى للسالكين، ومئذنة فلاح للسائرين!

وهذا عقد فريد! وكما تزدان به عناقيد حور عين! أو كأنهن كذلكم حور عين! ولأنه يزين مسلما أسلم، ولأنه يميز مؤمنا آمن، وهذا قول فصل في مسألة ديننا، وإذ كانت كما قيل: لا تنظروا إلى تدافع الناس على أبواب المساجد، ولكن أعرضوهم على الولاء والبراء!

وإن قيمة الولاء والبراء فيه تعالى مخرجة و مدخلة، كأول بابها على محبة العبد ونصرته، قرب نسبا، أم بعد حسبا.

وإن سعدا أعمل عقيدة الولاء والبراء، كأدق معنى لها، وحين كان ظاهره مع المؤمنين، يوم الأحزاب، وإن سعدا قد فعل عقيدة البراء، وكأحد حد لها، وحين كان ظاهره على الكافرين، يوم الأحزاب، تاريخا كتب له، وسجلا حفظ له،

أن كان ههنا مواليا والى من والى الله ورسوله والمؤمنين، وأن كان ههنا معاديا عاد من حاد الله ورسوله والمؤمنين! هو هذا العبد، وحين اهتز لموته عرش الرحمن!

إنه حين تعلو قاعدة الولاء والبراء، فوق كل عال، وههنا - وحسب هنا - ينظر إليها مقياسا لعلائق، وربطا لوشائج، ولأنها تحسم أن حبا لله أو بغضا له تعالى، وذلك بقطع النظر عن مآرب أخرى، من رابطة حسب، أو علاقة نسب، وإذ كلها لتتأخر، وعن مائدة المتقين، وإنها لتنعدم أثرا، وأمام سياج الهدى والنور، وظلال الألفة والمحبة، في الله تعالى العلي الأعلى سبحانه!

إن كلام سعد بن معاذ، وهو إذ يئن تحت مطارق قريش ونبالها، وأنه ليس يبالي حين يقتل مسلما وعلى أي جنب كان لله مصرعه، برهان وضوح مادة الولاء والبراء، كشمس ضحاها! وإنها لعقيدة كان من أسها اللامتناهي ذلكم أثر لها، قد تمثل في بيع نفس مؤمنة لله تعالى، وإذ هو مالكها سبحانه على الحقيقة، ولكنه ذلكم التميز في إكرام الإنسان، من رب الإنسان سبحانه، حتى كان منه شراؤه تعالى منه نفسا هو مالكها! وبثمن لا كثمن الأغيار! وإنما تشوبه شوائب الرضا ومعايبه! وإنما كان الشراء وبأن لهم الجنة!!!

وها هو القرآن يعرض ذلكم مشهدا، ذا أثر بالغ، في كل قارئ، كان له ولو مسحة من عقل لغة القرآن المجيد، وحين قال تعالى ﴿ إن الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ۚ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ۖ وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ۚ ومن أوفىٰ بعهده من الله ۚ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ۚ وذٰلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة:111].

إن تثبيت عقيدة الولاء والبراء، وتجديدها كل حين في القلوب، داعيان لإظهار ديننا، عاليا كعلو مادتها، ولأن أخا في الله من مشرق، كأخ في الله من مغرب!

وهذا ما يفرق عقيدتنا عما سواها من عقائد، وإذ تذوب عندنا أمامها الفوارق، بل لا ثمة فارق - ولو واحدا - عند الشهادتين، وأمامهما ومن خلفهما!، وإن الناس سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين عجمي فيهم أو عربي، أو أسود أو أبيض أو أحمر، إلا بالتقوى والعمل الصالح، ولأنه تعالى وضع الميزان القسط، وكان من موجباته ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[الحجرات:13].

إن معرفة قاعدة الولاء والبراء في الله تعالى تخرج مجتمعا متماسكا، وحين كانت ألفة الإسلام رابطته، وحين كانت وشيجة الحق داعيته.

إن ضبابا خيم على قاعدة الولاء والبراء، ساهم في إخراج جيل، حسن تلقينها إياه، ومحركا أوحد لفؤاده، لا الدرهم ولا الدينار ولا العصبة ولا الحمية، وإذ كانت من ديننا ذروة لسنامه، ويوم أن كانت في ديننا عنوانه ووسامه.

إن وقوفا مليا عند كلام سعد بن معاذ، وحين كان محرك لبه هو الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، دينا قيما، ﴿ ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران:95]. يجعلنا نستلهم ولاءنا وبراءنا من مثل ذلكم صحب كرام سبقوا، وحين تفردوا بولاء لله عز نظيره، وكما وأنهم تفردوا ببراء فيه تعالى ند وصفه، ولا غرو! فلقد كانوا من قرآنهم يستقون، ولقد كانوا من نبيهم صلى الله عليه وسلم يستلهمون!

المبحث الحادي عشر: تأخير صلاة العصر يوم الأحزاب

اشتد حصار الأحزاب، يوم الخندق، حتى شغل نبينا صلى الله عليه وسلم عن صلاة العصر الصلاة الوسطى، برهان جواز تأخير الصلاة عن وقتها لعذر تساوى طرفاه، وكمثله، من قتال عدو كان شاغلا، وإذ لا يعدو أن تكون صلاتنا زادنا عند لقائه، فأوهم إشغالنا عنها!

وإذ شغل المسلمون عن صلاة العصر، يوم الخندق، حتى صلوها بعد الغروب، ثم صلوا المغرب، وفيه الترتيب في الصلوات، فديننا نظام كله، صلاته وحربه وسلمه.

وجمعا بين رواية علي رضي الله تعالى عنه: شغلونا عن صلاة العصر، ورواية البخاري عن علي أيضا: كما شغلونا عن الصلاة الوسطى، فدل على أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر.

فعن علي رضي الله عنه قال: قاتلنا الأحزاب فشغلونا عن صلاة العصر حتى قربت الشمس أن تغيب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم املأ قلوب الذين شغلونا عن الصلاة الوسطى نارا واملأ بيوتهم نارا واملأ قبورهم نارا قال علي رضي الله عنه كنا نرى أنها صلاة الفجر [1]

وعن علي بن أبي طالب: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق، فقال: ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارا، كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس. وهي صلاة العصر [2]

---

(1) شرح معاني الآثار، الطحاوي: 173/1. صحيح.

(2) صحيح البخاري:6396

شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم نارا: وهذه أهمية الصلاة في ديننا، ولأنه صلى الله عليه وسلم دعا على الأحزاب، حين كانوا سبب تأخيرها عن وقتها.

شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم نارا: وهذا برهان قيمة الصلاة في عقد المسلم، وأنها على وقتها، إلا بعذر قتال، كما كان يوم الأحزاب.

شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم نارا: وفيه جواز الدعاء على أهل الكفر، ولكفرهم، ولإشغالهم عن الصلاة، سببا آخر، فصار مركبا مضاعفا.

شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم نارا: وفيه الإعراض عن القوم وبغضهم وبغض فعلهم معا، دلالة التعبير بالضمير المتصل - واو الجماعة - تأففا منهم، وذما لهم.

شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم نارا: أحياء وأمواتا، وهذا شدة نكير، برهان عظم صلاتنا في عقدنا، صلة بمولانا، وإذهابا بغم، ودرءا لوصب.

شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم نارا: وفيه بيان أهمية الصلاة عامة، وصلاة العصر خاصة، تنويها بذكرها قرآنا يتلى، وحين قال الله تعالى ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطىٰ وقوموا لله قانتين ﴾ [البقرة:238].

شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم نارا: وفيه شدة ما لاقوا يوم الأحزاب؛ لإشغالهم عن صلاتهم، وصبرهم في ذلك، ابتغاء وجه ربهم.

شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله بطونهم وقلوبهم نارا: الانشغال بالقتال عذر يجيز تأخير الصلاة عن وقتها، وكنوم أو نسيان، يسر ديننا، ورفع حرجه عن العباد.

فعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من نسي صلاة، أو نام عنها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها[1].

وينبغي عدم التوسع في أعذار تأخير الصلاة عن وقتها؛ لأن فريقا من أهل العلم حصر تأخيرها يوم الأحزاب لسبب القتال وحسب؛ وهذا بطبيعة الحال إضافة إلى نص الحديث السالف آنفا، مما أعده نبينا عذرا مبيحا ومجيزا، وكنوم أو نسيان!

وإذ شدد فريق من أهل العلم بنسخ عذر تأخير الصلاة يوم الأحزاب بصلاة الخوف، برهان وجوب الصلاة على وقتها! ودلالة اهتمام رعيلنا الأول بها!

كان العمل في عهد عمر - رضي الله تعالى عنه - تأخير صلاة الصبح يوم حصار تستر سنة عشرين، برهان عدم نسخ التأخير بصلاة الخوف، وحين تتعذر صلاة الخوف نفسها، سعة ويسرا!

وهذا أبو موسى الأشعري بعد موقعة تستر كان يقول: والله لقد ضيعت علينا صلاة الصبح، لصلاة الصبح عندي خير من ألف فتح!

وإنما قول ابي موسى محمول على مدى أهمية الصلاة في عقد المسلم وعلى ما ذكره الفاروق عمر بن الخطاب للجيوش الإسلامية: "إنكم تنصرون عليهم

---

(1) صحيح مسلم: 684

بطاعتكم لله ومعصيتهم لله، فإن تساويتم في المعصية كانت لهم الغلبة عليكم بقوة العدة والعتاد".

وإنما ذكر إمام المغازي ابن إسحاق أن صلاة الخوف كانت في عسفان قبل الخندق، وكذلك ذات الرقاع، برهان جواز تأخير الصلاة لعذر القتال، وحين تتعذر صلاة الخوف، وبهذا الجمع يزول الإشكال.

ويبعد تأخير الصلاة يوم الأحزاب نسيانا، إذ كانوا جمعا كثيرا، ويحال إطباق جمعهم عليه، لاسيما معرفتهم جميعا وفرادى أهمية صلاتهم لربهم الحق.

المبحث الثاني عشر: عمل جهاز التوجيه المعنوي للقوات المسلحة

وجه الأحزاب نحو منزل رسول الله ﷺ كتيبة غليظة، فقاتلوهم يوما إلى الليل[1]. وهذا برهان استماتة الخصم لاستهداف مقر القيادة العامة للقوات المسلحة.

وإذ كان توجيه الأحزاب كتيبة كاملة، يوم الأحزاب، صوب منزل نبينا ﷺ، برهان استهداف مركز القيادة والسيطرة، ومنه وجب تحصينه، خطا عسكريا أحمر، لا يجوز تجاوزه!

وكان استهداف الأحزاب مركز القيادة والسيطرة لنبينا ﷺ فنا عسكريا، جابهه المسلمون بفن أعظم، وحين استماتوا في الدفاع عنه، وعلى ألا يسقط، وإذ إن إسقاطه ليس يعني إلا أنهم سقطوا معه.

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/ ١٢٥

وإذ حل بالمؤمنين بلاء وكرب يوم الأحزاب، جراء إحاطة الأحزاب المؤمنين، ومن كل حدب ينسلون، فجعل ﷺ يبشرهم بفرج من بعد شدة، وطواف بالبيت آمنين، وأن الله سيدفع إليه مفاتيح الكعبة، وإهلاك كسرى وقيصر! وأنهم سيغنمون أموالهم، ويسبون نساءهم وذراريهم.

تمثل المحن ينابيع منح: وهذا ما حصل يوم الأحزاب، وحين بشرهم نبيهم ﷺ بفتح مكة وكسرى وقيصر، ومن رحم شدة أحاطت بهم كسوار بمعصم!

كان جهاز التوجيه المعنوي يقظا يوم الأحزاب! وحين خفف نبينا ﷺ إيلام جرحهم، بنصر مهيب، يفتحون من بعده مكة، ويطوفون بالبيت العتيق، ومن بعد إخراج!

إنه يجب يقظة جهاز التوجيه المعنوي للقوات المسلحة، ومراقبة سير المعارك، وبث روح النصر في الجن،د حينا من بعد حين؛ وكيما يثبتوا وينشطوا وينفروا.

إن عمل جهاز التوجيه المعنوي في القوات المسلحة، جنبا إلى جنب مع دربة، وحنكة قتالية، يمثلان عاملين حاسمين في إحراز نصر مهيب، لا يقل دور أحدهما عن أخيه.

كانت مهارة نبينا ﷺ يوم الأحزاب، وحين بعث في جنده فرحا، ومن بعد غم، برهان عمل جهاز التوجيه المعنوي ويقظته، في مراقبة حال الجند، ولأنها نفوس بشرية، ولربما يعتورها ما يمكن أن يكون ذا تأثير في أدائها.

المبحث الثالث عشر: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ۚ وكفى الله المؤمنين القتال ۚ وكان الله قويا عزيزا ﴾ [الأحزاب:25].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حبسنا عن الصلاة يوم الخندق حتى كان بعد المغرب هويا من الليل، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بلالا فأقام الظهر فصلاها، ثم أقام العصر فصلاها، ثم أقام المغرب فصلاها، ثم أقام العشاء فصلاها، ولم يؤذن لها مع الإقامة[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوى من الليل حتى كفينا وذلك قول الله عز وجل: { وكفى الله المؤمنين القتال } فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا فأمره فأقام الظهر وأحسن كما يصلي في وقتها، ثم أقام العصر فصلاها كذلك، ثم أقام المغرب فصلاها كذلك، ثم أقام العشاء فصلاها كذلك[2].

حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوي من الليل حتى كفينا: هذا تصوير آخر ،والحبس عقل النفوس بانحباس مشاعرها وبعد أن كادت أن تحبس أنفاسها!

حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوي من الليل حتى كفينا: ومن بعد ليل طويل كموج، أرخى سدوله بأنواع الهموم، على صحب كريم، حتى وكأنهم ناؤوا بكلكل، فلابد يبزغ نور النهار، وما أجمل كفاء! وأجمل به حين يأتي! ولا يأتي إلا من ذي الجلال والإكرام سبحانه!

---

(1) البدر المنير: ابن الملقن: 317/3. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

(2) المجموع، النووي: 83/3 .خلاصة حكم المحدث: صحيح.

حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوي من الليل حتى كفينا: وهذا تأويل لقوله تعالى ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ۚ وكفى الله المؤمنين القتال ۚ وكان الله قويا عزيزا﴾ وإذ يشعر بكفايته قيمة عظمى، وإذ يعيش أثره وأهميته، من قد حوصر شهرا!

حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوي من الليل حتى كفينا: والحبس ابتلاء، وكان الصبر فيه إيذان فرج قريب، يعمه الله عبده، فلا يكاد يشعر إلا رضا بقسمة ربه تعالى، وهناءة بما به يكون تمحيص إيمانه، وما به يكون صقل إسلامه!

حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوي من الليل حتى كفينا: والكف إذا كان منه تعالى، فلا بقية من خوف، ولا بعضا من فزع، بل بحبوحة وانفراجا، وجزاء صبر فيه تعالى.

حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوي من الليل حتى كفينا: ودلك على عظيم حبسهم، عدم إمكانهم صلاتهم، ظهرهم وعصرهم ومغربهم وعشاءهم، جراء حبسهم!

حين كفى الله تعالى المؤمنين القتال، يوم الخندق، فكان أول أمرهم، أمره بالصلاة لما فاتهم يومهم هذا، برهان قيمة صلاتنا، صلة بالله ربنا. ودلالة وجوب إقامة الصلاة، وبزوال عذر تأخيرها.

وإذ شغل المسلمون يوم الخندق، عن صلاتهم أربعة فروض، جراء حبسهم، ومنه نعرف كم كان في ربهم صبرهم واحتسابهم! وحين حبسوا هكذا حبسا شهرا! وإذ أحاطوا بهم من كل جانب، حتى بلغت القلوب منهم الحناجر، وحتى ظنوا بالله تعالى ربهم الحق الظنونا!

إن نفسا قالت: ولست أبالي حين أقتل مسلما، على أي جنب كان في الله مصرعي، ليهون أمامها ما دونه، وكحبس ولو شهرا كاملا، أو مما سواه!

إنه لو يعلم حابسوا المؤمنين، وأنهم يمنحونهم فرصة جميلة، لرياضة روحية، تكون زادا لهم ولغيرهم، ما حبسوهم، ولو يوما واحدا، وهذا مجرب، وإذ إن تجربة أوقع أثرا!

وحين حبس الأحزاب جند الله يوم الخندق، فماذا جنوا إلا قوما احتسبوا ما نالهم أجرا، وهاهم قد خرجوا، بنفوس أقوى شكيمة، وأعز نبلا، وأشد إصرارا، وأعظم اقتدارا!

إن حبس المؤمنين، يوم الخندق، كان إيذانا بريح، قلعت خيام الظلم، آية باهرة، ولعلهم يدبرون أمرهم، وحين ضربوا كفا من يمين، وكفا آخر من شمال!

إن المطلوب من المسلم، هو ثباته على طريق يعرفه سلفا، وما ضره ما مسه فيه من بعد، ولأن نصره تعالى لقريب، ويوم الخندق برهانه وزاده وأسوته.

حين شغل المسلمون يوم الخندق عن أربع صلوات، وجاءهم الفرج، أذنوا وأقاموا لكل صلاة على حدة، وهذا فقه يقتدى، وسبيل يتبع، وسنن يهتدي.

عن جابر بن عبدالله: أن النبي صلى الله عليه وسلم شغل يوم الخندق عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء حتى ذهبت ساعة من الليل فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى الظهر ثم أمره فأذن وأقام فصلى العصر ثم أمره فأذن وأقام

فصلى المغرب ثم أمره فأذن وأقام فصلى العشاء ثم قال ما على ظهر الأرض قوم يذكرون الله في هذه الساعة غيركم[1].

ما على وجه الأرض قوم يذكرون الله في هذه الساعة غيركم: هذا يوم الأحزاب، وحين قاموا إلى صلاتهم، وفيه حث الرعية، وتلمس جوانب الخير فيها.

أمر نبينا ﷺ بلالا يوم الأحزاب أن يؤذن ويقيم لكل صلاة شغلوا عنها يومهم هذا، برهان جواز أمر الإمام المؤذن نداءه للصلاة وإقامته لها.

المبحث الرابع عشر: "نعم، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا"

عن أبي سعيد الخدري: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، قال: "نعم، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا"، قال: "فضرب الله عز وجل وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم الله عز وجل بالريح"[2].

قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ وهذا كناية عما أصابهم في ربهم، صابرين محتسبين، ولأنها نفوس عالية بإيمانها، ولأنها قرائح سامقة ببذلها.

وإذ بلغت القلوب الحناجر يوم الخندق: وهذا جيل هكذا قدره، همام إلى معالي الأمور، فترك لنا إرثا خالدا، نعيش على همسه، ونحيا على إيقاعه وجرسه، ونعتز به فخرا وقدوة.

(1) نصب الراية الزيلعي: 166/2. خلاصة حكم المحدث: فيه عبد الكريم بن أبي المخارق ضعيف.
(2) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: 10996. خلاصة حكم المحدث: إسناده ضعيف.

إن ريحا كانت جنده تعالى يوم الخندق، ومقودة دفعا للكا فرين، ودفاعا عن المؤمنين، آية وبرهانا على أنه هذا هو الرب الكريم اللطيف، ما كان ليذر عبدا وحده وحيد ميدانه، وإنما يسوق إليه جنده فينكأون عدوه، وبريح لم يروها، وعذب الله بها الذين كفروا، وبرهانا آخر أن قوى البغي وإذ يمكن أن تكفأها ريح!!

إن الدعاء هو سيف بتار بيد المسلم، ينكأ به عدوه، وهذا أثره يوم الخندق، وحين ساق الله ريحا، وفور دعائهم: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا!

إنه حين دعا نبي الله موسى عليه السلام على فرعون، وكما قال تعالى: ﴿ **وقال موسىٰ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلكۖ ربنا اطمس علىٰ أموالهم واشدد علىٰ قلوبهم فلا يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم** ﴾[يونس:88].، وإذ لباه ربه تعالى بقوله سبحانه ﴿ **قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون** ﴾[يونس:89]! ومنه فإن دعاءك هو زادك.

المهم هو الاستقامة على الطريق، باتباع سبيل المؤمنين، وعدم اتباع سبيل الذين لا يعلمون، وإن تكوكبت بهم مواكبهم، وحينها ننتظر: ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾!، ولأن تحقق المشروط وإنما يكون بتحقق شرطه!

إن وضوح معالم سبيل المؤمنين، واتباع طريق المرسلين، دحضا لباطل المعاندين، وإحقاقا لحق رب العالمين، هو السبيل لتحقيق قوله تعالى: ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾!

إن إجابته تعالى دعاء أهل الخندق، وتوا يرفعون أكف ضراعتهم، وإنما كان بثمن! وثمنه هو ذلكم بذل، وهو ذلكم وضوح السبيل، نصرا لحق، ودفعا لباطل.

إنه حسنت مراجعة فقه سير الأولين، وكيف كانوا على سبيل المرسلين، دفعا لباطل، زهوق تنمر، وسحقا لكفر، عنيد تجبر، وحينها ننتظر: ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾!

إن الله تعالى سائلنا عما استرعانا عليه، كشفا عن باطل، قد انتفش ريشه، وعما أزحنا عن بغي، قد زكم ريحه، وعما نهينا عن ظلم، قد انبسط إثمه، ونتساءل: لم لم يستجب لنا؟!

إنه لا يتسنى النظر إلى أهل الخندق مجردا عن قدوة، ولا يجوز التسلي به ثقافة، لا أسوة قدر أنهم نافحوا عن دينهم، وحين جابهوا باطلا منتفشا، وحين علموا يقينهم كله، أنما انتفاشه وكأنما هو زبد، يذهب جفاء.

إن بلوغ القلوب الحناجر يوم الخندق قد كان واقعا، هو الذي ضمن لنا تسلم دين كان هكذا حاملوه، بذلوا مهجهم، وباعوا نفوسهم، وتاجروا مع ربهم!

إن قوقعة ديننا على غير سبيل أهل بدر وأحد والخندق هو غش منا لأنفسنا، حسن اطلاع مرة أخرى ومرات؛ لنقف على سبيل ذاك الذي أسلموه لنا!!

إن صدق الالتجاء موجب إجابة الرجاء، وتحقيق الدعاء، ومعه تفتح أبواب السماء، أمام عبد لاهث برجائه، غائب في دعائه، مدبر عن باطل بأجمعه، مقبل على حق بكليته.

المبحث الخامس عشر: عمل جهاز المخابرات

عمل نعيم بن مسعود أنموذج

فلما جاء نعيم بن مسعود مسلما، أوصاه أن يكتم إسلامه ورده على المشركين يوقع بينهم، وقال له: إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت؛ فإن الحرب خدعة، فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة -وكان لهم نديما في الجاهلية- فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي، ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا، وإنه قد بلغني أمر رأيت علي حقا أن أبلغكموه نصحا لكم، فاكتموا عني، فقالوا: نفعل، قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين -قريش وغطفان- رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم؟ ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا

تـدفعوا إلـيهم مـنكم رجـلا واحـدا، ثـم خـرج حتى أتـى غطفـان، فقـال: يـا معشـر غطفـان، إنكـم أصـلي وعشـيرتي وأحـب النـاس إلي، ولا أراكـم تتهمـونني، قـالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم مثل ما حذرهم، فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس كان من صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا، وقد كان أحـدث فيـه بعضـنا حـدثا فأصـابه مـا لـم يخـف علـيكم، ولسـنا مـع ذلـك بالـذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نـناجز محمـدا؛ فإنـا نخشـى -إن ضرسـتكم الحـرب واشـتد علـيكم القتـال- أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه، فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة -حين انتهت الرسل إليهم بهذا-: إن الذي ذكر لكم نعيم لحق، ما يريد القوم أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم[1]. خلاصة حكم المحـدث: هـذه القصـة بـدون إسـناد، لكـن قولـه صـلى الله عليـه وسـلم: الحـرب خدعة، صحيح، متواتر عنه صلى الله عليه وسلم، رواه الشيخان. توضيح حكم المحدث: لا يصح

---

(1) فقه السيرة، الألباني: 305

يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت. هذا نعيم بن مسعود يجند نفسه لصالح دينه الجديد مخاطرة، وعينا سخر نفسه بها على الكافرين.

أن يعرض نعيم بن مسعود نفسه للمخاطرة بنفسه، احتمالا مؤكدا وقوعه، برهان احتساب القوم أنفسهم لله، جودا بأعز ما يملكون، رخيصا لربهم، وهذا نعيم مثل.

كان عمل نعيم بن مسعود عينا على الكافرين عينا للمؤمنين، برهان جواز إسرار مهمات الدفاع والاستخبار، وجواز كتمان الإيمان، ولإمكان أداء هذه المهام، وعلى وجه سري يضمن معه النجاح والتوفيق.

إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة: هكذا يعلم نبينا صلى الله عليه وسلم غرض عرض نعيم، أن يكون عينا له، ساهرة على مصالح دينه، الذي آمن به، ولا سيما إذا علمنا أنه توا أعلن إسلامه، وأثناء حصار الأحزاب للمسلمين يومهم ذلك، ويعد هذا دلالة على مدى شجاعته، وبلائه في الله تعالى بلاء حسنا، وإذ كان إعلان إسلامه في هذا التوقيت شارة على تفرد مثل ذلكم رجل، وإلا فلو كان غيره فلربما أجل إسلامه إلى حين ظهور المواقف، ولا يعني إسرار إسلامه أنه كان في معزل عن إعلانه!

لقد سبقت العسكرية الإسلامية في جعل جهاز الاستخبار ركيزة أساسية، لا تقل أهمية عن جميع أفرع القوات المسلحة للجيش، بل تفوقها مهمة، وعلى أساسها يكون عمل كل هذه الأفرع، بل كل أجهزة الدولة جميعها!

إن عمل جهاز الاستخبار يعد أشد خطرا من عمل أجهزة الأمة بأسرها، بل هو المؤثر الحقيقي الفعال في أداء رسالاتها جميعا مجتمعة ومنفردة.

إنه حين يبدع جهاز الاستخبار في أداء رسالته الخالدة، فإنه يمكن أن يكون سبب إحراز نصر مؤزر، وتقدم مؤطر، دون تحريك للقوات المسلحة، وذلك بإشغال خصمه من داخله، وقلب ميزانه الداخلي، وبحيث يقاوم ترتيب جهته الداخلية التي انقلبت بدلا عن إشغال حرب خارجية، وهذا ما يحسب لجهاز الاستخبارات.

خذل عنا ما استطعت: هذه صلاحيات معطاة لنعيم بن مسعود؛ ليتصرف وفق ما يراه ميدانيا، ولم تعق حركته قرارات إدارية عمودية، ربما أفشلت عمله من أساس!

خذل عنا ما استطعت: خذل: هذا قرار إداري، و: ما استطعت: هذه سلطة تقديرية للمستقبل، ومنه فإن منح صلاحيات للموظف الإداري، تجعل من المؤسسة دار ابتكار خلاب، لا حبيسة قرار صدر من عل منبتة صلته بواقع الحال!

خذل عنا ما استطعت! وإذ يقع ما يكون داعي تكبيل لعمل الموظف بقرارات ولوائحها التنفيذية، ما يجعل المؤسسة هامدة خاملة، وحين فصام بين واقع محسوس، وقرار مبتور! وهو ما نأى به نبينا صلى الله عليه وسلم أن يكون تحييدا لسلطات المستقبل التقديرية لإعمال القرار الإداري، ومن حيث كان أمينا كفؤا جديرا!

إن كون الموظف الإداري كفؤا أمينا، فمنحه صلاحيات تجعل من مؤسسته مثال عطاء وجد لا معول هدم لهدف إنما بنيت المؤسسة لأجله ابتداء.

خذل عنا ما استطعت: هذا منح صلاحيات، يراها الموظف وهو إذ تراه متقلبا مع ظروف ميدانه، يدور مع مصلحة عمله حيث دارت، وكقائد مركبة يتصرف وفق طريق يسلكه.

إنه لا مانع من سن أطر أساس لعمل المؤسسة، متوافقة مع عملها الذي أسست له، مع الإبقاء على صلاحيات، يتصرف من خلالها الموظف، وطالما كان كفؤا أمينا جديرا.

وإنما تصاب جهة الإدارة بالفشل، وحين تكبل أيدي موظفيها بقرارات ولوائحها التنفيذية، فضلا عن كبت أصوات الابتكار ومهارات الإبداع، والتي لا يخلو منها أحد، ومهما كانت هنالك من فروق فردية، فطر الله تعالى عباده عليها.

يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. هذا تصرف حسن من نعيم بن مسعود! ولم تكتبه له جهة إدارته! وإنما تصرف وفق ما يراه قادرا مبدعا مبتكرا.

إن القرار الإداري، ولائحته التنفيذية، وخط سيره، كل هذه عوامل مكبلة لطاقات الإبداع والتصرف الحكيم، أنباك عنه إطلاق طاقات نعيم بن مسعود خلابة مؤثرة! ودون مثل ذلك، وحين كفى قرار إداري، واضح لا غموض فيه، موجز لا يتيه المستقبل بين فقراته وفواصله! معلوم لا جهالة فيه، مشروع لا تجاوز له، وإنما يحمل المستقبل على الدفاع عنه، فضلا عن إعماله، نصا وروحا، وبكفاءة واقتدار تامين تامين.

إن إبداعا رأيناه منقطعا، وحين ألب نعيم بن مسعود صفوف الأحزاب بعضها على بعض، وليشغلهم بأنفسهم؛ ليخرج نبينا صلى الله عليه وسلم وجنده من بينهم جميعا سالمين، وهذا فن استخباري!

أقدم قصة تخذيل نعيم بن مسعود هدية أمام أجهزة استخبارات أمتنا، معينا غدقا، يرفلون في عزها مجدا، وينعمون من إثرها فوزا، ويخرجون من توها سلما سلاما وأمنا أمانا.

إن حبك عمل جهاز الاستخبار فن! وانظر كيف صنع نعيم ببني قريظة، إمكان تعميتهم - وجميع أطراف المنازعة - وحين كان يوم سبتهم، وبحيث منه لا تنكشف خطته الباهرة الماهرة! وحين كان اعتذارهم عن مشاركة قريش وغطفان أمرا مقبولا ولا يحمل حدس تأليب بعضهم على بعض! وهو سلوك ولا شك سديد، ينبغي درسه بإمعان، ويجدر فحصه بإتقان.

وإذ عمل نعيم عمله، ففرق الله به شمل الأحزاب، وأرسل صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان، تأكيدا لما صنع، وهذا فن استخباري آخر، وليصير فن الاستخبار عملا مركبا مضاعفا ناجحا بامتياز!

إن توزيع الأدوار بين موظفي جهة الإدارة قمن بنجاحها: وهذا حين أسندت مهمة نعيم تفريق شمل الأحزاب، وحين أسند لحذيفة بن اليمان متابعة أمرهم لنهايته.

وإذ ضعف خبر تخذيل نعيم بن مسعود، لكن خبر حذيفة شاهد له قوي، في صحيح مسلم. برهان عمل استخباري باهر، كانت أمتنا بحاجة إليه، تاريخا مجيدا!

المبحث السادس عشر: عمل حذيفة بن اليمان يوم الخندق

عن حذيفة، قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعودا، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أشد ريحا، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحد منا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقولون: {إن بيوتنا عورة وما هي بعورة} [الأحزاب: 13]، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له، فينسلون، ونحن ثلاث مئة أو نحو ذلك، إذ استقبلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا رجلا، حتى مر علي وما علي جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، فأتاني وأنا جاث على ركبتي، فقال: من هذا؟ فقلت: حذيفة. قال: حذيفة؟ فتقاصرت إلى الأرض، فقلت: بلى يا رسول الله؛ كراهية أن أقوم. قال: قم. فقمت، فقال: إنه كان في القوم خبر، فأتني بخبر القوم. قال: وأنا من أشد القوم فزعا وأشدهم قرا، فخرجت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته. قال: فوالله ما خلق الله فزعا ولا قرا في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد منه شيئا. فلما وليت قال: يا حذيفة، لا تحدثن في القوم شيئا حتى تأتيني. فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نارلهم توقد، وإذا رجل أدهم ضخم، يقول بيده على النار ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل. ثم دخلت العسكر فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر، الرحيل الرحيل، لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز شبرا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضربهم. ثم خرجت نحو النبي صلى الله عليه وسلم، فلما انتصفت بي

الطريق أو نحو ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارسا معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم. فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبرته وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزبه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم؛ أني تركتهم يترحلون، وأنزل الله: **{يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود}** [الأحزاب: 9] الآية[1] .

عن يزيد بن شريك التيمي كنا عند حذيفة، فقال رجل: لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلت معه وأبليت، فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟ فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم، فلم أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: اذهب فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم علي، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهما في كبد القوس فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولا تذعرهم علي، ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم، وفرغت قررت، فألبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم من

---

(1) فتح القدير الشوكاني: 376/4. خلاصة حكم المحدث: له طرق.

فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائما حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: قم يا نومان[1] .

وعن حذيفة بن اليمان عن محمد بن كعب القرظي قال: قال فتى منا من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه؟ قال: نعم يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولجعلناه على أعناقنا، قال: فقال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل هويا، ثم التفت إلينا فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم -يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يرجع- أدخله الله الجنة، فما قام رجل، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل، ثم التفت إلينا، فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع -يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة- أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة، فما قام رجل من القوم مع شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: يا حذيفة، فاذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا، قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل ما تفعل لا تقر لهم قدرا، ولا نارا، ولا بناء، فقام أبو سفيان بن حرب، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه، فقال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام؛

---

(1) صحيح مسلم: 1788

لقد هلك الكراع، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، والله ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تحدث شيئا حتى تأتيني، ثم شئت؛ لقتلته بسهم. قال حذيفة: ثم رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحل، فلما رآني أدخلني إلى رحله، وطرح علي طرف المرط، ثم ركع وسجد وإنه لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر. وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا إلى بلادهم[1] .

عرض نبينا صلى الله عليه وسلم من يأتيه بخبر الأحزاب، فما قام أحد؛ من شدة الخوف والجوع والبرد! وهذه ثلاثة عوامل بعضها أشد من بعض، وإذ يمكن ان تقعد شجاعا، وإذ يجوز أن ترهق أسدا!

حين عرض نبينا صلى الله عليه وسلم من يأتيه خبر الأحزاب، ولم يقم أحد، فلم يعنف أحدا! ولعلمه أن خوفا قد سيطر، وأن جوعا قد زمجر، وأن بردا قد دثر: وهذه واقعية قائد موضوعي تمثلت في خص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم!

إن اختيار حذيفة يوم الأحزاب للتسلل بين فرقائهم، برهان وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وديننا لا تعرفه عشوائية، بل نظام وانضباط وتوزيع مهام.

---

(1) تخريج المسند، شعيب الأرناؤوط: 23334. خلاصة حكم المحدث: صحيح، التخريج: أخرجه من طرق مسلم (1788) بنحوه مختصرا، وأحمد (23334) واللفظ له.

إن ما أصاب جهات الإدارة المختلفة من شلل، كان جراء ما اعتورها من فشل، وحين أسندت أعمال لغير ماهرين بها، كانوا يصلحون في غيرها عملا مناسبا وبحيث يمكنهم تنفيذه بحفاوة واقتدار.

يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا: هذا قرار إداري كامل الأركان! أما تنفيذه فحسب مرئيات المستقبل وما تمليه طبيعة الميدان من حوله!

يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا: إن من خصائص القرار الإداري كونه جامعا مانعا وبأقل عبارة ممكنة.

يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا: إن إيجاز القرار الإداري، يمكن المستقبل من فهمه وإحاطته، وبحيث يكون نافيا للجهالة، ومن ثم يمكن تفعيله وتنفيذه، وعلى أكمل ما يكون ذلك.

يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا: إن ما يعيب القرار الإداري، وحين يكون مترهلا، حمال أوجه، وبحيث يواجهه المستقبل، غارقا في تأويلاته، وبدل أن يكون جامعا مانعا معينا على تنفيذه بمهارة، ولكنه ولما كان بهذه المثابة حمال أوجه، مما يكون سببا موضوعيا ألا يكون تنفيذه على مراد مرسله، وهذا ما نأى عنه قرار نبينا صلى الله عليه وسلم.

يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا: إن متابعة القرار الإداري من إصداره إلى نفاذه وتنفيذه، يعد عملا ملائما، ويدخل في اختصاصات مرسله، وهذا الذي أشتمه من حيث أمره صلى

الله عليه وسلم حذيفة بالذهاب نقطة ابتداء إعمال القرار، ومن حيث قوله صلى الله عليه وسلم: حتى تأتينا، كنقطة انتهاء للقرار الإداري!

يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا: وفيه إثارة الانتباه لدى المستقبل، بندائه، وباسمه، لتحديد المخاطب بالقرار، والمستقبل له، علما نافيا للجهالة، ومهما كان قدرها.

يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا: إن الاتصال الجيد من عوامل نجاح جهة الإدارة في أداء مهامها، وهذا ما لمسناه من سياق الحديث وإذ إن المرسل وهو نبينا صلى الله عليه وسلم، وإذ يشافه المستقبل وهو حذيفة رضي الله تعالى عنه. وهذا عامل موجب لنجاح عملية الاتصال.

يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا: (ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا)، إن الإسرار ببعض المهام الموكلة إلى المستقبل داع من دواعي نجاحها بامتياز، وهذا فن إداري.

يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا: هذا أمر حازم، سمة من سمات القرار الإداري، وإذ لطف من صفته اشتماله بالنداء سبقا عليه! وهذا فن إداري ممتاز.

عمل جهاز الاستطلاع: كانت مهمة حذيفة بن اليمان استطلاعية، ولعله صلى الله عليه وسلم أراد أن يزداد يقين الذين آمنوا، حيث الريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء.

كانت مهمة حذيفة يوم الأحزاب أن ينقل ما رآه، وحيث دب الرعب في أوصال الذين كفروا، ومن ثم ينقل حالة رآها، ليزداد الذين آمنوا إيمانا مع إيمانهم.

وهذا وصف حذيفة دقيقا موجزا لما حل بالقوم آنذاك: وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا، فو الله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضرب بها[1].

ومنه ما سبق حديث الباب آنف الذكر حيث قال رضي الله تعالى عنه: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل ما تفعل لا تقر لهم قدرا، ولا نارا، ولا بناء.

ولولا عهد رسول الله ﷺ إلي: لا تحدث شيئا، حتى تأتيني لقتلته بسهم: هذا قول حذيفة، وحين أمكنه الله من أبي سفيان، لولا عهده ﷺ إليه!

إنه رغم أن قتل حذيفة لإمام الكفر أبي سفيان يعد مكسبا نظريا على الأقل، إلا أنه كان سيكشف مهمته الاستطلاعية، وكانوا سيأخذونه ثأرا.

كم كانت طاعة الصحب الكرام لنبيهم ﷺ، وانظر كيف أمكن الله تعالى حذيفة من إمام الكفر أبي سفيان يوم الأحزاب، لكنه يحجم ولعدم أمره ﷺ بذلك!

إن مهام الاستطلاع لا تقل خطورة عن مهام الاستخبار، وكلاهما جنب إلى جنب عاملان حاسمان في إحراز نصر مؤزر، وحين كان إعمالهما على وجهيهما.

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ١٣٢

وانظر كيف كان حفاظ نبينا ﷺ على أرواح جنده؟ وحين أمكن حذيفة ضرب عنق أبي سفيان، إلا أنه كان سوف لا يعود، ولأن قريشا كانت ستثأر به!

إن المحافظة على أرواح الجند مسؤولية القائد العظيمة، ما أمكنه ذلك، ولأن واحدا منهم يعدل أمة بأكملها، وكمثل حذيفة، وألا ينكشف أمر استطلاعه، والفرض انه حافظ على سريته، وأثناء قيامه بمهمته.

إن مهمات الاستطلاع غاية في السرية، وهو ما يوجب الالتزام بتدبير القائد، مع ما أمكن من تصرف تقديري، تمليه طبيعة هذه المهام، وبلا تعارض.

وانظر إلى حذيفة! وحيث راح من عند نبينا ﷺ، وعاد إليه، كل هذا مباشرة، ودون ممارسة أية أعمال أخرى، قد تعقد أو تبطئ من سيره، فتعد كاشفة لمهمة استطلاعه.

من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع -يشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة- أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟ ولأن مهمات الاستطلاع خطيرة بمكان، فكان حافزها كما ترى مرافقته ﷺ يوم القيامة، في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

إن الصحب الكرام كانوا يقومون بأعمال عالية كعلوهم، وإنما تهد لها الجبال هدا، وحين يعرض أحدنا عمله أمامهم، فحياء لا ند له، واستصغار لا مثل له!

إن التزام حذيفة بمهمة استطلاعه الأولى كان كفيلا ألا ينكشف هو والمسلمون تبعا له، ولذا قال ﷺ: اذهب ائتني بخبر القوم، ولا تذعرهم علي.

قم يا نومان: هذا لطفه ﷺ مع أمته، وحين رجع حذيفة مرهقا، أثر مهمة استطلاعه، فنام وغطاه نبينا ﷺ بعباءته! وهو نداء ممزوج برحمة، تكتنفه شمائلها من كل صوب.

تداول حذيفة وجلساؤه يوم الأحزاب فقالوا: أما والله لو كنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا. فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك[1]. وهذا من مثل قوله ﷺ لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، إذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله تعالى، فإذا صيحوا وأجلبوا فعليكم الصمت[2].

حتى أتى علي وما علي جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي، ما يجاوز ركبتي: هذه صفة صفوة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم! وهو من مثل حديث بابنا وحين قال: فلما رآني أدخلني إلى رحله، وطرح علي طرف المرط، ثم ركع وسجد وإنه لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر.

حتى أتى علي وما علي جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي، ما يجاوز ركبتي: وهذا اخشوشان، أثمر أبطالا، هانت عليهم دنيا، كان ذلكم نصيبهم منها!

وإذ كان هؤلاء قوم هذا وصفهم، فما بقي من دنياهم شيء يحرصون عليه، وهذه هي القدوة في أشمل أبوابها، وهذه هي الأسوة في أخص معانيها.

إنه كائن في القوم خبر، فأتني بخبر القوم: هذا استشعار نبي بما حل بالأحزاب! يقينا فثم، وحيا فثم، إلهاما فثم، عيونا أخر فثم، كل ذلك فثم!!

---

(1) السيرة النبوية، ابن كثير: ج ٣ / ٢١٩

(2) الفتوحات الربانية، ابن حجر العسقلاني: 67/5. خلاصة حكم المحدث: حسن لشواهده.

اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته: هذا دعاء نبينا صلى الله عليه وسلم لحذيفة، وحين لنطلق لأداء مهمة استطلاعه يوم الأحزاب، وهذا سنن نبوي كريم، وهذا هدي اقتدائي قويم، وإذ ينسحب ترسمه، وفي كل خطوة يخطوها مسلم، ولأن العون والتوفيق والإلهام، إنما كل ذلك من عنده تعالى، فلا غرو إذن أن يدعي، ولا عجب إذن أن يقصد سبحانه.

وهذا أمر بدهي إذ كان في عقدنا - نحن معاشر المسلمين - أن الدعاء حصننا، وكل حين من أمرنا، لاسيما شدائده، وخاصة عظائمه، وكمهمة استطلاع!

وإن دعاء القائد لجنوده لسبب باعث لأمنهم ورغدهم، وبث الطمأنينة في قلوبهم، وبحيث كان في عقدنا أيضا أنه لا يغنيهم عنه تحصين حصن، أو إحراز مدفع!

فو الله ما خلق الله فزعا، ولا قرا في جوفي، إلا خرج من جوفي فما أجد فيه شيئا: وهذا أثر دعائه صلى الله عليه وسلم لحذيفة يوم الاستطلاع! سنة دعاء، وقدوة رجاء!

لا مقام لكم، فارجعوا! هذا نص ما قاله الأحزاب، وجاء به التنزيل الحكيم، وذكرى لكل حال مناسب! ويوم أن أرجفتهم ريح لم تروها، وعذب الله الذين كفروا! ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ۚ وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾[الأحزاب:9].

﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ۚ ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ۖ إن يريدون إلا فرارا﴾[الأحزاب: 13].

إذا أنا بنحو من عشرين فارسا أو نحو ذلك معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه. هذا قوله تعالى: وجنودا لم تروها! يوم الاحزاب، سبيلا أبدا.

حين رجع حذيفة من استطلاعه، وجد نبينا صلى الله عليه وسلم يصلي، وكان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر نهض قائما يصلي! فاشتمل الأحزاب ريح، وملائكة، وصلاة، ولهث، ودعاء، وما بقي لدكهم دكا؟!

إن عجبا يزداد عجبا، وحين يفزع نبينا صلى الله عليه وسلم في شدائده إلى الصلاة، وما أنت ترى نفرا لا يصلي، لا في شدائده، ولا في رخائه، وإذ ما بقي له من ركن ركين؟!

المبحث السابع عشر: ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ۚ وكفى الله المؤمنين القتال ۚ وكان الله قويا عزيزا﴾[الأحزاب:25]!

﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ۚ وكفى الله المؤمنين القتال ۚ وكان الله قويا عزيزا﴾ [الأحزاب:25]! وهذا إعجاز السماء، وحين كان الرد منه تعالى، وعن الذين آمنوا، ومعه لا تبقى لهم بقية من عود، ولو من طرف خفي.

﴿ ورد الله ﴾: هكذا؛ ولأنه حينها يكون الرد مضاعفا مركبا؛ ليعطي معنى النكال والإثخان أجمعهما، وجزاء فعلهم، ولقاء مكرهم.

﴿ ورد الله ﴾: وفيه معنى الانكفاء، والإحراج البليغ، فتكاد منه تسقط لحوم وجوههم، وحين ردوا على أعقابهم خائبين!

ولو ردوا دون غيظ لهان الأمر! لكنهم عادوا، وإذ ها هم أولاء كمرجل يرتج غليانا، تحته نار تلظى! أنباك عنه لفظ القرآن المجيد، وحين كان مختارا بأمر منه تعالى، وهو سبحانه إذ يقول: ﴿ بغيظهم ﴾!

وإذ قد ردوا بغيظهم كله! وماذا تبقى لهم من راحة، وهم إذ تغلي منه أمخاخ رؤوسهم؛ جزاء صنيعهم ومكرهم؟!

وهذا النظم كناية عن تملك الغيظ كل مشاعرهم، وحلوله كل قطرة منهم، بحيث ينشغلون في دفعه، وماهم قادرون!

﴿ الذين ﴾: اسم موصول، أفاد تقرير الجزاء، وحلول العقاب، ولزوم النكال، واتصال العقاب، وشمول الإهانة!

﴿ بغيظهم ﴾!هكذا بضمير الجمع؛ ليعطي معنى إشتمالهم وإشمالهم غيظا جميعهم، فلا يكادون يستريحون لحظة واحدة!

﴿ بغيظهم ﴾!هكذا بضمير الجمع الغائب، كناية عن كراهية ذكرهم، وذما لهم، وصنيعهم، فقد أذوا ربهم، وقد زكمت منهم أنوف المؤمنين.

﴿ بغيظهم ﴾! فيه معنى الاتصال والإلصاق بالغيظ، وهذا وصف تقشعر منه جلود الذين آمنوا!

﴿ بغيظهم ﴾! هذا كناية عن مدى حنق الكافرين بالمؤمنين وحين لم يريدوا منهم إلا إيمانهم لهم!!

إن العبد ليقف منبهرا! وحين يريد خيرا بقوم، امتلأت قلوبهم عليه غيظا، وإن هو إلا يريد صلاحهم، وما استطاع إلى ذلك سبيلا!

وإذ جرت العادة أن يمتلئ المرء غيظا، وإذا أراد! وحين يسلب حقا، لكنها لم تجر وحين يراد به هدى وصلاحا، وبدل توجيه شكر، يرده غيظا وحنقا!!

﴿ لم ينالوا خيرا ﴾: فيه معنى الخزي كل الخزي، والخسار كل الخسار، وكأنهم أرادوه، فلم ينالوه، كبتا ونكدا!

﴿ لم ينالوا خيرا ﴾! ولو خيرا واحدا، وما أكثر ما ابتغوا نيلا من العباد المساكين، وإذ بهم ينكفؤن عنهم وبردهم خائبين!

﴿ لم ينالوا خيرا ﴾! ولو واحدا منهم! كناية عن حسرة عامة، وبرهان خيبة تامة، عبرة لمعتبر، وعظة لمتعظ، وتبصرة لبصير.

وفيه تجسيم للخير؛ لزيادة حسرتهم، فها هو أمامهم، وماهم بقادرين تحصيله، كله أو بعضه، حرمانا ونكالا.

ولأن الرد في الحقيقة كان منه تعالى، وإلا فقد كانت أسباب ساقها الله تعالى، من ريح عاتية، وملائكة ضاربة، ومن تثبيت الله آمنوا.

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ أي: لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم، بل صرفهم القوي العزيز بحوله وقوته[1]

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ الكفاية: هي ذلك الحد البالغ شبعا من شيء ما، وبحيث لا تتبقى بقية في النفس لشيء منه بعدا! وهذا تعبير ضاف كاف.

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٤ /١٣٢

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ أي: كفاهم الله القتال، مع ما كانوا قد أخذوا به من أسبابه، دينا يركل التواكل، وعقيدة تأبي التكاسل، وسبيلا يقر التوكل.

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ أي: لو لم يكونوا قد أعدوا لهذا القتال عدته من قبل، فما ذاقوا لمفاجأة به حلاوته!

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾: وهذا مواجهة بكفار أملوا نصرا، فردوا بغيظهم، وبضدها تتميز الأشياء، وحين أراد الكفار نصرا فمنعوه، وحين تجهز المؤمنون للقتال فكفوه!

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾: وكان من كفايته شكرهم، وحين أراحوا قلوبهم بذكر ربهم، وبصلاتهم فوائت أربعا، دلك به على شدة جاء من بعدها الفرج!

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾: ومنه الحديث: الآن نغزوهم ولا يغزوننا. وهذه منحة تولدت من رحم محنة يوم الاحزاب! وإذ كان بدار بالقتال ميمونا.

فعن سليمان بن صرد: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: حين أجلى الأحزاب عنه: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم[1]. ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾: ومنه الحديث: لن تغزوكم قريش بعد عامكم، ولكنكم تغزونهم[2]. : وهذا فقه نبي بكلام ربه سبحانه، وكما وأنه علم على نبوته صلى الله عليه وسلم في آن!

---

(1) صحيح البخاري: 4110

(2) إمتاع الأسماع، المقريزي: ج ١٣/٢٩٦

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾: فلم تغز قريش بعد ذلك، وكان يغزوهم نبينا صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، حتى فتح الله عليه مكة[1]

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾: وهذا إعجاز قرآننا؛ لأنه لم يقع بعد أن غزت قريش نبينا صلى الله عليه وسلم، وإنما كان البدار منه صلى الله عليه وسلم بغزوهم، ومنه يوم فتح مكة المبين!

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾: هذا تحدي قرآننا! وإذ كان يمكن لقريش أن تبادر بالقتال تحديا لهذا الكف، وإذ لم تفعل، فثبت صدق إسلامنا، وبهتان أعدائنا.

﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾: وإذ لا يفعل ما كان من رد للكافرين وبغيظهم كله، وكفاية المؤمنين القتال، إلا قوي عزيز، قوي في أمره وغلبته، عزيز في نقمته.

﴿ وكان الله قويا عزيزا ﴾: هذا إعمال إيجابي لأسمائه تعالى وصفاته في مظانها إذ لم يكف المؤمنين القتال إلا قوي وإذ لم يدحر الكافرين إلا عزيز.

﴿ وكان الله قويا عزيزا ﴾: لابد من ميدان عملي، لنفهم منه قوته، وندرك به عزته- سبحانه- وهذا الذي به نذوق قدس الأسماء وعز صفاتها، وإلا كان كلاما مجردا.

---

(1) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ج ٣ /٤٨٥

المبحث الثامن عشر: خاتمة في أهم نتائج غزوة الأحزاب

أن تنتهي غزوة كبيرة كيوم الخندق وباستشهاد ستة! ومع نصر كاسح، كهذا الذي رأينا، فهذا ما ند التاريخ بمثله، مدار زمانه كله، وهذا إعجاز باهر!

أن تنزل سورة الأحزاب، وباسم يوم الأحزاب، فهذا تخليد أبدي لهكذا غزوة، كان من أعلامها دك حصون الأحزاب، ودون إطلاق رصاصة واحدة، سننا ميمونا نتأساه، وهديا نبويا نقتفيه.

أن تتبوأ سورة الأحزاب قرآننا، وكعلم على يوم الأحزاب، برهان بقائها في ذاكرة كل مسلم، وبعدد ما يختم كتاب ربه أسبوعيا أو شهريا؛ ليركل حجابه قائما!

أن يستمر حصار الأحزاب للمؤمنين حوالى شهر، وما ازدادوا ألا ثباتا، ويقينا بنصر ربهم، إلا ويأتيهم كفاء، ودون قتال، برهان مكافأة السماء لصابر جلد.

توجت غزوة الأحزاب بسياجات الاستخبار عن بعد، وكنعيم بن مسعود، وبطلائع الاستطلاع، وكحذيفة بن اليمان؛ ليأتي النصر، منحة السماء، لقوم جاهدوا في ربهم حق جهاده.

تقلدت غزوة الأحزاب تاريخا مجيدا، ويوم إبداع مكيدة حفر الخندق، فنا عسكريا، لم تشهده العرب من قبل، برهان تحديث القوات المسلحة أبدا!!

كان حفر الخندق كسلاح متطور جديد، باغت قريشا، فأفقدها توازنها، وبحيث قلب عليها خططها، وكرأس المجن، فلا تكاد تلملم أوراقها المبعثرة!

كان يوم الأحزاب علما على نبوته صلى الله عليه وسلم، وحين استعصت صخرة فهشمتها يده الشريفة، بركة باسم الله! وأنه النبي لا كذب، وأنه ابن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم!

كانت غزوة الاحزاب برهانا على جواز تأخير الصلاة، لداعي الحرب والحصار، ومن ثم تقام الفائتة، ريثما يفوت عذر تفويتها، يسر دين، وسماحة عقيدة.

كانت غزوة الأحزاب دليلا على صلاة بأذان وإقامة، لكل فائتة على حده، قياسا على الأصل، واستصحابا له، ولا موجب لصرفه عن أصله، حتى ولو كانت فائتة.

كانت غزوة الاحزاب برهانا على علو همة صحب كرام، وحين لم يخلدوا إلى فتن، كقطع الليل المظلم، يحسبها الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا!

كانت غزوة الأحزاب برهانا على أن جيلا يعي مسؤولياته تجاه دينه، ويعلم حس المرحلة، وفقه واقعها، لا يغض طرفا عن أعالي الأمور، وسامق القيم!

كانت غزوة الاحزاب مثالا لإعمال فقه عرفوه، لا كثقافة ذهن، وتسلية وقت، وإنما بذل ابتغاء وجه ربهم الأعلى؛ ليحفرهم التاريخ في ذاكرته، جيلا يحتذى.

كانت غزوة الأحزاب برهان صبر واحتساب، وحين عصبوا بطونهم جوعا، ثلاثة أيام طاوية، وهم أولاء يحفرون خندقا، يعوزه إمداد وتموين كافيين!

كانت غزوة الأحزاب برهان علم نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم، وحين كفى صاع من شعير وماعز صغيرة ألفا، جاءوا ثلاثة أيام خالية! وهم إذ يحفرون خندقا صخرا شمالا.

كانت غزوة الاحزاب برهان كرم جابر وزوجه سهيمة رضي الله تعالى عنهما، وإذ إن المسلمين كجسد واحد، يعيشون بعضهم هم بعض، فنالوا بذلك أجرا عظيما!

كانت غزوة الأحزاب برهانا أن يد الله تعالى أبدا فوق أيدي المؤمنين، ويوم يأخذون بالسبب، صدق توكل، ضاربين التواكل بيمين ثلاث، غير حانثين فيه!

كانت غزوة الاحزاب بيان أن الله تعالى عزيز غالب، ولا يغلب، وحين دك بقدرته حصون الكافرين، وبقوله تعالى للشيء كن فكان، أمرا منه ميمونا!

كانت غزوة الاحزاب إعجازا من بدئها إلى انتهائها؛ ليفتح الله بها قلوبا غلفا، وأعينا عميا، وآذانا صما، غرتها نبالها، فدكها ربها دكا، فجعلها قاعا صفصفا! كأن لم تغن بالأمس!

كان يوم الأحزاب برهان أنه تعالى مع المؤمنين لحظة بلحظة، وحين أيدهم بجنود من عنده، وأن أحدهم ليبسط جناحيه؛ ليسد بهما ما بين المشرقين!

كان يوم الأحزاب خاتمة جهاد دفع؛ ليبدأ من بعده جهاد الفتح المبين، وبسطا لدين الله رب العالمين، لإحلال النور محل الظلام، والرشد مكان الغي.

كانت غزوة الأحزاب دليل الحيارى والتائهين، ألا فدونكم السبيل، سبيل حذيفة استطلاعا، وجابر كرما، ونعيم استخبارا، وافرنقعوا عما لا يمكن أن يسمن، ولا يغني من جوع!

نداء إلى المستكبرين: لا يغرنكم حصنكم، فإن حصن الله أحصن، وانظروا يوم الأحزاب، وحين كفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا فهزمكم، عزيزا فغلبكم.

نداء إلى المؤمنين: لا تيأسوا من روح الله، فدونكم شرعه وأمره، ولا عليكم من بعدها؛ لأن الله كافيكم شر أعدائكم، واعتبروا بيوم الأحزاب، يا أولي الأبصار!

الفصل الثاني: غزوة بني قريظة

بين يدي الغزوة: تعد غزوة بني قريظة برهانا، ومن براهين عديدة، على أن هذا الدين متين! ولأنه هكذا كان هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وها هو قد وضع سلاحه توا، ومن رجوعه من غزوة الأحزاب، منصورا بأمر ربه تعالى، وإلا أن مكامن الخطر ما زات ماثلة، ومن عين السماء، حارسة لهذا الدين، ومن ثم كان سؤال جبريل عليه السلام لهذا النبي صلى الله عليه وسلم آية وبرهانا، وحين سأله عما إذا كان قد وضع سلاحه، وها هم الملائكة الكرام البررة، وما زالوا يمسكون من أعنة أسلحتهم؛ وبرهانا آخر على أنه الله تعالى ينزل ملائكته، جندا مخلصين ذابِّين عن دينه، وعونا لجنده الغر الميامين، وهو هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكذا صحبه الكرام البررة رضي الله تعالى عنهم.

وفيه مباحث:

المبحث الأول: عظم شين نقض الميثاق!

قال الله تعالى ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسيةۖ يحرفون الكلم عن مواضعهۙ ونسوا حظا مما ذكروا بهۚ ولا تزال تطلع علىٰ خائنة منهم إلا قليلا منهمۖفاعف عنهم واصفحۚ إن الله يحب المحسنين﴾ [المادة:13].

يكفي هذان الأمران: حلول لعنه تعالى، وجعل القلب كأشد قسوة من الحجارة، وحين كانا عاقبة خلف الوعد، وضرب العهد، ونقض الميثاق. فصارتا اثنتين بواحدة، ولأن الواحدة جرمها أعظم، ولأن إثمها أكبر، فبها يخرج الإنسان نفسه من عباءة الدين، لباس الستر والأمان والعافية.

إن الاستهتار بالعهد صفة مقتها ربنا تعالى، وهو ما أنبأنا عنه نظم آيتنا محل البيان؛ ولذا فقد أحل تعالى ببني قريظة خزيا، وحين أخلفوا الله ما وعدوه مع نبينا صلى الله عليه وسلم، حذر فعلهم، ونقض ميثاقهم، لا هديا محمودا، بل سننا مذموما.

وإذ جمعت بنو قريظة بين شرين معا: فها هم يصرون على يهوديتهم، وقد علموا صدق نبينا صلى الله عليه وسلم، وكما أنهم كانوا منافقين بخلفهم عهدهم، وحين ناصروا الأحزاب يوم الخندق، رغم عهود موثقة معه صلى الله عليه وسلم!

إنه لمن الشين صفة أن يسجل التاريخ في صحيفة امرئ أنه كان منافقا، فيلحقه عار الوصف، ويتركها لصيقة بذرية لا ذنب لهم، إلا أن أباهم كان منافقا!!

وإذ بلغ من شين النفاق أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ليس تخويفا وحسب، بل حقيقة واقعة، وكأنما قد رسم القرآن مشهدها، رأي العين، وكأنما هي بادية لكل ناظر، ودون قليل عناء، مرهق بصرا، وبل تنفيرا من المنافقين، ومن صنيعهم معا، وهذا بحد ذاته كاف لهجرهم، وواف لبترهم وقطعهم، وبحيث يبقون أسارى ما أخلفوه، فلا تقربهم بيئة، ولا تسعد لهم حياة!!

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا﴾[النساء:145]: وأفهم أنهم فيها! ليس مصيرا محتوما مقيدا بيوم القيامة وحسب! وهذا مشهد مرعب حين محاولة مجرد تصوره! لأنهم سبقوا غيرهم إلى

النار، وكسبقهم إلى نفاق ذلك الغير!! ولأن الجزاء من جنس عمل صاحبه، ولأنهم كانوا في غنى عما كشف سوأة، أو أظهر حشفا وسوء كيلة! والله المستعان!

ولعل قولنا هذا ممهور من صدق حديث نبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم وحين قال: فينادي مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابا إلى النار قال: فيأتيه من حرها وسمومها قال: ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه.

فعن البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأنما على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه، فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين، أو ثلاثا، زاد في حديث جرير هاهنا وقال: وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له: يا هذا، من ربك وما دينك ومن نبيك؟ قال هناد: قال: ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ قال: فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت زاد في حديث جرير فذلك قول الله عز وجل يثبت الله الذين آمنوا فينادي مناد من السماء: أن قد صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، وألبسوه من الجنة قال: فيأتيه من روحها وطيبها قال: ويفتح له فيها مد بصره قال: وإن الكافر فذكر موته قال: وتعاد روحه في جسده، وياتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: هاه هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول: هاه هاه، لا

أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابا إلى النار قال: فيأتيه من حرها وسمومها قال: ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه زاد في حديث جرير قال: ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار ترابا قال: فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابا قال: ثم تعاد فيه الروح. [1]

وإذ كان يكفي رده تعالى الذين كفروا بغيظهم يوم الأحزاب، أو مما سواه، ولأنه يدخل فيهم منافقو بني قريظة! إلا أنه تعالى أفردهم بنكال، ولإفراد أنفسهم بنقضهم ميثاقهم، وحين أنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب!! حذرا من فعلهم، ونفرة من صنيعهم أبدا أبدا!!

إن عاقلا لينـدهش، وإن حصيفا لينبهـر، وإن عالما ليحار، وحين يقول بعض: إن أهل الكتاب ليسوا كفارا! وكأنما كان فتنة لهم، وكيما لا يؤمنوا، فقدم لهم غشهم على مائدة ندية! من غير ما يسد رمقا، أو يروي ظمأ! وإنهم يوم القيامة ليأخذون حقهم منه، غير منقوص، وحين زادهم فتنة على فتنتهم!!

إذ، وماذا نحن قائلون ومن بعد قول ربنا سبحانه ﴿**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ۚ ما ظننتم أن يخرجوا ۖ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ۖ وقذف في قلوبهم الرعب ۚ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾[الحشر:2]!

(1) صحيح أبي داود، الألباني: 4753

﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾هذا نص قرآننا، وكيما يطمئن المؤمنون أنهم وحين يرون جبهة الكفر عريضة! فلا يزيدهم هذا إلا يقينا وتسليما بأن الله تعالى قذف في قلوبهم جميعا، الرعب جميعا أيضا، وليولوا مدبرين، حين مجابهة، أو يتوارون خلف الغرقد، أو يسومونهم سوء العذاب، وهذه أحوال تجعل الحليم حيرانا! ولم لا يؤمنون فيحصل لهم أمنهم في الدنيا وفي الآخرة؟!

وإذ كان من دعاء نبينا صلى الله عليه وسلم حين يقفل من حج أو عمرة أو غزو أن يكبر ويهلل، ويثني عليه تعالى أنه هزم الأحزاب وحده! وهذا إقرار بعبودية نبي، وانخلاع من بقية نفس، لا وجود لها حقيقة أو وهما أو خيالا، ولكنه ذلكم الإخلاص، ولكنه ذلكم الإخبات، وحين علم صلى الله عليه وسلم، ويعلمنا أن الحق لله! وأنه تعالى هو الحق المبين سبحانه.

فعن عبدالله بن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قفل من الغزو، أو الحج، أو العمرة؛ يبدأ فيكبر ثلاث مرار، ثم يقول: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون، عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.[1]. هكذا! ليظل فعل الأحزاب محفورا في ذاكرة التاريخ، فلا ينسى، ولأنه: ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدىٰ هدى الله أن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ۗ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ۗ والله واسع عليم ﴾ [آل عمران:73]!!

---

(1) صحيح البخاري: 1797

وحين قفل نبينا صلى الله عليه وسلم من الخندق إلى المدينة ظهرا، وإذ وضع سلاحه، ليأتيه أمر ربه بالخروج يومها إلى بني قريظة! وما ذلك إلا لعظم خطر النفاق فيبتره وأهله معه، ولأنه شوكة في خاصرة أمة، إذا بقي فكان استئصاله دينا وصلاحا للعالمين.

المبحث الثاني: أوضعت السلاح يا رسول الله؟!

عن عائشة أم المؤمنين لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم قال: فإلى أين؟ قال: ها هنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم[1]. وفيه تسلح الملائكة الكرام البررة عليهم السلام.

وعن عائشة أم المؤمنين أيضا: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع يوم الخندق ووضع السلاح، واغتسل فأتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار، فقال: وضعت السلاح فوالله ما وضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأين قال، ها هنا، وأومأ إلى بني قريظة، قالت: فخرج إليهم رسول الله ﷺ[2].

أوضعت السلاح يا رسول الله؟! هذا سؤال الملك جبريل عليه السلام لنبينا صلى الله عليه وسلم عجبا! وإذ لا عجب، ولأنه صلى الله عليه وسلم لم يشقق على قلب بني قريظة، ولكنه عجب! وحين لم تمهله السماء، وقد وضع سلاحه

(1) المرجع السابق: 4117
(2) المرجع السابق: 2813

أولا، حالا لا يناسب خطر خلف العهد، وشين نقض الميثاق، نظاما ليهود، وما انفكت ظواهرهم وقلوبهم منه!

ولأنه قد جرت عادات الجيوش إنشاء حملات تطهير، لإزالة آثار العدوان، والتحقق من لا عوده كرة، أو لا رفع رأسه مرة!

ما وضعت الملائكة السلاح بعدا! وهذا قول جبريل عليه السلام أيضا! ولسنا ندري حقيقة سلاح أولاء الملائكة المقربين، غير أن نصوصا وردت أنهم كانوا يركبون خيلا، ويضربون بالسيوف. وكما دلت عليه آثار يوم بدر وغيره! برهان الأخذ بالسبب الواجب، وإلا فشأن الملائكة أنهم غلاظ شداد، بما أشبه غنيتهم عن خيل أو سيف أو نبل لو رمح!

فعن عبدالله بن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: هذا جبريل، آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب[1]. وقال أبو زميل: فحدثني ابن عباس، قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه، كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة[2].

---

(1) صحيح البخاري: 3995

(2) صحيح مسلم: 1763

إن علم الملائكة سابق علم نبينا صلى الله عليه وسلم علمنا، فضلا عن علمنا. ولأنهم لم يضعوا سلاحهم، وحين وضعه نبينا صلى الله عليه وسلم؛ لسبق علمهم بخبر السماء، وأن بني قريظة نقضوا عهدهم وأخلفوا وعدهم!

أوضعت السلاح يا رسول الله؟! هذا توقير الملك جبريل لمحمد النبي الرسول صلى الله عليه وسلم! أدبا نتعلمه، وسلوكا نترسمه، لتعزروه وتوقروه، ولأنه أمين من في السماء! ولئن كان هذا عهد الملك جبريل عليه السلام به صلى الله عليه وسلم، فغيره من الملائكة أولى، ولأنه من أولي عزمهم.

أوضعت السلاح يا رسول الله؟! وهذا إثبات لرسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن الملك جبريل عليه السلام، سننا يقتدى، وهديا يرتضى ويقتفى، وعلى منكري نبوته صلى الله عليه وسلم أن يعدوا حجتهم، وأمام محكمة العدل يوم القيامة، كان الشاهد فيها جبريل الملك عليه السلام!

إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم، فمزلزل بهم. هذا سبق الملائكة، وطاووسهم جبريل، عليهم السلام أجمعين؛ ولحرب الذين كفروا من أهل الكتاب يهودا! وفيه بعث أمن، وشحذ همم، واستدعاء قيم، لا تبقي أحدا في بيته، ولا تقعد آخر عن همته وبذله، فضلا عن أن يكون رسولا نبيا!

إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم! يعني: كفى بجبريل لهم! لكنه الشد على أيدي المؤمنين، وكيما يتعودوا المبادرة، وكيما ينتظموا المسارعة، وكيما يألفوا المشاركة، أسبابا وقيما، تنهض شاهدة على بذلهم، وإذ كان ذلكم لهم شرفا!

المبحث الثالث: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة

بين يدي المبحث:

هذا بدار نبي لأمر ربه تعالى، وحري بغيره ذلك، ودون لجج، أو حجج، أو تأخير، أو محاجة، أو محاكة، أو مجادلة، أو تأويل، يخرج النص عن نوره، أو يذهب النظم عن هديه وسناه!

وهذه أدبيات المنهج، وكم كان صلى الله عليه وسلم شاحذا هممـا، لكنه يمثل استدعاء، هكذا للأمر في صورة، ليست أمرا، قد تستوحشه نفوس، وإنما بهكذا استدعاء، منح معنى المشاركة!

وأجمل به بيانا جامعا لديننا، وحين كان السمع سابق الطاعة، وحين كانت الطاعة قرينة السمع، فهذان عنوان صدق العبودية، وهما برهان تعظيم الربوبية في القلوب، وأن أمره تعالى فوق كل أمر، ولا سبق لغير أمره عليه، وهذا هو عقد الإسلام الأولي.

إن سمعا قرين الطاعة هو ما يميز مسلما عمن دونه؛ ولأن يهود فصلت بينهما فصلا شنيعا، شنع الله به عليهم، وحين حكى حكايتهم: ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعواۖقالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهمۚقل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [البقرة:93]. ولأن هذا إيمانهم، فنسبه الذكر الحكيم إليهم، وهو براء منه، ولأنه ليس إيمانا في حسابات السماء بوجه، وهذا ما يخيف، وذلكم ما يرعب، وحين يتلمس أحدنا أن هذا إيمان، وأنه يحبه الله! وإذ ليس مستندا إلى حبل من الدليل متين، وهو ما يوجب حزم نفس على ذاتها، ألا تتعبد إلا عن

برهان من الله ورسوله، لأن ههنا العصمة، ولأن ههنا النجاة، ومن دونها لا مجال إلا لتصرم، ولا فكاك إلا من تحلل!

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله تعالى عنهما قَالَ: **قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنْ الْأَحْزَابِ: "لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ"، فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمُ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ"**[1].

هذا حديث صحيح رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وهو حديث يكشف عن مدى ضرورة الإمام للمسلمين، إذ به قوام العدل، وإذ به قيام النظام العام، الموافق لما أمر الله تعالى ربنا الرحمن، وعلى وَفق أمره فعلًا، وعلى أساس نهيه تركًا.

وتلك حيثية غاية في الأهمية؛ إذ في وجود الإمام حفظ الدين وإقامة النظام، واستتباب الأمن، وإذ في انعدامه انخراط عقد الأمة، فترى كل حزب بما لديهم فرحين.

ويَبِينُ منه أن حياة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم القائد الصادق الأمين موقوفة على إنفاذ دين ربه ووحيه، بحيث يعم الأرجاء، وبحيث يشرق بنوره على سائر الأنحاء، ودلَّك على صدق ذلك أن حياته صلى الله عليه وسلم كانت دؤوبة في الدعوة والغزو والجهاد، لإعلاء كلمة ربه، كيما يكون دينُه تعالى ظاهرًا على الدين كله، دلك عليه خصوصًا في أمرنا الآني أنه - وتوًّا - لم يُلملم أوراقه من الأحزاب بعدُ، إلا ويأتيه خبر غدر بني قريظة بالمسلمين في معركة

(1) صحيح البخاري: 899

الخندق رغم العهود والمواثيق التي كانت بين المسلمين وبني قريظة، وهجومهم على نساء المسلمين أثناء انشغال المسلمين في حماية المدينة حول الخندق، ومحاولتهم فتح ثغرة لتمرَّ الأحزاب إلى داخل المدينة، والقضاء التام على المسلمين، فما كان من قائد كمثله، وما كان من رسول كشأنه، إلا أن يأمر جنده: "لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ"، استعدادًا للملاقاة، ونفرة للجهاد، وحماية لبيضة الدين.

وكما أن فيه ضرورة أن يكون الإمام حازمًا وقت لزوم الحزم، حليمًا حين وجوب الحلم، فحزم القائد في مواطن الحزم سداد، وحلم الإمام في مواضع الحلم رشاد، ودلّك على حزمه قوله صلى الله عليه وسلم: "لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ" في عبارة ناطقة بالحزم، لا بل إنها الحزم، وكان الحزم عنوانًا لها!

ودلّك على حلمه قول ابْنِ عُمَرَ رضي الله تعالى عنهما: فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ.

ولَمَّا كان الإمام حازمًا، وعندها وجبت طاعة المأمور، ومنه يكون أمره واجب الانقياد له، فالنهي الجازم يوجب جد المأمور، ومنه ولعل فيه سعة وسع الأمر، بدليل تأخير تعجيل فريق وتأخير فريق آخر.

وفيه رحمة الإمام برعيته – ولا منافاة مع حزمه معهم - خاصة حين توافر موجبات حرصهم، وخصوصًا عند تأكُّده من صدق التزامهم، ومن سيرتهم الحسنة معه، ولا سيما حين يعلم من مخالفتهم انتفاء معنى قصد المخالفة، وإنما

هو من باب الاجتهاد لكيفية تنفيذ أمره، فلا مجادلة بالباطل ولا حجاج، ولا معاندة بإثم ولا لجاج.

وهو أمرٌ يدلنا كذلكم على مدى ما يكون عليه إمام المسلمين من رحمة برعيته، ومدى ما يلزم أن يتوافر عليه من شفقة بأمته؛ لأن ذلك هو ما يتأكد فهمه من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**اللَّهُمَّ مَن وَلِيَ مِن أَمْرِ أُمَّتي شيئًا فَشَقَّ عليهم، فَاشْقُقْ عليه، وَمَن وَلِيَ مِن أَمْرِ أُمَّتي شيئًا فَرَفَقَ بهِمْ، فَارْفُقْ بهِ**"[1].

ومرة أخرى انظر إلى حلمه، وانظر إلى رفقه صلى الله عليه وسلم؛ إذ "فلم يعنف واحدًا من الفريقين"، وحين كان من أمره أَلَاْ "لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إلَّا في بَنِي قُرَيْظَةَ"، وقد كان من شأنهم أن قومًا قد صلُّوا لإدراك وقتها، وقبل فواتها، وأن فريقًا آخر قد تأجل انقيادهم إنفاذًا لأمره صلى الله عليه وسلم بضرورة المسارعة إلى بني قريظة.

وفيه ربط أنظمة الديانة كلها بعضها بعضًا؛ بحيث يكون في عقد المسلم انتظامه فيها كلًّا، وعلى مسافة واحدة، فلا تترك هذه لأجل هذا، ولا يعطل هذا لصالح ذاك، ودلك على صدق ذلك أنه صلى الله عليه وسلم ربط الصلاة بالجهاد، في قول فصل موجز كريم، فإنه إذ يدعوهم لسرعة الاتجاه إلى بني قريظة، إلا أنه يذكرهم بأمر الصلاة، فلا يتركونها لعارض، كمثل هذا أو مما سواه، ولقد كانت الصلاة، ولأنها ركن الإسلام الثاني، إلا أنها ذلكم الزاد الروحي جنبًا إلى جنب لتشد سواعد المجاهدين في سبيله تعالى، وهم إذ يروحون لبذل

---

(1) صحيح مسلم: 1828

المُهَج في سبيل مولاهم الحق ربنا الرحمن سبحانه، فلزم منه التضحية، ولزم له الزاد المعنوي الذي يساعد في البذل، وينهض بهم إلى التفاني.

و"إنما لم يعنف - صلى الله عليه وسلم - الذين أخَّروها لقيام عذرهم في التمسك بظاهر الأمر؛ لأنهم اجتهدوا، فأخَّروا امتثالًا للأمر، لكنهم لم يصلوا إلى أن يكونوا في أصوب من اجتهاد الطائفة الأخرى"[1].

وقال السهيلي وغيره رحمهم الله تعالى: "في هذا الحديث من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث أو آية، ولا على من استنبط من النص معنى يخصِّصه، وفيه أن كل مختلفين في الفروع من المجتهدين مصيب"[2].

وقال أيضًا رحمه الله تعالى: "ولا يستحيل أن يكون الشيء صوابًا في حق إنسان، وخطأً في حق غيره، وإنما المحال أن يحكم في النازلة بحكمين متضادين في حق شخص واحد؛ قال: والأصل في ذلك أن الحظر والإباحة صفات أحكام لا أعيان، قال: فكل مجتهد وافَق اجتهاده وجهًا من التأويل، فهو مصيب"[3].

و"أما اختلاف الصحابة رضي الله عنهم في المبادرة بالصلاة عند ضيق وقتها وتأخيرها، فسببه أن أدلة الشرع تعارَضت عندهم بأن الصلاة مأمور بها في الوقت، مع أن المفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يصلينَّ أحدٌ الظهر أو العصر إلا في بني قريظة المبادرة بالذهاب إليهم، وألا يشتغل عنه بشيء لا أن تأخير الصلاة مقصود في نفسه؛ من حيث إنه تأخير، فأخذ بعض الصحابة بهذا المفهوم نظرًا إلى المعنى لا إلى اللفظ، فصلوا حين خافوا فوت الوقت، وأخذ

---

(1) سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي: ج ٥/20

(2) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني: ج9/514

(3) المرجع السابق: ج9/514].

آخرون بظاهر اللفظ وحقيقته، فأخروها ولم يعنِّف النبي صلى الله عليه وسلم واحدًا من الفريقين؛ لأنهم مجتهدون، ففيه دلالة لمن يقول بالمفهوم والقياس ومراعاة المعنى، ولمن يقول بالظاهر أيضًا، وفيه أنه لا يعنَّف المجتهد فيما فعله باجتهاده، إذا بذل وسعه في الاجتهاد، وقد يستدل به على أن كل مجتهد مصيب، وللقائل الآخر أن يقول: لم يصرِّح بإصابة الطائفتين، بل ترك تعنيفهم، ولا خلاف في ترك تعنيف المجتهد، وإن أخطأ، إذا بذل وسعه في الاجتهاد، والله أعلم"[1].

وعبارة الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى فصل في المسألة؛ حيث قال: "بل الاجماع على أن كلا من الفريقين مأجور ومعذور غير معنَّف"[2].

وأمتنا لها مرجع، ومرجعها هو الرَّسولُ محمد صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، وهو مَرجِعُ الجميع بلا استثناء، وهذا أمر غاية في الضرورة، وغاية في الأهمية؛ إذ به ينتظم عقد الأمة فلا ينفرط، وإذ به قوامها فلا تتفرق؛ ليذهب ريحها سدًى، وإذ به استقامة أحوالها، وإذ به يقام نظامها، على العدل لا الظلم، وإذ به يقام على القسطاس لا الحيف، وإذ به يقام على النظام والانضباط، لا على العشوائية والتخرُّص، وذلك على عكس أمة من الأمم لا يكون لها مرجعها الذي تتزوَّد منه نظام حياتها، فلا يكون لها نظام من أساس، وإنما تحكمها العشوائية المطلقة، وليس لنظام عشوائي من بقاء، ولا يكون لنظام يفتقد إلى النظام - ولو ثقبًا من أمل - الاستمرار، فضلًا عن أن يكون قائمًا من أساس.

---

(1) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي: (98/12)

(2) البداية والنهاية، ابن كثير: ج٤/١٣٥

وإنما الاختلاف أمر وارد على كل أمة أفرادًا وجماعات؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود: 118]، لكن هذا الاختلاف، ولَما يرجع فيه إلى المرجع الأساس، وهو رسول الله محمد صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم في كُلِّ شُؤونِهم أيضًا، لكانت نتائجه مثمرة توفيقًا، ولكانت مخرجاته ضامنة سؤددًا وقيادة وسيادة.

هذا الاختلاف ولَما يرجع فيه إلى كتابها المنزل، وإلى قائد الأمة؛ ليُبيِّنَ لَهُم ما أَشْكَلَ عليهم، أو يُقرَّهم على ما اجتَهدوا فيه، وفي كلتا الحالتين يكون الفلاح نصيب الأمة المؤزر، ويكون النجاح سبيلها المقدر، وانظر إلى مآل الرد إلى الله والرسول، وكيف كان خيرًا وأحسن تأويلًا، فقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: 59].

لكن مجتهدًا له حظُّه من القبول لاجتهاده، وخاصة إذا كان بموجب تأويل سائغ عن رسول الله صلى اللَّهُ عليه وسلَّم، وتقرِّره قواعد الشريعة العامة، وهذا ما حدث يوم قريظة، يوم أن صلى فريق، اعتمادًا على تنجيزية أوقات الصلاة، من مقتضى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [النساء: 103]، ولَما قد تأوَّلوا أمره صلى الله عليه وسلم بقولهم: "بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ"، و"إنما أراد سرعة الخروج"[1]، ولَما قد أخَّرها فريق من مقتضى ظاهر أمره صلى الله عليه وسلم بعدم أدائها إلا في بني قريظة.

---

(1) زاد المعاد؛ ابن القيم الجوزية، ج3/117

بـل إن إثابـة المجتهِـدِ في كُلِّ مـا يُسـوِّغُ الاجتِهـادُ فيـه، أمـر قررتـه قواعـد شـريعتنا، ونظـام أعملتـه أصـول ملتنـا، لانطـلاق الطاقـات الخلابـة، والقامـات المبدعة، فلا حجر عليها، ولا تقتير، ولا تضييق عليها، ولا تسفيه، ولذلك تجد أثر ذلك في تـاريخ أُمتنـا، مـن كونهـا قـادت أُمَمًا، وفتحـت أرجـاءً، ومـا كـان لهـا أن يـتم ذلكم على يديها وهي مكبَّلة الأيدي، وبغلق أبواب الإبداع أمامها، وهو ما كان سببًا في ضياع أمم أخرى، وقفت أمام الإبداع بالمرصاد، وانظر إلى ما حدث لـدى قـوم آخـرين يـوم أن جُـرِّمَ العلمـاء، ويـوم أن حـوكم الحكمـاء، ويـوم أن أُعْضِـلَتَ الابتكـارات، ويـوم أن حرمـت الاختراعـات، ويـوم أن حُبسـت أنفـاس الإبـداع والطاقات الخلاقة إبان عصور الظلام!

وفيه الاهتمام بأمر الصلاة، لحديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **"استَقيموا ولَن تُحصوا، واعلَموا أنَّ خيرَ أعمالِكُم الصَّلاةَ، ولا يحافظُ علَى الوضوءِ إلَّا مؤمنٌ"**[1]، ولأن التربيـة الإيمانيـة جنبًـا إلى جنـب لهـا أهميتها لإقامة سوق البذل والعطاء والتفاني والجهاد.

وهو ليس بيانًا لعِظم شأن الصلاة عمومًا فحسب، بل إنه بيان آخر معه لعظم شأن صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى، على قول ابن عباس وأبي هريرة، وغيرهمـا مـن أهـل الفقـه وأهـل التفسـير[2]؛ كمـا قـال تعـالى: ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** ﴾ [البقرة: 238].

---

(1) صحيح ابن ماجه، الألباني: 226

(2) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ج ٢/٧٥٠

وأسلوب الحديث حصر وقصر - ما وإلا - ليمنح الكلام جزالته، ويكسبه بلاغته، ومنه فحسنت بلاغة البيان، فـ(إنَّ من البيانِ سحرًا، وإنَّ من الشِّعرِ حِكمةً)[1].

وفيه عموم الخطاب، ليدخل فيه عموم المخاطبين، ومنه فلا يستثنى من أمرٍ أحد، ولا يخرج عن نهي مخاطب، إلا تَحلة الضرورات تُبيح المحظورات، وكل بقدره وعلى شرطه، وبحث هذا في موضع آخر.

و"لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ"، فقد عرفنا المخاطِب وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، عرفنا المخاطَب وهو(المسلم)، وعرفنا المخاطَب به وهي (الصلاة)، وعرفنا مكان الخطاب وهو (بنو قريظة)، ومنه فوضوح في القصد مطلوب، وتحديد أسلوب التعبير مرغوب، فذلك هام لشأن استقبال المرسل إليه، وهو أمر هام أيضًا في نجاح عملية الاتصال، وهو أيضًا من جوامع الكلم، فعبارته صلى الله عليه وسلم قصيرة موجزة، ومعانيها مطولة مسهبة!

وامتثال الصحابة للخروج إلى بني قريظة تطبيق عملي لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 51]، ومنه فاختبار صدق الإيمان إنما يكون عند الأمر والنهي.

وإذا كان الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم قد اجتهدوا في كيفية تنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنهم اتفقوا على لزوم الطاعة، ولم يعنِّف بعضهم بعضًا هم أنفسهم؛ لأن المسلمين لحمة واحدة، وذلك لأنك "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ

---

(1) صحيح الأدب المفرد، الألباني: الصفحة أو الرقم: 669

في تَراحُمِهِمْ وتَوادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى"[1].

وفيه تعدُّد طرق تنفيذ الأمر؛ لأنه "إذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجْتَهَدَ ثُمَّ أصابَ فَلَهُ أجْرانِ، وإذا حَكَمَ فاجْتَهَدَ ثُمَّ أخْطَأَ فَلَهُ أجْرٌ"[2]، ومنه جواز تعدُّد أوجه الحق؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لَمَّا لم يعنِّف أحدًا منهم، فدل على أنه الحق، وإلا كان قد بيَّن وإن لم يعنِّف!.

وعلى قول جمهور أهل العلم: "وإنما فيه ترك تعنيف مَن بذَل وُسعَه واجتهَد، فيستفاد منه عدم تأثيمه"[3].

وعلى كل حال، فإنهم لَما كانوا قد صلَّوْا العصر بها - أي ببني قريظة - وبعد العشاء الآخرة، ولَما لم يعبهم الله بذلك في كتابه، ولا رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سنته، فدل على يسر الإسلام وسماحته، وقد دل أيضًا على سعة الأمر وأرْيَحِيَّته وسهولته، وكم كان رافعًا حرجًا عن المسلمين في نداه، وكم كان باعثًا على استدعاء سُبل الخير لاتباعها حيثما وُجدت، وقد نال مسلم حظَّه من الفلاح لاتباع هداه، وقد تحصَّل له من الفوزِ لاقتفاء رشده وسناه.

---

(1) صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: 6011

(2) صحيح البخاري: الصفحة أو الرقم: 7352

(3) فتح الباري، ابن حجر: ج ٧/ ٣١٥

المبحث الرابع: قال الله تعالى﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾[الأحزاب:26].

وهذا جزاء نقض بني قريظة العهد والميثاق:

1 - إنزالهم من صياصيهم، وهو موضع الكبر فيهم! وهذا كناية عن إذلال ومن بعد منعة!

2 - قذف الله في قلوبهم الرعب.

3 - قتل بعضهم وأسر البعض الآخر.

4 - توريثه تعالى أرضهم وأموالهم، وبحيث صارت ملكا تاما للمؤمنين، وشبهه بالميراث لذلك، فلا يقبل طعنا وبوجه ما.

5 - تمليكهم أرضهم، وبحيث كان يعز ذلك؛ ولحصونهم المنيعة.

وهذا حشد هائل! لا تستطيعه هيئات الحشد ومؤسساته؛ ولأنه صادر من رسول! مغمورا هدى، ومشمولا فلاحا، وهذا ما يشي باستجابة جمعهم، وهذا الذي وقع فلم يتخلف أحدا!

وهذا أسلوب حصر وقصر أداته(لا و إلا)، يمنح النظم جزالته، ويهبه بلاغته، فيعمل في السامع حشدا آخر، وكمثل حشده الأولي!

وهذا استدعاء نلحظه من طرف بياني، ومن جانب بلاغي، يحدث في النفوس أثرا فضفاضا، يملأ الأفق سمعا وطاعة، لهذا الرسول النبي الأمي صلى الله عليه وسلم، بما لم تستطعه الهيئة العامة للاستعلامات، وبما أوتيت من قوة، وبما سخرت من إمكانات وطاقة!!

وهذا حشد ممزوج بقيمة الصلاة، واستدعاء أهميتها في النفوس، كشهادة في سبيله تعالى، أو أقوم قيلا. وهذا بيان ضاف مركب، استنهاض قيم البذل والجهاد، ممزوجا بغرس قيمة الصلاة في حياة المسلم ومنهاجه؛ لترتبط في الذهن علاقة أبدية بين الصلاة والجهاد!!

وهذا بيان نبوي لوصف أحدهم صحابة نبينا صلى الله عليه وسلم، كونهم رهبان ليلهم، فرسان نهارهم! وهو رسالة لفاصم بين العلاقتين، وأن إحداهما صنو الأخرى، وداعية لها، وأن قوام ديننا مزج أولي بين أوجه الخير جميعها، وكما وأنه جمع انتهائي بين مظاهر الفلاح كلها!

إن فصما في فضاء واسع بين صلاتنا وجهادنا، تتأباه طبيعة نظم، كهذا الذي نرى أثره، من ربط محكم بين أواصر الصلاة، وروابط الجهاد، وبحيث تبدوان كلحمة واحدة، عصية على فصل، متأبية إلا على وصل!!

إنه ما طمع في أمتنا زنديق، وما تجرأ عليها عدو، إلا كمثل غبار الهواء، وما استجمعت عليها، إلا كنحو زبد الماء، إلا يوم أن ضحكوا علينا بصومعة الصلاة! ببتر علاقة بينها وبين فرسان النهار، دلك عليها نظم حديث الباب!!

وإذ كنا نشعر بعزة، وكانت تتألقنا الأنفة، ونحن إذ كنا صغارا، تدرس لنا مادة التربية العسكرية، ولأنه بهكذا تربية يمكن صنع جيل أبي، منشأ على حلية الحماس، دفاعا عن دينه، مرابطا عن أمته، وهذا فن عسكري، يمكن ينتج أثره، تخويفا وإرهابا وإرعابا، ودون إطلاق رصاصة واحدة!!

وهذا أسلوب شرط ترتيبي تركيبي! عز بيان غيره؛ لإحكام أثره في النفوس، ولضبط قيمته في الأذهان، ولأن الشرط بطبيعته حزم ممزوج بلطفه؛ لتسارع النفس بعضها بعضا؛ إلفا معه، وتعاملا دونه، وتفاعلا يورث همة، ترفع قمة!!

إن الشرط بطبيعة ترتيبه وتركيبه الحازم، ومن أثره الجازم، ذلكم الاستدعاء للعمل، وذلكم النشاط في الأداء، لكنه وحين يكون جوابه مقترنا بفاء العاقبة، فتضاعف سائر ما سبق! ليحدث هزة في النفوس، تدفعها إلى بدار سابغ، وحين بذلت بأجمعها، وبحيث لم يتبق منها شعيرة إلا وتستجيب!! نقلة نوعية إلى آفاق المجد والسؤدد والرفعة والسمو والتألق.

وإذ كان هذا النظم غنيا، وحين استجمع أسلوبي الشرط والقصر، في مثل هذا الحيز المتناهي في قصره، لكنه أضحى أكثر غناء، وحين جاء مسيجا بفاء العاقبة، دلالة مسارعة، وبرهان مبادرة، أضفت عليه حلة الالتزام، وبكل رضا تام تام!!

وجاء هذا النظم معجزا كله، وحين تضافرت معاني ضافية أخر، دلك عليها لام القسم، أغناك عنها حزمه، ولكنها أضفت جزما، لا يبقي بقية من إدبار، لم يكن خلقا لهكذا جيل، نفر عن آخره، ولمجرد سماعه، وإيصاله لآذانه!!

إن تحديد وجهة القوات المسلحة، وضبط هدفها، عاملان حاسمان في لملمة الأوراق، فلا تبدو مبعثرة؛ لتحمل في ثناياها انطلاقة، لايعوزها دفع، حملت طاقته من بنيانها، وتجشمت قوته من ضبط بوصلتها.

وهذا قرار إداري، مستجمع أركان، واضح بنيانه، متواتر علمه، منفية جهالته، واضحة عبارته، موجزة حروفه وكلماته، دالة برسمها، وألا تبقي في النفس بقية، إلا وتحمل على مبادرة، كانت من أخص خصائص القرار الإداري!!

وهذا استجماع القوى ضد عدو، كان محددا سلفا؛ ولأن نفوس الصحب كانت مهيأة؛ لملاقاة هكذا عدو؛ وحين سبقتهم بنو النضير مكرا، وحين سابقتهم بنو قينقاع كيدا؛ للتخلص من هكذا داء، لتطهر منه جزيرة العرب، وإلى أبد الآباد كله!!

وهذا بيان لقيمة الإمام في أمتنا، ولأنه عماد قوتها، وأساس أنفتها، وعنوان نظامها، وبرهان قوامها، وانتصارها، وشموخها، وبقائها أبية، عصية، فتية!!

وهذا بيان إعداد عدة الجهاد، واستنفار الأمة كلها لشأنه، جبهة داخلية، متوائمة متآلفة منسجمة مع جبهة قتالية، ولأن ذلكم النفير؛ بحد ذاته مثخن في الخصم، ويفقده توازنه، وحين علم أن أمة بأسرها مستنفرة، وماذا هو فاعل أمام جمعها، وماذا هو قادر على شرقها أو غربها، وإذ قد هاجمته من سائر جهاتها، ومن كل أفرادها؟! وهذا فن عسكري سبقا، وهذا إبداع جهوي تفردا!!

وهذا استجماع استعداء موجود سلفا، ضد يهود! ولأنهم ذووا تاريخ زاكم، ولأنهم أصحاب إرث مشين، فلا يحملون للإسلام ودا، وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا!!

وهذه رسالة نبوية متألقة! وحين كشفت تاريخا منشأ سلفا عن يهود، كانوا هم راسمي أطره من قبل، وبما قدمت أيديهم، وكيما يمتد هذا التاريخ، ما بقيت يهودا!! وهي رسالة أخرى، أمام تدافع غير مبرر؛ لصنع علائق مع أسلافهم،

يتأبى على التاريخ مذاقها!! وإذ سوف يكتبها لديه في سجلاته، ليرى الأحفاد كم صنع أجدادهم من قبل!!

المبحث الخامس: البيت المسلم بيئة الحنان والإلف

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: **لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم قال: فإلى أين؟ قال: ها هنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليه**[1] وهذا بيان قيمة الطهارة في حياة المسلم، ومنها موجب محبته تعالى، ولأنها سبب سعادة، واستدعاء راحة من تعب، وأمن من نصب، دلك عليه غزوة الأحزاب، من ألف بائها إلى يائها!

وهذا حزم جبريل الملك عليه السلام، مع محمد النبي ﷺ. وبرهان حزم في عزائم الأمور، ممزوج برحمة، ملفوف برأفة، ولتقبل النفوس، ولترضى الأفئدة!

وفيه رجوع الى البيت، بيئة الحنان والإلف، وبعد انقضاء مهام الجهاد، وغيره أولى، وهذه رسالة إلى هاجري بيوتهم، وباسم الإسلام الخالد!

عن أنس بن مالك قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعا في زقاق بني غنم موكب جبريل، حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة: هذه أمة تشرفت أرضها وسماؤها وأبناؤها بمواطئ أقدام ملائكة السماء وحق لنا معاشر المسلمين شكر

---

(1) صحيح البخاري: 4117

واجب لربنا العلي الأعلى أن جعل لنا عون سمائه هاديا لنا ونصيرا كيما يشد به أزرنا ونحن العباد المساكين.

عن أنس بن مالك قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعا في زقاق بني غنم موكب جبريل، حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة: وهذا هو موكب السماء إلى أهل الأرض، وماذا تبقى من خلود بعدها إلى هذه الأرض وبعد أن جاءت ملائكة السماء لتحف ميادين القتال جنبا إلى جنب مع جنده تعالى تحت أديم السماء وهذا كناية عن فضل هذه الأمة ويوم أن شرفت أرضها بجنود سمائها عونا ومددا.

إن موكبا كان إمامه جبريل عليه السلام يوم قريظة، برهان عتو يهود وطغيانهم، ودليل شدة عدوانهم، وما تخفي صدورهم أكبر، وهذا تاريخهم شاهد عليهم لنا، وهذه رسالة إلى أهل الأرض: احذروا أمة نزل جبريل قائد ميدانه يوم قريظة بدك حصونهم وإرجافهم ونقضهم ميثاقهم!

وما ظنك بأمة ذات فضل، إلا وحين نزل جبريل بجند السماء يحصد أعداءها حصدا، ويوم بدر وأحد وقريظة وحنين شاهد لا يغيب؟! وهذا برهان صدق رسالتها، وحين كان جند السماء متقدمي صفوف مقاتليها، داعي اطمئنان وأنه تعالى أبدا مع المؤمنين.

عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عندها فسلم علينا رجل ونحن في البيت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعا وقمت في أثره فإذا بدحية الكلبي فقال هذا جبريل أمرني أن أذهب إلى بني قريظة وقال قد وضعتم السلاح لكنا لم نضع طلبنا المشركين حتى بلغنا حمراء الأسد وذلك حين

رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعا وقال لأصحابه عزمت عليكم أن لا تصلوا صلاة العصر حتى تأتوا بني قريظة فغربت الشمس قبل أن يأتوهم فقالت طائفة من المسلمين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا وقالت طائفة والله إنا لفي عزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما علينا من إثم فصلت طائفة إيمانا واحتسابا وتركت طائفة إيمانا واحتسابا ولم يعنف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا من الفريقين وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر بمجالس بينه وبين بني قريظة فقال هل مر بكم أحد فقالوا مر علينا دحية الكلبي على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج فقال ذلك جبريل أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه أن يستروه بالجحف حتى يسمع كلامهم فناداهم يا إخوة القردة والخنازير فقالوا يا أبا القاسم لم تكن فحاشا فحاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ وكانوا حلفاءه فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم[1].

وهذا أنس لنبينا ﷺ، ولأنه قد تمثل له جبريل بصورة إنسي فكان من جنسه، وهو برهان فضل أمتنا، وحين كانت السماء عونها وقائدة ميدانها.

وإذ سار نبينا ﷺ إلى بني قريظة وقد سبقه جبريل في ملأ من جند السماء فحاصرهم وأمر أصحابه أن يستروه بالجحف حتى يسمع كلامهم فناداهم: يا إخوة القردة والخنازير[2]. وهذا برهان جواز ندائهم بذلك، تغليظا وتبكيتا، وهو من باب مسخهم قردة وخنازير بنص القرآن العظيم وحين قال تعالى ﴿ **قل هل**

(1) البداية والنهاية، ابن كثير:119/4. خلاصة حكم المحدث، له طرق جيدة.

(2) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/ ١٣٥

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ۚ من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ۚ أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل﴾[المائدة:60].

ومنه جواز ندائهم به، وقد أسماهم القرآن به أيضا، وكما أنف.

إن نداءه ﷺ يهود بأبناء أو إخوة القردة والخنزير تغليظا، هو ما يتفق مع نظم القرآن الحكيم، وتشنيعا عليهم؛ لنقضهم ميثاقهم، وفعلهم الشين من قولهم أو فعلهم، أنبأ عن قلوبهم نفاقها، وأبان عن بغضهم المؤمنين.

إن نبينا ﷺ وحين نادى يهود بني قريظة بأبناء أو إخوة القردة والخنازير، كان برهان أن نتخذه هديا، ومنه فإنها رسالة إلى واضعي أكفهم بأكفهم، وماذا هم قائلون لنبيهم يوم القيامة، فضلا عن ربهم الحق سبحانه، وحين قال: ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ﴾؟!

وإذ قالت يهود: يا أبا القاسم لم تكن فحاشا! آلآن: فقالوا: يا أبا القاسم ؟! وماذا عن نقضهم ميثاقهم يوم الأحزاب؟! وماذا عن كيد إخوانهم بني قينقاع بامرأة؟! وماذا عن مكر إخوانهم بني النضير؟! وهذا فضلا عن أنه ﷺ ناداهم بما أسماهم الله تعالى به، وبه ينتهي الإشكال.

لا نريد أن يطول بحث عن حقيقة أو مجاز في القرآن العظيم، لتمرير أن بني قريظة قردة وخنازير، وإنما نقف على ذلك أنه حقيقة؛ كيما لانفرغ النص عن إلفه، ولما كان ذلك لفريق من أولاء يهود؛ لشين فعله، وليس أجمعهم، وتبكيتا لصنيعهم. وإذ كان الدوران مع النص دينا.

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة وابتدرها الناس فسار علي بن أبي طالب عليه السلام حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهم فرجع حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق فقال يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث قال لم، أظنك سمعت لي منهم أذى؟ قال نعم يا رسول الله قال لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا [1].

وإذ قدم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، يوم قريظة ومعه رايته، وابتدرها الناس. وهذا برهان تنصيب صاحب الراية، ولو كان في وجود القائد الأعلى للقوات المسلحة. وهذا فقه إداري؛ لتوزيع المهام، وكل فيما يخصه؛ وما هو جدير به القيام به، وهو موجب إعداد القادة أيضا، يوم حاجة الأمة إليهم.

حين أعطى نبينا ﷺ الراية عليا رضي الله تعالى عنه، يوم بني قريظة، وفي وجوده، وهذا برهان قوة علي وشجاعته وبأسه، صفات لازمة لطبيعة ميدان الجهاد والمقاتلة.

وإنه لينظر في تولية علي بالراية يوم قريظة، على أنه القوي الأمين، وهذا برهان صحة التكليف، بل وجوبه على أساس ذلك، وبقطع النظر عن وشائج القربى أو علائق النسب. ولأنه ﷺ قد أناط بها غيره، وفي مناسبات أخر، وهذا برهان التنقل بين الرعية؛ لإعدادهم إلى مهامهم ومراسهم، حين حاجة إليهم.

---

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢/٢٤٥

قالوا: مر علينا دحية الكلبي على فرس أبيض، تحته نمط أو قطيفة ديباج، عليه اللأمة[1] وهذا برهان جواز ارتداء ما به يظهر المقاتل غنيا مستعففا، وهذا موجب أنفة، ودليل عزة، أمكن لانهزام الخصم أول مرة، وبه يقاس قول نبينا ﷺ: إن هذه مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع.

فعن خالد بن سليمان بن عبد الله بن خالد بن سماك بن خرشة عن أبيه عن جده أن أبا دجانة يوم أحد أعلم بعصابة حمراء فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو؟ ختال في مشيته بين الصفين فقال إنها مشية يبغضها الله الا في هذا الموضع[2]. وقال: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه.

وإذ سمع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، شين قول يهود في نبينا ﷺ، ولم يشأ إخباره به، فقال ﷺ:«أظنك سمعت في منهم أذى، فامض فإن أعداء الله لو رأوني لم يقولوا شيئا مما سمعت». وهذا برهان قوته ﷺ ومنعته، وحين يستعرض الميدان به، وهو دليل خزي يهود وجبنهم وخورهم، وبرهان حرص علي رضي الله تعالى عنه على مشاعره ﷺ، منظومة حب، وقافلة ولاء.

«أظنك سمعت في منهم أذى، فامض فإن أعداء الله لو رأوني لم يقولوا شيئا مما سمعت» وفيه بيان عداوة يهود لربهم الحق سبحانه، فهان إذا عداؤهم لعباده المؤمنين!

---

(1) المرجع السابق: ج ٢/٢٤٥

(2) مجمع الزوائد، الهيثمي: ج ٦ / ١٠٩

وحين حاصر النبي ﷺ بني قريظة، وأمر أصحابه أن يستروه بالجحف؛ حتى يسمع كلامهم فناداهم: يا إخوة القردة والخنازير: وفيه تأمين القائد، ولأنه مستهدف دائما.

وإذ حاصر نبينا ﷺ بني قريظة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ. وكانوا حلفاءه فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم[1]: وهذه منقبة سعد، وحين دعا ربه تعالى ألا يميته حتى يرى في يهود مثل يومهم هذا! وهذا هو شأن العباد الربانيين، لهم أحوالهم مع ربهم الحق، تكون دربا للسالكين من بعدهم!

وهذا هو حكمه تعالى فيهم بنص قول نبينا ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله! وهذه منقبة أخرى لسعد، وحين وافق حكمه حكم السماء: وهذا برهان إلهام الرب لعبده، وحين قلبه متصلا بمولاه الحق المبين، وكأنما يقرأ من صحيفة اللوح المحفوظ! وإذ لم تكن أمام سعد كتب ومصادر يتلقى علمها، أصاب أو أخطأ فهمها!

إن موافقة حكم عبد صالح لحكم السماء، وكما حدث لسعد بن معاذ برهان أخذ العبد على ذات يده، مجاهدا نفسه في الله تعالى ربها حق جهاده؛ ليوفقه ربه ويمنحه صوابه، ويهبه توفيقه، وحين كان عبدا صالحا مخلصا، ترك العلائق كلها، وتعلق بحبل السماء وحده!

يا أبا القاسم لم تكن فحاشا: هذه سيرة نبينا ﷺ في محيطه، وهو هدي حسن، أن يكون خلق آحادنا وفي محيطه أيضا نورا، يهدي به الله الحيارى في

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ /١٣٥

الظلمات الحالكة، ولرب كان أعظم أثرا من خطبة تلقى أو صحيفة تقرأ! وأجمل بقول عائشة رضي الله تعالى عنها، وصفا لنبينا ﷺ: فإن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن!

المبحث السادس: الذود عن أبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه

إنه حسن أن ينظر إلى فعل أبي لبابة، وحين أشار بيده إلى حلقه، وأمر عليه أصابعه، يري بني قريظة إنما يراد بهم القتل، على أنه ليس خيانة، كما قد يبدو أو قيل! ولأن حصارا سبق، ومآله مفض إلى قتل، وحين لا تفلح وسائل الإذعان الأخرى! ولرب تهديد بالقتل كان أرشد؛ لحملهم على الرجوع، وقبول الحق، والتوبة من إثمهم!

إن التلويح باستخدام القوة عرف عسكري ماض، وهذا ما يبدو أنه كان متكأ أبي لبابة يوم بني قريظة، وعلى الأقل تأولا، ولتأثمه، لأنه ولئن كان عرفا عسكريا، لكنه لم يأخذ به الإذن من القائد النبي ﷺ، وهذا عرف عسكري أيضا. وبه أدخل نفسه في فقه موازنات، ربما لم يحالفه التوفيق فيه، ومنه كان تأثمه رضي الله تعالى عنه.

إن قاعدة إحسان الظن بالأخ المسلم مقدمة! وهذا الذي يتبدى لنا من فعل أبي لبابة يوم بني قريظة! ولئن كان متأولا، وكما وقع ذلك من غيره، كحاطب بن أبي بلتعة، وعلى كل حال فهذه مسائل، ينظر إليها من باب التماس الأعذار لفاعليها، وحملها على تأولهم، أصابوا أم لم يحالفهم حكم ربهم سبحانه، ولأن الأصل في الأخ المسلم هو براءة الذمة!

إن صحبا كأبي لبابة، وإذ كان الأصل فيهم علو همتهم، وبعدها عن مواطن التهم والريبة في دينهم، إلا أننا أمام بشر، قد يصيبون، وكحكم السماء، كسعد بن معاذ، أو لم يكونوا كمرتبته دينا فتأولوا، ولكن العمد عنهم بعيد، كما سماء عن أرض! واذ حسن وضع أمور كهذه في نصابها هذا، ولا نتعداها، ولأننا أمام قوم نزل بينهم القرآن، وكان فيهم نبينا العدنان ﷺ!

إنه حسن النظر إلى فعل أبي لبابة يوم بني قريظة، ومن حيث قال: والله لا أنظر في وجه رسول الله ﷺ، حتى أحدث لله توبة نصوحا، يعلمها الله من نفسي: وكيما لا نقف متحسرين أو مبهورين، وأمام تأول، قد يلهينا عن مثل هزة أحدثت فيه توبة تقشعر منها القلوب والأبدان! ولرب ذنب أحدث توبة كهذه، كان سببا في سمو صاحبه، وإلى الملأ الأعلى؛ ليعود عبدا ربانيا، وهذا شاهده! ولأن المسلم ليس سلبيا يقف أمام الحدث متباكيا، وإنما كان المسلم إيجابيا، ومن إيجابيته تحويله العمل السلبي إلى آخر إيجابي، وكمثل توبة من ذنب، يرقي بها آفاق الخير والهدى والصلاح والتقوى.

إنه وحين رجع أبو لبابة إلى المدينة يوم بني قريظة فربط يديه إلى جذع من جذوع المسجد، وقريبا من عشرين ليلة! فإن هذا ما يلفت النظر، خيرا من الوقوف والتباكي حول قول صدر منه تأولا، كان من ثمرته فعله هذا، وكأنما ضاقت به الأرض بما رحبت! وهذا الذي نتأساه، وحين اقتراف ذنب ماذا نحن فاعلون؟! أو كأنما مرت ذبابة فقلنا بها هكذا! وكأن لم يكن شيئ! أم كأبي لبابة يربط نفسه في عمود مسجد حتى ينزل فيه قرآن؟!!!

أما فرغ أبو لبابة من حلفائه؟ فذكر له ما فعل. فقال: لقد أصابته بعدي فتنة، ولو جاءني لاستغفرت له، وإذ قد فعل هذا فلن أحركه من مكانه، حتى يقضي الله فيه ما يشاء[1] هذا ما يغيب عن بال الكثرة الكاثرة، وحين يسترهم ربهم بستره، فيسارعون يعلنون هم وقيعتهم! وحري ستر عبد على نفسه، ويتوب توبة نصوحا، بينه وبين ربه تعالى، ليجده تعالى غفورا رحيما، وكما قال تعالى ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾[النساء:110]. وأما إذا رفع الأمر للسلطان، فينتظر حكم السماء!

وهذا بيان لأهمية إحاطة العبد نفسه بإخوان الهدى، يعينونه ويذكرونه، ولا يخلون إلى وسواس الشياطين، فإن الوحدة ذئب كاسر، وإن الفراغ ظلام حالك.

وفيه حلمه ﷺ برعيته، وإذ لو جاءه أبو لبابة لاكتفي حينها باستغفاره ﷺ له، وقمن أن يستجيب الله له! وقضي الأمر!

وهذا بيان تقدير نبي لربه تعالى، وقاف على أمره، متشوف لحكمه ومغفرته ورحمته، وهذا هو مطلق حسن الظن بربنا سبحانه وتعالى، وهذا نبينا ﷺ وإذ هو نازل على شرعه، لا يتقدم عنه، ولا يتأخر شيئا، مما يمكن عده شيئا!

وإذ كان اقتراح كعب بن أسد بمتابعة نبينا ﷺ ولأنه هو الحق مثار دهشة ليهود، وحين رفضوا اقتراحه غير مائلين عن التوراة ميلة واحدة! وهاهم يعلمون كم بدلوها.

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ١٣٧

حين حاصر نبينا بني قريظة خمسة وعشرين يوما أدلى كعب بن أسد بتصريح ينبئ بحق أولي وحين كان أول اقتراح له هو متابعة نبينا ﷺ ولعلمهم أنه الحق!

إن المرء ليقف حائر أمام رفض يهود اتباع نبينا ولان توراتهم تأبى ذلك وإذ هي توراتهم تنبئ نبا الحق وأنه نبي الله محمد ﷺ، ومبشر به فيها، وتشهد لذلك أحبارهم، وقد مر بنا في السفر المبارك ثلة تند وصفا، ولما مثله اعترافهم ما أنه شهادة حق لهذا الدين، ولذلك النبي الكريم محمد ﷺ.

أما فرغ أبو لبابة من حلفائه؟» فذكر له ما فعل. فقال: «لقد أصابته بعدي فتنة، ولو جاءني لاستغفرت له، وإذ قد فعل هذا فلن أحركه من مكانه، حتى يقضي الله فيه ما يشاء[1].

إن العبودية وحين تتمتع بذلكم نصيبها من الإخلاص والصدق فإنما تكون سلطة توجهها أمرا أو نهيا إنما هو الله تعالى، ورغم أن سننا أمرنا من رسولنا ﷺ، إلا أننا الآن في مجال آخر، هو إعلان العبودية لله تعالى وحده لا شريك له، ومن ثم يكون أمامنا سلطانه وحكمه وأمره ونهيه، كل ذلك في صورة واحدة من أمامنا.

وحين أشار كعب بن أسد على يهود اتباع نبينا ﷺ قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره: وهكذا حين يبدلون كلام الله، وباسم الله، وما أكثرهم في الوجود!

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤ / ١٣٧

وإذ قالت يهود: لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره! وهم الذين غطوا حكم التوراة بأيديهم في حكم الزنا وغيره!

حين قال كعب بن أسد: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فو الله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون به على دمائكم، وأموالكم، وأبنائكم، ونسائكم! قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره[1]! وهذا حكم التوراة سالف البيان! وهكذا حين يبدلون كلام! وهكذا حين يحرفون الكلم عن مواضعه! وهكذا حين تستأمن أمة على كتاب ربها فيفعلون به الأفاعيل!

إننا لا نخرج اقتراح كعب بن أسد متابعة نبينا ﷺ إلا على كونه كان مستندا على أن هذا ما جاءت به التوراة لا على أنه قول بشر! ولأن البشر يخطؤن أكثر مما يصيبون، وحين لا يرتكنون إلى منهج الله تعالى، ولأنهم كثيرا ما يقولون: هذا حلال وهذا حرام في إطلاق أعنة أهوائهم، وكثيرا ما يلفونها بشبيه علم؛ لتنطلي ولكنها لا تنطلي! ومن ذي تقول في حقول ليس يجيد حرثها أو غراسها، ولما حاد، ولما حرف الكلم عن مواضعه.

خير كعب بن أسد يهود نزولا على الإسلام، أو قتل نسائهم وأولادهم، أو منازلة نبينا ﷺ! وهذا أيضا محض جرأة على حدوده تعالى، وإذ من أعطاه سلطة قتل نفوس حرمها ربها إلا بالحق؟! وهكذا أيضا حين تحريف الكلم عن مواضعه، فيرتكب باسمه ما يشيب منه الولدان!

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣/ ٧١٧

إن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق مناف لفطرة قوم خلقوا بها، ولو بقية من حق! برهان إجماع يهود على رفضها، وحين كانت خيارا أشار كعب بن أسد به!

وإذ أشار كعب بن أسد على يهود كخيار ثالث أن يفجأوا نبينا ﷺ يوم سبتهم! وهكذا لأن يوم سبتهم هو بدعهم، وكما ابتدعوه إنشاء فها هم يبتدعون مخالفته، وهذا برهان فساد البطانة، وحين تستأمن على دينه تعالى، فيقولون ما منه تقشعر جلود الذين آمنوا!

وإذ كان موجز عرض كعب بن أسد على يهود مايلي:

١- متابعة محمد ﷺ.

2- قتل نسائهم وأبنائهم!

3- منازلة محمد ﷺ فجأة يوم سبتهم!

وقد رفض الملأ الأعلى من يهود هذه الخيارات الثلاث أجمعها!

وحين رفضت يعود اقتراحات كعب بن أسد. راحوا إلى أبي لبابة، والذي لم يمهلهم، وحين توعدهم بالذبح! ولحملهم على اتباع نبينا ﷺ، وإن كان مأخذ الإعلان عن خطة العسكرية كانت السرية أهم مبادئها مازال لصيقا به، وهو ما جعله نادما ليربط نفسه في عمود المسجد عشرين يوما!

وحين طلب بنو قريظة أبا لبابة وسيطا بينهم وبين نبينا ﷺ وموافقته ﷺ على ذلك، برهان إعطاء فرصة للمفاوضات بين أطراف النزاع، ولعلهم يتوصلون إلى حل مرض للأطراف جميعها!

إن موافقة نبينا ﷺ على منح فرصة للمفاوضات بينه وبين بني قريظة؛ وليكون درسا يسجله التاريخ أن نبينا ﷺ لم يدع فرصة لحقن الدماء إلا وسلكها، برهان سلمية ديننا، وعنوان حرصه على ألا تراق قطرة دم واحدة إلا وحين لم يكن خيار دونها!

حين أرسل رسول الله ﷺ أبا لبابة الى بني قريظة، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم: وهكذا صنيع يمكن أن يكون هاديا للتأثير في مجريات المفاوضات! إعلاما مساندا للوصول إلى مكاسب لكل طرف، وعلى قدر قوة آلته الإعلامه ههنا!!

إن خروج النساء والأطفال يبكون يوم قدوم أبي لبابة وسيطا مفاوضات بينهم ونبينا ﷺ، برهان محاولة للتأثير الإعلامي المصاحب لهكذا مفاوضات هادئة، وكان من هدوئها اختيار رجل يكون موافقا عليه من كلا طرفي النزاع، ومن ثم محاولة التأثير فيه للوصول إلى نقطة اتفاق بينهما.

وإذ قالت بنو قريظة: يا أبا لبابة: أترى أن ننزل على حكم محمد؟

قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح.

ولست أرى في هذا خيانة أبدا!! ولئن أسماها ابو لبابة خيانة!!

ولأن الرجل لم يخن ثابتا من ثوابت دينه!

اللهم إنه لم يأخذ الإذن ببوح سر عسكري، وليس بسر؛ إذ أن إفضاء الخصومة إلى حرب، فهذا عرف معروف سلفا، وحين لم تفلح محاولات الوساطة

والتحكيم والمفاوضات. وبحيث لم يبق أمامنا إلا أنه لم يستشر في ذلك القائد الأعلى للقوات المسلحة!

يا أبا لبابة: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ هذا سؤال بني قريظة. قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح. وهذا جواب أبي لبابة:

١- نعم انزلوا على حكم محمد ﷺ! وهل في ذلك خيانة أم أنه مطلق وخصوص الأمانة؟!

٢- وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح. وهذا ما يؤول إليه أمر التنازع عادة، وحين لم تفلح محاولات الصلح.

وبه فتبرأ ساحة أبي لبابة. اللهم إفشاؤه لسر عسكري دون الرجوع إلى مركز القيادة والسيطرة. بتأويل رآه أول أمره حسنا! برهان ربطه نفسه في عمود المسجد إلا أن تنزل فيه توبة!

وهل يمكن القول إن توبة أبي لبابة كانت في غير بني قريظة؟ وعلى ما ذكره الطبري عن الزهري: حيث قال: كان أبو لبابة ممن تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فربط نفسه بسارية، فقال: والله لا أحل نفسي منها، ولا أذوق طعاما ولا شرابا، حتى أموت أو يتوب الله علي! فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاما ولا شرابا، حتى خر مغشيا عليه، قال: ثم تاب الله عليه، ثم قيل له: قد تيب عليك يا أبا لبابة! فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو يحلني! قال: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فحله بيده. ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله، إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب،

وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله! قال: يجزيك يا أبا لبابة الثلث. فأخذ ثلث أموالهم وكانت كفارة الذنوب التي أصابوها[1].

قلت: وهذا مما يسوغ كونه إثما وقع فيه أبو لبابة، وبالتالي يمكن تسويغ توبته، ومنه ربطه نفسه في سارية المسجد، ولأنه لا شك ذنب ؟!

وإذ حين رأى ابو لبابة من نفسه إثما قال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله على ما صنعت، وعاهد الله أن لا أطأ بني قريظة أبدا، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا:

١-لا أبرح مكاني حتى يتوب الله على ما صنعت. وهذا صدق توبة بحد ذاته وأنه تعالى قال ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون** ﴾[الشورى: 25].

٢- وهذا إشعار عبد نفسه حسن ظنه بربه، وأنه تعالى سوف يتوب عليه، درسا لغيره أن يحسن ظنه بربه أيضا.

٣- إعلان تخليه عن الوساطة بين طرفي النزاع، نبينا ﷺ وبني قريظة. خشية تأثير فيه أكثر مما جرى، ولعاطفة بشرية من بكاء الأطفال والنساء، نجحت يهود في الكيد له بها.

٤- ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا.

هذا برهان صدق التوبة، وأن منها مفارقة مكان المعصية: خشية التأثير البيئي، وأن خلاصا بالنفس أولى!

---

(1) الاستيعاب، ابن عبد البر: ج ٤ / ١٧٤١

وإذ إنه: إذا لم تزل المنكر فزل عنه: وهذه قاعدة في التهذيب، وهذا أصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد رعاها أبو لبابة حق رعايتها، وحين وضع من توبته ألا يرى في مكان عصى الله ورسوله فيه!

وهذا برهان صدق أمتنا، ودليل أوبتها، وحين يخرجها الوسواس عن قضبان طريقها!

قال الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ [الأنفال: 27]. قيل إنها نزلت في أبي لبابة يوم بني قريظة.

قال عبد الله بن أبي قتادة والزهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك - وأشار بيده إلى حلقه - أي: إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشيا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: يجزيك الثلث أن تصدق به[1].

---

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: 7/55 - الموسوعة القرآنية

وقيل نزلت في قتلة عثمان رضي الله تعالى عنه. فعن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان - رضي الله عنه -: **(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول)** الآية.[1].

والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار[2].

ولعله من باب خروجه عما تعورف عليه من النظام العام للقوات المسلحة، وحين لا يبرم أمرا أو يذيع سرا دون الرجوع لقيادته.

﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ [التوبة: 102]. هذا قرآن كريم، نزل إعلان قبوله تعالى توبة أبي لبابة، وحين صدق التوبة، وحين أبرم الأوبة. وهذا ليس وقفا عليه، وإنما سننا نتكئ جميعا عليه. ولأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إحسان ظن بربنا، وبكأنه تعالى رؤوف رحيم بنا.

وإذ كان من توبة أبي لبابة أنه قام مرتبطا بعمود المسجد عشرين ليلة، وكانت تأتيه امرأته في وقت كل صلاة، فتحله حتى يتوضأ ويصلي، ثم يرتبط، حتى نزل فيه قرآن يتلى، وإلى يوم الدين أن هنالك كان عبد تاب إلى الله متابا!

وإذ حين أنزل الله تعالى توبة أبي لبابة استأذنت أم سلمة أن تبشره فأذن وأخذ الناس يبشرونه وأرادوا حله من رباطه الذي ربط نفسه فيه فأقسم ألا

---

(1) تفسير الطبري، ت أحمد شاكر: ج13/٤٨٢

(2) تفسير ابن كثير: ج2/340

يحله إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. حتى جاء الفجر فحله صلى الله عليه وسلم.

إن التسليم بخبر توبة أبي لبابة؛ ولصحته، موجب بحثا آخر؛ لجعله مناطا له، وقد أشفى تغيبه عن غزوة تبوك غليلا، وبه يجمع بينهما ليزول الإشكال.

وإذ أشارت آية المائدة أن جمعا شملتهم يشي بانسحابها على أبي لبابة وإياهم، ويوم تغيبوا عن غزوة تبوك، وإذ ليس فيها ما يجعلها مناطا له وحده.

إنه لا يسوغ انسحاب آية المائدة على أبي لبابة يومي بني قريظة وتبوك معا؛ لخلو عمله يوم قريظة من خيانة، وإن عدها هو كذلك! لاحتمال فرط الإحساس، وعظيم الإيمان!

ونحن إذ نصول ونجول في خبر توبة أبي لبابة! وهذا الذي ينبغي له بحثا ودرسا، ولعلنا نخرج بفؤاد كمثله، وإذ كانت له وقفتان: يوم قريظة وحين ألهب مشاعر يهود إلى النزول على نظام نبينا صلى الله عليه وسلم، ويوم تبوك وإذ أعلن توبة كانت مجالا لأمثالنا قدوة وأسوة حسنة!

المبحث السابع: الوسام التقريظي من خبر عمرو بن سعد القرظي

ومهما يكن من أمر فإن نزول بني قريظة على حكم سعد بن معاذ، ومن بعد بلاء بذله أبو لبابة، وعلى حضور وإشراف من نبينا صلى الله عليه وسلم، فذلك عمل جماعي، يرجع الفضل فيه إلى كل من شارك فيه.

إن العمل الجماعي خير كله، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، وإنما يد الله مع الجماعة، وإنه ليس ينسب إلى واحد بعينه، وإنما إلى الأمة كلها.، ولأن ذلك يمحنها عزة مع عزتها، ولتكون من ثم شكيمتها مركبة مضاعفة، وحين كان بعضهم يدا مع بعض، وبعضهم يد على من سواهم، ولذلكم تبعا!

إن يوم بني قريظة قد تكلل بنصر مهيب للأمة كلها، ولازال أثره باقيا، وها هي جزيرة العرب قد طهرت من هكذا صنف نكد، لازال يطل برأسه من حين إلى آخر، وجب بتر ساقيه كيما ،لا يفكر الرجعة، ولو من باب التفكير!

إن أمتنا لجديرة بالحفاظ على إرثها المجيد الخالد، إرث محمد صلى الله عليه وسلم، وأبي لبابة وسعد بن معاذ، ويوم سلموا لنا جزيرة العرب طاهرة من رجس يهود!

إن محاولات الاقتراب من حصن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويوم سلم لنا جزيرة العرب هكذا طاهرة من صنف يهود، لطالما كان رجسهم لصيقا بهم، والأمل معقود أن يدحروا! وإلا أن يسلموا، فتكون أرضه تعالى متاعا حسنا لكل غاد وراح!

إن نزول يهود على حكم سعد بن معاذ، ومن بعد طلبهم تفاوضا مع أبي لبابة، يعد مكسبا سياسيا بكل وجه، ولم يعد هنالك خسار، ولو من وجه على أمتنا، وحسن حذو مثلهم.

إن إرثا مجيدا تسلمناه من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام، بتطهير جزيرة العرب من هكذا صنف يهود، عجت الأرض من رجسه، ليس لأحد أن يتصرف فيه بوجه مخالف لذلكم عهد عهدناه نبينا محمد صلى

الله عليه وسلم، طاعة له صلى الله عليه وسلم! وحين كان آخر ما تكلم به أن قال: قاتل الله اليهود و النصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان بأرض العرب [1]

وإذ كان عمرو بن سعد القرظي قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ، يوم الأحزاب، وقال: لا أغدر بمحمد أبدا! وقد سجل التاريخ له موقفه هذا خالدا وحجة وبرهانا! ذلك؛ وإن شيم الكرام فيه قد تمثلت، وحين وقف وحده في صعيد، يتأبى على غدر، وإذ كان قومه جميعهم في صعيد، قد تمالؤوا على الغدر والنقض!

إن عمرو بن سعد القرظي كان أمة وحده، وحين وقف في صف الرشاد، وبنو قريظة كلها في صف العناد، وهكذا التاريخ ينصف فردا، وحين يأتي بعمل بديع!

إنه لايستوحشن أحد قلة السالكين! ولأن له مثلا في أفراد لم يستوحشوا، وليكن واحدا منهم، وكعمرو بن سعد القرظي، وحين وقف في وجه الباطل أمة وحده!

إن تجردا للحق موجب أن يستريح صاحبه، ولأنه ينفع الناس، أمرا حسنا وحين يتعب غيره، ولو كانوا كثرة، وإنما هي زبد بحر، فسرعان ما يذهب جفاء!

وإذ وقف عمرو بن سعد القرظي في وجه الباطل وحده يوم بني النضير! وها هو يقف دونه وحده أيضا يوم بني قريظة، وها أنا أسجله له كما التاريخ المجيد أيضا!

---

(1) صحيح الجامع، الألباني: 4617

إن الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك، فاجعل من اتباع الحق دينا، ومن التزام الصراط سبيلا، وسيكتب لك ذلك، شاء من شاء وأبي من أبى، وإذ إن لك قدوتك كعمرو بن سعد القرظي!!

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك"[1].

وقال نعيم بن حماد: (إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، وان كنت وحدك، فإنك أنت الجماعة حينئذ) ذكرهما البيهقي وغيره[2].

إن عمرو بن سعد القرظي لم يستوحش، وحين كان أمة وحده، مجابها باطل بني النضير جميعهم، ومثله يوم قومه بني قريظة وحده أيضا، قدوة وسننا حسنا!

لاتقف منتظرا كثيرا طابور التأييد لحق تحمله؛ ولأنك به عزيز في أقصى درجات للعزة، وإذ يمكن أن تقع على صفحات المعجم! فنلت عزتك منه وبه، فاستمسك بالذي أوحي إليك، وإنك لعلى هدى مستقيم! وكعمرو بن سعد القرظي!

إنه لمن المهم أن يسجل لك التاريخ موقفك، وإنك لم ترض الدنية يوما من الدهر، ولم تقبل الضيم حينا من الزمن، وإنه لمن المهم ألا يسجل التاريخ عليك، كائنا وضعك ما كان، وكعمرو بن سعد القرظي!

---

(1) صححه الألباني كما في تعليقه على مشكاة المصابيح(61/1) ورواه الترمذي في سننه (467/4)

(2) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: (122/1)، رقم(160)

إن الذين غيروا وجه التاريخ كانوا أفرادا، ولم يلتفتوا كثيرا إلى مجد، ولأنه كتب لهم، ومن حيث لم يحتسبوا، وانظر قصة الغلام مع الملك، وانظر شأن عمرو بن سعد القرظي يومي بني النضير وقريظة قومه!

إنه لو نظر أمجاد التاريخ كزيد بن عمرو بن نفيل، أو عمرو بن سعد القرظي، إلى مجد شخصي، لنالوا منه الحظ الوفير، لكنه كانت ستعمهم لعنة التاريخ وكقومهم؛ ولأن هذا عمل غير صالح، وحين يقوم العبد السالك بعمله، لا يفعله إلا لله تعالى ربه الحق المبين، وإذ ليس لأحد فيه من شيء سواه تعالى! ولأنه تعالى ليس يقبل من العبيد أعمالهم إلا ما كان منها له خالصا وحده.

إنه لأحدنا أن يتصور عمرو بن سعد القرظي، وهو الآن في حيث يعلم مولاه تعالى! قريرة عيناه لا عين واحدة! وإذ أدى أمانة الله، وحين صدع بالحق وحده، مواجها باطلا بأسره، ووحده أيضا!

ولا أحسب أنني أوفيت حق عمرو بن سعد القرظي! ولأن الإيفاء منه تعالى؛ وإنما أردت أن أكون واحدا من أولاء الذين يحفظون لأصحاب الفضل فضلهم.

اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام[1]. وهذا قول محمد بن مسلمة، وحين أطلق عمرو بن سعد القرظي، يوم مروره على حرس نبينا ﷺ، يوم بني قريظة!

إن الله تعالى سخر محمدا بن مسلمة؛ ليقيل عثرة عمرو بن سعد القرظي؛ ولأنه كان كريما، بحق حمله، وذاد دونه، وأنت كهو يسخر الله من يقيل عثراتك! يوم أن تقيل عثرات الكرام! وإذ وكما تدين تدان، وإذ وكما تقيل تقال!!

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣/ ٧١٩

إنه وحين خلى محمد بن مسلمة سبيل عمرو بن سعد القرظي، فخرج على وجهه، حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة، ثم ذهب لم يدر أين توجه من الأرض إلى يومه هذا!! فذكر شأنه لرسول الله ﷺ فقال: «ذاك رجل نجاه الله بوفائه»![1].

وهذا شأنه رضي الله تعالى عنه، راح إلى ربه، وربه تعالى كريم، لا كما يفاضل المعجم!! وذهب إلى الكافي لا كفاء أحدا!! وحط رحاله في كنف رب قال بحقه، ولم يخش فيه لومة لائم، ولا يهمه ولا يضيره أن يهيم في أرضه؛ لأنه في نهاية مطافه في كنفه وزيارته وضيافته ورعايته وحفظه وإكلائه ورحمته وأجره وثوابه ومنه وكرمه، وحين صبر على لأواء الحق، وإنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب، فرحم الله عمروا، وإن كنا لنريد ونهفو وتتطلع نفوسنا وقلوبنا أن نعرف أين حطت به رحاله، وإن كنا على يقين أن هكذا أراد الله له، كيما يكون في عداد من هاموا على وجوههم لله!!!

وإذ أخذ كل من خبيب بن عدي، وعمرو بن سعد القرظي، من بين أيدي أقوامهم! وليس يدرى أين راحا! والى تاريخ كتابنا هذا! لكن حسبهم أنهم عند كريم حليم!!

وإذ كان رجل يكتم إيمانه، كمؤمن آل فرعون، فأظهره، وعند وجوبه، وإذ كان رجل يظاهر بحق يعلمه، كعمرو بن سعد القرظي، وكلتاهما قاعدتان، ورد النص بهما، دينا قيما ملة إبراهيم!

---

(1) عيون الأثر، ابن سيد الناس: ج ٢/٥٣

وإذ إنه وحين تدلهم غياهب الظلمات الحالكة، فهنالك في ديننا فقه الضرورات، وأصول الإكراه، وكل بحسبه وشرطه، وحين كان القلب مطمئنا بالإيمان، وحين كان من قوم أن العزائم عندهم مذهب وقيمة، وأن الرخصة ربما لم تخالط شغاف قلوبهم يوما! وذلك لأنهم كانوا على علم بما قال سليمان التيمي رحمه الله تعالى: "لو أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله"[1].

إنه يجوز كتم الإيمان رخصة، كمؤمن آل فرعون، ويجوز إظهاره عزيمة، وكعمرو بن سعد القرظي. لكن العزيمة في كليهما، وحين وجوب إظهاره. ككليهما! وذلك نصرة للحق، وحين عز نصيره، وذلك منعة لله تعالى، وحين أنفا إلا أن يعزا أمر ربهما تعالى!

كان وجود عمرو بن سعد القرظي، ومن بين أظهر قومه، برهان جوازه رخصة، وإنما إظهاره ومقتضاه عزيمة، وحين جابه باطلهم وحده، ومنه مؤمن آل فرعون، وغلام صغير يجابه ملكا!!

اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام: إنه لا ينبغي أن نمر على قول كهذا دون تسجيله لمحمد بن مسلمة قائله، أسوة نقتديها، وقدوة نقتفيها؛ لأنها كذا مكرمة أيضا.

إن إقالة عثرات الناس دين قيم وفضل وإحسان. والموفق من فتح الله تعالى عليه أبواب ذلك، وعلى منهجه تعالى، دون مخيلة أو سرف أو ترف، وإذ كان ذووا القربى في ذلك إنما لهم أوفر الحظ والنصيب دينا قيما أيضا.

---

(1) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (927/2) وإسناده صحيح، وانظر: المسودة (ص518-519)

المبحث الثامن: نظرية السلم الاجتماعي من خلال تحكيم سعد بن معاذ في بني قريظة

بدت علامات احتمال تأثر الجبهة الداخلية حين حاصر نبينا ﷺ بني قريظة. وكانت الأوس صوتها الإعلامي، ومن جانب أن بني قريظة كانت مواليهم، وعلى حد ما قاله ابن اسحاق رحمه الله تعالى: فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم كانوا موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت[1]. وإذ كانوا يعنون عفوه عن بني قينقاع، حين سأله فيهم عبد الله ابن أبي بن سلول، لكن فطنته ﷺ كانت أسبق، وإنما حرصه على السلام الاجتماعي كان أبدى.

كان تواثب الأوس حوله ﷺ بادرة احتمال شقاق، وإذ يمكن تأثيره على سلامة الجبهة الداخلية، ولو من باب الاحتمالات- كما أنف-، لكنه ﷺ أخمد الفتنة في محلها، وحين قابلها بحكمته وحلمه ﷺ.

إن براعة الراعي تكون وحين يجمع صفوف أمته خلفه، بوده ومحبته، لا بسيفه ونبله، وهذا ما تبدى واضحا، حين بادرة الأوس لمواليهم بني قريظة!!

يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟[2]. هذا عرض نبوي بلاغي هادئ، ليس مصحوبا بصخب السيف والرمح، ولأثرهما الغائر في مشاعر الشعوب.

---

(1) تاريخ الطبري، الطبري: ج ٢ / ٢٤٨

(2) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣/ ٧٢٠

وهـذا نـداء لطيـف حـاذق حـان، لـيس مشـوبا بقـوة سـيف مصلـت، ولأن السلم الاجتماعي غاية هذا الدين أبدا!

وهـذا معلـم النـاس الخيرﷺ، لـم يحـك تاريخـه أنـه رفـع سـيفه إلا على جهات القتال الخارجية! ولأن السيف إنما كان خصيصا لحرب أعداء الملة، نشرا للدين ودفاعا عن حوزته.

وهذه نظرية السـلم الاجتماعي في ديننـا، غايـة في الإلـف، وأوسـع مدى، في التأثير وإلهاب الجماهير!

إن السلم الاجتماعي هو مهمة الراعي الأولى، ولأنه بها يضمن التفاف رعيته حوله، بل ويذودون دونه، وما أشد حاجته إليهم، وحين يناديهم يوما!

وإذ قـدم نبينـا ﷺ درسـا في السـلام الاجتمـاعي، وحـين نـادى الأوس مهدهـدا مشـاعرهم، ومستجيشـا ضمـائرهم، وليعين حكما منهم هم أنفسهم في بني قريظة! وهذا تحريك لمشاعر الولاء أعلاه! وهذا داع من دواعي طمأنتهم أقصاه!

وإذ كان يمكنـه ﷺ إسكات صـوت الأوس يـومهم هـذا! ولكنـه ومـن بعـده لـن يطيقوا ثلما في السلم الاجتماعي، كانوا هم غارسي غراسه الأول!!!

إنه حين استلهب نبينا ﷺ مشاعر الأوس، قالـوا: بلى! وهكذا حين يتحسـس القائد مشاعر رعيته، وأحاسيسهم الداخلية، ليأخذ منهم أوفى مما يمنحهم!!

وإذ قـال سـعد بـن معـاذ رضي الله تعالى عنـه وحين وقـع اختيار نبينا ﷺ لـه في مسألة التحكيم في بني قريظة: قـد آن لسـعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم[1].

---

(1) السيرة النبوية، ابن هشام الحميري: ج ٣/ ٧٢٠

وهذا صواب ودقة القائد؛ لأنه وإن حافظ على سلمه الاجتماعي، لكن حد الله أولى، وإذ كان التوفيق بينهما ألزم.

وهذا بيان سعد، ولمن أتى بعده، أن يحسن بلاغه عن ربه تعالى، فإن مسألة التحكيم غاية في مقدماتها ونتائجها.

وفيه تقديم الحازم، وتفضيل الجازم، وخاصة في مصالح الأمة العليا، وانظر قوله تعالى ﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ [القصص:26].

وهذه وجهة ولي الله! وحين يكون التعبيد له تعالى من حواليه كله! فيضمن معه التجرد، ويؤمن دونه الحيود!

إن التعامل مع مصالح الأمة العليا يعوزه قوم متجردون من هوى، ويلزمه طاقة من إخلاص، تقودهم قودا إلى تقوى الله تعالى، فعلا و تركا.

وبهكذا أعلن سعدا! وحين استجمعت الأوس عليه، ظانين محاباة! وملتمسين ميلا! وهكذا القاضي لا يرعوي لصخب إعلامي، ولا يتأثر بهمس الجماهير!

قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم: هذا إعلان عام، في حسن سير عملية التقاضي، فلا يتأثر القاضي بصخب إعلامي، أو هوى شخصي، أو دعم شعبوي!

وإذ حد سعد مسيرة التقاضي في عبارة أوجز من الإيجاز نفسه، وحين كانت وجهته لله وحده. نظرا مستقيما!

وإذ كان يمكن لنبينا ﷺ أن يحكم في بني قريظة، لكنه أراد أن يترك في الأمة مساحة، تعلم من خلالها إكرامه لها، وأنها محط عنايته وثقته معا.

وإذ كان يمكن لنبينا ﷺ أن يحكم في بني قريظة غير أوسي! لكن ذلك أدعى قبولا، وهذا فن إداري! وانظر قوله تعالى ﴿ **وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا**﴾[المائدة:12]. وقوله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾ [إبراهيم:4]. وإذ وكما قيل: أهل مكة أدرى بشعابها!

إن قيادة الأمم توفيق رباني إنشاء، وفن إداري سببا، وهذا ما تبدى واضحا في مسألة التحكيم في بني قريظة، وحين انتدب نبينا ﷺ سعدا أوسيا، تقديرا لمشاعر الأوس، وهذا تلمس الراعي لحاجات الرعية، ومشاعرها ورعايتها، وجعلها محط أنظاره، ومن حيث لا تصادم نصا، ولا تخالف هديا.

إن انتداب سعد بن معاذ الأوسي، في تحكيم بني قريظة، برهان أن يكون القاضي ملما بأعراف الخصوم، ومن بينهم، وهذا فن في العدالة، سبق به ديننا!

إن عوارا في التقاضي، وحين يحكم أبناء الشرق في قضية أبناء الغرب! نظرا في نصوص وإذ تبدو أمامهم جامدة، وحين كانت منبتة الصلة بعادات الناس الحاكمة، وهم إذ يجهلونها!

إن مراعاة عادات الناس الحاكمة، وحين لا تعارض نصا أعلى، وهو القرآن أو السنة، هو أدب التقاضي الحميد، وحين استلهمناه من تحكيم سعد بن معاذ! أوسيا يعرف شعاب الأوس، ويدرك ما يعمل فيهم عمله، أو يترك فيهم أثره، إلفا اجتماعيا، وثيق الصلة بمسألة التقاضي، وحين إنزال النصوص منازلها، وحين إيقاعها مناطا للحكم؛ كيما تلقى قبولا لدى الخصوم، وإذ إنها وإن تنزلت من

السماء من عل، إلا أنها كانت تراعي حاجات الناس، وما ينفعهم فتأتي به، وما يضرهم فتنأى بهم عنه! وهذه مسألة غاية في الأهمية بمكان، وحين كان شرعه تعالى المنزل يحكي وكأنما نزل ومن بينهم، ويكأنه يعرفهم عرفا! وهذا ما يتسق تماما مع ربوبيته ورحمته تعالى للعالمين- سبحانه -.

إنه لا تعارض بين عادات الناس الحاكمة، وحين كانت مدلولات اللغة لديهم ضابطة أمام القاضي، وهو إذ يعمل نص الوحيين في المسألة، وهذا فن قاضوي!

إن حكما قضائيا صدر، منبت الصلة بعادات الناس الحاكمة، فإنما يكون وأمره هكذا معيبا، يعرضه للبطلان المطلق، ولا يصححه إلا حكم آخر صدر، ومن كونه كان وثيق الصلة بعادات الناس الحاكمة، وإذ عرف مدلولات ألفاظهم وأعرافهم فيها!

وإنه ما كانت لتخطئه ﷺ اختياراته، وحين تربى سعد بن معاذ على مائدة نبوته ﷺ، وإذ كان صواب حكمه موفورا، وعدل قضائه مأجورا،. لكنه فن مراعاة عادات القوم! وإذ أكرر أنه لا تصادم بين ذلك ونص كريم، بل لحمة واحدة غير متباينة أو متعارضة أو متخالفة!

ولا ننسى أن سعد بن معاذ، قاضي قضية التحكيم في بني قريظة، قد تم حمله على حمار!! وقد كانت هنالك إبل، وقد كانت هنالك خيول! وهذا تواضعه رضي الله تعالى عنه! وإذ قد تربى على مائدة التواضع الأولى، مائدة مدرسة نبينا محمد ﷺ!

المبحث التاسع: قوموا إلى سيدكم

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد هو ابن معاذ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قريبا منه، فجاء على حمار، فلما دنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **((قوموا إلى سيدكم)) فجاء، فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: فإني أحكم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية، قال: ((لقد حكمت فيهم بحكم الملك))**[1]

وعن أبي سعيد الخدري أيضا: أن أهل قريظة لما نزلوا على حكم سعد أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم فجاء على حمار أقمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قوموا إلى سيدكم. أو إلى خيركم ،فجاء حتى قعد إلى رسول الله ﷺ[2].

وعن عائشة أم المؤمنين قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، فقال عمر: سيدنا الله عز وجل، قال: أنزلوه، فأنزلوه[3].

إن مسألة القيام للقادم كانت مثار كلام في القديم والحديث، وكشف نقابه أولى، وبيانه أدعى.

---

(1) صحيح البخاري: 3043
(2) صحيح أبي داود، الألباني: 5215
(3) السلسلة الصحيحة، الألباني: 67

جاء الأمر بالقيام إلى سعد بن معاذ، وليس القيام له! وإنما جاز الأول؛ لأنه كان مصابا من يوم ألأحزاب، وإنما لم يجز الثاني؛ لعدم ورود النص به، ولأنه محل تعظيم نهى الشارع عنه.

حسن توجيه رواية قوموا إلى سيدكم على أن سعدا كان مصابا، وهذا ما يفهم من ظاهر أمره صلى الله عليه وسلم: أنزلوه، وكذا اسستجابتهم رضي الله تعالى عنهم: فأنزلوه، برهان وجود علة منعت نزوله فأنزل.

وجمعا بين رواية: قوموا إلى سيدكم ورواية: إنه صلى الله عليه وسلم: كان يكره أن يقوم الناس له، يفهم أن علة إصابة سعد كانت سبب الأمر بالقيام إليه؛ لإنزاله لا له.

فعن أنس بن مالك: ما كان شخص أحب إليهم رؤية من النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا إليه لما يعلمون من كراهيته لذلك[1].

وفرق بين القيام احتراما، وهذا جائز، والقيام تعظيما، وهذا غير جائز: هذا قول فريق، وهو محض اجتهاد، مخالف للنص. وفقه النصوص أدعى: لإزالة الشبهة. ولعدم تحميل النصوص مالم تحتمله، وتكون مفرغة من فقهها ومعانيها.

وليس يقاس هنا قيام لذي الفضل والصلاح والوالدين!

(ويسن القيام لأهل الفضل من علم وصلاح أو شرف أو نحو ذلك لا رياء وتفخيما. قال في الروضة: وقد ثبت فيه أحاديث صحيحة)[2].

---

(1) صحيح الأدب الألباني المفرد: 724

(2) مغني المحتاج، محمد بن أحمد الشربيني: ج ٣ / ١٣٥

وقيل: يجوز؛ بل يندب القيام تعظيما، كما يجوز القيام ولو للقارىء بين يدي العالم: (قال في "القنية": قيام الجالس في المسجد لمن دخل عليه تعظيما وقيام قارىء القرآن لمن يجيء تعظيما لا يكره إذا كان ممن يستحق التعظيم. وفي "مشكل الآثار": القيام لغيره ليس بمكروه لعينه، إنما المكروه محبة القيام لمن يقام له، فإن قام لمن لا يقام له لا يكره. قال ابن وهبان: أقول: وفي عصرنا ينبغي أن يستحب ذلك ـ أي القيام ـ لما يورث تركه من الحقد والبغضاء والعداوة، ولا سيما إذا كان في مكان اعتيد فيه القيام. وما ورد من التوعد عليه، في حق من يحب القيام بين يديه كما يفعله الترك والأعاجم[1].

حديث عمر بن السائب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا يوما فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ثم أقبلت أمه من الرضاعة فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه[2]

حديث أبي جحيفة: قدم جعفر بن أبي طالب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أرض الحبشة، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين عينيه، وقال: ما أدري أنا بقدوم جعفر أسر أم بفتح خيبر؟[3].

حديث عائشة أم المؤمنين: قدم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي، فأتاه فقرع الباب، فقام إليه رسول الله صلى الله عليه

(1) حاشية رد المحتار، ابن عابدين: ج ٦/٧٠٢

(2) ضعيف أبي داود، الألباني: 5145

(3) تخريج زاد المعاد، شعيب الأرناؤوط: 414/2. خلاصة حكم المحدث: إسناده ضعيف.

وسلم عريانا يجر ثوبه، والله ما رأيته عريانا قبله ولا بعده، فاعتنقه وقبله[1].

حديث أبي هريرة: كان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس معنا في المجلس يحدثنا فإذا قام قمنا قياما حتى نراه قد دخل بعض بيوت أزواجه فحدثنا يوما فقمنا حين قام فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه فجبذه بردائه فحمر رقبته قال أبو هريرة وكان رداء خشنا فالتفت فقال له الأعرابي احمل لي على بعيري هذين فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا وأستغفر الله لا وأستغفر الله لا وأستغفر الله لا أحمل لك حتى تقيدني من جبذتك التي جبذتني فكل ذلك يقول له الأعرابي والله لا أقيدكها فذكر الحديث قال ثم دعا رجلا فقال له احمل له على بعيريه هذين على بعير شعيرا وعلى الآخر تمرا ثم التفت إلينا فقال انصرفوا على بركة الله تعالى: ضعيف[2].

و": (قوله صلى الله عليه وسلم: "يمثل" معناه: يقوم وينتصب بين يديه، ووجهه هو أن يأمرهم بذلك ويلزمه إياهم على مذهب الكبر والنخوة)[3].

حين قال نبينا صلى الله عليه وسلم قوموا إلى سيدكم، قال عمر: سيدنا الله! وانظر كيف كان رد الفاروق أدبا مهذبا، وحين كان مفهما ألا مسود إلا الله تعالى، في إدلاء كريم مما أدلى به الفاروق، وقد تأيد بقرآن كريم إلى يوم الدين.

وإذ كان اعتراضه رضي الله تعالى عنه على التسويد، ولم يعترض على القيام إلى...، وليس القيام ل...، وهو ذاك الذي كان يقول ولا يسكت؟!

---

(1) المرجع السابق: 414/2 . خلاصة حكم المحدث: إسناده ضعيف.

(2) ضعيف أبي داود، الألباني: 4775

(3) معالم السنن، الخطابي: ج4/ص155

إن اعتراض عمر رضي الله تعالى عنه على تسويد سعد دلالة على أن القيام إليه كان لعلة أصابته يوم أحد، وإلا ما سكت عنه الفاروق عمر، كما لم يسكت على التسويد!

لا أؤيد وجه القيام إلى سعد توقيرا له بحضرة المحكوم عليهم ليكون أبلغ في نفوذ حكمه! لوضوح النص على علة جرحه وإيلامه، فأغنى عن التأويل!

إن القيام إلى القادم جائز؛ لورد النص به، وما عداه لا يجوز؛ لمخالفته النص، وعدم وجود نص آخر يسنده، كالقيام لفلان تعظيما، أو القيام على فلان كقيام عبد على سيده.

إن فعل طلحة بن عبيد الله في حديث توبة كعب بن مالك في البخاري و مسلم أن الراوي -كعب بن مالك- قال: **فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة**[1].. فقام إليه ولم يقم له.

إنه لا يجوز القيام ل...، قياسا على أن القيام لله رب العالمين، من قوله تعالى ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾ [المطففين: 6]. ولا يغني اشتهار شيء عن حرمته!

وإنه لا يجوز القيام على...، والاستدلال بوقوفهم على رأسه صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية يتأول أنه للحراسة لا للتعظيم؛ كيما تتوافق الأدلة، ولا تكثر الاستثناءات.

(1) صحيح البخاري: 4418

إنه إذا لم يجز القيام للقادم، وهذا متأول، فإنه يجوز إذا خشي من العداء والبغضاء جراءه! وهذا غير متأول! كأن يترتب على ذلكم عدم القيام والحال هو عموم البلوى به شحناء، جاء النص بتحريمها.

ارتكاب أدنى المفسدتين درءًا للأعلى منهما: إن القيام للقادم مفسدة أدنى، أمام عدم القيام إذا كان سيسبب شحناء، وهذه مفسدة أعلى، فجاز ارتكاب أدنى المفسدتين لصالح درء الأعلى مرتبة منهما.

العادة محكمة: وهذه قاعدة فقهية معتبرة في بابها؛ ولأن الشرع أقر الاعتراف بالعوائد، وحيثما كان يدور مع المصلحة حيث دارت، وهذا فقه بين! وهذه في بابنا ذات شأن كبير.

الضرورات تبيح المحظورات: إن ضرورة القيام للقادم، رغم حظر ذلك دينا وشرعا ودليلا؛ محافظة على القلوب، ألا يداخلها رين، كان الغنى عنه أولى مصلحة وفقها.

قوموا إلى سيدكم: هذا إعلان عن صفة سعد بين قومه، لا أنه مسود: وبينهما فارق، حسن علمه. وإقرار الوضع القائم جائز، وحين لم يتعد العبودية لله.

قوموا إلى سيدكم: حين ذلك قال المهاجرون: إنه صلى الله عليه وسلم أراد الأنصار؛ لأنه منهم؛ ولأنه من زعمائهم؛ ولو كان القيام للقادم مشهورا ما وقع ذلك.

وعن معاوية بن أبي سفيان: من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار[1].

وعن معاوية بن أبي سفيان أيضا: من أحب أن يتمثل له الناس قياما، فليتبوأ مقعده من النار[2].

وهذان الحديثان محمولان على من أحب أن يقوم الناس له، ورغب في ذلك. وأما ما عدا ذلك فيعالجه ما سبق آنفا.

المبحث العاشر: لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله (1)

رمى الأحزاب سعدا بن معاذ، وقطعوا أكحله، فحسمه نبينا صلى الله عليه وسلم بالنار: وفيه جواز الاكتواء بالنار. واهتمام القائد برعيته وجنده، وكذا صبر سعد. والأكحل: عرق في الذراع.

فقال سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، إن الحكم فيهم لما حكمت؟ وفيه طمأنة الخصم بحكمه تعالى؛ ليقبله حين صدوره، وهذا فن نفسي!

وفيه استدعاء رضا الخصم بالحكم مسبقا، ترضية وإعدادا، وهذا فن نفسي.

وحدث هذا في حضرته صلى الله عليه وسلم، وفيه إشراف الوالي على أحكام القضاء؛ للتأكد من نزاهة الحكم.

---

(1) صحيح الترمذي، الألباني: 2755

(2) السلسلة الصحيحة، الألباني: 357

وإذ قد حدث هذا في حضرته صلى الله عليه وسلم، وفيه تعدد درجات التقاضي؛ ضمانا لنزاهة الحكم القضائي.

فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم. هكذا تكون عبارة الحكم القضائي موجزة جامعة مانعة، لا يعوزها تفسير لوضوحها، أو تأويل لظهورها.

وإنما كان هذا حكمه، لأنهم أهل حرب، وللخيانة العظمى بنقضهم ميثاقهم، فأخذوا حكمهم.

وهذا فقه سعد رضي الله تعالى عنه، وحين استعمل القياس، بجامع إظهار المحادة.

وفيه اعتبار الحكم بالسوابق القضائية، وحين اتحدت عللها.

وفيه شرط قدرة القاضي على الاجتهاد؛ لاستصحاب الأصول، وإعمال الفروع.

حين حكم سعد حكم في بني قريظة، قال نبينا صلى الله عليه وسلم: لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله. وفيه فقه سعد، وبعد نظره وعلمه، وكما وأنه دل على مدى علمه صلى الله عليه وسلم بمن حوله من أصحابه، وأيهم كان أصلح لعمل فولاه إياه، وحين وقع اختياره لسعد فكان على حسن ظنه به.

لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله: وبهذا يكون الحكم نهائيا باتا، قاطعا للطعن عليه بأي وجه من أوجه الطعن، شكلا أو موضوعا.

اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. وهذا تمن للشهادة، وداع به مأجور، لا تعديا بتمني الموت، ومتعد به مأزور. لأنه استعجال لمقاديره تعالى، وإذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث أنس بن مالك: لا يتمنين أحد منكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنيا للموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي[1] .

إن دعاء سعد بالموت على سبيل الشهادة، ولمظنة أثر جرحه يوم الأحزاب، أو إبقائه لحرب قريش، والشهادة فيها أيضا، وفيه فضل تمني الشهادة، وفضل الشهادة والشهداء.

وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. وفيه صدق نبوءة سعد، فقد قطعت حرب قريش بعده، وعام الفتح شاهد، فقد غزاهم نبينا صلى الله عليه وسلم، ودون قتال!

وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك. وإذ كانت غزوة الأحزاب سنة خمس، وكان فتح مكة دون قتال سنة ست، وهذا تحقيق نبوءة سعد بن معاذ!

وهذه منقبة سعد، فقد مات بعدها شهيدا!

وهذا فضيلة الدعاء ببدئه ب(اللهم).

---

(1) صحيح البخاري: 6351

أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل! قال حيي بن أخطب لنبينا صلى الله عليه وسلم يوم قتله: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل! وهذه ندامة نفس، وحين راح زمانها! وقد أمهل!

قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل: وهنا تتبدد أوهام المرء وأحلامه، وعند هول المطلع، ولا يبقى إلا اعترافه وكيف فرط!

قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل: وهذا بيان متناقض لأنه صلى الله عليه وسلم مبلغ عن ربه، وبه جمع بين وصفين، كونه صلى الله عليه وسلم نبي ربه تعالى، وكونه صلى الله عليه وسلم مبلغا عنه سبحانه، وعداوة أحدهما نظير الآخر. وهكذا الباطل.، تلقاه مختلفا، وهكذا الكفر تجده متباينا متفرقا أجزاءا!!

وفيه شدة غضب ربنا على حيي بن أخطب، فبدل أن يلهمه التوبة، تشدق بمحادة!!

وهذه رسالة إلى أعداء الحق، وأن مصيرهم كمصير حيي بن أخطب، خذلان بلا توفيق، وترد دون إلهام!

وإذ كان حيي بن أخطب رأسا، ولذا؛ أذله الله تعالى أكثر مما سواه، وحين كان هذا آخر اعترافه بخذلانه.

وعلى مناهضي الحق أن يرعووا كثيرا، فهذا سلفهم حيي بن أخطب، وكيف خذله الله!

وهذا مقابله قوله تعالى﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ [سورة محمد:7].

وإذ كان حيي بن أخطب يزين له الشيطان سوء عمله. وها هو يرى خذلانه بين يديه! وهذا تصوير القرآن العظيم لهكذا صنف، وإذ قال تعالى ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكمۖ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم ليۖ فلا تلوموني ولوموا أنفسكمۖ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيۖ إني كفرت بما أشركتمون من قبلۗ إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾[إبراهيم:22].

إنه لو يجاهد كل هواه ونفسه، فما وقف أحد موقفا كحيي بن أخطب هذا! وإذ يحيطه خذلانه!

وهذا أسلوب شرط، يتوقف تحقيق المشروط فيه، وهو الخذلان، على تحقيق شرطه، وهو خذلان الحق.

إن العقلاء لا يتخذون موطئا يعادون فيه ربهم؛ لأن معادلتهم خاسرة، أولها وآخرها!

إنني أشفق كثيرا، وحين أرى متعديا، زين له سوء عمله، وها هو سلفه، وإذ يخور مخذولا!

وإنه حين حكم سعد بن معاذ في بني قريظة، أمر نبينا صلى الله عليه وسلم بتنفيذ الحكم حالا، ولم يتأخروا، برهان حجية الحكم ولانعدام أوجه الطعن فيه، ولأنه كان تحت إشرافه صلى الله عليه وسلم، وعلى عينه.

المبحث الحادي عشر: قال عمر: سيدنا الله!

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد هو ابن معاذ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قريبا منه، فجاء على حمار، فلما دنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((قوموا إلى سيدكم)) فجاء، فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: فإني أحكم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية، قال: ((لقد حكمت فيهم بحكم الملك))[1].

عائشة أم المؤمنين أن نبينا قال: قوموا إلى سيدكم فأنزلوه، فقال عمر: سيدنا الله عز وجل، قال: أنزلوه، فأنزلوه[2].

وإذ قال نبينا ﷺ «قوموا إلى سيدكم فأنزلوه» قال عمر: سيدنا الله، قال: «أنزلوه» فأنزلوه. يلاحظ في هذا عدم مؤاخذته ﷺ لعمرا! وحين اعترض أن سعدا سيدهم!!!

إن عدم تقريعه ﷺ عمرا حين اعترض أن سعدا سيدهم! برهان حلمه ﷺ مع رعيته، ولئن قالوا غير قوله! وبه تتقدم الأمم، وحين كان فيهم من يقول لواليه: لا!

لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها! هذا نظام عمر، وهو نفسه الذي رد بأدبه الجم على نبينا ﷺ، وأن سيدهم هو الله! سننا وهديا حسنا.

---

(1) صحيح البخاري: 3043

(2) السلسلة الصحيحة، الألباني: 67

وهذا الخبر ولئن كان فيه مقال؛ علة أن فيه أبا بكر الهذلي، وهو سلمى بن عبد الله، وقال عنه الذهبي في الميزان: واه. إلا أن سيرة عمر رضي الله تعالى عنه تشهد بصلاحيته للاحتجاج.

وكان أبو بكر- الهذلي- من العلماء بأخبار الناس وآبائهم، حكى عن أبي العباس السفاح أنه كان يقول: ما رأيت أحدا أغزر علما من أبي بكر الهذلي، لم يعد علي حديثا قط. وقال أيضا حدثنا مسلم، حدثنا أبو بكر الهذلي، وهو ضعيف ليس حديثه بشيء [1]. والله أعلم.

و(أبو بكر الهذلي)) سلمة بن عبد الله أبو بكر الهذلي، كان عالما بأيام العرب وسيرها، وأحد أصحاب الحديث، ولقي الزهري والحسن البصري ومحمد بن سيرين، وكان بصريا، توفي سنة تسع وخمسين ومائة، كان في صحابة المنصور، وكان أخباريا علامة، لم يرضه يحيى القطان، وقال ابن معين ليس بشيء، وقال أحمد ضعيف، وقال البخاري ليس بالحافظ، وروى له ابن ماجة [2].

أصابت امرأة وأخطأ عمر! هذا نظام عمر! وحين يدلي برأيه على نبينا ﷺ مرة، وحين يتيح مجالا لامرأة أن تحاجه على منبره، في مسألة المهور، وعلى رؤوس الأشهاد عبرة وذكرى! وحين تأيد من السماء غير مرة، ولهذا فقد كان عبقريا لم يفر أحد فريه!

وإذ قال عمر بن الخطاب رضي االله تعالى عنه: لا تزيدوا في مهور النساء وإن كانت بنت ذي الغصة - يعني: يزيد بن الحصين الحارثي - فمن زاد ألقيت

---

(1) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ج ٩ /٢٢٢

(2) الوافي بالوفيات، الصفدي: ج ١٥/٢٠٢

الزيادة في بيت المال، فقالت امرأة من صفة النساء طويلة، في أنفها فطس: ما ذاك لك، قال: ولم؟ قالت: إن الله قال { وآتيتم إحداهن قنطارا } الآية، فقال عمر: امرأة أصابت، ورجل أخطأ[1].

وهذا الخبر وإن كان فيه كلام هو الآخر، إلا أنه بلغ حد الشهرة، وبلا نكير وكان ولا يزال محل استشهاد به، ولتوافقه مع يسر الإسلام وسماحته، ولأنه لو كان نبينا صلى الله وسلم حيا، وكذا عمر الفاروق، لقال كل منهما قولا آخر في مهور أهل زماننا!

والجواب: أن هذه القصة دليل على كمال فضل عمر ودينه وتقواه ورجوعه إلى الحق إذا تبين له، وأنه يقبل الحق حتى من امرأة، ويتواضع له، وأنه معترف بفضل الواحد عليه ولو في أدنى مسألة، وليس من شرط الأفضل أن لا ينبهه المفضول لأمر من الأمور، فقد قال الهدهد لسليمان **{ أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين }** [سورة النمل / 22]، وقد قال موسى للخضر **{ هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا }** [سورة الكهف / 66]، والفرق بين موسى والخضر أعظم من الفرق بين عمر وبين أشباهه من الصحابة، ولم يكن هذا بالذي أوجب أن يكون الخضر قريبا من موسى فضلا عن أن يكون مثله، بل الأنبياء المتبعون لموسى كهارون ويوشع وداود وسليمان وغيرهم أفضل من الخضر. وما كان عمر قد رآه فهو مما يقع مثله للمجتهد الفاضل[2].

(1) تفسير ابن كثير: (1 / 468)
(2) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية: ج 76,77/6

وهذا حديث من رواية ولده عبدالله بن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال: **أريت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا، أو ذنوبين نزعا ضعيفا، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا، فلم أر عبقريا يفري فريه حتى روي الناس، وضربوا بعطن**[1].

إن الراعي الأشم هو ذاك الذي تستوي عنده رعيته وحين قالت: نعم! وحين قالت: لا! ولأنه يعلم نية حسنة، أو هكذا في قائلها! لتتفتح آفاق مجدهم من أمامهم معا!

سجل التاريخ لنبينا ﷺ، وإذ قال له عمر: سيدنا الله! وسجل التاريخ لنبينا ﷺ أنه حليم أعظم حلمه، وأنه عفو أقصى عفوه، وأمام رعية قالت له: لا!!

وسجل التاريخ لعمر أنه قال لواليه ﷺ:لا! ولأنه ليس يريد إلا الإصلاح ما استطاع إليه سبيلا، وهكذا افتراض حسن النية في قائلي حق، وحين رأوه هكذا!!

إنه حين قال عمر: سيدنا الله! رد ﷺ: أنزلوه ولم يكرر: سيدكم، هكذا في إقرار لطيف متبادل، كان الإدلاء بحق والرد عليه سلوكا يحتذي وهديا يقتدى!

إن منظومات الإدارة وأدوات الحكم، وحين تغدو متبادلة آراء المجد والرفعة، وفي هكذا لطف مناخ، واعتدال طقس، لتخرج منه بقرار يهدي إلى الرشد وإلى صراط مستقيم!

---

(1) صحيح البخاري: 3682

إن تبادلا للرأي بين عمر الفاروق ونبينا ﷺ في مسألة تسويد سعد هدي وخير، وذلك كيما يتركوا لنا هكذا إرثا رقراقا، منه نفيد، وعلى سننه نسعى!

إن غرفة الاجتماعات لتستقبل روادها، وذلك حين يفرغ أحدهم جعبته من رأي رآه حقا مطلقا، ولربما كان باطلا مطلقا!! وحين أودع مجلس التناصح والبحث الإيماني الهادف، وحين كان مكللا بخلق حميد وسمت جميل!

إن الذهاب إلى الاجتماع صحبة رأي لا تنازل عنه يفرغه من هدفه، وليحل عندها صخب لإبليس خيم، وليخرج الناس ليس يجمعهم جامع إلا ما أوحاه إبليس!

إنه حين نزل القرآن بتأييد عمر الفاروق غير مرة، وإنما كان ذلك إعلاما للولاة أن فردا يملك حقا ليسوا بمالكيه، وها هو إذ قد أيدته السماء! وذلك برهان أن الله تعالى أودع الحكمة في قلوب عباده، ورشيدة أمة استفرغت هذه الدرر من مكامنها، من قلوب رجال كان الأصل فيهم أنهم حكماء، وحين أودعهم ربهم حكمة، هي ضالة المؤمن، وهو أحق بها، أينما وجدها فهو أحق بها!!

وإذ تأخرت أوروبا يوما، وحين أمعنت الكنيسة في إذلال المبتكرين، ولأنها لم تتصور حقا جاؤوا به، وإذ رهبانها في صوامعهم متكئون! حتى خيم عليهم ظلام دامس!

حين أحكمت الكنيسة رأيها، وحين تعصبت لرؤيتها، باسم الثوابت والفروع، خرج الناس عن سلطانها، فلا أبقت أصلا ولا أعملت فرعا، فجمعت بين نقيضين!

وإذ كان خروج أوروبا عن طغيان كنيستهم جائرا كجورها تماما! إذ خلعوا سلطانها كله، ولما تشددت، وكان وسطا أن يبقوا على القيم، وإن أطلقوا للبحث العلمي عنانه.

إن عمر الفاروق وحين قال: لا! لم يخرج عن ثابت، ولم يهمل فرعا! وهكذا جمع بينهما، مع رأي وحرب ومكيدة، كان عنوانها الحباب بن المنذر يوم بدر!

حين فصل ليوجد أصل وفرع وحين التعبد لله فلا أصل ولا فرع! بل كله أصل! ولأنه: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره!

قال عمر لعائشة أم المؤمنين يوم الأحزاب: ما جاء بك والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوز!

فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض فتحت ساعتئذ فدخلت فيها!

وهذا هو فضل قول الحق الذي يمتري فيه الأغيار، وحين أثلج عمر صدور قوم مؤمنين، بتوجيه كهكذا لأمه أم المؤمنين! لكن الحق أحق أن يتبع، ولو كانت أمه وأم المؤمنين، غيرة لحق، وحمية لدين، رأى من حشمة النساء وإلزامهن مواطن الأمن، وبعدهن عن موارد الريبة، تطهيرا وتزكية!

وإنه لقول خير، ورأي هدي، وتوفيق رب كريم، أن يوجد في أمتنا من أمثال عمر وحين يقول بملء فيه: لا! ولو كان لبيت الوالي الأعظم!!

والفرض أن الوالي الأعظم ليسره ذاك الأشم عمر، وأن لو تمنى أمثاله كثرا لا مثلا واحدا!!

وهذا هو مطلق الجمع الحميد بين إقرار الأصول والحفاظ على الفروع، ثم الإدلاء بالرأي والحرب والمكيدة دربا للحباب، وهديا للفاروق، وعلى مسمع من والينا الأعظم ﷺ، وهو إذ وكأني به مسرور، وهو إذ وكأني به في رضا وحبور، وأن كان من أمته أمثال القائلين بحلمهم: لا!!

رحماء بينهم! فو الذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر، من بكاء أبي بكر، وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله: رحماء بينهم. هذا وصف عائشة رحين احتضر سعدا!

كان كل فرد من أصحاب نبينا ﷺ أمة وحده! ويحار لب ويختلج فؤاد بأيهم يصف أو ينعت أو يشيد! حتى بلغ من إلفهم وصف السماء أنهم رحماء بينهم!

تمثل واقعة موت سعد بن معاذ كشفا لحال أمة، وحين تبكى شهيدا زفته السماء إلى حوره العين ينتظرن وروده، وإلى جنات الفردوس وإذ تهيأ لاستقباله!

وإذ كيف لا يبكي الصديق سعدا، وإذ كيف لا ينعيه عمر، وها هو ذاك الذي أمرهم نبيهم أن ينزلوه من فوق حمار؛ ليحكم بحكم ربه، وكفلق الصباح نورا؟!

كان بكاء الصديق والفاروق على سعد نحيبا مسموعا، برهان رحمة في قلوب المؤمنين، وإذ لا فارق هاهنا بين أنصار كسعد بن معاذ، أو كمثلهما مهاجرين!

وصفت عائشة نبينا ﷺ أنه كان لا يبكى على أحد! وبكى ﷺ على ابنه إبراهيم ف:إن العين تدمع، وإن القلب يحزن، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون.

كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته.

هذا حديث حسن في مقابلة، حديث بكائه ﷺ على ابنه إبراهيم في الصحيحين!

ففي حديث أنس بن مالك:... إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[1].

وعن عائشة أم المؤمنين: حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر سعد بن معاذ، وهو يموت في القبة التي ضربها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، قالت: والذي نفس محمد بيده، إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وإني لفي حجرتي، فكانا كما قال الله: {رحماء بينهم} [الفتح: 29]. قال علقمة: فقلت: أي أمه! كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع؟ قالت: كان لا تدمع عينه على أحد، ولكنه كان إذا وجد، فإنما هو آخذ بلحيته[2].

إن الكريم يجزي الكريم: هذا رد الزبير بن بطا على ثابت بن قيس، وإذ كان قد أجاره يوم بعاث، وها هو ثابت يشفع له يوم بني قريظة؛ ردا لجميله!

إن العاقل ليندهش، وحين طلب الزبير بن باطا من ثابت بن قيس أن يجز عنقه؛ وإذ لا خير في حياته بعد موت حيي بن أخطب، وبدل أن يؤمن أو ينجو بنفسه، منحة وفضلا من عليه بها ثابت بن قيس!!

إن حمية الجاهلية لا وصف لها إلا أنها جاهلية! مقتا وسبة وعيبة، وإلا لأتى القرآن بغيره نعتا لها، ومنه إصرار الزبير بن باطا على قتله، وكمثل حيي بن أخطب!

---

(1) صحيح البخاري: 1303

(2) تخريج سير أعلام النبلاء، شعيب الأرناؤوط: 1/286. حكم المحدث: إسناده حسن.

المبحث الثاني عشر: قضيت بحكم الله! (2)

عن أبي سعيد الخدري: **نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد، فأتاه على حمار، فلما دنا قريبا من المسجد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار: قوموا إلى سيدكم، أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: تقتل مقاتلتهم وتسبي ذريتهم، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قضيت بحكم الله، وربما قال: قضيت بحكم الملك. ولم يذكر ابن المثنى وربما قال: قضيت بحكم الملك. وفي رواية: لقد حكمت فيهم بحكم الله، وقال مرة: لقد حكمت بحكم الملك**[1].

حين حكم سعد بقتل مقاتلة بني قريظة، وبينه نبينا ﷺ بأن يقتل من أنبت، برهان أنه سن التكليف، ولما يبدأ بالإنبات، وهذه إشكاليات تتعلق بتنفيذ الحكم القضائي.

وحين حكم سعد بقتل مقاتلة بني قريظة، استنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث امرأة من بنى النجا: وفيه جواز الحبس؛ لتقييد حركة المحكوم عليه؛ منعا لهروبه، وإمكانا لتنفيذ حكم القضاء دون مدافعة.

عن عطية القرظي قال: كنت من سبي بني قريظة، فكانوا ينظرون فمن أنبت الشعر قتل، ومن لم ينبت لم يقتل، فكنت فيمن لم ينبت، وفي رواية فكشفوا عانتي فوجدوها لم تنبت فجعلوني من السبي[2].

---

(1) صحيح مسلم: 1768

(2) صحيح أبي داود، الألباني: 4404 و 4405

وفيه عدم تكليف من لم يبلغ، وعلامة البلوغ الإنبات، كما أن فيه جواز الكشف للتحقق من البلوغ أو عدمه.

إنه لا فرق بين صبيان أهل الذمة أو ما سواهم في مسألة علامات الإنبات؛ ولأن هذا هو المتفق مع عالمية ديننا، وأنه بحد ذاته علامة نظر إلى الإنسان من حيث كونه كذلك، بقطع النظر عما يدين، وأن هذه أمور جبلية، و لا دخل للأديان فيها.

حين شفعت سلمى أم المنذر في إطلاق رفاعة بن شموال يوم بني قريظة؛ ولوعده أن يصلي، ويأكل لحم الجمل: برهان جواز عفو الإمام بعد صدور حكم القضاء، وتصديق المتهم، والأخذ بظاهره، وكفاية قيامه بفروع الشريعة، وريثما يتم التحقق من صدقه لاعتباره مسلما.

إن شفاعة أم المنذر للعفو عن رفاعة بن شموال، وبعد صدور حكم القضاء، برهان جواز الشفاعة، وأن هذا الدين ذو رحمة بالغة؛ لأنه يظل مع المتهم إلى أبعد مدى ممكن لتمكينه من التوبة!!

قالت عائشة: فو الله ما أنسى عجبا منها طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل[1].

هذا؛ وحين قتلت رجلا مسلما، فاقتص منها: وفيه بيان رباطة جأش أفراد، وها هم إلى ساحة قتلهم! وقد حكى التاريخ أمثلة لذلك عديدة، ولا زال مشهد قتل الرئيس العراقي صدام حسين ماثلا!!

---

(1) تفسير الخازن: 422/3

والله إنها لعندي تحدث معي، تضحك ظهرا وبطنا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق-بنو قريظة-، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟[1]. وفيه جواز مجالسة أهل الكتاب، وطالما لم يحدثوا هزوا أو كفرا ظاهرا، وهذه سماحة ديننا؛ ولفتح مجالات أرحب أمام دعوتنا؛ وليروا ديننا وأخلاقنا عن قرب، فتحدث فيهم أثرا بالغا، وما كانت لتحدثه قراءات أو مطالعات.

قسم نبينا ﷺ سبايا وأموال بني قريظة على المسلمين بعد إخراج الخمس، وكان للفارس ثلاثة أسهم: سهمان لفرسه، وسهم له، مساواة بهم للراجل، وابتاع بعضهم بسلاح وخيل، ولعل هذا لتحديث القوات الملحة أولا بول وتعويض نقص أو إحلال بدل قديم تنامى به دهره! وكان ذلك أول فيئ يوزع فيه الخمس.

إن الفيء والغنائم نظام معهود في الحروب، وكان الإسلام سباقا إلى إقرار قواعده، وعلى نظام قرآني محكم، وهدي نبوي كريم، يبعثان الرضا، وينفيان التبرم، وحدة للصف، ورفعا للتضامن، وأن هذه أبواب رزق للمجاهدين، ربما اكتفي بعطاءات الجند ورواتبهم، بدلا عنها في يوم الناس هذا.

اصطفي نبينا ﷺ لنفسه ريحانة بنت عمرو وظلت معه حتى وفاته وكان قد عرض عليها العتق ليتزوجها فآثرت أن تكون أمة!. [تاريخ الطبري، الطبري: (103/2)].

وهذا برهان رحمة لمستها منه ﷺ، فاستوى لديها أن تكون زوجة أو أمة!! ولذا فسرعان ما أسلمت، ولما قد لامس الإسلام شغافها، وكانت قد أبته أول مرة!!

(1) تفسير الخازن: 422/3

يستعظم قوم إشارة سعد بقتل بني قريظة، وهذا نص التوراة (وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف! التثنية (20: 13)

حديث: قوموا إلى سيدكم. جواز القيام للقادم. لكنه قيام محبة وتكريم.فقدقام الرسول لابنته فاطمة.

عهد أبو لبابة الله : أن لا أطأ بني قريظة أبدا، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا .(من صدق توبتك هجرتك لبيئة معصيتك)!

المبحث الثالث عشر: موت سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه

عن عائشة أم المؤمنين: **أصيب سعد يوم الخندق؛ رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة، رماه في الأكحل، فضرب النبي صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح واغتسل، فأتاه جبريل عليه السلام وهو ينفض رأسه من الغبار، فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعته، اخرج إليهم، قال النبي ﷺ: فأين؟ فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله ﷺ، فنزلوا على حكمه، فرد الحكم إلى سعد، قال: فإني أحكم فيهم: أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم. [وفي رواية]: أن سعدا قال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهدهم فيك، من قوم كذبوا رسولك ﷺوأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له؛ حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب، فافجرها واجعل موتتي فيها، فانفجرت من لبته، فلم يرعهم -وفي المسجد خيمة من بني غفار- إلا الدم يسيل إليهم،**

فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دما، فمات منها رضي الله عنه[1].

وهذا هو سعد بن معاذ يتهدهد إلى أمر ربه، ومن بعد جرحه يوم الأحزاب في أكحله وكيه ﷺ بالنار لينحسم جرحه، ثم بتقبل الله دعاءه، أن يبقيه ليحكم وينفذ حكمه في بني قريظة، وقد كان له ذلك منقبة وعبرة.

كانت منة منه تعالى وفضلا، أن يستجيب دعاء سعد بن معاذ، وإلى أن يحكم في بني قريظة بحكمه تعالى وحكم نبيه ﷺ، ثم ينفذ هو حكمه فيهم، ثم ليرجع إلى خيمته ﷺ، لينفتح جرحه مرة أخرى!

وإذ لا يضيع الله تعالى أجر المحسنين، ويجيب دعاء الصادقين، فأبقى أثر جرح سعد إلى حين انتهاء مهمته، شأن بني قريظة، ثم لينفتح جرحه أثر يوم الأحزاب، ولينسحب عليه حكم الشهداء، وهذه بحد ذاتها ووحدها آية وبرهان تقواه، وإجابة ربنا تعالى دعاءه ورجاءه!

حين استشهاد سعد بن معاذ قال جبريل عليه السلام: يا محمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟!وهؤلاء عباده تعالى أبلوا فيه البلاء الحسن كله وقد كان منه ذلكم الموت الكريم والذي تخللته آيات المحبة والاصطفاء لرجال لطالما جاهدوا في الله تعالى ربهم حق جهاده.

عن عبدالله بن عمر، قال رسول الله ﷺ: **هذا الذي تحرك له العرش،**

---

(1) صحيح البخاري: 4122

وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، لقد ضم ضمة، ثم فرج عنه[1].

وعن عبدالله بن عمر أيضا: هذا الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفا من الملائكة، لقد ضم ضمه، ثم فرج عنه[2].

(إن جبريل أتى رسول الله صلي الله عليه وسلم - حين قبض سعد بن معاذ [من جرح أصابه يوم الخندق]- من جوف الليل معتجرا بعمامة من إستبرق، فقال: يا محمدا! من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتزله العرش؟ قال: فقام رسول الله صلي الله عليه وسلم سريعا يجر ثوبه إلى سعد، فوجده قد مات)[3].

إن الشهداء لهم عند ربهم أجرهم ونورهم، وكان منه فتح أبواب السماء كلها- لا بابا واحدا- لسعد بن معاذ! وكان منه اهتزاز عرش الرحمن لموته رضي الله تعالى عنه مثلا يحتذى وقدوة تقتفى، وإذ هذه هي منازل الشهداء عند ربهم، ولمن يريد!!

سبح نبينا ﷺ مرة وكبر مرتين عند دفن سعد بن معاذ، ولأنه لم ينج من ضمة قبره، رغم أنه كان عبدا صالحا، برهان أخذ أحدنا على ذات نفسه، فيذلها لمولاها، وان عسى أن تكون- سببا- وعلى الأقل أن تكون سبب فوزه، ومن بعد ضمة قبره له، والله المستعان!!

---

(1) صحيح الجامع، الألباني: 6987

(2) صحيح النسائي، الألباني: 2054

(3) قال الألباني في " السلسلة الضعيفة والموضوعة " 11/ 740: ضعيف، وأخرجه ابن إسحاق في "السيرة" (3/ 271)

كان اطلاع نبينا ﷺ على حقيقة ضمة قبر سعد له، ودون صحابته، وفي حضورهم، برهان علم على نبوته ﷺ، وإثبات هذه الضمة، وأنها مصير كل ميت، سألناه تعالى نجاة وفوزا، لكل عبد أواه حليم منيب.

«سبحان الله لهذا الصالح الذي تحرك له عرش الرحمن، وفتحت له أبواب السماء، شدد عليه، ثم فرج الله عنه». هذا ما يحمل الناس على حسن ظنهم بربهم؛ طمعا في رحمته تعالى، وخوف عذابه! كما وأنه برهان أن شدة يتبعها فرح، حياة المسلم ومماته، وهذا استدعاء لآفاق التفاؤل والأمل، في فرجه تعالى، ومن بعد ضيق، وحتى وإن كانت ضمة القبر! كسعد بن معاذ!

إن سعد بن معاذ قدم تاريخا مجيدا، وانتهى به ذلكم التاريخ إلى موت، كان مهيبا، بكل مقياس ممكن، وحين فتحت أبواب السماء، وتحرك لذلك عرش الرحمن، وتفريج ضمة القبر عنه، أعان الله عليها كل مسلم، أواه حليم منيب!

إن للقبر ضمة، لو كان أحد منها ناجيا لكان سعد بن معاذ». ولفضل سعد وقد مات الله كثر فلم يقل فيهم ذلك! برهان سبق سعد على من سواه وهذا هو ميدان التنافس الحق والذي من شأنه توسيم العبد وسام الفلاح والفوز.

عن عائشة أم المؤمنين: للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ[1].

---

(1) مسند عمر، ابن جرير الطبري: 2/599. خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

وعن عبدالله بن عباس: لو نجا أحد من ضمة القبر، لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضم ضمة، ثم روخي عنه[1].

«عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد هبط يوم مات سعد بن معاذ سبعون ألف ملك إلى الأرض لم يهبطوا قبل ذلك، ولقد ضمه القبر ضمة. ثم بكى نافع! وهذا إسناد جيد، لكن قال البزار: رواه غيره عن عبيد الله عن نافع مرسلا.»[2] نعم ليبك نافع، وليبك غير نافع! إذ وماذا نحن قائلون، ويوم موت غير سعد، ولم يحضر موته سوى ملك قبض الأرواح وحده؟!

وهذا سعد بن معاذ يشيعه سبعون ألف ملك! ورغم ذلك جرت عليه رضي سنة الله تعالى في ضمة القبر، كتابا ربانيا على ميت، كان من لطفه بعبيده أن يفرج عنهم بعدها، وكان من حلمه بهم أن يسري عنهم إثرها.

عن ابن عمر قال: اهتز العرش لحب لقاء الله سعد بن معاذ. وهذا تفسيره رضي الله تعالى عنه سبب اهتزاز العرش الإلهي الكريم ولما لم نعلم أحدا له اهتز عرشه تعالى غير سعد من قبله أو من بعده ولقائل أن يقول ولمفسر أن يفسر ويكأن واحدا في الظهر كله قد اهتز عرش الرحمن لموته!!!

عن جابر بن عبدالله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم اهتز لها عرش الرحمن[3]. قال الإمام الذهبي: وقد تواتر قول النبي ﷺ: إن العرش اهتز لموت سعد فرحا به[4].

---

(1) صحيح الجامع، الألباني: 5306

(2) السيرة النبوية، ابن كثير: ج3/ ٢٤٦

(3) صحيح مسلم: 2466

(4) سير أعلام النبلاء، ت: شعيب الأرناؤوط: 292/1

قيل في سبب ضمة قبر سعد: إنه كان يقصر في بعض الطهور من البول!!!
وهذا كلام مطعون فيه بكل وجه من أوجه الطعن الممكنة، وغير الممكنة! ذلك وأن الطهارة كانت ألف باء الإسلام عند هؤلاء الكرام، لا سيما سعد بن معاذ، وخاصة وأن الحديث جاء بصيغة التضعيف، فليس يصلح للاحتجاج من هنا!

اختبئ نبينا ﷺ في قبر سعد ثم خرج ولما سئل أخبر أنه مازال يدعو الله تعالى له حتى سريت عنه ضمة قبره: وهذا برهان عملي لرأفة نبينا ﷺ ورحمته بأمته، وعلى وصف القرآن الحكيم له.

جمع عبدالله بن عمر والحسن البصري رضي الله تعالى عنهما أن موت سعد بن معاذ كان آية، وحين اهتز له عرش الرحمن، رضا بصنيعه، وفرحا بفعله، فعلا حسنا. فمحبة وفرح كان من ائتلافهما اهتزاز عرشه تعالى؛ ولموت سعد بن معاذ!

المبحث الرابع عشر: قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق

عن البراء بن عازب: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رهطا من الأنصار إلى أبي رافع ليقتلوه، فانطلق رجل منهم، فدخل حصنهم، قال: فدخلت في مربط دواب لهم، قال: وأغلقوا باب الحصن، ثم إنهم فقدوا حمارا لهم، فخرجوا يطلبونه، فخرجت فيمن خرج أريهم أنني أطلبه معهم، فوجدوا الحمار، فدخلوا ودخلت وأغلقوا باب الحصن ليلا، فوضعوا المفاتيح في كوة حيث أراها، فلما ناموا أخذت المفاتيح، ففتحت باب الحصن، ثم دخلت عليه فقلت: يا أبا رافع، فأجابني، فتعمدت الصوت فضربته، فصاح، فخرجت، ثم جئت، ثم

رجعت كأني مغيث، فقلت: يا أبا رافع وغيرت صوتي، فقال: ما لك لأمك الويل، قلت: ما شأنك؟ قال: لا أدري من دخل علي، فضربني، قال: فوضعت سيفي في بطنه، ثم تحاملت عليه حتى قرع العظم، ثم خرجت وأنا دهش، فأتيت سلما لهم لأنزل منه، فوقعت فوثئت رجلي، فخرجت إلى أصحابي، فقلت: ما أنا ببارح حتى أسمع الناعية، فما برحت حتى سمعت نعايا أبي رافع تاجر أهل الحجاز، قال: فقمت وما بي قلبة حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبرناه[1].

وعن البراء بن عازب أيضا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي رافع اليهودي رجالا من الأنصار، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق، ومتلطف للبواب؛ لعلي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل؛ فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على وتد، قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت علي من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: يا أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت، فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش، فما أغنيت شيئا، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم

---

(1) صحيح البخاري: 3022

دخلت إليه، فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل! إن رجلا في البيت ضربني قبل بالسيف، قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ظبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم: أقتلته؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور، فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي، فقلت: النجاء؛ فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته، فقال: ابسط رجلك، فبسطت رجلي فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط[1].

استأذن الخزرج رسول الله ﷺ في قتل سلام بن أبي الحقيق وهو بخيبر، فأذن لهم: وهذا نظام ديننا؛ ولأن النظام العام والآداب اهتمامه الأولى، وعموده الأوفى، فكان عدم الافتئات على الراعي دينا ونظاما، وبحيث ينتظم الكافة في دربه، فلا يهرقون دما إلا بإذنه.

ورغم أن أبا رافع سلام بن أبي الحقيق كان يهوديا، إلا أن مسألة قتل النفوس؛ ولما يترتب عليها من تبعات، قد يكون لها أثرها العميق، فكان إذن الوالي الأعظم بها دينا، ولأنه يملك أجهزة تمكنه من فقه الموازنات، بين المصالح وتكميلها، وبين المفاسد وتقليلها. ولأن هذه القاعدة هي من صنوان الدين، ومن أساس نظامه العام.

---

(1) صحيح البخاري: 4039

وإذ إن للرعية الصادقة الأمينة حق المشورة، وللوالي الأعظم اعتبارها، لاسيما وحين كانوا أمناء في مشورتهم، وخاصة إذا كانوا صادقين في مسعاهم، وهذا أمر يعرف بوقائع الحال، ومعطيات الواقع.

وإذ كان من توفيقه تعالى أن قيض الأوس والخزرج، أشرعة أمن وأذرعة حماية بيضة هذا الدين، وكلما قامت إحداهما بمنقبة، فتسارع أختها لمثلها أو أعظم منها، وهذا توفيق رباني، وهذا نصر سماوي لهذا الدين الوليد الجديد!

وإنما استأذن الخزرج رسول الله ﷺ في قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق ؛ ولشدة عداوته للدعوة الجديدة، وهذا برهان استئصال أئمة الكفر، وإن لم يكن في حرب نظامية، ولأن اقتلاع هؤلاء سبيل تثبيت الملة، وإزاحة الأذرع الإعلامية السلبية، التي لا تفتأ تنفث سمومها في أوصال الناس، فيسحرون البسطاء بسحر بيانهم، ويضلون الناس بطرف اللسان حلاوة!!

واستئذان الخزرج رسول الله ﷺ في قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق، كان عملا أشبه بقيام الأوس بقتل كعب بن الأشرف اليهودي، ولأنه كان لا يفتأ ساهرا، على قض مضاجع دين الرب الأعلى، ونظام السماء الأزهى، ونظام الإسلام الأنور؛ عظة وصلاحا للناس، وإنما هكذا من غضبه تعالى على قوم، ألا يقولوا بحق، وألا يصولوا برشد، فكان قلعهم وشرهم دينا وقربة، ومنه هذا أبو رافع سلام بن أبي الحقيق!

واستئذان الخزرج رسول الله ﷺ في قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق، برهان أن للرعية الاستئذان، وهذا دورهم، ويقف إلى ههنا، تركا لأجهزة الاستخبارات أن تقوم بعملها؛ للتحقق من صدق الدعوى، وعريضة الاتهام، ومن

ثم ترفع رؤيتها إلي السلطان الأعظم ليأذن؛ ولأن هذا الدين كان النظام فيه هو الضامن لبقائه، قائدا للبشرية في حديثها، كما كان كذلك في قديم أمرها.

وإذ أذن رسول الله ﷺ في قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق وهو بخيبر، فأخرج خمسة وأمر ﷺ عليهم عبدالله بن عتيق، برهان عقد السرايا، وبإذن إمامهم، وتعيين أميرهم، وبإشرافه المباشر، أو من ينوبه، إحكاما للقبضة، وإنفاذا للضربة، فلا يعودون بخفي حنين، وحين كان عملهم عشوائيا!

وحين أمر نبينا ﷺ عليهم عبدالله بن عتيق، برهان لزوم الإمارة، ووجوب الطاعة، ولأن ديننا قائم على هكذا بنيان مرصوص، كان من موجبه محبته تعالى، وكما قال سبحانه ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ [الصف:(4)].

وإذ كان خروجهم ليلا، ولم يدعوا بيتا أو بابا في داره إلا أغلقوه! ولأن عمل الليل أسكن، ولأن شأنه أهدأ وأدعى، ولا تغرنك القنابل المضيئة! فيبقى الليل ليلا بسكونه، ويظل النهار نهارا بحركته!

وحين خرجوا ليلا؛ للتخفي وأغلقوا الأبواب على أهلها؛ كبتا لحراك، يكشف سريرتهم، أو صراخ يؤلب اليقظين، ويوقظ النائمين، فيكون لذلكم أثره السلبي، والمنافي لأدق عوامل الظفر، وهو الكتمان!

إنه قامت سرية جهزها نبينا ﷺ لقتل سلام بن أبي الحقيق بأروع عمل يمكن أن يقوم به جهاز الاستخبارات، وحين أمعنوا في سرية لا تخللها علانية، وحين راحوا ليلا، وأغلقوا الأبواب بابا من بعده باب، حتى أثخنوه سيفا، منفلتين على إثرها، ولظفرهم مكللين، ولأنهم قتلوا عدوا صنديدا، وإعلاميا عربيدا!!

حين دخلت سرية قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق على بيته ليلا وجابهتهم امرأته! وكان يمكن قتلها ضمان السرية مهمتهم، ولما سيبدو منها من صراخ وعويل وبكاء ونحيب ونوح، قد يكون له أثره السلبي في أداء مهامهم الموكلة إليهم، إلا أنهم التزموا هدي دينهم ألا يقتلوا امرأة أو طفلا أو شيخا عجوزا، ولما لم يشارك في قتالهم، وطالما لم ينزل في ميدان لحربهم، ولكن تحييدهم بوسائل أخر كان أولى! ولذا كتب الله تعالى لهم النصر المبين!

اتسمت عملية قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق بسرية تامة وحركة خاطفة، وهما العاملان الحاسمان في الفوز المبين، وحتى عادوا سالمين آمنين، وبنصرهم مكللين، حتى وإن أوقد يهود نارا، أو قنابل مضيئة لاستكشافهم، ولكنه أنى لهم ذلك وبعد فوات أوانهم؟!

إنه حين رجعت سرية قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق ظافرة منصورة مؤيدة، وادعى خمسة المجاهدين قتله؛ ولمشاركتهم جميعا، وأن: نعم! إلا أن التحقيق النيابي أفرز أن سيف عبدالله بن أنيس هو الذي قتله! برهان أثر الطعام، ولما غرزه في بطنه، وهذا بيان مهارة المحقق النيابية، وحين يحسن بحثه عن أداة تمكنه من إصابة هدفه من مضابط تحرياته ودقة تحقيقه!!!

فقد قتل الله أبا راع! وهذا قول عبد الله بن عتيك، وهذا مطلق العبودية لله تعالى، وإذ كان من عقدهم أن الله تعالى هو الفاعل للشيء على الحقيقة، وما نحن إلا أسباب، وكان المسبب حقيقة هو الله تعالى.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابسط رجلك، فبسطت رجلي فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط،: وهذه بركة نبينا صلى الله عليه وسلم، وهذه

أيضا منحه تعالى للمجاهدين الأولياء، وحين أجبر الله تعالى كسرهم وبمسحة نبيه صلى الله عليه وسلم.

فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم: أقتلته؟ وهذا إصرار عبد الله وصبره معا، وهذان هما العاملان الحسمان في إبراز النصر بإذنه تعالى، لكنهما كانا في جانب عبد الله أقوى، وحين كسرت ساقه، وهو إذ تراه ثابتا لا يفارق أرض الميدان إلا وحين يتأكد من إنجاز مهمته، وعلى أتم وجه، وحتى ولو كسرت ساقه!!

ونعيد التأكيد أن سبب قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق أنه كان شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا موجب إسكاته وأمثاله إلى يوم الدين، وذلكم لإفساح المجال للدعوة الجديدة أن تنطلق في بيانها للناس، ودون تأليب تنفير.

المبحث الخامس عشر: مقتل خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي

عن عبدالله بن أنيس أن: دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (إنه قد بلغني أن ابن سفيان بن نبيح الهذلي جمع لي الناس ليغزوني وهو بنخلة أو بعرنة فأته) قال: قلت: يا رسول الله انعته لي حتى أعرفه قال: (آية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له إقشعريرة) قال: فخرجت متوشحا بسيفي حتى دفعت إليه وهو في ظعن يرتاد لهن منزلا حين كان وقت العصر فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإقشعريرة فأخذت نحوه وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة فصليت وأنا أمشي نحوه وأومئ برأسي فلما انتهيت إليه قال: ممن الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك

وبجمعك لهذا الرجل فجاء لذلك قال: فقال: أنا في ذلك فمشيت معه شيئا حتى إذا أمكنني حملت عليه بالسيف حتى قتلته ثم خرجت وتركت ظعائنه منكبات عليه فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ورآني قال: (قد أفلح الوجه) قلت: قتلته يا رسول الله قال: (صدقت) قال: ثم قام معي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدخلني بيته وأعطاني عصا فقال: (أمسك هذه العصا عندك يا عبد الله بن أنيس) قال: فخرجت بها على الناس فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرني أن أمسكها قالوا: أفلا ترجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسأله لم ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: (آية بيني وبينك يوم القيامة إن أقل الناس المتخصرون يومئذ) فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها فضمت معه في كفنه ثم دفنا جميعا[1].

«إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعرنة فائته فاقتله» وهكذا كان ضررا مؤكدا، والضرر يزال، ولاسيما إذا كان من عدو، فإنه لا يرقب في مؤمن رحمة، ولا يتأخر منه رأفة، وحين الإمكان به. وحين الغزو يتأكد أكثر، ولأن عاقبته دمار، وهلاك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد.

---

(1) صحيح ابن حبان ابن حبان: 7160

وهـذا إعـلان حـرب، فيجابـه بقـرار إعـلان حـرب مثلـه، دفعـا للصـوائل، وحماية بيضة الدين، وليعلم الخصوم أننا أمة ذات شوكة، لسنا ننتظر ريثما يغير علينا عدونا، بل نبغته في عقر داره، ولما تأكد لدينا تجهيزه لمواجهتنا!

وهذا برهان عمل العيون دائبة، ودليل جاهزية جهاز الاستخبار، ولا يكاد يفتر، ولتنساب الحقائق أمام الوالي الأعظم، فيتخذ قرارا صائبا لازما حينها.

وهكذا يدفع كيد الخصوم، وحين كان مؤكدا أو محتملا، غلبة الاحتمال، وبناء على دلائل استحصلتها العيون الساهرة، على مجد دينها، وحماية بلدانها.

حين أمر نبينا صلى الله عليه وسلم، بقتل خالد بن سفيان الهذلي، طلب المكلف به-عبد الله بن أنيس- وصفه دقيقا! فأخبره أنه له قشعريرة، وهكذا كان تحديد الهدف دقيقا؛ لإصابته دقيقا أيضا!

أدركت عبدالله بن أنيس صلاة العصر، بينما كان في طريقه لقتل خالد بن سليمان، فأخذ يومئ بها، وإذ كان ذلك في سيره؛ خشية مجاولة بينه وخالد، فتشغله عن الصلاة! وهذا برهان قيمة صلاتهم في وجدانهم!

وفيه جواز الصلاة إيماء؛ ولقوله تعالى **﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾**[النساء:103].

إن إيماء عبدالله بن أنيس بالصلاة طريقه لأداء مهمة قتالية، ولربما ليس يعود؟، وهذا برهان قوة إيمانهم، وحين كانت صلاتهم هكذا على أوقاتها.

فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني قال: «أفلح الوجه: وهذه فراسة نبينا ﷺ وحين أغدق عليه رضاه، وحين اكتنفه بحسن عمله، وأشمله ببادرة فأل، عملا حسنا! وليتهلل عبدالله بن أنيس، وبعد إنجازه عملا بطوليا مجيدا.

قال: قلت: قتلته يا رسول الله. قال: صدقت! وهذه أعلام نبوة ضافية! وإذ أخبر نبينا ﷺ دون واسطة، فدل على أن عينا كانت تتابعه، أو أن السماء هي التي أخبرته، أو كلاهما!!!

حين قتل عبدالله بن أنيس خالد الهذلي، منحه نبينا ﷺ عصا! ولما سأله عن سره وسببه! قال نبينا ﷺ: «آية بيني وبينك يوم القيامة إن أقل الناس المتخصرون يومئذ! وهكذا دفنت عصاه معه رضي الله تعالى عنه! ولتجادل الله عنه يوم القيامة!!

المبحث السادس عشر: تزويج النبي ﷺ من أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله تعالى عنها

إنه قد ثار خلاف حول سنة تزويج نبينا ﷺ من أم حبيبة، وكما ثار الخلاف أن ذلك كان قبل أو بعد إسلام والدها أبي سفيان، وهذا كله لا يثنينا عن أمور:

1- صبرها وثباتها واحتسابها وفضلها.

2- قيمة هذا النبي ﷺ، وكيف أراد أن يكافيء صابرة كأم حبيبة، ومجاهدة كأم سلمة، وحين تزوجهما؛ مكافأة على حسن الصنيع وعلى الصبر الحسن الجميل البديع!

3- إعلان ولائها لزوجها النبي ﷺ، في وجه والدها أبي سفيان، مما حرك فيه ناحية إسلامه، ذاك الدين الذي بلغ من حد ولائه وبرائه فعل ابنته معه! ومعروف كم هي البنت تظل معلقة بأبيها، ما حيي أو راح إلى ربه في نزل خير عند مليك مقتدر! وهذا الذي حدث ويوم أعلن إسلامه، وطلب من نبينا ﷺ أن يجاهد الكافرين في الله مولاه، وكما قد سبق وقاتل المؤمنين لشيطانه وهواه!

روى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن مسلم الزهري قال: (لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد غزو مكة فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي صلى الله عليه وسلم طوته دونه فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه، فقالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت امرؤ نجس مشرك فقال: يا بنية أصابك بعدي شر)[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: وهي التي أكرمت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلس عليه أبوها لما قدم المدينة وقالت: "إنك مشرك"، ومنعته من الجلوس عليه[2].

(1) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن قيم الجوزية: 134
(2) المرجع السابق: 134

وعن عبدالله بن عباس: كانَ المُسْلِمُونَ لا يَنْظُرُونَ إلى أَبِي سُفْيَانَ وَلَا يُقَاعِدُونَهُ، فَقالَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: يا نَبِيَّ اللهِ ثَلَاثٌ أَعْطِنِيهِنَّ، قالَ: نَعَمْ قالَ: عِندِي أَحْسَنُ العَرَبِ وَأَجْمَلُهُ، أُمُّ حَبِيبَةَ بنْتُ أَبِي سُفْيَانَ، أُزَوِّجُكَهَا، قالَ: نَعَمْ قالَ: وَمُعَاوِيَةُ، تَجْعَلُهُ كَاتِبًا بيْنَ يَدَيْكَ، قالَ: نَعَمْ قالَ: وَتُؤَمِّرُنِي حتَّى أُقَاتِلَ الكُفَّارَ، كما كُنْتُ أُقَاتِلُ المُسْلِمِينَ، قالَ: نَعَمْ. قالَ أَبُو زُمَيْلٍ: وَلَوْلَا أنَّهُ طَلَبَ ذلكَ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ ما أَعْطَاهُ ذلكَ، لأنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُسْأَلُ شيئًا إلَّا قالَ: نَعَمْ[1] .

ومن مناقبها ما رواه ابن سعد والحاكم عن عوف بن الحارث قال: (سمعت عائشة تقول: دعتني أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند موتها فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك فقلت: غفر الله لك ذلك كله وتجاوز وحللك من ذلك فقالت: سررتيني سرك الله، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك، وتوفيت سنة أربع وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما)[2].

وإذ زوج النجاشي- ملك الحبشة العادل- نبينا ﷺ بأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله تعالى عنها، وبعد وفاة زوجها-عبيد الله بن جحش- في أرضه، وبأربعة آلاف درهم مهرا- على قول- وجهزها وأرسلها إليه ﷺ[3]. وفيه كرم النجاشي وبذله، وتوقيره لنبينا ﷺ، وفيه جواز الوكالة في الزواج، وفيه وجوب المهر خالصا للزوجة، وفيه عدم تزويج المرأة إلا بعد استبراء رحمها من زوجها

---

(1) صحيح مسلم: 2501

(2) رواه ابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (100/8)، والحاكم (24/4).

(3) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/ ١٦٤

المتوفى، وإن كان كافرا، وبمرور عدتها أربعة أشهر وعشرا، وفيه جهاد أم حبيبة، وكيف هاجرت من بحبوحة عيشها عند جوارها لأبيها أبي سفيان في مكة، وإلى حيث عناء سفر وجهد جهيد كان من تسليتها به أنه لله! وهذا بيان جهادهم في ربهم حق جهاده، وحين انتفضوا عن جاذبية الطين والتراب وعيبة الجاهلية، إلى آفاق مجدهم وعز دينهم!

قال تعال﴿إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاءۖأنت ولينا فاغفر لنا وارحمناۖوأنت خير الغافرين﴾ [الأعراف:155]. وهذا الذي حدث، وحين ثبتت أم حبيبة على إسلامها، ويوم هاجرت مع زوجها، عبيد الله بن جحش، وحين ارتد هو على عقبيه ليتنصر! وهذا برهان حمده تعالى على الثبات، وموجب دعائه تعالى على الصبر فيه، ولأن هذا عبيد الله بن جحش، وحين هاجر مسلما فارتد كافرا، وفي دار هجرته!!! وكما أن فيه فضيلة المرأة، وحين تثبت رسوخ الجبال الشم الرواسي، وأمام عواصف الابتلاء، ومجابهة قواصف الفتنة!! ولأن هذا زوجها قد تنصر، ولم يحرك ذلك فيها شعرة فتنة واحدة! إلا شعرا كثيفا دلنا عليه ثباتها وصبرها! حتى كوفئت الكفاء الحسن الجميل، وكانت زوجة لسيد ولد آدم ﷺ!!

وإذ خطب النجاشي وقال: الحمد لله الملك القدوس المؤمن العزيز الجبار، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم، أما بعد:

فإن رسول الله ﷺ طلب أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وقد أصدقها أربعمائة دينار، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم.

فتكلم خالد بن سعيد فقال: الحمد لله أحمده وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد:

فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله ﷺ، ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا فإن من سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا[1].

وفيه أن المهر كان أربعمائة درهم، وليس أربعة آلاف-على ما قيل-، وأنه يدفع حالا، وفي مجلس العقد، مالم يرد في العقد ما يبين عن كونه دينا كله أو بعضه، وفيه أن النجاشي كان وكيله ﷺ، وأن ولي أم حبيبة هو خالد بن سعيد ابن عمها.

وفيه تحقق الإيجاب والقبول ركنا عقد الزواج، وإذ تحقق الإيجاب من قول النجاشي: فإن رسول الله ﷺ طلب أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ. وإذ كان القبول متمثلا في قول خالد بن سعيد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان.

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/ ١٦٤

وفيه قيمة الدعاء ولدعاء خالد بن سعيد بقوله: فبارك الله لرسول الله ﷺ.

وفيه أن وليمة الزواج كانت عهدا معروفا، وخاصة زواج الأنبياء، وعلى حد قول النجاشي: اجلسوا فإن من سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج، وفيه إعلان إسلام النجاشي وتواضعه.

﴿ والعاقبة للتقوىٰ ﴾[طه:132]: وهذا يحققه عمليا، وكيف كان صبر أم حبيبة على دينها وثباتها عليه، ولا سيما حين تنصر زوجها عبيد الله بن جحش، وها هي في الحبشة دار الهجرة لا والد ولا ولد! ولا زوج ولا سند إلا أن معها رب هذا البلد ووالد وما ولد- سبحانه-! وإذ بها تغمرها عناية السماء، وحين لاح فجر بشراها بزواجها من سيد ولد آدم ﷺ.

المبحث السابع عشر: تمايز أولي الفضل والدين عن العصاة والمذنبين

قال الله تعالى: ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ۚ والله قدير ۚ والله غفور رحيم ﴾ [الممتحنة: 7]. ورغم أنهم كفروا، وهذا موجب العداوة، إلا أنه تعالى أسندها إلى المؤمنين، برهان عقيدة الولاء والبراء فيه تعالى. دينا قيما ملة إبراهيم؛ ولأنه بهذه العقيدة ينبني عليها التمايز والفصل، وبها فلا تختلط القيم ولا الموازين ولا العقائد ولا التصورات، ولا تذوب الأديان، وإنما يكون التراحم ذا باب واسع، من هنا من عقيدة الولاء والبراء، وحين تكون سببا في مراجعة، وحين تكون موجبا لإعادة تفكير إيجابي، ومن أحوالها تحقيق قوله تعالى: ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من

رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا﴾ [الكهف:(16)]. إذ ولما كانت في مزايلة الباطل وأهله معه، ذلكم الفضل العميم، والذي أشار إليه الذكر الحكيم، وحين كان منه ما لا يقدر أحدنا أن يضيف إليه تفسيرا أو معنى ضافيا، ولأنه حوى كل معنى ضاف جميل، وحين كان من ثمرات المزايلة قوله تعالى: **﴿ ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا﴾**. منقبة وذكرا حسنا.

وحين كان التمايز دينا، والمفاصلة عقيدة، فيأتي الله تعالى بفرج، يكون وليد هذا التمايز، وحين كان من تزويجه تعالى نبينا ﷺ أم حبيبة رملة بنت عمه أبي سفيان، ذلك العميد في قومه، وذلك السلطان في أهله، وليغزو الإسلام بيته، ولعله أن يحن، وعساه أن يتراجع، رغبة من ديننا في إظلال العالمين، وكافة بظلاله الوارفة الهنية، بابا واسعة إلى آفاقه الرحبة، وأنه يسع العالمين برحمته وإلفه، وحين تتوج علائقهم بميزان التوحيد والعقيدة.

وهذا أيضا مما يعد تطبيقا لآية سورة الكهف آنفة الذكر، وحين كان من ثمرة المزايلة عموم رحمته تعالى بدار أبي سفيان؛ لتتزوج ابنته من نبينا ﷺ، وكذا استشراف إسلام والدها نفسه، وقد كان! وهذا أيضا مما يعد برهان وجوب إعمال قاعدة المزايلة، باعتزال الباطل وأهله؛ وليجني المجتمع كله ثمار ذلك الغضة الطرية، وليس كما يشاع وكما قد أشاعت قريش من قبل: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا[1]. ولأنه كان ذلك أمنا وسراجا للعالمين، وحين روجعت الموازين، وحين استرجعت القيم، ولما استحضر الهدى ودين الحق! وأصبح للإسلام دولته التي بسط الله تعالى به

---

(1) سيرة ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار: ج ٢ /١٢٩

سلطانه على ظهر البسيطة، وما وجدنا إلا كل خير، وما لمست البشرية فيه إلا كل وئام وتجميع وتأليف وحنو وانسجام، وهذا هو الدين الذي كان ولا يزال من أصوله ذلكم التمايز الحق، والذي به يمكن لكل أحد أن يستكين إلى حق غير ذي رخاوة وإلى عقيدة كلها إلف وجميعها طلاوة! وذلكم بدل ان يتخالط الناس مطيعهم وعاصيهم وليضرب الله تعالى قلوب بعضهم بعضا نظير هذا الذي نهى الله تعالى وحين قال سبحانه ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتىٰ يخوضوا في حديث غيره ۚ وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرىٰ مع القوم الظالمين ﴾ [الأنعام: 68]. وفيها قال القرطبي رحمه الله تعالى: فأدب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية ؛ لأنه كان يقعد إلى قوم من المشركين يعظهم ويدعوهم فيستهزئون بالقرآن ؛ فأمره الله أن يعرض عنهم إعراض منكر. ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكرا وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه[1].

وكذا قوله تعالى﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل علىٰ لسان داوود وعيسى ابن مريم ۚ ذٰلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ۚ لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[المائدة: 78و79].

وعن عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال لعن

---

(1) تفسير القرطبي، القرطبي: ج ٧/ ١٢

الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم إلى قوله فاسقون ثم قال كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا[1].

وعن قيس بن أبي حازم: قال أبو بكر، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب[2].

"ولهذا لما تخلف كعب بن مالك وصاحباه عن غزوة تبوك بغير عذر هجرهم النبي عليه الصلاة والسلام خمسين ليلة حتى تابوا فتاب الله عليهم، نزلت توبتهم من عند الله عز وجل"[3].

و" حديث ابن مسعود في بني إسرائيل فيه بعض الضعف، لكن له طرق، أما حديث الصديق فهو صحيح، رواه أحمد وأبو داود والترمذي بإسناد صحيح، أما حديث ابن مسعود فالمؤلف تساهل فيه؛ لأنه من باب الترغيب والترهيب، وشواهده كثيرة، ونص القرآن يكفي: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل [المائدة:78]، فنص القرآن كاف في قصة بني إسرائيل –نسأل الله العافية"[4].

---

(1) ضعيف أبي داود، الألباني: 4336

(2) صحيح أبي داود، الألباني: 4338

(3) شرح رياض الصالحين، ابن باز: مادة مسجلة.

(4) المرجع السابق.

المبحث الثامن عشر ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ۚ والله قدير ۚ والله غفور رحيم ﴾.

وهذا هو الإسلام، لا يترك بابا لمعالجة الناس وثنيهم عن كفرهم إلا ولجه، ولكنه هذه المرة أتى من باب آصرة المصاهرة، والتي هي من أمتن الأواصر بين الأمم، ولعل قربا في المصاهرة يتمخض عن قرب في المعاملة، ليفتح الله به قلوبا غلفا وأعينا عميا وآذانا صما، وهذه محاولات الإسلام الإيجابية، وحين يغلق الناس في وجهه بابا، ليأتي إليهم من باب آخر؛ رغبة في خير، وإشمالا لهدى، ونشرا لظلال رحمته، ولأنه دين يعز عليه ألا يستظل ولو فردا واحدا بظله!

وكل جعل فإنما هو حقيقة منه تعالى، ولئن بدت أسباب، ولئن زهت عوالق، وإن علت روافد، وإن كل ذلك لما كان من فضله وجوده وكرمه، دينا قيما أيضا، وليخلع المرء عن نفسه فضلا، ولأن الفضل بيد الله الواسع العلي العظيم، وهذا تعليم آخر لأدق دقائق علم العقيدة فيه تعالى، أن يرد إليه الخير كله، ولأنه المانح المانع سبحانه على الحقيقة.

وهذا تعليم بعسى! وهي في حقه تعالى موجبة، وبمعنى أنه تعالى إذا قال كان قوله منزلا على واقع محسوس؛ لترى الأفق، وقد لاح فجره، لميلاد يوم جديد، يستظل فيه بيت أبي سفيان بنور الهدى ودين الحق، وحين تربع عرش المصاهرة عند باب بيته، مادا يدا حانية لإسلامه، وبيانا للعالمين، أن هكذا دين الحق، ليس يترك بابا، ولو كسم الخياط إلا ولجه؛ ليشمل القوم بنوره المبين، وهداه إلى صراط مستقيم.

ويحسب هذا العامل الإيجابي للإسلام، وحين وقف موقفا صلبا، لا هوادة فيه، وأمام عقيدته التي لا تلين، وفي نفس الوقت تتفتح به أشرعة المصاهرة والقربى، وبحيث يحاول ألا يترك بيتا إلا ويدخله نوره، ولو كان بيت ألد أعدائه يوما، وذلك أبو سفيا- عمه- مثلا حيا ماثلا، وحين كان قائد حروب النبي الأمي ﷺ في بدر الفرقان، ويوم أحد ليس بعيدا!!!

وإنما هذه آية تحمل معنى الإعجاز كله! وحين ذيلت بعموم قدرته، وحين انتهت ببسط قيوميته تعالى، ولأنه من ذا الذي كانت القلوب بين إصبعين من أصابعه ليحركها كيف يشاء، وبحيث أمكن تحويل دفة بيت العناد والحرب والكيد إلى عمل صالح! كان بيئة نكدة، فأضحى تربة خصبة؛ لبذر بذور الهدى وغراس الصلاح فيه؟!! وحين كانت أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان زوجا لألد أعداء أبيها!!

إن توارد ألفاظ الأسماء وما تحمله من عظيم الصفات لله تعالى وعلى نحو بلغ خمس مرات هكذا.

وعلى هذا النظام الملفت أيضا، وفي حيز قرآني محكم قصير، كهذا الذي بين أيدينا، ليعد برهانا على كم هي قيمة الألوهية لله تعالى الحق المبين، وما يصاحبها من قدرة، وإذ لولاها ما استطاع أحد أن يجمع ما تفرق من شأن العرب، وحين جمعهم الإسلام في بوتقة واحدة، هي بوتقة الهدى والتوحيد، ومن بعد حرب دامية دامت أربعين سنة- حرب البسوس-. وإذ كان سببها كلمة!

وأيضا ما يصاحب قيوميته وسلطانه من مغفرته ورحمته، وإذ كانت ضمادا لجروح المعاصي والآثام الغائرة! فجاءت هذه المغفرة وهذه الرحمة؛ لترفق بالناس، وأن لهم ربا يتجاوز عن السيئات، ويعفو عن كثير- سبحانه-!

ولأنها- أي الألوهية- تعني بسط سلطانه تعالى على كل سلطان آخر، ولأنها تعني أيضا خلع كل سلطان دون سلطانه تعالى، ولأنه كان من موجب ألوهيته أن يستظل الكل تحت سلطانه وقيوميته؛ إعزازا لكل أحد، وبحيث لا ثمة تمايز بين أخ وأخيه إلا بالتقوى والعمل الصالح، وهنا تذوب الفوارق، ويعيش الناس كافة تحت إمرة سلطان واحد، هو سلطان خالق الناس أجمعين، والذي كان الاعتراف بسلطانه من موجب خلقه أولا، ثم من موجب علم الصانع بصنعته، وإنما به توصل الأرحام، وتبسط علائق المودة والرحمة والوئام بين فصائل الناس أجمعين.

المبحث التاسع عشر: تزويج نبينا صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها

لا ينبغي الفصل بين زواج نبينا صلى الله عليه وسلم من أم حبيبة بنت عمه أبي سفيان، وبين زواجه من زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، وهكذا من باب أنها سياسة جديدة؛ لاحتواء قريش من جديد، وبأسلوب سياسي حكيم جديد أيضا، يلملم به أوراق المجتمع المبعثرة؛ جراء ظهور هذا الدين الجديد، والذي جاء ليحل النور محل الظلام، والهدى محل الضلال، والرشد محل الغي، وإن كل ذلك بلا تنازل شيئا عن الأمر بالتوحيد صافيا نبعه، وعن النذارة عن الشرك ونبذه أهله، وفي نفس الوقت فإنه لا مانع من لملمة هذه

الاوراق، وحين تكون مكسبا جديدا للدين الجديد، فتدخل قريش في دين الله أفواجا، والقول بغير ذلك ليس يتأتى؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم كان يمكنه أن يغرب بزواجه، وإن لابد فاعلا، ولكن الحكمة كانت ضالته صلى الله عليه وسلم، وحين أراد أن يجمع ما تفرق، ولكن على أساس عقيدته، ولا تفريط منها بشيء!

ولا ينبغي الفصل أيضا بين حكمته صلى الله عليه وسلم في الزواج من بنت عمه أبي سفيان أم حبيبة، وكذا من بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب زينب بنت جحش؛ لأن ذلك حشد من جهة الرجال، ومن جهة النساء، وليحدث توازنا في المجتمع المكي، وهذه سياسة نبوية فذة، ولما لكل من الرجال والنساء من تأثير في المحيط الاجتماعي، كانت الإفادة منه مطلبا دعويا، ودون تنازل شيئا، بل بتمسك بما أوحي إليه كله، إفرادا لربه بألوهيته، ودكا لأصنام الهوى والشرك والجبروت، التي عششت في أدمغة أولئك، ونبذ ما يخالف توحيدا، وإحلال الدين الجديد محله، كفرا بالطاغوت أيا ما كانت مسمياته، وإيمانا بالله تعالى وعلى وجهه!

وإذ كان صداقه صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش عشرة دنانير، وستين درهما، وخمارا، وملحفة، ودرعا، وخمسين مدا، وعشرة أمداد من تمرا! [1] وهذا جد مهم؛ لأن بركة النساء متحصلة، وحين كان مهرها غير ذي كلفة على زوجها؛ ولما روت عائشة، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: إن من يمن المرأة: تيسير خطبتها، وتيسير صداقها، وتيسير رحمها [2].

---

(1) البداية والنهاية، ابن كثير: ج ٤/١٦٦

(2) صحيح الجامع، الألباني: (2235).

ولكنه في ذات الوقت يستوي في نظر المجتمع المسلم أن تمهر امرأة بأربع مائة درهم أو عشرة دنانير! ومن حيث كانت هذه هي السعة، وكيما لا تثقل كواهل الناس، وبدل أن يفرحوا بزواجهم، وإذ بهم يحملون التراب على رؤوسهم نكدا وألما، وبعد الاستيقاظ على الحقائق المؤلمة، والتي كانت لها سكرة، لا تقل عن سكرة أخرى حقيقية!!!

وقع بين زيد بن حارثة مولى نبينا ﷺ وبين زوجه زينب بنت جحش مثلما يقع بين زوجين، فجاء يشكو إلى رسول الله ﷺ، فكان يقول له: «اتق الله وأمسك عليك زوجك». وهذه مدحة لنبينا ﷺ، ولئن أريد يوما أنها ستكون زوجته ﷺ، ولكن هذا شيء في علم ربه تعالى، وما كان له ﷺ أن يفتئت عليه، وهو آمين من في السماء في أرضه سبحانه، و﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[الأنعام:123]. وبالتالي توضع الأمور في نصابها، واستصحابا لهذا كله؛ وكيما لا يصطاد في ماء عكر، وإنه لم يخرج حرف واحد منه ﷺ، يكون علامة ولو خفية على أن يشتم منه تخبيب! بل عكس ذلك تماما، حين جاء زيد شاكيا زوجته زينب بنت جحش، فكان يقول نبينا ﷺ له بقول السماء موافقة ونبلا ودينا: ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾[الأحزاب:37]. وهذا لا يتعارض ألبتة مع قوله تعالى: ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾[الأحزاب:37]. ولأن ذلك مطلق الأمانة، ومطلق الرشد، وحين جاء نيبنا ﷺ برسالة تحنو وتجمع على أساس من التقوى والعمل الصالح.

فعن أنس بن مالك: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اتق الله، وأمسك عليك زوجك، قال أنس: لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي

صلى الله عليه وسلم تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات، وعن ثابت: **{وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس}** [الأحزاب: 37]، نزلت في شأن زينب وزيد بن حارثة[1].

لا ينبغي السير حثيثا خلف قائلين بجرأة، وزاعمين بتقول، معرى عن حقيقة في مسألة زواجه ﷺ من زينب بنت جحش؛ ولأن السير في هذا الاتجاه مفض وبطبيعته إلى الطعن في كل من خبر السماء ونبي من في السماء أيضا! وهذه جرأة موجب مقت، وسبيل عوار عقدي، وباب خوار ديني، وإذ ليس من كرم السماء أو نبي من في السماء أن يقيم الدنيا ولا يقعدها أجل امرأة!!! ليس من باب وكونها كذلك امرأة! فإنهن شقائق الرجال، وإنما لأن الهمم العالية من ذلك أعلى وأرفع وأسمى! ونبينا ﷺ وقد أصبح نبيا، لتتمناه زوجا كل امرأة، وعلى ظهر البسيطة كلها، عربها وعجمها، وهذا أمر مشاهد في ملوك ورؤساء الزمان، وكل زمان، فما بالنا بنبي؟!!! ولا سيما نبينا محمد ﷺ؟!

كان رسول الله قد علم أنها- زينب بنت جحش- ستكون من أزواجه ﷺ، وهذا هو الذي كان في نفسه عليه السلام. وهذا كلام بمثابة الوحي تماما! لأنه لا مجال فيه للرأي؛ ولأن علمه ﷺ إنما كان يتلقاه من السماء، وهذا ما يتسق تماما أيضا مع خبر زينب نفسه فيما بعد، ولأنها زوجها الله تعالى من فوق سبع سماوات لنبينا ﷺ، وكان هذا مجال فخرها على ضرائرها؛ سنة النسوان، وفطرة الزيجات! واللاتي لا يؤاخذن عليها، ومن حيث كانت في كل من نطاقها وسياقها المعتادين!

---

(1) صحيح البخاري: 7420

﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾[الأحزاب: 37]: نقف هنا أمام النص، ولا نتزحزح شيئا! ولأنه تعالى حين أبدي فليس لأحد إسرار، وليس لأحد تقول، وليس لأحد إدلاء، وهذا بطبيعة الحال إدلاء، ولكنه من نوع آخر، ومن حيث إنه تعالى ليس يقضي في كونه إلا ما يكون سببا لانتظامه، وعدم إحداث خلة فيه، ومن أي نوع يمكن تصوره، قل أو كثر، خفي أو جل! ولأن الأصل أنه تعالى خلق الكون أول ما خلقه على نظام بديع مؤتلف، كان عيبا أن تلاك ألسنة في مثل خبر زينب بنت جحش! وهذا هو الكون يصد بنظامه البديع!!

﴿فلما قضىٰ زيد منها وطرا زوجناكها﴾[الأحزاب: 37]: هذا شأن طبيعي تماما، والنظر إليه مما يطرأ على حالات آخر مماثلة أو مشابهة هو مقتضى العقل الرشيد والفهم السديد! ولكن صيدا في الماء العكر لا شأن للإسلام به، ولأنه قضاء وقت في محاجة منتهية ولايتها سلفا! وحين أطبق ذووها على سبق إصرار؛ لا محل له من الإعراب!!!

﴿فلما قضىٰ زيد منها وطرا زوجناكها﴾: واحد + واحد=٢! وبه قضي الأمر! رجل تزوج امرأة، وحصل بينهما طلاق، ومن بعد سنة، وهذا أمر يطرأ حدوثه في أية أسرة. فلماذا تقام الدنيا ولا تقعد، وهذا هو الواحد الصيح الأول! وحين نضع الواحد الصحيح الآخر؛ لنحصل على حاصل الجمع؛ اتساقا مع عملية رياضية بحتة؟! والواحد الصحيح الآخر، هو زواج نبينا ﷺ من زينب بنت جحش، وسواء بسواء مع طلاق زوجها الأول لها- زيد بن حارثة-!

والحال أن السماء هي التي زوجته، وهي التي تولت تزويجه ﷺ من زينب بنت جحش! ولكي يقطع دابر تقول يمكن زعمه!

زوجكن أهليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات: هذا قول زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها، وبه قضي الأمر، وأن حكمة يعلمها ربنا من وراء تقديره تعالى، كان من صحيح الإيمان الوقوف عندها بخشوع؛ ولأنه تعالى يحكم ما يريد، ولأننا حين نعلم الحكمة، فثم هي، وحين لا نعلمها نقف مخبتين قائلين: ﴿سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ [البقرة:285]. وما للناس؟! وحين علمنا أنه ﷺ كان يحمل هم لملمة أوراق قريش المبعثرة؛ وجراء قدوم دين جديد؛ أقض مضاجع الشرك والمشركين، وكان من شأنه بعض ذلك، دخولا أوليا بين الأسر؛ ليروا دينهم الجديد وكما أنزل!

فعن أنس بن مالك: نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش { فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها } قال: فكانت تفتخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم تقول: زوجكن أهلوكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات[1].

عن الشعبي قال: كانت زينب تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدل بهم: إن جدي وجدك واحد - تعني عبد المطلب - فإنه أبو أبي النبي ﷺ وأبو أمها أميمة بنت عبد المطلب، وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام[2].

وعن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال النبي ﷺ لزيد: «اذهب فاذكرها علي». وهذا خبر وحي! ونتلمس فيه هكذا وشائج المجتمع المسلم الضافية الصافية المؤشجة بوشائج التقوى والولاء، وأن حدثا كتزويجه ﷺ من زينب، ليعد حدثا

---

(1) سنن الترمذي: 3213. خلاصة حكم المحدث: حسن صحيح. التخريج: أخرجه البخاري (7420).

(2) رواه الطبري في تفسيره (276/20)، والثعلبي في ((الكشف والبيان)) (49/8). قال ابن حجر في((فتح الباري)) (412/13): أخرجه الطبري وأبو القاسم الطحاوي في كتاب "الحجة والتبيان" من مرسل الشعبي.

طبيعيا تجريه الأمور على سجيتها؛ ولأنها كذلك، والأمة المسلمة وحالها كذلكم، يحنوها رضاها، ويكسوها مجد إلفها وتراحمها وعزها، وحين كانت علائقها ممتدة امتداد الزمان في آفاقه السحيقة من إلفه وتعاونه وبره وأخوته وتجمعه، ولا تكاد ترى موليا دبره عنه إلا من كان في قلبه هنة طولب بعلاجها وتطبيبها واستشفائه، وإطفاء قيظ غيظه منه!

قال أنس: ولقد رأيتنا حين دخل عليها رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل يتبع حجر نسائه، يسلم عليهم ويقلن: يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟! هذا تصوير ليلة عرسه ﷺ بزينب بنت جحش! بساطة لا تسل عنها، وحين كانت وليمتها خبزا ولحما! وانظر ماذا طرأ! وهكذا مرورهم ﷺ ليلة عرسه على حجر نسائه؛ ليبعث الأمن في نفوسهن! وأنكن كلكن مليء العينين لا عين واحدة! وهذه أخلاق نبي عز وصفها! وليبادلنه ﷺ شعورا رضيا بصنيعه، لا حنقا سمعت أنينه، ولا زفيرا رأيت كانت على وجهها المعتاد؛ وبمعنى ألا يترتب عليها إثم من إحداهن في حق أي من أطراف العلاقة كلها!!!بخره!!! ولا كما يشاع عن غيرة، وإن وجدت حميدة في بيوت النبي ﷺ، وحين كانت على وجهها المعتاد؛ وبمعنى ألا يترتب عليها إثم من إحداهن في حق أي من أطراف العلاقة كلها!!!

فعن أنس بن مالك: **لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد: فاذكرها علي، قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها، فوليتها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب: أرسل**

رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل عليها بغير إذن، قال، فقال: ولقد رأيتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته، فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن، ويقلن: يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ قال: فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا، أو أخبرني، قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، قال: ووعظ القوم بما وعظوا به. زاد ابن رافع في حديثه: {لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه} إلى قوله **{والله لا يستحيي من الحق}**[الأحزاب:53][1].

عن السدي بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجها إياه ثم أعلم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بعد أنها من أزواجه فكان يستحي أن يأمر بطلاقها وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه وكان قد تبنى زيدا[2].

---

(1) صحيح مسلم: 1428

(2) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني:384/8، حكم المحدث: هذا أصح إسنادا

المبحث العشرون: نزول الحجاب ليلة عرس زينب بنت جحش!

ولم أر امرأة قط خيرا في الدين من زينب!

كان نزول الحجاب ليلة عرس زينب بنت جحش رضي الله عنها على نبينا ﷺ، برهان أن هذا الدين يعطي مساحة واسعة لعفاف أمته، وكيما تتنشأ أجيالها على طهارة من رجس، وتحصين من ميل الشهوات، والتي تجعل من الإنسان لا عبدا لمولاه، بل عبدا لشيطانه وشهواته وهواه، وهو ما يخرجه حتما من مصاف الأعلين الأطهار، إلى درك الأسفلين الأشرار، فليس يكاد إلا وكدمية، تروح به شهواته شرقا حينا، أو غربا حينا آخر!

وإذ كان اهتمام ديننا بحجاب المرأة المسلمة، وليكسوها فوق وقارها وقارا، وليمنحها مع هيبتها هيبة، وليزينها مع زينتها زينة، فتبدو عالية، علو قمر ليلة بدره، وتتألق سامقة، وكسماء تطاول عن إمساك، وتتأبى على إمساس ولو بطرفها!

وإذ كان نزول الحجاب ليلة عرس زينب بنت جحش، وعلى استشراف عمري كريم؛ برهان أن أمتنا غنية برجال، يوافقون شرع سمائهم، وحين يتنزل قرآن يحكي مرآهم، ويؤيد مسعاهم، وإن كل ذلك إلا فطرة نطقوا بها، ولا يفطر الناس إلا على دين ربهم كله، حنيفية سمحة، تعلو بأصحابها إلى آفاق الخير والهدى والصلاح والعفة والطهارة، ولعل تنويها بما قد رآه الفاروق، وحين أوحى إلى نبينا ﷺ ما توافق مع فطرته، أن تحتجب نساؤه، ومعللا أنه يدخل عليه بر وفاجر.

" فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وافقت ربي في ثلاث: فقلت يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: {واتخذوا من مقام إبراهيم

مصلى} [البقرة: 125] وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنه يكلمهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة عليه، فقلت لهن: (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن)، فنزلت هذه الآية[1]

وعن أبي ذر الغفاري: إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به[2]. وهذا الذي نرى أثره في مواقفه، وحين تأيدت بقرآن متلو، لا نحني أمامه برؤوسنا، بل نشيد بأن أمتنا كان فيها عمر، وإذ تأيد بالوحي غير مرة!

* * *

وعن أنس بن مالك: لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله: {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي} الآية[3].

هذا أدب ديننا: **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلىٰ طعام غير ناظرين إناه ولٰكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ۚ إن ذٰلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم ۖ والله لا يستحي**

---

(1) صحيح البخاري: 402

(2) صحيح أبي داود، الألباني: 2962

(3) صحيح البخاري: 4791

من الحق ۚ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ۚ ذٰلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ۚ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ۚ إن ذٰلكم كان عند الله عظيما ﴾[الأحزاب: 53]!

وهذه من قواعد الأدب في محيط العلاقات الاجتماعية المتشعبة، والتي جعل الإسلام منها سياجا لطيفا؛ لحفظ علائق المروءة والعفة والصون، وحسن الأخلاق ودسامة الآداب؛ ليقوم هكذا مجتمع مري، يتلمس كل نبل، ويتأبى على كل حال، ليس يروق لمثله أن يرتع بها فيه!

وهذا أدب نستشعره، ونعيش أثره الحاني اللطيف، وحين أمر تعالى بالانصراف من بيت المضيف، وبعد الإطعام، نبلا خلقيا، وقيمة سلوكية، في فن إدارة موسوعات الآداب الاجتماعية اللطيفة، والقائم على مراعاة مشاعر المضيف، وحين قام بواجبه، إكرامه وجائزته معا، ومن ثم كان عدم الإثقال عليه بمكث آخر، ربما كان له تأثير في إدارة شؤون بيته، فكان ذلكم التوجيه القرآني الحاني الجميل: ﴿فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث﴾!!

وإذ علل القرآن الحكيم هذا بكونه كان يؤذي النبي ﷺ وكمضيف، مما يكون من شأنه أنه ينسحب إلى كل حال مماثل له، وأمكن أن يستحي كما كان من نبينا ﷺ، وعلى حد وصف القرآن المجيد، كما قال تعالى ﴿ إن ذٰلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم ﴾ ولكنه تعالى أراد أن يرد عن نبيه ﷺ، وكذا عن سائر من كان في مثل أمره، وكما قال تعالى أيضا﴿ والله لا يستحي من الحق ﴾.

* * *

وعن أنس بن مالك: بني على النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعيا فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعو، فقلت: يا نبي الله ما أجد أحدا أدعوه، قال: ارفعوا طعامكم وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله لك، فتقرى حجر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا ثلاثة من رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحياء، فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة فما أدري آخبرته أو أخبر أن القوم خرجوا فرجع، حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخلة، وأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب[1].

وفيه كرم الوفادة، وليلة وليمة عرسه ﷺ بزينب بنت جحش.

أرخى الستر بيني وبينه: وهذا تعبير ندي حني لطيف، يدلي بمشاعر السكن والألفة والمودة والرحمة ومشاعر الظلال الوارفة الهادئة الوادعة، وحين يستظل بها بيت مسلم جديد، وأن هكذا يكون عشا تتفيأ ظلاله هذه العشرة الحسنة، وبمعان فضفاضة، مما يمكن أن يحتويها قاموس المودة والرحمة، والذين كانا من جعله سبحانه وحده، سكبا في قلوب زوجين، ولما كان زواجهما ابتغاء تنشئة جيل

---

(1) صحيح البخاري: 4793

مسلم فريدا! وكما قال تعالى﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾[الروم:21].

وإذ خرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته» قالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، كيف وجدت أهلك بارك الله لك؟ فتقرى حجر نسائه كلهن، ويقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة.

وأنت تستشعر قيمة هذه التحية المباركة، وأنت أيضا تستحضر كل سلام نعمت به، وكل أمن حفلت به أيضا، وحين كان إلقاؤها بحد ذاته جامعا لمضامين السكينة والطمأنينة والراحة والإلف، وكذا حين يكون رده بمثله، كم قد خيمت هذه المعاني على طقسه المعتدل، بنسيمه العليل الأروح!

وهؤلاء هن زيجات نبينا ﷺ، لا كما يشاع، وضربا على وتر غيرة، نقبت عنها عيون ساهرة، وقت أن وجب عليها ذكر هذا الحديث الجميل، والذي ما فتيء يكون عنوانا على تلك الرابطة الوشيجة بين نبينا ﷺ وزوجاته كلهن من جانب، ومن جانب آخر دلالة على تحسس مراضيه ومشاعره وأحاسيسه ﷺ، وليلة عرسه على زينب بنت جحش. وبرهانا على ذلكم التضامن العالي في أسرة سيد والد آدم ﷺ.

فخرج حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب، وأخرى خارجه أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب: ولعل علاقة بين إرخاء الستر ونزول الحجاب، وأن الحجاب ستر كإرخائه تماما.

وليكون ذكر أن حدثا كالزواج ليس سببا موجبا لتعطيل مصالح الأمة فيها، وها هو نبينا ﷺ، يتنزل عليه حكم الحجاب، وتوا أرخى ستر بيته عليه وليلة عرسه!!! وهذا برهان آخر على أن هذه الأمة عاملة في جد، وناصبة في اجتهاد، وليس يعوق مسيرتها نحو البناء عائق، وهاك مثلا نزول آية الحجاب ليلة عرس النبي ﷺ، وهو مكلف ربانيا وحتما بإبلاغه للناس، ولو ليلة عرسه ﷺ!!! وهذا الذي حدث فعلا، وحين قال أنس بن مالك: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأهن على الناس **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي...﴾** إلى آخر الآية.

وفيه دليل على أن من أحكام الأمر أنه على الفور لا التراخي. وبدلالة فاء العاقبة، وكما قال أنس: فخرج، وما كان نبينا ﷺ ليخرج إبلاغا للناس إلا وهو يعلم فورية مقتضى الأمر الرباني الكريم.

فعن أنس بن مالك: تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي أم سليم حيسا فجعلته في تور فقالت: يا أنس، اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل له: بعثت بهذا إليك أمي وهي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله، قال: فذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول: إن هذا منا لك قليل، فقال: ضعه، ثم قال: اذهب فادع لي فلانا وفلانا وفلانا ومن لقيت، وسمى رجالا، قال: فدعوت من سمى ومن لقيت، قال: قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاث مائة قال: وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنس هات بالتور قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ليتحلق عشرة عشرة وليأكل كل إنسان مما يليه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم، قال: فقال لي: يا أنس ارفع قال: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم على نسائه ثم رجع، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، فابتدروا الباب فخرجوا كلهم، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أرخى الستر ودخل وأنا جالس في الحجرة فلم يلبث إلا يسيرا حتى خرج علي وأنزلت هذه الآيات، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأهن على الناس يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي إلى آخر الآية قال الجعد، قال أنس: أنا أحدث الناس عهدا بهذه الآيات وحجبن نساء النبي له ﷺ[1].

والشاهد مرة أخر، هو قول أنس: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأهن على الناس.

وكما أن فيه حسن مبادرة أزواجه ﷺ لتنفيذ أمر ربهن سبحانه، ودلنا عليه قوله: أنا أحدث الناس عهدا بهذه الآيات، وحجبن نساء النبي له صلى الله عليه وسلم.

---

(1) صحيح الترمذي، الألباني: 3218. التخريج: أخرجه مسلم (1428)، والترمذي (3218) واللفظ له، والنسائي (3387).

وعن أنس بن مالك: مر بنا في مسجد بني رفاعة، فسمعته يقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مر بجنبات أم سليم دخل عليها فسلم عليها، ثم قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم عروسا بزينب، فقالت لي أم سليم: لو أهدينا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية، فقلت لها: افعلي، فعمدت إلى تمر وسمن وأقط، فاتخذت حيسة في برمة، فأرسلت بها معي إليه، فانطلقت بها إليه، فقال لي: ضعها، ثم أمرني فقال: ادع لي رجالا- سماهم- وادع لي من لقيت، قال: ففعلت الذي أمرني، فرجعت فإذا البيت غاص بأهله، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم وضع يديه على تلك الحيسة وتكلم بها ما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه، ويقول لهم: اذكروا اسم الله، وليأكل كل رجل مما يليه، قال: حتى تصدعوا كلهم عنها، فخرج منهم من خرج، وبقي نفر يتحدثون، قال: وجعلت أغتم، ثم خرج النبي صلى الله عليه وسلم نحو الحجرات وخرجت في إثره، فقلت: إنهم قد ذهبوا، فرجع فدخل البيت، وأرخى الستر وإني لفي الحجرة، وهو يقول: {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق} [الأحزاب: 53]. قال أبو عثمان: قال أنس: إنه خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين[1].

وهذا برهان مساعدة أهل العرس ومعاونتهم بعضهم بعضا، وهو موجب التضامن الاجتماعي، وسبب للتكافل الرعائي الإنساني.

(1) صحيح البخاري: 5163

وكما أن فيه جم أدب أم سليم، وحين قدمت عونها، وحين استصغرت واستقلت ما قدمت، ولو كان كثيرا! وهذا له أثره الطيب في النفوس عامة، وفي نفس المستقبل بوجه أخص، وحين لم يبد عليها استكثار، فيحدث كلما نفسيا في نفسه- المستقبل- كان تحاشيه خلقا حسنا نبيلا.

وحين بعثت أم سليم بطعام إلى نبينا ﷺ ليلة عرسه بزينب بنت جحش، وإذ استقلته، وأقرأته السلام، وإذ سمى عليه ﷺ، ودعا، ثم دعا إليه، وكانوا زهاء ثلاث مائة، فسموا وأكلوا جميعا. وهذا برهان بركاته ﷺ، وسماحة نفس أم سليم، وبركة التسمية على الأكل، وحين كانت أدبا نتعلمه على موائد الطعام، وفي كل شأننا، ولأنه داعي البركة، ومحط لمظانها، وكما أنه دال على ما للتكافل الاجتماعي من قيمة في شد أزر الأمة بعضها البعض، وحين يكون عرفا متبادلا.

فعمدت إلى تمر وسمن وأقط: وهذا هو طعام وليمة عرسه على زينب! برهان بساطة عزت، وموجب سنة وجبت- البساطة-.

وهذه البساطة هي أيضا ما جاء النص عليها في موضع آخر من سننه ﷺ، وإذ تعد جنبا إلى أخواتها من آداب ديننا في الطعام منهجا اقتصاديا رحبا، وإذ به يكون سببا ضافيا مليحا حميدا للوقوف على مشكلات مزمنة تعاني من اقتصادات عالمنا المعاصر، ولما أحسب أنها وإذ تحل بجرة قلم واحدة من ديننا، وحين كان منه قوله ﷺ من حديث المقدام بن معدي كرب: ما ملأ آدمي وعاء شرا

من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه[1].

وإذ توارد الناس يوم وليمته ﷺ على زينب بنت جحش، حتى أكلوا جميعا، وليس يدرى أكان الطعام أكثر قبل أن يأكلوا أو بعده!!! وعلى حد قول أنس: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت. وهذه بركات نبينا ﷺ، وبركات سماحة أم سليم، وبركات التسمية على الطعام، وكذا أن يأكل المرء مما يليه، ومنه كثرة الأيدي على الطعام، ولأنه: طعام الرجل يكفي رجلين، وطعام رجلين يكفي أربعة، وطعام أربعة يكفي ثمانية[2].

وهكذا في متتابعة هندسية بديعة غير متناهية، رأيت أثرها، واسترَوحت بركتها وعطاءها، وأضعافا أخر مضاعفة! وحين كانت على أضعاف مضاعفة من تحقيق للدخل القومي المحلي، وبصورة غير مباشرة، لاقتصاد أمة كان يقودها الخير والصلاح والفلاح والهدى!

وأعد هذا منهجا جديد فريدا في إدارة الاقتصاد، وحين تتضاعف المنفعة الاقتصادية للسلعة، وبتكاثر الأيدي على موائد الطعام!!

* * *

﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾: وهذه آية الحجاب المشهورة، وقد نزلت ليلة عرسه ﷺ بزينب بنت جحش. وقد فرض الله تعالى

---

(1) صحيح الترمذي، الألباني: 2380. التخريج: أخرجه الترمذي (2380) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (6769)، وابن ماجه (3349)، وأحمد (17186).

(2) صحيح مسلم: 2059

الحجاب، وزكاه في أمثل صورة، يمكن أن يتخيلها امرؤ، وحين كان الحجاب سببا لأبلغ درجات طهارة القلوب، ولأن طهارة القلب مؤذنة لطهارة البدن جميعا، وهذا ما حدا بنزول قرآن هاد لطيف، يتلمس آفاق الصلاح، فيقعدها ويؤسسها، ويتنكب أسباب الفساد فيمقتها ويعطلها ويدرؤها ويبطلها.

نحن نريد أن نقف حيث وقف القرآن المجيد! وحين كان من سبب فرض الحجاب أنه: ﴿ ذٰلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾! وإذ كان من مفهوم المخالفة أن عدم الحجاب هو فساد القلوب، ومن ركام رجس حل عليها! ولهذا الإيجاز نقول: سمعنا وأطعنا! ولأنه تعالى أثنى على من كان هذا وصفه وشيمته ونعته وسمته، وحين قال تعالى **﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولٰئك هم المفلحون﴾**[النور:51]. ولأن كل امرئ ولاشك ترنو نفسه أن يكون عاليا، وتهفو كذلك أن تضحى أسرته هنيئة مريئة مصونة مكرمة مطهرة، وكان الحجاب من أساس ذلكم!

* * *

وإذ قالت عائشة رضي الله عنها: فأرسل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم أر امرأة قط خيرا في الدين من زينب. وأتقى لله وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالا لنفسها في العمل الذي تصدق به، وتقرب به إلى الله تعالى، ما عدا سورة من

حدة كانت فيها، تسرع منها الفيئة[1]. وهذه رسالة عائشة إلى الطارقين على وتر الغيرة! وليجدوا ذلكم الانفساح الجلي عما أكنته صدور أمهات المؤمنين تجاه بعضهن بعضا سماحة، تند وصفا، ونبلا عاليا ساميا رفيعا عز نعتا.

وإذ قالت عائشة أم المؤمنين: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: يا زينب، ما علمت؟ ما رأيت؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرا، قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع[2]. وهذا ثناء زينب بنت جحش على عائشة، يوم الإفك، وهذه تربية بيت النبوة، سبيلا يقتدى، وأسوة ترتجى.

وإذ قال رسول الله ﷺ: أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا، قالت- عائشة- فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا، قالت: فكانت أطولنا يدا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق[3]. وهذا من أعلام نبوة نبينا محمد ﷺ، وفيه ثناء بالإطراء، وعلى زينب رضي الله تعالى عنها، ولما عرف عنها من سعة الكرم والجود! وأمام أخواتها زوجات نبينا ﷺ، ولم يتبد منهن تأفف، ولم يظهر على محياهن غيرة، من نوع تلك التي يضرب بها الطارقون على وترها حينا من بعد حين آخر!

قالت: فكنا نتطاول أينا أطول يدا، قالت: فكانت زينب: وهذا باستعمال أساليب الكنايات، مما يضفي على النظم بلاغته وطلاوته؛ ولأن قوله ﷺ: أسرعكن لحوقا بي أطولكن يدا، فإنما هو كناية عن كرم! ولأن الكريم يمد يده عند عطائه؛ بذلا وجودا وسماحة نفس! وهو تعبير ندي أبلغ ما يتصور من بيان!

(1) صحيح مسلم: 2442
(2) صحيح البخاري:2661
(3) صحيح مسلم: 2452

وحين نتصور تواضعا أرخى على النص سدوله بتجسيم أحاطه بتصوير مادي، وكأنما نراه رأي العين ماثلا أمامنا!: فهذا معط ويمد يده! تواضع قامة، ولين جانب؛ ليأخذها المعطي، وهو إذ تراه واقفا محله، كريما أبيا! وإنما نحن نروح إلى حيث عنده!، وهذا معطى، وهو إذ مسيج بسياج الإكرام، وحين مددنا نحن إليه الأيدي! ويحسن تصور هذا، ولأنه العكس به تتمايز الأضداد!

وبالفعل كن يتطاولن، وحين سبقتهن زينب بنت جحش إلى ربها سبحانه، وإذ علمن حينها من المتأول لعطائها وبرها وإنفاقها! وإذ كانت هي زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنهن جميعهن- أمهات المؤمنين-!

ترتيب المصادر حسب ورودها في الكتاب

1- السيرة النبوية، ابن هشام الحميري.

2- الدر المنثور، جلال الدين السيوطي.

3- صحيح البخاري.

4- أسد الغابة، ابن الأثير.

5- صحيح النسائي، الألباني.

6- تفسير ابن كثير، ابن كثير.

7- زاد المسير، ابن الجوزي.

8- تفسير القرطبي، القرطبي.

9- عمدة التفسير، أحمد شاكر.

10- جامع البيان، ابن جرير الطبري.

11- الحلية، أبو نعيم.

12- فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي.

13- مجمع الزوائد، الهيثمي.

14- السيرة النبوية، ابن كثير.

15- البداية والنهاية، ابن كثير.

16- صحيح الترغيب، الألباني.

17- المجموع، النووي.

18- صحيح ابن حبان، ابن حبان.

19- فقه السيرة، الألباني.

20-المعجم الكبير، الطبراني.

21-تفسير النسفي، النسفي.

22-تاريخ الطبري، الطبري.

23-الكامل في التاريخ، ابن الأثير.

24-الثقات، ابن حبان.

25-السلسلة الصحيحة، الألباني.

26-مدارج السالكين، ابن القيم.

27-الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني.

28-كنز العمال، المتقي الهندي.

29-العلل الكبير، البخاري.

30-السنن الكبرى للبيهقي.

31- ضعيف أبي داود، الألباني.

32- الصحيح المسند، الوادعي.

33-تاريخ الإسلام، الذهبي.

34-تخريج شرح السنة، شعيب الأرناؤوط.

35-تخريج زاد المعاد، شعيب الأرناؤوط.

36-الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني.

37- مسند أحمد.

38-ضعيف ابن ماجه، الألباني.

39-الإيمان، ابن منده.

40-الجامع الصغير، السيوطي.

41-المعجم الأوسط، الطبراني.

42-عمدة القاري، العيني.

43-نخب الافكار، العيني.

44-صحيح الترمذي، الألباني.

45-فتح الباري، ابن حجر العسقلاني.

46-العلل الكبير، البخاري.

47-أحاديث معلة، الوادعي.

48-الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر.

49-الشكر لله، ابن أبي الدنيا.

50-الطبقات الكبرى، محمد بن سعد.

51-المنتظم، ابن الجوزي.

52-المستدرك على الصحيحين، الحاكم.

53-صحيح النسائي، الألباني.

54-إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري.

55-تفسير الرازي، الرازي.

56-غاية المقصد في زوائد المسند، الهيثمي.

57-جامع العلوم والحكم، ابن رجب.

58-سنن الدارمي.

59-حلية الأولياء: أبو نعيم.

60-إرواء الغليل، الألباني.

61-عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس.

62-تفسير البيضاوي، البيضاوي.

63-المصنف، عبد الرزاق الصنعاني.

64-فقه السيرة للغزالي.

65-فتح الغفار، الرباعي.

66-إمتاع الأسماع، المقريزي.

67-حادي الأرواح، ابن القيم.

68-التوحيد، ابن خزيمة.

69-شرح البخاري، لابن الملقن.

70-المجموع، محي الدين النووي.

71-الاستذكار، ابن عبد البر.

72-كتاب الأوائل، الطبراني.

73-الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي.

74-تفسير البغوي، البغوي.

75-صحيح الجامع، الألباني.

76-المعجم الكبير، الطبراني.

77-السيرة الحلبية، الحلبي.

78-الأغانى، أبو الفرج الأصفهاني.

79-سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي.

80-الإصابة، ابن حجر.

81-تفسير القرآن، علي بن المديني.

82-إتحاف الخيرة المهرة، البوصيري.

83-غاية المقصد فى زوائد المسند، الهيثمي.

84-عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس.

85-تفسير البيضاوي، البيضاوي.

86-جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير، جلال الدين السيوطي.

87-أحكام القرآن، ابن العربي.

88-سنن الدارقطني، الدارقطني.

89-كتاب الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، الساعاتي.

90-البدور السافرة، السيوطي.

91-نصب الراية الزيلعي.

92-الفتوحات الربانية، ابن حجر العسقلاني.

93-جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن قيم الجوزية.

الفهرس